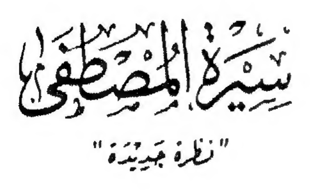
سيرة المصطفى

"نظرة جديدة"

تأليف
هاشم معروف الحسني

دار التعارف للمطبوعات
بيروت


سيرة المصطفى
"نظرة جديدة"

هاشم معروف الحسني

سيرة المصطفى

"نظرة جديدة"

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م

دار التعارف للمطبوعات

الادارة والمعرض : حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنى
تلفون : ٨٣٧٨٥٧ ـ ٨٢٥٧٥٨ ـ ٨٢٣٦٨٥
صندوق البريد : ٨٦٠١ ـ ١١ = ٦٤٣ ـ ١١

السيد هاشم معروف الحسني

سيرة نقيّة، وفكر نقيّ...

نقاء سيرته، ونقاء فكره حقيقتان تواكبان اسمه: حياً وميتاً، حاضراً وغائباً...

ولد السيد هاشم معروف الحسني عام ١٩١٩ في قرية جناتا (قضاء صور ـ لبنان الجنوبي) وفي بيت من بيوت الصلاح والتقوى في جبل عامل، وفي رعاية والده السيد معروف، ذلك الرجل الوقور وقار المؤمن، الوديع وداعة الناس البسطاء، الطيب كطيبة الأرض التي كانت تعطيه من خيرها الوفير بقدر ما يعطيها من جهده الجاهد، وصبره المحتسب، وبركة يديه الخيّرتين.. في ظل هذه المزايا الكريمة لوالده السيد معروف، نشأ السيد هاشم نشأة كريمة اكسبته منذ الفتوّة وقار الرجال، ووداعة المؤمنين، وطيبة الناس الطيّبين كأرضهم جبل عامل.. في ظل هذه المزايا بالذات تمرّس السيد هاشم بأخلاق التواضع والصدق وعفّة اليد واللسان والضمير وببساطة العيش رغم انه عاش فتوّته وشبابه في بيت ميسور الحال موفور النعمة..

ويشهد الذين عايشوه أو عاصروه في النجف الاشرف وهو يطلب علم الدين والشريعة هناك، ان هذه الاخلاق نفسها، وهذه العفة نفسها، وهذه البساطة الطيبة نفسها، ظلت من مميزاته المرموقة التي كانت تكسبه احترام اساتذته وزملائه واصدقائه وتلامذته، بل كانت تمنحه حبهم جميعا.

ونستطيع القول جازمين بأن هذه المميزات التي كانت تزداد ترسّخا في شخصية السيد هاشم، طول اعوام الدراسة في النجف الاشرف، هي اساس ما عُرف به ايام طلب العلم هناك من مثابرة مدهشة على الدرس والمدارسة، ومن انكباب نادر المثال على الكتاب لا تلهيه عنه مغريات المجالس العامرة، يعقدها ايام العطل الاسبوعية، زملاؤه واصدقاؤه ترفيهاً لنفوسهم من عناء الدرس والتدريس . . . هذا لا يعني ان السيد هاشم كان زمّيتاً ، أو انطوائياً ، أو متحرِّجا من مجالس الانس البريئة، أو كان كزّ المزاج لا تُطيب له مؤانسة الاصدقاء والزُملاء. . بل كان أمره على عكس ذلك: كان ألوفاً سريع الالفة طيب المؤالفة، تطرب نفسه للقاء الاصدقاء، يهتزُّ جسده كله سروراً ومرحاً للفكاهة اللاذعة الناقدة ويضحك لها مِلْء صدره، بل كثيرا ما كان هو يبادر بها ويرسلها عفوية ضاحكة محببة. . غير انه لم يَدَعْ لنفسه ان تسترسل في الاستمتاع بهذا كله، كيلا يطغى على استمتاعه الروحي بتحصيل المعرفة والعلم. . لذا كان حريصا على ان يقيم التوازن بين هذا وذاك في حياته اليومية، وكان ناجحاً جداً في إقامة هذا التوازن بالفعل. . .

السيد هاشم، طالب العلم، كان نموذجاً محترماً للطالب المنظَّم التفكير والعمل. . كان تنظيم عمله اليومي يتناسب مع نَسَق تفكيره الدقيق التنظيم. . فإنه بالرغم من تعدُّد عمله اليومي، كمياً ونوعياً، كان يبدو صافي الذهن، هادىء الاعصاب، متهلّل الوجه، فكأنه يعمل عملاً واحداً سهلاً. . مرجع هذه الظاهرة فيه هو قدرته الفائقة على تنظيم فكره وعمله. . هذه القدرة كانت له عوناً على إنجاز اعماله اليومية كاملة ومتقنة دون أن ترهقه ذهنياً ولا جسدياً. . بهذا القدر من حسن تصريفه الأمور كانت له الطاقة المدهشة في أن يحضر في اليوم الواحد أكثر من حلقة دراسية، وأكثر من حلقة مذاكرة، وأن يمارس التدريس لأكثر من حلقة وكتاب. . غير أن الأهم من كل ذلك انه كان يتعامل مع زملائه وتلامذته كأنه هو المستفيد دائماً منهم في حين كان هو يفيد أكثر مما يستفيد. . من هنا كان السيد هاشم نموذجاً في التواضع بقدر ما كان نموذجاً في تنظيم عمله وتفكيره. .

كل اخلاقه ومزاياه هذه سواء ما اكتسبه في نشأته برعاية والده السيد معروف، أم ما ترسّخ فيه منها خلال طلبه العلم بالنَّجف الاشرف، هي جميعا اخذت تبرز وتتوهّج، أكثر فأكثر، منذ انتهت مرحلة طلب العلم، وعاد الى جبل عامل ليمارس مهمّته كرجل دين.. في مرحلته الجديدة تغيرت كل الظروف السابقة، وجاءت ظروف مختلفة جداً.. وتبدلت شروط الحياة وشروط العمل، بل تبدَّلت حتى شروط التفكير.. بمعنى ان شخصيته الانسانية اصبحت عرضة لأن تتكوّن من جديد بصيغة جديدة. وصار من الممكن والمحتمل أن تهتزّ شخصية طالب العلم حين ينتقل فورا الى مرحلة عليه أن يواجه فيها الحياة والناس والأشياء والقضايا بوجه جديد، بشخصية جديدة، بمواقف جديدة، بعادات جديدة، بمزاج جديد الخ، الخ...

وهنا الامتحان الكبير، العسير، الشاق... هنا التحوُّل من شخصية طالب العلم الى شخصية رجل الدين بكل ما تحتمل شخصية رجل الدين من صفات وصيغ عيش وتفكير، ومن اشكال تعامل، مع الناس، مع الواقع الجديد... إنه التحول الصعب. فكيف إذن واجه السيد هاشم ظروفه الجديدة، واقعه الجديد... هل اهتزت شخصيته الطالبية النموذجية امام شخصية رجل الدين التي كان عليه إن يتقمّصها بسرعة دون اختلال؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع تحتشد في الذهن .. مع أن سيرة السيد هاشم النقية، وفكره النقي، يقدمان لنا الجواب عن كل هذه الاسئلة بارتياح دون مشقة.. فقد بقيا على نقائهما دون انكسار.. وبقي السيد هاشم الطالب النموذجي، هو نفسه السيد هاشم العالم رجل الدين المرتجى.. بل أصبح اكثر نموذجية، اي اكثر توهجا، أي اكثر حضورا في ظروفه الجديدة منه في ظروفه السابقة كطالب علم...

كل المزايا التي عرفناها في السيد هاشم طالب العلم في النجف الاشرف، اثبتت حضورها الابهى في العلامة السيد هاشم رجل الدين في جبل عامل:

أخلاق التواضع والصدق وعفة اليد واللسان والضمير وبساطة العيش

رغم وَفْرة اسباب العيش لديه. . كل هذه الاخلاق والصفات فيه، برزت عنده بصيغتها الجديدة منذ بدأ حياته الجديدة كرجل دين.

لكن هذه الاخلاق والصفات ذاتها اتخذت صيغتها الجديدة مسيّجة بسياج حصين منيع من الورع بأعمق معانيه وأكثرها شمولية، إنه الورع الذي يصون صاحبه لا من مقاربة المحرّمات الدينية التعبُدية وحدها، بل يصونه ـ أولاً وآخراً ـ من مقاربة المحرّمات التعامليّة بخاصة: دينية، واجتماعية، وانسانية ووطنية. . إن هذا النوع التعاملي من الورع، هو ما يضع الفارق الحاسم بين الورع العادي والاستثنائي، أو بين الورع السطحي والعمقي، أو بين الورع الزائف والحقيقي. .

ورع العلّامة السيد هاشم معروف كان ورعاً ذا طبيعة شمولية، أولاً، وكان ـ الى ذلك ـ ورعاً استثنائياً وعُمقياً وحقيقياً. . نقول هذا لا اعتباطا ولا امتداحا. . وإنما نقوله اعتقادا واستنادا الى الواقع والشاهد والملموس من سيرته النقية. . فنحن نعرف من سيرته هذه أنه:

اولا : كان له من صدق إيمانه الديني حصانة قوية وراسخة تمنع عنه الوقوع في شرك المغريات الآثمة مهما تكن عليه من قوة الاغراء وسحره. . وهذا هو الورع الديني. .

ثانيا: كان له من ادراكه السليم وحدسه الصائب ما يعصمه من كلا الشّرّين: شر العزلة المطلقة عن الناس دون تمييز بعضهم من بعض، وشر الاندماج المطلق بالناس دون الحيطة والحذر من بعضهم دون بعض. بفضل هذه العصمة أمكنه اجتناب اهل الشر منهم، مع الافادة من صلته بالخيّرين فيهم. . وهذا الورع الاجتماعي.

ثالثاً: كان من سماحة القلب ونبل العاطفة ما يضعه قريباً من الناس الضعفاء والبؤساء والمعذّبين. . بفضل هذا القرب الحميم استطاع أن يبلْسم بعض الجراح قدر ما لديه من الممكنات. . وهذا هو الورع الانساني. .

رابعاً: كان له من شرف العقل ونزاهة الضمير ما يبعده عن اهل

الشبهات الذين لا يتورّعون عن بيع الوطن والمواطنين لقاء مكاسب شخصية. . بفضل هذا الشرف والنزاهة فيه كان قادرا ان يمتنع عن الانزلاق الى المنحدرات الموبوءة. . وهذا هو الورع الوطني. .

دخل العلاّمة السيد هاشم معروف الحسني عالم الوظيفة كقاضٍ في المحاكم الشرعية الجعفرية في لبنان. . لماذا فعل ذلك؟

نقول واثقين إنه لم يدخل عالم الوظيفة هذه إلا عن ضرورة دفعته الى ذلك. . هذه الضرورة لا يستطيع ان يدركها ويدرك قدرها إلا من عرف ظروف العيش التي يعانيها رجال الدين في جبل عامل، خصوصا منهم اهل العفّة والتواضع وصدق القول والعمل. . هؤلاء يعزّ عليهم أن تضطرهم ظروف العيش احيانا الى الخروج ـ ولو مقدار شعرة ـ عن اخلاقية العفة والتواضع وآلصدق. . من هذا الوجه المشروع اضطر السيد هاشم ان يتجنّب حالة الخروج عن أخلاقيته الاصيلة فدخل عالم الوظيفة كارهاً لا مختاراً . . لكنه فعل حسناً . . لقد أثبت ان الوظيفة ليست شرّاً بذاتها، وإنما هي تتشرّف بمن يصاحبها بشرفه، ويلطّخها بالدنس من يلصق بها دنس يده وضميره. . لقد شرّفها السيد هاشم بالفعل: شرّفها بنزاهة يده وشرّف ضميره، وشرّفها بورعه الصارم. . وبسيرته النقية.

ولقد اثبت السيد هاشم ايضا خطأ الزعم أن الغَرَقْ في حياة الناس أو حياة الوظيفة يلغيّ فرص النشاط الفكري. أي يلغي ممكنات العمل في مجالات الفكر والعلم. .

إن سيرة السيد هاشم وفكره يقولان: لا. . بل إن الاتصال بالناس، مهما يكن واسعا وعميقا يكن باعثاً لنشاط العقل، ومصدرا لاغتناء الفكر، ومُلهماً للعمل والابداع. . فقد برهن السيد هاشم، عملياً، أن فرص الانتاج العقلي اكثر ما تكون توفّراً حين يكون العالم والمفكّر بين الناس يتعامل معهم ويتعرف احتياجات عقولهم، ويتفهّم قضاياهم ومشكلات حياتهم. . برهن على ذلك بنشاطه الخصب منذ اخذت تتعدّد وتتشابك علاقاته بالناس، ثم منذ اخذت

مهمات القضاء الشرعي تزدحم وتتكاثر عليه في المحكمة وفي البيت على حد سواء.

وبعد، فليس اقوى دلالة على السيد هاشم معروف الحسني من مؤلفاته العلمية والفكرية.. مؤلفاته وحدها تقول لكم أية سيرة نقيّة، وأي فكر نقيّ، ترك لنا فقيدنا الكبير السيد هاشم معروف الحسني.

صديق المؤلف

السيد هاشم معروف الحسني : إنساناً وباحثاً إسلامياً

الانسان والباحث التقيا في السيد هاشم معروف حتى قبل أن أصبح السيد واحداً من أعلام المؤلفين الباحثين . . . التقى فيه الانسان والباحث ليتكون منهما ـ متلازمين متكاملين ـ هذا البنيان غير العادي: بنيانه الدينامي، العصبي، الخشن الاليف، الانيس، الرومانسي. . ورومانسيّته تكمن في ايمانه وتدينّه، وهي تبلغ بحرارتها وصفائها مبلغ الحالة التي اسمها: الورع. . لكن اسمها في حالة السيد هاشم معروف الحسني خصوصا: الورع العظيم. .

الانسان باحثاً : انسان يطلب الحقيقة . . والباحث انساناً: باحث يعشق الحقيقة. . والسيد هاشم: انساناً وباحثاً، هو: من عرفناه يطلب الحقيقة بشعور مرهف بالعشق وبالصدق. . أقول: الصدق، لأنه لا عشق إن لم يكن الصدق. . ومنذ عرفت السيد هاشم في علاقات البحث والمدارسة في النجف حتى وقف قلمه وقلبه، عرفته يبحث عن الحقيقة بعشق وصدق، لكن ايضا بمنهجيّة منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة. . .

لا بالحدس الصُوفي الغيبي حَدَسْتُ فيه هذه المميزة الباهرة. . كان حدسي واقعيا جمعت عناصره الواقعية من تفاصيل كنت أرصدها في يوميات السيد هاشم الدراسية، حتى كان ذلك اليوم السعيد عام ١٩٣٦ . . وهو السعيد بحق لأنني من ذلك اليوم حتى آخر ايام دراستي في النجف وجدت من حلاوة المعرفة ما لم يكن متيسراً لي أن أجد مثله من قَبل. . لم يكن السيد هاشم واحداً من حلقة الاصدقاء لنا، ولا واحداً من زملاء الدراسة. . لكنّا جميعا كنا نلحظ كيف

يستخدم وقته بتنظيم بالغ الدقة، ونلحظ أن وقته المُنظم بهذه الدقة موقوف على الدرس والمدارسة.. في حين كان وقتنا يتوزع على مشاغل متعددة متنوعة.. في ذلك العام بالذات (١٩٣٦) كنت قررت قراري الاخير: أن أبرمج وقتي ودراستي برمجة صارمة، وان أمسح من خارطة يومياتي كل شاغل يدخلها غريبا عن برنامجي الذي رسمت... لكن هذا الالتزام كان يقتضي - بالضرورة - التزاما آخر لا غنى عنه في نظام الدراسة النجفية وقتئذٍ... أعني كان يقتضي البحث عن رفيق يستطيع أن يلتزم معي هذا الالتزام، أو عن رفيق يكون له برنامجه الدراسي الصارم، الذي قررت ان يكون لي.. اي رفيق للمدارسة والمباحثة في موضوعات ومسائل علمية كان علينا استيعابها ذاتيا خارج حلقات الدروس مع الاساتذة. وكان قد ثبت عندي بالتجربة، خلال سنوات الدراسة هناك، ان هذا الشكل من الممارسة الذاتية في عملية التحصيل، هو الاجدى في كسب المعرفة، وهو الاكثر قدرة على تكوين الذاكرة المعرفية الغنية، وعلى تحقيق استقلالية الشخصية العلمية للدارسين... قلت: الممارسة الذاتية لأنها تعتمد لدى كل من طرفيها على التحضير الذاتي الجاد، يحفزه، الى جانب حب المعرفة، حب التكافؤ العلمي مع الطرف الاخر، واحيانا: حب التفوّق.

كان لا بد أن أبحث عن هذا الرفيق، وكان لا بد إن اقتحم اليه كل هذه العوائق... وبعد رصد طويل جاءني ذلك الحدس الواقعي الذي حدستُ في السيد هاشم معروف الحسني.. وجاءتني اللحظة السعيدة ووجدته كان اختياري مفاجأة له، وكان فرحه بالاختيار مفاجأة لي، وتقاسمنا بالتكافؤ فرح المفاجأة.. وبقي الفرح قسمة بيننا بالتكافؤ ايضا على مدى زمن الرفقة السعيدة هذه التي امتدت حتى عام ١٩٣٨، أي حتى آخر يوم من عمر دراستي في النجف.. كان فرحنا يزداد عمقا كلما ازددنا شعوراً بأن هذه الرفقة تعطينا المعرفة بقدر ما كنا نعطيها من جهد مشترك.

باعتزاز أقول الآن إن رفقة المدارسة والمباحثة مع السيد هاشم، اعطتني نعمة الفَرَحَيْنِ معا: فرح الصداقة، وفرح المعرفة... حتى الصداقة هنا كانت علاقة المعرفة تُرْبَتَها وجذرها اللذين منجاها ذلك الصفاء والنقاء... والمعرفة

ذاتها هنا كان لها تربتها وجذرها الكامنان في أن السيد هاشم معروف الحسني له شخصية الانسان الباحث، او الباحث الانسان، أو طالب الحقيقة بشعور مرهف بالعشق والصدق.. من هنا كان للمعرفة التي نكتسبها معا، مدارسة ومباحثة، معنى آخر وطعم آخر. كان لها معنى الاقتحام والمغامرة، ثم كان لها طعم الكشف والاكتشاف..

برنامج المدارسة والمباحثة الذي وضعناه موضع التنفيذ فورا، هو نفسه كان شكلا من الاقتحام والمغامرة.. لقد قرّرنا أن نلتزم مُدارسة بعض الكتب الفقهية/ الاصولية غير الموضوعة للدرس وقتئذٍ في النجف، ككتاب «بُلغة الفقيه» مثلا، ومدارسة بعض الموضوعات الصعبة في الكتاب المعتمد والأهم لدراسة اصول الفقه هناك، كتاب «كفاية الأصول» للأخوند (الملا كاظم الخراساني) ، كموضوع «مقدمة الواجب هل هي واجبة»، وموضوع «الأمر بالشيء، هل يقتضي النهي عن ضدّه؟»

لصعوبة في النص كانت الرهبة تسيطر على الطلبة حين تصل بهم الدراسة في كتاب «الكفاية» الى هذين الموضوعين بالاخص، حتى مع حضورهم حلقات الدروس على كبار الاساتذة.. فكيف إذن يقتحمها طالبان وحدهما دون الحضور في حلقات الدروس أي دون معرفة الاساتذة..

لقد اقتحمنا بالفعل، واخترقنا سطوة الرهبة التقليدية.. وكان السيد هاشم معروف، بدأبه العظيم، وبإصراره على طلب الحقيقة بلهفة العاشق، يزيدني ثقة بجدوى الاقتحام، ويزيدني ـ بذلك توْقاً الى متابعة الجهد الطموح للكشف المعرفي بشجاعة تشبه المغامرة..

الانسان والباحث اللذان كأنهما السيد هاشم معروف الحسني، بقيا معا ـ متلازمين متكاملين ـ يرهفان رومانسيته الايمانية، ويؤكدان فيه انسانية الباحث عاشق الحقيقة بصدق.. تقيا هكذا مدة المرحلة الدراسية «في النجف» ثم تقيا بصورة أغنى وابهى، في مرحلته الأخرى، أي مرحلة الممارسة العملية المباشرة لصفته كرجل علم ودين، في الوطن، في جبل عامل من لبنان.. كنا افترقنا في

هذه المرحلة، لكن ظل السيد هاشم معروف حقيقة نامية نضرة بين أنضر ما غرسته النجف في حياتي من حقائق نبيلة لن يصيبها الذبول ابدا.. كنا افترقنا في هذه المرحلة، لكن لم يفارقني الحنين الى أن أعرف كيف تصير علاقة الانسان والباحث بشخصيته الجديدة: كرجل علم ودين!.. ظل الحنين يتجدد ولا ينقطع، حتى رأيت كتبه تصدر تباعا، وقرأت معظمها، واطمأننت.. أقول: اطمأننت، ولا أزيد.. فالاطمئنان هنا عندي يُغني عن الكلام الكثير، لأنه يعني عندي أن جذوة العشق للحقيقة، أي لمقاربة الحقيقة، أي لاقتحام الصعاب اليها، والمغامرة حتى الوصول، هي لا تزال تلك الجذوة التي عَرَفْتُ من قبل، بل تحولت الى لهب يتأجج، الى مصابيح تتوهج.. وكما عرفت السيد هاشم معروف، في النجف، طالبا يبحث عن الحقيقة بعشق هو الصدق، لكن ايضا بمنهجية منضبطة ومنفتحة على كل جهات الحقيقة، هكذا وجدت السيد هاشم ذاته، وأفضل منه، في كل واحد من مؤلفاته الاربعة والعشرون المطبوعة حتى الآن.. وجدته في المؤلفات ذلك الذي يُقبل على البحث بشوق العاشق، وذلك الذي يقتحم الصعاب بعزم المغامر، وذلك الذي لا تعرفه حماسة العاشق ولا عزيمة المقتحم عن الانصياع الى منهجيّته المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة..

إذا استقصينا المؤلفات الاربعة والعشرون واستعرضنا الموضوعات التي تعالجها المؤلفات، وجدناها نوعين: نوعا يطرق ابوابا للبحث مطروقة ومألوفة، مثل: «عقيدة الشيعة الامامية» و«سيرة المصطفى» (السيرة النبوية) و«سيرة الأئمة الاثني عشر» و«الحديث والمحدّثون» و«تاريخ الفقه الجعفري».. ونوعا آخر يدخل في باب الاختصاص التشريعي والحقوقي، أو الفكري والنظري، وهذا باب له طابع البحث الاختصاصي العلمي أو الفكري، ومن هذا النوع كتبه التالية: «المبادىء العامة للفقه الجعفري» و«نظرية العقد في الفقه الجعفري» و«المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري» و«الولاية والشفعة والاجارة في الفقه الاسلامي» و«الوصية والوقف والارث من الاحوال الشخصية في الفقه الاسلامي» و«الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة» و«بين التصوف والتشيع» الخ...

لنقرأ ـ أولا ـ في مؤلفات النـوع الأول. . هنا نجـد السيد هـاشم معروف يكتب موضوعه كمن يدخل بابا غير مطروق وغير مـألوف. . هنـا نجده مقتحـماً مقداماً، لأنه واثق أنْ سيضيف جديدا الى الموضوع، أنْ سيقول شيئا يُضفي على المعالجة طابعه هو بالذات. . وهو نفسه يسجّل هذا الموقف الاقتحـامي في عنوان كتابه «سيرة المصطفى» حين يضع تحت العنوان بحرف كبير: «نظرة جـديدة». . وتسـأل أنت: مـا عسـاه يكتب جديـدا أو ينظر نـظرة جديـدة في سيرة النبي. . وأنت تبحث في الكتاب نفسه عن النظرة الجديدة. . وتجدها. . لكن، لن تجدها في اسلوب الكتابة أو أسلوب التأليف. . فلا جديد هنا. . إنما هي تفـاجئك مـذ تبدأ القراءة. . تفاجئك كامنة في تلك المنهجيـة ذاتها التي عـرفناهـا قبل. . أعني المنهجية المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة. . لنقرأ من بداية الكتاب. . فهنـا «تمهيد» يفتتحـه السيد هـاشم بهذا الكـلام: «يحـاول فـريق من الكتّـاب، القدامى والمحدثين، أن يصوّروا العرب قبل الاسلام وكأنـه بناء أصيبَ بـزلزال شديد زعزعه من أساسه، فإذا كل شيء فيه غير قـائم في محله، وأصبح الـذئب راعيا والجائر قاضيـا، والمجرم سعيـدا، والصالـح محرومـا، والعادات تتحكم في مصيرهم وتجرُّهم الى الفناء والدمار. . قد تمادى انسان ذلـك العصر في الفجـور والطغيان ـ عـلى حد زعمهم ـ الى الاستهتـار بالقيم ومحـاربة الفضيلة، وتعـاطى استعمال الربا الى حدود الاغتصـاب والسلب، واستحوذ عليـه الطمـع الجامـح والجشـع والنهم وبلغت بـه القسـوة الى حـدود وأْد البنات وقتـل الأولاد . . ومضى هؤلاء في تجريد العرب من جميع القيم حتى من إنسانيتهم، فقالـوا: لقد تباهى العربي بالشجاعة والجود والانفة، وافتخر على سواه من أبناء الأمم الواقعة على حدود منطقته، وبرزت هذه الصفـات في حياة الانسـان العربي، ولكن بعـد أن أساء استعمالها في المحل المناسب، عادت وبالاً عليه، فتحولت شجاعتـه الى الفتك بالابرياء، وجوده الى اسراف وتبذير، وأنفته الى حمية جاهلية، وذكاؤه الى صراع وايجاد الوسائل التي تهيّىء له ارتكاب الجرائم وتوفّر له اشباع شهـواته » .

يسترسل السيـد هاشم هكـذا في عرض الصـور البشعة لعـرب مـا قبـل الاسـلام، كما يتصـورها اولئـك الكتّاب حتى يستنفـذ معظم مـا كتبـوه في هـذا الصدد. . وحينئذ يقول موقفه من هذا كله: فلنقرأ موقفه:

«.. وفي عقيدتي أن هؤلاء الذين حاولوا أن يجعلوا من العرب في جاهليتهم الأولى والثانية لا تشبه إلا الوحوش الضارية في متاهات الأحراش والغابات، قد تخطّوا الواقع في احكامهم الى حدود الجور، وبالغوا في تجريحهم الى حدود الغلوّ والاسراف، ذلك لأن الباحث في تاريخهم لا يجد اكثر من بعض الفوارق بينهم، وبين غيرهم من الأمم كالفرس والرومان وغيرهما».. وهنا ينسب السيد تلك الفوارق القليلة الى «طبيعة الصحراء القاسية» من حيث كونها لا توفر لسكانها اسباب الاستقرار التي تستدعي التطور الحضاري.. ثم يتجاوز هذا العامل الطبيعي السلبي ليعرض مقابل ذلك جملة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت عوامل ايجابية ساعدت عرب ما قبل الاسلام على الدخول في ظروف التطور والاستفادة من اشكال التطور الحضاري الشائعة وقتئذٍ في العالم المحيط بهم والمتعامل معهم...

يَستوقفنا هنا، خلال هذا النقاش الصدامي، أمران اثنان: أولهما، تصدي السيد هاشم معروف للرّد على ذلك الموقف الاعتباطي «اللاتاريخي» حيال عرب ما قبل الاسلام.. وأهمية المسألة هنا أن التصدي للرّد على هذا الموقف يأتي هذه المرة من موقعه الاسلامي نفسه، لا من موقعه القومي، فالسيد هاشم معروف يردّ هنا كمسلم مؤمن بالاسلام حقاً وصدقاً. وهو من هذا الموقع ذاته يتصدى لدفع تلك الخدعة الشائعة عن تاريخ العرب وتاريخ الاسلام كِليهما.. فإن عرب ما قبل الاسلام هم انفسهم عرب الاسلام، وتاريخ هؤلاء هو الجزء الاساس من تاريخ الاسلام..

أما ثاني الأمرين، فهو ان موقف السيد هاشم معروف هنا، يَنهض على قاعدة صلبة راسخة تستمد صلابتها ورسوخها من كونها منطلقاً صحيحاً للتوجه نحو البحث العلمي... في هذا «التمهيد» لكتاب «سيرة المصطفى» يبرز السيد هاشم باحثاً يملك الاداة المعرفية والفهم العلمي للبحث بمنهجية واقعية، ويأخذ بهذه المنهجية بالفعل، ويرفض الأخذ بالأوهام والتصورات الذاتية في قراءة التاريخ... نجد هذه المنهجية الواقعية متبلورة بصفاء حين هو يأخذ، على مدى عشر صفحات من هذا «التمهيد» في تحليل الواقع التاريخي لحياة العرب قبل

الاسلام تحليلاً نقرأ خلاله مختلف الظروف والعوامل والعناصر والجوانب التاريخية المكونة لذلك الواقع بعلاقاته الداخلية والخارجية، وبشروط وجوده التاريخي..

يستوقفنا السيد هاشم معروف مرة ثانية قبل أن نَصِل الى العالم الداخلي لكتابه «سيرة المصطفى».. يستوقفنا «بالمقدمة» التي سبقت «التمهيد».. وهي ليست مقدمة بالمعنى التقليدي المألوف.. إنها الى الابتهال أو المناجاة أقرب.. إنها تنويع ايماني إسلامي، ومنهجي واقعي في آن.. هنا أيضا موقف اقتحامي جديد، أو مواقف اقتحامية عدّة في مساحة تقلّ عن ثلاث صفحات.. والافضل لنا أن نُنصت اليه يناجي النبي المصطفى بهذا الصوت المضمَّخ بتراب الارض..

«ليست سيرتُك يا رسول الله، إلا قصة إنسان قد اتّسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم، فناضل وجاهد، ووقف بحزم وثبات وقوة، في وجه القوى الغاشمة المفترسة، من أجل الإخاء بين الناس، ومن أجل العدالة والحرية، ومن أجل المحبةِ والرحمة ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس بلا استثناء: الذين يؤمنون بك بنبوّتك ورسالتك، والذين لا يؤمنون بها على السواء».

«إن الملايين من المسلمين لا يعرفون عن سيرتك ورسالتك التي تشدّهم الى الارض وخيراتها في آن واحد.. إنهم لا يعرفون عنها إلا ما ألصق بها من القشور والخوارق والاساطير.. وهم إذ يعظمونك ويصلّون عليك ويسلّمون، يفعلون ذلك من تقليدٍ موروث بكلمات تدور على ألسنتهم في كل يوم مئات المرّات، ويحسبون أنهم عظّموك وقدّسوك إذا صلّوا وسلّموا عليك حتى ولو انحرفوا مع اطماعهم وشهواتهم عن تعاليمك وسيرتك ورسالتك التي تحدد الاسلام بالعمل لا بالقول وحده، وبالواقع لا بالشعارات الجوفاء، وبالتعاون مع الآخرين والعمل المخلص لخير الناس لا بالاستئثار واستغلال الانسان لأخيه الانسان».

« لقد اتخذوا من سيرتك قصة يَتلونها يوم ميلادك ومبعثك صاغوها بكلمات ونعوت جوفاء تمتلىء بها حناجر أولئك الذين يتاجرون بميلادك ومبعثك ومعراجك لأغراض لا تمّت الى الدين بصلة من الصلات، وانصرفوا عن واقعها

وجوهرها وما فيها من دروس وعظات. . كما انصرفوا عن اوامر قرآنك ونواهيه ومضامينه وما فيه من دعوة للجهاد والكفاح والصبر والتضحيات في سبيل الحق، والتمسك بمكارم الاخلاق. . لقد انصرفوا عن ذلك أو أكثر. . الى التغنّي به في الإذاعات من شرق الارض وغربها، وحتى من إذاعة اسرائيل وصوت بريطانيا وغيرها ممن يحاربون رسالتك وقرآنك لأنهما يشكلان خطراً على وجودهم واطماعهم ومصالحهم».

«لقد ضحيت كثيرا في سبيل الله وخير الانسان، وتحمّلت ما لا يطيقه احد من الناس، لتضع حداً للجشع والاستغلال والعنصرية، واستطعت بعد جهاد طويل ومرير أن تسيطر على تلك الأوضاع الفاسدة التي كان يعاني منها انسان ذلك العصر، ووضعت الحلول لكل ما يعترض البشرية من صعاب، ويعرقل مسيرتها نحو مستقبل أفضل يضمن لكل انسان عزّته وكرامته وسعادته في الدّارين (. . .) ونهيت الى الركون والاطمئنان الى الظالمين».

ذلك نموذج للنهج الاقتحامي الذي سلكه السيد هاشم معروف حتى في النوع الأول من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات التي تكتب في موضوعات كثرت الكتابة فيها إلى حد الاشباع. . فكيف، إذن، سيكون نهجه الاقتحامي في النوع الثاني من مؤلفاته، أي نوع المؤلفات ذات الطابع التخصصي في العلم والمعرفة؟

نأخذ أولاً ـ من هذه المؤلفات كتاب «المبادىء العامة للفقه الجعفري».

الجانب الاستعراضي التاريخي لا يعنينا هنا من أمر الكتاب. وحده المنهج يعنينا، منهج البحث، والموقف الصدامي الاقتحامي الذي يتواصل مع المنهج. . ونحن نبدأ نرى هذا الوجه من الكتاب، منذ يبدأ المؤلف يعرض لمحة عن الوضع السياسي في عصر الامامين: محمد الباقر وجعفر الصادق. . خلال عرضه هذه اللمحة يلحظ أن المستشرق نيكلسون حين يضع فرقاً بين ثورة الخوارج الشهيرة وبين ثورة الموالي، يضع هذا الفرق على اساس أن الشيعة والخوارج لديهم حجّة تمنع الامويين من إستخدام السّيف في وجههم، وهي المحافظة على القانون والنظام أو الاسلام. . أما الموالي فليس لهم هذا الحق. لذا

هم (أي الموالي) لا يملكون حجة تمنع الأمويين من استخدام السيف. . .

يتصدى السيد هاشم هنا لهذا النحو من التفريق، بالنقد والرد، لأنه يرى فيه خطأ، ويرى مصدر الخطأ جهلا بالنظام الذي فرضه الاسلام وأوجب على الحكام تطبيقه. . يعني بذلك «إن الاسلام لم يفرق بين لون ولون، ولا بين عنصر وعنصر، ولا بين السادة والعبيد، من حيث القانون والنظام العام، أو المبادىء الاسلامية، إلا في بعض الحقوق الخاصة بين الأسياد والعبيد. أما القانون أو الاسلام الذي كان الأمويون يستهترون بهما، فمن حق كل مواطن أن يحافظ عليهما ويرعاهما، لأنهما للجميع من غير فرق بين عنصر وعنصر. . . والحجة التي يملكها الخوارج والشيعة في وجه الأمويين يملكها الموالي ايضا»

هذا إذن موقف يتصل بالمنهج ويتواصل معه، فهو هنا يضع اساسا للدفاع عن المبادىء الثوابت للشريعة، وللدفاع - في الوقت نفسه ، ضمناً - عن حقوق الانسان التي هي المرجع والمصدر لتلك المبادىء الثوابت للشريعة. . وعلى هذا الاساس ذاته يأخذ الكتاب شرائح من الوضع السياسي في دولة الامويين ومن الظاهرات الاجتماعية، السلبية التي كان ينتجها هذا الوضع السياسي، والتي يقول السيد هاشم انه «كان لها أسوأ الأثر في نفوس الملايين من أبناء الشعب الذي كان الحكام يمتصّون دماءهم إذا نفذت اموالهم، وما ذلك إلا لإشباع شهواتهم». ثم يقول السيد: «وإذا اضفنا الى ذلك حِرمان الموالي حقوقهم المشروعة المفروضة لهم كمواطنين قد ساواهم الاسلام بغيرهم في الحقوق والواجبات وأضفنا ايضا اضطهاد الذمّيين ومعاملتهم بالعنف والقسوة، مع أن الاسلام قد ضمن لهم كرامتهم وحفظ دماءهم وأعراضهم وأموالهم، ثم اضفنا كذلك انغماسهم -(أي الحكام الأمويين) بالشهوات والملذات حتى بلغ بهم الحال أن ينصرفوا عما هو مألوف عند العرب والمسلمين من العادات والتقاليد. . .»، يقول: إذا اضفنا كل ذلك، وجدنا هذه الاسباب وغيرها هي الاساس في أن «شاع الاضطراب وعمَّت الفوضى وانتشرت الفتن (. . .) واندلعت الثورة في انحاء البلاد شرقا وغربا. . .»

هنا يدخل السيد هاشم في عملية البحث الجادّ من طريق رَصده الاستقصائي لحركة الفعل ورد الفعل التاريخيين، أي المعبّرين عن حركة الصراع الاجتماعي في السطح وفي العمق... بهذه المنهجية الواقعية، ذات النبض التاريخي، يؤسس للبحث الاقتحامي في المبادىء العامة للفقه الاسلامي الجعفري. وحين يصل الى هذه المبادىء ذاتها بالتحديد والتعيين، نجده قد أكمل عملية التأسيس، بحيث أصبحت كل المبادىء العامة هذه محكومة بالمبدأ الاساس: مصلحة المجتمع... نرى ذلك يتجلى - مثلا - بمبدأ تحريم الاحتكار... يقول السيد هنا إن الفقه الاسلامي الجعفري قد تعرّض الى كل ما يتصل بحياة الانسان ويضمن له الراحة والسعادة» ... ثم يبادر الى وضع اعتراض يتعلق بنظرية الحرية آتياً من الفئات الاجتماعية التي يُضر مبدأ تحريم الاحتكار بمصلحتها، أي فئات التجار الاحتكاريين. والاعتراض هو أن مبدأ تحريم الاحتكار يتنافى مع مبدأ تشريعي آخر يقول بحق كل انسان في حرية التصرف بنفسه وبماله...

السيد هاشم يدفع هذا الاعتراض بأنه «إن كان الاسلام يعلن أن للانسان حُرّيته على نفسه وماله، هو - من جهة أخرى - يحد من حريته وسلطته على ماله وتصرفاته حين تكون هذه الحرية «مزاحمة لحقوق الآخرين في الحياة»، وهو - أي الاسلام - ينكر أشد الانكار أن يندفع بعض الافراد بدافع من أنانيتهم وشرههم الى استغلال الغير والاثراء من أقوات الشعب وضرورياته... من أجل ذلك نَهَى الاسلام عن الاحتكار، وحدد موقف التجار من الاسواق»

وانطلاقا من موقف الدقة في البحث، ومن موقف الورع الفقهي، حَرَص السيد على تحديد المفهوم التشريعي الاسلامي للاحتكار. فإذا هو يحدده على النحو الآتي: ... «أن يقوم فرد أو جماعة بشراء نوع من الحاجيات التي هي في معرض الاستهلاك، وبعد شرائها ينتظر في بيعها الربح الفاحش، مما يؤدي الى ايقاع الضرر بالمستهلكين، وعلى الاخص الطبقات الفقيرة»

على أن هناك اختلافا في الحكم بالاحتكار يرجع الى اختلاف في تقدير نسبة حاجة الناس الى المادة المحبوسة عنهم، ومبلغ تأثير احتكارها على الحالة

العامة. قد يكون الاحتكار مكروهاً وقد يكون كرماً... وفي بعض الحالات يجب انتزاع المادة المحتكرة من مالكها قهراً لسدّ حاجة الناس اليها... أما الحكم بكراهية الاحتكار دون تحريمه، فذلك في حالة كونه لا يوجب الاضرار بالغير، وكون المادة الاستهلاكية موجودة في السوق، بمعنى انها مبذولة ولا يؤدي إمساكها الى ارتفاع سعرها والاضرار بالمستهلكين... يقول السيد هاشم هنا إن فقهاء الشيعة يجمعون انه يجب على الحاكم أن يجبر المحتكر مع الحاجة على عرض الطعام في الاسواق. ومصدر هذا الحكم الاجماعي هو أن الإمام علياً مرّ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج الى الاسواق... وبعض فقهاء الشيعة يرى أن على الحاكم أن يضع سعراً محدداً يتفق مع مصلحة المستهلك والمستورد في مثل هذه الحالات، ولا يكفي مجرد عرض البضاعة في الاسواق، لأن ذلك وحده لا يرفع الضرر عن المستهلكين، بجواز أن يتحكم التجار في الاسواق بما يحقق لهم جشعهم ويضر بالمجموع

وفي معرض الكلام على مبدأ الزواج من الكتابيات، يعرض السيد هاشم اجتهادات عدة لفقهاء الشيعة في هذا الباب، ثم يستطرد الى قضية الاجتهاد نفسها، فيرى ان الاجتهاد عند الشيعة فسح المجال لكل فرد أن يحكم بما يفهم من النصوص الاسلامية، ولا يتقيّد برأي أحدٍ وفهمه، مهما بلغ من العظمة في العلم، وقد كان الحال على ذلك بين الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الاربعة (المصدر السابق).

وفي كتابه «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يعود السيد الى مسألة الاجتهاد عند الشيعة فيؤكد كلامه السابق، ويضيف اليه - أولاً - تحديد مفهوم الاجتهاد بأنه بذل الجهد في سبيل تحصيل العلم والظن بالأحكام بطريق التتبع والدراسة واستقصاء الأدلة على نحوٍ يصبح الانسان قادرا على استنباط الاحكام من أدلّتها.. ويضيف - ثانياً - مسألة وجوب الاجتهاد على كل مسلم يناله التكليف الشرعي، أي أن الوجود هنا وجوب عيني يتوجه الى كل فرد بعينه دون استثناء، لكن تمنع من الوجوب العيني هذا أن تنفيذه يؤدي الى العسر والحرج للناس، والى اختلال النظام الاجتماعي العام، لأن طلب الاجتهاد يستلزم التفرغ من

سائر الأعمال المنتجة وغيرها.. في حين أن التفرّغ هكذا يعطل حركة العمل والنشاط الاجتماعي، فيقع العسر والحرج ويختلُّ نظام الحياة... فينتج إذن أن الاجتهاد واجب وجوباً كفائياً أي أن قيام البعض به يكفي في تحقيق الغاية منه، وهي استمرارية حركة التشريع مع استمرارية تجدد الحياة (راجع نظرية العقد...).

كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري» يطرح مسألة أخرى ذات شأن كبير في هذه المرحلة من عصرنا يقف السيد المؤلف منها موقفا اقتحامياً بحق، حين هو يعرضها بطريقته الاستقصائية الواثقة والمتعاطفة مع موضوعها... المسألة هنا هي مسألة «العقود المستحدثة».. أي عقود التعامل بين الناس في العصر الحاضر خصوصا «التي لا ينطبق عليها أحد العناوين المدونة في كتب الفقه الاسلامي».. إشكالية المسألة تتحدد بوضع السؤال الآتي:

ـ هل العقود المدونة في كتب الفقه هي المرجع في عصرنا، بحيث يكون كل عقدٍ أو تعامُل باطلاً لمجرد كونه لا ينطبق عليه واحد من العقود أو اشكال التعامل المقررة سابقا في فقه المسلمين الأولين؟

هذه الاشكالية يضعها السيد هاشم معروف مقتحما مجالها بسلاح العلم وسلاح الثقة بالعلم.. يبدأ معالجة الاشكالية بوضع الجانب الآخر من السؤال: هل العقود المقررة سابقا قد أقرّها التشريع الاسلامي: كتاباً وسنة، ودوّنها الفقهاء في مجاميعهم، لا لخصوصيته بها، ولا لأن الطريق الى التعامل والاتجار والتكسب يجب أن لا يتخطاها، بل لأن التعامل بين الناس في الغالب، في عصور التشريع وما بعده، لم يتعدَّ هذه الأنواع من العقود، ولازم ذلك أن الظروف والحضارات التي تختلف باختلاف العصور، إذا اقتضت نوعا آخر للتعامل والاتجار لا يخل بالنظام ولا بالآداب العامة، يكون مصداقا للعقود التي أقرّها التشريع الاسلامي في الكتاب والسنّة...

إن وضع المسألة بهذه الصيغة/ السؤال، يضعنا على طريق حل الاشكالية باتجاهه الاقتحامي.. فالسيد المؤلف ـ بادىء الأمر ـ يجد المبدأ العام في القوانين

المدنية المعاصرة يقضي بأن جميع الاتفاقات والالتزامات، مهما كان نوعها وبأي شكل وجدت، هي من العقود، وتصبح نافذة لدى المتعاقدين، إذا لم تخالف القانون والنظام العام.. ثم يجد السيد هاشم «من المستصعب أن ننتزع هذا المبدأ العام من الفقه الاسلامي» لعدم وجود النصوص والقواعد العامة التي تسمح بإدخال كل ما هو مستحدث في النصوص التي أقرّت العقود السابقة وأقرّت بالوفاء بها... لكن، بعد هذه التحفظات في المسألة، نجد السيد هاشم يتجه الى التيسير، أي الى العمل بما تقتضيه طبيعة ظروفنا المعاصرة، أي الى اثبات مشروعية العقود المستحدثة، استنادا الى أن النصوص الاسلامية لم ترد فيها ما يقتضي حصر العقود في نوع أو صنف بخصوصه، ولم تعيّن نوع العقد والبيع والتجارة، بل أمَرت بالوفاء بالعقود، وأحلت التجارات، وفرضت على المسلمين أن يلتزموا بشروطهم والتزاماتهم، من غير أن تتعرض لأنواع تلك العقود واصنافها، ولا لماهية التجارة وكيفيتها، ولا لشكل الالتزام وموضوعه».. هذا الموقف الاجتهادي الآخذ بعمومية النصوص كتابا وسنة، يدعمه السيد المؤلف بالتوجه السمح الذي يقول هكذا:

«... ومعلوم أن الناس، قبل عصر التشريع، كانوا يتعاملون بينهم بالبيع والشراء، ويتعاقدون بجميع الأنواع الشائعة في ذلك العصر وقبله، فلا بد أن يكون الذي يجب عليهم الوفاء به، والبيع المحل لهم، والتجارة المسوِّغة لأكل المال، والالزام الذي يجب تنفيذه، وهو ما يسمّيه الناس عقداً وبيعاً وتجارةً والتزاماً في عصرهم، وفي جميع العصور، حسب حاجات الزمن ومقتضيات الحياة... وكل ما في الأمر أن الحاجة لم تدع في عصر التشريع وقبله الا لتلك الاصناف من العقود، فإذا دَعت في عصر من العصور الى صنف من العقود، كما حدث بالفعل في عصورنا المتأخرة، يكون المستحدث فردا (مصداقاً) للعقد الذي يجب الوفاء به بمقتضى نصّ الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾، ثم يلخّص السيد موقفه الاجتهادي في المسألة قائلاً:

«... وبتعبير أكثر وضوحا، إنه بعد أن فرضنا ان المشرِّع لم يخترع أنواعا وأصولا للتعامل تسمّى بيعاً وعقداً وتجارة. وما دام الأمر متروكا الى العرف، لكلّ

ما تفرضه حاجة المجتمع ويستعمله الناس ويسمّونه عقداً، يكون مشمولا لتلك الأدلة العامة التي جاءت لامضاء ما هو متعارف بين الناس في مقام التعامل والاتجار» (راجع كتاب «نظرية العقد في الفقه الجعفري»

أطلنا الوقوف عند هذه المسألة، لأهمية المسألة بذاتها في زمننا هذا بالاخص، أولا. . . ولأهمية الموقف الاجتهادي الاقتحامي للسيد هاشم معروف من هذه المسألة، ثانيا. . . ولأهمية ما يقدمه السيد هنا من منهجيته المنضبطة والمنفتحة على كل جهات الحقيقة ثالثا. .

والسيد هاشم معروف: انساناً وباحثاً، هو طالب الحقيقة وهو عاشق الحقيقة. . . ولأنه يجمع بين الطالب والعاشق في موضوع واحد، هو الحقيقة، لم يكن محايدا، لأن الحياد يناقض العشق، لأن الحياد نفي للعشق، لأن الحياد نفي للذات. . . نفي للقضية. . أي نفي للحقيقة نفسها . .

لم يكن السيد هاشم معروف، كإنسان وباحث، محايدا، كان منحازا لموضوع عشقه الذي هو موضوع عِلمه. . . كان منحازا لحقيقته التي وضع بتصرّفها كل حالات الانسان والباحث فيه. . . حقيقته هذه اثنان في وحدة. . . وحدة متكاملة وصلبة. . . الاثنان هما: الشيعة والمعرفة . . كل كتبه الأربعة والعشرون المطبوعة: دفاع عن الشيعة، وعطاء سخيٌّ للمعرفة. . هو هكذا، واكثر سطوعا، في كتابيه: «الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة» و«بين التصوّف والتشيُّع». . الأول منهما: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة لكل من الاشاعرة والمعتزلة، ردّاً على خطأ شائع يساوي الشيعة بالمعتزلة. . . لكن الكتاب نفسه دفق غزير وشهيّ من المعرفة، معرفة الفِرق الاسلامية السياسية وعوامل نشأتها، مع توسع في بحث تاريخ المعتزلة والاشاعرة والمرجئة وسائر الفِرَق والمذاهب، وبحث آرائها ومعتقداتها، مع بحث مستفيض في مقارنة كل من هذه الآراء والمعتقدات بآراء الشيعة الامامية ومعتقداتها. .

أما كتاب «بين التصوف والتشيع» فهو كذلك: دفاع عن استقلالية الشيعة بالنسبة للمتصوفة وللفكر الصوفي، ردا أيضا على خطأ شائع بأن التشيع رافد من

أوسع الروافد التي انطلق منها التصوف وانتشر في الاوساط الاسلامية... لكن الكتاب مع ذلك يشكل مرجعاً غنياً وموفقاً وأميناً لدراسة حركة التصوف في الاسلام والمجتمع العربي ـ الاسلامي خلال العصر الوسيط وما بعده.. وهو كتاب يقدم فيضاً من المعرفة يوفّر حتى للباحثين مادة معرفية في الموضوع معروضة بمنهجية واقعية وبتعميق بحثي مثير.

السيد هاشم معروف: انساناً وباحثاً اسلامياً، هو من عاش فيه كل من الانسان والباحث بورع عظيم.. كان ورع الباحث فيه عظيما بقدر ما كان ورع الانسان فيه عظيما.

سلام عليك أبداً أيها الصديق الذي مَنَحتني رفقته نعمة الفرحين معا: فرح الصداقة، وفرع المعرفة.. وهذه كتبك تمنحني اليوم فرح اللقاء بك من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن المقاومة الوطنية زارعة النار والنور في تراب الجنوب لدحر العدوّين: اسرائيل، واليأس من دحر اسرائيل... إنه الفرح الساطع أن نلقاك اليوم من جديد في زمن لا يزال ـ كعهدك ـ زمن انتفاض التراب الجنوبي دفاعا عن شرف الانسان في لبنان، وفي كل مكان.

سيرة المصطفى من المهد الى اللحد

تأليف هاشم معروف الحسني

يشتمل هذا الكتاب على عرض سريع لتاريخ العرب والقرشيين وأحلافهم قبيل ظهور الاسلام ، وما رافق ذلك من أحداث تتعلق بالكعبة وغيرها ، كما يعرض سيرة النبي (ص) منذ ولادته الى أن اختاره الله إليه ، والمراحل التي مر بها في صباه وشبابه ومسيرة الدعوة منذ أن بزغ فجرها في مكة الى أن تكاملت حروبه وغزواته وما يتصل بذلك من الحوادث التي رافقت مسيرتها مع دراسة موضوعية لأهم جوانبها ومحاولة جديدة لكشف بعض الحقائق التي تجاهلتها أكثر المؤلفات في السيرة ، معتمداً في جميع ذلك على أوثق المصادر الإسلامية وغيرها .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الهداة أعلام الأمة والدعاة الى الحق والخير ورحمة الله وبركاته .

من الصعب على أي كاتب أو باحث مهما بلغ من المقدرة وأوتي من حسن البيان والعمق في التفكير أن يدرك أبعاد سيرتك يارسول الله ، لأن سيرتك هي المضمون والمحتوى لرسالتك التي أحيت أمة قد أنكرتها الأمم وأمدت البشرية بتلك الثروة الهائلة من المثل العليا التي تغني العالم كله بالقيم لو قدّر له ان يسير على هديها، وتدفع الإنسان أشواطاً بعيدة الى الأمام وتكتشف ألواناً من طبيعة الحياة والناس .

ليست سيرتك يا رسول الله إلا قصة انسان قد اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم فناضل وجاهد ووقف بحزم وثبات وقوة في وجه القوى الغاشمة المفترسة من أجل الإخاء بين الناس ، ومن أجل العدالة والحرية ، ومن أجل المحبة والرحمة ، ومن أجل مستقبل أفضل لجميع الناس بلا استثناء الذين يؤمنون بنبوتك ورسالتك والذين لا يؤمنون بهما على السواء .

ان الملايين من المسلمين لا يعرفون عن سيرتك ورسالتك التي تشدهم الى السماء كما تشدهم الى الأرض وخيراتها في آن واحد .

إنهم لا يعرفون عنها إلا ما ألصق بها من القشور والخوارق والأساطير ، وهم اذ يعظمونك ويصلّون عليك ويسلمون يفعلون ذلك عن تقليد موروث بكلمات تدور على ألسنتهم في كل يوم مئات المرات ، ويحسبون أنهم قد عظموك وقدسوك اذا صلوا وسلموا عليك حتى ولو انحرفوا مع أطماعهم وشهواتهم عن تعاليمك وسيرتك ورسالتك التي تحدد الاسلام بالعمل لا بالقول وحده، وبالواقع لا بالشعارات الجوفاء، وبالتعاون مع الآخرين والعمل المخلص لخير الناس لا بالاستئثار واستغلال الانسان لأخيه الانسان .

لقد اتخذوا من سيرتك قصة يتلونها يوم ميلادك ومبعثك صاغوها بكلمات ونعوت جوفاء تمتلىء بها حناجر أولئك الذين يتاجرون بميلادك ومبعثك ومعراجك لأغراض لا تمت الى الدين بصلة من الصلات ، وانصرفوا عن واقعها وجوهرها وما فيها من دروس وعظات .

كما انصرفوا عن أوامر قرآنك ونواهيه ومضامينه وما فيه من دعوة للجهاد والكفاح والصبر والتضحيات في سبيل الحق ، والتمسك بمكارم الأخلاق ، لقد انصرفوا عن كل ذلك او أكثره الى التغني به في الاذاعات من شرق الأرض وغربها ، وحتى من اذاعة اسرائيل وصوت بريطانيا وغيرهما ممن يحاربون رسالتك وقرآنك لأنهما يشكلان خطراً على وجودهم وأطماعهم ومصالحهم .

لقد ضحيت كثيراً في سبيل الله وخير الإنسان وتحملت ما لا يطيقه احد من الناس لتضع حدّاً للجشع والاستغلال والعنصرية ، واستطعت بعد جهاد طويل ومرير ان تسيطر على تلك الأوضاع الفاسدة التي كان يعاني منها انسان ذلك العصر ، ووضعت الحلول لكل ما يعترض البشرية من صعاب ويعرقل مسيرتها نحو مستقبل أفضل يضمن لكل انسان عزته وكرامته وسعادته في الدارين ، ودعوت الى جهاد الملحدين والعابثين بكرامة الانسان والى نصرة المعذبين والمستضعفين في الأرض ، ونهيت عن الركون والاطمئنان الى الظالمين

ومـوالاة أعدائـك والتودد اليهم ممن كفـروا بـالحق والقيم والأخـلاق ، فقلت مبلغاً إنسان هذه الدنيا رسالة ربك :

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾

وقلت : ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ .

وقلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾

وقلت في الآيـة من سورة النسـاء : ﴿ فقاتلوا أوليـاء الشيطان ان كيـد الشيـطان كان ضعيفـاً ﴾ . وما أكـثر ما قلت ونهيت وتـوعـدت ودعـوت الى العمل الطيب والخلق الكريم في كتابك وسنتك ، ولكن ومع الأسف الشديد ان أكثر من يدعون الاسلام لا سيما في عصرنـا الحاضـر قد انحـرفوا وغيـروا وبـدلوا واستهـانوا بـالمستضعفين والمعـذبين واتخـذوا أعداء الاسـلام وأعداءك اولياءهم من دون الله يركعون لهم من دونه وكفروا بجميع القيم التي أرسلت وجاهدت وضحيت من أجلها طيلة عشرين عاماً أو تزيد

وأصبح الاسلام بمبادئه وجوهره غـريباً عن الأذهـان والنفوس والقلوب كـما كان في أيـامك الأولى ، والمتمسكـون بأصـوله ومبـادئـه والـداعـون إليـه باخلاص وتجرد غرباء في هذا العصر الذي طغت فيـه المادة واتجـه فيه أعـداء الاسلام الى طمس حقائقه وتزييف جوهره بـأسلوب جديـد لم تعرفـه الحروب الصليبية من قبل

وسلام الله عليك حيث قلت فيما رواه المحدثون عنك :

« بدأ الاسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء » .

وعلى أي الأحوال فالحديث عن واقع المسلمين في عصرنا الحـاضر مؤلم

ومفزع ولا سبيل لخروجهم مما أحيط بهم من بلاء وتخاذل وتفسخ في الأخلاق وتنكر للقيم الا بالرجوع الى واقع سيرتك ومضامين كتابك ، وقد قضت مشيئة الله ان لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقبل ان أختتم كلمتي هذه أود ان أشير ولو بايجاز الى أن التأليف في السيرة النبوية قد تأخر الى أواخر القرن الأول الهجري ، وفي السنين الأخيرة منه ألف فيها عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ ، وابان بن عثمان المتوفى في مطلع القرن الثاني وبعدهما ألف فيها وهب بن منبه[١] .

وقبل نهاية النصف الأول من القرن الثاني ألف فيها شرحبيل بن سعد وابن شهاب الزهري ، وغاصم بن عمرو بن قتادة ، وموسى بن عقبة ، وابن اسحاق الذي ألف سيرته بناءً لطلب المنصور العباسي كما جاء في بعض المرويات[٢] وفي اواخر القرن الثاني ألف فيها ابن هشام ، واتخذ سيرة ابن اسحاق أساساً لكل ما كتبه في هذا الموضوع ، كما ألف فيها في ذلك الوقت بالذات ابن سعد والواقدي وغيرهم ، وتوالت بعد ذلك المؤلفات في السيرة ولا تزال الى يومنا هذا من شرقيين وغربيين ، والانصاف يحتم علينا أن لا ننسى فضل أولئك الذين سبقوا الى التأليف فيها وجمعوا شتاتها المبعثرة هنا وهناك من الصدور وغيرها ووضعوا النواة الأولى لكل من جاء بعدهم من المؤرخين والباحثين مع العلم بأنهم قد أضافوا اليها ما ليس منها إما عن حب وهوى ، وإما عن حقد وسوء نية ، وبالاضافة الى ذلك يجد الباحث في المؤلفات الأولى منها محاولة مقصودة لطمس بعض الحقائق وتحيزاً لأشخاص لا يعتمد على المنطق وحوادث التاريخ ، ولكن ذلك لا يمنعنا من تسجيل حسناتهم الى جانب ما اقترفوه من السيئات .

ولعل هذا وذاك من جملة الأسباب التي دفعتني الى الكتابة فيها وأرجو

---

(١) ولا تزال بعض القطع من سيرته في احدى المكاتب الكبرى في المانيا .

(٢) انظر مقدمة السيرة لابن هشام الطبعة الثانية .

ان أكون قد وفقت لابراز بعض جوانبها على واقعه ، وكشف ما ألحق بها من زيف وتشويش على يد المحبين والأعداء والحاكمين ، واستعملت في سبيل ذلك كل ما أملكه من جهد وطاقة باخلاص وتجرد ونية حسنة وحسبي ان يجد فيها القارىء ذلك أو شيئا منه ومنه سبحانه أستمد التوفيق والقبول .

والصلاة والسلام على محمد صاحب السيرة الذي ترك من سيرته ورسالته ما لم يتركه نبي من قبله ولن يتركه احد من بعده وعلى آله أئمة الهدى وأصحابه الذين صدقوا فيما عاهدوا الله ورسوله عليه ورحمة الله وبركاته .

هاشم معروف الحسني

تمهيد

يحاول فريق من الكتاب القدامى والمحدثين ان يصوروا العرب قبل الاسلام وكأنه بناء أصيب بزلزال شديد زعزعه من أساسه فاذا كل شيء فيه غير قائم في محله ، وأصبح الذئب راعياً والجائر قاضياً والمجرم سعيداً ، والصالح محروماً والعادات تتحكم في مصيرهم وتجرهم الى الفناء والدمار .

قد تمادى انسان ذلك العصر في الفجور والطغيان على حد زعمهم الى الاستهتار بالقيم ومحاربة الفضيلة ، وتعاطى استعمال الربا الى حدود الاغتصاب والسلب ، واستحوذ عليه الطمع الى حدود الجشع والنهم ، وبلغت به القذارة الى حدود وأد البنات وقتل الأولاد .

ومضى هؤلاء في تجريد العرب من جميع القيم وحتى من انسانيتهم ، فقالوا : لقد تباهى العربي بالشجاعة والجود والأنفة وافتخر بذلك على من سواه من أبناء الأمم الواقعة على حدود منطقته ، وبرزت هذه الصفات في حياة الانسان العربي ، ولكنه بعد ان أساء استعمالها في المحل المناسب ، عادت وبالاً عليه ،. فتحولت شجاعته الى الفتك بالأبرياء ، وجوده الى اسراف وتبذير ، وأنفته الى حمية جاهلية ، وذكاؤه الى الخداع وايجاد الوسائل التي تهيء له ارتكاب الجرائم وتوفر له اشباع شهواته ، واتجه مع كل ذلك الى

عبادة الشمس والقمر والتماثيل والأحجار ، ووقف كل انسان لأخيه الانسان يتتهز الفرصة للوقيعة به ، والاستيلاء على موارد رزقه ، فكانت الحروب الدامية والغارات والقتل والتشريد والروح القبلية العاتية التي كانت تتحكم بمصيرهم وتحدد موقف القبيلة من غيرها يوم ذاك اما بحرب صاعقة تجر الفناء والدمار ، أو بسلم مهدد بالزوال لأبسط الأسباب ، الى غير ذلك من الصفات المتشابهة التي استعملها الكتاب في تصوير العرب قبل مجيء الاسلام .

وفي عقيدتي أن هؤلاء الذين حاولوا ان يجعلوا من العرب في جاهليتهم الأولى والثانية أمة لا تشبه الا الوحوش الضارية في متاهات الأحراش والغابات قد تخطوا الواقع في أحكامهم الى حدود الجور ، وبالغوا في تجريحهم الى حدود الغلو والإسراف ، ذلك لأن الباحث في تاريخهم لا يجد اكثر من بعض الفوارق بينهم وبين غيرهم من الأمم كالفرس والرومان وغيرهما كانت تفرضها طبيعة الصحراء القاسية التي لا تملك الأسباب الكافية كغيرها من الأمم التي سادها الهدوء والاستقرار وتوفرت لديها أسباب الحضارة والعمران ، والذين ذهبوا الى هذا الرأي من الكتاب العرب والمستشرقين كانوا أكثر اعتدالاً من أولئك الذين جردوهم من انسانيتهم والحقوهم بالوحوش الضارية والذئاب الكاسرة وبخاصة في الفترة التي تلتها بعثة الرسول (ص) ذلك لأن العرب كانوا على اتصال وثيق بمن حولهم من الأمم المتحضرة كالفرس والرومان ، وكانت التجارة التي تربطهم بهم تزودهم بالفوائد المادية والأدبية ، هذا بالاضافة الى ان الفرس والرومان قد وفروا للامارات العربية التي أنشئت على مقربة من حدودهم في الحيرة وسوريا وسائل الاستقرار وأسباب العيش ليكونوا لهم ردءاً يصدون غارات البدو والغزاة من شبه الجزيرة وغيرها ، وامتزج هؤلاء بجيرانهم واخذوا عنهم الكثير من العادات والأفكار والمعارف .

واذا رجعنا الى الأديان التي انتشرت في تلك المناطق وأردنا ان نحكم

من خلالها على الانسان العربي ، نجد ان الوثنية وان كانت متفشية بين سكان شبه الجزيرة ، إلا انا نجد اليهودية والنصرانية الى جانبها تسيطران في بعض المناطق منها ، فالمدينة وأكثر المناطق المجاورة لها كانت مقراً لليهودية ، كما كانت نجران وبعض المناطق الاخرى تسيطر عليها اليهودية حيناً والنصرانية حيناً آخر ، وهؤلاء كانوا يحرصون أشد الحرص على نشر دينهم وتعاليمهم في تلك المناطق ، وتوفرت لديهم الامكانيات المادية التي ساعدتهم على ذلك ، فقد اشتهر يهود شبه الجزيرة بالزراعة ، كما اشتهروا في يثرب وجوارها بالصناعات كالحدادة والصياغة وصنع الاسلحة ونحو ذلك من الصناعات التي يسرت لهم استغلال موارد السكان وبسط نفوذهم حيث حلوا وأقاموا ، وكانت القبيلتان الأوس والخزرج تحسان بمرارة تسلط اليهود على مواردهم ، ولكنهم لا يجدون السبيل الى التخلص مما أحيط بهم وربما حدثت بين الحين والآخر مناوشات بين الطرفين ، وكانت تنتهي بدون أن تحقق لاحدهما النصر الحاسم .

ومن غير البعيد ان يكون هذا الوضع قد ساعد على اقبال الأوس والخزرج على الاسلام بتلك السرعة وانضوائهم تحت لوائه ليتخلصوا من استغلال اليهود وسيطرتهم على تلك المنطقة الغنية بسكانها ومواردها الاقتصادية .

على ان الوثنية وان كانت الديانة الكبرى في شبه الجزيرة إلا أن الكثير من أولئك السكان كانوا على اتصال دائم بالامم المجاورة لحدود الحجاز كاليمن وسوريا وغيرهما وبخاصة قريش التي كانت تستغل جوار البيت فتجوب البلاد للتجارة وغيرها في فصلي الشتاء والصيف من كل عام .

ونص بعض المؤلفين في تاريخ العرب ان الدولة الرومانية كانت قد أقامت لها في مكة مركزاً تجارياً لتسهيل التصدير والاستيراد منها واليها ، وكانت مكة من أوفر المدن الحجازية بوسائل العيش وأسباب الراحة كما تشير الى ذلك الآية :

﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً تجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وجاء في الاغاني وغيرها ان الحبشة كانت متجراً لقريش وان القرشيين كانوا على اتصال دائم ببلاد الحبشة للأغراض التجارية وغيرها ، وهذا الاختلاط المباشر القائم على الرحلات التجارية وغيرها لهنا وهناك ، كان يزودهم بالمعلومات الكثيرة عن حضارة تلك البلاد وعاداتها ومعتقداتها وغير ذلك ولا بد وان يستفيدوا منه في تحسين أوضاعهم الى حد ما .

وكما استفاد عرب الحجاز من جيرانهم بمقتضى هذا النحو من الاتصال ، استفاد عرب الحيرة من جيرانهم الفرس ، وبخاصة بعد أن أنشؤوا دولة المناذرة في تلك المنطقة التي تفصلهم عن المناطق التابعة لحكم الرومان وبحكم هذا الاتصال المباشر بينهم وبين الفرس ، فقد كانوا أرقى من عرب الجزيرة وأقرب الى الحضارة منهم كما تؤكد ذلك المؤلفات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ذلك لان عرب الحجاز كانوا مستقلين عن غيرهم استقلالاً كاملاً ولا يرتبطون بجيرانهم إلا بالاستيراد والتصدير والرحلات التجارية ، في حين ان الفرس كان لهم نحو من الاشراف على شؤون البلاد وادارات الدولة وجميع شؤونها ، وكان ملك الفرس يختار أحياناً بعض العرب لادارة بعض أعماله .

وجاء في المجلد الثاني من تاريخ ابن خلدون ان عدي بن زيد كان من تراجمة ابرويز ملك الفرس ، وان أباه زيداً كان شاعراً وقارئاً لكتب الفرس والعرب .

ويدعي فريق من الكتاب بأن عرب الحيرة قد تسربت اليهم بعض علوم اليونان وآدابها معتمدين في ذلك على ان الحكومة الفارسية في عهد هرمز الاول أنشأت بعض المستعمرات وأقامتها على سواعد الاسرى الرومانيين ، وكان من بين هؤلاء من تأثروا بالثقافة اليونانية وسبقوا الفرس أشواطاً بعيدة

في الهندسة والطب وغيرهما من آثارُ اليُونانيين ، وقد نزل هؤلاء الحيرة وامتزجوا بأهلها .

ولم يستبعد بعض الباحثين في تاريخ العرب ان يكون تؤلاء المصدر الاول لانتشار الديانة المسيحية بين عرب الحيرة ، وأضافوا الى ذلك ان هنداً زوجة النعمان قد اعتنقت النصرانية وتأثرت بتعاليمها فأنشأت ديراً ظل يعرف بدير هند الى ما بعد القرون الأولى من تاريخ الاسلام .

وفي الوقت الذي كانت فيه الحيرة وجهاتها تخضع لحكم المناذرة في ظل الانتداب الفارسي كوّن الغساسنة إمارتهم في بلاد الشام وامتد نفوذهم الى مقاطعتي حوران والبلقاء ، واتخذوا من مدن الجولان والجابية عواصم لهم .

وقيل انهم اتخذوا مدينة جلق القريبة من الشام عاصمة لهم ، وكان بينهم وبين امراء الحيرة عداء شديد يجرهم بين الحين والآخر الى معارك دامية تفتك بالطرفين .

ولعل من أبرز امرائهم كما يظهر من بعض المؤرخين الحارث بن جبلة الذي عينه الأمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ ميلادية أميراً على جميع القبائل العربية في جهات سوريا ومنحه لقب (فيلارك او بطريق) وكان نصرانياً على مذهب اليعاقبة فقضى الشطر الأول من امارته في حرب مع المنذر الثالث امير الحيرة وانتصر عليه في معركة قنسرين ، واستمر حكم الغساسنة زمناً طويلاً الى أن غزا الفرس بلاد الروم واستولوا على أورشليم ودمشق سنة ٦١٥ ميلادية فانحط شأن الغساسنة وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذي عاصر ظهور الاسلام .

ولما فتح المسلمون بلاد الشام أسلم جبلة بن الأيهم ووفد على المدينة فاستبشر اهلها لقدومه ، وأحسن عمر بن الخطاب وفادته ورفع من شأنه ووضعه في مرتبة المهاجرين الأولين ، ولكن الروح القبلية التي كانت تسيطر عليه أبت عليه ان يتغاضى عن رجل فزاري وطيء ازاره فلطمه على رأسه ،

وكأنه لا يزال حاكماً يتصرف كما يريد .

وفاته ان الاسلام قد ألغى جميع الامتيازات والاعتبارات واحتفظ لكل انسان بحقه مهما كان أصله ولونه ، فشكاه الفزاري الى الخليفة ، ولما أحس بأن الخليفة سيقتص للفزاري منه فر الى القسطنطينية ومات فيها .

ولكن رواية اليعقوبي تؤكد ان جبلة بن الأيهم وفد على عمر بن الخطاب وطلب اليه ان يأخذ منه صدقة أمواله كما يصنع مع غيره من العرب ، فرفض ذلك عمر وألح على أخذ الجزية منه ، وأمره بالخروج من بلاد المسلمين اذا لم يدفع الجزية ، فخرج منها جبلة ومعه ثلاثون ألفاً من أتباعه والتحق ببلاد الروم .

وكان يبدو من تاريخ الغساسنة انهم كانوا أبعد في تفكيرهم وأقرب الى الحضارة من عرب الحيرة لانهم كانوا على اتصال وثيق بالحضارة الرومانية وثقافة اليونان ، وقد وفد عليهم عدد كبير من شعراء شبه الجزيرة كالنابغة والأعشى والمرقش الأكبر وغيرهم فاحسنوا اليهم وأكرموا وفادتهم وأجزلوا لهم العطاء ، وبدا على هؤلاء الشعراء سرعة التأثر بما شاهدوه وسمعوه كما يبدو ذلك من قصائدهم المليئة بالقصص والامثال والاساطير التي تضمنتها أشعارهم وندواتهم .

ومهما كان الحال فالنصرانية في تلك الفترة من تاريخ العرب قد توزعت الى فرق كثيرة وتعددت مذاهبها وأصبح لكل فرقة في الدين المسيحي رأي يخالف رأي الفرقة الأخرى وتنكرت تلك الفرق بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأي والمعتقد تنكراً أنتج العداء والاحقاد بينهم زمناً طويلاً ولا تزال آثاره حتى اليوم .

وكان من بين تلك الفرق من ينكرون ان لعيسى جسداً يزيد على طيف يتبدى به للناس ، بينما ذهب آخرون الى تعدد الروح والجسد تعدداً روحياً ، وكان بينهم من يعبد مريم ، في حين ينكر بعضهم بقاءها عذراء بعد وضع

السيد المسيح ويدعيه آخرون الى كثير من الخلافات المتشعبة عن ولادة المسيح وأبوته وبنوته وكيفية خلقه ، وقد أمدت الامبراطورية الرومانية جميع تلك الفرق المتناحرة بحمايتها ووفرت لها أسباب الجدل ، حتى أصبحت كل فرقة تعتمد على تأييد السلطة الحاكمة لها وظلت المسيحية في طريقها تنتشر ، فانتقلت من الشام وفلسطين الى شواطىء الفرات ، ودان بها أهل الحيرة واللخميون والمناذرة .

وجاء في تاريخ العرب قبل الاسلام للاستاذ مصطفى جواد وغيره ان النساطرة واليعاقبة فرقتان من فرق المسيحية ، ومن اكثر فرقها انصاراً واتباعاً ، وقد انتشرت الاولى في الحيرة وجهاتها ، بينما انتشرت الثانية بين الغساسنة وقبائل الشام وكانت نجران مركزاً لهذه الفرقة من النصرانية .

وجاء في سبب دخول النصرانية الى نجران بعد ان كانت تغلب عليها الوثنية ، ان رجلاً صالحاً من أتباع عيسى يدعى فيميون كان قد هاجر من بلاد الروم واستقر بنجران ، فاتبعه أهلها وظل عددهم يزداد حتى استفحل امرهم وانتشرت المسيحية فيها ، وحاول ذو نواس ملك اليمن ادخالهم في اليهودية فلم يفلح وقتل منهم عدداً كبيراً لا يقل عن عشرين ألفاً كما جاء في بعض كتب السيرة ، وسنعود الى الحديث عما جرى لهم عند الحديث عن دعاة اليهودية في اليمن وغيرها .

ومجمل القول ان النصرانية بعد ان استقرت في نجران انصرف أهلها الى التجارة وصناعة الاسلحة والنسيج واشتهرت بإنتاج الحلل اليمانية .

وقبيل ظهور الاسلام كانت شؤونها السياسية والدينية والادارية بيد ثلاثة من زعمائها وهم السيد والعاقب والاسقف ، فالشؤون السياسية كادارة الحروب والشؤون الخارجية وتنظيم علاقتهم بالقبائل الاخرى كانت بيد السيد ، كما كانت الامور الداخلية كادارة شؤونهم والقضاء بينهم بيد العاقب ، ومهمة الاسقف تنحصر بالشؤون الدينية ، وعندما انتشر الاسلام

في شبه الجزيرة وفذ هؤلاء الثلاثة على رأس وفدٍ من نجران على النبي (ص) في المدينة وعرض عليهم الاسلام او المباهلة كما ستتعرض لذلك في الفصول الآتية من هذا الكتاب ، فامتنعوا من الامرين وصالحوه على مبلغ من المال في كل عام ، واستمر الحال على ذلك طيلة حياته وفي الفترة التي حكم فيها الخليفة الأول ، ولما جاء عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لم يقرهم على ما كانوا عليه في عهد الرسول والخليفة الاول ، وعرض عليهم الدخول في الاسلام ، ولما امتنعوا من ذلك اشترى منهم اموالهم وأجلاهم عن البلاد ، بالرغم من ان النبي (ص) أوصى بحسن معاملتهم كما جاء في بعض المرويات عنه . وكان المبرر لعمل الخليفة هذا أن وجودهم يشكل خطراً على الجبهة الداخلية في الوقت الذي انصرف فيه المسلمون الى غزو البلاد المتاخمة لحدود الحجاز .

وتؤكد المصادر التاريخية ان نصارى نجران بعد ان أجلاهم عمر بن الخطاب عن بلادهم سنة ثلاث عشرة هجرية في مطلع خلافته التجأوا الى العراق واتخذوها مسكناً لهم .

وجاء في معجم ياقوت ان بني عبد المدان قد بنوا بيتاً للعبادة في نجران يشبه الكعبة وعظموه كما يعظم عرب الحجاز الكعبة ، وكانت تعرف بينهم بكعبة نجران ، فلما دخلت النصرانية نجران وغلبت على سكانها انتقلت كعبة نجران اليهم وأشرفوا على ادارتها ، وأصبح لنجران دور بارز في الدعاية الى المسيحية واعتنقها جماعة من عرب الحجاز واشتهر من بينهم جماعة كحنظلة الطائي صاحب الدير المعروف بدير حنظلة ، وقس بن ساعدة الذي اتخذ البراري والجبال مقراً له وترك الدنيا وملذاتها ، وأصبح يأنس بالوحوش اكثر من الأناسين كما يروي ذلك بعض المؤرخين الى غير ذلك ممن اعتنقوا المسيحية قبل ظهور الاسلام بتأثير من نصارى نجران الذين سكنوا بلاد العرب وأرسلوا دعاتهم الى الأسواق والمواسم التي كان يجتمع فيها العرب للتجارة وغيرها .

وجاء عن أولئك الدعاة انهم كانوا يقصون على الناس حالات البعث والحساب والجنة والنار ، ويدعون الى التنكر للدنيا وملذاتها ، والى النظر في الكون والاستفادة من تقلباته واحداثه .

ومع ان الذين تأثروا بالدعاية المسيحية التي كانت تنطلق من نجران كانوا قلة حسب الاحصاءات التي تعهدت بها كتب التاريخ الا ان ذلك يرجح الرأي القائل بأن عرب الحجاز كانوا على صلة بغيرهم من الأمم الأخرى التي كانت تعتنق المسيحية واليهودية وقد استفادوا مما عندهم بحكم هذا الاتصال المباشر ووسائل الاعلام والتبشير التي كانت تستغل التجمعات لنشر أصول الديانة المسيحية وتعاليمها وأهدافها وأحوال البعث والحساب والجنة والنار وما الى ذلك من الحالات والكيفيات .

كما وأن اليهود الذين سكنوا البلاد العربية وبخاصة أولئك الذين سكنوا جنوب الجزيرة قد نشروا تعاليم التوراة وما جاء فيها من القصص وأخبار الحكام والأنبياء حتى تهود جمع كبير من العرب ومن بين المتهودين ذو نواس الحميري احد ملوك اليمن ، فقد رغب عن الوثنية التي تورط فيها قومه وأخذ اليهودية عن اليهود الذين هاجروا الى اليمن وأقاموا بها ، وذو نواس الحميري هذا هو الذي غزا نصارى نجران وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وكان بامكانه القضاء عليهم وسط النفوذ اليهودي الذي كاد أن يسيطر على اليمن بكاملها .

وجاء في تاريخ اليعقوبي وغيره ان زرعة الحميري المعروف بذي نواس كان من ملوك اليمن على دين اليهودية فعتا وتكبر وقتل من كان على المسيحية فيها ، وكان رجل من المبشرين بالمسيحية يدعى (قيميون) أظهر المسيحية في منطقة نجران ، ودعا اليها وتظاهر بالصلاح والرعاية للفقراء والمرضى ، فاذا سمع بمريض قصده ووعده بان يدعو الله له شرط ان يترك اليهودية ، واذا رأى فقيراً أعطاه ما يسد حاجته وسار بينهم على هذه الخطة فاطمأنوا اليه

واتبعوا المسيحية وتغلب أتباعه على نجران بكاملها ، ولما بلغ خبره ذا نـواس سار اليهم في جيش كبير من أتبـاعه ، ودعـاهم الى اليهودية فامتنعـوا عليه ، فلما أصـروا شق لهم أخدوداً وأضـرم فيه النـار وألقى جماعـة فيه ومضى عـلى ذلـك حتى قتل منهم مـا يزيـد على عشـرين ألفاً بـالنـار والسيف ، واستـطاع احدهم ان يفلت من الموت ويتصل بقيصر الروم فاستنصره على ذي نـواس ، فكتب قيصر الى النجاشي ليأخذ بـالثأر من ملك اليمن ذي نـواس ، فأرسـل اليـه النجاشي جيشـاً بقيادة إربـاط يبلغ سبعين ألفـاً ، وفيهم أبرهـة الأشـرم الذي غزا الحجاز لهدم الكعبة بعد ذلـك ، فانهزم ذو نـواس وأتباعـه واقتحم بفرسه البحر فلم يعرف عنه شيء بعد ذلك على حد تعبير اليعقوبي .

واستتب الأمر لإرباط في اليمن ، واخيراً نازعه عليها أبـرهة وكـانت له الغلبة ، واستطاع أن يستميـل النجاشي بعـد ان كان قـد غضب عليه بسبب تسلطه على اليمن وقتل مبعوثه إرباط اليها .

وجاء في بعض التفاسير ان الآيات من سورة البروج تشير الى قصة ذي نواس مع نصارى اليمن .

﴿ قتـل أصحاب الأخـدود، النار ذات الـوقود ، اذ هم عليهـا قعـود وهم عـلى ما يفعلون بـالمؤمنين شهـود ، وما نقمـوا منهم الا ان يؤمنـوا بـالله العزيز الحميد ﴾[1] .

وتختلف الروايات حول الدوافع لذي نواس على التنكيـل بسكان هـذا الجزء من البلاد العربية ، فبعضها ينص على أن يهودياً كـان يقيم في نجران ، فعدا أهلها على ابنين له وقتلوهما ظلماً وعدواناً .

وينص بعضها ان تحرك ذي نواس في نجران كان بدافع من حرصه على

---

(١) ولكن ذلك لا تؤكده التفاسير الموثوقة ، وليس بعيداً ان يكـون من الإسرائيليات التى ادخلها كعب الأحبار وأمثاله .

هذا الجزء من البلاد العربية بعد ان انتشرت فيه المسيحية بمساندة الأحباش واتسع نفوذ الأحباش فيه ، ولما احس بخطر الأحباش على المنطقة بكاملها قام بهذا الأمر لقطع الطريق عليهم ، وحتى لا يتسع نفوذهم في بلاده ، ويؤيد أصحاب هذا الرأي رأيهم ، بأن الأحباش منذ أن علموا بما جرى لنصارى نجران هبوا لنجدتهم وأرسلوا جيشاً كبيراً بقيادة إرباط وأبرهة وكانت المعارك لصالحهم ، وبسطوا نفوذهم على اليمن بكاملها ، واخذ ظل اليهود يتقلص من بلاد اليمن وتحل محله المسيحية ، واستمر نفوذ الأحباش في اليمن وتهامة وما جاورها من سنة ٥٢٥ ميلادية الى سنة ٥٧٥ حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وأبعدوا الأحباش عنها في حين ان النصرانية في نجران لم تتأثر بالغزو الفارسي واستمرت الى ما بعد ظهور الاسلام حيث أجلاهم عنها عمر بن الخطاب وأعطاهم ثمن املاكهم وديارهم كما ذكرنا .

ومهما كان الحال فالمقصود من هذه اللمحات عن حياة العرب قبل الاسلام هو ترجيح الرأي القائل بأن العرب لم يكونوا كما يصورهم بعض الكتاب من العرب والمستشرقين أشبه ببنيان قد تداعت أركانه وانهارت أسسه وقواعده ولم يبق شيء منه في المحل المناسب له على حد تعبير أولئك الذين جردوهم من جميع القيم والفضائل وألحقوهم بالوحوش الضارية التي تلتهم كل من تراه لا يعرفون الرحمة ولا العدل ولا شيئاً من مقومات الحضارة والعمران ، وقد ذكرنا ان الدراسات الواعية لتاريخهم الحافل بالإباء والشمم والكرم والنجدة والشعر والحكم والشجاعة وغير ذلك مما يحدثنا عنه تاريخهم وأخبارهم بالاضافة الى ان التجارة التي كانوا يتعاطونها والامارات التي أسسوها على حدود الفرس والرومان ، والديانتين المسيحية واليهودية اللتين انتشرتا في اكثر المناطق العربية ، كل ذلك من المرجحات للوقوف الى جانب الرأي الآخر الذي يراهم كغيرهم من الأمم التي تتمتع بوجودها الذاتي وخصائصها الكريمة في حدود ما يمكن ان ينتج عن حياة البداوة وطبيعة الصحراء القاسية .

وكل ما في الأمر انهم لم يخضعوا لنظام معين من نوع الانظمة التي كانت تخضع لها الدول الكبرى المجاورة لهم ورفضوا جميع انواع التسلط الذي يحد من حرية الأفراد والأسرة والقبيلة . ولعله لذلك ولبعض النواحي الاقتصادية لم تطمع الدول المجاورة لهم كالرومان والفرس والأحباش باحتلال تلك المنطقة من شبه الجزيرة التي لا يرضى أهلها عن الحرية بديلاً مهما كان نوعه .

وعلى اي الاحوال فقد ادعى الهمداني في كتابه الوشي المرقوم ان العرب بسبب اتصالهم بغيرهم وبسبب المركز الديني الذي كان لمكة قد احاطوا بأخبار العرب والعجم وتناقلوها فيما بينهم ، وأضاف الى ذلك احمد امين في كتابه فجر الاسلام ان الهمداني قال : لم يصل الى احد خبر من أخبار العرب والعجم الا عن طريق العرب ، ومضى يقول ، بأن من سكن مكة منهم احاط بما كان للعرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، حيث كانوا يدخلون البلاد للتجارة ويتعرفون على أخبار الناس وأحوال الامم ، ومن سكن الحيرة وجاور الاعاجم عرف من أخبارهم وأخبار حمير وسيرها في البلاد ومخلفاتها الحضارية والثقافية وغير ذلك من أخبارهم ، كما وان من سكن بلاد الشام منهم لا بد وان يكون قد عرف الكثير من أخبار الرومان والإسرائيليين واليونان ، وهكذا بالنسبة لعرب البحرين وعمان واليمن وغيرها من المقاطعات التي كانت تتصل بالامم المجاورة لها وتتبادل واياها مختلف الشؤون الاجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية احياناً .

والذي تجدر الاشارة اليه ولا بد من اخذه بعين الاعتبار هو ان الذي عرفوه واستفادوه من احوال تلك الامم وعاداتها وحضارتها كان محدوداً وغير منظم يوم ذاك لعدم توفر الاسباب الكافية للتنظيم الشامل بسبب الموانع الطبيعية التي كانت تفصل بينهم وبين غيرهم كالصحارى والجبال التي عاشوا فيها طوال حياتهم واختاروا لانفسهم فيها نظاماً مستقلاً أصبح مألوفاً عندهم ومرتبطاً بحياتهم ووجودهم .

هذا بالاضافة الى الامية التي كانت متفشية بينهم الى أبعد الحدود ، ومن الصعب في مثل هذه الحالات والفوارق ان يتاح لأي امة ان تنفعل بغيرها وتستفيد منها الفائدة المرجوة بمجرد الاتصالات التجارية التي كانت تحدث بين الحين والآخر والدعايات الدينية والنوادي الادبية التي كانت تستهدف الاسواق والتجمعات في الغالب ، وبهذه النظرة يمكن ان ننظر الى بقية المناطق العربية التي كانت تخضع لسيطرة الفرس والرومان او غيرهما ، فان تسلط الفرس والرومان على بعض المناطق العربية لاغراض سياسية او اقتصادية لا يقضي على التخلف نهائياً في تلك المناطق ، كما هو الحال في جميع الغزاة والمستعمرين الذين لا يعنيهم من أمر الشعوب المغلوبة على امرها الا التسلط والاستغلال .

هذا مع العلم بأن تلك الشعوب المتحضرة قد مرت بأدوار مختلفة حتى انتهت لدورها الحضاري الذي أدركه العرب في جاهليتهم الثانية ، ومن غير المعقول ان يبلغ العرب هذه المرحلة التي انتهى غيرهم اليها بعد عشرات الاعوام الحافلة بالاحداث والتقلبات بمجرد تلك الاتصالات المحدودة التي كانت تفرضها المصالح المتبادلة .

التحرك العربي نحو الاصلاح

والـذي لا يجوز التنكـر له ان العـرب قد اخـذوا من غيـرهم مـا خف عليهم حمله واستـطاعوا هضمـه ، وظهرت بـوادر التحرك عـلى عقلية العـربي خـلال النصف الاول من القرن السـادس للميلاد ، وبـدأ يفكـر في مستقبـل أفضل يحميه القانون او جماعة أشداء من الفوضى والفساد ، وبدأ هذا الوعي يتحرك في بعض الاوساط وينتشر بسرعة حتى اذا توفرت له الاسبـاب ظهرت في بعض الاوسـاط العربيـة بوادر تبشـر بالخير بـواسـطة تلك الاحـلاف التي أنشئت لمحاربة الفساد والطغيان ، وانطلقت من مكة بصفتها بلد الكعبـة التي يؤمهـا العرب من سـائر الجهـات والمقاطعـات ، والمقر الـرئيسي للمؤ تمـرات العربية والمعاهدات بين قبائل العرب لتمتين الروابط فيما بينهم .

وكان من بين تلك الاحلاف التي تحمل طابع الاصلاح حلف المطيبين الذي اشتركت فيه أبرز القبـائل العـربية للحـد من الفساد والفـوضى وحمايـة الكعبة من الغزاة والمخربين .

وجاء في سبب تسميته بهذا الاسم ان عاتكة بنت عبد المـطلب صنعت طيباً للمجتمعين ووضعوا يدهم فيه اشعاراً بتمـاسكهم واتفاقهم عـلى كل مـا فيه الخير للجميع .

وقيل ان التي جمعتهم ووضعت لهم الطيب شقيقتها ام حكيم البيضاء ، واتسم هذا الحلف بالطابع الديني لانه كان لحماية البيت والدعوة الى الحق .

وحلف اللعقة الذي اشترك فيه بنو مخزوم وعبد الدار وسهم وعدي وغيرهم ، وهؤلاء ذبحوا بقرة ووضعوا أيديهم في دمها رمزاً لتضامنهم في الشدائد والملمات .

وظلت حركة الأحلاف تتسع نحو الأفضل حتى ظهر حلف الفضول الذي أثنى عليه النبي (ص) بعد مبعثه .

وجاء عنه انه قال : حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما يسرني به حمر النعم ولو دعيت الى مثله لأجبت .

وكان من أبرز الدوافع لهذا الحلف محاربة الظلم والفساد والانتصار للمظلوم من أي عنصر كان ، والحد من غطرسة بعض المكيين الذين كانوا يتعمدون الاساءة لغيرهم من الوافدين والمستضعفين .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان رجلاً من بني اسد وفد على مكة في تجارة له ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي وأبى ان يدفع أثمانها لصاحبها ، فاستعدى عليه قبائل قريش فلم يستجب له احد ، فصعد على جبل أبي قبيس وأنشد بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم اشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فاجتمعت قريش في دار عبد الله بن جدعان وتعاهدوا على أن لا يظلم غريب ولا غيره وان يأخذوا للمظلوم من الظالم حقه ، وكان من بين المجتمعين بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وغيرهم ، فقالت قريش هذا فضول

من الحلف فسماه الناس حلف الفضول .

وقيل ان ثلاثة ممن اشتركوا فيه كانوا يعرفون باسم الفضل وهم الفضل بن قضاعة والفضل بن مشاعة والفضل بن بضاعة ، وذهب جماعة منهم الزبير بن عبد المطلب واستخلصوا من العاص حق الأسدي .

والعاص بن وائل كان معروفاً بالغدر والمماطلة ، وفيه نزلت الآية ، ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهداً ، كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا** ﴾ .

وكان قد أوصى خباب بن الارت ان يصنع له سيفاً ، فلما اتم صنعه أتاه به لينقده ثمنه فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد (ص) ، فقال له خباب : لا اكفر حتى يميتك الله ثم تبعث ، فقال العاص واني لميت ، ثم مبعوث ، قال بلى : فقال دعني حتى أبعث فأعطيك ثمن السيف . هذا بالاضافة الى الأسواق والمجتمعات التي كان العرب يستعملونها للتجارة ومعالجة مشاكلهم .

وجاء في تاريخ التمدن الاسلامي انه كان للعرب سوق خارج مكة يجتمع اليه الناس في الأشهر الحرم ينصبون خيامهم يبيعون ويشترون ، ويتبادلون الرأي في كل ما يعنيهم ، ولهم أسواق اخرى من أشهرها سوق عكاظ الذي كانت تشترك فيه أكثر القبائل العربية من كل انحاء شبه الجزيرة يتبارون في الشعر والخطابة والقصص وغير ذلك من المواضيع ، ويختارون الأكفاء لحل المشاكل والخصومات التي تحدث في امثال هذه المواسم .

وقال الاستاذ عبد الرحمن بدوي في كتابه محمد رسول الحرية : وفي الحق ان سوق عكاظ كان مهرجاناً كاملاً تشترك فيه كل القبائل العربية لا سكان مكة وحدهم ، وأضاف الى ذلك ان الملوك والأمراء كانوا يأتون من أطراف الجزيرة العربية حيث تعرض سلع الفرس والروم ، وسلع بلاد اخرى كثيرة ، وتقام فيه منابر الخطابة والشعر ويختارون من القصائد ما يجدر ان

يعلق فوق الكعبة ليبقى في التاريخ باسم المعلقات ، وفي عكاظ كان يقضى بين الناس وتعلن القبائل فيه تخليها عن فجورها واجرامها .

وفي عكاظ كانت تقام أسواق الرقيق من كل الجنسيات الحبشيات السود ، والروميات البيض ، والهنديات والمصريات والفارسيات ، ونساء وسط آسيا .

وكان مع ذلك فرصة للضعفاء يستصرخون فيه من ينجدهم لمقاومة من لا قبل لهم بهم من قطاع الطرق الذين يعتدون بين الحين والآخر على مضارب القبائل الصغيرة والضعفاء وفيه يهدر دم الغادر واستطرد يقول :

لقد كان سوقاً عجيباً للتجارة وتبادل الثقافة والامتعة ، يقف فيه الى جوار الشعراء الذين يتحدثون عن أنسابهم ومفاخر أقوامهم رهبان ثائرون على سلطات كنائسهم ويهود يتلون ما لديهم من الكتاب ، وقرشيات شريفات يتعرضن للرجال ينشدن الأزواج ، وكهان يلقون ما انتهى اليهم من حكم الهند وفارس من خلال جملهم المسجوعة ، وملوك وامراء يبحثون عن البضائع والجواهر النادرة وخمارون ومبشرون ونخاسون وصعاليك وتجار كبار ومؤرخون ونسابون من كل جنس ولون .

وكانت المدن الثلاث مكة والمدينة والطائف من أقرب المدن الحجازية الى الحضارة ومن أقرب هذه الثلاث اليها مكة بحكم مركزها الديني والتجاري القائم على الرحلات التجارية وتوافد الحجاج اليها في كل عام من مختلف انحاء شبه الجزيرة كما ذكرنا أكثر من مرة .

الزعامة المكية بين الخزاعيين والعدنانيين

لقد نص اكثر المؤرخين على ان بني خزاعة تغلبوا على مكة وسيطروا عليها بعد ان نزحوا من اليمن حينما تفجر سد مأرب وغمرت مياهه اكثر المقاطعات الأهلة بالسكان واستمرت زعامتهم عليها اكثر من قرنين من الزمن

كما يبدو من أكثر المؤرخين ، ومنهم انتقلت الى العدنانيين فسيطروا على مكة وجوارها ، ونبغ منهم قصي بن كلاب في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ، وكان قد تزوج ابنة ولي الكعبة احد الخزاعيين ، فأنجبت لـه عدداً من الأولاد ذكوراً واناثاً من بينهم عبد مناف جد الأسرتين الأموية والهاشمية ، وقبيل وفاة أبيها الخزاعي كان قد أوصى لها بسدانة الكعبة ولكنها اعتذرت عن قبول هذه الوصاية ، لأن مهمة السدين تتطلب جهداً لا تستطيع امرأة مثلها ان تقوم بأدائه ، فاضطر والدها ان يجعل السدانة لأحد أولاده (المحترش) ، وهنا وجد قصي مجالاً لاسترجاع سدانة الكعبة الى القرشيين ، فاستغل ضعف (المحترش) واستهتاره واشترى منه سدانة الكعبة بزق من الخمر كما جاء في رواية ابن الأثير .

ولكن خزاعة قد اعتبرت ذلك من قصي تحدياً لزعامتها وتقليصاً لنفوذها المستمد من الاشراف على الكعبة فثاروا على القرشيين ووقعت بين الطرفين حروب دامية استمرت شطراً من الزمن ، وانتهت اخيراً بتحكيم بعض القرشيين فحكم بها لقصي ، وأصبح السيد المطاع بين المكيين وغيرهم فقسم مكة أرباعاً وأعطى لكل حي ربعاً منها فاتسع عمرانها وتزاحم الناس على الهجرة اليها نظراً لموقعها من البيت ، وبقيت السدانة في بيت قصي يرثه الخلف عن السلف الى ما بعد ظهور الاسلام ، وقد تولاها بعد قصي ولده عبد مناف جد الأمويين والهاشميين فتفرع الهاشميون من هاشم بن عبد مناف ، كما تفرع الأمويون من شقيقه عبد شمس .

وجاء في رواية اليعقوبي ان كلاب بن مرة كان له ولدان قصي وزهرة من زوجته فاطمة بنت سعد بن سيل الأزدي الذي يقول فيه بعض الشعراء .

لا أرى في الناس شخصاً واحداً فاعلموا ذاك كسعد بن سيل

ولما مات زوجها كلاب تزوجت من ربيعة بن حرام العذري وخرج بها الى بلاد قومه فحملت معها ولدها قصياً ، وكانت قد سمته زيداً ، فلما بعد

عن بلاده سمته قصياً فشب في حجر ربيعة ، وفي بعض الأيام ، قال له رجل من بني عذرة ، الحق بقومك فلست منا ولم يكن يعرف له قوماً غير القوم الذين يعيش معهم ، ولما أخبر امه بما قاله العذري قالت له انت أكرم منه نفساً ووالداً ونسباً ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك آل الله وفي حرمه ، فأثارت احساسه بذلك وأصبح يحس بالغربة عن قومه ووطنه ، وكره ان يعيش غريباً بين قوم لا تربطه بهم رابطة النسب والعرق ، ولكن امه أبت عليه أن يخرج الى مكة وحيداً قبل موسم الحاج ، وفي الموسم سرحته مع حجاج قضاعة ، فأقام بمكة وبرز بين سكانها ، وكانت حجابة البيت يوم ذاك في بني اياد ، ولما ارتحلوا عن مكة حاولوا ان يحملوا معهم ركن البيت ، ولما عجز البعير عن حمله دفنوه في محل لا يعرفه احد من المكيين على حد علمهم ، ولكن امرأة من خزاعة أبصرتهم وهم يخفونه فأخبرت به قومها فأرجعوه الى محله وتولوا حجابة البيت شطراً من الزمن وعندما شب وترعرع قصي بن كلاب استطاع ان ينحي الغوث بن مرة عن الإجازة[1] فتخوفت خزاعة ان ينتزع منها حجابة البيت ، تلك المهمة التي ترتبط بالزعامة المطلقة على المكيين وغيرهم فاجتمعوا مع احلافهم لحربه ، وجمع هو القرشيين وأحلافهم ، واستنجد بأخيه من امه دراج بن ربيعة بن عوف فانجده بجماعة من قومه وقادهم بنفسه فوافى اخاه قصياً وقد تهيأ لحرب خزاعة وأحلافها فاشتد ساعده بذلك ونشبت بينه وبين أخصامه معارك دامية في مكان يعرف بالابطح وفقد الطرفان عدداً كبيراً من أنصارهما ، وانتهت المعارك بتحكيم رجل من أشراف العرب يدعى يعمر بن عوف بن كعب بن ليث ، فقضى بأن قصياً احق من خزاعة في حجابة البيت وزعامة مكة ، وان ما قتله قصي وجماعته من خزاعة لا شيء عليهم فيه ، وحكم على خزاعة

---

(١) الإجازة ترادف الترخيص الى الحاج بالشروع بأعمال الحج والخروج من عرفات بحيث لا يقومون بأعمال الحج ولا يخرجون من عرفات الا بإجازته .

بدية القتلى من أصحاب قصي ، وان تترك الكعبة ومكة لقصي يتصرف فيها حسبما تفرضه المصلحة .

وبالفعل فقد قام قصي بالمهمة التي تولاها ، وأول عمل باشره ان جمع القرشيين في الحرم وأسكنهم فيه ، بعد ان كانوا يقيمون فيه نهاراً فاذا جاء المساء خرجوا منه الى مساكنهم التي اتخذوها لأنفسهم خارج الحرم .

ونظراً لأنه قد شذ عن المألوف في هذا التصرف وجعل لقريش دون سواهم هذا الامتياز الذي يرفع من شأنهم ، لذلك فقد لقي من كنانة وغيرها من أشراف العرب عتاباً مراً على عمله هذا ، وتعرض لنقمة العرب عليه ، ولكنه استطاع بحكمته ان يصرف الانظار عن عمله هذا ، فجمع قريشاً وفرض على كل انسان مبلغاً من المال ليصنع طعاماً للوافدين في موسم الحاج ، ونحر على كل طريق من الطرق المؤدية لمكة جزوراً ، وعين موضعاً من مكة لصنع الطعام للحجاج فأطعمهم فيه وسقاهم اللبن فوجدوا في عهده ما لم يجدوه في عهد غيره ، فاتجهوا اليه وساندوه في جميع تصرفاته . ومضى هو يعمل لصيانة البيت وتثبيت زعامته ، وعين للكعبة حجاباً واتخذ كل ما من شأنه ان يحول بين خزاعة وبين البيت ، ثم بنى داره بمكة التي عرفت فيما بعد بدار الندوة ، ولم يكن في مكة غيرها يوم ذاك ، ثم اتجه الناس للبناء فيها بعد ان كانوا يسكنون في الشعاب ورؤوس الجبال فجمعهم في مكة وقسم أباطحها أرباعاً بين القرشيين ، فسماه الناس مجمعاً ، واليه يشير الشاعر بقوله :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

ولما استقام امره وأذعن له القريب والبعيد من العرب أعاد بناء البيت بناءً محكماً ورفع جدرانه ضعفي ما كانت عليه أولاً ، وأوصى بالسقاية والرئاسة لولده المغيرة المعروف بعبد مناف ، وجعل لكل واحد من أولاده

الباقين عملاً يقوم به في الموسم ، واستقام الأمر من بعده لعبد منـاف وتقربت اليه خزاعة وبنو الحارث بن عبد منـاف بن كنانـة بالتحـالف معه فعقـد معهم حلفاً كان يعرف بحلف الأحابيش[1] .

وجـاء في رواية اليعقـوبي انهم تحالفـوا بجوار البيت ، وكـانوا يضعـون أيديهم على الركن ويحلفون على النصرة والتعاون على كـل من كادهم والـوفاء بكل ما تعاقدوا عليه .

وجاء في تاريخ أبي الفداء : ان القرشيين الـذين تزعمـوا العرب بسبب استيلائهم على البيت واعتكافهم بجواره هم الذين توالدوا من فهر بن مـالك وكان يعرف بقريش ، ومن لم يكن من ولده فليس قرشياً .

وقيل ان السبب في تسميته بهذا الاسم انه كان قوياً شديـد الساعـدين يشبه في قوته دابة من دواب البحر اسمها (القرش) تفترس جميع ما يعترضها من دواب البحـر وتتغلب عليها ، وعليـه يكون هـذا الاسم وصفاً لـه لا علماً عليه .

وفي مقابل هذا الرأي نص جماعة من الاخباريين ان القرشيين لم يعرفوا بهـذا الاسم قبـل قصي بن كـلاب بن مـرة بن كعب بن لؤي بن غـالب بن فهر بن مالك ، وان هذا الاسم غلب على من تناسل من فهر بعـد ان جمعهم قصي حول الحرم وأسكنهم بجـواره ، وبعد ان كـانوا يسكنـون شعاب مكـة وبطاحها فسماهم الناس قريشاً لأن هذا اللفظ يؤدي معنى التجمع .

ومهما كان الحـال فقد كـان لقصي الفضل الأكبـر في ابراز هـذه الأسرة التي لولا جهوده ونشاطه لم تكن شيئاً مذكوراً يوم ذاك ، واستطاع بحكمته ان

---

(١) وجاء في سبب تسمية هذا الحلف بالاحابيش ، ان المكان الذي تم فيه التحـالف كان يعرف بجبل حبيش على ستة أميـال من مكة ، وقيـل ان بني الهون وبني الحـرث وبني المصطلق تجمعوا لهذا الحلف ، وكلمة التجمع تعني التحبش .

يوجه الأنظار اليه ويجمع العرب حوله بما أحدثه في موسم الحج من اطعام الوفود ورعايتهم والسهر على مصالحهم .

ولما جاء دور ولده عبد مناف استطاع ان يحتفظ بتلك الزعامة ويثبتها بنشاطه وحكمته وتحالف مع العرب الآخرين على نصرة المظلوم ورد كيد المعتدين والباغين .

ووجد العرب في عهده نوعاً من الهدوء والاطمئنان أفضل مما كان في عهد أبيه ، وكان من ابرز أولاده عمرو العلاء الذي عرف بهاشم بعد ان أطعم الجائعين في السنين المجدبة ، وهشم لهم الثريد ، فغلب عليه هذا الوصف ، ولم يعد يعرف بغيره ، فتولى زعامة قريش من بين أشقائه عبد شمس والمطلب ونوفل وأبي عمرو ، وشاءت الصدف ان يكون هاشم توأماً لشقيقه عبد شمس الذي تلاه في الولادة وعقبه ملتصق بعقبه ، مما اضطر القابلة ان تفصل بينهما بسكين كان في يدها ، فقيل يوم ذاك : ان هذين سيحصل بينهما من التقاطع ما لم يكن بين احد من الناس .

وكانت نبوءة صادقة فقد استحكم العداء بين بني هاشم وبين عبد شمس بشكل لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، وبرزت بوادره عندما تولى عمرو العلاء سدانة الكعبة ، تلك المهمة التي تلازمها زعامة مكة وعامة العرب الذين يرتادون مكة لأداء فريضة الحج وغيرها من المناسبات ، وقد نازعه أمية بن عبد شمس وادعاها لنفسه ، فحاكمه الى الكاهن الخزاعي بعد ان ألحت عليه قريش بقبول التحكيم وجعلا بينهما شرطاً خمسين ناقة لصاحب الحق ، وان يبقى المغلوب بعيداً عن مكة لمدة عشرين عاماً ، وكانت نتيجة التحكيم لمصلحة هاشم ، فاستلم من ابن اخيه الابل ونحرها للحجاج والوافدين ، وخرج أمية من مكة لبلاد الشام ، فأقام فيها عشرين عاماً ، مطروداً من الحجاز ، والزعامة في بيت عمه هاشم ، وانتقلت منه الى ولده شيبة المعروف بعبد المطلب ، وكان والده هاشم خرج في تجارة الى بلاد

الشام ، وكلما مر بحي من أحياء العرب يحمل لهم تجارتهم بدون ان يكلفهم شيئاً .

وشاءت الصدف ان تكون نهايته في غزة ، فجزعت عليه قريش ، وخافت ان تتقلص زعامتها على العرب ، فذهب عبد شمس الى النجاشي ليجدد العهود التي كانت بينه وبين القرشيين ، كما توجه نوفل بن عبد مناف الى العراق للاتصال بكسرى ، ولم يكتب لهما البقاء الطويل ، فتوفي عبد شمس بعد أيام من رجوعه الى مكة ، وتوفي نوفل في موضع يقال له (سلمان) فقام المطلب بن عبد مناف بالزعامة بعد أخيه هاشم ، وكان لهاشم من الأولاد عبد المطلب ، والشفاء من زوجته سلمى بنت عمرو بن زيد بن خداش من بني النجار ، ونضلة من زوجته أميمة بنت عدي وأسد جد علي بن أبي طالب (ع) لأمه من زوجته قيلة بنت عامر بن مالك ، وله غير هؤلاء من الأولاد ذكوراً وإناثاً من أمهات شتى .

وتشاء الصدف ايضاً ان يحمل هاشم زوجته سلمى ومعها طفلها شيبة الى أهلها بني النجار في يثرب عندما عزم أن يخرج في تجارته الأخيرة التي توفي فيها ، ولما بلغها خبر وفاته بقيت مع طفلها عند أهلها الى ان شب وترعرع ، وصادف ان رجلاً من تهامة مر بيثرب واذا بغلمان يلعبون في بعض شوارعها ، وبينهم غلام اذا تغلب على رفاقه يقول مفتخراً أنا ابن هاشم سيد البطحاء ، فقال له الرجل من أنت أيها الغلام ؟ فانتسب له ، وعندما مر التهامي بمكة وجد فيها المطلب جالساً بفناء الكعبة وحوله الناس ، فأخبره بما شاهد من ابن أخيه .

وأضاف الى ذلك أنه لم ير غلاماً أظرف منه ، فقام المطلب من ساعته وشد رحاله واتجه نحو المدينة ، ولما دخلها مضى الى حي بني النجار فوجد غلاماً بين جماعة من الناس ظنه ابن أخيه ، وكان لا بد وأن يسأل عنه ليتأكد منه فسأل عنه القوم فأخبروه بنسبه ، ولما عرفوا غايته أشاروا عليه ان يحمله

ويذهب به قبل ان تعرف امه ، فأناخ راحلته ، وقال له تقدم يا ابن الأخ فلم يتردد الغلام وأقبل حتى ركب مع عمه ، ومضى به يجد السير الى مكة فدخلها والناس في أسواقهم ومتاجرهم فرحبوا بقدومه ، وسألوه عن الغلام ، فأجابهم بأني قد اشتريته من يثرب ، ثم أدخله بيته وألبسه حلة فاخرة وحباه وقربه وفضله على أولاده ، وكان اذا خرج الى شوارع مكة وأسواقها يقول الناس هذا عبد المطلب ، فغلب عليه هذا الاسم ولم يعد يعرف بغيره .

ولما سافر المطلب الى اليمن أوكل اليه القيام بالمهمات التي كان يقوم بها وأخبر الناس بحسبه ونسبه ، وتوفي عمه في رحلته تلك في مكان يدعى ردمان من أرض اليمن[١] .

والرأي الراجح عند الاخباريين ان المطلب كان يعلم بمكانه وقد تركه مع أمه الى ان يصبح مالكاً لنفسه ويستطيع الاستقلال عنها ، ولما بلغ سناً تمكنه من الانفصال عن امه ذهب الى يثرب وطلبه منها فلم تعارض في الحاقه بعشيرته ، وكان من أمره أن غلب عليه اسم عبد المطلب لما ذكرناه وظل يعيش مع عمه المطلب ويمارس الاعمال التي يوكلها اليه الى ان سطع نجمه واتسع صيته ، وورث بالتالي زعامة المكيين من عمه المطلب .

وتهيأ له من مقومات الزعامة مالم يتهيأ لغيره حتى من أسرته ، فقد حفر زمزماً وسقى المكيين والحجاج من مائها ، ولم يستأثر به على احد ومضى على شريعة ابراهيم الخليل هو وجماعة من قومه ، وصادف ان أبرهة ملك الحبشة غزا مكة بجنود وحشود لا قبل للمكيين بها واستخدم الفيلة في غزوته هذه ليرهب المكيين ، وكان من قصده هدم الكعبة ، فدب الذعر والخوف بين المكيين واعتصموا بالجبال وبطون الأودية خوفاً على أنفسهم وأموالهم ، ولكن عبد المطلب بقي معتصماً بجوار البيت عظيم الثقة بربه واثقاً بأن الله سبحانه لا يتخلى عمن اعتصم به والتجأ اليه .

---

(١) موضع باليمن من حصون الخيمة .

ولما اجتمع بالغزاة لم يجدوا بداً من اكرامه وتعظيمه ، فعرضوا عليه ان يطلب حوائجه ، فطلب إبلاً له كان الاحباش قد صادروها مع ما صادروه من اموال المكيين وممتلكاتهم وتجاهل امر البيت ، فلفت موقفه هذا نظر الغزاة واستخفوا به ، وظنوا انه سيطلب منهم التراجع عن البيت الذي هو أعز وأغلى من جميع ما يملكه ، ولكن عبد المطلب صفعهم بقوله : اني طلبت رد الابل لاني ربها ومالكها ، وللبيت الذي اردتموه رب سيدفعكم عنه ويحميه من سطوتكم وبأسكم .

ويدعي الاخباريون انه وقف الى جانب البيت وتمثل بالابيات التالية :

لا همّ ان المرء يمنع حله فامنع حلالك
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم عدواً محالك
ولئن فعلت فإنه امر تتمّ به فعالك

وظل معتصماً بالبيت يستجير ويستغيث بالله سبحانه ، وأرسل ولده عبد الله بعد ما شاهد تلك الأسراب من الطيور التي لم تعرفها مكة في تاريخها الطويل ، أرسله ليكتشف له امرهم ، وما لبث ان رجع اليه مسرعاً ليزف اليه البشرى بما جرى للغزاة مما لا يمكن تفسيره الا بالعناية والرعاية التي أحاط الله بها حرمه وسدنة بيته .

ورد الذين كفروا بكيدهم لم ينالوا شيئاً وكفى الله المؤمنين القتال . وحكى الله قصتهم في كتابه الكريم في السورة المعروفة بسورة الفيل ، فقال سبحانه :

﴿ الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل الم يجعل كيدهم في تضليل وارسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

وملخص هذه الحادثة التاريخية التي نص عليها القرآن الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يأباها العقل ، ورواها جميع المؤرخين والمحدثين بتفاوت قد يثير الشك في تفاصيلها وملابساتها لا في أصلها المقطوع به .

ومجملها ان الاحباش بعد ان تغلبوا على اليمن قصدوا مكة مزمعين على هدم الكعبة ، لان العرب قد اجتمعوا عليها مع ما بينهم من انقسام وخلاف وتباين في العادات والأعراف ، وأدرك الغزاة انها مصدر قوتهم واستقلالهم عن الأمم التي جاورتهم ، فاذا ذهبت تفرقوا وأصبحوا فريسة لكل طامع ، فساروا في عشرات الألوف من المقاتلين واستخدموا الفيلة في هذه الغزوة ليرهبوا العرب والمكيين بهذا المخلوق الذي لا يعرفه العربي من قبل ، ونزلوا في جوار مكة بعد ان صادروا جميع ما وجدوه من المواشي والابل .

وكان من امر عبد المطلب ، ان أمر المكيين باخلائها وبقي وحده في جوار البيت ، ولما عزم أبرهة على تنفيذ مهمته ، أرسل الله على جيشه أسراباً من الطير تحمل شيئاً أشبه بالحصى لا تصيب احداً منهم الا أصيب بمرض الجدري فيتناثر لحمه ويتساقط ، وأصيب أبرهة نفسه بحصى تناثر لحمه منها ومات في صنعاء ، فرجع ذلك الجيش مذعوراً خائفاً لا يلوي على شيء ، وليس ذلك على الله بعزيز .

وقال الدكتور طه حسين في كتابه مرآة الاسلام : في هذه الموقعة أظهر عبد المطلب من الصبر والجلد والشجاعة والثقة بالله ما لم يظهر من احد سواه من أشراف المكيين والقرشيين ، فكان لذلك أثره البالغ عند عامة العرب وتضاعفت ثقتهم به ، فاتسعت زعامته في خارج مكة ، وظل هذا الحادث حديث الناس زمناً طويلاً ، ورجعوا الى الكعبة يلوذون بها في مهماتهم ، بعد ان حماها الله من كيد الظالمين وشر الغزاة ، الذين جاؤوا بكل ما لديهم من قوة واستخدموا الفيلة للارهاب ، فرد الله كيدهم ومزقهم تمزيقاً بواسطة أصغر الطيور وأقلها خطراً بنظر الناس ، وقد حكى الله قصة هؤلاء الغزاة

وقصها على نبيه بعد ان تكتل العرب ضده ، وكانت قريش من أشدهم كيداً له فخاطبه الله بهذه الآيات وأعاد على المكيين ما ليس ببعيد عن أذهانهم ، لأن اكثرهم يدركون ويتذكرون ما صنعه الله مع من هو أشد منهم بأساً وأكثر منهم عدداً وعدة ، وفي الوقت ذاته أراد ان يقول لنبيه : ان الذي أهلك أصحاب الفيل وردهم على أعقابهم خائبين خاسرين لقادر أن يرد عنك كيد القرشيين وجميع الظالمين .

ورجح الشيخ محمد عبده في تفسيره ان الطير الذي ورد في الآية الكريمة من الجائز ان يكون من نوع البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض الفتاكة ، وان تكون تلك الحجارة من الطين المسموم الذي تحمله الرياح يتعلق بأرجل تلك الطيور ، فاذا أصاب انساناً انتقل المكروب الى جسده فأحدث فيه بعض الجروح ، وبالتالي ينتهي الى فساد الجسم .

ومهما يكن الحال فالتأويل والتفسير لا اجد له وجهاً ما دام القرآن ينص على ان الله قد أرسل عليهم طيراً يرميهم بحجارة تجعلهم كورق الشجر اليابس الذي يعصف به الريح ويشتته في كل مكان وهو القادر على ما يريد .

وكما ذكرنا لقد كان لهذا الحادث الذي لم يدخل في حساب احد من المكيين وغيرهم أثره البالغ عند عامة العرب ، وأصبحت مكة مهوى القلوب والأفئدة واتجه اليها العرب من كل مكان بالتقديس والتعظيم ، وأصبح لأهلها من المكانة ما أتاح لهم أن يتجولوا في تجارتهم ، وأن ينعموا باليسر ووسائل الترف والثراء ، ما لم يكن لغيرهم من قبائل العرب الضاربة في شمال شبه الجزيرة ، واتسعت زعامة عبد المطلب ومركزه الديني مما جعل أخصامه ينطوون على أنفسهم يعبث فيها الحقد والحسد كما يعبث الذئب الضاري في زريبة الغنم .

ويدعي الاخباريون ان عبد المطلب لم يكن له من الولد أولاً الا الحارث ، فنذر لله ان رزقه الله عشرة أولاد ان يذبح منهم ولداً قرباناً لله ،

ولما تكاملوا عشرة بولادة عبد الله وهو أجملهم وأكثرهم خصالاً كريمة جمعهم وأقرع بينهم فكانت القرعة على عبد الله فصمم على أن يفي بنذره ويضحي بولده المذكور ، ولما عرفت منه قريش ذلك اجتمعت عليه لتصرفه عن هذا الامر لئلا يصبح سنة بين العرب ، واقترحوا عليه ان يأخذ مائة من الابل ويقرع بينها وبين عبد الله ، ففعل ذلك ثلاث مرات فجاءت القرعة على الابل فنحرها وتركها للناس فتواثبوا عليها من كل جانب كما يدعي الاخباريون» .

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب

ولما أصبح عبد الله بحاجة الى الزواج حاول والده ان يختار له الفتاة التي تجمع إلى شرف العشيرة أكرم الخصال ، وبدأ يستعرض الأسر والبيوت وتاريخهم والخصائص التي تتميز بها كل أسرة ، فاذا الخصال التي ينشدها ، والضالة التي يبحث عنها قد وجدها في حي من أحياء بني زهرة في بيت وهب بن عبد الله ، فذهب ومعه ولده عبد الله الى حي بني زهرة ، ودخل على سيدهم وهب بن عبد الله ليخطب اليه ابنته آمنة لولده عبد الله ، وقيل إنه خطبها من عمها اهيب وكان والدها ميتاً .

وما كان لبني زهرة ولا لغيرهم ان يترفعوا عن مصاهرة عبد المطلب لا سيما إذا كان الزواج لعبد الله الذي لم تعرف قريش له نظيراً بين شيوخها وشبابها ، وتم الزواج بين فتى قريش وفتاة بني زهرة ، هذا الزواج الذي مهد لتحول جديد في تاريخ العرب ، بل وفي تاريخ البشرية بكاملها .

ولم يقدر لعبد الله ان يعيش طويلاً بعد هذا الزواج الميمون ، فقد خرج بعد فترة لا تتجاوز عاما واحداً في تجارة الى غزة من بلاد الشام مع جماعة من

القرشيين وترك ولده محمداً بن عبد الله طفلاً صغيراً وقيل حملاً ، وفي طريقه من غزة عرج على يثرب لزيارة أخواله فيها وقبل ان يبارحها أصيب بمرض منعه عن متابعة سفره الى مكة ، واضطر رفاقه ان يتركوه مريضاً عند اخواله ، وحملوا نبأ مرضه لأبيه عبد المطلب ، فأقلقه هذا النبأ وكان له وقع أليم في نفسه ، فأرسل كبير أولاده الحارث الى المدينة ليلازم أخاه ، ويعود به بعدما يتماثل للشفاء ، غير ان القضاء كان يسرع بعبد الله الى نهايته ، فلم يصل الحارث الى يثرب إلا بعد وفاة أخيه ، فرجع منها يحمل نبأ وفاته الى أبيه وزوجته ، فكان أثره عليهما أشد وأقسى من تأثير الصواعق ، ولا سيما زوجته التي أحست بالسعادة في حياتها الى جانب هذا الزوج الذي حسدها عليه القريب والبعيد ، ولكنها استسلمت لقضاء الله وانقطعت الى طفلها وقد أصبح املها الوحيد ، ورجاءها بعد أبيه لا سيما وقد رأت منه ما لم تره أم من طفل قبلها كما يدعي الاخباريون .

مولد النبي

لقد كان مولده كما جاء في اكثر الروايات خلال العام الذي غزا فيه أبرهة مكة لهدم الكعبة ، وهو المعروف بعام الفيل الموافق لسنة ٥٧٠ من ميلاد السيد المسيح ، وقيل انه ولد قبل ذلك بخمسة عشر عاماً ، وقيل بعد عام الفيل بسبعين عاماً[١] .

وبالرغم من وجود امه وانصرافها اليه فلقد أصبح الشاغل الوحيد لعبد المطلب حتى عن أولاده وأعز شيء لديه وأوكل امر إرضاعه إلى جارية لولده

(١) وغير بعيد ان تكون ولادته قبيل عام الفيل او بعده بيسير ولكن التحديد بسبعين عاماً لا تؤيده حوادث التاريخ .

أبي لهب تدعى ثويبة ، وضم اليه اليتيم وأمه ، ورأى ان يرسل حفيده اليتيم الى بادية بني سعد ليرضع هناك وينشأ ، ويتعلم في البادية النطق بالكلمات ، كما كانت عادة الأشراف في مكة حيث كانوا يسلمون أولادهم الرضع الى المراضع اللواتي كن يقصدن مكة في السنين العجاف ، وكانت تلك السنه قاسية على قبيلة بني سعد بالذات ، فقدم نسوة بني سعد مع غيرهن يلتمسن الأطفال طمعاً في بر الآباء وعطائهم ، فعرضت عليهن آمنة وعبد المطلب طفلهما ، فأعرضن عنه بعد ان عرفن يتمه وفقره .

وأوشكت القافلة ان ترجع بالنسوة ومع كل واحدة رضيع ، وكانت حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية قد رأته أولاً ورفضته كغيرها من المرضعات ، ولكنها لم تجد طفلاً آخر غيره لأن أمهات الأطفال كن يعرضن عنها لضعفها وهزالها ، وفيما هي خارجة من مكة عز عليها ان ترجع ولا شيء معها ، فقالت لزوجها : اني لأكره من بين صواحبي ان أعود ولم آخذ معي احداً لأرجعن الى ذلك اليتيم ورجح لها زوجها ذلك فرجعت اليه واحتضنته والأمل يملأ نفسها في ان تجد بسببه ما لم تجده مرضعة غيرها .

محمد في حي بني سعد

وعادت به حليمة الى حيها حيث لم تجد غيره ولكنها وجدت في بركته منذ ان وطئت قدماها الحي ما لم تجده امرأة من اللواتي كن معها وشعرت حليمة وزوجها انهما قد رجعا من مكة باليمن والغنم لا بالفقر واليتم اللذين منعا غيرها من النسوة ان يقدمن عليه .

وروى الرواة عنها انها قالت : قدمنا منازل بني سعد ومعي يتيم عبد المطلب ولا أعلم أرضاً من أرض الله اجدب من أرضنا ، فكانت غنمي تجيء

حين حل محمد فينا شباعاً فنحلب منها ونشرب ويتدفق الخير علينـا ، وأصبح جميع من في الحي يتمنى ذلك اليتيم الذي يسر الله لنـا ببركتـه الخير ودفـع عنا الفقر والبلاء .

وكـانت حليمة تـرعاه هي وزوجهـا وتقـدمـه عـلى أولادهـا الى أن بلغ السنتين من عمره فـرجعت به الى امـه وجده كـما هي العادة بـين المراضـع ، ولكن على كره منها ، واحب جده ان يبقى معها خوفاً عليه من الأمراض التي كـانت تتعرض لهـا مكة بسبب الـوفود التي تلتقي فيهـا من جميع انحـاء شبـه الجزيرة ، وفي الوقت ذاته فإن جو الصحـراء يساعـد على صفـاء الفطرة ونمـو الأعضاء ويزود الجسم بالقوة والمناعة ولا سيما وقد رأى عبد المطلب من عطف حليمـة عليه ولهفتهـا على بقـائه معهـا ما لم يـره من أم على طفلهـا الوحيـد ، واستجابت آمنة لرغبة جده فرجعت به حليمة الى حيهـا وهي تحس بالسعـادة والغبطة .

وجاء عن حليمة انها قالت : لقد قدمنا مكة على آمنة بعد ان تم لمحمد عامان ونحن نحرص على مكثه فينا لما نرى من بركته فكلمنا أمه وقلنـا لها لـو تركته معنا حتى يغلظ ويشتد ولو هذه السنـة فإنـا نخشى عليه وبـاء مكة فلم نزل بها حتى ردته معنا ، وأضافت حليمة الى ذلك : إنه لما ترعرع كان يخـرج فينظر الى الصبيان يلعبون فيتجنبهم .

وقال لي يوماً : يا أمـاه ، مالي لا أرى اخـوتي بالنهـار وكان اخـوته من الرضاع عبد الله وأنيسة والشيماء ، فقلت : فدتك نفسي انهم يرعون غنماً لنـا فيـروحون من ليـل الى ليل ، فقـال لي : ابعثيني معهم فأرسلتـه معهم فكـان يخـرج مسروراً ويعـود مسروراً وظـل فترة من الـوقت على ذلـك الحال الى ان جاءه في بعض الأيام ملكان فأضجعاه وشقا صدره .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان عبد المطلب كـان قد سلمـه الى الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي زوج حليمة بنت أبي ذؤيب فلم يـزل مقيماً في

بني سعد يرون به البركة في أنفسهم وأموالهم حتى كان من شأنه في الذي أتـاه في صورة رجل فشق عن بطنه وغسل جوفه وشاعت هـذه الحادثـة في الأحياء العربية ولكنهم لم يعرفوا الغاية منها فخافوا عليه وردوه الى جـده وأمه ولـه من العمر خمس سنوات ، وقيل أربع سنين وهو في خلق ابن عشر وقوته .

حادثة شق الصدر

لقد جاء في شرح النهج عن حليمة السعدية ، ان محمداً (ص) بعـد ان أتم السنتين وفطم عن الرضاع كان يشب شباً لا يشبّـه الغلمان حتى كـان غلاماً جفراً فقدمنا به على أمه ، وقلنا لها لـو تركتـه عندنـا حتى يغلظ فإنـا نخشى عليـه وباء مكـة فلم نزل بهـا حتى ردته معنـا فرجعنـا به الى بـلاد بني سعد ، فوالله انه لبعد ما قدمنا باشهر مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا اذ أتـانا اخوه يشتد ، فقال لي ولأبيه : ها هو ذا أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه فهما يسوطانه ، قالت فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له ما لك يـا بني ؟ فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعـاني ثم شقا بـطني والتمسا فيـه شيئاً لا أدري ما هو .

قالت حليمة فرجعنا به الى خبائنـا ، وقال لي أبـوه : يا حليمـة ، لقد خشيت ان يكون هذا الغلام قد أصيب فالحقيه بأهله فاحتملته حتى قدمت به على أمه ، فقالت ما أقدمك به يا حليمة وقد كنت حـريصة عليـه وعلى مكثـه عندك ، فقلت قد بلغ الله بـابني وقضيت الذي عـلي وتخوفت عليـه الأحداث وأديته اليك كما تحبين ، قالت أتخوفت عليه الشيطان فقلت نعم ، قـالت كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لابني لشأناً ، أفـلا اخبرك خبـره قلت

بلى ، قالت رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاءت لـه قصور بصرى من الشام ، ووالله خلال حملي به مـا رأيت حملاً قط كـان اخف منه ولا أيسـر منه وحين ولادته بدا واضعاً يديه بالأرض ورافعاً رأسه الى السماء دعيه عنـدك وانطلقي به راشدة مهدية .

وروى الطبري في تاريخه هـذه القصة عن شـداد بن اوس ، انه سمـع النبي يحـدث بهـا ، ولكن روايـة شـداد بن اوس تختلف عن روايـة اليعقـوبي ورواية شرح النهج وغيره في المكان الذي جرى فيه الحادث وعدد الأشخـاص الذين جاؤ وه والكيفية التي وقع عليها .

وجاء فيها ان احدهم أخرج أمعاءه فغسلها بثلج كـان معهم وردها الى مكانها ، وجاء الثاني فأخرج قلبه والنبي ينظر اليه ولا يدري ما يراد به فشقـه واخرج منه مضغة سوداء فرماها وتناول شيئاً فاذا هو خاتم من نور تحار أبصار الناظرين به فختم به قلبـه ورده الى مكانـه ، وأضاف النبي (ص) عـلى حد زعم الـراوي انه ظـل يجد بـرد ذلك الخـاتم في قلبه دهـراً طويـلاً ، ثم جـاء الثالث فأمـرّ يده ما بين مفرق صدري الى عانتي فالتأم ذلك الشق واخذ بيدي فـأنهضني انهاضاً لـطيفاً ، الى غـير ذلك ممـا اشتملت عليه روايـة الطبـري في الكرامات والخصوصيات التي لم تتفق عليها المرويات حول هذا الموضوع .

وهذا الاختلاف وان كان بذاتـه من الدواعي التي تثير الشكوك حـول هذه الحادثة ، وبخاصة اذا نظرنا الى أسانيـد تلك المرويـات وعرضنـاها عـلى الأصول التي لا بد من توفرهـا في الروايـات المقبولـة ، الا ان ذلك وحـده لا يكفي لانكـار هـذه الحـادثـة من أسـاسهـا واتهـام القصـاصـين والمشـوشـين باختلاقهـا ، لأن ما جـاء في تلك المرويـات هو من نـوع الاعجاز والعقـل لا يحيل ذلك ما دامت قدرة الله تتسع لما لا تحيط بـه العقول ولا تـدركه الأوهـام والظنون وقد اقترنت حياة الرسول الأعظم بأكثر من حادثة من الحـوادث التي لم يجد لها العالم والباحث تفسيراً بغير ارادة الله وليس ذلك عليه بعزيز .

محمد مع جده عبد المطلب

ويدعي اكثر المؤرخين والمؤلفين في السيرة ان آمنة بنت وهب توفيت وله من العمر ست سنين وقيل أكثر من ذلك ، وكانت في حدود الثلاثين من عمرها في مكان يعرف بالابواء بين مكة والمدينة في طريقها لزيارة اهلها في يثرب فانصرف اليه جده العظيم يرعاه ويحوطه ويفضله على جميع ولده وبنيه .

وكان قد تعود ان يستظل نهاراً بالكعبة على فراش مرتفع يحيط به ولده وأشراف مكة ، فيأتي محمد وهو غلام صغير فيثب على فراش جده ، فيأخذه أعمامه ليصرفوه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوه ان لابني هذا لشأناً .

وبلا شك فإن الملامح التي كانت تظهر عليه ، والبركات التي رافقته منذ ولادته في أحضان حليمة وامه وجده بشكل غير عادي ، كل ذلك كان من دواعي الفراسة بمستقبل سعيد حافل بالحوادث الجسام لهذا اليتيم الذي لم تكن مكة وطواغيتها وجبابرتها يعرفون يوم ذاك ما تخبئه الأعوام القليلة الآتية من امر محمد يتيم عبد الله .

ويدعي الاخباريون بأن عبد المطلب كان يعرف من تلميحات الكهان والاحبار ما سيكون من امره وأنه قد وفد على سيف بن ذي يزن مع وجوه مكة من القرشيين وغيرهم لما تغلب على اليمن وتمكن من احتلالها ، فخلا به سيف بن ذي يزن وبشره بمولود لقريش في مكة يكون رسولاً الى الناس اجمعين ووصفه له بصفاته فوجد عبد المطلب ان تلك الصفات لم تتوفر في غير حفيده فسجد لله شاكراً ، واحس سيف بأن المولود الذي يتحدث عنه موجود في بيت عبد المطلب ، فأوصاه به خيراً وحذره من اليهود وغيرهم .

ويكاد المؤرخون يتفقون على ان بعض الأحبار والكهان كانوا يعلمون عن طريق الأناجيل والتوراة وأخبار الأنبياء السابقين بظهور نبي في ذلك العصر تتفق صفاته تمام الاتفاق مع الصفات الكريمة التي تحلى بها النبي (ص) وكانوا يخبرون بذلك من يطمئنون اليه احياناً ، وفي كتب الحديث والتاريخ عشرات الامثلة على ذلك .

محمد مع عمه أبي طالب

على ان هذا الحنان الدافق الذي مسح به جده جراحات يتيمه لم يدم له طويلاً ، فما أن بلغ الثامنة من عمره حتى أحس عبد المطلب بالانهيار وان الموت يسرع اليه بين عشية وضحاها ، وكان قد بلغ مائة عام او تزيد فجمع ولده ووزع عليهم المهمات التي كان يقوم بها ، والخدمات التي كان يقدمها للمكيين وغيرهم من الوافدين الى مكة ، ولم يكن يفكر في شيء تفكيره في حفيده الذي سيمضي عنه ويتركه وحيداً في هذه الدنيا العريضة بلا مال ولا أب ولا أم فأوصى أولاده العشرة بمحمد ، واختار من بينهم عبد مناف فعهد اليه برعايته وان يضمه الى أولاده ، وهو شقيق والده الراحل ولدتهما ام واحدة ، ولوح لهم بما سيكون له من شأن في مستقبل حياته ، وكان مما قاله لهم : اني قد خلفت لكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب الناس على حد تعبير اليعقوبي في تاريخه وانتقل الغلام اليتيم الى بيت عمه أبي طالب بعد ان رحل جده عن هذه الدنيا فأدى ابو طالب الامانة وحفظ الوصية ، وكان خير كفيل له في صغره وخير ناصر له عندما احتاج الى الانصار والاتباع ، وظل محمد شغله الشاغل الذي شغله حتى عن أولاده في أشد المراحل ضيقاً وحرجاً حتى النفس الاخير من حياته كما سنتعرض لذلك في الفصول الآتية من هذا الكتاب .

وجاء في تاريخ اليعقوبي وغيره ان عبد الله والد الرسول ، وأبا طالب والزبير والمقدم المعروف بعبد الكعبة كانوا لأم واحدة وهي فاطمة بنت عائذ ابن عمران بن مخزوم ، وتكنى بأم حكيم البيضاء ، وبقية أولاده لامهات شتى ، وورث أبو طالب مع انه كان فقيراً لا يملك شيئاً زعامة أبيه عبد المطلب ، وخضع له القريب والبعيد .

وجاء عن علي (ع) انه قال : ان أبي ساد الناس فقيراً وما ساد فقير قبله ، وكما ذكرنا لم يكن يعنيه شيء كما تعنيه رعاية محمد والمحافظة عليه فاذا اضطر الى سفر لخارج مكة او الحجاز اخرجه معه ، وكانت أولى سفرات النبي معه الى بصرى وله من العمر تسع سنوات ، فلم تطب نفسه يوم ذاك ان يتركه مع أولاده ويمضي في سفرته الطويلة ، في حين ان زوجته فاطمة كانت تحرص عليه اكثر من صبيتها وترعاه في ليلها ونهارها .

ويدعي الاخباريون ان الاحبار والرهبان ومن رآه من الكهان في تلك السفرة قد نصحوا أبا طالب بالحرص عليه وخوفوه من اليهود الذين كانوا ينتظرون مولوداً من قريش يرسله الله الى العرب والعجم .

كما يدعي المؤلفون في السيرة النبوية من الكتاب القدامى انه قد ظهر للنبي (ص) في تلك الرحلة من الكرامات والفضائل ما لا يدخل في حدود التصور ، وهو مع تلك القافلة التي ضمت أعيان المكيين والقرشيين ، ولكن تلك المرويات على كثرتها وشهرتها بين المؤرخين والمؤلفين في سيرته لا يكاد يثبت منها شيء عند عرضها على أصول علم الدراية ، كما اشرنا الى بعض عيوبها في كتابنا (الموضوعات في الآثار والاخبار) .

وظل يتيم عبد الله في احضان عمه وزوجته فاطمة بنت أسد لا يشعر بالغربة بين أولادهما ولا يحس بمرارة اليتم والفقر ، ووجد منهما من الحرص والرعاية فوق ما يتصوره انسان من أبوين مع وحيد عزيز عليهما ، وبلغ من حرص فاطمة بنت أسد عليه انها كانت في سني الجدب والقحط التي مات

فيها الناس جوعاً وعطشاً تحرم أولادها من القوت الضروري وتطعمه اياه واستمرت تعامله بهذه المعاملة الى ان شب وترعرع ، وأسرعت الى تصديقه والايمان برسالته والاخلاص لها في السر والعلانية هي وزوجها وأولادها منذ ان بدأ يدعو الناس لعبادة الواحد الاحد والاستخفاف بالاصنام والتماثيل التي اتخذوها أرباباً من دون الله ، ولم يكن محمد بن عبد الله وهو الوفي الكريم الذي علم الناس الوفاء والاحسان ، لم يكن لينسى لها مواقفها التي أنسته فقد أبيه وأمه وجده ، فلما ماتت بكاها وقال والدموع تنهمر من عينيه ، اليوم ماتت أمي وكفنها بقميصه ونزل في قبرها واضطجع فيه ، وصنع ما لم يصنعه مع مسلم قبلها ، وقال لمن سأله عن هذا الموقف الذي لم يعهدوه منه مع احد قبلها ، انها كانت امي تجيع أولادها وتطعمني وتشعثهم وتدهنني وما أحسست باليتم منذ ان التجأت اليها .

وعلى أي الأحوال فكما كان الزوج كانت الزوجة وأولادها حرصاً وعطفاً وايماناً وتضحية في سبيل محمد ورسالته ودفاعاً عنه وعنها في جميع المواقف والمشاهد .

وامتاز هذا البيت عن غيره حتى من بني عمومته وبنيهم الاقربين ومن تناسل منهم في جميع المراحل التي مرّ بها محمد ودعوته ، كما يبدو ذلك من الفصول الآتية في هذا الكتاب .

واتفق المؤرخون والمحدثون ان محمداً في المراحل التي مر بها في صباه وشبابه كان يخطو الى الأمام بخطى واسعة سريعة في خَلقه وخُلقه وأصبح في مطلع شبابه مرموقاً ومثلاً كريماً لكل الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة ، ووجد فيه المكيون والقرشيون سيداً من سادات العرب الموهوبين ومرجعاً اليهم في المهمات وحل الخصومات كعمه الكفيل ، ففي حرب الفجار التي نشبت بين كنانة وقيس كان هو وعمه عوناً وسنداً للمظلومين على الظالمين ، وعندما اشتركا مع كنانة كان النصر حليفهما على قيس كما جاء في رواية

اليعقـوبي وقالوا له : يا ابن مطعم الطير وساقي الحجيج لا تغب عنا فإنا نرى بحضـورك الغلبة والـظفر ، فقـال : إذا اجتنبتم الظلم والعـدوان والقـطيعـة والبهتان فاني لا أغيب عنكم فعاهدوه على ذلك .

وروى بعض الاخبـاريـين ان النبي (ص) كـان يـوم ذاك في حـدود العشرين فاشترك مع كنانه وطعن أبا البراء مـلاعب الاسنة فـأرداه عن فرسـه وكانت الغلبة للكنانيين عـلى غيرهم .

وجـاء عن أسباب تلك المعـارك بين كنـانة وقيس ان البـراض بن قيس وثب عـلى رجل من هـذيل فقتله وكـان الى جوار حـرب بن امية ، فـأخرجـه حرب بن امية من جواره ففر الى الحيرة والتحق بالنعمان بن المنذر ، واجتمـع هو وعروة بـن عتبة في جوار النعمـان ، وقد اعتـاد النعمان ان يـوجه في كـل سنة قافلة الى سـوق عكاظ للتجـارة ولا يتعرض لهـا احد ، حتى قتـل النعمان أخاً لبلعاء بن قيس ، فكـان بلعاء يعتـرض قوافـل النعمان ويستـولي عليها ، فـطلب النعمان من عـروة بن عتبـة بن جعفـر بن كـلاب والبـراض بن قيس حمايتها ، فتبرع كل منهما لذلك وتنازعا أيهما يقدم هذه الخدمة للنعمان ، وكانَ الحل الآخير ان تعـرض البراض لعـروة وقتله ، فاجتمعت قيس عـلى مقاومـة البراض ، والتجأت كنانة لقريش ، ونشب القتال بين الطرفين في رجب احد الأشهـر الحرم ، وسميت تلك الحـرب بالفجـار لأنها تحـدت حـرمـة الأشهـر الحرم .

ويدعي بعض المؤرخين ان الزبير بن عبد المطلب كان قائـد الهاشميـين في تلك المعركة ، بينـما يرى فـريق آخر ان أبـا طالب قـد منع الهـاشميين من الاشتراك فيها وتخلف عنها عبد الله بن جدعان وحرب بن امية .

حلف الفضول

واشترك بعد أن تجاوز العشرين من عمره في حلف الفضول ، وكانت الغاية من هذا الحلف مناصرة المظلوم والوقوف في وجه العدوان من أي مصدر كان .

وجاء عن النبي (ص) انه قال : بعد ان أرسل رحمة ونذيراً للعالمين ، لقد حضرت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما يسرني به حمر النعم ولو دعيت الى مثله لأجبت .

وقد ذكرنا سابقاً ان السبب في انشاء هذا الحلف هو محاربة البغي والعدوان ووضع حد لغطرسة القرشيين واعتداءاتهم المتكررة على الوافدين في موسم الحج لزيارة البيت .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان التجاوزات التي كانت تصدر من فتيان قريش على الوافدين لم تكن لتقف عند حد لولا حلف الفضول الذي وقف أعضاؤه بحزم في وجه أولئك المعتدين ، وذكر من جملة حوادث الاعتداء ان رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً ومعه ابنة له تدعى القتول من اضوأ نساء العرب ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه ، فقال الخثعمي من يعديني على هذا الرجل ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فذهب الى أعضائه واستجار بهم ، فاجتمعوا على الغاصب وأجبروه على ارجاعها اليه قبل ان يمسها ، الى كثير من أمثال تلك الحادثة والمشاكل والخصومات التي وضع لها حداً أعضاء ذلك الحلف .

وبقي لحلف الفضول صورة طيبة في الأذهان الى ما بعد ظهور الاسلام بزمن طويل ، لانه يلتقي في أهدافه مع أهداف الاسلام ومقاصده ، ولأكثر

من مناسبة في عهد الأمويين وغيرهم تمنى جماعة من المخلصين ان يعود هذا الحلف من جديد الى الحياة ، لأنه كما ذكرنا لا ينفصل في أهدافه عن الاسلام ، ولا يعدو إحياؤه ان يكون تنفيذاً لما دعا اليه القرآن وفرض على الحاكمين تنفيذه بكل امانة واخلاص .

وجاء في البداية والنهاية عن محمد بن ابراهيم بن الحارث التميمي انه كان بين الحسين بن علي (ع) وبين الوليد بن عتبة بن ابي سفيان نزاع على مال بذي المروة يدعيه كل منهما والوليد يوم ذاك أمير على المدينة لعمه معاوية بن أبي سفيان ، فتحامل الوليد على الحسين (ع) واغتصبه حقه بقوة السلطة التي كان يتمتع بها ، فقال الحسين (ع) : أقسم بالله لتنصفني من حقي او لآخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ، وأدعو لإحياء حلف الفضول ، وكان في مجلس الوليد جماعة من أعيان المسلمين ، منهم عبد الله بن الزبير ، فقال وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعاً ، وبلغت مقالتهما المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك .

ولما شاع حديث الحسين عن التفكير في احياء هذا الحلف وتعاقد هؤلاء معه دخل معهم عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التميمي وكان من وجوه المسلمين ووقف الى جانبهم ، وحينما احس الوليد بهذا التكتل الجديد لاحياء حلف الفضول أنصف الحسين ورد اليه الأموال التي اغتصبها منه ، وكان من الطبيعي ان يهتز معاوية ويضطرب هو وعماله في مختلف المقاطعات من تلك الأصوات التي تعالت في وجه الظلمة والغاصبين ، لأنها تعنيهم اكثر من أي كان من الناس لأن دولتهم قامت على الظلم والبغي واغتصاب الحقوق وخنق الحريات واستغلال جميع الفئات لصالح الفئة الحاكمة ، وهذا ما تعنيه كلمتهم المشهورة (السواد بستان لقريش) ، وأكدت ذلك سيرتهم وسياستهم التي اختطوها لأنفسهم طوال حكمهم الغاشم .

ومجمل القول ان حلف الفضول الذي تبناه ابو طالب وغيره من القرشيين والمكيين ، واشترك فيه محمد بن عبد الله (ص) كان يشكل النواة الأولى لأهدافه التي ظهرت في رسالته ، وما كانت أحاديثه عنه بعد رسالته ، الا ليوقظ الضمائر ويحرك المشاعر الى التكتل في وجه الظلم ، والتعاون على الخير في كل عصر وزمان وبخاصة اذا انحرف الحاكم واتبع أهواءه وشهواته ، واستغل اموال العباد وخيرات البلاد لصالحه .

محمد (ص) مع بحيرا والأحبار

ولقد تحدث اكثر المؤرخين والمؤلفين في سيرة النبي عن رحلاته المتتالية الى الشام قبل زواجه من خديجة وبعده ، واجتماعه بالرهبان والأحبار ، وعن بحيرا الذي بشر بنبوته وأخبرهم بما يكون من أمره ، وحذرهم من اليهود ومن التدابير التي أعدها رؤساء الأديان من مسيحيين وغيرهم للقضاء عليه ، واختلفت الروايات لتلك الحوادث في صياغة تلك الرحلات وما اشتملت عليه من الكرامات اختلافاً يبعث على الشك في صحة تلك المرويات ، هذا بالاضافة الى ان الذين رووا اخبار تلك الرحلات ومحتوياتها من المتهمين بالكذب وعدم التثبت في عرض الحوادث التاريخية .

وقد ألمح إلى التشكيك فيها جماعة من المؤرخين منهم ابو الفداء في تاريخه الكبير ، وجاء فيه ان أحد رواتها هو أبو بكر بن أبي موسى عن أبيه أبي موسى الأشعري ، وقد دخل في الاسلام في السنة السابعة من الهجرة ، ولا بد وان تكون حينئذ من مرسلات الصحابة على حد تعبيره ، وأضاف الى ذلك في معرض التشكيك بتلك المرويات ، انها قد اشتملت على نصيحة الرهبان والأحبار لأبي طالب بارجاعه الى مكة خوفاً عليه من اليهود وغيرهم ،

فأرجعه ابو طالب على حد زعم الراوي مع بلال الحبشي وأبي بكر ، وكانا يوم ذاك أصغر منه سناً ، حيث إن أبا بكر في ذلك الوقت لم يتجاوز العاشرة وبلال الحبشي كان أقل من ذلك ؛ ومع ذلك فكيف يصح من أبي طالب الحريص على ابن اخيه ان يرده الى مكة من تلك المسافة البعيدة وفي تلك الصحراء المخيفة مع طفلين صغيرين ، وهو الذي لم يكن يفارقه في يوم من الأيام ، ولم يتركه لأحد حتى من أعمامه ذوي البأس والنجدة من الهاشميين .

وقد رجحت في كتابي (الموضوعات) ان اخبار هذه الرحلات بما اشتملت عليه من الكرامات ، كانت من صنع أعداء الاسلام الذين أرادوا ان يفتحوا ابواب التشكيك برسالة محمد ونبوته عن طريق هذه الرحلات المتتالية واجتماعه فيها بالاحبار والرهبان كبحيرا وأمثاله من أبطال تلك الأساطير ، ونبهت على عيوبها متناً وسنداً ، وقلت في الكتاب المذكور وأكرر في كتابي هذا ان محمد بن عبد الله (ص) يوم كان حملاً وطفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً لم يخرج في شيء من حالاته ومراحل حياته عن سنن الكون وقوانين الطبيعة ، ولم تدع الحاجة في طفولته وشبابه الى تلك الحوادث الجسام التي امتلأت بها كتب الحديث والسير السنية والشيعية ، سواء في ذلك ما رافق ولادته وطفولته في بني سعد من العجائب والغرائب التي نبهت على بعضها في كتابي الموضوعات وما يرويه المحدثون والمؤرخون مما جرى له في طريقه الى الشام وهو في قافلة تتألف من مائة وثمانين من التجار ومعاونيهم كحديث الغمامة التي كانت تظلله والمياه التي كانت تتفجر من بطون الصحراء التي كانت تتعرض فيها حياة العشرات من المسافرين للموت عطشاً والاشجار اليابسة التي كانت تعود اليها الحياة فتثمر من ساعتها أنواعاً من الثمار الى كثير من أمثال ذلك مما دعا بحيرا الراهب ان يضع الطعام لتلك الحشود ويجتمع بالنبي ويخبرهم بما سيكون من أمره الى غير ذلك مما اشتملت عليه كتب الحديث والتاريخ من الأساطير التي استغلها أعداء الاسلام للدس والتشويش على النبي ورسالته .

ولعل كعب الأحبار وأبا هريرة ووهب بن منبه وتميم الداري وأمثالهم كانوا من أبرز أبطال تلك الأساطير ، كما تؤيد ذلك مواقفهم من الإسرائيليات والمبيحيات التي أدخلوها بين أحاديث الرسول (ص) وفي التفسير وغيره من المواضيع .

هذا مع العلم بأن تلك الأحداث والكرامات التي يدعيها الرواة وبخاصة ما كان منها في طريقه الى الشام مع تلك الحشود لم تترك اثراً على المكيين الذين رافقوه في تلك الرحلة ، فلا محمد (ص) قد احتج بها عليهم يوم كانوا يطاردونه من بيت الى بيت وفي شعاب مكة وبطاحها ، ولا حدث احد من المؤرخين بأن رفاقه في تلك الرحلة كانوا يتحدثون بها لمن رجعوا اليهم في مكة وجوارها ، كل ذلك مما يرجح استبعادها .

واذا كنت قد وقفت موقف المتصلب في كتابي الموضوعات من بعض المرويات التي يرويها المدائني عن بعض من تستروا بصحبة النبي (ص) ورواها غيره من المؤرخين كما رواها الصدوق في اكمال الدين واتمام النعمة ، فاني لا أقف نفس الموقف من حديث بحيرا الراهب ، ومن الجائز ان يكون قد رأى النبي اذا صح انه سافر الى الشام مع عمه أبي طالب وهو في الثالثة عشرة من عمره ، أو في تجارة خديجة مستقلاً عن عمه أبي طالب ولكن دوره معه اذا صح انه قد التقى به لا يعدو ان يكون دور من يترقب له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات التي وصفته بها الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما .

ومن غير المستبعد ان يكون بحيرا قد نصح عمه بارجاعه الى مكة وإبقائه تحت رقابته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم ممن كانوا يضمرون السوء له ولكل مصلح يحاول ان يضع حداً لجشعهم وعدوانهم واستغلالهم لغيرهم من الناس اما بقية الأحداث والخوارق التي روتها كتب التاريخ والحديث وادعت وقوعها في تلك الرحلة فلو صحت لتركت أثراً في مكة وجوارها بل في شبه الجزيرة بكاملها ولم يحدث شيء من ذلك .

الفَصْلُ الثاني

محمد وخديجة

لقد تحدث المؤرخون والمؤلفون في السيرة عن محمد (ص) قبل زواجه من خديجة يوم كان يسافر في تجارتها حيناً ويرعى الغنم لأهل مكة بالقراريط على حد زعمهم حيناً آخر الى ان تمّ الزواج بينهما ، وقد اختلفت المرويات حول المراحل التي مر بها في تلك الفترة من تاريخه ، وفي الوقت ذاته فقد اتفقت على ان زوجته الأولى خديجة بنت خويلد كانت من أفضل نساء القرشيين والمكيين في خَلقها وخُلقها وجميع مواهبها ، وهي مع ذلك من أثرياء مكة وتجارها الذين يستوردون ويوردون من الشام واليها كل ما يدخل الحجاز من انتاج اليمن والاحباش وغيرهما من البلاد المتاخمة للحجاز ، وتستعين بذوي الخبرة فترسلهم مع تجارتها بقسم من الأرباح او بأجر تحدده لهم .

وأضاف أكثر المؤلفين في سيرة الرسول الى ذلك ان خديجة بنت خويلد التي جمعت الى جانب ثروتها المادية الشرف والعفة والصون والكرم وأصبحت تعد السيدة الأولى في مكة ذلك العصر ، هذه السيدة بعد ان عرفت ما كان يتمتع به محمد بن عبد الله (ص) من الصفات التي رفعته على السادة من أشراف القرشيين في صدقه وأمانته وعفته وخدماته التي كان يقدمها لذوي الحاجات ، بعد ان اشتهر أمره بذلك دعته الى ان يذهب في

تجارتها الى الشام لقاء اجر معين يعادل ضعفي ما كانت تفرضه لغيره من المكيين ، وتشاء ظروفه المادية وظروف كفيله أبي طالب على حد زعم الرواة ان يلبي طلبها ويذهب لأول مرة في تجارتها مع غلام لها يدعى ميسرة كمعاون له على ادارة شؤون القافلة ورعاية الإبل حسبما تفرضه المصلحة وتمت الرحلة والتقى محمد ببحيرا كما يدعون ، وميسرة يشاهد كل ما حدث وما جرى من الغرائب التي لم ير لها مثيلاً في سفراته السابقة وكانت مع ذلك تلك الرحلة ناجحة تجارياً وأرباحها قفزت عن الربح المتعارف بشكل لم يكن احد يتصوره من التجار ، ورجعت القافلة تحرسها عناية الله سبحانه ، واسرع ميسرة الى مكة تاركاً وراءه محمداً ومن معه من التجار ليقص عليها اخبار تلك الرحلة وما شاهده من محمد (ص) وبحيرا من الكرامات التي تدهش وتحير .

ودخل محمد مكة في اليوم الثاني ومضى من ساعته الى خديجة ليؤدي الأمانة ، فاستقبلته ببشاشتها المعروفة وشكرت له جهوده وهنأته بسلامة العودة ، ولكنها احست بشيء جديد طرأ على حياتها ، وباتت ليلتها تفكر في امر هذا الانسان وترقبت له مستقبلاً حافلاً بالأحداث ستنجلي عنه الأعوام القريبة القادمة ، وكانت قد صممت ان تعيش بعيدة عن الرجال ومشاكلهم أيام فتوتها وها هي اليوم أشد تصميما على ذلك وقد أصبحت على أبواب الأربعين من عمرها ، ولكنها عادت تفكر في محمد لا في غيره من الرجال الذين قد خطبوها من قبل طمعاً في مالها وثرائها وودت لو يبادلها هذا التفكير ويتقدم في خطبتها ولكنه لم يصنع شيئا من ذلك فأرسلت اليه مع امرأة من المكيات تدعى نفيسة ابنة منبه لتسأله عما يمنعه من الزواج وقد تجاوز العشرين من السنين ، فأجابها بأن لا شيء يمنعه الا عدم توفر المال لديه ، ولما نقلت اليه رغبة خديجة ، رحب بتلك البادرة وعرضها على عمه الكفيل أبي طالب وبقية أعمامه فتلقاها أعمامه بالقبول والترحاب ، وكلهم يعرف فضل خديجة وثراءها الواسع وذهب ابو طالب من ساعته ومعه

الحمزة بن عبد المطلب الى عمها عمرو بن أسد ، وقيل إنها ذهبا الى أبيها خويلد وكان لا يزال حياً .

وجاء في رواية اليعقوبي عن عمار بن ياسر انه قال : انا اعلم الناس بزواج خديجة من رسول الله (ص) لقد كنت صديقاً له ، وانا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة ، واذا بخديجة بنت خويلد وأختها هالة في طريقنا فجاءتني هالة وقالت يا عمار : ما لصاحبك حاجة في خديجة ، قلت والله لا أدري ، وكان قد فاتني في طريقه ، فلحقت به وذكرت له مقالة هالة ، فقال : ارجع فواضعها وعدها يوماً تأتيها فيه ففعلت ، فلما كان ذلك اليوم أرسلت الى عمها عمرو بن أسد وكان والدها ميتاً فسقته ودهنت لحيته بدهن أصفر وطرحت عليه حلة ، ثم جاء رسول الله (ص) في نفر من اعمامه يتقدمهم ابو طالب ، فقال في خطبته :

الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم وذرية اسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس ، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه ، وان ابن اخي محمد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش الا رجح عليه ، ولا يقاس بأحد الا كان أعظم منه ، وان كان في المال قلّ ، فإن المال رزق حائل وظل زائل ، وله في خديجة رغبة ، ولها فيه رغبة ، وصداق ما سألتموه عاجله من مالي ، وله والله خطب عظيم ونبأ شائع .

وتم الزواج بينهما ، ولما أصبح عمها انكر عليهم ما رأى ، فقيل له هذا ختنك محمد بن عبد الله اهدى لك هذا ، فقال متى زوجته ، قيل له بالأمس فقال : ما فعلت ذلك ، فشهد عليه من كان حاضراً بأنه قد فعل ، ولما رأى محمداً قال : اشهدوا باني ان لم اكن زوجته بالأمس فقد زوجته اليوم .

وأضاف عمار بن ياسر انها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن اجيرا لأحد

أبداً ، وأورد هذه الرواية ابن كثير في تاريخه(١) .

وجاء في تاريخ ابي الفداء ان محمدا بعد ان رجع من سفره في تجارة خديجة وحدث ميسرة بما رأى من الكرامات للنبي (ص) تعرضت له مباشرة وطلبت منه ان يتزوج بها ، وكان مهرها عشرين بكراً .

ومجمل القول ان رواية عمار بن ياسر تنفي ان يكون النبي قد رعى الغنم لأحد من المكيين كما يدعي ابو هريرة في روايته عنه ، كما تنفي ان يكون اجيراً لأحد حتى لخديجة نفسها ، ولعلها من حيث سندها أقرب الى الصحة من بقية المرويات التي تصوره بأنه كان أجيراً بقوته يرعى الأغنام والابل الى ان بلغ العشرين او الخامسة والعشرين حيث تزوج من خديجة ومكنته من ثروتها وأموالها ، وأضافوا الى ذلك انه كان يقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه الا مرتين ، والله يحول بيني وبين ما هممت حتى اكرمني الله برسالته .

لقد قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال افعل : فخرجت حتى اذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت ما هذا : فقالوا عرس فلان بفلانة فجلست اسمع فضرب الله على أذني ونمت فما أيقظني الا حر الشمس فعدت الى صاحبي وأخبرته بما جرى معي ، ثم قلت له ليلة اخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل ما أصابني في الليلة الأولى ، وما هممت بعد ذلك بسوء أبداً(٢) .

---

(١) انظر ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ من البداية والنهاية .

(٢) هذا الحديث اخرجه الحاكم وغيره من طريق ابن اسحاق ، وقد صححه جماعة من محدثة السنة وضعفه اخرون لان سنده قد اشتمل على جماعة لا يوثق بهم ، ومنهم محمد بن عبد الله بن قيس ، ولم يوثقه غير ابن حبان ، وتوثيقه لا يغني شيئا عندما ينفرد بتوثيق الرواة ، والثابت عنه انه يوثق المجهولين .

وروى ابو هريرة عنه (ص) انه قال : ما بعث الله نبياً الا ورعى الغنم ، فقال له أصحابه على حد زعم ابي هريرة وأنت ، قال نعم : كنت ارعى الغنم على قراريط لأهل مكة .

ومن غير المستبعد ان يكون ابو هريرة هو الذي وضع هذا النوع من المرويات ، لانه عاش طيلة حياته راعياً ، وقد غلب عليه هذا الاسم لأنه كان يحمل هرة معه يلعب بها ولما التحق بالمسلمين لازمه هذا الاسم وكان يرى ذلك وصمة عليه ، فوضع هذا الحديث ليتستر به ويرفع عن نفسه ما يراه من النقص في هذه المهنة .

هذا مع العلم ان الذين رووا هذا النوع من الاحاديث ودونوها في تواريخهم ومجاميعهم في الحديث رووا الى جانبها موقف عبد المطلب وأبي طالب من الرسول وحرصهم عليه وكيف كانا يؤثرانه على أولادهما ، وان أبا طالب كان لا يدعه لحظة وحده وبخاصة بعد ان سمع من بحيرا وغيره بأن اليهود والنصارى يضمرون له السوء والغدر ، وكيف يجتمع هذا مع تلك المرويات التي تجعل من مراحل صباه وشبابه اجيراً لأهل مكة يعيش مع المواشي في السهول والجبال بعيداً عن أهله وذويه وجميع الناس .

وعلى أي الأحوال ان العمل والكدح في سبيل المعاش من سنن المرسلين ومن قبله عاش جماعة من المرسلين على عمل أيديهم ، واحترفوا بعض المهن الشريفة حتى لا يكونوا كلا على أحد من الناس ، وحكى القرآن الكريم قصة موسى وغيره من الأنبياء الذين كانوا يعملون لسد حاجاتهم وضرورات معاشهم ، وكان من أبرز ما جاءت به الشرائع الترغيب في العمل والتنديد بالكسالى من الناس ، وأوصى الاسلام بالعمل للدنيا والآخرة ، فقال سبحانه في كتابه الكريم :

﴿ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ .

وكلمة نصيبك تعني ان بناء الحياة الكريمه والمجتمعات الصالحة

حسب الزمان والمكان يتطلب جهداً وعملاً وتضحية من كل انسان حسب طاقته وامكانياته ، ولا يمكن ان يتم ذلك الا اذا ساهم كل انسان بما عليه ليستوفي نصيبه منها .

وجاء عن الرسول انه اعتبر العمل والسعي في طلب الرزق لمن يعول بهم ويعنيه امرهم من نوع العبادة التي تقرب الى الله سبحانه ، بل أفضل من الصلاة المستحبة عند الحاجة الى ذلك ، وشاع عنه انه قال : عمل يوم خير من عبادة سنة .

ومن الثابت ان النبي (ص) حث المهاجرين الأولين على العمل ببساتين الانصار وأسواقهم حتى لا يكونوا كلا على الاوس والخزرج ، بالرغم من ان الحيين طابت نفوسهم عن كل ما يملكون في سبيل محمد ورسالته ، فالعمل لا يتنافى مع العبقريات والنبوات ، ولا يضع من شأن الانسان مهما كان نوعه ، وهو من أفضل الطاعات اذا كان في سبيل العيال والأولاد وخير الناس ، ولكن من تتبع تاريخ محمد منذ ولادته الى ان بلغ سن الرجولة وأصبح زوجاً لخير امرأة عرفها تاريخ المرأة خلقاً وتضحية وجهاداً في سبيل الله ومواقف جده وعمه والمراحل التي عاش فيها معهما عزيزاً موفور الكرامة لا يفارقهما في ليل او نهار يبذلان في سبيل راحته واطمئنانه الغالي والرخيص من تتبع ذلك وادرك انهما منذ طفولته كانا يترقبان له مستقبلاً يهز العالم من أقصاه الى أقصاه ويحدث تحولاً في تاريخ البشرية ، وانهما كانا يخافان عليه دعاة الاديان وطواغيت العرب ، لا بد وان يقف على أقل التقادير موقف المشكك من تلك المرويات التي نصت على انه كان يرعى غنم المكيين بالقراريط او بأجر معين ويذهب بعد ذلك اجيراً الى الشام في تجارة خديجة وغيرها من تجار قريش نفسه من الارباح لا سيما بعد رواية عمار التي نصت على انه لم يرع لأحد ولم يتاجر لأحد من الناس ، وان زواجه من خديجة لم يكن مسبوقاً بمعاملة معها ، بل كان تلبية لرغبتها بعد ان وجدت فيه الرجل الذي يمكن ان ترتاح اليه . وقد بعث

الأربعين وأشراف قريش يطمعون في الزواج منها بقصد الافادة من ثرائها .

اما محمد بن عبد الله (ص) فقد وجدت فيه حسب المعلومات التي توفرت لديها عنه ضرباً آخر من الرجال لا تستغويه امتعة الدنيا فطلبته الى نفسها وأرسلت اليه من يشجعه على خطبتها من أبيها او عمها كما ذكرنا من قبل ، وليس بغريب على المرأة الفاضلة كخديجة ان تطلب لنفسها محمد بن عبد الله وتفضله على سادة مكة واشرافها ، فلقد كان في القمة في صفاته التي لم يعرف لها العرب مثيلاً في ماضيهم وحاضرهم ، واجتهد اخصامه ان يجدوا في حياته ولو نزوة تخدش تاريخه المجيد ، او مغامرة منه لنيل جاه او اصطياد ثروة او انحراف مع غرائز الشباب التي تثور وتتمرد احياناً على العقل والخلق والحكمة فلم يجدوا شيئاً من ذلك ، وكان قد جمع الى ذلك من صباحة الوجه وجمال التركيب ما لم يتوفر في احد سواه كما وصفه عارفوه .

فقد جاء في رواية عمرو بن شمر عن جابر انه قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر صف لي رسول الله (ص) قال : كان نبي الله أبيض الوجه مشرباً بحمرة ادعج العينين مقرون الحاجبين شثن الأطراف ، كأن الذهب أفرغ على براثنه عظيم مشاشة المنكبين ، اذا التفت يلتفت جميعاً من شدة استرساله ، سربه سائلة من لبته الى سرته كأنه وسط الفضة المصفاة ، وكأن عنقه الى كاهله ابريق فضة ، يكاد انفه اذا شرب ان يرد الماء ، واذا مشى تكفأ كأنه ينزل في صب ، لم ير مثل نبي الله قبله ولا بعده[1] .

ليس بغريب اذا خطبته خديجة لنفسها وظلت تشاطره آلامه وتناصره بعقلها وقلبها ومالها حتى لحقت بربها قبل هجرته الى المدينة بسنة او سنتين عن خمسة وستين عاماً .

---

(١) انظر ج ١ من الكافي ص ٤٤٣ .

وقد انجبت له ستة أولاد ما بين ذكر وأنثى ، القاسم وبه كان يكنى وزينب ورقية وأم كلثوم وعبد الله وفاطمة ، وتوفي القاسم بعد ان بلغ سناً تمكنه من ركوب الدابة والسير على النجيبة على حد تعبير الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة ، ومات عبد الله وهو طفل صغير ، وكان يلقب بالطيب والطاهر ، ومات سائر بناته في حياته الا فاطمة فإنها عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً كما جاء في رواية الكليني ، وستة اشهر كما جاء في احاديث المؤرخين .

وكان العرب بعد مبعثه يعيرون محمداً بهذا ، ويقولون بأن أثره سينقطع وذكره سينتهي لانه فقد أولاده الذكور ولم يبق له سوى الإناث .

وجاء عن عبد الله بن العباس ، ان قريشاً تواصت بينها بالتمادي في الغي والكفر وقالت : الذي نحن عليه احق مما عليه هذا الصنوبر المنبتر يعنون بذلك ان محمداً اذا مات لم يرثه احد[1] وبهذه المناسبة نزلت الآية :

﴿ ان شانئك هو الأبتر ﴾ ، كما يدعي اكثر المفسرين .

ولقد اسرع الى بناته الثلاث زينب ورقية وام كلثوم الصبا قبل مبعثه ، وبدا عليهن من معالم الجمال ما جعل ابناء الاشراف يطمعون في الاتصال بذلك البيت الذي جمع بالاضافة الى الغنى والثروة الشرف والجاه وجميع الصفات الكريمة التي لم تتوفر في مجموعها في بيت سواه ، وتطلعت عيون الشباب في مكة من كل بيت فيه شرف وغنى الى الاتصال بذلك البيت .

وأسرعت هالة ام أبي العاص بن الربيع وكانت اختاً لخديجة لتخطب منها كبرى بناتها زينب الى ولدها المعروف بين المكيين بجاهه وماله وأمانته ومروءته ، ومعها زوجها الربيع ، فلم تجد عند شقيقتها خديجة ما يمنع من

---

(١) الصنوبر النخلة التي اندق اصلها .

اجابة طلبها اذا رضي محمد (ص) بذلك .

ولما عرضت الأمر على النبي (ص) واحس منها بالرغبة لم يمانع ، وتم الزواج بينهما .

وحرصت خديجة ان تبذل في سبيل ابنتها زينب ما يتفق مع احاديث الناس عن يسارها وبذلها في سبيل الله وكرامتها ، فبذلت لها اعز ما تملك ، وأخرجتها في عرسها بقلادتها النفيسة التي كانت تتقلدها أيام صباها وزواجها من محمد (ص) .

وظل ابو العاص بن الربيع في رعاية خديجة شطراً من الزمن كأحد اولادها .

وأما رقية وام كلثوم فبقيتا في البيت والأنظار تتجه اليهما وابناء الوجوه من المكيين والقرشيين يتمنون لو ان شبابهما يسبق الزمن ، ولكن ام جميل بنت حرب بن أمية جارة خديجة كانت ترى في بيت جارتها من السعادة ما لا يراه الناس وتنتظر بالفتاتين الزمن لتخطبهما لولديها عتبة وعتيبة ، وجعلت تلح على زوجها عبد العزى المعروف بأبي لهب عم النبي ان يخطبهما من أبيهما قبل ان يسبقها احد من قادة قريش .

وقد بلغها ان بعض الأشراف وذوي الثراء يتطلعون الى ذلك البيت ويرغبون في مصاهرته ، وسرت اليها همسات بأن عثمان بن عفان يريد واحدة منهما لنفسه ، وفي حسابها انه لو تقدم الى محمد بهذا الطلب لا يمتنع عليه ، ولعلها تكون رقية ، لأن خالته سعدى ، قد دأبت على زيارة خديجة والتودد لها ، وكانت تتخوف ان لا تمانع خديجة اذا طلبتها سعدى الى ابن اختها ، فمن الخير اذن ان تسرع هي الى البنتين قبل فوات الأوان ، واخذت تتودد الى خديجة على خلاف عادتها وتكلمت معها حول هذا الأمر ودفعت زوجها ليطلب من ابن اخيه ، وهي تأمل ان لا يرده ، ولو رده ، فقد خططت ان تشكوه الى عمه وكفيله ابي طالب ليحمله على الرضا ، وما كان لمحمد ولا

لخديجة ان يرفضا رأياً لأبي طالب لو أراده وارتضاه .

وأكثر من الطلب والمراجعة حتى احرجاهما ولم يجدا بداً من الموافقة ، وتمت رقية لعتبة ، وام كلثوم لعتيبة ، وانتظرا برهة من الوقت ليتم الزواج ، وكان ما أرادت ام جميل وزوجها بعد ان أصبحت الفتاتان في سن تؤهلهما للزواج والانتقال الى بيت جديد تحسنان ادارته والقيام بأعباء الزوجية .

واحس محمد وخديجة بالطمأنينة على بناتها ، عند الاكفاء من ذوي قرابتهن ، ولم تبق في البيت سوى فاطمة ، وهي يوم ذاك طفلة صغيرة تنتظر مشيئة الله التي لا بد وان تهيىء لها الكفؤ عندما يحين الأوان كما شاء الله ذلك .

وجاء في شرح النهج وغيره انه لما اكرم الله محمدا برسالته كانت خديجة وبناتها من السابقات الى الاسلام فاستعملت معه قريش كل أساليب العنف والارهاب ، وقال بعضهم لبعض : انكم قد فرغتم محمدا من همه وأخذتم عنه بناته واخرجتموهن من عياله ، فردوهن عليه لتثقلوه بالهموم ، فمشوا الى ابي العاص بن الربيع ، وقالوا له : فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك اي امرأة أردت من قريش ، فقال لاها الله لا أفارق صاحبتي ابداً وما احب ان لي بها امرأة من قريش ، وأصر على موقفه هذا وبالرغم من ضغوط القرشيين لم تبدر منه نحوها اي بادرة تسيء اليها ، فقدر له النبي (ص) هذا الموقف النبيل واثنى عليه في مختلف المناسبات .

وأضاف الى ذلك في شرح النهج ، ان القرشيين مشوا الى الفاسق عتبة بن ابي لهب ، وقالوا له طلق زوجتك ونحن ننكحك اي امرأة شئت ، فقال لهم : ان انتم زوجتموني ابنة ابان بن سعيد بن العاص او ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه من ابنة سعيد بن العاص ، وفارقها وفعلت قريش مع اخيه عتيبة كذلك .

وظلت زينب مع أبي العاص على شركه ، لأن النبي (ص) لم يكن في وضع يمكنه من انتزاعها منه ، ولما هاجر رسول الله من مكة وكانت وقعة بدر كان ابو العاص مع المشركين فوقع أسيراً في أيدي المسلمين ، فلما بعث أهل مكة في فداء الأسرى بعثت زينب في فداء ابي العاص ، وكان فيما بعثت به من الأموال قلادة كانت خديجة امها أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها اليه ، فلما رآها رسول الله تذكر خديجة وأيامها ورق لها ، فقال للمسلمين : ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مابعثت من الفداء فافعلوا ، فقالوا نعم يا رسول الله نفديك بأنفسنا وأموالنا ، فردوا عليها ما بعثت وأطلقوا أبا العاص بدون فداء .

ولما أطلقه المسلمون اخذ عليه رسول الله عهداً بأن يحمل ابنته زينب الى المدينة ، ولما رجع الى مكة بعث رسول الله بعده بأيام زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار وأمرهما بأن ينتظراه في مكان خارج مكة عينه لهما ، وكان قد تفاهم مع أبي العاص على ذلك وفور وصول أبي العاص الى مكة امرها بأن تتجهز لتلحق بأبيها .

وجاء في رواية ابن اسحاق عن زينب انها قالت : بينما انا أتجهز لألحق بأبي لقيتني هند بنت عتبة ، فقالت بلغني عنك يا ابنة محمد انك تريدين ان تلحقي بأبيك ، فقلت لها ما أردت ذلك ، فقالت اي بنت عم لا تفعلي واذا أردت ذلك فان كان لك حاجة في مال او متاع يرفق بك في سفرك فإن عندي ما تطلبين فلا تتحاشي مني فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال ، واني والله ما أظنها صادقة وقد خفتها وانكرت ان أكون أردت ذلك ، فلما فرغت من جهازي حملني اخو بعلي كنانة بن الربيع على بعير واخذ قوسه وكنانته وخرج بي نهاراً يقود بعيري ، وتحدثت بذلك الرجال والنساء وتلاوموا في ذلك وخرجوا في طلبي حتى ادركوني بذي طوى .

وأضـــاف ابن اسحــاق الى ذلــك انـــه كــان أول مــن سبـق اليــهـــا هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى فروعها هبار بالـرمح ، فلما وصلت المدينة القت حملها ، فلذلك اهـدر رسول الله دمـه يوم فتـح مكة كما يدعي المؤلفون في السيرة .

وجـاء في رواية الـواقدي ان كنـانة بن الـربيع اخـذ سهـماً من كنـانتـه وقال : اقسم بالله لا يـدنو اليـوم واحد منهـا الا وضعت فيه سهـما فانصـرف النـاس عنها ، وجـاءه ابـو سفيـان ، فقـال ايهـا الـرجـل : انـك لم تحسن ولم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانيـة وقد عـرفت مصيبتنا ونكبتنـا ومـا دخل علينـا من أبيها فـارجع بهـا حتى اذا هدأت الأصـوات سلهـا سـلاً خفيفـاً والحق بأبيهـا فليس لنا بهـا حاجـة ، فرجـع بها وبعـد ليالٍ اخـرجهـا وسلمها لزيد بن حارثة ورفيقه حيث كانا بانتظارهـا في المكان الـذي عينه لهـما رسول الله (ص)[1] .

---

(١) انظر شرح النهج المجلد ٣ ص ٢٥١ و ٢٥٢

بناء الكعبة

يتصل تاريخ بناء الكعبة في تلك الفترة بتاريخ الرسول ، وقد بلغ الثلاثين من عمره او يزيد ، حيث كان له دور بارز في بنائها وحسم الخلاف الذي وقع بين المكيين وقد أوشك ان يؤدي الى مجزرة بينهم لولا انه قد استطاع بحكمته واخلاصه ان يعالج الموقف بما يرضي جميع الاطراف .

وبما ان للكعبة تاريخها الطويل الذي يتصل بتاريخ النبي الكريم ابراهيم الخليل فلا بد لنا من عرض موجز لتاريخها والمراحل التي مرت بها حتى ذلك اليوم الذي اجتمع فيه المكيون ومعهم محمد بن عبد الله (ص) على تجديد بنائها .

لقد جاء في القرآن ما يشير الى ان أول من بناها ابراهيم الخليل بعد ان هاجر الى الحجاز بزوجته وولده اسماعيل .

قال سبحانه : ﴿ **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت** ﴾ (الاية) .

وفي تاريخ ابن عساكر ان ابراهيم كان يكنى ابا الضيفان ، وقد ولد لأبيه تارخ بعد ان بلغ الخامسة والسبعين من العمر في أرض بابل ، وقيل في غوطة دمشق في قرية على جبل قاسيون ، وقد تزوج ابراهيم بعد ان

تجاوز العشرين من سارة ، وخرج بهما والده تارخ من أرض الكلدانيين الى أرض الكنعانيين بلاد بيت المقدس فنزلوا بلدة حران ومات فيها والده وله مائتان وخمسون عاماً ، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، وعلى كل باب من أبواب دمشق هيكل لكوكب منها .

ولما اختار الله ابراهيم لرسالته دعاهم الى الايمان بإله واحد احد وترك ما يعبدون من دونه ، والى ذلك تشير الاية ﴿ **ولقد آتينا ابراهيم رشده وكنا به عالمين** ﴾ .

﴿ **وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون * انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون** ﴾ .

الى غير ذلك من الأيات الكثيرة التي قص الله بها عن دعوة ابراهيم ونصائحه لقومه ، وما لاقاه من التعذيب والتكذيب ، ونصيحته لأبيه ازر كما نصت على اسمه الاية الكريمة .

وجاء عن ابن عباس وغيره من المفسرين ان اسم ابيه (تارخ) ، وورد في الآية الكريمة باسم آزر نسبة لصنم كان يعرف بهذا الاسم ، وقيل غير ذلك وقد لعبت الاسرائيليات دوراً بارزاً في تاريخ الأنبياء وقصصهم ورواها الصحابة عنهم .

ولما جاء دور التدوين دوّنها القدامى من الاخباريين وكتاب السير وحتى المفسرين للقرآن من دون تمحيص لأسانيدها ولا تدقيق في متونها ، وظلت تلك المرويات في مجاميع التفسير والحديث الى جانب الصحيح منها فاختلط الحق بالباطل والصحيح بالفاسد ، واستغلها المشوشون على الاسلام لبث سمومهم وأفكارهم .

ومهما كان الحال فلا يهمنا ان نؤرخ لابراهيم الخليل (ع) وتاريخ

دعوته ومراحلها التي مرت بها ، وكل ما يعنينا في هذا الكتاب من امره ابراز الجانب الذي يتعلق ببناء الكعبة المقدسة ، باعتباره اول من وضع حجراً لبنائها في تلك البقعة المباركة بعد ان امره الله بذلك كما تنص على ذلك بعض المرويات .

ويدعي المؤرخون ان ابراهيم هاجر من بلاد الشام وفلسطين الى مصر ، ومنها الى الأرض المقدسة .

فقد جاء في البداية والنهاية وغيرها ان ابراهيم رجع من بلاد مصر مع عائلته الى الارض المقدسة ومعه انعام وعبيد ومال كثير وجاريتهم هاجر القبطية ، وبعد ان استقر بها أشارت عليه زوجته سارة ان يتزوج بهاجر لأنها كانت عقيماً لم تلد له في تلك المدة الطويلة من تاريخ زواجهما ، فلما وهبتها له ودخل بها حملت منه باسماعيل فدخل في نفس سارة من الغيرة ما يغلب على اكثر النساء فشكت ما أصابها من الغيرة لإبراهيم ، فقال لها : اصنعي بها ما شئت فاضمرت لها السوء ، ولما احست بالشر منها فارقتها ، فجاءها ملك وبشرها باسماعيل فرجعت وصبرت على الأذى وولدت اسماعيل ولإبراهيم يوم ذاك من العمر ست وثمانون سنة ، وبشره الله بعد ذلك باسحاق من زوجته سارة وكانت في حدود الشيخوخة ، وقيل كانت في التسعين من عمرها وحكى الله عنها في كتابه الكريم انها قالت : ﴿ **أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً** ﴾ .

وظلت سارة تشتد على هاجر ، فاضطر بأن يهاجر بها ومعها طفلها اسماعيل حتى دخل الحجاز ومضى يقطع المسافات الى ان انتهى الى مكان البيت وكان يوم ذاك دوحة لابناء فيها ولا شيئاً من النبات والماء والسكان ، ولما أراد ان يرجع تعلقت به وقالت الى اين تذهب وتدعنا في هذا المكان المقفر الخالي من السكان والماء ، فقال لها : لقد امرني الله بذلك ، فاطمأنت نفسها الى امر الله وسلمت امرها اليه ، ولما مضى عنها دعا الله بتلك الدعوات التي قصها الله في كتابه الكريم : ﴿ ربنا اني

اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] .

وجعلت هاجر ترضع ولدها اسماعيل وتشرب من الماء الذي تركه لها حتى اذا نفد ما في السقاء واضر بهما العطش ذهبت تطلب الماء حتى اذا بلغت المكان المعروف بالصفا وهو أقرب جبل الى الأرض التي تركها بها فلم تر أحداً فهبطت الى الوادي تفتش عن الماء حتى بلغت المكان المعروف بالمروة وقطعت سبعة أشواط بينهما وهي كالمدهوشة وظلت يساورها القلق والخوف حتى أرسل الله لها ملكاً اخرج لها الماء في المكان المعروف بزمزم فملأت منه سقاءها ورجعت الى طفلها .

وقيل ان الله أرسل لها ملكاً يبشرها ببناء البيت بواسطة ابراهيم وولده اسماعيل ، وكان مكانه مرتفعاً عن وجه الأرض كالرابية تأتيه السيول من شماله ويمينه .

وبقيت هاجر في مكانها الى ان مر في ارض مكة قوم من قبيلة جرهم ، فوجدوا طائراً يجيء ويذهب ، فأدركوا ان ذلك الطائر يروح ويغدو في طلب الماء ، فأرسلوا من يفحص لهم خبره فوجدوا هاجر وطفلها الى جواره فطلبوا منها ان ينزلوا الى جوار الماء فأذنت لهم واشترطت عليهم ان لا يكون لهم في الماء الا ما يسد حاجتهم ، فنزلوا بجواره ، ومضت مدة من الزمن شب فيها اسماعيل وتعلم العربية منهم وزوجوه احدى بناتهم ، وظل اسماعيل مع جرهم حتى جاءه ابراهيم فأنس به بعد تلك الغيبة الطويلة ، ثم قال له : ان الله امرني ان أبني ههنا بيتاً وأشار الى مكان

---

(١) وهذه الآية تشير الى وجود البيت حين ذاك وتتنافى مع الرأي القائل بأنه لم يكن حينما هاجر ابراهيم بزوجته الى تلك البقعة . ويمكن ان يكون المراد من البيت الذي ورد في الآية هو المكان الذي بناه فيه ابراهيم بعد ذلك .

البيت وكان كما ذكرنا مرتفعاً عما حوله من الأرض ، وباشر ابراهيم وولده اسماعيل ببناء البيت واسماعيل يأتي بالأحجار وابراهيم يبني ، حتى اذا ارتفع البناء جاءه بحجر فقام عليه ابراهيم واسماعيل يقدم له ما يحتاج كما أشارت الى ذلك الآية .

﴿ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ﴾ (سورة البقرة ١٢٧) وقال في آية ثانية :

﴿ واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ، واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

وجاء في بعض المرويات ان الله امر ابراهيم ان يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد التي للملائكة في السماء وأرشده الى مكان البيت .

ونص في البداية والنهاية انه لم يرد في خبر صحيح عن معصوم ان البيت كان مبنياً قبل ابراهيم الخليل (ع)[1] .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان الله سبحانه امر ابراهيم ان يبني الكعبة ويرفع قواعدها ويؤذن في الناس بالحج ويعلمهم مناسكهم فبنى ابراهيم واسماعيل القواعد حتى انتهى الى موضع الحجر الاسود فأخذه من جبل أبي قبيس ووضعه في مكانه وقيل انه كان أبيض فاسود من ذنوب بني آدم وقيل انه نزل به جبرائيل من الجنة وامره الله ان يؤذن في الناس بالحج فلما كان يوم التروية امره ان يتروى من الماء فسمي ذلك اليوم بيوم التروية ، ثم اتى منى فأمره الله ان ينام بها ويبني بها مسجداً ، ولما انتهى الى عرفات قال له هذه عرفات فاعرفها ، فسميت عرفات ولما أفاض به من عرفات وحاذى

---

(١) انظر البداية والنهاية ج ١ ص ١٦٠ وما بعدها

المأزمين ، قال له ازدلف ، فسميت المزدلفة الى غير ذلك من المرويات الكثيرة المتضاربة[1] في هذا الموضوع مما يوحي بأنها من صنع الكذبة والقصاصين ككعب الأحبار وتميم الداري وغيرهما الذين أدخلوا على التاريخ والحديث والتفسير عشرات الأساطير بعد وفاة الرسول (ص) للدس والتشويش على الإسلام ومبادئه .

والشيء الذي لا يمكن التشكيك فيه ان ابراهيم قد بنى البيت ورفع قواعده ، اما انه كان قبل ذلك ولكن ابراهيم قد جدده او أدخل عليه بعض الاصلاحات ، او انه لم يكن كما يظهر من بعض المرويات التي أوردنا بعضها وقد احدثه ابراهيم بأمر الله سبحانه ، فالروايات في ذلك متضاربة كما ذكرنا وليس في الأيات التي تعرضت لهذا الموضوع ما يؤكد احد الأمرين .

وظل البيت معبداً للعرب على مرور السنين ، يتعاهدونه بالبناء والترميم وقيل إنه تهدم بعد ان مرت عليه القرون فأعاد بناءه العمالقة ، ثم تهدم بعد ذلك فبنته جرهم وأصبح في ولايتهم وفي ذلك يقول عامر بن الحارث البرهمي :

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر[2]

من قصيدة قال فيها :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

---

(1) انظر تاريخ اليعقوبي ج / 1 ص 18 وما بعدها .

(2) وجاء في رواية ابي الفداء ان ثابت هو ابن اسماعيل وقد ولاه امر البيت بعد موته .

وقال ابو الفداء في تاريخه ان جرهما بغت واستحلت المحارم فأبادها الله وانتقلت ولاية البيت من بعدها الى خزاعة ومن بعدهم الى قريش .

ويذكر اليعقوبي روايتين في سبب هدم الكعبة وتجديد بنائها ، الأولى انها تصدعت من آثار السيول التي أصابتها .

والثانية ان امرأة كانت تجمر الكعبة فتطاير الشرر منها فأحرق بابها والأخشاب التي كانت بها وقيل غير ذلك . ولما أرادوا هدمها تهيبوه فأسرع الوليد بن المغيرة الى ذلك .

وهنا يدعي اكثر المؤرخين انهم لما انتهوا الى قواعد ابراهيم وقلعوا منها حجراً رجع الحجر الى مكانه فأمسكوا عن هدمها ، وقيل ان الذي سبق القوم الى هدمها هو ابو وهب بن عامر بن عائذ بن عمران من بني مخزوم ، ثم خرج عليهم ثعبان حال بينهم وبين تجديد البناء فاجتمعوا الى ابي طالب ، فقال لهم ان هذا الأمر لا يصلح ان ينفق فيه الا من طيب المكاسب، فلا تدخلوا فيه مالاً من ظلم او عدوان ، فجمعوا من اموالهم التي لم يدخل فيها الحرام ، وكان النبي (ص) معهم يوم ذاك .

ويدعي الرواة ان الله سبحانه ارسل طائراً كبيراً فاختطف الثعبان فشرعوا عند ذلك في بنائها واشترك فيه اشراف القرشيين والمكيين ، ولما تكامل البناء الى موضع الركن وقعت الخصومة بينهم فيمن يرفع الحجر الأسود ليضعه في مكانه واستعدوا للقتال ، وانضم كل حليف الى حليفه وتركوا العمل في بنائها لأنهم يرون ان من يضع الحجر في مكانه تكون له السيادة والزعامة .

ويدعي ابن هشام في سيرته ان أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومي وكان يوم ذاك أكبرهم سناً جمعهم وأشار عليهم ان يتولى وضع الحجر في مكانه أول وافد من باب بني شيبة فاتفقوا على ذلك وكان اول الوافدين عليهم من ذلك الباب محمد بن عبد الله ، فلما رأوه استبشروا

بقدومه وقالوا لقد جاءكم الصادق الأمين ، وهو الاسم الذي اشتهر به منذ مطلع شبابه ، فلما انتهى اليهم وأخبروه بما اتفقوا عليه ، قال هلم الي ثوبا فأتي بثوب كبير فأخذ الركن ووضعه فيه بيده ، ثم التفت الى شيوخهم وقال لهم لتأخذ كل قبيلة بطرف منه ، ثم ارفعوه جميعا ، فاستحسنوا ذلك ووجدوا فيه حلا يحفظ حقوق الجميع ولا يعطي لأحد امتيازا على الآخرين ، فاقبل من كل قبيلة شخص واخذوا بأطراف الثوب ورفعوه بأجمعهم حتى اذا حاذوا مكانه اخذه بيده الكريمة الطاهرة ووضعه حيث يجب ان يكون ، وبعد ذلك اتموا بناءها كما خططوا لذلك .

وكان طول الكعبة تسعة اذرع فصيروها ثمانية عشر ذراعا كما جاء في رواية اليعقوبي .

وجاء في رواية الكافي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) ان طول البناء الذي بناه ابراهيم ثلاثون ذراعا وعرضه اثنان وعشرون ذراعا وسمكه تسعة أذرع ، وأضاف الى ذلك الراوي عن الإمام الصادق (ع) انهم لما أرادوا سقفها تيسر لهم ذلك بواسطة اخشاب وألواح كانت في سفينة بعثها ملك الروم الى الحبشة لبناء بيعة له فيها فقلبتها الرياح وألقتها على سواحل البحر ، فلما بلغ خبرها قريشاً ذهبوا الى الساحل فابتاعوا منها ما يصلح لسقف الكعبة من الأخشاب والألواح .

وأضاف الى ذلك ابن كثير في بدايته ان المكيين قد استعملوا نجارا قبطياً كان يحسن هذه الصنعة .

ويبدو من المحدثين والذين كتبوا في السيرة ان حجر اسماعيل كان داخلاً في الكعبة ، وهو على حد تعبير ابن كثير في بدايته ستة أذرع او سبعة من ناحية الشام ، فلما شرعوا في بنائها من مال جمعوه من مالهم الطيب الحلال كما ذكرنا لم تف تلك الأموال ببنائها على ما كانت عليه في عهد ابراهيم ، فأخرجوا منها الحجر وجعلوا لها بابا واحدا من ناحية الشرق

وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل اليها كل من أراد .

وجـاء في صحيحي البخـاري ومسلم ان رسـول الله (ص) قـال لعـائشة : ألم تري ان قـومك قصـرت بهم النفقة ولـولا انهم حديثـو عهـد بـالكفر لنقضت الكعبـة وجعلت لها بـابـين من الشـرق والغـرب ، وأدخلت فيها الحجر ، وظلت الكعبة على حالها الى ان جاء عهد عبـد الله بن الزبـير ، فنقض بناءها وبناها على ما كـانت عليه في عهـد ابراهيم وأدخـل فيها حجـر اسمـاعيل وجعـل لها بـابين متصلين بـالأرض ، فـاذا أراد احـد ان يـدخلهـا يـدخل من بـاب ويخرج من بـاب ، ولما قتـل الحجاج بن يـوسف عبد الله بن الزبير في الكعبـة وتهدم منهـا جانب بفعـل المنجنيق الذي سلطه عليهـا كتب الى عبـد الملك بن مروان واستشـاره في كيفية بنـائها ، فـأمره بـاعادتهـا الى ما كانت عليه في عهـد النبي (ص) فسد البـاب الغربي وأخـرج منها الحجـر ، وتـركـوا مـا بقي من حجـارتهـا وتـرابهـا في أرضهـا فـارتفعت أرضهـا عن المسجد ، وارتفع الباب الشرقي كما كان اولاً ، وبقيت عـلى هذا الحـال طيلة العهـد الأموي ، ولمـا جاء المهـدي العبـاسي الى الحكم أدخـل عليهـا بعض الاصلاحات وأراد ان يردها الى ما كنت عليه في عهد ابن الزبـير ، فاستشـار مالكاً في ذلـك ، فنهاه ان يتصـرف بها بحجـة ان ذلك يفسـح المجال للملوك من بعده ان يتصرفوا بها كـما يشـاؤون ، واستمـرت على ذلـك الحال كـما هي الآن على حد تعبير ابن كثير في بدايته[1] .

ويبدو من رواية ابـان بن تغلب ان الذي وضـع أساس بنـاء الكعبة لمـا هدمها الحجاج بن يوسف هو علي بن الحسـين (ع) ولكن الروايـة لم تتعرض لمـا احـدثـه في بنـائهـا عبـد الله بن الـزبـير من التغيـير حسبـما يـدعيـه بعض المؤ رخين .

---

(١) انظر ص ٣٠٤ المحلد الثاني مں البداية والنهاية .

وقد جاء فيها ان الحجاج لما هدم الكعبة واخذ الناس ترابها وأقبلوا على بنائها خرجت عليهم حية منعتهم من البناء ، فأخبروا الحجاج بذلك ، وخاف ان يكون ذلك غضباً عليه من الله فجمع الناس وصعد المنبر ثم قال : انشد الله عبداً عنده علم بما ابتلينا به الا واخبرنا بذلك ، فقام اليه شيخ وقال : ان يكن عند احد علم بهذا الأمر فلا أراه غير علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، فبعث الحجاج الى الامام فأتاه وأخبره بما كان من الأفعى ، فقال الامام (ع) يا حجاج عمدت الى بناء ابراهيم واسماعيل فألقيته في الطريق وانتهبته كأنك ترى انه تراث لك من أبيك ، إصعد المنبر وانشد الناس ان لا يبقى منهم احد عنده شيء الا رده ، فدعاهم الحجاج الى ذلك فأرجعوا ما اخذوه من ترابها ثم دعا علي بن الحسين ان يضع الأساس فأقبل ووضع لهم الأساس وامرهم ان يحفروا فغابت عنهم الأفعى عند ذلك ، فلما انتهوا الى موضع القواعد امرهم الإمام ان يتنحوا ودنا من القواعد فغطاها بثوبه وبكى ثم غطاها بالتراب بيده وامر العمال ان يتابعوا البناء ، فلما ارتفعت حيطانها امر بالتراب فألقي في جوفها فارتفعت أرضها عن المسجد وارتفع بابها تبعاً لذلك[1] .

وقد نصت هذه الرواية على ان الكعبة بوضعها الحالي كانت بتخطيط الإمام زين العابدين (ع) ، ولو افترضنا ان عبد الله بن الزبير قد تصرف في بنائها وأدخل معها الحجر كما يدعون وكان تصرفه هذا مشروعا وبوحي مما روي عن الرسول (ص) من ان الحجر كان داخلا بها وان قريشا اخرجته عنها ، لو كان ذلك لا يمكن للامام (ع) ان يردها الى ما كانت عليه في عهد النبي (ص) ، لأن الحجاج كما يبدو من هذه الرواية قد ترك الأمر اليه في تخطيط بنائها .

---

(١) الكافي للكليني ج ٤ ص ٢٢٢ ، والرواية من الروايات التي يمكن الاعتماد عليها من حيث سندها .

ومهما كان الحال فالذي يعنينا من الحديث عن بناء الكعبة هو انه قد اشترك مع قريش في بنائها ولولاه لأدى نزاعهم على وضع الحجر في موضعه الى حرب بين قبائل مكة لا تنجلي الا بعشرات القتلى كما ذكرنا ، اما تحقيق النواحي الأخرى المتعلقة بحجر اسماعيل وغيره فلا يعنينا امرها في هذا الكتاب .

وقد وصف هبيرة بن ابي وهب المخزومي موقف القبائل المكية وموقف النبي (ص) في ذلك اليوم بالأبيات التالية :

تشاجرت الأخيار في فصل خطة   جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة   وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده   ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع   يجيء من البطحاء في غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد   فقلنا رضينا بالأمين محمد

مولد الامام علي بن ابي طالب (ع)

ولدت فاطمة بنت اسد بن عبد مناف لزوجها ابي طالب اربعة من الذكور طالباً وهو أكبرهم وبه كان يكنى وعقيلاً وجعفراً وعلياً ، وهو أصغرهم سناً وأكملهم خلقاً وخلقاً ، ولما جاءها المخاض جاءت الى الكعبة مستجيرة بالله تعالى فاستجاب لها ويسر لها ولادة مولودها الى جوار بيته الحرام .

وروى محمد بن عبد الله بن مسكان عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال :

ان فاطمة بنت اسد جاءت الى ابي طالب تبشره بمولد النبي (ص) فقال لها أبو طالب : اصبري سبتاً أبشرك بمثله الا النبوة وأضاف الى ذلك الراوي ان السبت ثلاثون سنة وكان بين مولد النبي والوصي ثلاثون سنة [1] .

وجاء في كثير من المرويات ان فاطمة بنت أسد لما وضعت علياً (ع) امتنع عن ثديها أياماً ثلاثة فكان محمد (ص) يغذيه فيها من ريقه يلقمه لسانه فلا يزال في فمه حتى يرتوي ويشبع .

وهذه الرواية ان صحت فهي تشير الى أن عليا منذ أن أطل على هذه

---

(١) الكافي ج / ١ ص ٤٥٢ ، والسبت هو البرهة من الزمن واستعمل في الحديث بثلاثين سنة او بخمس وعشرين .

الدنيا بدأ النبي (ص) يعده إعداداً صالحاً ويهيئه لتحمل المسؤولية التي حملها في حياة الرسول وبعد وفاته .

فكان غذاؤه الأول من لسان الرسول الذي لم يتحرك بغير الحق والصدق منذ صباه الى ان اختاره الله اليه ، حتى عرف منه ذلك القريب والبعيد ، وغلبت عليه صفة الصادق الأمين قبل نبوته ، وأصبح يعرف بذلك أكثر مما يعرف باسمه ونسبه .

لقد أراد الرسول ان يغذي عليا ساعة وجوده في دنيا الناس التي غلب على اهلها الباطل والغدر والنفاق ، أراد ان يغذيه من لسانه الذي لا يعرف غير الحق والصدق ، ليكون مفطوراً ومطبوعاً على الحق وحرباً ضارية على الباطل والطغيان أراد ان يطبع الحكمة على لسانه حتى لا ينطق بغير الحق والحكمة ولا ينحرف عن الحق في نملة يسلبها جلب شعيرة حتى لو اعطي الأقانيم السبعة كما اخبر عن نفسه وبعد ان غذاه بلسانه سلمه الى ام كريمة رحيمة غذته بلبنها ورعته بعطفها وحنانها كما رعت استاذه ومعلمه محمد بن عبد الله من قبل .

وما ان بلغ السادسة او الثامنة من عمره حتى أصابت قريشاً ازمة شحت فيها موارد العيش ، واشتد وقعها على أبي طالب لأنه كان في قلة من المال لا يفي بنفقة رجل كان يتمتع بتلك الزعامة ، فقال محمد لعميه الحمزة والعباس : ألا نحمل ثقل ابي طالب في هذا المحل ، فاستجابا لطلبه وسألوا أبا طالب ان يدفع لهم ولده ليكفوه امرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم ، فأخذ العباس طالبا وحمزة جعفرا واخذ هو عليا ، وجاء عنه انه قال لقد اخترت من اختاره لي الله ، فكان هو المربي والمعلم والموجه لعلي منذ طفولته الى آخر لحظة من حياته ، واستطاع بما أودعه الله فيه من أسرار وطاقات ان يستوعب منه علماً لو وزع على مجموعة كبيرة من الصحابة او غيرهم لخرج كل واحد منهم بحصيلة تؤهله لأن يكون في صفوف العباقرة الأفذاذ .

لقد تولاه الرسول بالتعليم وبث في روحه دقائق الحكمة وأسرار الكون والمعرفة ، وبصره بخلق السموات والأرض ، حتى أدرك من الحقائق ما لم

يدركه بعد الرسول انسان سواه ولم تكن فيه صفة الا وهي مشدودة الى صفة من صفات النبي العظيم ، وما من شيء انكره قلب النبي من احوال الجاهلية وسيئاتها إلا وانكره قلب علي (ع) ، وأدرك ما يحيط بهذا الكون من حقائق وجوده ونواميس بقائه ، وهو القائل لقد عبدت الله قبل ان يعبده احد من هذه الأمة بسبع سنوات .

وقد اجمع محبوه وشانئوه على السواء على انه أعلم المسلمين وأقضاهم وأشجعهم وأكثرهم عبادة وزهداً ، وأوفرهم ادراكا وعقلا ، وأحرصهم على تحقيق العدالة وانصاف المظلومين ، وقيل لعبد الله بن العباس وهو حبر الأمة اين علمك من علم ابن عمك ، فقال كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط .

والسؤال الذي يمكن ان يتوجه هو ان النبي (ص) في الفترة التي احتضن فيها عليا لم يكن فيها نبياً ليتلقى فيها العلم من الوحي ويلقنه عليا (ع) ، وكان مع ذلك امياً لا يقرأ ولا يكتب ، فمن اين جاءه العلم ، وكيف حصلت له المعرفة ليعلم غيره ويعرفه اسرار الكون وحقائق الأشياء .

قد يعترض القارىء هذا النوع من التساؤل ، ولكني لا احسب ان الجواب على هذا النوع من التساؤل يحتاج الى مزيد من التفكير والتأمل الطويل ، فعندما يرجع الباحث الى تاريخ العظماء والعباقرة والأنبياء يدرك ان سلامة التفكير والفهم الصحيح لكثير من الحقائق لا يتوقف على الدراسة واستيعاب القواعد والقوانين ، وليس كل من تعلم واستوعب استطاع ان ينفذ الى حقائق الأمور وطبيعة الأشياء ، ان كثيراً ممن يتعلمون كالببغاوات تردد ما تسمع بدون وعي وادراك ، وقد يحفظ الطفل بعض الأراء والنظريات فلا الأطفال بما حفظوه من خطب واراء ونظريات قد اصبحوا من المفكرين ، ولا الببغاوات بما تحكيه تتحول بشراً ، وقد نجد عالما يحفظ وبفقه ويتعمق في العمل ، ولكن العلم بنفسه لا يبعثه على خير ولا يردعه عن شر ما لم يصادف نفساً طيبة وروحاً خيرة كريمة ، وقد شبه الله احبار اليهود الذين حملوا التوراة ولم يتأدبوا بها ويعملوا بمضامينها بالحمير التي تحمل الأسفار فقال :

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ .

وجاء في بعض الأحاديث عن النبي (ص) ان واضع العلم عند غير اهله كمن يقلد الخنازير الجوهر ويضع في أعناقها اللؤلؤ والذهب .

ونجد احياناً أناساً ظلوا يتعلمون زمناً طويلاً ومع ذلك فهم يتخبطون في فهم الحقائق وطبيعة الأشياء كما يتخبط الأعشى في مسيرته لا يوصله علمه الى مرتبة رجل امي قد اوتي رشده بفطرته بدون علم ودراسة .

ومحمد بن عبد الله (ص) وان لم يتعلم فقد كان من الطراز الرفيع في تفكيره الصائب ونظره السديد يقظ القلب صاحياً بين السكارى والغافلين يستعين بصمته الطويل الموصول بالليل والنهار بين هضاب مكة وشعابها ورمال الصحراء الممتدة وعمرانها المتواضع ، يستعين بهذا الصمت على التأمل في هذا الكون واكتشاف الحقائق والتجرد عن نوازع النفس الى متع هذه الدنيا التي كانت تتحكم بذوي العقول وتسيطر على الأفكار والألباب .

صحيح ان محمداً (ص) لم يتلق علماً من راهب او كاهن ولم يأخذ عن الفلاسفة الذين عاصروه وسبقوا عصره ، ولكنه كان بعقله الكبير وفطرته الصافية قد احاط بواقع الحياة وشؤون الناس واحوال الجماعات فأعرض عن خرافاتهم ، وابتعد عن أساطيرهم وعاشر الناس على بصيرة من امره ، فما وجده حسناً شاركهم فيه ، وما كان قبيحاً اعتزله وابتعد عنه وترفع عمن ابطرهم الغنى وأفسدهم الرخاء ، ومال بهم الطيش الى سفه ومجون وولوغ في اعراض الناس ودمائهم .

وجاء عنه انه قال اكثر من مرة : ما هممت في حياتي بشيء مما كان اهل الجاهلية يفعلونه حتى اكرمني الله برسالته ، وكلما حدثتني نفسي بشيء من لهوهم ومجونهم كان الله يحول بيني وبينه .

لقد كان محمد بن عبد الله يفكر ويتأمل في الكون وأسراره وفي الحياة

وتقلباتها والأحياء وتماديهم في الضلال والجحود ، في مجتمع فقد الهداة والمصلحين ، كلما مرت ليلة وطلع صباح يضم ضلالا جديدا الى ضلاله القديم ، يفكر في كل ذلك ويفكر في الحلول ، ولكنه لم يكن يعلم ان النبوة التي تنتظره بحلولها التي وضعها الله سبحانه لمشاكل البشرية هي التي ستسيره ومنها سينطلق لوضع نظام شامل يساير الحياة ويصلح لكل زمان ومكان .

لقد كان محمد بن عبد الله (ص) ظاهرة غريبة عن العرب وطباعهم ، لم ينطلق من منطق القوة التي تتمثل بالجيوش الجرارة لتجتاح الممالك وسدك الحصون وتفرض وجودها بحد السيوف وسنابك الخيول في حين ان كل الظواهر في التاريخ القديم والحديث ، قد انطلقت من منطق القوة والطمع ، الا ظاهرة ابن عبد الله الفقير اليتيم فانها انطلقت من شخصيته الخاصة التي تميزت بعمق التفكير والصلابة في الحق واصالة الرأي والصدق والأمانة ، ان كل صفة من صفاته وكل ومضة من ومضات عبقريته ، وكل لحظة من لحظات حياته التي عاشها قبل النبوة في مهب تلك العواصف والأعاصير ، عواصف الجاهلية وأعاصيرها فيها كل ما يذهل ويثير ويبعث على الدهشة والإعجاب ، ويضع الحدود الفاصلة بين رجال التاريخ ورجال الظروف العابرة الذين أقاموا عروشهم وبنوا امجادهم على جماجم البشر واذلال الناس وخنق الحريات .

ان من عرف محمداً قبل نبوته واستعرض تاريخه ومواقفه من قومه ومعتقداتهم وأصنامهم وخرافاتهم لا يستغرب منه أن يعلم عليا ويبث في روحه من دقائق الحكمة وأسرار الكون ما جعله يقبل على الإسلام منذ ان دعا اليه النبي (ص) بشوق ولهفة وبايمان راسخ وقلب مفتوح لكل تعاليمه وأصوله وأحكامه وهو في الرابعة عشرة من عمره او اقل من ذلك او أكثر حسب اختلاف الروايات في عمره يوم اقبل على الإسلام وليس على وجه الأرض احد يعبد الله بهذا الدين غير محمد وعلي وخديجة بنت خويلد رضوان الله عليها .

لقد بقي علي (ع) الى جانب الرسول (ص) منذ ان التحق به وهو في السادسة من عمره وتربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة ، وكانت تشده الى

ابن عمه قرابة الروح والعقيدة اكثر من قرابة النسب ، فاحتل الدين الجديد قلباً لم تنازعه فيه عقيدة سابقة ، ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه .

ولم يعرف الدين الجديد اصدق اسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين والرواة ، وكان وبقي الى ان فارق الدنيا وسيبقى ما بقي للأمم وللعباقرة والمصلحين تاريخ المثل الأعلى للمسلم الذي يجسد تعاليم القرآن وسيرة الرسول العظيم في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته .

ولا أغالي إذا قلت بأنه لم يتفق لشخص في تاريخ البشرية ما اتفق لعلي (ع) لقد اشترك في تعظيمه من عاصروه على اختلاف ميولهم واهوائهم ومن جاء من بعده من المؤرخين والباحثين في مختلف العصور وحتى عشاق الأعاجيب والأساطير فنسبوا إليه من الخوارق ما لا تتحمله العقول ؛ ومن الأنداد المناجزين له في الحروب ما لم يخلقهم الله .

وغالى فيه اقوام حتى رفعوه الى مرتبة الآلهة فعبدوه دون الله ، وأصروا على غلوهم فيه وهو يسوقهم الى حفرة اجج فيها النار ليحرقهم فيها .

واجتهد الأمويون طيلة حكمهم بكل الأساليب ليقنعوا احداً من الناس ولو بعيب مفتعل يلصقونه به فارتدوا على أعقابهم خاسرين .

وقال قائل ممن تتبعوا اخباره ومواقف شيعته واعدائه منه ، (ما اقول في رجل احجم شيعته وغيرهم عن الحديث بفضله خوفاً من القتل والتشريد ، وكتم أعداؤه فضله حسداً وبغياً ، وظهر من بين ذا وذا ما ملأ الخافقين) .

وحتى غلاة الخوارج الذين أعلنوا كفره وسبوه كما سبه الأمويون حتى هؤلاء لم يستطيعوا ان ينسبوا له إلا الخطأ في التحكيم بالرجوع الى القرآن الكريم بعد ان رفع أهل الشام ما معهم من المصاحف على رؤوس الرماح ليتقوا بذلك الهزيمة التي لم يجد معاوية واتباعه بديلاً لها سوى تضليل الناس وخداعهم بهذا الأسلوب لإيقاف الزحف الذي اوشك ان يجتاح مضارب خيامه

في مدة اقصاها عدوة فرس او حلبة شاة ، كما أعلن ذلك قائد تلك الحملة يوم ذاك .

وسلام الله على الرسول الأمين الذي اخبره بأكثر ما جرى عليه من محبيه وشانئيه حيث قال له : يا علي هلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال .

وقال علي (ع) نفسه وهو يندد بهذين الفريقين من محبيه ومبغضيه : ليحبني اقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني اخرون فيدخلون النار في بغضي .

وقال المرحوم العقاد : وهو يتحدث عن عبقريته واختلاف الناس فيه : ان هذا الميدان من الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه في تاريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول اناس انه إله ، وأناس انه كافر مطرود من رحمة الله .

صفاته

لقد اتفق واصفوه على انه اول هاشمي ولد من هاشميين بعد اخوته الثلاثة فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وامه فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف ، فاجتمعت فيه خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من اعلامها المتقدمين كالنبل والقوة والشجاعة والمروءة والذكاء عدا ما اختصه الله به واشتهر فيه من الصفات الجسدية التي لم تتوفر في احد من ابائه وأجداده ، وأضاف الى ذلك من وصفه في طفولته ، انه كان طفلاً سابقا لانداده في الفهم والقدرة والنمو ، وأدرك وهو بين السابعة والثامنة مواقف النبي (ص) قبيل نزول الوحي عليه وخلواته بنفسه وتأملاته وما كان عليه من التفكير والصمت العميق ، كل ذلك ادركه علي (ع) في طفولته ، وتأثر به كما يشير الى ذلك بقوله : لقد عبدت الله قبل ان يعبده احد خمس سنين .

وقال واصفوه وهو في تمام رجولته ، انه كان ربعة اميل الى القصر ، شديد السمرة ، اصلع الرأس ، ثقيل العينين في دعج وسعة ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، اغيد كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري[1] لا يتبين عضده من ساعده قد ادمجت ادماجاً ، كبير البطن يميل الى السمنة من غير افراط ضخم عضلة الساق والذراع ، شثن الكفين يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي (ص) مقداماً في الحرب يقوم مهرولاً لا يلوي على شيء[2] .

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن سيرة المصطفى ان نستقصي سيرته خلال الفصول الآتية لما بينهما من الترابط والتشابك في جميع المراحل التي مر بها النبي (ص) قبل هجرته وبعدها الى ان اختاره الله لجواره .

بوادر انحلال الوثنية

لقد اتفق المؤرخون على انه قبل مبعث الرسول ظهرت بوادر التنكر للوثنية بين العرب في شبه الجزيرة . وكان بينهم من عاش في ملل من تلك الأوضاع الفاسدة ، ونظر الى وثنية العرب نظرة مليئة بالسخرية والاستهزاء ، ولكن هؤلاء بين من كان يحاول الاصلاح ولا يملك الطاقة التي تمكنه من ذلك ، وبين من كان يترقب ظهور مصلح ينقلهم من عبادة الأصنام والأوثان الى عبادة إله واحد لا شريك له ولا نظير ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد جاء في البخاري وغيره من كتب الحديث عن ابن عمر وغيره عن رسول الله (ص) انه التقى بزيد بن عمرو قبل نزول الوحي عليه ، فقدم له سفرة فيها لحم ، فأبى ان يأكل منها ، وقال اني لا آكل مما لم يذكر اسم الله

---

(١) المشاش رأس العظم .

(٢) انظر الاصابة لابن حجر ، والاستيعاب لابن عبد البر .

عليه ، مما تذبحونه لأنصابكم ، قال ذلك : وهو يظن ان النبي يوم ذاك على دين قومه يذبح للأنصاب ويعبدها من دون الله ، ولم يكن يعلم من امره شيئاً .

وكان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وانزل لها الماء من السماء وانبت لها النبات وأنتم تذبحونها لغير الله .

وخرج الى بلاد الشام يبحث عن دين يرتاح إليه ويطمئن به ، فلقي بعض علماء اليهود ، فسأله عن دينهم ، فقال له : لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله ، فقال زيد : ما فررت الا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً وانا استطيعه ، فهل تدلني على غيره ، فقال لا أعلمه إلا ان تكون حنيفياً ، فقال زيد : ما الحنيفية : قال دين ابراهيم ، فخرج زيد ولقي عالماً من النصارى فذكر له مثل ذلك ، فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله ، فقال ما فررت إلا من لعنة الله ولا احمل من لعنة الله شيئاً ، فهل تدلني على غيره ، فقال لا أعلم الا الحنيفية وهي دين ابراهيم .

ورجع زيد الى شريعة ابراهيم بعد ان رأى ان اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبوذون من جميع الناس ، وكل من دخل في دينهم سيلاقي نفس المصير ، والنصارى وقع بينهم صراع رهيب في طبيعة المسيح وأمه أدى الى الحروب الطاحنةوقسمهمفرقاً وأحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ، والعالم الذي سأله زيد كان من اليعاقبة الذين يخالفون المذهب الذي اختارته كنيسة الرومان التي كانت تصب عليهم اللعنات وتقذفهم بالجحود والمروق عن المسيحية ، وقد عرف زيد بأنه إذا دخل معهم سيلاقي نفس المصير .

وجاء في بعض المرويات عن أسماء بنت أبي بكر انها قالت : رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل قائماً قد اسند ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين ابراهيم غيري .

وكان يحمي الموءودة ، ويقول لمن يريد ان يقتل ابنته : انا اكفيك امرها ومؤونتها ويأخذها منه ، فاذا ترعرعت قال لأبيها : ان شئت دفعتها إليك وإن

شئت ان تتركها لي أكفيك مؤونتها .

وروي عنه ابن اسحاق انه كان يقف الى جانب الكعبة ويقول : اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب اليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحتيه ، وأضاف الى ذلك ان ابنه سعيد بن زيد ، وابن عمه عمر بن الخطاب ، قالا للنبي (ص) بعد ظهور الإسلام : أنستغفر لزيد بن عمرو قال نعم فانه يبعث امة وحده[1] .

وجاء في طبقات ابن سعد عن عامر بن ربيعة انه قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : انا ننتظر نبياً من ولد اسماعيل ، ثم من ولد عبد المطلب ولا أراني أدركه ، وأنا اؤمن به وأصدقه وأشهد انه نبي فإن طالت بك مدة وأدركته فأقرئه مني السلام ، وسأخبرك بصفته حتى لا يخفى عليك ، قلت هلم ، فقال هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله لا تفارق الحمرة عينيه ، وبين كتفيه خاتم النبوة اسمه احمد ، يولد ويبعث في هذا البلد ، ثم يخرجه قومه ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر أمره ، فإياك ان تخدع عنه ، فاني طفت البلاد كلها أطلب دين ابراهيم ، فكل من اسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه بمثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما بعث محمد (ص) وأسلمت اخبرت رسول الله بقول زيد وبلغته منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال لقد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً[2] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣١ ، ويبدو من هذه الرواية ان زيداً لم يكن معاصراً لمحمد (ص) ولا يعرفه بشخصه ، في حين ان رواية البخاري التي نقلناها عنه في بداية الحديث عن زيد تنص على انه التقى به وقدم له سفرة فيها لحم وأبى ان يأكل منه زيد لانه لم يذكر اسم الله عليه مما يدعو الى الشك في صحة هذه المرويات .

وقال ابن اسحاق : ان صفية بنت الحضرمي كانت كلما رأت زيداً قد تهيأ للخروج من مكة يبحث عن الحنيفية دين ابراهيم اخبرت عمه الخطاب بن نفيل ، فيأتيه ويحول بينه وبين ما يريد ، ولما أصر زيد على الخروج آذاه الخطاب وأخرجه الى خارج مكة فنزل حراء ووكل به جماعة من شباب قريش وسفهائها ، وقال لهم لا تتركوه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سراً ، فاذا علموا به اخبروا الخطاب وأخرجوه كراهية ان يفسد عليهم دينهم ، وان يتابعه احد منها على طريقته ، ثم انه خرج من الحجاز في طلب الحنيفية ، ومضى يسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة وتجول في بلاد الشام ، وانتهى الى راهب في أرض مرتفعة من أرض البلقاء[1] ينتهي اليه علم النصرانية فسأل عن دين ابراهيم فقيل له : انك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أطل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين ابراهيم ، فانه مبعوث الآن وهذا زمانه . وكان قد تعرف على اليهودية والنصرانية فلم يرض منهما شيئاً فخرج مسرعاً باتجاه مكة حين سمع ذلك من الرهبان ، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه ، فبكاه ورقة بن نوفل لما انتهى اليه خبره ورثاه بهذه الأبيات :

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وأدركك الدين الذي قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا

وكما ذكرنا فإن زيداً هذا لم يكن الوحيد الذي سئم ما كان عليه عرب الجزيرة من عبادة الأحجار والأصنام والتماثيل واستخف بها وبمن يعبدونها من

---

(١) البلقاء في سوريا بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة كما جاء في معجم البلدان .

دون الله بل كان احد أولئك المتحنثين او المتحنفين الذين ترفعوا عن عبادة من لا يعقل ولا يدرك شيئاً وخرجوا من ديارهم وبلادهم يطلبون ديناً تطمئن له قلوبهم وتقبله عقولهم كورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعثمان بن الحويرث بن أسد ، وعبيد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمة .

وجاء في كتب السيرة ان ورقة بن نوفل قد اعتنق النصرانية واتصل بأهلها وأخذ عن كتبهم وأناجيلهم بعض الأخبار التي تبشر بظهور النبي (ص) ، وكان اول من بشر خديجة بذلك حينما جاءته تقص عليه ما جرى للنبي (ص) حينما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وقد جاءها فزعاً يرتجف من الخوف ، فأتت به إليه ليقص عليه ما جرى له ، ولما قص عليه ما سمع وما رأى ، قال له : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى ، يا ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك ، فقال له رسول الله : اومخرجيَّ هم ، قال نعم : لم يأت رجل قط بمثل ما تجيء به الا اخرجه قومه وأهانوه ، وإن يدركني يومك حياً انصرك نصراً مؤزراً ، ولم يكتب الله البقاء لورقة طويلاً فقد جاء اجله قبل ان يعلن النبي دعوته الى الناس .

وجاء عن عبيد الله بن جحش انه اقام على شريعة ابراهيم وأدرك الإسلام وأعلن اسلامه ، ثم هاجر الى الحبشة فتنصر فيها ومات على النصرانية ، وكان يلتقي بالمهاجرين اليها من المسلمين ، فيقول لهم : (فقحنا وصأصأتم) اي ابصرنا وأنتم تلتمسون البصر .

وأما عثمان بن الحويرث وكان من ذوي قرابة خديجة ام المؤمنين ، فذهب الى بلاد الروم وتنصر فيها ووفد على قيصر ملك الروم فأكرمه وعزز مكانته .

وجاء في بعض المرويات عنه انه أراد ان يبسط نفوذ الروم على مكة ويجعلها تحت حمايتهم ، وأن يكون عاملاً لقيصر عليها ،فطرده المكيون فالتجأ الى الغساسنة في بلاد الشام ، وأراد ان يقطع الطريق على تجارة مكة ، فلما احس المكيون بذلك أرسلوا الى الغساسنة بعض الهدايا ، فلم يمكنوه من

ذلك ، وأخيراً مات عندهم مسموماً . إلى غير هؤلاء ممن انكروا عـلى قومهم عبادة الأوثان ورجعوا الى عقولهم يفكرون ويتأملون في خلق السموات والأرض وما فيها من أصناف المخلوقات وانتشروا في بلاد الله الواسعة يبحثون عن دين تقبله عقولهم وأنظمة يجدون فيها حلاً مريحاً لمشـاكلهم ، على ان فكـرة الايمان بالله والتمرد على أديان العرب ومعتقداتهم ، قد ظهرت في الشعر الجاهلي الذي يعبر عن واقعهم اكثر من أي شيء سواه فقد جاء في معلقة امرىء القيس التي يصف بها حواره مع عشيقته سلمى :

سمـوت إليهـا بعـد مـا نـام أهلهـا	سمـو حباب المـاء حـالاً عـلى حـال
فقـالت سبـاك الله انـك فـاضحي	ألست ترى السمار والنـاس أحوالي
فـقـلت يمـين الله أبـرح قـاعـداً	ولـو قطعـوا رأسي لديـك وأوصـالي
حلفت لهـا بـالله حلفـة فـاجـر	لناموا فما ان من حديث ولا صـالِ

وحدث له وهو في طريقه ليثأر من قتلة أبيه ، ان مر على ذي الخلصة وهو صنم كانت العرب تعـظمه ، فـاستقسم عنده بـازلامه الثـلاثة الأمـر والناهي والمتربص ، فلما أجالها خرج الناهي ، فأعادها ثانية وثالثة فخرج الناهي أيضاً فغضب امرؤ القيس وجمع الأقداح وكسرها وضرب بها الصنم وسبه وسب من يعظمه وأنشأ يقول :

لـو كنت يـا ذا الخلص المـوتـورا مثـلي وكـان شيخـك المقبـورا
لم تنه عن قيل العداة زورا

ثم غزا بني أسد فظفر بهم ، ولم يستقسم بعدها بصنم طول حياته وجاء عن مالك بن حارثة ان أباه كان يبعثه باللبن الى صنمهم (ود) ويقول له اسق إلهك فيشرب اللبن ويسخر من أبيه .

وكان مالك بن كلثوم الشمجي احد الأشراف يحتقر صنماً يدعى الفلس وتوقع عدي بن حاتم له ان يصاب بأذى بسبب ذلك ، فلما لم يصبه شيء رفض

عدي بن حاتم عبادته وعبادة جميع الأصنام وتنصر ، ولم يزل على النصرانية الى ان جاء الإسلام فأسلم .

وكان لمزينة صنم يدعى (نهم) ثار عليه سادنه وحطمه وأنشأ يقول :

ذهبت الى نهم لأذبح عنده   عنيزة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها   أهذا إله أبكم ليس يعقل
أبيت فديني اليوم دين محمد   إله السماء الماجد المتفضل

وجاء في شعر الأعشى :

استأثر الله بالوفاء   وبالعدل وولى الملامة الرجلا

وقال أيضاً :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه   ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

وجاء في شعر عبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك   علام ما أخفت القلوب

وجاء في معلقة زهير :

فلا تكتمن الله ما في صدوركم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب او يعجل فينقم

وقال امية بن أبي الصلت :

كل دين يوم القيامة عند الله   إلا دين الحنيفة زور

الى كثير من امثال هذه المرويات عن العرب قبل الإسلام التي تؤكد انه

كان بين العرب من يسخرون من الأصنام وعبادتها ويعتقدون بإله واحد يثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ولا تليق العبودية لغيره وانتشر ذلك بين عرب الجزيرة قبل مبعث الرسول بواسطة جماعة من اليهود والنصارى من حيث لا يقصدون التبشير بالنبي والدعوة الى رسالته ، بل كانت المناسبات تدعوهم الى الاعلان عما توارثوه من أسلافهم وما وجدوه في توراتهم وأناجيلهم .

فقد جاء عن عاصم بن عمر قوله عن رجال من قومه ، ان مما دعانا الى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا ما كنا نسمعه من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل الكتاب عندهم علم ليس لنا ، فاذا وقعت بيننا وبينهم شرور ونلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه قد تقارب زمان نبي فاذا بعث نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث رسول الله (ص) اجبناه حين دعانا الى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا فيه ، وفينا وفيهم نزل قوله تعالى :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق بسنده الى سلمة بن سلامة بن وقش وكان ممن شهد بدراً مع النبي (ص) انه قال :

كان لنا جار من اليهود فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل وأنا يومئذ من احدث من فيه سناً على بردة لي مضطجع فيها بفناء اهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار وهو يتحدث مع قوم من المشركين لا يرون بعثاً ولا حساباً بعد الموت ، فقالوا له ويحك : أترى هذا كائناً وان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم ؟ قال نعم ، والذي يحلف به ، ولود ان له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار ، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه على ان ينجو من تلك النار غداً ، فقالوا له ويحك فما آية ذلك ؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى

مكة واليمن ، فقالوا ومتى نراه فنظر الي وأنا من احدثهم سناً ، وقال : ان يستنفد هذا الغلام يدركه .

قال سلمة بن سلامة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله (ص) وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا له ويحك يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال بلى ، ولكن ليس به .

وجاء في رواية ابن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة انه قال له : هل تدري كيف كان اسلام ثعلبة بن سعيه وأسيد بن سعيه وأسد بن عبيد وهم نفر من بني هدل اخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ، قال قلت لا والله . قال فإن رجلاً من يهود اهل الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين وحل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه فكنا ، إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة صاعاً من تمر ومدين من شعير فنخرجها ، ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيستسقي الله لنا فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى قد فعل ذلك مراراً ، ثم حضرته الوفاة عندنا .

فلما عرف انه ميت ، قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير الى أرض البؤس والجوع ؟قلنا انك أعلم . قال فإنما قدمت هذه البلدة اتوكف خروج نبي قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مهاجره ، وكنت أرجو ان يبعث فاتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تُسبقن اليه يا معشر يهود ، فانه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه ، فلما بعث رسول الله ، وحاصر بني قريظة بعد غزوة الأحزاب قال هؤلاء الفتية وكانوا شباباً احداثاً : يا بني قريظة ، والله انه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان ، فقالوا هو ذاك ، فقالوا بلى والله انه لهو بصفته فنزلوا وأسلموا وأحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وأهليهم .

هذا بالاضافة الى مجموعة اخرى من المرويات رواها المؤلفون في سيرة

الرسول عمن قرأوا الكتب القديمة وأخذوا من الكهنة والأحبار والرهبان ، كلها تبشر بظهور مولود عربي من أسرة عريقة بالمجد ، يدعو الى التوحيد والإلفة والمحبة ونبذ الأصنام والأوثان ويحدث انقلاباً في العالم لا عهد لأحد فيه من قبل ، واشتمل بعضها مع ذلك على بعض الحوادث والخوارق التي رافقت حياته منذ مولده الى تاريخ مبعثه كما يدعون ، والتي امتلأت بها كتب الحديث والتاريخ ومع ان اكثر تلك المرويات لا تثبت في مقام النقد العلمي لأسانيدها ومتونها ، إلا ان الباحث لا يخرج صفر اليدين من بعض الحوادث التي اقترنت بحياته قبل بلوغه سن الأربعين والتي تبشر بنبوته ورسالته .

ويجمل القول ان من راجع حوادث ذلك العصر وما كان يتخبط فيه اهله يخرج وهو على يقين بأن العالم كان في امس الحاجة الى من ينقذه مما كان فيه من الضلال والفوضى والبؤس والشقاء وجاءت الحقائق التاريخية لتؤكد ان محمداً (ص) هو المنقذ الذي اختاره الله سبحانه لرسالته : ولم يبق مجال للشك في تلك الرسالة بعد تلك الحوادث الكونية وحقائق التاريخ .

هذه الرسالة التي كان يترقبها زيد بن نفيل ، وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث ، وعبد الله بن الحارث وأمية بن الصلت وغيرهم ممن استهانوا بالأصنام وعُبّاد الأصنام وخرجوا من ديارهم يفحصون ويطلبون ديناً تقبله العقول وتطمئن إليه النفوس ، وأوصلهم البحث والتفكير الى ان الإله الذي يجب ان يعبد هو صانع الانسان والحيوان والأرض والسماء وما فيهما وما بينهما لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

فيما أدخلته قريش قبل مبعث النبي على الحج

لقد جاء في تاريخ ابن كثير وغيره ممن كتبوا في السيرة النبوية ، ان القرشيين تشددوا في تعظيم البيت وتقديسه ، وقالوا نحن بنو ابراهيم وأهل الحرم وولاة البيت ، وقطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل

منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، وتواصوا بينهم ان لا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم ، وتركوا الوقوف على عرفات في التاسع من ذي الحجة والافاضة منها مع علمهم بأنها من شعائر ابراهيم ، وجعلوا لمن توالد من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم ، يحل لهم ما يحل لقريش ، ويحرم عليهم ما يحرم عليها ، وسموا أنفسهم بالحمس[١] .

وكانوا مع ذلك في تلك الأيام لا يتخذون من اللبن اقطاً[٢] ولا سمناً ولا يسلون شحماً ، ولا يدخلون بيتاً من شعر ، ولا يستظلون إن استظلوا الا في بيوت الأدم[٣] وقالوا لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاؤ وا به معهم من الحل الى الحرم ، إذا جاؤ وا حجاجاً او عماراً ، ولا يطوفوا بالبيت عند قدومهم أول طواف إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، وأضاف الى ذلك ابن هشام في سيرته ، فان تكرم منهم متكرم من رجل او امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم يعد له ان ينتفع بها ، أو يمسها هو او احد غيره ، ويسمون ذلك الثوب (اللقى)[٤] .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

كفى حزناً كري عليه كأنه لقى بين أيدي الطائفين حريم

وكانت المرأة إذا أرادت ان تطوف ولم تجد ثوباً من ثياب الحمس تطوف عارية واضعة يدها على فرجها ، وفي رواية ابن هشام انها تنزع جميع ثيابها الا

---

(١) الحمس جمع احمس ، وهو المتشدد المتصلب في الدين ، وسموا أنفسهم بذلك لأنهم تشددوا في الدين بادخال هذه البدع على الحج .

(٢) الإقط شيء يتخذ من لبن الغنم او من مخيضه .

(٣) الاخبية التي تصنع من الجلد .

(٤) اللقى : الشيء المطروح .

درعاً مفرجاً عليها وتطوف به ، وقد طافت ضباعة بنت عامر بن صعصعة على تلك الحالة وهي تنشد :

اليـوم يبـدو بعضـه او كله   ومـا بـدا منـه فـلا احله [1]

وظلت هذه العادات سارية بينهم الى أن بعث الله محمداً (ص) فأبطلها بعد ان نهى عنها الله سبحانه في كتابه فقال :

﴿ ثم أفيضـوا من حيث أفـاض النـاس واستغفـروا الله ان الله غفـور رحيم ﴾ (البقرة ١٩٩) وقال في آية ثانية :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ﴾ .

﴿ قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾[2] .

ويبدو من بعض المؤلفين في السيرة ان العرب لم يقفوا الى جانب قريش وأحلافها في هذا التدبير الذي ابتدعوه وأرادوا ان يفرضوه على الناس ، فقد كان بعضهم يخرج الى عرفات في اليوم التاسع ومنها الى المزدلفة وغيرها لأداء بقية المناسك .

وجاء عن جبير بن مطعم انه قال : رأيت رسول الله (ص) قبل أن ينزل الوحي عليه وهو واقف بعرفات على بعير له مع الناس بين قومه حتى يدفع معهم منها .

وفي السيرة الحلبية ان القرشيين وأحلافهم لم يفرضوا تلك العادات على

---

(١) وجاء في التعليقة على السيرة الحلبية ان رسول الله بعد مبعثه أراد ان يتزوج بها فقيل له ان فيها كبرة فتركها ، وبلا شك فإن هذه الرواية من المكذوبات ، لان النبي لا يمكن ان يتزوج من امرأة مبتذلة كهذه ان صح انها كانت تطوف بين الناس عارية .

(٢) انظر ج ١ من سيرة ابن هشام ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

غيرهم من سائر العرب ، وسمحوا لهم ان يقفوا بعرفات ويفيضوا منها ويأكلوا ما يشاؤ ون وما يشتهون حسب السنن التي اعتادوها منذ زمن بعيد .

كما وان طواف النساء عاريات لم يكن امراً معتاداً عند العرب كما يدعي جماعة من المؤ رخين فقد جاء في انساب الأشراف عن كتاب المنمق لابن حبيب بسند ينتهي الى عبد الله بن عباس ما حاصله ان ضباعة بنت عامر كانت زوجة لهوذة بن علي بن ثمامة الحنفي ولما توفي أصابت منه مالاً كثيراً فتزوجها عبد الله بن جدعان وبقيت معه مدة من الزمن وبينما هي تطوف بالكعبة رآها هشام بن المغيرة فأعجبته ، فقال لها لقد رضيت ان يكون هذا الشباب والجمال عند شيخ كبير فلو سألته الفرقة لتزوجتك فراجعت بذلك ابن جدعان وتوسلت إليه أن يطلقها فامتنع عليها وأخيراً طلقها واشترط عليها ان لا تتزوج من هشام بن المغيرة وإذا فعلت فعليها ان تطوف حول البيت عارية وتنحر عدداً من الابل وان تغزل وبراً بين الاخشبين من مكة فوافقت على ذلك وأخبرت هشاماً بما جرى ، فأرسل إليها اني مستعد لأن أسأل قريشاً لتخلي لك البيت فتطوفي قبل الفجر في ظلام الليل وكان الأمر كذلك فطافت عارية في ظلام الليل ويدعي بعض الرواة ان النبي خطبها بعدما مات هشام عنها . ثم تراجع عنها لأسباب خلقية[1] .

---

(١) انظر انساب الاشراف ج ١ ص ٤٦١ .

الفَصْلُ الثالِث

في غار حراء

لقد اجمع المحدثون والمؤرخون على ان النبي (ص) وجماعة من بني هاشم كانوا قبل نبوته على شريعة ابراهيم الخليل ولم تنحن رؤوسهم ولا خشعت قلوبهم لغير الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد .

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام ولا يغيب عن بال الكثير من الباحثين هو ان عيسى بن مريم (ع) كان رسولاً لجميع البشر بلا استثناء وان الشرائع العامة ينسخ المتأخر منها ما تقدمه من الشرائع والأديان ، وقد جاء عيسى بعد موسى وابراهيم وغيرهما من الأنبياء ولا بد وان تستمر شريعته ورسالته الى اليوم الذي بعث فيه محمد بن عبد الله (ص) ومع هذا الواقع الذي لا كلام حوله ، فلماذا كان محمد بن عبد الله قبل نبوته على شريعة ابراهيم ولم يكن على شريعة عيسى التي فرضها الله على الناس اجمعين واستمرت الى الزمن الذي بعث فيه محمد بن عبد الله (ص) ؟

ويمكن الجواب عن ذلك ان جميع الأنبياء والمرسلين يتفقون على الدعوة الى إله واحد لا شريك له ولا نظير وعلى الخير والإحسان ومحاربة البغي والعدوان ونحو ذلك مما يعود بالخير على جميع الناس .

ولا بد مع ذلك بأن يأتي المتأخـر بتشريعـات وتوصيـات جديـدة حسب مقتضيات الزمن وتطورات الحياة والمصالح التي لا يحيط بها في الغالب إلا الله .

ولقد بعث الله عيسى بن مريم الى جميع الناس وقبل ان يرفعه إليه غالى فيه اتباعه أسوأ أنواع المغالاة وعبدوه وامه من دون الله . وقـد حكى الله ذلك بقوله :

﴿ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ (المائدة ١١٦) وكان الجواب من عيسى (ع) :

﴿ ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ﴾ .

ووقع منهم مع هذا الغلو الفاحش اختلاف شديد في طبيعته وطبيعة امه وكيفية ولادته وتفرقوا من بعده شيعاً وأحزاباً يتـلاعنون ويتـراشقون بـالسباب والتكفير والحروب الدامية طيلة قرون من الزمن .

وأعلن اليعاقبة انشقاقهم عن الكنيسة في روما وظل النساطرة على ولائهم لها ، وسادت الحيرة على انسان تلك العصور وغطت بضبابها الكثيف على كل مـا جاء بـه عيسى من مبادىء وتشـريعات وحـرفوا الانجيـل حسب اهوائهم ومصالحهم حتى أصبحت المسيحية لا تعني الا مجموعة من المتنـاقضات التي لا تقبلها العقول ولا تحدها الأفهام كما كان الحال في اليهودية قبلها ، في هذا الجو المضـطرب وجد محمـد بن عبد الله قبـل نبوتـه وليس للمسيحية معنى معقـول ومقبول يمكن لانسان كمحمد بن عبد الله الذي أدرك بفطرتـه الصافيـة زيف الوثنية وتناقضات النصرانية وانحرافها عن مفاهيم الرسالات ، وضـلال قـومه ان يرجع إليه ويتخذه ديناً من بين تلك الديانات المنتشرة هنا وهناك ولكل منها أنصار وأتباع يكفر بعضهم بعضاً .

في هذا الجو وجد محمد بن عبد الله فكان ينظر الى المسيحية فلا يرى فيها الا مـا يثير الـدهشة والاستغـراب ويرى ضـلال قـومـه في عبـادتهم الأصنـام والأحجار فيعود الى تأملاته بعيداً عن انسان عصره يعبـد إله الأرض والسـماء

والبحار وما فيها من المخلوقات الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك ونظير كما كان يعبد ابراهيم واخوانه الأنبياء، ولا يمكن لنبي من الأنبياء ان يحيد عن ذلك ويدعو الناس الى غيره وان ضل اتباعهم وتفرقوا في متاهات الهوى والجهل وأصبح بعضهم يلعن بعضاً وستنهال اللعنات على كل من يعتنق المسيحية كما جاء على لسان عالم من النصارى عندما سأله زيد بن عمرو بن نفيل عن المسيحية يوم ذاك ليتخذها ديناً له كما تنص على ذلك المؤلفات في سيرة الرسول الكريم (ص) .

ومهما كان الحال فلقد اعتاد محمد (ص) على التفكير والتأمل في خلق الله وأحوال هذا العالم وتقلباته منذ شبابه ولم يكن ليشغله شيء عن التفكير والتأمل بما تموج به الدنيا من فتن وعدوان ومظالم وكان يتلوى حسرة وألماً وحيرة لأنه لم يكن يملك العلاج لما تتخبط به البشرية من ضلال طمس على أعين الناس فأصبحوا لا يبصرون .

لقد أصبح الصمت والتفكر وكأنها جزء من حياته يتلمس في صمته أسباب الهدى وفي تأملاته في الحياة ومشاكلها أسباب السعادة لجميع الناس ليخرجهم من ظلمة الجهل الى نور الهداية والمعرفة ومن التمادي في الباطل الى حظيرة الحق لا ليكون كاهناً او عرافاً يخبر الناس عن ضمائرهم وما يجري عليهم في غدهم القريب والبعيد ، ولا ليكون حكيماً كحكماء الاغريق وفيلسوفاً كفلاسفة اليونان .

والتجأ قبيل مبعثه الى جبال مكة وشعابها ليكون بعيداً عن الناس ولغوهم وضوضائهم ، ووجد في غار حراء ما ينشده من الوحدة والخلوة مع نفسه ، فكان يذهب اليه في شهر رمضان من كل عام يقيم فيه الشهر بكامله مكتفياً بالقليل من العيش تحمله اليه زوجته خديجة الكبرى يطلب الحقيقة وحدها في خلواته مع نفسه ومن تأملاته في السماء ونجومها وكواكبها وفي الصحراء ولهيبها ساعة تكسوها الشمس بأشعتها المحرقة ، وفي البحار وأمواجها والأرض وما فيها من أشجار ونبات وأثمار وأزهار وفصول وتقلبات وعجائب المخلوقات .

في كل ذلك كان يفكر في غار حراء ليبلغ الحقيقة العليا ويخترق الحجب الى ما وراء هذه المظاهر وهو على قناعة بأن ما يباشره قومه من شؤون الحياة وما يتقربون به الى آلهتهم ما هو الا جهل وضلال وفي كل ساعة بل ولحظة يضيفون جهلاً الى جهل وضلالاً الى ضلال بعبادتهم للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن احد غائلة شر يصيبه .

ان هبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وكل الأنصاب والأصنام التي تراكمت حول الكعبة وفي جوفها وعلى سطحها لم تخلق يوماً ولو ذبابة ولم تدفع عن احد شر ذبابة ولا صنعت لمكة واهلها خيراً ، وما هي الا اخشاب واحجار وتماثيل صنعها الانسان بيده واتجه اليها بقلبه ولسانه من دون الله جهلاً وضلالاً وكلما رآهم يلوذون بها تتلوى نفسه حسرة وحيرة ويتمنى عليهم ان يرجعوا الى رشدهم فيعبدوا رب البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

في غار حراء كان محمد بن عبد الله في شهر رمضان من كل عام قبيل مبعثه وقد اخذت سنه تتجه نحو الأربعين يتجه الى الله خالق الكون بعقله وقلبه نائياً بجسمه وروحه عن أرجاس الجاهلية والوثنية ومساوئها حتى بلغت نفسه الطاهرة مرتبة تنعكس فيها أشعة الغيب لا يرى رؤ يا الا جاءت كفلق الصبح ، فاذا انقضى الشهر عاد الى مكة وعلى وجهه الكريم شحوب وفي جسمه نحول مما كان يعانيه على قومه وعلى المستضعفين في الأرض فتستقبله زوجته الوفية الصادقة التي كانت تتلوى من اجله ولم تكن تعلم ما سيكون من امره . ثم يستأنف حياته العامة وادارة شؤونه وأهل مكة وكل من عرفه من الاعراب خارجها ينظرون اليه باكبار واعجاب وهو مع كل ذلك يزداد تواضعاً ووفاء وعطفاً على الفقراء والمعذبين ، فاذا استدار العام وجاء الشهر الذي اعتاد ان يأوي فيه الى حراء رجع الى عبادة ربه وتفكيره وتأملاته ، ونفسه تزداد صفاء واشراقاً والحقائق تنجلي لديه شيئاً فشيئاً وتنعكس على صفحات قلبه فيبصر في يومه ما سيكون في غده ، ثم يعود الى ما بأيدي الناس من تراث الهداة الأولين

رسل الله موسى وعيسى (ع) فيجد اهل الأهواء قد عبثوا فيه فغيروا وبدلوا وحملة تلك الآثار قد سخروها لصالحهم وجهلة المسيحيين واليهود لم تتسع عقولهم لمعاني النبوات وحقائق الرسالات فتاهوا وضلوا سواء السبيل وأصبح ما جاء به أولئك الهداة كالجوهر الممزوج بالتراب في منجم مظلم لا يهتدي إليه احد من الناس ولو بذل كل جهوده وامكانياته وحتى لو كان عند أولئك الاتباع شيء من الحق ففي أيديهم الى جانب هذا الحق صور مذهلة من الأوهام والأباطيل وألوان من الوثنية لا يمكن ان تتفق وتسير مع الحق المجرد الذي لا يعرف كل هذه المضاربات والتناقضات والأوهام مما يمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب .

هذا الحق الذي تجلى لديه كما تجلى لاخوانه الأنبياء من قبله غريب عما يؤمن به قومه وغيرهم من اهل الكتاب الذين اتخذوا عيسى وامه إلهين من دون الله ، كما اتخذ اليهود من قبلهم عزيراً وعبدوه من دون الله .

لقد تكشف له حراء عن نور يسطع من قلبه بالإلهام والهداية بين يدي وحي مبارك يناديه بصوت لا ينفذ لغير قلبه اقرأ يا محمد ، فيصغي إليه بدهشة وحيرة ، ثم يجيب مستفسراً ما أنا بقارىء ، ويتكرر الطلب والرد بينهما وبالتالي يقرأ عليه الأمين جبرائيل ويقرأ معه .

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خَلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ .

وحدث ابن اسحاق عن عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان واعية عن أهل العلم على حد تعبير ابن اسحاق انه قال : ان رسول الله حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى تغيب عنه البيوت ويفضي الى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر بحجر ولا شجر الا سمع هاتفاً يقول : السلام عليك يا رسول الله فيلتفت خلفه وعن يمينه وشماله فلا يرى شيئاً ، فمكث على ذلك يرى ويسمع ما شاء

الله ان يمكث الى ان جاءه جبرائيل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان .

وفي السنة التي نزل فيها عليه الوحي خرج الى حراء كعادته حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبرائيل بأمر من الله وهو نائم بنمط من ديباج فقال اقرأ قال رسول الله (ص) قلت ما اقرأ ، قال : فغطني به حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني ، وقال اقرأ قلت وما اقرأ فغطني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني وقال اقرأ قلت وما اقرأ وصنع بي كما صنع في الأولى والثانية ، ثم أرسلني وقال اقرأ وخفت ان يفعل ذلك بي مرة اخرى .

فقال ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** ﴾ ، فقرأتها حتى انتهى فانصرف عني ، وقمت من نومي وكأنما كتبت في قلبي فخرجت حتى اذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل حاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل فوقفت انظر إليه وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر من ناحية الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً في مكاني حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا اعلى مكة ورجعوا إليها وأنا في مكاني ذلك أنظر إليه ، ثم انصرف عني ، وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى جنبها ، فقالت : يا أبا القاسم أين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت : ابشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني أرجو ان تكون نبي هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت الى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عمها ، وكان قد تنصر ، وفي رواية كان قد تأله ، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله وبما رأى وسمع ، فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس ، والذي

نفس ورقة بيده ان كنتِ صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران ، وانه لنبي هذه الأمة ، قولي له فليثبت .

فرجعت خديجة الى رسول الله (ص) وأخبرته بقول ورقة بن نوفل ، ثم لقيه ورقة وهو يطوف في الكعبة ، فقال له : يابن اخي اخبرني بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله (ص) فقال له ورقة والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ثم اخبره ببعض ما يلاقيه من قريش ، وقال له : ولئن ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه وانصرف كل منهما الى منزله .

وجاء عن خديجة انها قالت لرسول الله (ص) يا ابن العم أتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك قال نعم . فلما جاءه قال لها رسول الله : هذا جبريل قد جاءني ، فأتته وقالت قم واجلس على فخذي الأيسر فقام وجلس عليه ، فقالت له هل تراه قال نعم ، ثم تحول رسول الله (ص) الى فخذها الأيمن وقالت له هل تراه ، فقال نعم ، ثم حولته الى حجرها وقالت له هل تراه فقال لها نعم : فكشفت عن رأسها وألقت خمارها ناحية وقالت هل تراه ، فقال لها لا ، فقالت له اثبت وابشر ، فوالله انه لملك وما هو بشيطان .

وجاء في رواية ثانية انها قالت له : ابشر فوالله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الامانة ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وجاء في هذه الرواية انها لما اخبرت ابن عمها ورقة بما يصيب النبي استدعاه فقص عليه ما رأى وما سمع فبشره بالنبوة وقال له ليتني اكون حياً حين يخرجك قومك فقال له النبي أو مخرجيَّ هم : قال نعم لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودي وأوذي ، وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً ، ولم يلبث ورقة ان توفي ، وانقطع الوحي عن النبي (ص) بعد ذلك مدة من الزمن ، وقيل ثلاث سنوات ، فحزن النبي (ص) خشية ان يكون انقطاعه عنه عقوبة من الله .

وخرج الى حراء يفكر ويتأمل كعادته ، وينتظر ان يعود إليه الملك الذي جاءه أولاً وبشره بالنبوة ، ثم انقطع عنه ، وبينما هو غارق في التفكير والتأمل ؛ وإذا بجبريل يطل عليه ويقول : يا محمد انك رسول الله حقاً ، فارتاح لذلك وقرت نفسه ، وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا ، وافترت شفتاه عن معاني الشكر والحمد ، ولم يبق لما تولاه من الخوف والوجل من ان يكون الله قد قلاه وأعرض عنه ، لم يبق لكل ذلك من اثر في نفسه ، وما عليه إلا ان يعود لبيته في مكة ليخبر خديجة بذلك ويطمئن قلبها برجوع الوحي اليه بعد انقطاعه عنه زمناً طويلاً تعرضت خلاله لبعض الهواجس والشكوك فيما كانت ترجوه لزوجها العظيم لا سيما بعد تلك البشائر التي زفها اليها ابن عمها ورقة بن نوفل .

وترك ذلك النداء في نفسه أثراً طيباً وسرت عنه مخاوفه فأخلد للراحة وغلبه النوم ولم يكن يذوقه الا لماما خلال تلك المدة الطويلة ، فجلست الى جانبه وأشفقت ان توقظه من نومه واخذها الحنان وهي تتأمل في وجهه الشريف وتمعن النظر اليه ، وفيما هي غارقة في بحر من الأفكار واذا به قد اهتز واضطرب وثقل تنفسه وبلل العرق وجهه فاستيقظ من نومه ليستمع الى الوحي يقول له :

﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر ﴾ .

وعظم عليها ما رأته من حاله ، فازدادت اشفاقاً عليه وتوسلت اليه بضراعة ان يسلم نفسه لبعض الراحة ، فقال لها ، لقد انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد امرني ربي ان أنذر الناس وأدعوهم الى الله وعبادته ، فمن ادعو ، ومن يستجيب لي ، فأجهدت نفسها ان تهون عليه وتشد من عزيمته ، وأعادت عليه حديث ابن عمها ورقة بن نوفل ، وأعلنت من وقتها اسلامها وإيمانها بدعوته ، وكان من الطبيعي ان تسارع إلى الايمان برسالته ، وقد أحصت عليه حياته كلها ، فما وجدت غير الامانة والصدق وعلو النفس وحب الخير لجميع الناس ، ورأته في أيام تحنثه في حراء ، وبعد ان جاء الملك يبشره

بالنبوة ، وسمعت من العرافين والكهان والأحبار نبأ رسالته ، واختبرت ذلك بنفسها يوم أجلسته على فخذها وفي حجرها وهو لا يزال يرى الملك الذي كان يأتيه في الصباح والمساء ، فلما ألقت خمارها غاب عنها كما نصت على ذلك رواية المؤلفين في سيرته ، فأيقنت حين ذاك ان الذي يأتيه مَلك وليس بشيطان ، وتأكدت ذلك من ابن عمها ورقة .

كان من الطبيعي بعد ذلك كله ان تكون اول من يصدقه ويؤمن بدعوته وتضحي في سبيلها بكل ما تملك .

وكيف تتردد في صدقه وقد عاشرته اكثر من خمسة عشر عاماً لم تعثر له خلالها على زلة قدم ، وقد جاءها اليوم يدعوها الى عبادة الله وحده وإيتاء كل ذي حق حقه ، والبر باليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وترك الفحشاء والمنكر والبغي ، لقد دعاها الى هذه الخصال التي احبتها قبل ان تكون زوجة لمحمد بن عبد الله ، فكيف تتردد اليوم في قبولها وقد انزلها الله على محمد بن عبد الله ليفرضها على الناس اجمعين .

قال اليعقوبي في تاريخه : ان اول ما افترض الله عليه الصلاة ، فقد أتاه جبريل فأراه الوضوء ، فتوضأ رسول الله كما توضأ جبريل ، ثم صلى ليريه كيف يصلي فصلى رسول الله (ص) ، وأضاف الى ان أول صلاة صلاها رسول الله هي صلاة الظهر ، وكان ذلك في الجمعة فأتى خديجة بنت خويلد فأخبرها بما فرضه الله عليه فتوضأت وصلت ، ونص على ذلك ابن خلدون في تاريخه ، كما أكد ذلك اكثر الذين كتبوا في سيرة الرسول وتاريخ دعوته .

اول من أسلم من الرجال

لقد اتفق المؤرخون والمحدثون على ان علياً (ع) اول الناس اسلاماً ولكنهم اختلفوا في سنه يوم اسلامه فقيل انه كان في الخامسة عشرة من عمره كما ذهب الى ذلك الحسن البصري وجماعة من المحدثين ، وقيل اكثر من ذلك كما

يظهر من ابي جعفر الإسكافي ، ولكن عبارة الكليني في الكافي تشير الى ان عمره يوم اسلامه كان يتراوح بين العاشرة والثالثة عشرة ، حيث قال : انه ولد بعد مولد النبي (ص) بثلاثين عاماً على حد زعمه ، وبما ان مبعث النبي يتراوح بين الأربعين من عمره والثلاثة والأربعين حسب اختلاف الروايات في ذلك فيكون عمره بنظر الكليني يتراوح بين العاشرة والثالثة عشرة .

وجاء عن حذيفة بن اليمان انه قال : كنا نعبد الحجارة ونشرب الخمر ، وعلي بن أبي طالب من أبناء أربعة عشر عاماً وهو قائم يصلي مع النبي (ص) ليلاً ونهاراً ، وقريش تسافه النبي وعلي يذب عنه ولا ناصر له غيره وغير أبيه ابي طالب .

وروى ابن أبي شيبة عن جرير بن عبد الحميد انه قال :

أسلم علي (ع) وهو ابن أربع عشرة سنة ، وادعى الجاحظ بأنه أسلم وهو في السابعة من عمره ، ومن المعلوم ان النصوص التي تعرضت لسن علي (ع) حين اسلامه لم يرد في شيء منها ان علياً كان بهذا السن يوم ذاك ، ولم يعتمد الجاحظ على رواية في ذلك وانما استنتجه من اختلاف الروايات واعتبره قولاً وسطاً على حد تعبير بعض المؤرخين ، وقد تعرض لهجوم عنيف من بعض المؤرخين والمحدثين ووصفوه بالجهل ومعاندة الحق كما جاء على لسان أبي جعفر الإسكافي وأضاف الى ذلك الإسكافي كما جاء في شرح النهج / ج / ٣ / ص ٢٦٤ و ٢٦٥ أضاف وقد علم الصغير والكبير والعالم والجاهل ممن بلغه ذكر علي (ع) وعرف مبعث الرسول (ص) ان علياً لم يولد في دار الاسلام وضمه رسول الله الى نفسه سنة القحط والمجاعة ، وعمره يوم ذاك ثماني سنين ، فمكث معه سبع سنين الى ان أتاه جبريل بالرسالة وقد أصبح بالغاً كامل العقل والادراك ، فأسلم بعد إعمال الفكر والنظر ، وورد في كلامه انه صلى قبل الناس سبع سنين ، وعنى بذلك السنين السبع التي التحق فيها بالرسول (ص) قبل مبعثه ، ولم يكن حينذاك دعوة ولا نبوة ، وإنما كان رسول الله يتعبد على ملة ابراهيم ودين الحنيفية ، وعلي يتابعه ، فلما بلغ الحلم وبعث النبي

(ص) دعـاه الى الاسلام فـأجابـه عن نظر ومعـرفة لا عن تقليـد كما يصنـع الصبيان ابناء السبع او التسع .

وجاء في الرواية ان النبي بعث يوم الاثنـين وصلى معـه علي (ع) يـوم الثلاثاء وبما ان النصوص متفقة على انه قد سبق غيره الى الاسلام ، ولم يستطع اخصامه التهرب منها فقد رجعوا الى هذا النوع من التحوير والتضليـل فقالـوا بأنه أسلم صبياً ، وأسلم غيره وهو بكمال العقل والادراك ، واسلامهم اكمل وأفضل من اسلام الصبيان ، لأنه عن نظر وتفكير ومحاكمة ، واسلام الصبيان عن تقليد ومحاكاة وبدون تدبر وتفكير .

ومهـما كـان الحـال فلقـد حـاول اخصـامـه ان يحـطوا من شـأنـه بكـل الأساليب ، فلم يجدوا منفساً يدخلون منه للطعن في اسلامه وجهاده واخلاصه وتضحياته فرجعوا الى هذا الأسلوب الملتوي وخرجوا منـه بأن اسـلام أبي بكر وغيـره ممن أسلموا بعـد ان تقدمت بهم السن كـان أكمل وأفضـل من اسلام الصبيان كعلي وأمثاله .

وفي عقيـدتي ان هؤلاء الـذين اعتمـدوا عـلى هـذا النـوع من الــدس والتضليل قد أرادوا ارضـاء أسيادهم من الحكـام الأمويـين والعباسيـين ، ولم يكتفوا بالتشويش على اسلام علي (ع) بل راحوا يصفون الأحاديث التي تنص على ان أباه أبا طالب حامي الاسلام وحامل لوائه مات مشركـاً ، واستطاعـوا بتلك المرويات ان ينفـذوا الى عقول اكـثر المحدثـين والمؤ رخين والجمـاهير في مختلف العصـور ، ولا ذنب لأبي طالب الا انـه والد الامـام علي (ع) وجـد الطالبيين الذين كانوا بنظر الأمويين والعباسيين المنافس الأول لسلطتهم الجائرة ودولتهم العاتية الظالمة ، في حين انهم أثبتوا لغيره الاسلام والايمان والأفضلية على سائر المسلمين وألبسوهم ثياب الصديقين الأبـرار ، وحتى لو كـان الثوب الذي ألبسوهـم اياه هو ثوبهم ، فلا تبلغ جميع مواقفهم مع رسول الله (ص) موقفاً واحداً من مواقف ابي طـالب في سبيل الاسـلام كما يبـدو ذلك للمتتبـع المنصف لمواقف أبي طالب رضوان الله عليه ، ولا بد وان نتعرض لاسلام أبي

طالب في الفصول الآتية من هذا الكتاب ونقدم العديد من الشواهد على اسلامه وإيمانه .

وقد تحدث العقاد عن مولد الامام علي (ع) واسلامه في كتابه عبقرية الامام وقد جاء فيه ان علياً ولد في داخل الكعبة وكرم الله وجهه عن السجود للأصنام فكأنما كان ميلاده ثمة ايذاناً بعهد جديد للكعبة والعبادة فيها ، بل قد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام ، وقد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف العبادة في صلاة النبي (ص) وزوجه الطاهرة قبل ان يعرفها من صلاة أبيه وأمه .

وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة اوثق من محبة القرابة ، فكان ابن عم محمد (ص) وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره .

وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم ، فلا جرم ان يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف وهو جميل ابي طالب يؤديه محمد (ص) ، وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوي إليه .

ومضى يقول : واختلفوا في سنه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ولعله اسلم في نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان يتعبد في بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في طفولته الباكرة ، وإذا هو نفر منها وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكرة ، فالعجيب ان يعود الى ألفتها والرضا بها بعد ان يبلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الاباء والأجداد .

ولولا إلفة علي (ع) لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين

الـذي دعا إليـه ، فقد أصـر كثير من أقـرباء النبي (ص) عـلى الشرك زمنـاً طويلاً .

ومضى يقول : لقد ملأ الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ، ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ، فبحق ما يقال : ان علياً كان المسلم الخالص في سجيته المثلى ، وان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسـلاماً ولا أعمق نفاذاً فيه ، لقد كان المسلم في عبادته وعلمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، حتى ليصح ان يقال : بأنه طبع على الاسـلام فلم تزده المعـرفة الا مـا يزيـده التعليم على الطباع .

وعلى أي الأحوال ، فلم يتردد احد في سبقه إلى الاسلام والايمان بكل ما جاء به محمد بن عبد الله ، وكما ذكرنا فإن سنه على وجه التحديد قد اختلفت الروايات فيها وتضاربت حولها الآراء اشد الاختلاف .

وجاء في صحيح ابن ماجة ص ٦٢ انه قال : أنا عبد الله واخـو رسول الله ، وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي الا كذاب ، صليت قبل الناس سبع سنين ، ورواها الحاكم في مستدرك الصحيحين ، وجاء فيها صليت قبل الناس سبع سنين قبل ان يعبده احد من هذه الأمة ، كما رواها ابن جرير الطبري في المجلد الثاني من تاريخه .

وجاء في مسند احمد ان علياً (ع) قال : ظهر علينا ابو طالب وأنا مـع رسول الله ونحن نصلي ببطن نخلة ، فقال : ماذا تصنعان يابن اخي فأخبـره النبي بالاسلام فقال : ما بالذي تصنعان بأس ، ثم قال علي (ع) اللهم اني لا أعرف أن عبداً لك من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيك ، لقد صليت قبـل ان يصلي الناس سبعاً .

وجاء في المجلد السادس من كنز العمال انـه قال : عبـدت الله قبل ان يعبده احد من هذه الأمة ست سنـين ، وفي خصائص النسـائي ، انه قـال : عبدته قبل ان يعبده احد تسع سنين .

وجاء في كنز العمال ج / ٧ ص ٥٧ عن ابن مسعود انه قال : أول شيء علمته من امر رسول الله (ص) اني قدمت مكة مع عمومة لي فأرشدونا الى العباس بن عبد المطلب فانتهينا اليه وهو جالس إلى زمزم . فجلسنا إليه ، فبينا نحن عنده أذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض تعلوه حمرة له وفرة جعدة الى أنصاف أذنيه ، أقنى الأنف برّاق الثنايا ، أدعج العينين كث اللحية دقيق المسربة ، شثن الكفين والقدمين ، عليه ثوبان أبيضان كأنه القمر ليلة البدر ، يمشي على يمينه غلام امرد حسن الوجه مراهق ، أو محتلم ، تقفوه امرأة قد سترت محاسنها فقصد نحو الحجر فاستلمه ، ثم استلمه الغلام ، واستلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، والغلام والمرأة يطوفان معه ، فقلنا : يا أبا الفضل ان هذا الدين لم نكن نعرفه فيكم ، أو شيء حدث ؟ قال هذا ابن اخي محمد بن عبد الله والغلام هو علي بن أبي طالب ، والمرأة امرأته خديجة ، أما والله ما على وجه الأرض من احد نعلمه يعبد الله بهذا الدين الا هؤلاء الثلاثة .

وأضاف الى ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٢٢ عن الطبراني انه بعد ان استلما الركن وقف الرجل والغلام عن يمينه والمرأة خلفهما فكبر الرجل والغلام وكبرت المرأة وأطال الرجل القيام وهما يتابعانه ثم ركع فأطال الركوع والسجود وهما يتابعانه الى ان أتم الصلاة ، فقال العباس : ما على وجه الأرض احد يعبد الله على هذا الدين سوى هؤلاء الثلاثة ، الى غير ذلك من المرويات الكثيرة الموجودة في مجاميع السنة والشيعة ، وكلها تؤكد انه قد سبق الناس الى الايمان بالله ورسوله ، وعبد الله قبل غيره اكثر من خمس سنوات .

ورواية السبع والست والتسع التي رواها اكثر محدثي السنة هذه الروايات تدل على انه كان حين اسلامه بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لأنه انضم الى النبي (ص) وهو في الثامنة من عمره ، وبضميمة سبع سنوات إليها كان يعبد الله مع النبي قبل نزول الوحي ينتج انه كان حين اسلامه بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، كما وان رواية كنز العمل عن ابن مسعود تؤيد

ذلك ، لأنه جاء فيها ان محمداً أقبل ومعه غلام مراهق ، ولا يوصف الغلام بهذا الوصف قبل الرابعة عشرة من عمره[1] .

ومما يزيد الأمر وضوحاً وتأكيداً دعوته لعشيرته فيما امره الله بذلك .

وجاء فيها انه امر علياً (ع) ان يصنع لعشيرته الطعام ويدعوهم اليه وكانوا اكثر من أربعين رجلاً فامتثل علي ذلك ، واجتمعوا فأكلوا وانصرفوا بدون ان يكلمهم النبي (ص) بشيء وفي المرة الثانية دعاهم الى الاسلام ، وضمن لمن يؤازره منهم وينصره ان يكون اخاه ووصيه وخليفته من بعده ، فلم يتكلم احد سواه ومضى النبي يكرر الدعوة لهم ولا يجيبه غير علي (ع) ، فلما رأى منهم الخذلان ومنه الاستعداد للنصر والتضحية في سبيل الله ، قال النبي (ص) : هذا اخي ووصيي وخليفتي من بعدي ، فقاموا من مجلسه يسخرون ويضحكون ، ويقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمّره محمد عليك .

فهل يكلف الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز في السابعة او العاشرة من عمره ، وهل يدعى مع الشيوخ والكهول حسب عرف الناس الذي لم يشذ عنه محمد (ص) في الدعوة وأساليبها غير المميز الذي يصح ان تسند اليه مسؤولية هذا العمل الجسيم .

وهل يضع النبي يده في يده ويجعله اخاه وخليفته من بعده الا اذا كان أهلاً وبالغاً حدود التكليف ومسؤولاً عن تعهداته والتزاماته التي سيكون لها اثرها البالغ فيما بعد ، والنبي (ص) يعرف جيداً ان علياً (ع) إذا لم يكن كامل الادراك وعلى بصيرة من امره ، ويحس بالمسؤولية التي التزم بها احساساً كاملاً يعرف بأنه سيتعرض للنقد والسخرية حتى من آله وذويه الأقربين ، الى غير ذلك من الحجج والأدلة التي أدلى بها ابو جعفر الاسكافي في مقابل الجاحظ وأبي بكر الأصم وغيرهما ممن حاولوا الانتقاص من اسلام علي (ع) وتفضيل

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج / ١ ص ١٩٤ وما بعدها .

اسلام أبي بكر وغيره على اسلامه ولو وجد هؤلاء سبيلاً ولو اوهى من بيت العنكبوت للقول بأن أبا بكر قد سبقه الى الاسلام لم يترددوا في ذلك ، ولكن تواتر الروايات حول هذا الموضوع ألجأهم الى الاعتراف بسبقه الى الاسلام ، وظنوا بهذا التضليل واللف والدوران انهم يستطيعون ان ينالوا من قدسية اسلامه ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الجاحدون .

وقد جاء في خطبة له اوردها جامع النهج يصف فيها اسلامه وصلته برسول الله (ص) منذ طفولته قال فيها :

وقد علمتم موقفي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وانا وليد يضمني الى صدره ويكتنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، فكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعل ، ولقد قرن الله به من لدن كان عظيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به سبيل المكارم ومحاسن الأخلاق ليله ونهاره ، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة ، واشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان ، فقلت يا رسول الله : ما هذه الرنة ، فقال هذا الشيطان قد يئس من عبادته ، انك تسمع ما اسمع وترى ما أرى الا انك لست بنبي ، ولكنك الوزير وانك لعلى خير .

وذكر جماعة من المحدثين والمؤرخين ان زيد بن حارثة اسلم بعد علي (ع) وكان النبي قد اشتراه لخديجة .

وقيل انها وهبته للنبي فاعتقه وتبناه ، وزوجه بعد ذلك من ابنة خالته زينب ، ولما طلقها زيد تزوجها النبي (ص) كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وستتعرض لملابسات هذه الحادثة عند الحديث عن أزواج النبي (ص) .

وجاء في رواية بحار الأنوار للمجلسي عن علي بن ابراهيم ان جعفر بن أبي طالب أسلم قبل زيد بن حارثة وأبي بكر وغيرهما ممن دخلوا في الاسلام على التعاقب .

وجاء فيها ان النبي (ص) لما بلغ السابعة والثلاثين كان يرى في منامه كأن آتياً أتاه يقول له : يا رسول الله ، فيقول له الرسول من انت ، فيقول انا جبريل أرسلني الله اليك ليتخذك رسولاً ، ورسول الله يكتم ذلك ، ثم نزل جبريل بماء من السماء ، وقال توضأ يا محمد وعلمه الوضوء ، كما علمه الصلاة ، فدخل علي على رسول الله (ص) وهو يصلي بعد ما تم له أربعون سنة ، فلما نظر اليه ، قال يا أبا القاسم ما هذا : قال هذه الصلاة التي امرني الله بها فدعاه الى الاسلام فأسلم ، وصلى خلفه وأسلمت خديجة فكان لا يصلي احد على وجه الأرض غيرهم ، فلما اتى لذلك ايام دخل ابو طالب الى منزل رسول الله ومعه جعفر فنظر الى رسول الله وعلي بجنبه يصليان فقال لولده جعفر : صل جناح ابن عمك ، فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر ، وكان رسول الله قد خرج الى بعض أسواق العرب فرأى زيد بن حارثة فاشتراه لخديجة ووجده غلاماً كيساً ، ثم وهبته له وبقي عنده في بيته حتى بعث النبي (ص) فأسلم وأخلص في اسلامه ، فكان النبي يصلي ومعه علي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة زوجته[1] .

وجاء في رواية شرح النهج ما يؤيد ذلك ، فقد جاء فيه ان ابا طالب فقد النبي (ص) يوماً وكان يخاف عليه من قريش ان يغتالوه فخرج في طلبه ومعه ابنه جعفر فوجده قائماً في بعض شباب مكة يصلي وعلي (ع) معه عن يمينه ، فلما رآهما ابو طالب قال لولده جعفر تقدم وصل جناح ابن عمك فقام جعفر عن يسار النبي (ص) فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله وتأخر الاخوان فبكى ابو طالب وقال :

---

(١) بحار الانوار للمجلسي ج / ٦ طبع ايران ص ٤٤٥ .

ان عليـاً وجعفـراً ثقـتي　　عند ملم الخطوب والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما　　اخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا اخـذل النبي ولا　　يخذلـه من بني ذو حسب [1]

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق ان الذي اسلم بعد علي هو زيد ابن حارثة ، وبعده أسلم ابو بكر ، وأسلم بعدهم عثمان بن عفان ، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وأسلم بعد هؤلاء الثمانية ابـو عبيـدة بن الجـراح ، وأبـو سلمـة بن عبـد الله الأسـدي ، وأرقم بن أبي الأرقم ، وبعدهم اخذ الاسلام ينتشر في مكة ويفشو فيها .

وأضاف الى ذلك ابن هشام في سيرته ان زيد بن حارثة كان عبداً لخديجة وقد وهبته للنبي ، وهو ابن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرىء القيس واستطرد يقول : ان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة ، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يوم ذاك مع رسول الله (ص) فقال لها اختاري يا عمة اي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك فاختارت زيداً ، وأخذته ، فلما رآه رسول الله عندها استوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله وتبناه وذلك قبل مبعثه وكان أبوه قد جزع لفراقه وأنشد أبياتاً قال فيها :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل　　احي فيرجى ام أتى دونه الأجل
فـوالله مـا أدري وإني لسائل　　أغالك بعدي السهل ام غالك الجبل

ولما عرف بمكانه وفد على النبي في طلبه ، فقال له النبي (ص) ان شئت فأقم عندي وان شئت فانطلق مع أبيك ، قال بل أقيم معك فلم يزل عند رسول الله (ص) الى ان بعثه الله نبياً ، فكان أول من أسلم بعد علي (ع) كما

---

(١) انظر ص ٢٧٣ / ج / ٣ من شرح النهج .

جاء في بعض المرويات ، وفي بعضها الآخر انه اسلم بعد جعفر بن أبي طالب ، وفي رواية ثالثة بعد ابي بكر .

وعلى أي الأحوال فعلي (ع) اول من أسلم من الرجال عند جميع المؤرخين والمحدثين ، والثاني هو احد ثلاثة هم : جعفر وزيد بن حارثة وابو بكر ، وأكثر الروايات ان زيداً أسلم قبلهما ، كما وان الروايات التي تنص على تقدم اسلام جعفر وزيد اقرب الى الصحة من غيرها .

ويدعي المؤرخون والمؤلفون في سيرة النبي (ص) ان أبا بكر كان من الدعاة الى الاسلام وأسلم بواسطته عدد كبير من الناس ، منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وغيرهما من الطبقة الأولى من المسلمين ، ولكن ابا جعفر الاسكافي وغيره كما جاء في شرح النهج يشكك في صحة تلك المرويات التي تجعل لابي بكر تلك الشخصية التي تهيمن على تلك الطبقة التي لها وجودها واستقلالها في مكة كعثمان والزبير وطلحة وغيرهم ممن يدعي المؤرخون انهم أسلموا تبعاً لأبي بكر .

وذهب أبو جعفر الاسكافي الى ان هؤلاء لم يكونوا من أصحابه ولا من جلسائه ، وقد عجز عن اقناع أبيه أبي قحافة وابنه عبد الرحمن الذي أقام على كفره ثلاثة عشر عاماً والنبي في مكة ، واشترك مع المشركين في حروبهم للنبي ، وظل على شركه الى عام الفتح ، كما وان زوجة أبي بكر نحلة بنت عبد العزى ام عبد الله لم تسلم .

ومضى الاسكافي يقول : ان ابا بكر لم يكن من الدعاة الى الاسلام كما يدعي الجاحظ وأتباعه ، بدليل انه لم يحاول اقناع ولده عبد الرحمن بالاسلام وبقي على شركه الى ان جاءت معركة احد ، وخرج يوم ذاك من عسكر المشركين يتحدى ارادة ابيه ويقول أنا عبد الرحمن بن أبي بكر ويطلب المبارزة ، وظل على شركه الى عام الفتح فأسلم يوم ذاك مع من أسلم من القرشيين والمكيين ، واين كان رفق ابي بكر وحسن احتجاجه ، في حين لم يستطع اقناع أبيه بالدخول في الاسلام وهو واياه في بيت واحد ، ومن المعلوم انه بقي على

شركه الى يوم الفتح ، فأحضره ابنه الى النبي (ص) وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة على حد تعبير المؤرخين ، فنفر منه رسول الله وقال غيروا هذا ، فأرجعوه وخضبوا رأسه ثم جاؤوا به مرة اخرى ، فأسلم حيث لم يجد هو وأبو سفيان ومن على شاكلتهما عن الاسلام بديلاً غير السيف .

وكان ابو قحافة فقيراً مدقعاً سيء الحال ، وأبو بكر كما يزعمون غنياً فائض المال ، فلماذا ترك اباه فقيراً بتلك الحالة التي يصوره بها المؤرخون ، مع انه على حد زعمهم كان محسناً واستمال الى الاسلام جماعة بواسطة احسانه وامواله .

وظلت امرأته نحلة بنت عبد العزى بن أسعد العامري على شركها الى ان هاجر ابو بكر ، فلما انزل الله على رسوله ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ طلقها .

وأضاف الى ذلك الاسكافي ان من لم يقبل منه ابوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج ، ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم وادخال المكروه عليهم ، فغيرهم أقل قبولاً منه واكثر خلافاً عليه .

ومضى يقول في النقض والرد على من أرادوا ان ينتحلوا لأبي بكر فضلاً وشرفاً عن طريق اسلامه المبكر ، وادعوا ان من أسلم بدعاء أبي بكر الى الاسلام اكثر ممن اسلموا بالسيف واستدلوا على ذلك بما رووه عن أسماء بنت ابي بكر انها قالت : ما عرفت أبي الا وهو يدين بهذا الدين ، ولقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا الى الاسلام فأسلمنا وأسلم أكثر جلسائه ومنهم خمسة من أهل الشورى كلهم يصلح للخلافة وهم أكفاء علي ومنازعوه الرياسة والامامة .

وقال ابو جعفر في الرد على هؤلاء بما ملخصه : انه اذا كانت امرأته لم تسلم وابنه وأبوه لم يسلما ، وأخته ام فروة لم تسلم ، وعائشة يوم ذاك لم تكن قد وجدت في هذه الدنيا ، وابنه محمد ولد بعد مبعث النبي بثلاث وعشرين سنة ، وابنته اسماء راوية الحديث كانت يوم مبعث النبي (ص) بنت اربع سنين على

ابعد التقادير ، فمن الذي أسلم من أهل بيته كما يدعي البكرية وأتباعهم ممن أرادوا بهذا التلفيق ان يجعلوا من أبي بكر داعية للاسلام لا تقل آثارها عن آثار صاحب الدعوة محمد بن عبد الله (ص) .

وكيف استطاع ان يهيمن على سعد والزبير وعبد الرحمن وطلحة وغيرهم في حين انهم ليسوا من أترابه ولا من جلسائه ، ولم تكن بينه وبينهم مودة او صداقة ، وكيف دعا هؤلاء البعيدين عنه واستطاع ان يهيمن عليهم ويستجلبهم ، وترك عتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من جلسائه وكانا يكبرانه ويأنسان الى حديثه وطرائفه كما يزعم أنصاره .

وما باله لم يدخل جبير بن مطعم في الاسلام ، وهو الذي أدبه وعلمه وعرفه أنساب العرب وقريش وطرائفها وأخبارها كما تدعون .

وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب الدخول في الاسلام في تلك الفترة وقد كان صديقه وأقرب الناس شبهاً به في اكثر حالاته . وأضاف الى ذلك : ولئن رجعتم الى الإنصاف لتعلمن بأن اسلام هؤلاء لم يكن الا بدعاء الرسول (ص) وعلى يديه .

وقال الاسكافي : ولئن رجعتم الى الأسلوب الصحيح المنتج لتجدن اسلوب ابي طالب في الدعوة الى الاسلام أجدى وأنفع من أسلوب أبي بكر وغيره .

ومضى الاسكافي في حديث طويل في معرض رده على من حاولوا الانتقاص من اسلام علي (ع) يفند مزاعمهم بأسلوب يدعمه المنطق وتؤيده النصوص كما أورده شارح النهج واقتطفنا منه هذه الفقرات حيث دعت الحاجة[1] .

ولو تغاضينا عن كل ذلك وسلمنا انه أسلم قبل ان يبلغ الحلم ،

---

(١) انظر ج ٣ من شرح النهج ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

فالنصوص التي تحدثت عن كيفية اسلامه تدل على ان اسلامه لم يكن بحكم تبعيته للنبي (ص) وبدون وعي وتدبر كما هو الحال في اعمال الصبيان حسبما يدعي انصار الأمويين والعثمانيين ، بل كان عن ايمان وقناعة بصحة الاسلام وصدق الرسول في ما دعا إليه .

فقد جاء في كيفية اسلامه انه دخل على محمد وخديجة وهما يصليان فوقف ينظر إليهما وهما يركعان ويسجدان والنبي يتلو ما تيسر من القرآن ويسبح الله ويحمده ؛ ولما فرغ النبي (ص) من صلاته سأله علي (ع) عن ذلك ، فأجابه بأنا نصلي لله الذي بعثني نبياً وأمرني ان أدعو الناس لعبادته ، ثم دعاه النبي (ص) الى الاسلام فاستمهله ليستشير أباه في ذلك ، وبات ليلته يفكر ويتأمل حتى إذا أصبح أقبل على النبي وأعلن اسلامه وايمانه بتلك الدعوة ، وقال : لقد خلقني الله من غير ان يشاور أبا طالب ، فلا أرى وجهاً لمشاورته في عبادة من خلقني ولم يستشر احداً في خلقي[1]

ان علياً كما تنص رواية اسلامه قد اسلم بعد التفكير العميق والتأمل الطويل ، وبعد ان استعرض نعم الله وقدرته التي لا تحيط بها العقول فأدرك ان الله هو الخالق والمنعم لا يستشير احداً في خلقه ولا يجاريه احد في تدبيره فله الأمر والنهي وإليه المعاد واستعرض ما عليه قريش وغيرها من حمق وضلالة في عبادتهم للأصنام والأحجار والتماثيل التي يصنعها الانسان بيده ويتخذها أرباباً من دون الله .

اما ابو بكر فلقد كان رجلاً عاقلاً كبيراً حين اسلامه ما في ذلك ريب ولكنه لم يسلم الا بعد ان عبد الأصنام زمناً طويلاً ولم يكن مع من تمردوا على عصرهم الجاهلي وعادات قومهم ومعتقداتهم كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو وأمية بن ابي الصلت وقس بن ساعدة وأمثالهم ممن سخروا بالأصنام وعبادتها واعتبروا ذلك جهلاً وضلالاً .

---

(١) انظر ص ١٤٠ من حياة محمد لهيكل الطبعة الخامسة .

واني لا أريد من كل ذلك ان انتقص من اسلام ابي بكـر وغيره ولا ان أجحد فضلاً وعملاً صالحاً لأحد من المسلمين الأولين فلأبي بكر وغيـره فضل السبق الى الاسلام والصحبة للرسول (ص) في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الدعوة التي كان الاسلام فيها في امس الحاجة الى الأنصار والاتبـاع في مقابـل اولئك الجبابرة الطغاة ولقد عزز هو وغيره موقف الرسول من أعـدائه.الألـداء كأبي جهل وأبي سفيان وغيرهما .

المرحلة الأولى من مراحل الدعوة

بقي محمد (ص) منذ ان بعثه الله نحواً من ثلاث سنين يتستر في دعوته ويتحاشى الرأي العام وجبابرة قريش ، فآمن به عدد قليل وتستروا في اسلامهم حتى لا يتعرضوا للعذاب والتنكيل ، ومع ذلك فإن انباء دعوة محمد قد تسربت الى المكيين من هنا وهناك وتحدث النـاس عنها في مجـالسهم ، ولكنهم في تلك المرحلة من تاريخها لم يتحسسوا بأخطارها وظنوا ان حديثها لا يزيد عن احاديث الكهان والمتألهين امثال قس بن سـاعدة وزيـد بن عمرو وأميـة بن أبي الصلت وغيـرهـم ممن تركـوا عبادة الأصنـام وخرجـوا من مكة يبحثـون عن دين تقبله عقـولهم ويطمئنـون إليـه ، وان محمـداً ومن اتبعـه عـائـدون الى دين آبـائهم وأجدادهم ، وبالتالي ستكون الغلبة لآلهتهم لا لغيرها ، كما كانوا يتصورون .

وبعد ثلاث سنين من مبعثه امره الله سبحانه ان يظهر امره ويدعو قومه الى الاسلام وانزل عليه .

﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فـاهجر ﴾ فكانت هذه الأوامر ايذاناً للرسول (ص) بأن الماضي قـد انتهى ، وانه الآن امام عمل جديد وتكليف شاق يستدعي اليقظة والحذر والتضحية وتحمل المشاق في سبيل توجيه الناس الى الوحدانية المطلقـة التي تعني ان الانسان ليس عبـداً

لكائن في الأرض او عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه .

وإلى الدار الآخرة التي يلقى الناس فيها ربهم فيحاسبهم حساباً دقيقاً ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون واما جحيم يشقى فيه الأشرار ويعذبون .

وإلى تزكية النفس بفعل ما امر الله به وترك ما نهى عنه وحذر من فعله .

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

لقد جمعت هذه الآيات الكريمة الأصول التي دعا اليها النبي (ص) في مكة ، وكان من الطبيعي ان يحرص على هداية قومه ويعرض عليهم أفكاره والمبادىء التي امره الله بتبليغها ، لأن الاصلاح يجب ان يبتدىء من الداخل ، حتى اذا ما استجاب له اهله وقومه يتجه الى غيرهم ، وربما تصبح دعوته بعد ذلك انفع وأسرع الى التصديق ، وأكثر نفاذاً الى القلوب والنفوس ، وجاءه الوحي ليؤكد عليه ان يبدأ بهم قبل غيرهم من عامة الناس فقال تعالى :

﴿ وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون ﴾ .

وجاء في بعض المرويات انه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا وهو موضع بمكة وجعل ينادي يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا بني عبد المطلب ، وذكر الأقرب فالأقرب حتى اجتمعوا ، ومن لم يستطع ان يخرج اليه أرسل رسولاً لينظر له ما يريد ، فقال النبي (ص) أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً تخرج

من سفح هذا الجبل تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ فقالوا : بلى والله ، لأنا ما جربنا عليك كذباً ، قال : اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال ابو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى عليه .

﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ .

وجاء في رواية ابي هريرة ، انه لما نزلت عليه الآية ونادى فيهم من على الصفا ليستمعوا اليه قال لهم : يا معشر قريش اشتروا انفسكم فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت ، فاني لا أغني عنك من الله شيئاً .

والصحيح انه عندما دعاهم في المرة الأولى وناداهم من الصفا ، كانت الدعوة لعشيرته ولم يزد على دعوتهم للاسلام ، وقد قطع عليه عمه ابو لهب في المرة الأولى حديثه وانصرف القوم وكانت الدعوة للاسلام ونبذ عبادة الأصنام .

اما الصيغة المتقدمة التي رواها ابو هريرة ، فمن الجائز ان تكون بعد ان انتشر الاسلام واستتب له الأمر ، على ان ابنته فاطمة كانت في بدء الدعوة طفلة صغيرة لم تتجاوز السنتين من عمرها ، وكان له ثلاث غيرها ، فلماذا تجاهلهن واتجه اليها بالخصوص بهذا التحذير .

على ان هذا الأسلوب لم يعهد من النبي (ص) انه كان يستعمله الا بعد انتشار الدعوة ، وتؤكد الروايات انه كان قبيل وفاته يكرر هذا الأسلوب على آله والأقربين اليه ويحذرهم من الاعتماد على احسابهم وأنسابهم .

ومهما كان الحال فلقد اجمع المؤرخون على أن النبي (ص) لما امره الله ان ينذر الأقربين من عشيرته دعا علياً (ع) وقال له : اصنع طعاماً واجعل عليه رجل شاة ، واملأ لنا عساً من لبن واجمع لي بني هاشم وعبد المطلب حتى

اكلمهم وأدعوهم الى الاسلام وأبلغهم ما امرت به ، فنعل علي (ع) ما أمر به ودعاهم وكانوا أربعين رجلاً يزيدون رجلاً او ينقصون فيهم أعمامه ابو طالب والحمزة والعباس وابو لهب وبنو عمومته فاحضر لهم علي (ع) الطعام فأكلوا حتى شبعوا .

وجاء عن علي انه قال : لقد كان الرجل الواحد منهم يأكل جميع ما شبعوا كلهم منه ، فلما فرغوا من الأكل وأراد النبي (ص) ان يكلمهم بدره ابو لهب عمه الى الكلام وقال ما أشد ما سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي (ص) ، وبعد أيام قال لعلي (ع) يا علي قد رأيت كيف سبقني هذا الرجل الى الكلام فاصنع لنا في غدٍ كما صنعت بالأمس واجمعهم لعلي اكلمهم بما امرني الله فصنع علي لهم الطعام فلما أكلوا وشربوا قال لهم النبي (ص) : ما اعلم انساناً في العرب جاء قومه بمثل ما جئتكم به لقد جئتكم بخير الدنيا والأخرة وقد امرني ربي ان أدعوكم اليه ، فأيكم يوازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم من بعدي ، فأحجم القوم غير علي (ع) فقام وهو احدثهم سناً وأرمضهم عيناً وأحمشهم ساقاً وقال : انا يا نبي الله فأمره النبي بالجلوس وكرر عليهم مقالته فلم يستجب له احد غير علي أيضاً .

ولما رأى النبي إحجامهم واصرار علي (ع) اخذ برقبته وقال : ان هذا اخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد امرك محمد ان تسمع لابنك وتطيع[1] .

وروي حديث دعوته لعشيرته وقوله لعلي (ع) انت اخي ووصي وخليفتي من بعدي في كنز العمال ج / ٦ ص ٣٩٧ ، واخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل .

---

(١) انظر تاريخ ابي الفداء ج / ١ / ٢ ص ٢٤ و ٢٥

ورواه بالنص الذي رواه به ابو الفداء وابن جرير الطبري ج ٢ / ص ٦٢[١] .

وجاء في فلسفة التوحيد والولاية للشيخ محمد جواد مغنية ان من الذين رووا نص النبي على علي بالخلافة عندما دعا عشيرته وبلغهم رسالة ربه ، كل من الامام احمد في مسنده وابن الأثير في الجزء الثاني من الكامل الطبعة القديمة ايضاً ومحمد حسين هيكل في الطبعة الأولى من كتابه حياة محمد ، ومحمد عبد الله عنان في كتابه تاريخ الجمعيات ، ولكن هيكل في الطبعة الثانية وغيرها من الطبعات قد مسخ الحديث المذكور وحرف منه كلمة خليفتي من بعدي في مقابل خمسمائة جنيه اخذها من جماعة ثمناً لهذا التحريف[٢] .

وجاء في التعليقة على أعيان الشيعة ان الدكتور هيكل في الطبعة الثانية قد حرف الحديث ومسخه في مقابل شراء ألف نسخة من كتابه المذكور ، واقتصر على كلمة ايكم يؤازرني على هذا الأمر .

وفي التفسير الكاشف للشيخ مغنية في تفسير الآية ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ان من الذين رووا حديث النص على علي بالخلافة من بعده في تلك المناسبة بالاضافة الى من ذكرناهم كل من النسائي والثعلبي في تفسيره والسيوطي والبغوي وصاحب السيرة الحلبية[٣] .

وفي المجلد الثالث من أعيان الشيعة ان الحديث بنصه الموجود في الطبري وغيره من كتب الحديث والتاريخ السنية رواه جماعة من أعيان السنة ومحدثيهم واشتهر نقله بينهم بهذه الصيغة .

وحاول بعضهم كابن تيمية وغيره من المتعصبين ان يضعوا الحديث المذكور في عداد الموضوعات بحجة ان بعض الأسانيد التي روي الحديث بها قد

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج / ١ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ .

(٢) انظر فلسفة التوحيد والولاية ص ١٧٩ و ١٣٢ .

(٣) الكاشف ج / ٥ ص ٥٢١ .

اشتملت على أشخاص يروون بعض الفضائل لعلي وآل علي . وكل من روى شيئاً من هذا النوع يجب الوقوف عند روايته والتثبت منها عند متعصبي السنة كابن تيمية وأمثاله .

ويجد المتتبع في كتب الرجال ونقد الحديث عشرات الرواة المتهمين بالكذب والرفض ووضع الأحاديث لا لشيء الا لأنهم يروون بعض الفضائل لعلي وبنيه (ع) ولا يقفون موقف المتعصبين منهم ، في حين انهم لا يتهمون احداً بالكذب ولا يخدشون وثاقته وعدالته فيما لو روى الغرائب وحتى المستحيلات في فضل غيرهم من شيوخ الصحابة وقد أعطينا أمثلة على هذه الحقيقة في كتابنا (دراسات في الكافي للكليني والصحيح للبخاري) .

وعلى أي الأحوال فقد رواه بالاضافة الى من ذكرناهم من مشاهير المحدثين والمؤرخين السنيين جميع محدثي الشيعة عن أهل البيت وغيرهم ويكاد ان يكون من نوع المتواتر في مضمونه ومعناه ، وبلا شك لو ان المسلمين قد رجعوا الى علي (ع) بعد الرسول (ص) وسلموه مقاليد السلطة لكان هذا الحديث وغيره من النصوص على خلافته من الضرورات كنصوص القرآن ، ولكن لما اتجهت الخلافة الاسلامية غير وجهتها الشرعية ومضت بالشكل الذي انتهت اليه وجد المسلمون أنفسهم تجاه امر واقع لا مفر منه ووجدوا هذا الواقع يتنافى مع تلك النصوص التي تؤكد خلافة علي (ع) بعد الرسول (ص) ولم يكن بإمكانهم التوفيق بين ما وقع ومضى عليه المسلمون وبين ما أراده النبي (ص) الا بتحوير البعض من تلك النصوص وتحريفها حيث لا مجال للشك في صدورها عن النبي (ص) وإنكار ما لا يجوز عليه من نصوص الولاية التحوير والتأويل لذلك اتجهوا الى تحوير بعض النصوص وانكار بعضها ، وتأويل البعض الأخر تأويلاً لا ينسجم مع ظاهر الكلام ولا مع أسلوبه ومناسباته لاعطاء ما وقع صفة الشرعية تمشياً مع مبدأ الاعتراف بالأمر الواقع الذي عليه اكثر الناس في كل زمان ومكان حتى ولو خالف الحق والعدل ، وقام على أشلاء الأبرياء والصلحاء .

وسنعود الى هذا الموضوع عند الحديث عن بيعة الغدير وغيرها من المناسبات الكثيرة التي كان النبي (ص) يستغلها للتصريح تارة والتلويح اخرى بخلافة علي (ع) من بعده .



الفَصْلُ الرابع

الدعوة العامة

لقد تحدث بعد هذه المواقف جميع الناس في مكة عن دعوة محمد ، وتسربت أنباؤها لخارج مكة ، ولم يعد امرها خافياً على احد من سكان مكة وجوارها بعد ان أعلنها بصراحة على بني عمومته وعشيرته وفيهم عمه ابو لهب الذي انصرف بعد اجتماع النبي (ص) بعشيرته الى تحريض قريش وزعماء المكيين على ابن أخيه ، وأحدثت أنباء تلك الدعوة ردوداً سيئة عند طواغيت قريش وزعمائها الذين كانوا يتمتعون بالسلطة ويستغلون الفقراء والعبيد وضعفاء مكة من حولها لصالحهم .

لقد احدثت انباء تلك الدعوة ردوداً سيئة عند هذه الطبقة من الناس ، لأن محمداً يناصر المظلومين ويحارب المستغلين ، ويؤكد للإنسان حريته وكرامته ، ويتمنى لجميع الناس على السواء من يؤمنون به ومن لا يؤمنون حياة سعيدة كريمة تسودها العدالة والمحبة والرحمة .

ان محمداً لا يريد أن يرى رجالاً يعيشون ويموتون وهم يبحثون عن الرزق فلا يجدونه ، في حين يتضاعف ثراء التجار الكبار والسادة المتجرين من دماء المستضعفين والعبيد والفقراء الكادحين ، ان أولئك الطغاة يعلمون بأن هذه الفئات ستلتف حول محمد وسيجدون في ظله حريتهم المطلقة وحقوقهم

المغتصبة ، لأن اول ما يدعو اليه هو تحرير الانسان من سيطرة الطغاة والمتجرين ومن عبادة الأوثان والأصنام ، والرجوع الى خالق الأرض والسماء وما فيهما من عجائب المخلوقات ، ويدعو مع ذلك الى العمل الذي ينفع الناس وينهى عن السيئات التي تصنع الحجب بينه وبين الله ، وعليها يحاسب ويعاقب يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

لقد رأى محمد (ص) ان الانظار قد اتجهت اليه وأقبلت على دعوته فبدأ يتحرك الى حد انه ما من يوم الا ويرى وافداً جديداً يتمرد على قومه ، وآخر يتمرد على أوضاع المكيين وعاداتهم ، وثالثاً يتمرد على أسياده ، ومع كل ذلك فلقد كان يتستر في الدعوة الى الله .

اما وقد شاع خبرها بين جميع الأوساط بالرغم من تستر النبي بها فقد حان الأوان بأن يعلنها للجميع مهما كانت النتائج ومهما كانت الاحتمالات فصعد على الصفا يوماً ونادى بنفس الأسلوب الذي نادى به بني هاشم وبني عبد المطلب بالأمس القريب كما جاء في رواية الطبري في تاريخه وابن هشام في سيرته ، فاقبلوا عليه من كل ناحية يتزاحمون لسماع مقالته فلما رآهم قد أقبلوا يتهافتون عليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم أكنتم مصدقيّ ، فقالوا بلسان واحد : نعم انت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط ، قال : اني نذير لكم من عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ويا بني عبد مناف ويا بني زهرة ويا بني تميم ، ويا بني مخزوم وأسد ومضى يعدد جميع قبائل مكة وفروعها ، ثم قال : ان الله امرني ان انذركم من عقابه واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الأخرة نصيباً الا ان تقولوا لا إله إلا الله ، فنهض ابو لهب وكان رجلاً بديناً سريع الغضب على حد تعبير الراوي ، وصاح به تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعت الناس ؟ وتفرقوا عنه يتشاورون في امره ويعدون العدة للقضاء على دعوته في مهدها قبل ان يستفحل خطرها وتمتد الى خارج مكة واتفقوا بادىء الأمر ان يحاربوه بالتكذيب والسخرية وتعذيب كل من يحاول الانضمام إليه وتصديقه .

ومضى هو في طريقه يدعو الى الله ويتلطف في دعوته وفي عرض المبادىء التي يدعو إليها ، ويبين مخازي الوثنية وعبادة الأصنام لا يبالي بما يسمع ويرى من التحدي والاستخفاف ، ويكرر الدعوة تلو الدعوة للأفراد والجماعات لا يدع مجالاً لليأس ان يتسرب الى نفسه ولا للشك فيما وعده الله سبحانه من النصر في نهاية المطاف ، وأغروا به سفهاءهم ليقذفوه بالكذب والسحر اينما وجدوه .

ومضت ام جميل زوجة عمه ابي لهب تغري العبيد والجواري به وتشجعهم على الإساءة اليه ، وهو الذي يطالب لهم بحياة افضل مما يكابدونه من استغلال وتعذيب ، ويتحمل في سبيلهم وسبيل غيرهم من المستضعفين ، من عمه أبي لهب وامرأته حمالة الحطب كل انواع الأذى والاستخفاف مما شجع سادة قريش ، الذين كانوا يتهيبون في بداية الأمر غضب بني هاشم وسطوتهم على الاساءة اليه . والاستخفاف به والتنكيل باتباعه وقذفه بالكذب تارة والسحر والجنون اخرى .

ولكن تعاليمه بالرغم من كل ذلك كانت تنتشر ، وبالرغم من الرقابة الشديدة لكل داخل لبيته وخارج منه كان يتسلل اليه في ظلام الليل أفراد من الموالي والأحرار ليعلنوا اسلامهم وايمانهم بدعوته مهما كانت النتائج .

وخلال تلك المدة كان قد أسلم جماعة من العرب والموالي منهم أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وأبو بكر بن قحافة وابو عبيدة بن الجراح ، وعبد الله بن الأسد بن هلال المعروف بأبي سلمة ، وعبد مناف بن الأسد المعروف بابن الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وصهيب مولى عبد الله بن جدعان ، وعمير بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وغيرهم الى حدود الأربعين رجلاً ، وكان النبي (ص) قد اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً له يدعو الناس خفية الى الاسلام وبعد ان تكاملوا اربعين رجلاً أسلم عمر بن الخطاب كما سنذكر حديث اسلامه .

اسلام ابي ذر الغفاري

لقد كان ابو ذر من السابقين الى الاسلام ومن المتألهين كما جاء في بعض المرويات ، واسمه جندب ، وسماه رسول الله (ص) عبد الله ، وكان هذا الاسم احب اليه من الاسم الذي اختارته له امه .

ويروي الرواة في تاريخه انه كان في اول امره يقطع الطريق على الناس فيصيب من اموالهم ما يشاء في الليل والنهار ، ولا يصده عن هدفه شيء ، وفي الوقت ذاته كان يعبد الأصنام ، ويختص منها بصنم يدعى مناة صنم القبيلة ولكن عبادة الأصنام على غموضها وغفلة الجاهلين عن بطلانها ، وتسليمها تسليماً فرضته العادة عليهم كان في نفس ابي ذر منها اشياء تحرك مشاعره احياناً الى التفكير والتأمل في امرها .

فقد جاء عنه انه قدم لصنمه مناة في بعض الأيام لبناً ، ومضى بعيداً عنه ، وبينما هو يفكر في عمله هذا ، واذا بثعلب يهجم على وعاء اللبن فيأكل ما فيه ، ولا يكتفي بذلك حتى يبول على الصنم ، فأثر هذا الحادث عليه وهالته جرأة الثعلب على معبوده ورجع يفكر في امر هذا المعبود الذي لم يستطع ان يدفع عن نفسه ضرر الثعلب وتحديه فكيف يدفع الضرر عن غيره ممن يعبدونه ويرجونه لدفع ما يحيق بهم من اضرار ونكبات .

ومضى يقول : ما عسى ان يكون لهذا المعبود الذي اعبده من قدرة ، وهو حجر جامد لا يستطيع تحريك يديه ليرد عنه عادية كلب من كلاب البر امطره ببوله ، ولم يلبث وهو غارق في هذا النوع من التفكير ان هتف بنفسه يردد :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان يمنع نفسه   ولا خير في رب نأته المطالب

برئت من الأصنام فالكل باطل   وآمنت بـالله الذي هـو غالب

ونفض يديه من مناة وأمثال مناة من تلك الأحجار والأخشاب والتماثيل التي لا تملك من الأمر شيئاً ، ولا تدفع عن نفسها بول الكلاب والثعالب ، وتوجه بعقله وقلبـه الى من بسط الأرض وسمك السـماء ، وانزل الغيث وخلق هـذه الكائنات الحية ، وقدر لها ارزاقها وأعطى كل نفس هداها ، وبقي قبل اسلامه شطراً من الزمن يندد بالأصنام وعبادها ، ويتأمـل في خلق السموات والأرض وجميـع الكائنـات ، الى ان انتهى الى الايمان بخـالق الأرض والسـماء ومقـدر الأعمار والأرزاق ومسير الشمس والقمر والكواكب وخالق من في الكون .

لقد آمن بما آمن به زيد بن عمرو بن نفيل وابن الحـويرث ، وورقـة بن نـوفل وعبـد المطلب بن هـاشم وابو طـالب وغيرهم ممن استخفـوا بـالأصنـام والتماثيل .

وجـاء عنه انـه قال لعبـد الله بن الصلت الغفاري : يـا ابن اخي لقـد صليت قبل ان ألقى رسول الله بثلاث سنين ، فقال له لمن : قال لله واتوجـه حيث يوجهني الله اصلي عشاءً حتى اذا كان من آخر السحر ألقيت كـأني خفاء حتى تعلوني الشمس[1] ، وحاول ان يقنع امه رملة وأخاه أنيساً بعقيدته وضلال من يعبد الأصنام ، وعرض لهما ما يجول بنفسه من الأدلة والبراهين ، فلم يجدا مخرجاً منها ، وساورتهما الشكوك بالأصنام وعبادتها حتى اشرفا على التراجع عنها والايمان بالله العظيم .

وبقي ابو ذر يعبد الله بفطرته السليمة التي أوصلته الى الحقيقة لا يتلون ولا يتردد ، ولا ينقاد الا الى ما يراه حقاً وصواباً وصدقاً وعدلاً ، وبـرزت فيه

---

(١) والصلاة التي يعنيها ابو ذر ان صح الحديث هي التفكر والتأمل في الكون وتقلباته وما فيه من الغرائب والمخلوقات ، اما الصلاة بمعناها الشرعي فلم تصدر حتى من النبي قبـل نزول الوحي بها عليه .

نزعة التعصب للحق والتصلب فيه وصدق اللهجة بعد اسلامه ولمسها منه القريب والبعيد وقال فيه النبي (ص) كلمته المشهورة .

« ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من أبي ذر » ، وبقي ابو ذر مدة بين أهله وعشيرته موحداً مؤمناً بإله واحد يعبده بفطرته السليمة حسبما توحيه اليه من التقديس والتعظيم ، حتى مر عليه رجل من قومه كانت قد بلغته أخبار دعوة النبي (ص) في مكة ، وقال له يا أبا ذر : ان رجلاً بمكة يقول بمقالتك يزعم أنه نبي ويدعو الناس الى عبادة الله ، فانتعش ابو ذر وأشرقت نفسه ، ولم يعد له ما يشغله عن استطلاع خبر هذا الرجل ، ومعرفة ما يدعو اليه ، فلم يلبث ان أرسل اخاه أنيساً الى مكة وأوصاه بأن يستعجل له الامور ويرجع اليه بما يطمئن اليه من أخباره ، ونفذ اخوه المهمة ، وسمع من اخبار محمد ودعوته من القريب والبعيد .

ورجع الى اخيه ليخبره بما سمع ورأى ، وقال له : لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر والبغي والمنكر والعدوان ، ويدعو الى إله واحد لا شريك له ولا نظير ، ويسخر من الاصنام وعبادتها ، فكان لهذه الكلمات اطيب الأثر في نفس أبي ذر واتفقت مع ما يختلج في ضميره ويهز مشاعره في حال تأملاته وتفكيره ، وصمم ان يذهب بنفسه الى مكة ليقف على خبر هذا الرجل الذي أصبح حديث الناس ، فسار ترافقه امه واخوه يجد السير الى نجد لزيارة اخواله ومنها إلى مكة المكرمة حيث محمد يدعو الى الله .

ولما بلغها انزل امه وأخاه خارجها ودخل مكة وحده وطاف في شوارعها وتصفح وجوه الناس ليعرف من هو محمد ، وظل يراقب الناس ويسمع من احاديثهم الى ان توارت الشمس ودب الظلام ، وخلت الكعبة من الوافدين ، وفيما هو في حيرة من امره وإذا بشاب قد أقبل ليطوف في البيت فمر به وقال من الرجل ؟ فقال من بني غفار ، فقال قم الى منزلك ، فقام معه وانطلق به الى منزله ولم يسأل احدهما صاحبه شيئاً ، وفي الصباح خرج ابو ذر يطلب حاجته ، وظل طوال يومه يترقب اخبار الرجل الذي جاء من اجله ، فلم يستفد شيئاً

وكره ان يسأل احداً عنه ، فمر به علي (ع) فقال له : اما آن للرجل ان يعرف منزله ، وانطلق به فبات ليلته ولم يسأل احدهما الآخر شيئاً ، وفي اليوم الثالث سأل ابو ذر علياً (ع) عن الرجل الذي خرج يدعو الى الله سبحانه واخذ عليه العهد ليكتمن امره ، فقال له علي (ع) : اني ذاهب اليه فاتبع اثري ، فاني ان رأيت ما أخاف عليك اعتللت بالقيام كاني أريد اريق الماء ، وان لم أر احداً فاتبع اثري حتى تدخل حيث أدخل ، ففعل ما أشار به علي (ع) ودخل في أثره على النبي (ص) فأخبره خبره وسمع قول رسول الله وأسلم ، ثم قال يا رسول الله ما تأمرني ، فقال النبي (ص) آمرك ان ترجع الى قومك حتى يبلغك امري ، فقال ابو ذر : والذي نفسي بيده : لا أرجع حتى أصرخ بالاسلام في المسجد .

ثم دخل المسجد متحدياً لقريش ونادى بأعلى صوته أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله ، فقام إليه المشركون وقالوا قد صبأ الرجل : وانهالوا عليه ضرباً حتى صرعوه ، فأتاه العباس بن عبد المطلب وانكب عليه حتى خلصه من أيديهم ، وقال يا معشر قريش : ان طريقكم في تجارتكم على قبيلة غفار ، وانهم سيقطعون الطريق عليكم ان أصبتموه بمكروه .

وجاء في بعض المرويات عنه انه كرر اعترافه بالاسلام ورسالة محمد بن عبد الله في اليوم الثاني وخلصه العباس من أيديهم كما فعل في المرة الأولى ، وتوعدهم هو بالانتقام لنفسه من تجارتهم التي لا بد لهم من المرور بها على غفار في طريقهم الى الشام ، ثم ودع الرسول وخرج حاقداً على قريش وغطرستها ، فأقام بعسفان حتى تمر القوافل في طريقها فكلما اقبلت عير لقريش احتجزها حتى يقولوا لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله فمن قال ذلك خلى سبيله ومضى في طريقه ، ومن أبى تعرض للنكال والعقاب .

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد ان أبا ذر ظل على موقفه هذا من قريش وتجارتها الى ان هاجر الرسول (ص) الى المدينة وكانت الحرب بينه وبين المشركين في بدر واحد فالتحق بالرسول (ص) بعد ان أسلمت بواسطته غفار

وجماعة من أسلم ، ولازم ابو ذر الرسول طيلة حياته واشترك معه في اكثر مواقفه وحروبه ، وظل وفياً للإسلام مخلصاً في اعماله لا يحابي احداً مهما كانت منزلته ولونه على حساب دينه ، ثائراً على الباطل وأهله صدوقاً في حديثه وايمانه ، حتى قال فيه رسول الله كلمته المشهورة بين الرواة والمحدثين . ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر .

وكان من الثائرين على المنحرفين والمستأثرين بأحوال العباد من حكام زمانه ، ولما أسرف عثمان بن عفان في عطاء مروان بن الحكم والحارث بن الحكم بن ابي العاص وزيد بن ثابت وبذر اموال المسلمين ، وسلط الأمويين والمروانيين على رقاب الناس يعبثون في الأموال والاعراض ويتجاهرون بالمنكرات ، أعلنها ابو ذر حرباً لا هوادة فيها وأخذ يندد بهم في المجتمعات ، ويعيد الى الأذهان قول الله سبحانه في المستهترين بأوامره .

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ﴾ .

وشق على أولئك العابثين بأموال العباد ان يسمعوا صوتاً يندد بأعمالهم وتصرفاتهم فشكاه مروان بن الحكم الى عثمان بن عفان ، فأرسل اليه نائلاً مولاه ليسكت وهدده بالعقوبة ان هو استمر على موقفه فقال اينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله ، فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان احب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضاه .

وشاعت مقالته هذه حتى بلغت عثمان فاستدعاه اليه وحاول اغراءه فلم يجد الى ذلك سبيلاً ثم جلده ونفاه الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية وزبانيته .

وبالرغم من كل ما بذله له معاوية من المغريات وما استعمله معه من أساليب العنف والارهاب لم يتخذ موقفاً في الشام اكثر ليونة من مواقفه في المدينة ، ولطالما وقف أبو ذر على رؤوس الجماهير وسيوف الحكام مسلطة فوق

رأسه يقول : والله اني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا ، وصادقاً مُكذباً ، واثرة بغير تقى ، وصالحاً مستأثراً عليه . وسرت كلمات أبي ذر وصيحاته بين الجماهير سريان النار في الهشيم ، وأيقن معاوية ان بقاءه في الشام يشكل خطراً على الدولة الأموية لا يمكن تلافيه ، فكتب الى عثمان يشكوه اليه ويحذره من بقائه في تلك البلاد لأن الجماهير قد أوشكت ان تقف الى جانبه .

فكتب اليه عثمان ، اما بعد فاذا أتاك كتابي فاحمل جندباً الي على أغلظ مركب ، فارسله معاوية مع جماعة من خاصته مكبلاً وأوصاهم ان لا يرفقوا به في ليل او نهار ، فلما بلغ المدينة سقط لحم فخذيه من الجهد الذي اصابه .

ولما دخل على عثمان ، قال له لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب ، فقال له ابو ذر : انا جنيدب وسماني رسول الله عبد الله فاخترت اسم رسول الله على اسمي ، فقال عثمان : أنت الذي تزعم انا نقول : يد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن اغنياء ، فقال ابو ذر : لو كنتم لا تزعمون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده ، واني اشهد اني سمعت رسول الله يقول : اذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباده خولا ودين الله دخلاً ، واشتد الحوار بينهما وابو ذر يزداد تصلباً وتصميماً على مناهضة الظلم والطغيان والتنديد بتلك الفئة الحاكمة التي استغلت ضعف عثمان وليونته على ذويه وأتباعه المستهترين بدين الله وحقوق عباده .

ولما لم يجدوا سبيلاً لاسكاته وضع عثمان في حسابه احد امرين اما قتله او نفيه ، ورأى ان قتله يجر عليهم غضب المسلمين ونقمة الجماهير لأنها تقدس ابا ذر وتعلم ما له من الصلة الأكيدة بالرسول وقد سمعوه اكثر من مرة يقرظه ويثني عليه في مختلف المناسبات .

فلا بد من نفيه عن المدن والعواصم الى مكان مقفر من السكان ومنع الناس من زيارته والاتصال به ، وكان الأمر كذلك فاختاروا له الربذة لتكون مسكنه ومدفنه وحملوه اليها مع زوجته وابنته على كره منه ، فعاش فيها ما بقي من حياته وحيداً غريباً في ارض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحوش

الى ان وافته منيته ويسر الله له وفداً من العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله فلوحت لهم زوجته فمالوا اليها وفيهم مالك الأشتر النخعي فاصيبوا بما يشبه الذهول والدهشة حينها عرفوا ان الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان الرسول يجله ويفضله على الكثيرين من اصحابه ، فتولوا تغسيله ودفنه وصدق فيه قول الرسول (ص) :

يا ابا ذر تعيش وحدك وتموت وحدك وتدفن وحدك[1] .

(١) انظر شرح النهج ج ١ ص ٢٣٨ وما بعدها وطبقات ابن سعد ترجمة ابي ذر .

اسلام عمار بن ياسر

لقد أسلم ابو ذر وعمار بن ياسر في وقتين متقاربين في بدء الدعوة والنبي لا زال يتستر في دعوته ، وقد اتخذ دار الأرقم مقراً له ، والمسلمون يتسللون اليه على التوالي الواحد بعد الآخر ، وهو يوصيهم بالصبر والتستر من قريش وجبابرتها .

وجاء في ترجمة عمار انه ينتمي بالنسب الى مذحج ، وهو يمني الأصل وفد والده ياسر بن عامر على مكة مع أخويه الحارث ومالك في طلب اخ لهما قد انقطعت اخباره ، ثم رجع اخواه الحارث ومالك ، وبقي هو ووالده في مكة ، فتحالف مع أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وزوجه ابو حذيفة امة له تدعى سمية بنت خياط فولدت له عماراً ، ثم اعتقه أبو حذيفة ، ولم يزل ياسر والد عمار مع حذيفة إلى أن مات . ولما ظهر محمد ابن عبد الله يدعو الى الاسلام اسرع هذا البيت إلى الاسلام وأخلص في اسلامه ، وصبر على جميع انواع الأذى في سبيله .

وجاء في خبر اسلامه عن ولده محمد بن عمار عن أبيه انه قال : لما ذهبت لدار الأرقم لأسمع من النبي (ص) لقيت صهيب بن سعفان على الباب ينتظر الاذن ، فقلت له ما تريد ، قال أريد ان أدخل على محمد لاسمع كلامه ، قلت وأنا أريد ذلك ، ثم دخلنا على النبي فعرض علينا الاسلام فأسلمنا ومكثنا يومنا

عنده الى ان امسى المساء فخرجنا وأخفينا امرنا مخافة قريش واتباعها ، ولما انكشف امر عمار وأبيه وامه وغيرهم من الموالي والمستضعفين ، اتفقت قريش على تعذيبهم والتنكيل بهم ليكونوا نكالاً لغيرهم ، وجاء ابو جهل ومعه جماعة من المشركين الى دار ياسر وأضرموا فيها النار ، ووضعوا عماراً وأبويه في الاغلال ثم ساقوهم بأسنة الرماح ورؤوس الحراب والسياط حتى انتهوا بهم الى بطحاء مكة فانهالوا عليهم بالضرب الى ان سالت دماؤهم ، ثم سلطوا النار على صدورهم وأيديهم وأرجلهم ، ووضعوا الأحجار الثقال على صدورهم ونحو ذلك من انواع التعذيب والتنكيل وهم مع ذلك صابرون محتسبون ، ومر النبي على عمار وأبيه وامه وهم يعذبون في بطحاء مكة بالسياط والنار ، فاذا تعب الجلادون وضعوا على صدر كل واحد صخرة وتركوهم على ظهورهم يستقبلون بوجوههم شمس الصحراء المحرقة ، فدعا لهم النبي (ص) بالفرج وبشرهم بالجنة ، ثم التفت الى عمار وقال له تقتلك الفئة الباغية ، وقالها له بعد ذلك في مناسبة ثانية كما سيأتي خلال الفصول الاتية .

وارتفع صوت سمية وهي تقول للرسول : أشهد انك رسول الله وان وعدك الحق ، وعاد اليهم الجلادون بالضرب والكي بالحديد المحمي بالنار الى ان غشي عليهم فلما افاقوا من غشيتهم اعادوا عليهم الكرة ولم يمنعهم ذلك عن ذكر الله سبحانه.

واشتد عليهم غضب أبي جهل وصاح بسمية لتذكرن والهته بخير ومحمدا بسوء او لتموتن ، فقالت له بؤساً لك ولآلهتك ، فلم يمهلها ان ضرب بطنها برجله ، وعادت تشتمه وآلهته فطعنها عند ذلك بحربة كانت في يده في ملمس العفة من بدنها ومضى يطعنها في ذلك المكان من جسدها بوحشية لا نظير لها حتى قضى على حياتها ، فكانت اول شهيدة في سبيل محمد ورسالته ، واتجه بعد ما إنتهى منها الى زوجها ياسر وهو مكبل في الحديد عارياً تلفحه حرارة الشمس ، وجعل يضربه برجله في بطنه الى ان مات شهيداً ، واتجهوا بعد ذلك الى تعذيب عمار ، بوحشة لا نظير لها حتى اضطروه ان يذكر آلهتهم بخير ويذكر

محمداً بما يريدون ، فأطلقوا سراحه عند ذلك فجاء الى النبي باكياً ، والنبي (ص) يسليه ويعزيه بفقد أمه وأبيه ، وهو يبكي ويقول لم أُترك يا رسول الله وقد أكرهوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، فقال له النبي (ص) كيف تجد قلبك يا عمار قال انه مطمئن بالايمان يا رسول الله ، فقال فما عليك فإن عادوا اليك فعد لما يريدون فقد انزل الله فيك ﴿ **الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان** ﴾ .

وسلم عمار من الموت الذي نزل بأبويه على يد أبي جهل وأبي سفيان وأبي لهب وغيرهم من جبابرة قريش وطغاتها الذين نكلوا بالضعفاء والعبيد والفقراء كما نكلوا بعمار وأبويه وأطعموهم للسياط والنيران فمات منهم من مات ، وشاءت الأقدار ان يسلم عمار ليبقى في تاريخ الاسلام رمزاً للبطولات والتضحيات وعلماً من أعلام المسلمين الذين جاهدوا وناضلوا في سبيل المبدأ والعقيدة ، وختموا حياتهم كما بدأوها بالجهاد في سبيل الله وبالشهادة على يد الفئة الباغية .

لقد كان عمار بن ياسر صديقاً حميماً لمحمد (ص) قبل الدعوة يكبر فيه كل صفاته ، ويرى فيه جديداً كلما مرت الأيام والشهور ، ولما دعاه الى الايمان بالله اسرع الى الايمان به هو وأبوه وأمه ، وظل وفياً للاسلام سخياً في البذل والعطاء طيلة حياته مع الرسول وبعد وفاته ، اذا رأى باطلاً ثار عليه لا يلين ولا يستكين ، واذا رأى انحرافاً عن الحق وقف الى جانب الحق ولو كانت الدنيا باسرها مع الباطل وأهله وصدقت فيه نبوءة الرسول (ص) : عمار مع الحق والحق مع عمار يدور معه كيفما دار ، وقد لاقى في سبيل تصلبه في الحق من المسلمين ما لاقاه من مشركي مكة حينما انتقد تصرفاتهم واستئثارهم بأموال العباد وتبذيرها لصالح الفئة التي كانت تحيط بالخليفة من ذويه وأرحامه .

فقد جاء في شرح النهج انه لما كثرت الأحداث في عهد عثمان كان عمار بن ياسر من الناقمين على تلك الأوضاع التي انحرفوا فيها عن سنة الرسول وسيرة من تقدمهم من الخلفاء ، وكان في بيت مال المدينة حلي

وجواهر ، فأخذ منه عثمان ما حلى به أهله ونساءه ، فأظهر الناس الطعن عليه وكلموه في ذلك بكلام شديد حتى أغضبوه ، فخطب الناس ، وكان فيما قال : لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت فيه انوف اقوام وأقوام ، فقال له علي (ع) اذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه ، وقال له عمار : أشهد الله ان أنفي أول راغم من ذلك .

فقال عثمان : أعلي يا بن ياسر تجترىء، وقال لغلمانه خذوه ، فأخذوه وأدخلوه على عثمان وضربوه حتى غشي عليه ، وفي رواية ثانية ان الغلمان مدوا يديه ورجليه وجعل عثمان يضربه برجله وهي في الخفين على مذاكره حتى اصابه فتق من كثرة الضرب ، وكان شيخاً كبيراً فغشي عليه فحمل وادخل الى منزل ام سلمة رضوان الله عليها ، وبقي في غيبوبته طوال يومه ، فلما أفاق بعد فوات وقت الظهرين والمغرب توضأ وصلى ما فاته قضاء ثم قال : ليس هذا بأول يوم أوذينا في الله .

ولما بلغ خبره عائشة اخرجت شعرة من شعر رسول الله ، ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد .

ومضى عمار في طريقه على هدي القرآن وسنة الرسول وسيرته حتى كانت نهايته بصفين على يد الفئة الباغية التي كان يترعمها معاوية بن أبي سفيان ، وصدق فيه قول رسول الله (ص) عندما قال له عثمان بن عفان يوم كان النبي (ص) يبني مسجده في المدينة وعمار يرتجز ويقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فظن عثمان ان عمارا يعرض به فقال له لقد سمعت ما تقول يابن سمية : والله اني سأعرض هذه العصا لأنفك ، فلما سمعها رسول الله (ص) قال ما لهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ان عمارا جلده ما بين عيني وأنفي .

وصدق قوله فيه وهو يمسح التراب عن رأسه : طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية وقوله : من أبغض عماراً فقد أبغض الله ، ان عماراً قد ملىء ايماناً الى أخمص قدميه .

ومن المعذبين في الله بلال بن رباح الجمحي مؤذن رسول الله ، وكان عبداً لأمية بن خلف ، وقد أسرع الى الاسلام مع السابقين اليه من المستضعفين والعبيد والفقراء وأخلص في اسلامه ، ولم يكن يتصل بنسب الى احد المكيين ليمنع عنه طغاة قريش ، فطالبه سيده امية ان يعلن نبذه لدعوة محمد فأبى ، فأمر به ان يؤخذ كلما حميت الشمس فيطرح عارياً على الرمضاء ويجلد الى أن يغيب عن الدنيا ، ثم يضعون صخرة كبيرة على صدره ، ويقول له أمية لا تزال هكذا يا عبد السوء حتى تموت او تكفر بمحمد ، وترجع الى عبادة اللات والعزى ، ثم يغري به صبيان قريش وهو مطروح عارياً والصخرة على صدره فيأخذ كل واحد منهم بطرف من أعضائه ويشده إليه ، فيأخذه الألم حتى لكأن اوصاله تتقطع ، وهو مع ذلك لا يستغيث بغير الله ثم يعود إليه امية مع جماعة من المشركين يسلطون النار على جسده ، وينهالون عليه بسياطهم الى ان يصبح كالخشبة الملقاة ، فاذا أفاق عادوا إليه وهم يأملون ان يرجع عن دين محمد ويذكر اللات والعزى ، ولكنه كان لا يذكر غير الله ولا يستغيث بغيره .

فقال له امية وقد تعجب من تحمله لما هو فوق طاقة الانسان ، قال له : اذكر الهتنا بخير يا بلال لنرفع عنك العذاب ، فأجابه : ان لساني لا يطاوعني على ذلك ، وظل بين أيديهم يتعرض للتعذيب والتنكيل الى ان جاءهم أبو بكر واشتراه منهم كما جاء في بعض المرويات .

ولما رأت قريش ما صنعه ابو جهل وأمية بن خلف بعمار وبلال انقضوا على عبيدهم الذين آمنوا بمحمد يسومونهم سوء العذاب ، يطرحونهم عراة على الرمال الساخنة تحت وهج الشمس ثم ينهالون عليهم بسياطهم حتى يفقد الواحد منهم وعيه ويشرف على الموت ، وهو مع ذلك يأبى أشد الإباء ان يذكر

اللات والعزى بخير ، أو ينال من محمد ودعوته ، بالرغم من ان محمداً (ص) قد رخص لهم ان يقولوا بألسنتهم ما ينقذهم من هذا العذاب ما دامت قلوبهم منطوية على الايمان بالله ورسوله ووعدهم بالنصر على أولئك الطغاة ان هم صبروا على ما أحيط بهم من البلاء وصدقوا ما عاهدوا عليه الله ورسوله وسيصبحون وأمثالهم من المستضعفين أعز وأكرم عند الله والناس من أولئك الجبابرة والطغاة ، ومع ان النبي (ص) قد رخصهم بمجاراة أسيادهم بألسنتهم فقد أصروا على موقفهم المتصلب من محمد ودعوته ومن التنكر للأصنام وآلهة قريش ودعاتها ولم يحسبوا لقريش وطواغيتها ولا لكل ما احيط بهم من البلاء والتعذيب حساباً .

لقد آمنوا بمحمد (ص) ورسالته وتجسد لديهم ما أعده الله للمؤمنين والصابرين من الدرجات الرفيعة والأجر العظيم فاستهانوا بعذاب موقت محدود لقاء نعيم دائم لا يحول ولا يزول فصبروا ووفاهم الله اجور الصابرين وكان للظالمين والجبابرة بالمرصاد .

وكان من بين أولئك المعذبين سالم مولى أبي حذيفة وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وعبد الله بن مسعود وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة وام عنيس وزنيرة وغيرهم من الموالي والمستضعفين ، ولما اشتد البلاء عليهم استنجد خباب بن الأرت بالنبي (ص) فذهب وهو متوسد ببردة في ظلّ الكعبة فقال له الاتستنصرلنا ألا تدعو الله لنا بالفرج فقال له النبي (ص) قد كان قبلكم اقوام يؤخذ الرجل منهم فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بمنشار فيوضع على رأسه فيصبح نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ولا يصده كل ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه فصبروا وشكروا ووفاهم الله اجور الصابرين ونصرهم على الكافرين والظالمين .

وجاء في كتب السيرة انه كان لبني عدي جارية امنت بالنبي (ص) فكان عمر بن الخطاب يتعاهدها بكل انواع الإساءة والتعذيب لترجع عن

الاسـلام ، ولا يترك تعـذيبها إلا مللاً من ذلـك ، فاذا مـل وكلّ قـال لهـا : أعتذر اليك فاني لم اترك تعذيبك الا عن ملالة ، ولم ينقذها منه الا ابو بكر اذ اشتـراها وأعتقهـا في جملة من اشترى وأعتق من أولئـك المعذبـين كما جـاء في بعض كتب السيرة .

وموضع التساؤل فيما جاء في كتب السيرة من ان ابـا بكر كـان يشتري اولئك المعذبين ليخلصهم من ساداتهم ، هـو أن قريشـاً كانت تنكـل وتعذب العبيـد الذين آمنـوا بمحمد وغيـرهـم من المستضعفين حتى لا ينتشـر الاسـلام وليكونوا عبرة ونكالاً لغيرهم وكانت تـود لو ان محمـداً (ص) يساومهم عـلى جميـع ما يملكـون ويتراجـع عما جـاء به ودعـا اليه فكيف تتنـازل قـريش عن ملكيتهم لأبي بكر وتترك تعذيبهم ، وما الذي يمنعها من تعـذيبهم اذا أعتقهم ابـو بكر او غيـره ، في حين انهم كـانوا يتعمـدون الاساءة لكـل من ليس لـه عشيرة تمنع عنه بغيهم او حليف يستجير به .

رجوع قريش الى ابي طالب

لقد وقفت قريش من دعوة محمد (ص) في بدايتها موقفَ اللامبـالاة الـذي لا يخلو من الهزء والسخـرية ، وهي تـظن ان الأمر لا يعـدو ان يكون لغرض في نفس محمد يريد ان يحققه بتلك الدعوة كالزعامـة او المال اوغيـرهما من الغايات والأهداف التي قد يغـامر الانسـان من اجلها ، وظلوا يسخـرون منـه ويحسبون انـه كغيره ممن قـد يظهـرون بمـظهـر الاصـلاح حتى اذا وصلوا لغايتهم او فشلوا في تحقيقها انكمشوا على أنفسهم ولاذوا بـالصمت والقناعـة بما وصلوا اليه ، ولكنهم سرعان ما ادركوا خـطأهم بعد ان وجـدوا ان محمداً قد اخذ نشاطه يتسع ، واتباعه يزدادون صلابة وتماسكاً ويتكاثرون يـوماً بعـد

يوم ، فعظم ذلك عليهم وخرجوا عن حدود الأناة والصبر ، لقد كانوا وهم سادة العرب وسدنة البيت يرون قوام مجدهم ومصدر عزهم هذا الرباط الذي يشدهم الى عقيدتهم التي ورثوها عن الآباء والأجداد ، وها هو محمد قد شرع في تحطيم تلك العقيدة واظهار مساوئها ، واستطاع ان يستجلب اليه جماعة من الأحرار والعبيد وفقراء الناس ، واخذ صيته يتسع يوماً بعد يوم ، وأنصاره لا يتنازلون عنه وعن دعوته بكل ثمن ، فاذا ترك وشأنه والتف حوله الناس فما عسى ان يكون مصيرهم ، وقد أدار رؤوس الفقراء والأجراء والعبيد والنساء عنهم وفرض لهم حقوقاً على أسيادهم ما كانوا ليحلموا بها قبل اليوم ، ولم يجعل لأحد فضلاً على الآخر ، لا كبير عنده الا بتقوى الله ولا صغير الا بمعصيته ، الناس لآدم وآدم من تراب فما عساهم ان يفعلوا ومحمد في منعة من حماية عمه أبي طالب ، وقد استأثر بقلبه وأصبح احب اليه من نفسه وأعز عليه من جميع أهله وولده ، ومن وراء أبي طالب من يأتمر بأمره من بني هاشم وهم أطوع له من بنانه يدافعون عنه بالمهج والأرواح ، فاذا أصابوا محمداً بسوء فسيقف لهم ابو طالب ومن ورائه جميع بني هاشم وستصبح مكة مسرحاً لحرب أهلية لا تبقي ولا تذر .

لقد وضعت قريش كل ذلك في حسابها ، وما عليهم الا ان يدخلوا من باب آخر لا يتسم بطابع العنف والقوة فاجتمعوا وقر الرأي بينهم ان يراجعوا ابا طالب ليكون سفيراً بينهم وبين ابن أخيه ، فاجتمعوا الى أبي طالب وقالوا له : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل أبناءنا فإما ان تكفه عنا واما ان تخلي بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فردهم ابو طالب رداً رفيقاً على حد تعبير ابن جرير في تاريخه .

وأضاف الى ذلك ان رسول الله مضى في طريقه يظهر دين الله ويدعو اليه وتوترت اجواء مكة وأصبح محمد حديث القريب والبعيد وتواصت قريش فيما بينها بالشدة وعدم المهادنة ، ثم مشوا الى أبي طالب مرة اخرى وقالوا يا أبا طالب ! ان لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وانا كنا قد استنهيناك من ابن

أخيك ، فلم تنهه عنـا ، وإنا والله لا نصبـر على هـذا من شتم آبائنـا وتسفيه آرائنا وعيب آلهتِنا حتى تكفه عنا او ننـازله وايـاك حتى يهلك احد الفـريقين ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تطب نفسـه بترك رسـول الله وخذلانه .

وفي روايـة ثانيـة انهم قالـوا لأبي طالب : قـل لابن اخيك يتـرك آلهتنـا ونحن ندعه وآلهته ، فعرض ذلك عليه ابو طالب ، فقال له النبي (ص) اي عم أولا أدعوهم الى ما هو خير لهم منها؟ فقال له ابو طالب: والى مَ تدعوهم؟ قـال أدعوهم الى ان يتكلمـوا بكلمة واحـدة تـدين لهم العـرب ويملكـون بهـا العجم ، فقال له ابو جهل من بين القوم : مـا هي وأبيك لنعـطيكها وعشـراً امثالها ، قال : تقولون : لا إله الا الله فنفروا منه وقالوا سلنا غير هذا ، فقال لو جئتموني بالشمس حتى تضعوهـا في يدي مـا سألتكم غـير هذا ، فغضبـوا وقاموا من عنده غضاباً ، وهم يقولـون : والله لنشتمنك والهـك الذي يـأمرك بهذا .

ولما اشتدت قريش على أبي طالب وانذرته بالحرب ان هو لم يردع محمداً عن آلهتهم وعرضوا عليه ان يملكوه عليهم ويشاطروه امـوالهم ويقدمـوا له مـا يشاء اذا تراجع عن موقفه ، جاءه ابو طالب وقـال له يـا ابن اخي : ابق علي وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله (ص) انـه قد بـدا لعمه ان يتـراجع الى حـد ما عن مـوقفه المتصلب الى جـانبه ، وانـه قـد ضعف عن نصرته ، فقال له رسول الله : يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يـظهره الله أو أهلك دونـه ما تركتـه ، ثم استعبر رسـول الله باكيـاً ، وقام من مجلس عمـه . فناداه ابـو طالب : ادن يا ابن اخي مني ، فـأقبل عليـه رسول الله فقـال له : اذهب يـا ابن اخي وقل ما شئت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً وانشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسـد في التـراب دفينـا

وأخفق القرشيون في اغرائهم وارهابهم وأدركوا ان ما يصبون إليه من خذلان أبي طالب لابن اخيه بعيد المنال وعادوا إليه بأسلوب آخر ومعهم عمارة بن الوليد شقيق خالد بن الوليد وقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد انهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً لك وسلمنا ابن اخيك الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم لنقتله فانما هو رجل برجل ، فقال ابو طالب : والله لبئس ما سمتموني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني لتقتلوه هذا والله لا يكون أبداً ، أرأيتم ناقة تحن الى غير ولدها وتعطف عليه .

فقال له المطعم بن عدي : والله لقد أنصفك قومك واجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تقبل منهم شيئاً ، فقال له ابو طالب : والله ما انصفوني ولكنك اجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك .

واشتدت قريش على النبي ومن أسلم معه من قريش وغيرها ، وتأزم الموقف بين الطرفين ، فاستدعى ابو طالب جميع بني هاشم عندما رأى قريشاً تصنع ما تصنع من تعذيب المسلمين والتنكيل بهم وخاف ان يمتدوا الى النبي (ص) ، لا سيما وان بني هاشم لم يعلنوا موقفهم من الاسلام وفيهم ابو لهب وهو أشد على محمد والمسلمين من أبي جهل وأبي سفيان وغيرهما من طغاة قريش وجبابرة العرب فدعاهم الى نصرة النبي (ص) والمحافظة عليه فاستجابوا له جميعاً ، ولم يخالفه غير أبي لهب ، فاطمأن ابو طالب وشكر لقومه موقفهم ، وظلت قريش تواصل سعيها للقضاء على دعوة محمد (ص) قبل ان يستفحل خطرها ورجعت تفاوض محمداً بالذات وتمنيه وتغريه علها تجد منه موقفاً اكثر إيجابية من مواقفه السابقة .

فقد جاء في سيرة ابن هشام وغيرها ان عتبة بن ربيعة كان سيداً من سادات قريش ، فقال لقريش وقد رأى النبي (ص) جالساً في جوار البيت وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد وأعرض عليه امورا لعله يقبل ببعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا قالوا بلى قم إليه يا أبا الوليد ، فقام إليه

عتبـة وجلس إلى جنبه وقـال له يـا ابن أخي : انك منـا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فـرقت بـه جمـاعتهم وسفهت احـلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفـرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها .

يا ابن اخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وان كنت تـريد شـرفاً سـودناك علينـا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وان كان هذا الأمـر الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنـا لك الـطب وبذلنـا فيه اموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجـل حتى يداوى منـه . ومضى عتبـة بن ربيعة يتحـدث الى النبي بأسلوب هـادىء لين محاولاً بـذلـك اغراءه وإقناعه بالعدول والتراجـع عن دعوتـه ، والنبي (ص) يستمع إليـه ، فلما انتهى من حديثه ، قـال له النبي : أفـرغت يا أبـا الوليـد ؟ قال نعم . قـال اسمع مني فـأصغى إليه وهـو يطمـع ان يجـد عنـده مـا يـرضي قـريشـاً وأطماعها وكبرياءها ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آيـاته قـرآناً عـربياً لقـوم يعلمون بشيـراً ونـذيـراً فـأعـرض اكثـرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا إليه** ﴾ ، ومضى رسـول يتلو عليه ما بقي من السورة حتى انتهى من السجدة فخر لله ساجداً ورفـع رأسه واتجـه الى عتبة وقال اسمعت يا أبا الوليد فلم يدر بما يجيب ، وقام عنه ورجع إلى أصحابه مأخوذاً بجمال ما رأى وما سمع مدهوشاً بعظمة هذا الـرجل وسحـر بيانه ، لقـد رأى امامـه رجلاً من نـوع آخر من الـرجال الـذين عرفتهم مكـة وعرفهم العالم بأسره ، ولا مطمع له في مال ولا في تكريم وتعظيم وتسلط على الناس ، ولا هو بـالمريض ، انـه رجل يـدعو الى الحق والخير وإلى إله واحـد احد يستوي عنـده العبيد والأشـراف ، الفقراء والأغنيـاء الرجـال والنساء لا يرضى الزنا ولا الربا ولا القتل ولا كبرياء الأغنياء وتسلط السادة والأشراف ،

ويلعن الـذين يكنزون الـذهب والفضة ولا ينفقـونها على الفقـراء ، وسيحرق اجسادهم وأجساد الذين يعبثون بحقوق الأخرين .

انه يدفع بالتي هي احسن مـع الاعجاز بـالعبارة والبـلاغة في التصـوير ومضى يقص عـلى أصحابـه ما شـاهد وسمـع من محمـد (ص) فقـال لقـد سمعت منه قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هـو بالشعـر ولا بالسحـر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعـوني واجعلوها بي وخلوا بـين هذا الـرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم اسعد الناس به .

فقالوا لقد سحرك الرجل يا أبا الـوليد ببيـانه ولسـانه ، فقـال هذا هـو رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

ويبدو من كتب التاريخ والسيرة ان المشركين جربوا اكثر من مرة اقنـاع النبي (ص) بالتراجع عن دعوتـه عن طريق الاغـراء تارة والتخـويف اخرى وما كان حـديثهم مع أبي طـالب وارسالهم عتبـة بن ربيعة اليـه الا من بعض تلك المحـاولات التي بذلـوها في هـذا السبيـل ، ولكن جميـع محـاولاتهم عـلى اختلاف اساليبها لم تغير من موقفه منهم ومن آلهتهم بل زادته اصـراراً وتصلباً في جميع مواقفه وامعاناً في الدعوة التي أرسل من اجلها وهانت عليه وعلى تلك الفئة القليلة من أتباعه التضحيات في سبيلها ، بل وحتى الموت كما مات ياسر وزوجته من ألم السياط ووخز الرماح ، لأنه لم يكن كما ذكرنا من طلاب المـال والجاه والحكم والسلطان ، بل كـان طالب حق وطـالب هدى لاولئـك الذين تكتلوا ضده واتفقوا على مقاومته وعلى قتله اذا وجدوا الفرصة متاحة لذلك .

وأخيـراً وبعد فشـل جميع المحـاولات والعروض المغـرية التي يسيـل لها لعاب الانسان مهما كان نوعه رجعوا إلى اسلوب آخـر لا يعدو ان يكـون من نوع التمحل والتعجيز ، فلقد اجتمـع اليه ابـو جهل وابـو سفيان بن حـرب

والأسود بن المطلب بن أسد والعاص بن وائل وغيرهم ممن يمثلون قبائل مكة وجميع سكانها وقالوا له : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فانك تعلم انه ليس من الناس احد أضيق منا بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً ، فسل ربك الذي يفتيك بما تدعيه ليكشف عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعثه قصي بن كلاب ، فانه رجل صدق ، فنسألهم عما تقول : احق هو ام باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانك رسوله كما تقول :

فرد عليهم بقوله : ما بهذا بعثت اليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما ارسلت به اليكم ، فان قبلتموه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي اصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم بالحق وهو خير الحاكمين .

انه اجابهم بما بعث به ليفكروا ويتأملوا وليكون ايمانهم بالله ورسالاته بمحض اختيارهم وقناعتهم بتلك الأدلة التي أقامها لهم لا بتلك الاساليب التي هي اشبه بالالجاء على الايمان ومعها يبطل تحكيم العقل ، وهو لم يطلب منهم إلا ما يقبله العقل ، بل ما يمليه ويحتمه .

لقد طلبوا منه ان يثبت رسالته بالخوارق والمستحيلات على الانسان ، وقد عبدوا الحجارة والاخشاب التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ولم يطلبوا اليها ما يثبت الوهيتها ، ولو انهم طلبوه منها لظلت خشباً او حجارة لا تستطيع ان تدفع عنها من يريد تحطيمها او احراقها .

انهم لم يطلبوا ذلك الا تعنتاً وتعجيزاً ولو استجاب لهم محمد بن عبد الله ، وكان بامكانه ذلك اذا سأل الله ، ولكنهم سيسخرون ويهزؤ ون حتى لو فعل ذلك ، بدليل انهم قد عبدوا الاحجار والاخشاب التي صنعوها بايديهم كما يريدون .

على ان كتب السيرة والتاريخ تنص على انه كان يستعمل الخوارق بقدرة الله ومشيئته احياناً عندما يرى المصلحة في ذلك .

فقد جاء في شرح النهج من خطبة للامام علي (ع) قال فيها وهو يتحدث عن الرسول (ص) : ولقد كنت معه لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له : يا محمد انك ادعيت عظيماً لم يدعه آباؤك ولا احد من بيتك ، ونحن نسألك امراً ان انت اجبتنا اليه وأريتناه علمنا انك نبي ورسول ، وان لم تفعل علمنا انك ساحر كذاب ، فقال (ص) وما تسألون ؟ قالوا تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك ، فقال ان الله على كل شيء قدير ، فان فعل الله ذلك اتؤمنون وتشهدون بالحق ، قالوا نعم ، قال اني سأريكم ما تطلبون ، واني لأعلم انكم لا تفيئون الى خير وإن فيكم من يطرح في القليب ، ومن يحزب الأحزاب[1] .

ثم قال : يا أيتها الشجرة ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين اني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي باذن الله ، والذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دوي شديد وقصف كقصف اجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله (ص) مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله وببعض اغصانها على منكبي وكنت عن يمينه ، فلما نظر القوم الى ذلك قالوا علواً واستكباراً فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فامرها بذلك فأقبل نصفها كأعجب اقبال واشده دوياً فكادت تلتف برسول الله فقالوا كفراً وعتواً فمر هذا النصف فليرجع الى نصفه كما كان فأمره رسول الله فرجع ، فقلت انا : لا إله الا الله اني اول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقر بأن هذه الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقاً بنبوتك واجلالاً لكلمتك ، فقال القوم كلهم ساحر كذاب عجيب السحر وخفيف فيه ، وهل

---

(١) اشار بالقليب الى ابي جهل وما جرى له في بدر وأشار بالاحزاب الى ابي سفيان الذي جمع الجموع وهاجم المدينة بمن معه من العرب واليهود في وقعة الخندق .

يصدقك في امرك إلا مثل هذا .

وقد عقب في شرح النهج على كـلام امير المؤمنـين بقولـه : ان الحديث الوارد في امر الشجرة كثير مستفيض ذكـره المحدثـون في كتبهم والمتكلمون في معجزات الرسـول (ص) وأضاف الى ذلـك ان الأكثرين رووا الحـديث فيها كما جاء في خطبة امير المؤمنين ومنهم من رواه مختصراً .

ان الكثير من القرشيين يعلمون بأن محمداً مرسل من ربه ، ولو جاءهم بـألف معجزة ومعجـزة ونسف لهم جبال مكـة وشعابهـا واجرى لهم الأنهار في شوارعها وأنبت لهم الأشجار التي تحمل ما لذ وطاب من الثمار ، وأرجع لهم قصياً كما يطلبون لا يؤمنون برسالته ولا يتنازلون عن تعنتهم ما دامت رسالتـه تتعـارض مع مصـالحهم وتجارب الجشـع والاستغلال والعنصـرية الهـوجـاء ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم في كل زمان ومكان ممن يعرفـون الحق وينحرفـون عنـه لأنه لا يحقق لهم ربحـا ويدر عليهم نفعـاً وسوف لا يجـد منهم الا قذفـه بالكذب واتهامه بالسحر مهما صنع لهم .

اسلام الحمزة بن عبد المطلب

بعد ان يئس المشركون من أبي طالب ، ومن جميع الوسطاء الذين سعوا للتوفيق بينهم وبين الرسول ، بعد ان يئسوا ورأوا ان الاسلام ماض في طريقه والناس يقبلون عليـه يوماً بعد يـوم ، استقر رأيهم عـلى ان يصعدوا حمـلات التعذيب والاساءة حتى لمحمـد (ص) بالشتم والقـاء الأوساخ والتـراب عليه اينما وجدوه ، وتعهدت ام جميل من جهتها ان تتحدى محمـداً وزوجته الـوفية الصادقة في بيتهما المجاور لبيتها ، فتلقي على باب البيت وفي طريقهـما اليه مـا عندها من الأوساخ والأحجار وغـير ذلك بقصـد الاساءة والايـذاء ؛ وزوجها

عبد العزى يتعاهده من ناحيته اذا رآه يصلي او يسير وحده فيلقي عليه ما يجده من الفرث والدم وخلافهما .

. وفي ضحوة يوم من الأيام والنبي جالس في طريق المسعى على صخرة نائية يتأمل ويفكر على عادته ، وجاريتان لعبد الله بن جدعان ولصفية بنت عبد المطلب يتسامران في مكان مطل عليه ، واذا بالحكم بن هشام وهو منحدر الى البيت يميل اليه فيشتمه ويسخر منه والسفهاء من حوله يتضاحكون ، ونظر محمد (ص) الى أبي جهل والى الذين وقفوا من حوله يتضاحكون ويهزؤون وشكاهم بينه وبين نفسه الى الله ، ولم يكتف الحكم بذلك فأخذ حفنة من التراب ووضعها على رأسه ، ورأت مولاة صفية ومولاة ابن جدعان كل ذلك ورقا له وعز عليهما ان يلقى كل ذلك ومع انهما لم يؤمنا بمحمد بعد فقد غاظهما انهما لا تستطيعان الدفاع عنه ، ونظرت كل واحدة منهما الى الأخرى والغيظ والأسى باد عليهما ومضتا في طريقهما تتعثران في سيرهما ، وما هي إلا خطوات وإذا بالحمزة يقبل من ناحية الجبل وقد عاد من صيده وقوسه في يده متجهاً نحو البيت والناس ينظرون إليه باكبار واعجاب ، فأقبلتا عليه وابتدرته مولاة ابن جدعان قائلة وصوتها يتقطع من الغيظ ، يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن اخيك محمد من الحكم بن هشام ، فقال لها وماذا لقي منه ؟ قالت وجده ههنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم صمتت كأنها لم تعد تملك ان تتكلم من شدة الدهشة ، ومضى حمزة يتمتم والغضب باد عليه ، واعترضته مولاة صفية ، فقالت : يا أبا عمارة لقد صب على رأسه التراب ، فقال لها حمزة : انت رأيت ذلك منه ؟ قالت نعم ، وانطلق الحمزة مغضباً نحو البيت ينحدر كما تنحدر الصخور من الأعالي لا يكلم احداً ولا يسلم على احد ودخل المسجد ينظر في وجوه الناس ليرى الحكم بن هشام فرآه جالساً في وسط القوم فاتجه نحوه حتى اذا كان على رأسه ، فالتفت اليه الحكم ورآه يرتعد من الغضب فذعر منه ، ثم جذب ثوبه ، وقال يا أبا عمارة لقد سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف اباءنا .

فقال له الحمزة: ومن أسفه منكم وانتم تعبدون الحجارة من دون الله؟ ثم رفع قوسه وضربه به على رأسه ضربة شجته شجة منكرة ، وصرخ فيه صرخة انخلع لها قلبه وقلوب الناس ، ثم قال : رد على ذلك ان استطعت فأنا أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله ، أتشتمه وأنا على دينه ؟

وهب رجال من مخزوم لينصروا ابا جهل ، وقالوا لحمزة انك قد صبأت ، ورد عليهم الحمزة بقوله : وما يمنعني من ذلك وقد استبان لي منه أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله فامنعوني ان كنتم صادقين ، فقال لهم ابو جهل : دعوا أبا عمارة فاني والله قد اسمعت ابن اخيه شيئاً يكرهه ، ولم يكن ابو جهل ليطأطىء رأسه للمهانة تصيبه في جسمه ونفسه لو لم يكن على يقين بأن حمزة قادر على ان يقهر هؤلاء الرجال الذين تعصبوا له ، ورأى ان يصبر ويكف اصحابه حتى لا يوجه اليه الحمزة ضربة اخرى.تقضي على حياته وابتعد الرجال عن الحمزة ومضى هو مزهواً الى محمد (ص) بعد ان قهر قريشاً يعانقه والدموع تتساقط من عينيه ويقول اشهد انك رسول الله .

وزلزل هذا الحادث قريشاً وأقض مضاجعهم ، لا لأن الحمزة قد ضرب ابا جهل وشجه جزاء لما قدمت يداه ، بل لأن اسلام الحمزة الذي أعقب هذا الحادث قد منح محمداً وأتباعه شعوراً بالعزة والمنعة والقوة ما كان هذا الشعورليحصل لو أسلم غيره مائة من الناس .

وأصبح الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام وتستروا في اسلامهم يتجاهرون به بلا حذر او خوف بعد اسلام الحمزة ، وأقبل على الاسلام جماعة من بني هاشم وبني عبد المطلب يدخلون فيه واحداً بعد واحد حتى اصبح اتباع محمد (ص) قوة يخشاهم المشركون ، ولكن قريشاً وقد فشلت في جميع محاولاتها ومشاوراتها مع أبي طالب وغيره قد اجمعت على السير في طريقها المناهض لدعوة النبي .

وتشاوروا يوماً في امره ، فقال لهم ابو جهل ان محمداً قد أبى الا ما

ترون ولم يعد لنا من سبيل للحد من نشاطه الا بالتضحية والمغامرات واني اعاهدكم اني لأجلسن له غداً في مكان ، فاذا جاء كعادته وقام يصلي لربه اخذت حجراً كبيراً وألقيته على رأسه ، وليصنع بعد ذلك بنو هاشم ما بدا لهم ، فقالوا بأجمعهم امض لما تريد ، فلما أصبح اخذ حجراً كبيراً وجلس ينتظر رسول الله (ص) وجلست قريش في انديتها تنتظر ما سيكون من امره ، فلما جاء النبي (ص) ووقف ليصلي ، وكانت وجهته في صلاته يوم ذاك بيت المقدس ، يصلي بين الركن اليماني والحجر الأسود ، فلما شرع في صلاته قام ابو جهل واخذ الحجر وانتظر سجود النبي لينفذ خطته ، فما كان منه الا ان رجع اليهم مضطرباً خائفاً ، فقالوا له ما لك يا أبا جهل : فقال لما هممت بالقاء الحجر عليه عرض لي دونه فحل من الابل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه فحلا قط قد أقبل علي وهمَّ ان يأكلني ففررت منه .

وكانت قريش ترى ان قتل الرسول سيكلفها كثيراً لأن بني هاشم ومن يتصل بهم بأواصر القربى قد وقفوا الى جانب محمد (ص) مشركهم ومؤمنهم وتعاقدوا على مقاومة كل من يحاول الاعتداء على حياته .

وحدث في بعض الأيام ان أبا طالب (ع) قد فقده في الأمكنة التي كان يأوي اليها فلم يقف له على خبر ، فجمع ابو طالب فتيان بني هاشم وقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة واتبعوني فاذا دخلت المسجد فليجلس كل واحد منكم الى جانب عظيم من عظمائهم وليقتله اذا كان محمد قد قتل ففعلوا ما امرهم به .

وقبل تنفيذ الخطة التي أعدها للانتقام من قريش جاءه زيد بن حارثة واخبره بسلامة النبي ، ولما اصبح اخذ بيد النبي ووقف به على اندية قريش ومعه فتيان بني هاشم واخبرهم بما كان يريد ان يفعل لو انهم أصابوا محمداً بسوء ، وأراهم السلاح الذي أعده لهذه الغاية ، فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً ابو جهل على حد تعبير الراوي .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ، ان العاص بن وائل السهمي والحارث بن

قيس بن عدي السهمي ، والأسود بن المطلب بن أسد ، والـوليد بن المغيـرة المخزومي ، والأسود بن يغـوث الزهـري كانـوا يحرضـون صبيانهم وغلمـانهم عليه ، فيلقونه بما لا يحب ، حتى انهم نحروا جزوراً ورسول الله (ص) قائم يصلي فأمروا غلاماً لهم فحمل السلا والفرث ووضعـه بين كتفيـه وهو سـاجد ، فـأتى ابا طـالب وقال لـه : كيف موضعي فيكم قـال وما ذاك يـا ابن اخي ، فأخبره بما صنعوا به ، فقام ابو طالب من ساعته مشتملاً سيفه ومعه غلام لـه فاخترط السيف وقـال والله لا يتكلم رجل منكم الا ضربتـه ، ثم امر غـلامه فأخذ السلا والفرث ووضعهـا على وجـوههم واحداً واحـداً ، فقالـوا حسبك هذا يا أبا طالب .

الفَصْل الخَامس

الهجرة الى الحبشة

لقد رأت قريش انها لم تستطع في كل ما اتخذته من وسائل الارهاب والتعذيب والترغيب ان تصرف محمداً عن دعوته ، وان تحول بين الناس وبينها ، فالناس في اقبال مستمر عليها والمسلمون يزدادون قوة وتمسكاً بها ، بالرغم من كل الأسلحة التي استعملتها ولكنها لم تيأس بل ازدادت حقداً وطغياناً وتجبراً ، وكانت اعتداءاتهم عليه (ص) محدودة لا تتجاوز السباب والسخرية وإلقاء القذارات والأوساخ عليه احياناً ، ولم يكن بامكانهم ان يستعملوا الأسلوب الذي استعملوه مع أصحابه خوفاً من أبي طالب وأسرته وبخاصة بعد ان أعلن الحمزة اسلامه ، واتجهوا الى ايذاء اصحابه بأشد مما كانوا عليه ، ولما رأى النبي انه لا يستطيع ان يدفع عنهم الأذى امرهم بالخروج من مكة والالتجاء الى الحبشة ، وقال لهم : ان بها ملكاً لا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه فخرجوا من مكة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعثه في غسق الليل خوفاً من المكيين الى جدة .

وصادف ان بعض السفن التي كانت في طريقها الى الحبشة قد رست في ميناء جدة فركبوا بها بأجر لا يزيد عن نصف دينار لكل راكب كما جاء في

سيرة ابن هشام وغيرها .

واستيقظت قريش على انباء تلك الهجرة لتلك القافلة المؤلفة من خمسة عشر انساناً بين رجل وامرأة او يزيدون قليلاً ، وقدرت ان هؤلاء سيكونون دعاة للاسلام في بلد يؤمن بالنصرانية ، وقد ترامى الى اسماع قريش ان بعض آثارها تبشر بظهور نبي عربي ، وخشيت ان يوجه المسلمون نشاطهم الى تلك البلاد فينشروا الاسلام فيها ويصبح قوة لا طاقة لهم به ، وقريش تعرف وتعلم ان للاسلام قوته وتأثيره على النفوس ، تعرف هذا من اولئك المسلمين الذين كانوا يخرجون من كل ما يملكون ، ويتنازلون حتى عن أنفسهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، فخرجت تغذ السير لتردهم إلى مكة ، ولكنهم كانوا قد انطلقوا آمنين من شواطىء جدة قبل وصولها إليها .

وكان بين أولئك المهاجرين عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعثمان بن مظعون وسهيل بن بيضاء ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وحاطب بن عمرو ، وعبد الله بن مسعود ، ومن الذين هاجروا مع نسائهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت النبي (ص) ومعهما ام أيمن ، وأبو سلمة بن عبد الأسد مع زوجته ام سلمة ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه زوجته سهيلة بنت سهيل ، وعامر بن أبي ربيعة ومعه زوجته ليلى العدوية .

ولما نزلوا ارض الحبشة اكرم النجاشي وفادتهم فأقاموا مدة ثلاثة اشهر او اكثر في امن وأمان يمارسون فيها امور دينهم ويعبدون ربهم بحرية لا يخشون احداً ولا يسمعون ما يكرهون في ظل ملك عادل يتوجه برعيته حيث يوجهه رشده وانصافه ؛ أقاموا في جواره اكثر من ثلاثة اشهر ، وجاءتهم الأخبار بزوال عهد المحنة ومهادنة قريش للمسلمين ، وتركهم يصنعون ما يشاؤون ، فاختاروا العيش في بلدهم مع الرسول ، وتركوا بلاد الحبشة وهم يحملون لأهلها أطيب الذكر والشكر متوجهين الى مكة ، حتى إذا اصبحوا قريباً منها فاجأتهم الركبان بأن قريشاً لا تزال على طغيانها وصلافها وانهم اشد

ما يكونون عليه عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فرجع الى الحبشة منهم جماعة ودخل مكة مستخفياً وبجوار جماعة آخرون .

وكان ممن دخلها بجوار ، عثمان بن مظعون ، حيث دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ودخل ابو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله ابي طالب ، ولما رأى عثمان بن مظعون ان المشركين يشتدون على المستضعفين الذين لم يدخلوا في جوار احد ، ردّ على الوليد جواره ليؤاسي رفاقه بنفسه ويشاطرهم البلاء والتعذيب .

واتفق له انه كان في بعض مجالس قريش ، ولبيد الشاعر ينشدهم قصيدته التي يقول فيها :

الا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فرد عليه عثمان بن مظعون قائلاً : لقد كذبت ان نعيم الجنة لا يزول فقام إليه رجل منهم ولطمه على عينه لطمة اشرفت بها على التلف ، فعرض عليه الوليد بن المغيرة ان يرجع الى جواره فأبى ، وقال له : ان عيني الاخرى لفي حاجة الى ما أصاب اختها في سبيل الله .

وأثار هذا الحادث مشاعر أبي طالب فنظم قصيدته التي يعرض فيها بقريش وضلالها ومخازيها ويقول :

امن تذكر اقوام ذوي سفه يغشون بالظلم من يدعو الى الدين
لا ينتهون عن الفحشاء ما امروا والغدر فيهم سبيل غير مأمون

ويقول في آخرها :

او يؤمنوا بكتاب منزل عجب على نبي كموسى او كذي النون
يأتي بأمر جلي غير ذي عوج كما تبين في آيات ياسين

وحاول رجال من بني مخزوم مع أبي طالب ان يتراجع عن حمايته لابن

اخته أبي سلمة ، وقالوا له يا أبا طالب : لقد منعت عنا ابن اخيك ، فما لك ولصاحبنا تمنعه عنا ، فقال لهم : انه استجار بي وهو ابن اختي واذا لم امنع ابن اختي لا امنع ابن اخي .

ويدعي جماعة من المؤرخين والمفسرين ان السبب في رجوع المهاجرين الى مكة هو ان المشركين قد هادنوا النبي (ص) بعد ان تقرب اليهم بمدح اصنامهم والاعتراف بمنزلتها عند الله ، وانها مرجوة الشفاعة كما جاء في حديث الغرانيق الذي اخذ به جماعة من كتاب السيرة والمؤرخين واستغله جماعة من المستشرقين للطعن والتشكيك في رسالة النبي (ص) ووقفوا الى جانبه متحمسين في تأييده والدفاع عنه .

حديث الغرانيق

ومجمله كما جاء في كتب السيرة والتاريخ ان النبي (ص) لما رأى تجنب قريش له واصرارها على مناهضته وإنزال الأذى بأصحابه تمنى ان لا ينزل عليه من الله شيء ينفرهم منه ، وتقرب إليهم ودنا منهم ودنوا منه وجلس يوما في نـاد من أنديتهم حول الكعبة وقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ، أضاف إليها تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ، ومضى في قراءة السورة حتى انتهى الى السجدة في آخرها فسجد وسجد المشركون معه ولم يتخلف منهم احد ، فاعلنت قريش رضاها عما تلاه النبي (ص) ، وقالوا لقد علمنا بأن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، اما اذا جعلت لها نصيبا فنحن معك ولا خلاف بيننا على حد زعم بعض المؤرخين في سيرة الرسول .

ويدعي انصار هذه الفرية ان النبي (ص) لما ذكر صنمهم بخير وان

الخلاف وشاع ذلك حتى بلغ المهاجرين في الحبشة ، فقالوا : ما دام الأمر كذلك فلنعد الى بلدنا لكي نعيش فيها مع أهلنا وبين عشائرنا ، فخرجوا من الحبشة متجهين الى مكة ، وقبل ان يصلوها لقيهم وفد من كنانة فسألوا عن حقيقة الأمر فقالوا لهم : ان النبي ذكر آلهتهم بخير فتابعوه ، ثم تراجع وعاد لشتمها فعادوا كما كانوا ولا تزال الحالة متأزمة بين الطرفين اشد مما كانت عليه أولاً ، فحار المسلمون في امرهم فدخل منهم جماعة الى مكة وتخلف آخرون .

ويدعي من اثبت حديث الغرانيق ان النبي (ص) قد تراجع عن مهادنته لهم لسببين . الأول منهما انه قد شق عليه قول قريش اما اذا جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك .

والثاني منهما ، انه جلس في بيته فلما امسى أتاه جبريل فعرض عليه النبي سورة النجم ، فقال له : أوجئتك بهاتين الكلمتين يشير بذلك الى تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ، فقال له النبي (ص) لقد قلت على الله ما لم يقل : فأوحى الله إليه .

﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً ، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً ، إذا لاذقناك ضِعف الحياة وضِعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ .

ولذلك عاد يذكر آلهتهم بالشر ويسبهم ، وعادت قريش الى مناوأته وايذاء أصحابه ، بهذا التسلسل البعيد عن منطق الدين والعقل والقرآن . أثبت جماعة من المؤرخين والمفسرين وكتاب السيرة قصة الغرانيق ، وبنوا على أساسها رجوع المسلمين من الحبشة وعودتهم اليها .

وأيد المستشرق (سير وليم موير) اسطورة الغرانيق بما حاصله ان المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة لم تمض على هجرتهم إليها غير ثلاثة اشهر اجارهم النجاشي خلالها وأحسن جوارهم ، فلو لم يكن قد ترامى إليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لما دفعهم دافع الى الرجوع حرصاً على الاتصال

بأهلهم وعشائرهم .

وأضاف الى ذلك انى يكون صلح بين محمد وقريش إذا لم يسع محمد إليه وقد كان في مكة أقل نفراً وأضعف جنداً ، وكان اصحابه اعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش وتعذيبهم إياهم ؟

بهذا التفكير الملتوي يحاول الدساسون وأعداء الاسلام ان ينالوا من قداسته في حين ان رجوع المسلمين من الحبشة ان صح فليس فيه شيء ما يشعر بتنازل النبي (ص) عن شيء من امور الرسالة .

والواقع ان رجوعهم كان لسببين اثنين ، أولهما ان تصلب النبي ومن معه من المسلمين في مكة واقبال الناس على الاسلام لا سيما بعد اسلام الحمزة وعمر بن الخطاب العدو اللدود للاسلام والمعروف بينهم بالشدة على المسلمين ، هذا الموقف من جانب النبي (ص) وأصحابه مع تتابع الأذى والتنكيل دعا المشركين ان يفكروا في وسيلة اخرى تضغط على محمد وأصحابه ، لأن الأذى والتنكيل والتعذيب قد يجر عليهم حرباً أهلية لا يعرف احد مداها ولا على من تدور دائرتها بعد ان اسلم جماعة من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها ولا تسمح تلك القبائل بقتل من أسلم منهم وان خالفهم وتمرد على دينهم وعقيدتهم ، فلم يبق لديهم مفر من الالتجاء الى وسيلة اخرى بعيدة عن هذا الخطر فأحجموا عن ايذاء المسلمين الى ان يتفقوا على أسلوب آخر يحاربون فيه محمداً بدون ان يجرهم الى حرب أهلية ، وعندما اتصل نبأ هذه الهدنة بالمسلمين بدأوا يفكرون في الرجوع ولم يكن ذلك كافياً لولا السبب الثاني الذي ثبت عزيمتهم على الرجوع ، وهو ان الحبشة نشبت فيها يوم ذاك ثورة على النجاشي كان موقفه الايجابي من المسلمين من احد أسبابها ، ولقد أبدى المسلمون تفهماً لموقف النجاشي وحاولوا التخفيف من حدة الموقف المتأزم في الحبشة وفي الوقت ذاته قد ترامت اليهم انباء المهادنة بين قريش ومحمد (ص) فرأوا من الخير لهم ان يتركوا الفتنة وراء ظهورهم ويلحقوا بأهلهم ، وهذا ما حدث لهم ، ولا صلة لرجوعهم بتنازل النبي

(ص) للمشركين ومدحه لأصنامهم كما يدعي الدساسون والمشوشون .

ان الذين ابتدعوا قصة الغرانيق وأضافوها الى سيرة الرسول (ص) زوراً وبهتاناً يتمسكون بالآيات التالية من سورة الحج :

﴿ وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ .

ويدعون ان النبي (ص) أضاف الى سورة السجدة تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ، ويضيفون الى ذلك ان الله عاتبه واعترف بخطئه وانه اوحى اليه بعد هذا العتاب قوله :

﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلاً * ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * اذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾[1] .

فالآية الثانية التي يدعون بأنها حاكية لما جرى للمشركين مع النبي (ص) تنص على انه لم يركن اليهم وان الله ثبته على الحق ولم يسمع لقولهم ، ولو سمع لعاقبه الله سبحانه وأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات ولتخلى عنه ، وحديث الغرانيق مناقض له ، لأنه على حد زعم الذين أثبتوه قد استجاب لرغباتهم وادخل في القرآن ما ليس منه كما هو مفروض القصة .

هذا بالاضافة الى ان الآيات التي ادعوا بانها تشير الى الغرانيق ، وهي قوله **﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان﴾** الى آخر الآية هذه الآية وردت في سورة الحج وسورة الحج قد نزلت على النبي (ص) في المدينة كما اتفق على ذلك جميع المفسرين ، وقصة الغرانيق المزعومة

---

(١) سورة الاسراء ٧٣ - ٧٥ .

كانت بعد هجرة المسلمين الى الحبشة في الخامسة او السادسة من مبعث النبي (ص) .

على ان سياق سورة النجم التي أدخل فيها المنافقون تلك الغرانيق العلا يأبى تلك الضميمة ، فلقد قال سبحانه في السورة المذكورة :

﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ، ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، وصريح هذه الأيات هو ان اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، أسماء سماها المشركون وما انزل الله بها من سلطان ، فكيف مع ذلك يصفها بالغرانيق ويثبت لها الشفاعة والصورة من أولها الى آخرها تندد بالمشركين الذين اعطوها هذه الاسماء ، وكيف يقول النبي (ص) بأن شفاعتهن ترتجى وبعد هذه الفقرة بلا فصل يقول : انها اسماء مبتدعة ما انزل الله بها من سلطان .

ان هذه الضميمة الى سورة النجم توجب مناقضة اخر السورة لأولها وعدم الانسجام بين آيات السورة ومعانيها .

ومما يؤكد ان حديث الغرانيق من صنع المنافقين والدساسين هو ان النبي (ص) منذ طفولته الى ان بلغ الاربعين من عمره لم يعثر له احد على زلة او كلمة واحدة تخالف الواقع حتى عرف بين المشركين بالصادق الامين ، وحينما أراد ان ينذر قريشاً واستدعاهم ليسمعوا منه ، قال لهم : أترون لو اخبرتكم بأن خيلاً طلعت عليكم من سفح هذا الجبل اكنتم تصدقونني ؟ قالوا له بلسان واحد : انت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط .

فمن كان هذا شأنه وهذه صفته وقد رفض جميع العروض والمغريات وحتى لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله على ان يتراجع عن دعوته فلم يتراجع وتحمل في سبيلها ما تحمل من الأذى والعذاب هو وأصحابه ،

فمن كان على مثل ذلك فكيف يتراجع ويقول على الله ما لم ينزل عليه ارضاء لقريش وخوفاً منها ، في حين انه يوم كان وحيداً بلا ناصر يتعرض هو والذين آمنوا به لكل انواع الاساءة ، لم يهادن ولم يطلب رضاهم على حساب دعوته وبعد ان أصبح اتباعه قوة لها اثرها في مكة وخارجها وأصبحت دعوته حديث الناس يديرون تعاليمها في رؤ وسهم ويدخلون فيها الواحد تلو الآخر .

أفنراه بعد هذا كله يعود ليستجدي عطف قريش ورضاها بالكذب على الله ومدح اصنامها وأوثانها ، وهذا شيء تأباه سيرة محمد وتاريخه الحافل بالبطولات والتضحيات في سبيل الله .

ولقد احس اولئك الذين اخترعوا هذه الأسطورة بأنها لن تروج وستنكشف على واقعها لكل باحث ، ولا يقبلها احد ممن احاط بتاريخ الدعوة وأساليب محمد (ص) في تبليغها والظروف التي احاطت به في المراحل الأولى من تاريخها ، فحاولوا تغطية عيوبها والتمويه على الأبرياء ، بأن محمداً بعد ان مدح الأصنام وجعل لها نصيباً من الشفاعة ، تراجع وتاب الى الله ، وفاتهم ان محمداً بعد ان وصفه الله بأنه لا ينطق عن الهوى لا يتصور في حقه ان يتكلم بغير ما يوحى إليه وهو الصادق الأمين قبل الرسالة وبعدها ، ولا يمكن ان يتراجع او يهادن احداً ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله كما أجابهم حينما حاولوا اقناعه بالتراجع عن دعوته بشتى المغريات .

اسلام عمر بن الخطاب

لقد اتفق المؤرخون ان عمر بن الخطاب كان حاد الطبع سريع الغضب ومن الاشداء في قريش على محمد واتباعه ، وحدث نفسه اكثر من مرة بأن يهاجم النبي او يغتاله ولكن مشيئة الله كانت تحول بين عمر وغيره من أقطاب

المشركين الذين كانوا يخططون كما خطط عمر وبين تنفيذ مشيئتهم وإرادتهم ليظهر دينه ولو كره الحاقدون والمشركون .

قال الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة : اما عمر بن الخطاب فكان من اول الفتانين المستهزئين بالاسلام ، وكان مع ذلك معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة وطالما لقي المسلمون منه ألواناً من الاذى .

وجاء عن زوجة عامر بن ربيعة انها قالت : انا لنرحل الى ارض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته إذ أقبل عمر بن الخطاب وهو على شركه حتى وقف علي وكنا نلقى منه البلاء فقال : اتنطلقون يا أم عبد الله ؟ قلت نعم والله لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً ، فقال عمر صحبكم الله ورأيت له رقة وحزناً ، فلما عاد عامر اخبرته وقلت له لو رأيت عمر بن الخطاب ورقته وحزنه علينا فقال : أطمعت في اسلامه ؟ قلت : نعم فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها عن اسلام عمر ان فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد اسلمت هي وزوجها وكانا يخفيان اسلامهما خوفاً من عمر ، وقد اسلم نعيم بن عبد الله بن النحام من بني عدي بن كعب وأخفى اسلامه خوفاً من قومه .

وكان خباب بن الأرت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القران فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله (ص) ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا عند الصفا وهم أربعون شخصاً ما بين رجل وامرأة ومع رسول الله عمه الحمزة بن عبد المطلب وابو بكر بن قحافة وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين ممن أقاموا مع رسول الله بمكة وعمر في طريقه إليهم يهدد ويتوعد ، فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : اين تريد يا عمر ، فقال أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفه احلامها وعاب دينها وسب الهتها لأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر اترى ان بني عبد مناف تاركوك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً افلا ترجع الى اهل بيتك فتقيم امرهم ، قال واي اهل بيتي ؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ، فرجع الى اخته وختنه وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما اياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهما ، واخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها .

وقد سمع عمر حينما دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد اخبرت انكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت أخته لتخلص زوجها منه فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه : نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون بها لأنظر ما جاء به محمد وكان يقرأ ويكتب ، فقالت له اخته : انا نخشاك عليها ، قال لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها عليها ، فلماقال ذلك طمعت في اسلامه وقالت له يا اخي انك نجس على شركك وانه لا يمسها الا الطاهر ، فقام واغتسل وأعطته الصحيفة فلما قرأ منها شطراً قال ما احسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، وقال له اني لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فاني سمعته امس يقول : اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام او بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر .

فقال له عمر عند ذلك : دلني على محمد حتى آتيه واسلم ، فقال له خباب هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه فأخذ عمر سيفه متوشحاً به ثم عمد الى رسول الله واصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من اصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه ،

فرجع الى رسول الله وهو فزع وقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشح سيفه ، فقال الحمزة ائذن له فان كان يريد خيراً بذلناه له ، وان كان يريد شراً قتلناه بسيفه فاذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة ، فاخذ حجزته ثم جذبه جذبة شديدة وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى ان تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر يا رسول الله : جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله فكبر رسول الله تكبيرة عرف من في البيت من أصحابه ان عمر بن الخطاب قد أسلم .

وروى حديث اسلام عمر بن الخطاب جميع المؤرخين والمؤلفين في السيرة ويبدو في روايات بعضهم التضارب والتهافت ، لا سيما محاورته مع اخته التي امتنعت عن تسليمه الصحيفة وقالت له انك نجس مشرك ، فلما اغتسل سلمته إياها ، في حين ان النبي (ص) في بدء الدعوة لم يكن يحاسب على مثل هذه الامور ولا حاسب عليها الا بعد ان استقر امر الاسلام ولم يبق على المسلمين الا ان ينفذوا ويعملوا على ان نجاسة المشرك لا تزول الا بالاسلام . والشيء الذي يكاد ان يكون متفقاً عليه بين الرواة لاسلام عمر بن الخطاب انه كان بطلاً مهاباً وان اسلامه كان نقطة تحول في تاريخ المسلمين واصبح المسلمون قوة مهابة لم تكن قبل اسلامه ، في حين ان تاريخه قبل الاسلام وبعده خلال حروب النبي (ص) وغزواته لا يعطيه شيئاً من البطولات والتضحيات في سبيل مصلحة الاسلام .

مع العلم بأن الحمزة قد اسلم قبله باكثر من سنتين وكانت له مواقف حاسمة مع المشركين ، وهو من المعروفين بالنجدة والشجاعة والتضحية في سبيل الاسلام ، وقد افتتح اسلامه بالثأر لكرامة النبي ورسالته ، وتحدى قريشاً وجبابرتها ، وهو ينهال على أبي جهل بالضرب والشتم ، وكان من سيوف الله المسلطة على اعداء الاسلام ، وبلا شك بان اسلامه قد عزز جانب المسلمين واحدث تحولاً ملموساً في موقف قريش تجاه محمد وأصحابه ، ومع ذلك فالمؤلفون في السيرة القدامى لم يجعلوا لاسلامه من الاهمية شيئاً

يذكر بالنسبة لما جعلوه لإسلام عمر بن الخطاب ، ووضعوا احاديث كثيرة حول اسلامه ، كالحديث الذي رواه انس بن مالك من ان النبي قال قبيل اسلام عمر اللهم اعز الاسلام بعمر بن الخطاب ، او بعمرو بن هشام ، وان النبي قال لما دخل عليهم عمر اللهم اعز الاسلام بعمر بن الخطاب وغير ذلك مما رواه انس بن مالك وامثاله من المتهمين والمشبوهين عند اكثر المحدثين والمؤلفين في الرجال .

وجاء في بعض المرويات عن اسلامه ان الجن هي التي نصحته بالاسلام وحذرته من موقفه المعادي له ، وبشرته بالمستقبل الذي تم له ، وفي بعضها انه كان للكهان والعرافين دور في تحول عمر عن موقفه المعادي لمحمد ودعوته .

وجاء في شرح النهج ان مؤلف النهج قرأ في كتاب من تصانيف ابي احمد العسكري ان عمر بن الخطاب خرج عسيفاً مع الوليد بن المغيرة الى الشام في تجارة للوليد ، وعمر يوم ذاك ابن ثماني عشرة سنة وكان يرعى للوليد إبله ويرفع احمالها ويحفظ له متاعه ، فلما كان بالبلقاء لقيه رجل من علماء الروم فجعل ينظر إليه ويطيل النظر ، ثم قال : أظن اسمك يا غلام عامراً او عمران او نحو ذلك ، فقال : اسمي عمر ، فقال له : اكشف لي عن فخذيك ، فكشف فاذا على احدهما شامة سوداء بمقدار راحة الكف ، فسأله ان يكشف عن رأسه فكشف فاذا هو أصلع ، فسأله ان يعتمل بيده فاذا هو أعسر أيسر ، فقال له : انت ملك العرب وحق مريم البتول ، فضحك عمر بن الخطاب مستهزئاً ، قال : اوتضحك بحق مريم البتول ! انك ملك العرب والروم والفرس ، فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه ، وأضاف الى ذلك ان عمر بن الخطاب كان يحدث بعد ذلك ويقول : تبعني ذلك الروحي وهو راكب حماراً فلم يزل معي حتى باع الوليد متاعه وابتاع بثمنه عطراً وثياباً وقفل راجعاً الى الحجاز ، فلما دخلنا ارض الحجاز ودعني وانصرف ؛ إلى غير ذلك من المرويات المتضاربة حول اسلامه وكيفيته

والدوافع إليه[1] .

ورجح ابن كثير في تاريخه ان اسلام عمر بن الخطاب كان بعد بعثة الرسول بتسع سنين اي قبل الهجرة بأربع سنوات تقريباً وكان الاسلام يوم ذاك قد كثر في مكة وآمن به جماعة من خارجها والله العالم بواقع الحال .

الهجرة الثانية الى الحبشة

بعد ان رجع الوفد الأول من الحبشة ووجد ان ما بلغهم من مهادنة قريش للنبي واصحابه بعيد عن الواقع ، وان قريشاً لا تزال على موقفها العدائي بل اشد من موقفها الأول نصحهم الرسول (ص) بالرجوع الى الحبشة لأن قريشاً ابت الا ان تنكل بالقادمين وان تغري القبائل الأخرى بمضاعفة الأذى للمسلمين .

وكانت الهجرة الثانية اوسع من سابقتها فقد سافر منهم ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة ، ويسر الله لهم اسباب الهجرة بواسطة السفن التي كانت في طريقها من شواطىء جدة الى الحبشة ، وكان من بينهم جعفر الطيار ومعه زوجته اسماء بنت عميس وغيره من وجوه المسلمين الذين ينتمون الى قريش وغيرها ، فوجدوا عند النجاشي ما يبغون من امان وطيب جوار وكرم وفادة ، وعز على قريش ان تجد المهاجرين الفارين بدينهم في امان وطيب اقامة فأغرتهم كراهيتهم للاسلام ان يبعثوا وفداً مزوداً بالهدايا والتحف للنجاشي وحاشيته وكان الوفد مؤلفاً من عمرو بن العاص احد الدهاة المعدودين في مكة وعبد الله بن ابي ربيعة اجمل فتى في قريش ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة كما نص على ذلك جماعة من المؤلفين في السيرة .

---

(١) انظر شرح النهج ج ٣

وقد حدث المؤلفون في السيرة عن ام سلمة زوجة النبي (ص) وكانت احدى المهاجرات يوم ذاك مع زوجها ، فقد حدثت عن مهمة الوفد وكيف تمت وشايته ونتائجها ، فقد جاء في الرواية عنها انها قالت : لما نزلنا ارض الحبشة جاورنا بها خير جار وأمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم ان يبعثوا الى النجاشي هدية مما يستظرف من متاع مكة ، وكان من اعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له ادماً كثيرة وأرسلوها مع وفدهم للنجاشي وبطارقته المؤلف من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وغيرهما ، وأمروهم بأن يدفعوا الى كل بطريق هديته قبل ان يكلموا النجاشي ، وأضافت الى ذلك ام سلمة كما جاء في الرواية عنها ان الوفد خرج من مكة وقدم على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فوزع الوفد الهدايا التي معه على البطارقة وحاشية الملك وقالوا لكل من اهدوا اليه شيئاً انه قد لجأ الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين أبائهم وقومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردوهم إليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فوعدهم البطارقة خيراً ، ثم انهم قدموا الى الملك هديته فقبلها منهم ، ثم تحدثوا معه بالمهمة التي جاؤوا من اجلها بما تحدثوا به مع بطارقته وحواشيه ، ورجح له البطارقة ان يسلمهم اللاجئين ويردهم الى قومهم وبلادهم ، فلم يستجب لهم وقال والله لا اصنع شيئاً حتى ادعوهم وانظر في امرهم فإن كانوا كما يقولون سلمتهم لهم ، وان كانوا على غير ذلك احسنت جوارهم ما داموا في جواري .

ثم ارسل النجاشي الى اصحاب رسول الله (ص) واستدعاهم اليه ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا وقال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟ قالوا نقول : والله ما علمنا الا ما أمرنا به نبينا (ص) كائنا ما

كان ، فلما دخلوا على النجاشي وكان قد جمع اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله اتجه الى المسلمين وقال : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين احد من هذه الملل ، وكان الذي تولى الجواب عن المسلمين جعفر بن أبي طالب ، فقال له ايها الملك : كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفته فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وامرنا بصدق الحديث واداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وامرنا بالصلاة والصيام والزكاة ، ومضى جعفر بن أبي طالب يحدثه عن أصول الاسلام وفروعه الى ان قال فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فلم نشرك بالله وأحللنا ما احل لنا وحرمنا ما حرم علينا فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأصنام والأوثان من دون الله ، ولنستحل ما كنا نستحله من الخبائث ، فلما ضيقوا علينا وعذبونا وقهرونا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك شيء مما جاء به عن الله فقال له : نعم ، قال فاقرأه عليّ فقرأ عليه من سورة الكهف ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى معه الأساقفة ، ثم قال : ان هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم من مشكاة واحدة والتفت الى وفد قريش وقال لهم : والله لا اسلمهم إليكم .

قالت ام سلمة فلما خرج عمرو بن العاص ومن معه من عنده ، قال ابن العاص والله لاتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم ، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان اتقى الرجلين : لا تفعل فإن لهم ارحاماً وان كانوا قد

خالفونا ، قال ابن العاص : والله لأخبرنـه عنهم انهم يزعمـون ان عيسى ابن مريم عبد ، ثم غدا عليه في اليوم الثاني وقال له : انهم يقـولون في عيسى ابن مـريم قولاً عـظيماً فـارسل إليهم واسـألهم مـا يقـولـون فيـه ، فـأرسـل إليهم النجاشي ليسألهم عما يقولون في عيسى ، فاجتمع القوم وتـداولوا الأمـر بينهم واتفق رأيهم على ان يقولوا فيه بما جاء به النبي (ص) .

فلما دخلوا عليـه قال لهم : مـا تقولـون في عيسى ، قال جعفـر بن أبي طالب نقول فيه ما جاء به نبينا انه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاهـا الى مريم العذراء البتـول ، فلما سمع النجاشي ذلك ضـرب بيده عـلى الأرض فأخذ منها عوداً وقـال : ما عـدا عيسى ابن مريم مـا قلت فتناخـرت بطارقتـه حوله حين قال ذلك ، فقال لهم وان نخـرتم ، وقال للمسلمـين اذهبوا فـأنتم آمنون بأرضي ، من سبكم غـرم ، ما احب ان لي ديـراً من ذهب واني آذيت احداً منكم[1] .

والتفت الى غلمانه وقال ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لي بها ، فوالله ما اخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي حتى آخذ الرشـوة فيه ، ومـا اطاع النـاس فيّ حتى أطيعهم فيه ، فخـرج عمرو بن العـاص ومن معـه من مجلس النجاشي مقبوضين مردوداً عليهم ما جاؤ وا به وأقمنا عنده بخير دار مـع خير جار .

وأضافت ام سلمة تقـول فوالله انـا لعلى ذلـك في جوار النجـاشي حتى نازعه رجل من الأحباش في ملكه ، فوالله ما علمنا حزناً قط كـان أشد علينـا من حزننا يوم ذاك خوفاً من ان يظهر ذلك الـرجل عـلى النجاشي ولا يعـرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

وحشد النجاشي قواته في مقابلة ذلك الرجل وبينهما من المساحة عرض النيل فندب اصحاب رسول الله الزبير بن العـوام وكان من اصغـر القوم سنـاً

---

(١) والدير بلغة الحبشة الجبل .

لكي يستعلم لهم اخبار المعركة ويأتي اليهم بالخبر ونفخوا له قربة فوضعها في الماء وسبح عليها الى ان خرج الى الناحية الثانية حيث يلتقي الطرفان النجاشي وخصمه ، هذا والمسلمون يدعون ويبتهلون الى الله لكي ينصر النجاشي ، فبينما نحن في حالة من القلق والاضطراب وإذا بالزبير يقبل علينا يلوح بثوبه ويزف الينا البشرى بانتصار النجاشي على عدوه ، فوالله ما فرحنا فرحاً مثل فرحنا بذلك ، وبقينا عند النجاشي حتى قدمنا على رسول الله بعد هجرته الى المدينة .

الى هنا تنتهي رواية ام سلمة وكانت من المسلمات اللواتي هاجرن مع ازواجهن ، واسمها هند بنت ابي امية بن المغيرة المخزومي ، وغلبت عليها كنيتها وكان زوجها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي يكنى بأبي سلمة ايضاً . وامتلأت كتب التاريخ والسيرة في عرض قصة الهجرتين الى الحبشة وما جرى للمسلمين مع النجاشي .

وتكاد الروايات كلها تتفق على أصل الهجرة وعلى ان سببها كان الخوف من المشركين ، ولكن الاختلاف الواقع في الروايات هو في عدد المهاجرين وما جرى لهم مع ملك الحبشة ، وفي الوفد الذي أرسلته قريش للتشويش عليهم وإيجاد فجوة بينهم وبين ملك الحبشة .

ومن غير البعيد ان تكون المحادثة التي جرت للنجاشي مع المسلمين والتي جرت له مع المشركين مبالغ فيها كما هو الحال في اكثر الحوادث التاريخية التي تعرضت للتحريف والتشويه والزيادة والنقصان .

والسؤال الذي يمكن ان يطرحه كل باحث في حياة محمد وتاريخه ، ان تلك الهجرة الى الحبشة التي قام بها المسلمون الأولون في تلك الفترة العصيبة بأمره وبرأيه هل القصد منها هو الفرار من المشركين وما يلحقونه بالمسلمين من الأذى ، ام انها كانت لأغراض سياسية [illegible] تعود على الاسلام بالمصلحة .

من حق كل باحث ان يقف موقف المتأمل ويطرح هذا السؤال بعد ما ثبت من تاريخ النبي العظيم ، انه كان سياسياً بعيد التفكير كما كان صاحب رسالة وعطف ورحمة لا يدانيه فيهما احد .

واذا رجعنا الى احاديث الهجرة وما أحيط بها والى المهاجرين انفسهم نجد ان المهاجرين ليس فيهم الا القليل النادر من الموالي والمستضعفين الذين كانوا يتعرضون للتنكيل والتعذيب كعمار وغيره اذا صح انه كان معهم ، وجلهم ينتمون الى عشائر عربية كتميم واسد وزهرة وامية وهاشم وهذيل وعبد شمس ونوفل ومخزوم وعدي وغير ذلك من القبائل التي لها شأنها في مكة وجوارها وترتبط كل واحدة مع الأخرى اما باحلاف او مصاهرة ونحو ذلك من العلاقات التي تشد العرب بعضهم الى بعض ، ولا تكاد تجد قبيلة من قبائل مكة الا وقد خرج منها مهاجر كما ذكر المؤلفون في السيرة ، وهذه القبائل بالرغم من انها لم تكن طيبة النفس باسلام من أسلم منها ، ولكنها لم تكن لتسمح في التنكيل بابنائها ، على ان جعفر بن ابي طالب لم يكن معرضاً للتنكيل ، ولم يحدث احد بانهم قد تعرضوا له بسوء ، وعلى تقديره فلم يكن هو وأخوه علي وعمهما الحمزة وابو طالب وغيرهم من الهاشميين يبخلون بانفسهم في سبيل محمد ودعوته ، ومن غير المتصور في حق جعفر ان يفد الى الحبشة لسلامة نفسه ويترك محمداً (ص) عرضة للأذى والتعذيب لولا ان الغاية من هجرته اسمى واجدى للاسلام والمسلمين واكثر ايجابية وعطاء من بقائه في مكة .

ولو كانت الهجرة فراراً من الاذى والتعذيب كما يدعي المؤرخون والذين كتبوا في السيرة ، لم يبق مسوغ لبقائهم في الحبشة الى ما بعد السنة الثالثة او الرابعة وحتى الى السنة السابعة لهجرة الرسول من مكة الى المدينة وقد اصبح المسلمون فيها في امن وامان واطمئنان على نفوسهم واسلامهم من قريش وسائر العرب .

وقد اتفق المؤرخون ان جعفراً وجماعة معه من المهاجرين تركوا الحبشة

ورجعوا الى المدينة في السنة السابعة بعد ان فتح الله على المسلمين خيبر ، وقال النبي يوم ذاك كلمته المشهورة فيما اخبر برجوع جعفر ومن معه ، والله ما أدري بأيهما انا أشد سروراً بفتح خيبر ام برجوع جعفر ، فليس من المستبعد اذن ان تكون الهجرة التي خططها النبي للدعاية الى الاسلام في خارج الجزيرة اشعاراً منه ان دعوته لا تختص باقليم من الأقاليم ، وانما هي الى العالم بأسره ، وكان لها اثرها على عرب الحجاز وحتى على الكثيرين من نصارى الحبشة .

وجاء في بعض المرويات ان النجاشي نفسه قد أسلم وأرسل الى الرسول كتاباً يعرض عليه اسلامه واستعداده للالتحاق به كما جاء في رواية ابن كثير في بدايته .

فقد جاء فيها ان النبي كتب كتاباً الى النجاشي بعد ان اتجه الوفد إليه جاء فيه بعد التحية من محمد رسول الله (ص) الى النجاشي أصحمة ملك الحبشة سلام عليك فاني احمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد ان عيسى روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخته كما خلق ادم بيده ، واني ادعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وان تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جُعفراً ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر فاني ادعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى ، فكتب اليه النجاشي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة بن ابحر ، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله الا هو الذي هداني الى الاسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من امر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقربنا ابن عمك

واصحابه ، فأشهد انك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه ، وان شئت ان آتيك فعلت يا رسول الله .

هذه الرواية وغيرها مما ورد حول هذا الموضوع تؤيد ان مهمة الوفد لم تكن مقتصرة على التخلص من الأذى والتنكيل بل كانت تنشد رفعة الاسلام ودفعه الى الأمام كما كانت فراراً من الأذى والتعذيب .

ولو افترضنا ان هذه الرواية التي تنص على اسلام النجاشي مدخولة على تاريخ الدعوة كما هو ليس بالبعيد ، لو افترضنا ذلك فوجود هذا العدد الكبير خارج الجزيرة العربية يمارس طقوسه الدينية بكامل حريته ، هو بنفسه دعاية الى الاسلام ، وله تأثيره الكبير على عرب الجزيرة الذين كانوا يرتادون الحبشة للتجارة والسياحة وغير ذلك من الأغراض بالاضافة الى آثاره الأخرى على غيرهم من سكان تلك البلاد .

صحيفة المقاطعة

لقد ايقنت قريش بعد المراحل التي مرت بها مع الدعوة الاسلامية ان جميع ما قامت به من صنوف الأذى والتعذيب ومن جهود لمحاربة هذا الخارج عليها وعلى دينها ودين الآباء والأجداد لم يحل ولن يحول بين الناس وبين الذي يدعو اليه محمد بن عبد الله ، فالمسلمون يزدادون يوماً بعد يوم ، واصبحوا قوة لا يمكن مكافحتها الا بحرب اهلية قد يكون خطرها على قريش واتباعها اشد من خطرها على المسلمين ، فما من بيت الا وفيه من امن بها أو هو على وشك الايمان بها ، وقد امتد خطرها الى خارج الحجاز الى الحبشة في جوار ملك رحيم فتح لهم قلبه وصدره وأتاح لهم ان يقولوا ما يشاؤون ويفعلوا ما يريدون والعرب على اتصال دائم ببلاد الأحباش ، فماذا يصنعون بعد ان

احاط بهم خطر محمد وأصحابه ، وبعد ان باءت جميع محاولاتهم للحد منها بالفشل .

وبعد تفكير طويل من زعمائهم اتفقوا على تجربة جديدة وهي الحصار الاقتصادي وستكون نتيجتها حسب تقديرهم احد أمرين لا ثالث لهما ، اما رجوع محمد اليهم مهادناً ، واما القضاء عليه وعلى من معه من الهاشميين والاتباع جوعاً وعطشاً من غير ان يكونوا مطالبين بدمه ودم أتباعه ، فاتفقوا على ذلك وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه ان لا يناكحوا بني هاشم ولا ينكحوا منهم ولا يتعاملوا معهم بشيء بيعاً وشراء مهما كان نوعه ، ولا يجتمعوا معهم على امر من الأمور ، ووقع على الصحيفة اربعون رجلاً من وجوه قريش وعلقوها في الكعبة وحصروهم في شعب ابي طالب اول المحرم من السنة السابعة لبعثة النبي (ص) .

ودخل بنو هاشم الشعب بكاملهم مسلمهم وكافرهم عدا أبي لهب وأبي سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وانحاز اليهم بنو المطلب بن عبد مناف ، وكانوا اكثر من أربعين رجلاً عدا نسائهم وأطفالهم وحصن ابو طالب الشعب وتولى حراسته في الليل والنهار هو والحمزة وغيرهما من بني هاشم مخافة ان يتسلل احد من سفهاء مكة الى محمد ويغتاله على حين غفلة من قومه ، وكانت قريش تظن ظناً قوياً ان هذه التجربة السلبية بما تنطوي عليه من تجويع ومقاطعة كاملة ستكون اقوى اثراً من سياستهم الأولى سياسة التعذيب والتنكيل .

وأقامت قريش على حصارها سنتين او ثلاثاً كما يدعي المؤرخون ، كانت ترجو من خلالها ان هذه المقاطعة التي لا تطاق اذا لم تغير من موقف محمد (ص) فلا أقل من أنها تنتهي الى اعتزال قومه اياه .

ولكن محمداً الذي اختاره الله لرسالته لم يغير منه هذا الموقف شيئاً ، وازداد تصميماً على المضي فيها معتصماً بحبل الله سبحانه صابراً على ما احاط

به وبقومه ولم يزد اهله والذين اتبعوه الا تمسكاً به وتصميماً على الذود عنه وعن رسالته .

وظل المسلمون في شعب ابي طالب يقاسون الجوع والحرمان لا يخرجون منه الا في ايام الموسم ، موسم العمرة في رجب ، وموسم الحج في شهر ذي الحجة ، ولا يصل اليهم الا ما كان يأتيهم سراً من اناس كانوا مرغمين على مجاراة قريش كهشام بن عمرو احد بني عامر الذي كان يأتي بالبعير بعد البعير ليلاً محملاً بأنواع الطعام والتمر الى فم الشعب ، فاذا انتهى به الى ذلك المكان نزع عنه خطامه وضربه على جنبيه فيدخل الشعب بما عليه ولكن تلك الصلات البسيطة لم تكن لتكفيهم فأكلوا الأعشاب وورق الأشجار حتى لم يتركوا شيئاً من نبات الأرض الا وأكلوه ، ولكن الصبيان لم تصبر وكانت تتصارخ من الجوع ، وذلك اشد ما كان يحز في نفس النبي ويؤلمه .

وجاء في كتب السيرة ان ابا جهل التقى بحكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي مع رسول الله (ص) في الشعب ، فتعلق به وقال أتذهب بالطعام الى بني هاشم ، والله لا تبرح انت وطعامك حتى افضحك في مكة ، فجاءه ابو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد ، فقال ما لك وله : فقال انه يحمل الطعام الى بني هاشم ، فقال له ابو البختري طعام كان لعمته عنده بعثت اليه فيه افتمنعه ان يأتيها بطعامها خلّ سبيل الرجل ، فأبى ابو جهل حتى نال احدهما من صاحبه ، فأخذ ابو البختري لحي بعير وضربه به فشجه ووطئه وطئاً شديداً ، ومضى الغلام بالطعام حتى أوصله لأصحابه .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان قريشاً لم تترك طعاماً في مكة الا واشتروه مخافة ان يشتري منه بنو هاشم او يشتريه احد لهم يريدون بذلك ان يموت محمد وأتباعه جوعاً .

وأضاف الى ذلك ابن كثير في تاريخه ان ابا طالب كان اذا اخذ الناس مضاجعهم امر رسول الله فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك جميع من في

الشعب ، فاذا نام الناس امر احد بنيه او اخوته فاضطجعوا على فراش رسول الله ، وامر رسول الله ان يأتي بعض فرشهم فينام عليها محافظة على سلامته ، وحتى لو قدر لأحد ان يحاول اغتياله يصيب احد ولده ويسلم النبي (ص) .

وجاء في شرح النهج انه قرأ في امالي ابي جعفر محمد بن حبيب ان أبا طالب (ع) كان اذا رأى رسول الله (ص) احياناً يبكي ويقول اذا رأيته ذكرت اخي وكان عبد الله اخاه لأمه وأبيه ، وأضاف الى ذلك انه كثيراً ما كان يخاف عليه البيات فكان يقيمه ليلاً من منامه ويضجع ابنه علياً مكانه ، فقال له علي (ع) يا ابت اني مقتول لا محالة فقال له ابو طالب :

اصبرن يا بني فالصبر احجى ... كل حي مصيره لشعوب
قد امرنا بالصبر وهو شديد ... لفداء الحبيب وابن الحبيب
ان تصبك المنون فالنبل تبرى ... فمصيب منها وغير مصيب

فأجابه علي (ع) :

أتأمرني بالصبر في نصر احمد ... ووالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني احببت ان ترى نصرتي ... وتعلم اني لم ازل لك طائعا
سأسعى لوجه الله في نصر احمد ... نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا[1]

ولما كان على رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي وسواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم ، واول من سعى في نقض الاتفاق وفك الحصار عن الهاشميين هشام بن عمرو الذي كان يرسل اليهم بالطعام في جوف الليل وهو ابن اخ لنضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، ومشى الى زهير بن أبي امية بن المغيرة المخزومي وامه عاتكة بنت عبد

---

(١) شرح النهج ج ٣ ص ٣١٠

المطلب ، فقال يا زهير : لقد رضيت ان تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم اما واني احلف بالله لو كانوا اخوال ابي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما اجابك اليه ابداً .

فقال ويحك يا هشام فماذا اصنع انما انا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها ، فقال انا ذلك الرجل الذي يساعدك على نقضها اذا كنت جاداً في هذا الأمر ، فقال له زهير ابغنا رجلاً ثالثاً ، فذهب هشام الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا مطعم لقد رضيت في ان يهلك بطنان من بني عبد مناف وانت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، اما والله لئن امكنتموهم من ذلك لتجدنهم اليها منكم سراعاً ، قال له ويحك فماذا اصنع انما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانياً انا اساعدك على ذلك ، قال ابغنا ثالثاً ، قال قد فعلت : هو زهير بن ابي امية ، قال ابغنا رابعاً، فذهب الى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل احد يعين على ذلك قال نعم : هو زهير بن أبي امية ، والمطعم بن عدي وانا معك ، قال ابغنا خامساً فذهب الى زمعة بن المطلب بن اسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له وهل على هذا الأمر الذي تدعو اليه من احد قال نعم وسمى له القوم فتواعدوا حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هناك واجمع امرهم وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، وقال لهم زهير بن ابي امية : انا أؤ يدكم وأكون اول من يتكلم .

فلما اصبحوا غدوا الى انديتهم وغدا زهير بن ابي امية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ، ثم اقبل على الناس ، فقال لهم : يا اهل مكة انأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال له ابو جهل : وكان في ناحية من نواحي المسجد كذبت والله لا تشق فقال له زمعة بن الاسود : انت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، وقال ابو البختري صدق زمعة لا نرضى

بما كتب فيها ولا نقر به ، وقال لهم المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك ونبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك فقال ابو جهل هذا أمر قضي بليل تشاوروا فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم الى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قد اكلتها الا اسم الله .

وجاء في سيرة ابن هشام ان رسول الله (ص) قال لأبي طالب : يا عم ان ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع اسما هو لله الا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال اربك اخبرك بهذا ؟ قال نعم .

فخرج ابو طالب الى قريش وقال : يا معشر قريش ان ابن اخي اخبرني بكذا وكذا فهلم صحيفتكم فإن كان كما قال ابن اخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وان يكن كاذباً دفعت اليكم ابن اخي ، فقال القوم باجمعهم : رضينا وتعاقدوا على ذلك ، ثم جاؤوا بالصحيفة ونظروها فاذا هي كما قال رسول الله (ص) فزادهم ذلك شراً وعناداً فصنع الرهط في نقضها ما صنعوا كما ذكرنا .

وانتهى امر الصحيفة وما جاء فيها بعد موقف هؤلاء الذين ابت نفوسهم الكريمة هذه القطيعة التي كادت ان تقضي على الهاشميين واتباعهم من الجوع والحرمان ، وعاد محمد ومن معه من الشعب بعد تمزيق الصحيفة واستأنف دعوته في مكة ومع القبائل التي تقصدها في اشهر الحج والاشهر الحرم ، وساء قريشاً ان محمداً بدأ يجتمع بالوافدين الى مكة من مختلف انحاء الحجاز ويدعوهم الى الاسلام بعد ان يقرأ عليهم من القرآن ، وخافوا ان يأخذهم سحر بيانه فيخرجوا من مكة دعاة لدينه فاجتمع جماعة منهم الى الوليد بن المغيرة يتشاورون ماذا يقولون للعرب في محمد وبيانه وقرآنه ، فاقترح بعضهم وصفه بالكهانة ، ورفض الوليد هذا الرأي لأن محمداً لا

يتكلم بزمزمة الكاهن وسجعه ، واقترح آخرون ان يتهموه بالجنون ، وآخرون بالسحر ، والوليد لم يرتأ شيئاً من ذلك ، واختار لهم ان يقولوا للناس : انه ساحر في بيانه يفرق بين المرء وزوجته ، وبين الانسان وأخيه .

وانطلقت قريش في الموسم تحذر الناس من الاستماع إليه والاصغاء لقوله حتى لا يصيبهم ما أصاب المكيين من الانقسام ووجدوا ان دعوتهم هذه لم تفلح فلجأوا الى أسلوب آخر وهو الحديث عن الأمم السابقة وعباداتها وآرائها في الكون والخير والشر ، ووجدوا شيئاً من ذلك عند النضر بن الحارث ، وكان قد وفد على الحيرة واختلط بالفرس وملوكها وتعلم منها اخبار الملوك وآراء الفرس في الكون والخير والشر ونحو ذلك ، فأعدته قريش لأن يجتمع بالناس في الموسم وغيره ويحدثهم بذلك في مقابل محمد وأحاديثه عن الأمم والجنة والنار ، فأخذ كلما جلس محمد في مجلس يدعو فيه الى الله ويحذرهم مما اصاب السابقين باعراضهم عن رسله وتعاليمهم ، كلما جلس محمد في مجلس وحدث بهذا النوع من الأحاديث جاء النضر وجلس يحدث ويقص على قريش اخبار الفرس وأديانهم وتاريخ ملوكهم وحروبهم ثم يقول للناس : أترون محمداً يحدثكم بأحسن من هذه الأحاديث ، أليس هو يتلو من أساطير الأولين وانا اتلو منها ، أترون محمداً يستحق النبوة بذلك وقريش تذيع احاديثه وأساطيره بين الأعراب ووفود الحجاج في الموسم لتصرف بذلك الناس عن دعوة محمد (ص) .

ولكن دعاية كهذه وامثالها مهما كان نوعها ومهما اوتي القائمون عليها من المقدرة والبيان ، لم يكن في مقدورها ان تقاوم دعوة محمد وسحر بيانه وايمانه العميق بما يدعو اليه ولم يكن لدعوة محمد (ص) تلك الآثار المدهشة ، لأنه كان يحدث عن أساطير الأولين واخبار الماضين ، بل كان لها اثرها على النفوس والعقول ، لأنها تدعو الى دين يسمو بالنفس الانسانية الى الذروة لتتصل بالوجود كله صلة خير ومعروف ورحمة ، ولتتصل بالله سبحانه عن طريق التقوى والعمل الصالح وحب الخير لجميع الناس واحقاق الحق

واقامة العدل والنهي عن المنكر والفحشاء والبغي .

﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ (سورة النحل ٩٠) .

فأين من ذلك احاديث الفرس وعباداتها للنار والكواكب واخبارها تلك التي ارادت بها قريش ان تحارب دعوة محمد (ص) .

وما كانت احاديث القرآن الكريم المنزل على محمد (ص) عن الامم الماضية واخبارها وأديانها الا ليذكرهم وينذرهم بأنهم اذا اصروا على عنادهم وضلالهم فالله لهم بالمرصاد كما كان لغيرهم ممن كانوا اشد بأساً وأكثر عدداً وعدة .

وعلى اي الاحوال فإن دعاية قريش ووسائلها المختلفة في التشويش والتضليل على الدعوة لم تنفعها شيئا كما تؤكد ذلك كتب التاريخ والسيرة .

فلقد جاء فيها ان الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة وكان رجلاً شريفاً في قومه وشاعراً معروفاً ، فخافت قريش ان يتأثر بدعوة محمد ويرجع الى قومه داعياً اليها ، فمشى اليه جماعة منهم فحذروه من محمد وسحر بيانه الذي يفرق بين المرء وأهله وأظهروا خوفهم عليه وعلى قومه ان يفسدهم كما أفسد قريشاً ، وقالوا له : اننا نرى من الخير لك ولقومك ان لا تكلم هذا الرجل ولا تسمع لأحاديثه .

وكان لهذا التحذير ردود فعل في نفس الدوسي دفعته الى الاجتماع بمحمد (ص) ليستمع الى بيانه الساحر ومدى تأثيره السريع على النفوس والعقول ، لا سيما وان الدوسي من الشعراء ، والشعراء يؤخذون بحسن البيان ويسيطر عليهم اكثر من أي شيء اخر ، وظلت صورة النبي ماثلة في نفسه الى ان ذهب يوماً الى الكعبة ومحمد يوم ذاك في جانب من جوانبها يناجي ربه ، فسمع الطفيل بعض حديثه ، وقال في نفسه : واثكل امي ،

والله اني لرجل لبيب وشاعر لا يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني ان اسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسناً قبلته وان كان قبيحاً تركته ، وانتظر محمداً ان يذهب لبيته ليمضي معه ويسمع منه على بعد من أعين الناس .

ولما مضى محمد (ص) تبعه السدوسي الى بيته واظهر له امره وما دار في نفسه ، فتلا عليه النبي (ص) شيئاً من القرآن وهو صامت لا يتكلم ، وبمجرد ان انتهى النبي (ص) اعلن اسلامه ورجع الى قومه يدعوهم الى الاسلام ، فاستجاب له فريق وامتنع الباقون ، ولكنه بقي مصراً على موقفه يدعوهم الى الاسلام بالحاح وحماسة حتى اسلم اكثرهم .

ولم يكن السدوسي الا واحداً من العشرات الذين كانوا يدخلون مكة مشركين متعصبين لشركهم واصنامهم ، وقريش بدعاياتها وعنادها تحذر وتخوف من محمد ودعوته ، ولكنهم كانوا اذا اجتمعوا اليه عادوا مسلمين يدعون الى الاسلام بقلوب مطمئنة الى تلك التعاليم التي تملأ وجدانهم وتدعو الى العدل والمساواة والخير لجميع الناس .

ولقد حدث الرواة ان وفداً من النصارى مؤلفاً من عشرين رجلاً اوفدهم قومهم ليستطلعوا لهم اخبار محمد بن عبد الله الذي ذاع خبره في جميع انحاء الجزيرة وحتى في خارجها ، فلما اجتمعوا اليه واستمعوا لحديثه استجابوا لدعوته وخرجوا من بيته مسلمين مصدقين فاعترضتهم قريش وسبتهم ، وقالت لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم مَنْ وراءكم من اهل دينكم لتأتوهم بخبر هذا الرجل ، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى اسلمتم وفارقتم دينكم وصدقتموه بما يقول .

فلم يثنهم ذلك عن الاسلام بل زادهم ايماناً واصراراً على متابعته والدعوة الى شريعته .

ولقد بلغ من امر الدعوة ان اشد اخصامها عداء لها وأكثرهم ايذاء

لصاحبها وأتباعه كأبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام والاخنس بن شريق كانوا يتشوقون للاستماع من محمد وتعرضهم افكار حول صحة دعواه ، فخرجوا اليه كل على انفراد من حيث لا يعلم الآخر ، وكان محمد (ص) يقوم الليل الا قليلاً يناجي ربه ويرتل بعض الآيات من القرآن بهدوء وسكينة يستمعون اليه ، ولا يعلم احد منهم بمكان صاحبه فسيطر عليهم وظلوا يستمعون اليه حتى الفجر ، وبعد ان تفرقوا جمعهم الطريق من حيث لا يقصدون ، وعرف كل واحد منهم بما كان من الاخر وتواصوا على ان لا يعودوا لمثل ذلك حتى لا يراهم الناس فيضعف موقفهم العدائي من محمد واصحابه .

فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم انه منساق بدون اختياره الى المكان الذي كان فيه في الليلة السابقة ليقضي ليله يستمع فيه الى مناجاة محمد وترتيله للقرآن كما صنع بالأمس ، وذهبوا كل بمفرده ، وتلاقوا في رجوعهم من حيث لا يقصدون وتلاوموا .

ومع ذلك فقد عادوا في الليلة الثالثة ، ولكنهم بعد ان تلاقوا في هذه المرة لم يكتف كل واحد بلوم الاخر بل تعاهدوا على ان لا يعودوا لمثلها ابداً ، وترك ما سمعوه من محمد (ص) اثراً في نفوسهم ، ولكن كيف يستجيبون لمحمد ويؤمنون بدعوته وهي لا تفرق بين ذوي الجاه والمال والسادة وبين الفقراء والمستضعفين والعبيد الا بطهارة النفس والعمل الصالح ، وتخاطب الناس جميعاً ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (سورة الحجرات ١٣)

فاذا تعصب ابو سفيان وغيره من جبابرة قريش لدين آبائهم ونظامهم القديم الذي منحهم الجاه والسلطان ، فليس ذلك لان احداً منهم يجهل [illegible] ، بل لأنه أفاء عليهم من بسطة المال والجاه ما جعلهم [illegible] كل شيء لأجله ، ويصبون على من يحاولون ان [illegible] العذاب صبا .

وليس ادل على ذلك مما رواه المحدثون عن الأخنس بن شريق انه ذهب الى ابي جهل في بيته بعد ان استمع هو وأبو سفيان وابو جهل لمحمد في الليالي الثلاث ، فقال : ما رأيك يا ابا الحكم فيما سمعناه من محمد بالأمس ، فأجابه ابو جهل بقوله : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا واعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدقه فيما يقول .

عبس وتولى ان جاءه الأعمى

لقد جاء في سبب نزول هذه السورة ان النبي (ص) كان يناجي عتبة بن ربيعة وابا جهل والعباس بن عبد المطلب وأبياً وامية ابني خلف كما جاء في مجمع البيان للطبرسي .

وجاء في الكشاف للزمخشري انه كان يناجي عتبة وشيبة ابني ربيعة وابا جهل والعباس بن عبد المطلب وامية بن خلف والوليد بن المغيرة ويدعوهم الى الاسلام فجاءه وهو في هذا الحال ابن ام مكتوم وهو مكفوف البصر ، فقال يا رسول الله اقرئني شيئاً من القرآن ، والنبي مشغول معهم في الحديث عن الاسلام فلم يلتفت اليه النبي ، فألح ابن ام مكتوم في طلبه ، ومضى يكرر ذلك على النبي ويلح عليه حتى ظهرت الكراهية على وجهه الكريم ، فانصرف عنه عابساً ، فلما خلا بنفسه جعل يعاتبها على موقفه من الأعمى ، فنزلت عليه السورة .

﴿ عبس وتولى ان جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى * اما من استغنى فأنت له تصدى * وما عليك الا يزكى * واما من

جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ الى اخر السورة .

وجاء في مجمع البيان ان رسول الله (ص) كان اذا رأى ابن ام مكتوم يستقبله ببشاشته المعروفة ويقول مرحباً بمن عاتبني ربي من اجله .

وجاء في تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى إن ظاهر الاية لا يدل على ان الخطاب للنبي (ص) ولا فيها ما يدل على انه خطاب لأحد بل هو خبر محض لم يصرح فيها بالمخبر عنه ، بل وفيها ما يدل بعد التأمل ان المعني فيها غير النبي (ص) ، لأنه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفاته في قرآن او خبر مع الأعداء المنابذين له فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ثم وصفه بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء ، وهذا مما لا يوصف به نبينا (ص) ولا يشبه اخلاقه الواسعة وعطفه على قومه . وكيف يقول : وما عليك الا يزكى ، والنبي (ص) مبعوث للدعوة الى الاسلام وتوجيه الناس نحوها ، وقوله سبحانه : **﴿وما عليك الا يزكى﴾** ترخيص له بأن لا يحرص على اسلام قومه .

وأضاف الى ذلك السيد المرتضى في تنزيه الأنبياء ان هذه السورة نزلت في رجل من اصحاب رسول الله كان منه هذا الفعل مع سائل اعمى جاء يسأله شيئاً كما جاء ذلك فيما روي عن الامام الصادق (ع) ومضى السيد المرتضى يقول : ونحن اذا شككنا في عين من نزلت فيه هذه الآية فلا نشك انها لا تعني النبي (ص) ، واي تنفير اعظم من العبوس في وجوه المؤمنين والتلهي عنهم والاقبال على الأغنياء الكافرين والتصدي لهم ، وقد نزه الله نبيه عما دون ذلك فكيف يصفه بهذه الصفات .

وقال في مجمع البيان : ان الذي عبس وتولى رجل من بني امية كان في مجلس النبي (ص) فجاءه ابن ام مكتوم فلما رآه تقذره وجمع نفسه وثيابه وعبس في وجهه وابتعد عنه فحكى الله سبحانه ذلك وانكر عليه هذا

التصرف .

وقال السيد الامين في كتابه الأعيان ج ٢ لا مانع من وقوع العتاب من الله سبحانه الى النبي (ص) على ترك الأولى وفعل المكروه ، ومخالفة الأولى لا تنافي العصمة ، والقول بأن العبوس ليس من صفاته انما يتم اذا لم يكن العبوس لأمر اخروي مهم وهو قطع الحديث مع عظماء قريش الذين كان النبي (ص) يتحدث اليهم في امر الاسلام رجاء اسلامهم ، والكلام بعينه يجري بالنسبة للتصدي للأغنياء والتلهي عن الفقراء ، والقول بأن ذلك لا يشبه اخلاقه الكريمة انما يصح اذا كان تصديه للأغنياء لغناهم لا لرجاء اسلامهم ، وتلهيه عن الفقراء وانصرافه عنهم الى الحديث مع من يرجو اسلامهم لا ينافي اخلاق النبي (ص) وانما يتنافى مع اخلاقه الكريمة اذا تلهى عنهم لأمر من امور الدنيا ، وأضاف الى ذلك ان ظاهر الآيات الواردة في سورة عبس وتولى ان الخطاب فيها للنبي لا لغيره كما تشير الى ذلك الرواية عن الامام الصادق (ع) .

والذي أراه ان ما ذكره السيد الأمين مقبول ومعقول ولا يتنافى مع مقام النبي ولا مع عصمته كما ذكره السيد رحمه الله ، ولكنه ليس متعيناً منها لجواز ان تكون الآيات الأولى من السورة واردة في مقام ارشاد النبي الى واقع تلك الفئة الضالة التي لا يرجى صلاحها ، ولا موجب لعتابه فيما فعله مع الأعمى ، ذلك لأن النبي كان يتحدث مع أولئك الطغاة ظناً منه ان الحديث معهم يخدم مصلحة الاسلام إما باسلامهم ، او سكوتهم على أقل التقادير ، فانصرافه اليهم عن سواهم في ذلك الظرف الذي كان الاسلام فيه في امس الحاجة الى الأنصار والاتباع كانت تفرضه المصلحة التي هي ارجح من تعليم الأعمى وتفقيهه في امور الدين لإمكان ان يتم ذلك في وقت آخر حسب تقدير النبي (ص) .

اما حديثه مع المشركين ومحاولة اقناعهم بالاسلام او اسكاتهم فتلك فرصة قد سنحت له في ذلك الوقت ومن المصلحة استغلالها ولو كان الأمل في

النجاح ضعيفا ، فلا لوم ولا غبار على هذا الموقف الذي كانت تفرضه مصلحة الاسلام العليا ، والسورة في واقعها واردة في مقام التوبيخ والتحقير لأولئك المشركين الذين اقبل عليهم النبي بقصد ان يستميلهم الى الاسلام ويرغبهم ، فالله سبحانه يقول لنبيه في هذه الآيات انك تتعجل النصر لدين الله حتى بلغ بك الأمر ان ترجوه عن طريق اشقى الخلق واكثرهم فساداً وضلالاً ، دع هؤلاء في طغيانهم وضلالهم فانهم احقر من ان ينتصر الله بهم لدينه وأضعف من ان يقفوا في طريق الاسلام وتقدمه ، فإن الله سيذل اعداءه مهما بلغوا من الجاه والمال ، اما الذي يخشى وتنفعه الذكرى فهو الذي يستحق ان تلتفت اليه ويستحق منك التكريم والتعظيم سواء كان اعمى كابن ام مكتوم او غيره من الناس .

﴿وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى﴾ يريد بذلك ان هذا الاعمى الفقير لو استجبت لرغبته وعلمته بعض الاحكام ، ينتفع بما تلقيه عليه من القرآن والاحكام .

﴿اما من استغنى فأنت له تصدى﴾ اي انك اعرضت عن الاعمى وتصديق لهداية هذه الطبقة من الاغنياء ، في حين انهم منصرفون عما تطلبه لهم ، ولا يضرك كفرهم وجحودهم ، بل يضرون انفسهم ، والى ذلك تشير الآية ، ﴿ وما عليك الا يزكى ﴾ ، فالسورة كما اشتملت على توبيخ المشركين وتحقيرهم كذلك اشتملت على ارشاد النبي (ص) الى عدم المبالاة بهذه الطبقة من الناس الذين لا يضرون إلا انفسهم في اصرارهم على الشرك وتماديهم في الباطل والضلال .

وهذا المعنى غير بعيد عن اسلوب القرآن الكريم ، فلقد انزل الله في المشركين بعض الايات للدلالة على مصيرهم المحتوم ، حتى لا يعبأ بهم النبي ولا يطمع في هدايتهم حسب المناسبات التي تدعو لذلك .

فمن ذلك ما نزل في ابي لهب وزوجته ام جميل حمالة الحطب .

ومن ذلك ما نزل في امية بن خلف بن وهب ، وكان اذا رأى الرسول همزه ولمزه ونسب اليه ما ليس فيه فانزل الله فيه :

﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده يحسب ان ماله اخلده * كلا لينبذن في الحطمة وما ادراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة انها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ .

ومن ذلك ما جاء في العاص بن وائل السهمي ، فلقد باعه الخباب بن الارت سيفا ، وبعد اسلام الخباب طالبه بالثمن ، فقال له : ان صاحبك يزعم ان في الجنة ما يبتغي اهلها من ذهب وفضة وغير ذلك فامهلني الى يوم القيامة فاذا رجعنا دفعت اليك ثمن السيف ، فوالله لا تكون انت وصاحبك آثر عند الله مني ولا اعظم حظاً ، فانزل الله فيه .

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً* أطّلَعَ الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ الى قوله : **﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾** .

وجاء في كتب السيرة ان ابا جهل بن هشام قال لرسول الله (ص) والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا او لنسبن إلهك الذي تعبد ، فانزل الله في ذلك **﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾** ، فكف رسول الله عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم الى الله بما يراه من الأساليب المناسبة تنفيذاً لأمر الله .

وكان النضر بن الحارث بن علقمة اذا جلس رسول الله مجلساً يدعو فيه الناس الى الله ويحذر قريشاً مما أصاب الامم السابقة ، جلس هو في جماعة من المشركين وحدثهم عن اخبار الفرس وعن رستم الصنديد وغيرهما ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني وما حديثه الا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبت هذه الأحاديث فانزل الله فيه :

﴿ ويل لكل افاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم ﴾ .

ونزل فيه ايضاً في مناسبة اخرى ﴿ انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ﴾ ، ولما بلغته الاية ، قال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى ، والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد وقد زعم محمد انا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال له عبد الله بن الزبعرى : اما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم ، فاعجب الوليد ومن كان معه في المجلس بقوله ، وشاعت مقالته هذه حتى بلغت النبي (ص) ، فقال ان كل من احب ان يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، انهم انما يعبدون الشياطين ومن امرتهم بعبادته ، فانزل الله تعالى عليه في هذه المناسبة : ﴿ ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت انفسهم خالدون ﴾ ، فالاية تشير الى ان عيسى وعزيرا والرهبان والاحبار الذين عبدهم الناس من دون الله قد مضوا على طاعته ، ولا ذنب لهم اذا اتخذهم الظالمون أربابا من دون الله بوحي من الابالسة والشياطين . وجاءفي آية اخرى حول هذا الموضوع : ﴿ ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

وجاء في كتب السيرة والتفسير ان أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متصافيين متصاحبين ، وكان عقبة بن أبي معيط قد جلس الى رسول الله وسمع من حديثه ، فبلغ ذلك ابيّ بن خلف ، فقال له يا عقبة بلغني انك جالست محمداً وسمعت منه وحلف له ان لا يكلمه ابداً إذا جلس اليه [illegible] ثانية ، وطلب اليه ان يأتيه ويتفل في وجهه ففعل ذلك عقبة بن أبي معيط عليه لعنة الله ، فأنزل الله فيهما : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا[1] ﴾ .

---

(١) هذه الرواية من الموضوعات [illegible]

ومشى ابي بن خلف الى رسول الله (ص) وبيده عظم قد مرت عليه الأعوام والشهور واصبح اشبه بالتراب فقال له يا محمد : أنت تزعم ان الله يبعث هذا بعد ان يبلى ، ثم فته بيده ونفخه في وجه رسول الله ، فلم يبق منه شيء فقال رسول الله (ص) نعم انا اقول ذلك يبعثه الله وإياك بعد ما تكون هكذا ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة : ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون** ﴾ .

واعترض الأسود بن المطلب بن اسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وامية بن خلف والعاص بن وائل السهمي وكانوا من شيوخ قريش وعظمائها اعترضوا رسول الله (ص) وهو يطوف في الكعبة فقالوا له يا محمد : هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد انت ما نعبده ، ونشترك نحن واياك في الأمر ، فان كان الذي تعبد خيراً مما نعبد نكون قد اخذنا بحظنا منه ، وان كان الذي نعبد خيراً مما تعبد تكون قد اخذت بحظك منه ، فأنزل الله عليه السورة :

﴿ **قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون * ولا انتم عابدون ما أعبد * ولا انا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين** ﴾ (سورة الكافرون) .

الى كثير من امثال هذه الآيات التي كانت تنزل على الرسول (ص) في مقام التأييد لموقفه من المشركين والرد على تمحلاتهم التي لجؤوا اليها بعد ان يئسوا من تجميد الدعوة ورأوا انها تسير بخطاً واسعة في أرجاء مكة وخارجها تتحدى كبرياءهم وجميع ما يملكون من حول وطول .

الفَصْلُ السّادِسُ

عام الحزن ولمحات عن مواقف ابي طالب وخديجة واسلام ابي طالب

كان العام العاشر من تاريخ مبعثه من اشد الأعوام التي مرت عليه منذ ان بعثه الله نبياً وهادياً لعباده ، بالرغم مما قاساه ومر عليه من المصائب والمتاعب والتنكيل به وبأصحابه .

كان عام الحزن نفس العام الذي خرج فيه من الشعب بعد حصار استمر ثلاثة اعوام اشرف هو ومن معه من الرجال والنساء والأطفال على الموت جوعاً ، وكان اشد ما يؤذيه ويحز في نفسه صراخ الأطفال من الجوع وهو لا يستطيع ان يجلب لهم خيراً او يدفع عنهم شراً ، ولكن وجود عمه وكافله والمحامي عنه كان يخفف عنه من آلامه ، لأنه كان يعزيه ويسليه ويشد من عزيمته ويؤثره على نفسه وأولاده ، وهو يعلم ان قريشاً مهما بلغ بها الحقد لن تستطيع ان تنال منه ما تريد ما دام ابو طالب سلام الله عليه حياً في هذه الدنيا .

لقد رآه في احرج الظروف التي مرت عليه يفديه بأولاده فيأمرهم ان يناموا على فراشه ويأخذ بيده الى فراشهم خوفاً من ان يغتاله احد وإذا حاول

احد من المشركين ان يقوم بعمل من هذا النوع فنفسه طيبة بأن يكون اعز أولاده عليه فداء لابن اخيه .

لقد كان محمد يشاهد كل ذلك فتخف عنه آلامه ويطمئن على مسيرة الدعوة ، فاذا رجع الى بيته وجد فيه خديجة زوجته الوفية الصادقة في ايمانها ووفائها فتستقبله بقلبها وببشاشتها لتهون عليه الشدائد ، ويرى فيها الزوجة التي شاركته المصائب والآلام لم تتزعزع ولو لحظة واحدة بل بذلت له ثراءها الواسع وكل ما تملك من جاه ومال لإنجاح دعوته .

في العام العاشر من مبعثه الذي سماه هو نفسه عام الحزن ، وفي شهر رمضان من ذلك العام كما يرجح جماعة من المؤرخين اشتكى ابو طالب بعد ان تخطى الثمانين ، واخذ المرض يفتك به وشعر بدنو اجله ، ولكن المرض على وطأته لم يشغله عن محمد رسول الله ، وبات يفكر فيه لا بأوجاعه ولا بقواه المنهارة ، وايقن ان قريشا سوف تستبيح من محمد بعد وفاته ، ما لم تكن تستطيعه في حياته ، فلم تشغله اوجاعه وآلامه عن ترغيب قريش في الاسلام ودعوتهم اليه وقد اجتمعوا حوله لعيادته ، فقال لهم : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم امره فأطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم واخرتكم ولكنهم كعادتهم لم يسمعوا قوله ، ولم يقبلوا نصيحته .

ورجعوا إليه في اليوم الثاني وقد الح عليه المرض وأشرف على نهايته فقالوا يا أبا طالب : انك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى ، فضع حداً للخصام بيننا وبين ابن اخيك فخذ له منا ، وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه ، ويدعنا ودينا وندعه ودينه ، فقال لهم النبي (ص) وكان حاضراً ملازماً لعمه : اعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، فقال ابو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات لا كلمة واحدة ، قال تقولون : لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فقالوا اتريد ان تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ثم قال بعضهم لبعض : والله ان هذا الرجل لا يعطيكم شيئاً مما تريدون .

واشتد المرض بأبي طالب ، وبينما رسول الله قد انصرف في حاجة له وإذا بالناعي قد أقبل اليه يخبره بوفاته فمضى مسرعاً الى البيت الذي هو فيه فمسح جبينه الأيمن والأيسر كما كان هو يمسح جبينه ، ثم قال : رحمك الله يا عم ربيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً فجزاك الله عني وعن الاسلام خير جزاء العاملين المجاهدين في سبيله بأموالهم وانفسهم وكل ما يملكون ، ثم بكى وأبكى من كان معه حول أبي طالب .

لقد احس اعداء محمد بالانفراج ساعة موته ، وكانوا من قبل يحسبون له الف حساب وحساب .

لقد بكى محمد ويحق له ان يبكي لأن ابا طالب كان له أباً حين فقد اباه وعضداً وناصراً حين احتاج الى الناصر والمعين ، ودافع عنه كيد قريش وجميع محاولاتها التي كانت تعدها لكي تبلغ منه ما تريد خلال عشر سنوات خلت لمبعثه ، وها هي الرسالة التي ناصرها ابو طالب بلسانه ويده وسيفه وجاهه وجميع ما يملك ، واستطاعت بواسطته ان تتسلق اسوار مكة وهضابها لتشيع وتنتشر بين قبائل الحجاز ، وتنطلق منها الى ارجاء الدنيا الواسعة ، لقد اصبحت قريش تخطط لها من جديد ، ومن يدري ماذا يحدث غداً بعدك يا أبا طالب .

لقد بكى محمد واستعاد الى ذاكرته في تلك اللحظات جميع تلك المواقف التي وقفها ابو طالب منذ كان صبياً الى تلك المرحلة من حياته .

تذكره وهو يقدمه على جميع اولاده في صباه ، ويوم تعلق بزمام ناقته وقد اراد ان يذهب في تجارة له الى بلاد الشام وهو يقول له : الى من تكلني ولا اب لي ولا ام ألجأ اليهما وهو يقول له ، والدموع تتقاطر من عينيه والله لا اكلك الى غيري ثم مد يده وجذبه الى صدره يشمه وأردفه خلفه ، وأقسم انه لا يفارقه أبداً ، وتذكر حديث الراهب مع عمه وكيف استولى الفزع على عمه وفضل ان يعود به سالماً الى مكة ، تاركاً كل مغنم تجره عليه تلك الرحلة إلى

الشام ، ثم تذكر وتذكر ، ومضى يتذكر مواقفه مع المشركين يوم جاءه ذات يوم وهو ملطخ بالفرث والدم ، فقام واشتمل على السيف ومعه غلامه حتى اتى الكعبة وجبابرة قريش جلوس الى جانبها فلما رأوه احسوا بالشر ، فقال لهم : والله لئن قام احد منكم ظللته بسيفي وامر غلامه ان يلطخ بالفرث والدم وجوههم وثيابهم واحداً بعد واحد . وتذكره يوم كان في الشعب محصوراً مع بني هاشم كيف كان يحرسه في الليل والنهار مخافة ان يتسلل احد المشركين الى الشعب ويغتاله ، وقد وزع بني هاشم على منافذ الشعب وحصن بهم حدوده ، وتذكره يوم كان يضجعه في فراشه لكي يراه الناس وهو على فراش النوم ، فاذا ذهب كل انسان الى فراشه وأوى الى مضجعه وهدأ الشعب في سكون الليل وسكون النوم اقبل عليه واخذه بيده الى فراش اخر وأضجع على فراشه احد ولده حتى اذا حدث احد نفسه بشر لا يصاب بأذى ، وتزاحمت الذكريات في ذهنه في تلك اللحظات وهو مسجى بين يديه ، وظل يتذكره طيلة حياته وبخاصة عندما تشتد قريش عليه ، ولقد قال بعد ذلك :

والله ما نالت قريش مني شيئاً اكرهه الا بعد موت ابي طالب . لقد بكاه محمد وأبكى من كان حوله ومضى الى بيته مهموماً يبكي فوجد اليد التي كانت تمسح دموعه وتشاطره آلامه واحزانه ترتعد تحت وطأة المرض ، وسقطت ميتة بعد ابي طالب بأشهر قليلة او ايام قليلة حسب اختلاف الروايات في ذلك ، وفقد محمد (ص) خلال اشهر وأيام عمه الذي رباه ونصره وضرب المثل الأعلى في التضحية والنصرة والرعاية خلال اربعين عاماً او تزيد ، وزوجته التي بذلت له مالها وواسته في جميع الخطوب والنكبات ، وكانت تود ان تتحمل عنه كل شيء ليسلم لرسالته ، وشعر محمد ان المسرات تتخلى عنه وان بهاء الحياة يعود ادكن مظلما .

وجلس يبكي الى جانبها ويبكي معه من في البيت ، واصحابه من حوله يحاولون ان يخففوا عنه آلامه واحزانه .

هاتان الفاجعتان الاليمتان في اشهر معدودات او أيام معدودات كل واحدة منها على انفرادها تكفي لأن تترك اقوى النفوس كليمة، مضعضعة فكيف وقد اجتمعتا على محمد (ص) في عام واحد ، وأخصامه ينتظرون تلك اللحظات .

ولكن محمداً (ص) بالرغم من وطأة تلك النكبة واثرها العميق في نفسه مضى في طريقه وتابع سيرته ، وجدت قريش في ايذائه والتنكيل بأصحابه ، وكان من أيسر انواع الأذى الذي انزلته به بعد ان فقد عمه ان مر عليه احد سفهاء قريش كما جاء في رواية الطبري فاغترف بكلتا يديه من التراب والأوساخ وألقاها على وجهه ورأسه ، فدخل بيته والتراب قد لطخ وجهه ورأسه ، فقامت اليه ابنته فاطمة (ع) وكانت اصغر بناته وجعلت تغسل التراب عن رأسه وتبكي وهي حديثة عهد بتلك الفاجعة الأليمة التي تجرع ابوها مرارتها .

وكان بكاؤها موجعاً لقلبه ونفسه والتفت اليها وعيناها تهمي بالدموع ومسح رأسها بكلتا يديه وقال لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع اباك وناصره على أعداء دينه ورسالته .

اسلام ابي طالب

في عقيدتي ان التاريخ ما ظلم احداً كما ظلم أبا طالب ، وما أساء المسلمون اساءة أفحش وأعظم من اساءتهم لمحمد (ص) في عمه أبي طالب .

لقد تعهد ابو طالب محمداً وهو في الثامنة من عمره وضمه الى أولاده يرعاه ويحرسه في ليله ونهاره ، فاذا اضطر ان يخرج من مكة تولته زوجته

فاطمة بنت أسد ، تجمع اولادها وتطعمه وتتركهم شعثاً وتصلح له ثيابه وشعره وتدهنه ، فما احس بفقد الاباء والأمهات ، وظل يرعاه ويحرسه ولا يفكر بأحد سواه ، حتى بعد ان شب وتزوج .

ولما بعثه الله نبياً كان اول من صدق به ودعا اولاده الى متابعته وتصديقه ، فلقد رآه لأول مرة يصلي وليس معه احد من الناس سوى علي وخديجة فذهب مسرعاً الى بيت اخيه العباس وولده جعفر في كفالته فدعاه واخذ بيده الى المكان الذي يصلي فيه النبي (ص) وقال له : صل جناح ابن عمك يا ولدي ، ومضى يدعو اليه ويهيىء له الأنصار والأتباع ، ولم يرد في تاريخه الطويل حتى على لسان اعدائه ، انه عاتب محمداً على موقفه من آلهة قريش او دعاه الى مهادنتها والسكوت عن عيبها ، بل كان يأمر بني هاشم ويدعوهم الى متابعته ونصرته .

فقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد ان أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا بني عبد المطلب ، وقال لهم : لن تزالوا بخيرٍ ما سمعتم من محمد واتبعتم امره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا .

وروى هذه الوصية كل من ابن الجوزي في تذكرة الخواص ، والنسائي في الخصائص وصاحب السيرة الحلبية في سيرته ، وغيرهم من المحدثين[1] فهل يمكن او يتصور في حق احد من الناس ان يتبنى فكرة ، او مبدأ ، او يتخذ ديناً ويناصر في الوقت ذاته أعداء فكرته ودينه ومبدأه بكل ما لديه من حول وطول ، ويدعو الناس الى ترك ما يؤمن به في قرارة نفسه .

واذا كان مشركاً كما يدعي الأمويون والعباسيون وأنصارهم من مرتزقة الشيوخ والمحدثين ، وقد وجد جفوة من قريش وقطيعة اضطرته ومن معه في الشعب الى اكل الأعشاب وورق الأشجار كما تؤكد ذلك جميع المؤلفات في

---

(١) انظر ج ٧ ص ٣٦٧ من الغدير للأميني .

السيرة . اذا كان كما يزعمون وقد احاطت به تلك الظروف القاسية ، فما الذي يمنعه ان يتكلم مع ابن اخيه ولو بلسان الاستعطاف والتمني عليه بأن يخفف ولو من لهجته مع آلهتها ، وما الذي يمنعه من ردع اولاده عن دين محمد ، او عتابهم على أقل التقادير وقد تسابقوا اليه منذ مطلعه .

في حين ان اكثر الروايات قد اتفقت على انه لما علم بنبأ الدعوة امر أولاده بمتابعتها ، وقال لهم ان محمداً لا يدعوكم الا الى خير ، وكان مع ذلك يبعث فيهم العزيمة والتصميم على المضي في الطريق الذي اختاروه واختاره لهم .

وهل الاسلام شيء آخر غير الاقرار والاعتراف بإله واحد ونبوة محمد (ص) ، وقد تواتر عنه انه اقر بذلك في شعره وغيره في عشرات المناسبات كما يبدو ذلك لكل من تتبع تاريخ ابي طالب وأخباره ومواقفه الحازمة في نصرة الاسلام .

واني استبعد على أي باحث يتحرى الحق اينما كان اذا استعرض تاريخ ابي طالب مع الدعوة الاسلامية منذ مطلعها الى السنة التي توفي فيها استبعد عليه ان ينتهي الى القول بأنه مات مشركاً على دين قريش الا أن يكون اموياً او ذنباً لمشركي الأمويين الذين أرادوا ان يغطوا شركهم وشرك آبائهم بنسبة الشرك الى أبي طالب الذي أسلم بقلبه ولسانه وعمله منذ الشهور الأولى لبعثة النبي (ص) كما سنثبت ذلك خلال حديثنا هذا عن اسلامه ومواقفه في نصرة الاسلام .

وجاء عن ابان بن محمود انه قال للامام علي بن موسى الرضا (ع) ، جعلت فداك اني قد شككت في اسلام أبي طالب ، فكتب اليه ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، ثم قال : انك ان لم تقر بايمان ابي طالب كان مصيرك الى النار .

وجاء عن الامام محمد بن علي الباقر انه سئل عما يقوله الناس ان أبا

طالب في ضحضاح من نار ، فقال : لو وضع ايمان ابي طالب في كفة وايمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .

وجاء عن أبي بكر انه جاء نأتيه أبي قحافة الى النبي عام الفتح يقوده وهو شيخ اعمى وكان قد بقي على شركه لذلك التاريخ ، فقال رسول الله (ص) اما تركت هذا في مكانه حتى تأتيه ؟ فقال له ابو بكر : أردت يا رسول الله ان يأجره الله والذي بعثك بالحق ، لأنا كنت أشد فرحاً باسلام عمك ابي طالب مني باسلام أبي التمس بذلك قرة عينك .

وقال علي بن الحسين زين العابدين في جواب من يتردد في اسلام ابي طالب ، جاء عنه انه قال : واعجباه ان الله تعالى نهى رسوله ان يقر مسلمة على نكاح كافر ، وكانت فاطمة بنت اسد من السابقات الى الإسلام وبقيت تحت أبي طالب الى ان مات .

وروى الرواة عن النبي (ص) انه كان يقول : انا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، يعني بذلك ابا طالب ، الى كثير مما جاء عن النبي (ص) وغيره من الصحابة والأئمة تصريحاً وتلميحاً في اسلامه وايمانه بالرسول (ص) .

هذا بالاضافة الى شعره الذي تواتر عنه واعترف بصدوره عنه حتى من قال بأنه مات مشركاً فمن ذلك قوله في قصيدته الميمية :

وظلم نبي جاء يدعو الى الهدى ... وأمر أتى من عند ذي العرش قيم

وقوله من أبياته في الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعة بني هاشم :

الم تعلموا انا وجدنا محمداً ... رسولاً كموسى خط في أول الكتب
وان عليه في العباد محبة ... ولا حيف فيمن خصه الله في الحب

وقوله من أبيات له :

نبي أتاه الوحي من عنـد ربه ومن قال لا يقرع بها سن نادم

وقـوله في أبيـات يهجو بهـا قـريشـاً حينـما عـذبت عثمـان بن مـظعـون الجمحي :

حتى تفـر رجال لا حلوم لهـا بعد الصعوبة بالاسماح واللين
او تؤمنوا بكتاب منزل عجب على نبي كموسى او كذي النون

وقوله في أبيات كان يرددها في كثير من مواقفه بجانب النبي (ص) :

نصرت الرسول رسول المليكَ ببيض تـلألأ كلمـع البـروق
اذب واحمـي رسـول الالـه حمـايـة حـام عليـه شفيق

وقوله في أبيات يخاطب بها ولديه جعفراً وعلياً :

ان عليـاً وجعفـراً ثقـتي عنـد ملمّ الزمـان والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما اخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا اخـذل النبي ولا يخـذلـه من بنيّ ذو حسب

وقوله يخاطب اخاه حمزة وكان يكنى بأبي يعلى :

فصبـرا أبا يعـلى عـلى دين احمـد وكن مظهراً للدين وفقت صـابرا
وحط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حمـز كافـرا
فقـد سرني ان قلت انـك مؤمن فكن لـرسول الله في الله نـاصـرا
وبـاد قـريشـاً بـالـذي قـد أتيتـه جهاراً وقل ما كان احمـد ساحـرا

وقوله في أبيات له اخرى :

انـت الـنبـي محـمـد قــرم أغَـرُّ مـسـود

لمسوديـن اكـارم   طابوا وطاب المولـد

وقوله وهو يخاطب النبي (ص) ويشجعه على اظهار دعوته :

ولا يمنعك من حق تقوم بـه   ايد تصول ولا سلق بأصوات
فإن كفك كفي ان بليت بهم   ودون نفسك نفسي في الملمات

وقوله من أبيات له يمدح النبي بها :

لقـد أكـرم الله النبي محـمـداً   فـأكرم خلق الله في النـاس أحمد
وشق لـه من اسـمـه بتـجـلة   فـذو العرش محمـود وهذا محـمـد

وقوله في قصيدته اللامية المشهورة :

الم تعلمـوا ان ابننـا لا مكـذب   لـدينـا ولا نعبـأ بقـول الأبـاطـل

ويقول فيها :

وأيـده رب العـبـاد بنـصـره   وأظهـر دينـاً حقـه غـير زائـل

الى كثير من شعره الذي يؤكد اسلامه وإيمانه بكل ما جاء به محمد بن عبد الله (ص) .

وقال في شرح النهج : ان كل هذه الأشعار قد جاءت مجيء التواتر من حيث مجموعها الذي يدل على تصديق ابي طالب لمحمد (ص)[1] .

وجاء عن الامام الحسين (ع) ان علياً كان جالساً في الرحبة والناس

---

(١) انظر شرح النهج ج ٣ / ص ٣١٤ ، ٣١٥ ، انظر [illegible] ج ٢ ص ١٩

من حوله ، فقام اليه رجل وقال : يا امير المؤمنين انك بالمكان الـذي انزلـك الله وأبوك معذب في النـار ، فقال لـه علي (ع) مـه فض الله فاك ، والـذي بعث محمداً بالحق نبياً لو شفع ابي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله ، والذي بعث محمداً بالحق ان نور ابي طالب يوم القيامة ليـطفئن انوار الخـلائق الا خمسة انوار نور محمد ونور فاطمة ونور الحسن والحسين ، ونور الأئمـة من ولده .

وروى الكليني في الكافي عن اسحاق بن جعفر عن أبيه جعفـر الصادق (ع) انه قيل له : ان القوم يزعمون ان ابا طالب مـات كافـراً ، قال كـذبوا كيف يكون كافراً وهو يقول :

الم تعلمـوا انـا وجـدنـا محمــداً   نبياً كموسى خط في أول الكتب

وجاء في اصول الكافي ايضاً ان الإمام الصادق (ع) كـان يقول ويحهم كيف يزعمون ان ابا طالب مات كافراً وهو القائل :

لقـد علمـوا ان ابننـا لا مكـذب   لـدينـا ولا يعبـأ بقـول الأبـاطـل

وروى ابـو جعفر الصـدوق في اكمال الـدين عن محمد بن مـروان عن الامام الصادق (ع) ان أبـا طالب اظهـر الكفر وأسـر الايمان ، فلما حضـرته الوفاة اوحى الله الى رسوله : اخرج منها فليس لك بها ناصر .

وجاء عن يونس بن نباتة ان الامام الصادق (ع) قال له يا يونس : ما يقـول النـاس في أبي طـالـب ، قلت جعلت فـداك انهم يقـولـون : هـو في ضحضـاح من نار يغـلي منها ام رأسـه ، فقال (ع) كـذب اعداء الله ان أبـا طـالب من رفقاء النبيـين والصـديقـين والشهـداء والصـالحـين وحسن أولئـك رفيقاً .

وقد احصى الأمين في المجلد السابع من غديره تسعة عشر كتـاباً ألفت

في ايمان أبي طالب وفضائله لمؤلفين من السنة والشيعة .

ومجمل القول هو ان الأحاديث الواردة في كفر أبي طالب كلها من موضوعات العصر الأموي وجاء المتأخرون فبنوا عليها واخذوا بها لأن الذين وضعوها كعروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهما نسبوها الى الصحابة والصحابة عند اهل السنة معصومون عن الكذب والخطأ وقد وضع بعضها المغيرة بن شعبة ارضاء لسيده معاوية ، ولا ذنب لأبي طالب عند احد من الناس الا انه والد الامام علي بن أبي طالب .

ولولا ان اسلام علي (ع) وجهاده المتواصل في خدمة الاسلام ومواقفه وتضحياته لم يسبق لها نظير في التاريخ لولا ذلك لقال الأمويون وحتى العباسيون فيه مثل ما قالوا في أبيه ، ولكنهم لم يجدوا سبيلاً لذلك ، ومن المعلوم ان الأحاديث بعضها من مرويات المغيرة كما ذكرنا ، والبعض الآخر من مرويات عروة بن الزبير والزهري وغيرهما من المأجورين والحاقدين ، كما وان العباسيين بعد الانتفاضات التي كانت تحصل ضدهم بقيادة العلويين قد احسوا بخطر هذا البيت على دولتهم فدسوا بعض الأحاديث التي ترفع من شأن جدهم العباس وتضع من شأن ابي طالب وولده وسخروا شعراءهم واتباعهم من الرواة لهذه الغاية .

ورووا عن الرسول (ص) انه قيل له : لو استغفرت لأبيك وامك ، فقال لو استغفرت لهما لاستغفرت لأبي طالب فانه صنع إلي ما لم يصنعا ، وانه قال : ان عبد الله وآمنة بنت وهب وأبا طالب جمرة من جمرات جهنم وانه في ضحضاح من نار كما جاء في رواية المغيرة بن شعبة ، ويدعون في الوقت ذاته ان أبا سفيان وعقبة بن أبي معيط وأمثالهما من مردة قريش وطواغيتها الذين ظلوا يكيدون للاسلام حتى بعد ان نطقت به ألسنتهم حقناً على دمائهم في حياة الرسول وبعد وفاته ، يدعون بأنهم من المسلمين ومن الصحابة الأبرار .

ان الذين وضعوا تلك الأحاديث التي تنص على ان عبد الله وامنة بنت

وهب وأبا طالب جمرة من جمرات جهنم قد اساؤوا الى النبي (ص) من حيث يقصدون او لا يقصدون ، ونسبوا اليه المخالفة لنصوص القرآن الكريم الذي امر بالاحسان الى الوالدين وتوقيرهما احياء وأمواتاً ، حيث قال سبحانه : ﴿ **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً** ﴾ .

وقال : ﴿ **وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾ ، وقال : ﴿ **وان اشكر لي ولوالديك** ﴾ .

واذا كان القرآن الكريم يؤكد احترامهما وتوقيرهما ولو كانا مشركين ، فهل يصح على الرسول بعد ذلك ان يقول : ان ابي وامي وعمي جمرة من جمرات جهنم ، وكيف يحاسبهما على كفرهما لو افترضناه وقد ماتا قبل الاسلام بأكثر من ثلاثين عاماً .

على ان آباء النبي كما يبدو من نصوص المؤرخين كانوا يؤمنون بالله على شريعة ابراهيم ، والقرآن نفسه يشير بأنهم لم يسجدوا لغير الله ولم يتخذوا غيره رباً في الآية ﴿ **وتقلبك في الساجدين** ﴾ .

ومن الغريب المؤسف ان مؤلفي السنة المحدثين كالشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة وامثاله حينما يصلون الى نهاية أبي طالب يجترون آراء القدامى من المؤرخين والمحدثين الذين دونوا موضوعات الأمويين والعباسيين حول اسلامه ، ولم يدققوا في مصادر تلك المرويات وأسانيدها والظروف التي احاطت بكل من يتصل بعلي بن أبي طالب بسبب أو نسب في عصر معاوية والعصور الأخرى ويتعامون عن مواقف ابي طالب في سبيل الاسلام منذ ان بزغ فجره وعن شعره الصريح الذي لا يقبل التأويل لا لشيء الا لأن المغيرة وأمثاله ممن سخرهم الحاكمون للكذب والافتراء قد رووا لهم ان النبي (ص) قال عنه بأنه جمرة من جمرات جهنم ، وانه في ضحضاح من نار .

ولا اكاد اشك في ان التاريخ وكتب السيرة والحديث لو روت لأحد من

كبار شيوخ الصحابة ما رووه لأبي طالب من المواقف في نصرة الاسلام لوضعوه فوق مستوى الأنبياء .

والأغرب من ذلك كله ان اكثر السنة يدعون بأن الله سبحانه قد انزل في كتابه بعض الأيات التي تدل على انه مات مشركاً ، فمن ذلك قوله في سورة الأنعام ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون الا انفسهم وما يشعرون** ﴾ .

ورووا عن ابن عباس وغيره انها نزلت في أبي طالب حيث كان ينهى عن ايذاء النبي ويدافع عنه ومع ذلك فقد امتنع عن الدخول في الاسلام .

ويدعي جماعة منهم انها نزلت حينما ذهب ابو طالب الى القرشيين ولطخ وجوههم ولحاهم بالفرث والدم ، بعد ان ألقاهما ابن الزبعرى على رأس النبي (ص) باشارة من أبي جهل ومن معه من المشركين ، وذكر ذلك كل من الطبري في تفسيره والرازي والزمخشري والشوكاني والنسفي في تفسيره الموجود على هامش تفسير الخازن ، وغيرهم ولكنهم ذكروا ذلك قولاً ورجحوا انها نزلت في مشركي مكة الذين كانوا ينهون عن الاقرار والاعتراف برسالة النبي (ص) ويبتعدون عنه بما يدخلونه عليه من الأذى ، واعتبروا نزولها في أبي طالب قولاً شاذاً ومخالفاً لظاهر الآية وسياقها ، فقد سبقها قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا إلا أساطير الأولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون** ﴾ .

وهذه الايات صريحة في انها تعني المشركين الذين قالوا بأن كتابه من أساطير الأولين ونهوا عن الأخذ به وابتعدوا عن محمد (ص) واين ذلك من أبي طالب (ع) الذي يقول :

ايؤمنوا بكتاب منزل عجب   على نبي كموسى او كذي الرسل

وقوله :

الم تعلموا انا وجدنا محمداً رسولاً كموسى خط في أول الكتب

وقد روى الطبري في تفسيره نزولها في مشركي مكة وغيرهم عن كل من السدي وابن عباس وابن الحنفية وقتادة وأبي معاذ وغيرهم .

اما الرواية بأنهانزلت في أبي طالب فقد رواها الطبري من طريق سفيان الثوري عن حبيب بن ثابت عمن سمع من ابن عباس وسفيان الثوري وحبيب بن ثابت من المتهمين بالكذب والتدليس .

وجاء في تهذيب التهذيب وميزان الاعتدال انهما متهمان بالكذب والتدليس[1] ، على ان حبيب بن ثابت قد أرسلها عن ابن عباس ولم يذكر الراوي الذي رواها عنه ، والارسال في الحديث من عيوب الراوي والرواية كما نص على ذلك المؤلفون في علم دراية الحديث من السنة والشيعة .

ومن جملة الآيات التي تعلق بها انصار الأمويين والحاقدون على الطالبيين ، الآية ١١٣ من سورة التوبة ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم** ﴾ .

وقد روى نزولها في أبي طالب كل من البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي اليمان عن شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابيه انه قال : لما حضرت ابا طالب الوفاة جاءه رسول الله فوجد عنده ابا جهل وعبد الله بن أبي امية ، فقال : أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله فقال له ابو جهل وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٧٩ وميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٩٦ كما جاء في الغدير ج ٨ ص ٤ .

يزل رسول الله يعرضها عليه وهما يكرران مقالتهما عليه حتى قال ابو طالب على حد زعم الراوي على ملة عبد المطلب ، فقال النبي (ص) والله لاستغفرن لك ما لم انه عن ذلك ، فانزل الله عليه ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ﴾ الآية .

ويكفي هذه الرواية عيباً ان الراوي لها شعيب عن الزهري ، والظاهر انه شعيب بن ابي حمزة، واسمه دينار الأموي كما جاء في تهذيب التهذيب وهو من موالي بني امية وكان يكتب الحديث عن الزهري للأمويين ، وأضاف الى ذلك في تهذيب التهذيب ، انه كان كاتباً لهشام بن عبد الملك ، وهل ينتظر من شخص ينتسب الى الأمويين ويعيش في قصورهم ويتولى الكتابة لهم ان يروي في ابي طالب وآل أبي طالب غير ذلك والأمويون أنفسهم هم الذين كانوا يسخرون الرواة ويبذلون الأموال لوضع الأحاديث التي تسيء الى علي وأبيه وابنائه كما يبدو ذلك للمتتبع للتاريخ وكتب الحديث ، هذا بالاضافة الى ان الزهري نفسه كان من عملائهم المعروفين وكان يتولى تعليم أولادهم كما تنص على ذلك كتب التراجم والتاريخ .

وجاء في تهذيب التهذيب ان جميع احاديث الزهري الفا حديث ومائتا حديث نصفها غير مسند اي من المراسيل ومنها اكثر من مائتي حديث يرويها عن غير الثقاة ، وكان يحيى بن سعيد يقول عنه وعن قتادة انهما بمنزلة الريح قوم حفاظ كانوا اذا سمعوا بشيء علقوه[1]

اما سعيد بن المسيب الذي انفرد بنقل هذه الرواية ، فيدعي جماعة من المؤلفين في التراجم بأنه كان من المنحرفين عن علي بن أبي طالب[2] .

هذا بالاضافة الى ان الرواية المذكورة تنص على ان الآية نزلت حينما

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٥١ ، ج ٩ ، ص ٤٥١

(٢) انظر شرح النهج ج ١ ص ٣٧٠

قال النبي (ص) لعمه : لاستغفرن لك ما لم انه عن ذلك ، وقد قال له ذلك بمكة قبل الهجرة بسنتين او ثلاثة ، والآية من سورة التوبة وقد نزلت على النبي (ص) بعد ان فتح مكة في السنة الثامنة من هجرته وهي آخر ما نزل من القرآن ، على ان هناك روايات كثيرة اوردها محدثو السنة تتنافى مع هذه الرواية .

فقد جاء في الغدير للأمين ، ان الطيالسي وابن أبي شيبة واحمد والترمذي والنسائي وابا يعلي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الايمان عن علي (ع) انه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان ، فقال اولم يستغفر ابراهيم ، فذكرت ذلك للنبي (ص) فنزلت ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم** ﴾ .

وقال السيد زيني دحلان في اسنى المطالب : إنهذه الرواية من الصحاح وتعضدها رواية ثانية صحيحة عن ابن عباس انه قال : كانوا يستغفرون لآبائهم حتى نزلت هذه الآية فامسكوا عن الاستغفار لهم ، وأضاف الى ذلك وحيث كانت هذه الرواية اصح كان العمل بها ارجح ، فالأرجح ان الآية نزلت في استغفار اناس من المسلمين لآبائهم المشركين لا في أبي طالب .

وورد في مرويات السنة ان الآية نزلت حينما أراد النبي ان يستغفر لأبيه وامه .

وفي رواية الطبري في تفسيره ان الاستغفار في الآية هو الصلاة على الموتى .

وروي عن المثنى عن عطاء بن أبي رباح انه قال : ما كنت لادع الصلاة

على احد من أهل هذه القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا . لأني لم أسمع ان الله يحجب الصلاة إلا عن المشركين حيث يقول : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ .

الى غير ذلك من الاختلاف في الروايات ومضامينها وتضارب بعضها مع البعض الأخر في المضمون والدلالة ، مما يرجح نزول الآية في المسلمين الذين كانوا يستغفرون لأبائهم المشركين ويطلبون لهم الرحمة والرضوان ، وهي بعيدة عن أبي طالب سيد المسلمين بعد السماء عن الأرض .

ومن الآيات التي حاول الحاقدون على آل أبي طالب ان يتعلقوا بها الآية ٥٦ من سورة القصص .

﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ . وقد روي نزولها في ابي طالب وهو في ساعة الاحتضار عندما طلب منه النبي (ص) ان ينطق بالشهادتين فأبى عليه ، روى نزولها بهذه المناسبة شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، ورواه ايضاً ابو هريرة ، كما رواها ابو سهل السري بن سهل باسناده عن عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس ، وقد تحدثنا عن شعيب والزهري وابن المسيب في خلال حديثنا عن الآية السابقة .

واما ابو هريرة الذي رواها عن الرسول بدون واسطة وهو يناجي عمه مما يشعر بسماعها منه مباشرة في تلك الساعة ، في حين انه في ذلك التاريخ كان في ارض دوس يرعى فيها الغنم ومعه هرته يلاعبها ، ولم يدخل في الاسلام الا في اواخر السنة السابعة من هجرة النبي (ص) فهو في هذه الرواية اما مختلق للحديث من أساسه ، او مدلس قد سمعه من شخص اخر ورواه بهذا الشكل ليوهم السامع بأنه قد سمعه من النبي والتدليس من العيوب التي لا يصح التغاضي عنها .

واما ابو سهل السري بن سهل وعبد القدوس الدمشقي فهما من

الكذابين المعروفين بـين المحدثـين كما تنص عـلى ذلك مجـاميع اهـل السنة في احوال الرواة .

ومجمل القول فيها ان الآية لم تتعـرض لأبي طالب ولا لغيـره من الناس بعينه فهي عامة لكل الناس قريباً كان او بعيداً بقرينة وجود كلمة من الموجودة فيها فتفسيرهـا بأبي طـالب تصرف في كـلام الله بغير دليـل ، والروايـات التي اعتمدها السنة في المقام بدون تحقيق في اسانيـدها وبـدون محاكمـة لمتونها فقـد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية ، وبلا شـك لو انها واردة حـول اسلام أبي سفيـان لكان للسنة منها موقف آخـر ، واني اجد من الخـير ان اختم حديثي عن أبي طالب بالأبيات التالية :

ولـولا ابـو طـالـب وابنـه ... لما مثل الـدين شخصاً فقـاما

فـذاك بمكـة آوى وحـامى ... وهـذا بيثـرب جس الحمـامـا

ومـا ضـر مجـد ابي طـالـب ... جهـول لغـا او بصـير تعـامى

كـما لا يضـر آيـات الصبـاح ... من ظن ضـوء النهار الـظلاما

الفصل السّابع

خروج النبي الى الطائف

لما اشتدت قريش على رسول الله (ص) بعد وفاة عمه أبي طالب ونالت منه ما لم تكن تنالـه منه في حياته خرج رسول الله (ص) متخفياً في مكة ومعه علي بن ابي طالب ، وقيل ان زيد بن حارثة كان معهما .

ولما بلغ الطائف اتجه الى سادة ثقيف وهم اخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو واخوهما حبيب بن عمرو ، وكان عند احدهم امرأة من قريش من بني جمح ، فجلس عندهم ثم دعاهم الى الاسلام والى مناصرته في دعوته ، ولما انتهى من حديثه معهم قال له احدهم هو يمرط ثياب الكعبة ان كان الله ارسلك نبياً ، وقال الآخر : اما وجد الله احداً يرسله غيرك ، وقال الثالث والله لا أكلمك ابداً لئن كنت نبياً كما تقول لانت اعظم خطراً من ان ارد عليك الكلام ولئن كنت كاذباً على الله ما ينبغي لي ان اكلمك ، فقام رسول الله بعد ان يئس من خيرهم ، وقال لهم : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي وقد كره ان تسمع قريش بما جرى له معهم فيجرؤ ون عليه .

وظل في الطائف نحواً من عشرة ايام يتجول بين أحيائهم ويدعوهم الى

الاسلام فلم يسمعوا منه ، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم حتى اجتمع عليه الناس وقذفوه بالحجارة ، فالتجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه والدماء تسيل من ساقيه وعلي يدافع عنه حتى شج رأسه .

وقيل ان الذي اصيب في رأسه زيد بن حارثة ، فرجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف ، فجلس النبي (ص) في جانب من جوانب الحائط في ظل شجرة وابنا ربيعة ينظران اليه ، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وغلمانها ، فلما اطمأن في ظل الشجرة وقد انهكه الجهد والاذى من ثقيف وسفهائها قال : اللهم اني اشكو اليك ضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين الى من تكلني الى بعيد يتجهمني ، ام الى عدو ملكته امري ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي ، ولكن عافيتك هي اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من ان تنزل بي غضبك او يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

قال ذلك وابنا ربيعة ينظران اليه والكآبة بادية على وجهه ، وطال تحديقهما به واشفقا لحاله ولما لقيه من اولئك الذين كانوا يطاردونه حتى ادموا ساقيه ، وادموا من معه ، فتحركا اشفاقاً عليه ورحمة به وارسلا غلامهما عداس بقطف من عنب فوضعه بين يديه ، فمد اليه يده وقال بسم الله ، وجعل يأكل والغلام ينظر اليه مدهوشاً ويردد في نفسه ان هذا الكلام لا يقوله احد من هذه البلاد ، وظل واقفاً كالمدهوش واحس الرسول بشيء يتردد في نفسه ولكنه لا يستطيع ان يبوح به ، فقال له : من اي البلاد انت وما دينك ، فاجابه الغلام على الفور انا نصراني من اهل نينوى ، فقال له النبي (ص) من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

واستغرب عداس ان يكون هذا الغريب الطريد يعرف من احوال الامم الماضية والانبياء السابقين فقال للنبي : وما يدريك بيونس بن متى ، قال له : ذاك اخي انه نبي وانا نبي مثله ، فانكب عداس عليه يقبل رأسه

ويديه وقدميه وابنا ربيعة ينظران هذا المشهد كالمذهولين وقال احدهما للآخر لقد افسده محمد علينا .

ولما رجع اليهما قالا له : ويلك يا عداس ما الذي اعجبك بهذا الرجل حتى قبلت رأسه ويديه وقدميه احذر ان يصرفك عن دينك ، فإنه خير من دينه ، فقال لهما اني لا اعلم على وجه الأرض خيراً منه : لقد اخبرني عن امر لا يعلمه الا الأنبياء .

وجاء في كتب السيرة والتاريخ ان النبي (ص) لما وجد من الأذى في الطائف ما لم يكن يترقبه ، يئس من ثقيف وغيرها من سكان الطائف فاتجه الى مكة يجر رجليه الداميتين وهو يناشدهم ان يكتموا عليه ما كان منهم حتى لا تشمت به قريش وتمعن في ايذائه من جديد ، وفي طريقه نزل في مكان يدعى نخلة بين الطائفة ومكة ، فقام في جوف الليل يصلي ، فمر به نفر من الجن من اهل نصيبين في اليمن ، وكانوا سبعة كما جاء في رواية ابن اسحاق ، فجلسوا يستمعون لصلاته ودعائه والى شيء من القرآن ، فآمنوا به ورجعوا الى قومهم منذرين ومبشرين بنبوته ، وقد قص الله خبرهم فيما نزل من القرآن عليه حيث قال :

﴿ قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولم نشرك بربنا احداً ﴾ .

وقدم رسول الله مكة وكانت انباء رحلته الى الطائف قد سبقته الى مكة فاستعد اعداؤه فيها للقائه بالوان من الأذى لم يعرفها من قبل ، ولكنه قرر ان لا يبالي مهما كان الحال .

وجاء في رواية الطبري انه قبل ان يدخل مكة مر به بعض اهلها ، فقال له رسول الله هل انت مبلغ عني رسالة ارسلك بها قال نعم : قال ائت الأخنس بن شريق وقل له يقول لك محمد : هل انت مجيري حتى ابلغ رسالة ربي ، فأتاه وبلغه الرسالة فقال له الأخنس ان الحليف لا يجير على

الصريح ، فرجع الى النبي واخبره بمقالته .

فقال له النبي اتعود ، قال نعم : قال ائت سهيل بن عمرو وقل له ان محمداً يرغب ان يدخل في جوارك ليبلغ رسالته ، فرفض سهيل وقال : ان بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب ، واخيراً كلفه بأن يذهب الى المطعم بن عدي ويعرض عليه دخول محمد في جواره . فوافق المطعم على ذلك ، ودخل محمد مكة ولبس المطعم بن علي سلاحه ومعه بنوه وبنو اخيه ودخلوا المسجد ، فاستقبلهم ابو جهل وقال للمطعم : اجير ام تابع ، فقال بل مجير ، فقال ابو جهل قد اجرنا من اجرت .

ومضى النبي يتابع دعوته في جوار المطعم ، فجاء يوماً الى الكعبة والمشركون حولها ، فلما رآه ابو جهل ، قال متهكماً : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ، فقال عتبة بن ربيعة : اما تنكر ان يكون منا نبي او ملك ، وبلغ حديثهما النبي (ص) فأتاهم وقال لعتبة : اما انت يا عتبة فوالله ما حميت لله ولا لرسوله ، ولكن حميت لأنفك ، واما انت يا ابا جهل فوالله لا يأتي عليك كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً ، واما انتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير قليل من الدهر حتى تدخلوافيما تنكرون وانتم له كارهون .

ومضى رسول الله يعرض نفسه على القبائل ايام الموسم ويسألهم النصرة ويعرض عليهم الاسلام فيصغي اليه بعضهم ، ولكنه يخشى عدوان قريش فلا يستجيب له ويبتعد البعض الأخر فلا يلقاه .

وجاءفي سيرة ابن هشام وتاريخ ابن جرير عن الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب انه قال : سمعت ربيعة بن عياد يحدث ابي ويقول : اني لغلام شاب مع ابي بمنى ورسول الله (ص) يقف على منازل القبائل من العرب ويقول : يا بني فلان اني رسول الله اليكم يأمركم ان تتعبدوا اليه ولا تشركوا به شيئاً ، وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه

الانداد ، وان تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعـوني حتى ابين عن الله مـا بعثني به ، وكان ينتقل من منـزل الى منزل وهـو يدعـو الناس الى الايمـان بالله ، وخلفـه رجل احول له غديرتان وعليه حـلة عدنية ، فاذا فرغ رسـول الله (ص) من كـلامه قـال الرجـل : يا بني فـلان ان هذا الـرجل يـدعوكم الى ان تسلخـوا اللات والعزى من اعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني اقيش الى مـا جاء بـه من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له ، قـال فقلت : يا ابت من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقـول : قال هـذا عمه عبـد العزى ابـو لهب بن عبد المطلب .

وقد اتفق المؤرخون وكتاب السيرة ان ابا لهب كان قـد تفرغ لتكـذيب محمـد (ص) فلا يجلس النبي في مجلس يـدعو فيـه الى الاسلام الا ويجـد ابا لهب من خلفه يرد عليه ويحذر الناس منه ، بمقدار ما كان ابو طـالب متحمساً في نصرة الاسلام والدعوة اليه والدفـاع عنه كـان ابو لهب متحمسـاً للأصنـام والدفاع عنها وتحريض الناس على ابن اخيه محمد (ص) فكان هو وزوجته ام جميل بن حرب من طينة واحدة .

ويعـزو بعض المؤلفين حقـد ابي لهب على النبي (ص) واصـراره على تكذيبه ان امـه كانت خـزاعية وكـانت خزاعـة تحقد عـلى بني قصي وبني عبد مناف ، لانهم قهروا خزاعة وانتزعوا منها سلطتها على الكعبة ، وكان ابو لهب من عنصرين متضادين فهو من طرف الأب يمت الى عبد مناف ، ومن طـرف الأم الى خزاعة فورث صفات الأدنى من الابوين .

وامـا ام جميل التي لم تكن في حقـدها عـلى النبي وايذائهـا له بـأقل من زوجها وكانت تسميه مذحجـاً ولا تدع مجـالاً للنيل منـه والتحريض عليـه الا وتسرع اليه ولا ناراً للبغضاء والضغينة الا وتنفخ فيها من انفاسها الخبيثة التي تتقد بالحقد والضغينة فتزيدها اواراً واشتعالاً .

وقد شهدت في بيت ابيها ضروباً من المطل والغـدر ، فلم تعد تتعرف

على غيرهما وتعطلت فيها عاطفة الرحمة والحب ، ولما جاء وقت زواجها لم يكن لها من يضاهيها غير ابي لهب ، فلما التقيا ائتلفا وجعل كل واحد منهما يحث صاحبه على الشر وتسابقا اليه .

واستكبرت ام جميل حين بعث محمد (ص) ان تصبح النبوة في بيت جارتها خديجة ، كما استكبر ابو لهب ان تصبح الزعامة والنبوة في بيت اخيه عبد الله وكانا قد ظنا ان البيتين بيت ابي لهب وبيت محمد قد تساويا في الشرف والمال ، اما وقد حدثت النبوة ، فهذا ما لا يمكن لأم جميل ان تتحمله ولا لأبي لهب ان يصبر عليه ، وهو خليفة ابي أحيحة سعيد بن العاص في رعاية الأصنام وخدمتها . هذا ومحمد (ص) جادّ في امره ، بالرغم من كل ما جرى ويجري ، وما يصنعه ابو لهب من تكذيبه وملاحقته وتحريض الناس عليه .

اما الزوج فينتقل بين وفود الحجاج في ايام الموسم في اثر ابن اخيه محمد (ص) ويقول للناس : ان ابن اخي ساحر كذاب لا يغرنكم بسحره ، وام جميل في البيت وفي الشارع وحلقات النساء والرجال ترقص وتغني : مذمماً ابينا ودينه قلينا .

وهكذا شاءت الاقدار لهذين الزوجين ان ينزل بهما قران يتلى في كل يوم آلاف المرات وان لا تفارقهما اللعنة الى يوم الدين .

ومع كل تلك المواقف من عمه وزوجته وطواغيت قريش وسفهائها ، فقد مضى جاداً في الدعوة الى الله يتصل بالقبائل والوافدين يعرض عليهم الاسلام وتعاليمه ولا يبالي بما يقال ويسمع من قريش وغيرها .

فقد جاء في كتب السيرة انه قصد قبيلة كليب في منازلهم وتوجه الى فرع من فروعهم يقال لهم بنو عبد الله وقال لهم يا بني عبد الله ان الله عز وجل قد احسن اسم ابيكم وقد اخترتكم على من سواكم ، ثم عرض عليهم الاسلام فلم يقبلوا منه ، كما اتجه الى بني حنيفة فردوه رداً قبيحاً على حد تعبير ابن

هشام في سيرته وابن جرير في تاريخه .

وذهب الى حجاج بني عامر بن صعصعة وعرض عليهم الاسلام ومناصرته فقال له رجل منهم يدعى بحيرة بن فراس بن عبد الله بن سلمة ، والله لو اني اخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب .

ثم قال له : أرأيت ان نحن بايعناك على امرك ثم اظهرك الله على من خالفك ايكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال له النبي (ص) : الأمر الى الله يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفنستهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا فيك .

فلما رجع بنو عامر رجعوا الى شيخ لهم قد ادركته السن ، ولم يكن قادراً على ان يأتي معهم الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام الذي دعاهم محمد فيه الى الاسلام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب يزعم انه نبي ودعانا لأن نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف ، هل لذُناباها من مطلب[1] والذي نفسي بيده ما تقولها اسماعيل قط ، وانها لحق فأين رأيكم كان عنكم .

واستمر النبي لا يدع احداً من وجوه العرب في ايام الموسم الا وقصده وعرض عليه الاسلام ، ولما وفد الى مكة ابو الحيسر انس بن رافع ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، فلما سمع رسول الله بهم اتاهم وقال لهم : انا رسول الله بعثني الى العباد ادعوهم الى ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل علي الكتاب ، ثم مضى يقص عليهم من تعاليم الاسلام ويتلو عليهم القرآن ، فقال لهم اياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً : اي قوم ، هذا والله خير مما جئتم

---

(١) هذا مثل يضرب لما فات من الامر ، واصله من ذنابى الطائر اذا افلت من الشرك

له ، فأخذ انس بن رافع حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه اياس بن معاذ ، وقال دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت اياس ولم يرد عليه وقام رسول الله (ص) من بينهم وانصرفوا راجعين الى المدينة وكانت وقعة بغاث بين الاوس والخزرج كما جاء في سيرة ابن هشام وغيرها .

واضاف الى ذلك ابن هشام انه لم يلبث اياس بن معاذ ان هلك وهو يهلل لله ويكبره ويسبحه ، فلم يشكوا بانه مات مسلماً متأثراً بالمجلس الذي جمعه بالرسول (ص) .

وكان رسول الله (ص) قد تصدى لوفد من بني عمرو بن عوف فيهم سويد بن صامت وهو شريف في قومه يسمونه الكامل لجلده وشعره ونسبه ، فدعاه رسول الله الى الاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له النبي (ص) : وما الذي معك قال مجلة لقمان ، فقال له رسول الله (ص) اعرضها علي فعرضها عليه ، فقال ان هذا كلام حسن ، ولكن الذي معي احسن وافضل ان معي القران انزله الله علي هدى ونوراً للناس .

ثم تلا عليه رسول الله (ص) القران ودعاه الى الاسلام فلم يفر منه وقال ان هذا القول احسن مما معي ، وانصرف عن النبي (ص) ، ولم يلبث ان قتل في حرب كانت بين الأوس والخزرج .

دخول الاسلام الى المدينة وبيعة

العقبة الأولى

جاء في تاريخ اليعقوبي وغيره من كتب التاريخ والسيرة ان جماعة من بني عفراء قدموا مكة فالتقوا برسول الله (ص) فسألهم الى اي القبائل ينتسبون ، فقالوا له من الخزرج ، فقال لهم امن موالي يهود انتم قالوا نعم فجلس معهم وعرض عليهم الاسلام ودعاهم الى الله عز وجل وتلا عليهم شيئاً من القرآن ، وكان مما صنع الله لهم ان يهوداً كانوا معهم ببلادهم وهم من اهل الكتاب ، وبنو عفراء قوم مشركون ، فاذا وقع بينهم شر قال اليهود لهم : ان نبياً قد بعث الآن وقد اطل زمانه وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وارم ، فلما تكلم رسول الله مع اولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : انه والله النبي الذي كان اليهود يتوعدونكم به ، فلا يسبقنكم اليه ، فأجابوه فيما دعاهم اليه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الاسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم ، وعسى الله ان يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الى امرك والى الدين الذي اجبناك عليه ، ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين الى بلادهم وهم مؤمنون بكل ما دعاهم اليه وكانوا ستة انفار ، فلما قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم ما جرى بينهم وبين النبي ودعوهم الى الاسلام حتى فشا بينهم ولم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر لرسول الله .

فلما كان العام الثاني وفد من الأنصار على مكة اثنا عشر رجلاً فالتقوا النبي (ص) بالعقبة وهذا الاجتماع هو المعروف بالعقبة الأولى فبايعوا رسول الله على بيعة النساء على حد تعبير المؤلفين في السيرة ، وكان من بينهم عبادة بن الصامت .

وجاء عنه انه قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله وذلك قبل ان تفرض الحرب على ان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه بمعروف ، وبعث رسول الله معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف من بني عبد الدار بن قصي وامره ان يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين فوفد الى المدينة ونزل ضيفاً على سعد بن زرارة احد السابقين الى الاسلام من الأنصار .

وجاء في سيرة ابن اسحاق عن محمد بن عمرو بن حزم وغيره ان سعد بن زرارة اخرج مصعب بن عمير يريد دار بني عبد الاشهل ودار بني ظفر وكان يوم ذاك سعد بن معاذ واسيد بن حضير سيدي قومهما بني عبد الاشهل وهما مشركان ، فلما سمعا مقالة سعد بن زراره ومصعب بن عمير ، قال سعد بن معاذ لاسيد بن حضير : لا ابالك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد اتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما ، فإنه لولا ان سعد بن زرارة مني حيث علمت لكفيتك ذلك ، ولكن ما اصنع وهو ابن خالتي فاخذ اسيد بن حضير حربته ثم اقبل اليهما ، فلما رآه سعد بن زراره ، قال لمصعب : هذا سيد قومه فاصدق الله فيه ، فوقف عليهما متشتماً ، وقال اعتزلانا ان كانت لكما في انفسكما حاجة ، فقال له مصعب : او تجلس فتسمع فإن رضيت امراً قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره ، فقال له انصفت ، ثم ركز حربته وجلس اليهما فكلمه مصعب في الاسلام وقرأ عليه القرآن فقالا في وجهه الاسلام قبل ان يتكلم بشيء

ثم قال ما احسن هذا واجمله كيف تصنعون اذا اردتم ان تدخلوا في هذا الدين ، قالا له نغتسل ونتطهر ثم نشهد شهادة الحق ونصلي ركعتين ، فقام واغتسل وصنع ما اشارا به عليه ، ثم قام وقال : ان ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه احد من قومه وسأرسله اليكما الآن وهو سعد بن معاذ ، ثم اخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه جلوس في ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلاً ، قال احلف لكم بالله لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي ، قال له سعد ما فعلت ؟ قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا لا نفعل الا ما احببت ، وقد خرج بنو حارثة الى سعد بن زرارة ليقتلوه ، فقام سعد بن معاذ من مجلسه مغضباً خوفاً من بني حارثة على ابن خالته ، فأخذ الحربة من يد اسيد بن حضير ، وقال والله ما اراك اغنيت شيئاً ، ثم خرج اليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد ان اسيداً انما اراد منه ان يسمع منهما فوقف عليهما وقال سعد بن زرارة : يا ابا امامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره .

وكان سعد قد قال لمصعب بن عمير جاءك والله سيد ان يتبعك لم يخالف عليك اثنان ، فقال له مصعب : اوتقعد تسمع فإن رضيت امراً ورغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره ، فجلس سعد وعرض عليه مصعب بن عمير الاسلام وشيئاً من القرآن فأسلم ورجع الى قومه بني عبد الاشهل ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون امري فيكم ؟ قالوا سيدنا وافضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فاستجابوا اليه جميعاً ولم يبق في دور بني عبد الاشهل رجل ولا امرأة الا واسلم ، ورجع سعد بن معاذ ومصعب بن عمير الى منزل سعد بن زرارة ، أقاما عنده يدعوان الناس الى الاسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون الا بعض الفروع من الأوس والخزرج ينتمون الى أوس بن حارثة وفيهم شاعر

يدعى ابا قيس بن الأسلت كانوا يسمعون منه ويطيعونه فتوقفوا عن الإسلام الى ان هاجر النبي الى المدينة وكانت وقعت بدر واحد والخندق كما يدعي ابن جرير في تاريخه .

العقبة الثانية

لقد جاء في كتب السيرة والتاريخ ان مصعب بن عمير خرج في موسم الحج ومعه جماعة من المشركين والمسلمين لأداء مناسك الحج والاجتماع بالنبي (ص) ليعرضوا عليه اسلامهم ويتذاكروا في امر الدعوة ، وكان معهم البراء بن معرور وقد أسلم وارتأى ان يخالف المسلمين في صلاته ، فكانوا يتوجهون الى بيت المقدس ويتوجه هو الى جهة الكعبة ، واستمر على ذلك الى ان اجتمع بالرسول (ص) واخبره بما كان يصنع فأمره رسول الله ان يتوجه في صلاته حيث يتوجه المسلمون ، واجتمع الوفد بالرسول (ص) سراً وتواعدوا ان يجتمعوا بالعقبة في اواسط ايام التشريق ليلاً بعد ان ينام الناس حتى لا يعرف بهم احد فيفسد عليهم امرهم .

وجاء في رواية ابن اسحاق ان كعب بن مالك قال : خرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله (ص) بالعقبة من اواسط ايام التشريق ، فلما فرغنا من حجنا وجاءت الليلة التي واعدنا رسول الله فيها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حزام وكان من ساداتنا واشرافنا اخذناه معنا ونحن نكتم عمن معنا من المشركين فتكلمنا معه في الإسلام ودعوناه اليه واخبرناه باجتماعنا بالرسول فاسلم وحضر معنا بيعة العقبة ونمنا تلك الليلة حتى اذا مضى من الليل الثلث خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا حتى لا يحس بنا احد ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان لا غيرهما نسيبة بنت كعب ام عمارة احدى نساء بني مازن من بني النجار ، واسماء بنت عمرو بن عدي احدى نساء بني

سلمـه ، فاجتمعنـا في الشعب ننتـظر رسـول الله (ص) حتى جـاءنـا ومعـه العباس بن عبد المطلب وهو عـلى دين قريش ، ولكنـه لم يكن يوافقهم عـلى الوقيعة برسول الله والغدر به ، وقـد احب ان يرى مـوقفنا من النبي ويتـوثق منه ، فلما جلس النبي (ص) وجلسنا حوله كان العباس اول المتكلمين .

فقال يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قـد علمتم وقد منعنـاه من قومنا وانه ابى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون انكم وافون له بمـا دعوتمـوه اليه ومـانعوه ممن خـالفه فـأنتم وما تحملتم من ذلـك ، وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج بـه اليكم فمن الآن فدعـوه فإنـه في عز ومنعة من قومه وبلده .

ثم تكلم رســول الله فتـلا شيئـاً من القـرآن ودعـا الى الله ورغب في الاسـلام ، ثم قـال : ابـايعكم عـلى ان تمنعـوني ممـا تمنعـون منه نســاءكم وابناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قـال : والذي بعثـك بالحق نبيـاً لنمنعنك مما نمنع ازرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن ابنـاء الحروب واهـل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

وتكلم بعده ابو الهيثم بن التيهان ، فقال يا رسول الله ، ان بيننـا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوهـا يعني بذلـك اليهود ، فهـل عسيت إن نحن فعلنا ذلـك ثم اظهرك الله ان تـرجع الى قـومك وتـدعنا ، فتبسم رسـول الله ، ثم قال : الدم الـدم والهدم الهـدم[1] ، انا منكم وانتم مني احـارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم امـرهم رسول الله ان يختـاروا منهم اثني عشـر نقيباً ليمثلوا قـومهم ويكـونوا هم المسؤولـين عنهم تجاه رسـول الله ، فاختـاروا تسعة من الخـزرج وثلاثة من الاوس .

---

(١) قال ابن قتيبة كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمي دمك وهدمي هـدمك اي كل ما يجري عليكم يجري علي وذمتنا واحدة ودمنا واحد .

ولما اجتمعوا للبيعة بعد اختيار النقباء قال لهم العباس بن عباد بن نضلة الانصاري : يا معشر الخزرج هل تدرون على مَ تبايعون هذا الرجل ، قالوا نعم ، قال انكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون انكم اذا انهكت اموالكم مصيبة ، واشرافكم قتل اسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة ان فعلتم ، وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك ، قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده وبايعوه على ذلك وكان اول من ضرب على يد رسول الله سعد بن زرارة ، وقيل الهيثم بن التيهان ، وتتابع القوم يتسابقون الى بيعته بقلوب يغمرها الفرح والثقة ، وتمت البيعة وانصرف القوم الى رحالهم ومن معهم من المشركين لا يعلمون شيئاً من امرهم .

وتطاير الخبر الى مشركي مكة بما جرى للنبي مع الأوس والخزرج فاجتمع وجوه القرشيين واقبلوا الى الأنصار حيث ينزلون ، فقالوا يا معشر الخزرج لقد بلغنا انكم جئتم الى صاحبنا محمد لتخرجوه من بين اظهرنا وتبايعوه على حربنا ، وانه والله ما من حي من العرب ابغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينكم ، فأسرع جماعة من مشركي الأوس والخزرج ممن لم يكونوا قد علموا بشيء مما جرى وحلفوا لهم بالله إنه لم يكن مما يقولون شيء فصدقوا وانصرفوا .

ولما انتهى موسم الحج ورجع الأنصار ايقنت قريش بالأمر فخرج جماعة في طلبهم فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو من بني ساعدة بن كعب وهما من النقباء الاثني عشر ، ولكن المنذر استطاع ان يفلت من القوم واعجزهم امره ، واخذوا سعد بن عبادة فربطوا يديه الى عنقه وادخلوه مكة

مكتوفاً وهم ينهالون عليه بالضرب والشتم .

وحدث سعد فقال : والله اني في يد القوم اذ طلع علي نفر من قريش فيهم رجل وضيء ابيض ، فقلت في نفسي ان يكن عند احد من القوم خير فعسى ان يكون عند هذا ، فلما دنا مني لكمني لكمة شديدة بيده ومضى فيئست من خيرهم ؛ فوالله اني لفي ايديهم يسحبونني آوى الي رجل منهم ، وقال ويحك : اما بينك وبين احد من قريش جوار ولا عهد ، فقلت بلى والله لقد كنت اجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل تجارته وامنع من اراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن امية بن عبد شمس ، قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما من جوار ، فقلت ما اشار به علي وهتفت باسم الرجلين .

وخرج الرجل مسرعاً اليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : ان رجلاً من الخزرج يضرب بالابطح ويهتف باسمكما ويدعي ان بينه وبينكما جواراً ، قالا ومن هو : قال سعد بن عبادة قالا صدق والله ، انه كان يجير لنا تجارتنا ويمنع احداً ان يظلم التجار ببلده ، فأقبلا مسرعين وخلصاه من ايدي القرشيين وانطلق الى المدينة .

ولما رجع الوفد الى المدينة اظهروا الاسلام ودعوا اليه فأجابهم الكثير من الناس ، وكان عمرو بن الجموح ومعه شيوخ من الأوس والخزرج قد اصروا على شركهم ، وقد اسلم معاذ بن عمرو وبايع رسول الله في العقبة ولم يسلم أبوه واتخذ لنفسه صنماً في داره من خشب وسماه (مناة) كما كان الأشراف يصنعون .

وكان ولده يأتي كل يوم هو وفتيان من الأنصار الى الصنم فيطرحونه في مكان الجيف والأوساخ ، فإذا اصبح عمرو يقول ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ، ثم يأخذه ويغسله ويضع عليه الطيب ويرده الى مكانه في المحل الذي له من داره فإذا كانت الليلة الثانية عاد ولده مع الفتيان وصنعوا به مثل

ما كانوا يصنعون ، وتكرر منهم هذا العمل ، واخيراً جاء عمرو بن الجموح ووضع السيف في عنق الصنم ، وقال له : اذا كان فيك خير فامنع نفسك الليلة فهذا السيف في عنقك ، فلما امسى ونام جاؤ وا واخذوا منه السيف وربطوا به كلباً ميتاً والقوهما في بئر للجيف والأوساخ .

واصبح عمرو بن الجموح فلم يجد شيئاً ومضى يفتش عنه فوجده في البئر منكسراً مقروناً بكلب ميت ، فلما رآه رجع الى رشده وآمن بمحمد واله محمد وانشد يخاطب الصنم .

والله لو كنت إلهاً لم تكن   انت وكلب وسط بئر في قرن

الاسراء والمعراج

لقد اتفق المسلمون على ان النبي (ص) اسري به ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ومنه عرج الى السماء ليرى من مظاهر قدرة الله وعجائب مخلوقاته ما خفي على اهل الأرض وعجزت عنه عقولهم ومداركهم ، ونص القرآن الكريم على المرحلة الأولى من مراحل تلك الرحلة في الآية من سورة الإسراء :

﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو السميع العليم ﴾ .

واختلف المؤرخون والمحدثون في تاريخهما ، فقيل انهما كانا قبل موت أبي طالب ، وانه افتقده في الليلة التي أسري به فلم يجده فظن ان قريشاً تمكنت منه وأخفت اثره ، فأوعز الى بني هاشم ان يأخذ كل واحد منهم سيفه ويهاجم قريشاً ليثأر له منهم . وقبل تنفيذ الخطة مر بباب ابنته هند المعروفة بأم هانىء فوجده على بابها كما جاء في رواية اليعقوبي . وجاء فيها انه جمع

سبعين رجلاً من بني عبد المطلب ومعهم الشفار وامرهم ان يجلس كل واحد منهم الى رجل من قريش ، فاذا لم يجد محمداً فليقتل كل واحد رجلاً منهم ، فلما وجده اخبره بما جرى له فأتى به الى قريش واخبرهم بما كان من أمره .

وقيل انهما كانا في السنة الثانية عشرة من مبعثه بعد موت أبي طالب ، وقيل انهما كانا ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في السنة الثالثة عشرة من نبوته وقيل غير ذلك كما جاءفي تاريخ ابي الفداء وغيره من كتب السيرة والتاريخ . وكما اختلفوا في تاريخ وقوعهما اختلفوا في انهما كانا بالروح والجسد ، أو بالروح فقط ، او انهما رؤ يا صادقة ، وذهب فريق الى ان الإسراء كان بالجسد ، والمعراج كان بالروح لا غير .

واعتمد القائلون بأنهما كانا بالروح لا بالجسد فيما اعتمدوا عليه على رواية عائشة حيث جاء عنها انها قالت ما فقدت جسد رسول الله ليلة الإسراء ، كما رووه عن معاوية بن أبي سفيان أيضاً ، في حين ان اكثر الروايات تنص على انه كان ليلة الإسراء في بيت ام هانىء ، هذا بالاضافة الى انه من المتفق عليه تقريباً ان الإسراء والمعراج كانا قبل هجرته الى المدينة ، ومن المتفق عليه ان عائشة لم تنتقل الى بيته قبل السنة الثانية من هجرته ، لأنها لم تكن قبل ذاك قد بلغت تسعاً من عمرها .

ولقد تحدث الفلاسفة والعلماء وأكثروا حول الاسراء والمعراج ، وذهب جماعة منهم الى انهما كانا بالروح والجسد كما ذكرنا بحجة ان ذلك امر لا يحيله العقل ولم يخرج عن حدود الامكان ، وقد ثبت ان الرياح كانت تنقل سليمان الى الأماكن البعيدة في ساعات قليلة ، وكانت عندما تشتد تنتقل به الى حيث يريد في لحظات معدودات .

وقد نص القرآن الكريم على ان الذي عنده علم من الكتاب قد احضر عرش بلقيس من أقصى اليمن الى بلاد الشام بأقل من لمح البصر قال تعالى :

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك

فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ﴾ .

وأضاف الى ذلك الرازي في تفسيره انه كما يستبعد العقل صعود الجسم الكثيف من مركزه الى ما فوق العرش ، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش الى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج محمد (ص) في الليلة الواحدة ممتنعاً في العقول ، كان القول بنزول جبريل (ع) من العرش الى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعاً ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في نبوة محمد وجميع النبوات ، والمعراج متفرع على نبوته .

فإذا كان الاسراء والمعراج ممكنين ولا يحيلها العقل ، كما لا يحيل ان تكون سرعة البراق الذي امتطاه النبي (ص) بالغة حدود سرعة الضوء التي يقدرها العلماء بثلاثمائة الف كيلومتر في الثانية .

فإذا ثبت الامكان فمرحلة الوقوع لا تثبت بمجرد ذلك ، بل لا بد لها من دليل آخر ، وقد دل القرآن الكريم على وقوع ذلك في الاية السابقة وأكدته النصوص المتواترة عن النبي والأئمة (ع) وظاهر الآية والنصوص التي تعرضت لذلك انهما كانا بالجسد لا بالروح وحدها ، ولا بنحو الرؤيا ، كما يبدو من الذين اعتمدوا على رواية السيدة عائشة ومعاوية بن أبي سفيان ، ذلك لأن كلمة عبده التي وردت في آية الاسراء ، تعني بظاهرها الانسان بروحه وجسده .

وجميع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة اريد منها الانسان بمادته وصورته ، قال سبحانه في سورة العلق :

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى ﴾ ، وفي الاية من سورة الجن :

﴿ وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ الى غير ذلك مما ورد فيه هذا اللفظ . ومن القواعد المقررة ان كل ما دل عليه ظاهر اللفظ قرآناً كان ام حديثاً ام غيرهما ولم يتعارض مع دليل آخر اقوى منه ظهوراً ، او مع حكم العقل وجب الأخذ به ولا يجوز التصرف فيه لمجرد كونه غير

مألوف ، او غير داخل في حدود مقدرة الانسان .

على ان الاسراء والمعراج بالروح فقط ليس فيه ما يدعو الى الدهشة والاستغراب ، ذلك لأنه بمعنى اشراق الروح في حالة النوم على غير عالمها ليس باعجاز فريد من نوعه ليخبر به على انه آية من آيات نبوته لجواز ان يحدث ذلك مع كل انسان ، وان كان اصحاب هذا الرأي يعنون بأن الروح قد انفصلت عن الجسد وبقي جثة هامدة لا حياة فيها ، ثم عادت اليه الروح بعد رحلتها الى اعماق الفضاء تخترق الحجب والسموات السبع ، إذا كانوا يعنون ذلك فالعقل لا يرى ذلك اقرب الى الوقوع من القول بأنها كانت بهما معاً ، وان كان اصحاب هذا القول يردون ذلك الى القدرة الالهية فالقدرة الالهية كما تتسع للاسراء والمعراج بهذا المعنى تتسع لهما بالروح والجسد .

ومن أدلة القائلين بانها كانت رؤيا رآها النبي (ص) في منامه قوله تعالى :

﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس** ﴾ ، واجاب انصار الرأي الأول وغيرهم ان الرؤيا التي رآها النبي (ص) لا صلة لها بالمقام فقد رأى في نومه ان بني امية ينزون على منبره كالقردة فانتبه متألماً ، فأنزل الله عليه ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ ، كما يرى ذلك اكثر المفسرين والمؤرخين ، ورواه عمر بن الخطاب عن النبي (ص) ، وجاء في حديث عمر بن الخطاب انه قال : والله لقد سمعت رسول الله يقول : ليصعدن بنو أمية على منبري ، ولقد رأيتهم في منامي ، ينزون عليه نزو القردة ، وفيهم انزل الله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن** ﴾ .

وروى الزبير بن بكار عن المغيرة بن شعبة انه قال : قال لي عمر يوماً يا مغيرة هل أبصرت بعينك العوراء هذه منذ أصيبت . قلت : لا . قال اما والله ليعورن بنو امية الاسلام كما اعورت عينك هذه ثم ليعمينه حتى لا

يدري اين يذهب ولا أين يجيء[1] .

هذا بالاضافة الى ان كلمة الرؤ يا ليست ظاهرة في الرؤ يا في النوم ذلك انها كما تستعمل في هذا المعنى تستعمل في الرؤ يا الحسية ولعل هذا المعنى أظهر منها وعليه تحمل اذا لم يكن في الكلام ما يوجب صرفها الى الثاني ، فالآية لو قطعنا النظر عن مورد نزولها يمكن استعمال كلمة الرؤ يا فيها بكل من المعنيين كل على انفراده .

وعلى اي الأحوال فقد جاء في الكاشف عند الحديث عن الاسراء والمعراج ان محمد فتحي احمد نشر مقالاً في جريدة الجمهورية بعنوان المضمون العلمي للاسراء والمعراج جاء فيه :

لقد امتطى رسول الله راحلة يقال لها البراق ، وهي على ما جاء في الحديث دابة اكبر من الحمار واصغر من البغل ، وفي ذلك تلقين إلهي لنا بوجوب التعلق بالأسباب ، فلم يكن عزيزاً على ربنا ان ينقل رسوله من مكة الى القدس دون وسيلة من وسائل النقل بحيث يجد الرسول نفسه فجأة على ابواب المسجد الاقصى ، ولكنه جلت حكمته قضى بأن يجري كل شيء على قوانين لا تتغير ولا تتبدل ، وفي استخدام تلك الدابة في هذه الرحلة التي قطعت فيها المسافات البعيدة في سرعة مذهلة تحريض للعقول على النظر في ابتداع وسائل جديدة تقطع المسافات البعيدة في مدة وجيزة .

ومضى يقول : ثم نسأل الذين يعلمون ما هو اقصى حد لسرعة تجري في فضاء الله طبقاً لما انتهى اليه العلم ويأتينا الجواب بلا تردد بأنها سرعة الضوء وهي ثلاثمائة الف كيلومتر في الثانية الواحدة ، والبراق الذي امتطاه الرسول كان ينطلق بسرعة ضوئية ، لأن كلمة البراق مشتقة من البرق .

واستطرد يقول : من خلال المحاولات العلمية في دراسة الفضاء توصل

---

(١) انظر شرح النهج للمعتزلي ج ٣ ص ١١٥

الانسان الى معرفة كثير من الأسرار واستطاع سلطان العلم ان ينفذ من اقطار الأرض الى عجائب الملكوت ، ولكن العلم المادي وحده ينسي الانسان خالق الكون ، وحادث الاسراء والمعراج يعطينا درساً بأن المادة والروح متلازمتان ، فقد كان الرسول بعروجه الى الملأ الأعلى على هيئته بشراً من مادة الكون وقبساً من روح الخالق العظيم وكان جبريل يمثل الدليل الأمين[1] .

ومجمل القول ان الاسراء والمعراج آية من آيات الله على نبوة محمد (ص) التي حدثت بقدرة الله سبحانه ، وقدرته لا تحيط بها العقول ولا تحيط بها الأفهام والمعجز لا بد وان يكون فوق مستوى العلم والعقل .

واذا امكن ادراك حقيقته وكان بامكان العلم ان يتوصل الى اسراره يصبح داخلاً في امكانيات الانسان ، ومع ذلك لا يكون معجزاً ولا من دلائل النبوة ، وخلاصة البحث انه بعد ان نص القرآن على الإسراء ونص الحديث الصحيح عليهما معاً فالبحث في كيفيتهما وامكانهما وعدمه لا مبرر له .

وقد اشتملت كتب الحديث والسيرة التي تعرضت لوصف تلك الرحلة على امور لا تخلو من الحشو والمبالغة ولا يجب التصديق بكل ما جاء فيها ما لم يثبت بالنص الصحيح الصادر عن النبي (ص) او احد الأئمة الأطهار (ع) .

وجاء في كتب السيرة ان ام هانيء بنت ابي طالب قالت ان النبي (ص) صلى العشاء في بيتي ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أيقظنا ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال يا ام هانيء: لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، ثم جئت الى بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قام ليخرج ، فأخذت بطرف ردائه فتكشف عن بطنه ، فقلت له : يا نبي الله لا تحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك ، فقال والله لأحدثنهم ، فقلت لجارية لي حبشية : ويحك اتبعي محمداً حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له .

---

(١) انظر الكاشف ج ٥ ص ٩ وانظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ٤٩ وما بعدها .

فلما خرج رسول الله الى الناس تعجبوا وقالوا ما آية ذلك يا محمد ، فانا لم نسمع بمثل هذا قط ، قال آية ذلك اني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرهم حس الدابة وند لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت حتى اذا كنت بصجنان وهو جبل على بريد من مكة مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم اناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيته كما كان ، وآية ذلك ان عيرهم ينزل من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل اورق عليه غرارتان احداهما سوداء والأخرى بلقاء ، قالت فابتدر القوم الثنية فأول ما لقتهم الجمل كما وصفه لهم وسألوهم عن الاناء فأخبروهم انهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وانهم وجدوه مغطى ولا ماء فيه ، وسألوهم عن البعير الذي ند لهم فأخبروهم انهم فقدوا بعيراً وسمعوا صوت رجل يدعوهم اليه حتى اخذوه .

وقد روى البخاري في صحيحه حديث النبي مع قريش وما شاهده في ذهابه وإيابه بهذا النص الذي رويناه عن ام هانيء وجاريتها كما جاء في كتب السيرة ، كما رواه جماعة من محدثي الشيعة عن الامامين الباقر والصادق (ع) ، كما روى محدثو الشيعة عن الأئمة اخبار رحلته الى السماء وما شاهده فيها وحديث فرض الصلاة وتخفيفها الى ان استقرت على ما هي عليه وغير ذلك من المشاهدات ، ولكن جميع تلك المرويات التي وردت حول هذا الموضوع سواء كانت من طريق الشيعة ام السنة هي من نوع الأحاد التي لا يجب التدين بها ما لم تقترن بما يوجب الاطمئنان لصدورها .

اما المعراج والإسراء فهما حقيقتان واقعتان والتشكيك فيهما او انكارهما يوجب الخروج عن الإسلام عند اكثر المسلمين ، لأن انكارهما تكذيب للقران فيما يعود الى الإسراء ، وتكذيب للحديث المتواتر المعلوم الصدور عن النبي والأئمة بالنسبة الى المعراج

قال المجلسي في المجلد السادس من بحار الأنوار : واعلم ان عروجه

الى بيت المقـدس ثم منه الى السـماء في ليلة واحدة بجسده الشريف مما دلت عليه الآيات والأخبار المتواترة على طريق الخاصة والعامة ، وانكار امثـال ذلك او تأويلهما بالعروج الروحاني ، او كونهما رؤ يا رآهـا في النوم ينشـأ اما من قلة التتبـع في آثـار الأئمــة الأطهـار او من قلة التـــدين وضعف اليقــين او من تشكيكات المتفلسفين ، وأضاف الى ذلك ان الأخبـار الواردة في هـذا المطلب لا أظن ان مثلها ورد في شيء من أصول المذهب .

وقـد أورد المجلسي عشرات الأحـاديث عن الأئمـة وغيـرهم من كبـار الصحـابة والتـابعين عـلى وقوعهـما ، والتشكيك بعـد تواتـر الحـديث والنص القرآني لا مبرر له كما ذكرنا لأنـه لم يدع احـد من المسلمين وقـوعهما من النبي (ص) بامكانياته العلمية ، او بطاقاته البشرية ، بل كان منه ذلك بقـدرة الله سبحـانـه التي لا تحـدهـا العقـول ولا تحيط بهـا الأفهـام والمقـاييس العلميــة والفلسفية ، وإذا أردنا ان نستعمل هذا الأسلوب ونطبق المقاييس العلمية على الخـوارق التي وقعت على أيـدي الأنبياء كعصـا موسى التي صيـرها الله افعى تلتهم السحـرة والمشعوذين وانشقاق البحر ووقـوف الماء بشكـل عمودي حتى اصبح كل فرق كالطود العظيم ، وما صنعه عيسى من إحياء الموتى وغير ذلك مما نص عليه القرآن الكريم وبقية الكتب السماويـة مما لا يستـطيعه الانسـان مهما بلغ من العلم ، فيجب ان لا نقر منهـا شيئاً ، وبـالتالي فـإن ذلك يؤدي الى التشكيك في جميع النبوات والرسالات .

الفصْلُ الثامِن

الهجرة الى المدينة

لقد ضاق بمحمد (ص) امره بعد وفاة عمه ، واشتدت قريش في معارضته ، ولم يجد من القبائل التي عرض نفسه ودعوته عليها ة لل ان يتصل بوفد المدينة ميلاً ولا إقبالاً ، بل كان بعضهم يرد عليه رداً قبيحاً .

وكان عمه عبد العزى يتتبعه من مكان لآخر ، وهو يقول : لا يغرنكم هذا الساحر الكذاب فنحن اهله وأعلم الناس بحاله . ولكن ثقته بالنصر وبوعد الله كانت اقوى من قريش وخيلائها ومؤامراتها فصبر وتحدى قريشاً في صبره حتى يسر الله سبحانه لدينه انصاراً في غير بلدهم قد عاهدوه على ان يبذلوا في سبيله دماءهم وأموالهم ، وقد اصبحوا من الكثرة دعامة للاسلام وقوة ضاربة لكل من يحاول ان يقف في طريقهم الى الله ، وأصبح محمد واتباعه يخططون للخطوات الجديدة للانتقال الى يثرب حيث الاوس والخزرج على ميعاد معهم ، وفيهم تتاح لهم حرية القيام بفرائض الدين والدعوة اليه ، واحست قريش بهذا التطور الجديد والانطلاقة التي يسرت لأولئك المحصورين في شعاب مكة وهضابها ، احست بذلك وأدركته بعد رجوع الأوس والخزرج ، وأصبحت تخطط من جديد للقضاء على هذه الحركة الجديدة في مهدها قبل ان يستفحل خطرها في خارج مكة ويتحول ميزان القوة

لصالح محمد ، وأمعنت في التفكير بذلك ، وبدأ هو من جانبه يفكر ايضاً في الخروج من ذلك الحصار المضروب عليه وعلى اتباعه ، وماذا عليه ان يفعل ليتسنى له ان يستغل الموقف الذي تيسر له ، واتخذت المعركة بينهما شكلاً جديداً لم يكن بالأمس ، وأصبحت بينهما على أشد ما كانت عليه منذ ان بعثه الله سبحانه ، وكل منهما ينظر اليها كمعركة حياة أو موت ، ولكنه ما كان ليقطع امراً ويستبد فيه ما لم تتضح له ابعاده ونتائجه بواسطة الوحي الذي كان يأتيه بأمر الله بين الحين والآخر ، وفيما هو يفكر ويخطط وينتظر امر الله ، واذا بالوحي يأمره بترك مكة والهجرة الى يثرب حيث الأنصار والأعوان ويحل له القتال في سبيل الدعوة الى الله :

﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله * ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز * الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

بعد ذلك امر رسول الله اصحابه ان يلحقوا بالانصار في يثرب على ان يتركوا مكة متفرقين يتسللون ليلاً ونهاراً حتى لا يثيروا قريشاً فتقف في طريقهم ، وانطلقوا يتسللون منها كما امرهم النبي (ص) أفراداً وجماعات في جوف الليل وهدوئه ، واحست قريش بذلك فردت من استطاعت إرجاعه وفرقت بين الزوج وزوجته وأخذت تنكل بمن وقعوا في قبضتها بالضرب والاهانة ، ولكنها لم تقدم في تلك المرحلة على قتل احد ، لأن المهاجرين اكثرهم من القبائل المكية ، والقتل قد يثير حرباً اهلية في مكة تكون لصالح محمد في النهاية .

وجاء في سيرة ابن اسحاق كما روى عنها ابن كثير في تاريخه : ان سلمة بن عبد الله بن عمرو بن أبي سلمة روى عن جدته ام سلمة انها

قالت : لما اجمع ابو سلمة على الخروج الى المدينة رحّل لي بعيره وحملني عليه ومعي ابني سلمة في حجري ، ثم خرج يقود لي البعير ، فلما رأته رجال من بني المغيرة قاموا إليه ، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها ، اما صاحبتنا هذه فلا نتركك تسير بها في البلاد ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه .

وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط ابي سلمة ، فقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الاسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي ابو سلمة الى المدينة وفرق القوم بيني وبين زوجي وابني ، فكنت اخرج كل غداة فاجلس بالابطح فما أزال ابكي حتى امسي سنة او قريباً منها ، حتى مر بي رجل من بني عمي اخي بني المغيرة ورأى ما بي فرحمني وقال لبني المغيرة : ألا تنظرون لهذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ، فقالوا لي عند ذلك الحقي بزوجك ان شئت ، ورد بنو اسد عند ذلك ولدي لي فركبت بعيري واخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي احد من خلق الله ، حتى اذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة اخا بني عبد الدار ، فقال لي الى اين يا ابنة أبي أمية ، قلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أوما معك احد ؟ قلت : ما معي إلا الله وابني هذا ، فقال : والله ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير وانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط كان أكرم منه ، لقد كان اذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى اذا نزلت اخذ بعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجرة وتنحى الى شجرة ثانية واضطجع تحتها ، فإذا أردنا الرواح قام الى بعيري فقدمه ورحله ، ثم تأخر عني ، وقال اركبي ، فاذا ركبت واستويت على بعيري أقبل واخذ بخطامه وقادني حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك حتى اقدمني المدينة فلما نظر الى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لي : زوجك في هذه القرية وكان ابو سلمة نازلاً بها فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً الى مكة .

ومضت ام سلمة تقول : ما اعلم اهل بيت في الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رايت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة .

ويدعي المؤلفون في السيرة ان أول وافد على المدينة من المهاجرين بعد ابي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم من بني عدي بن كعب ، ومن بعده عبد الله بن جحش بن رئاب ومعه اخوه ابو احمد بن جحش وكان رجلاً ضرير البصر يطوف مكة اعلاها وأسفلها بدون قائد وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، وأصبحت دار بني جحش خالية من السكان ، فمر بها عتبة بن ربيعة وكان يتمشى هو والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل فنظر الى الدار وتنفس الصعداء ثم أنشد :

وكل دار وان طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب

والتفت ابو جهل للعباس وقال : ان ذلك من عمل ابن أخيك الذي فرق جماعتنا . ويدعي الطبري في تاريخه ان هجرة ابي سلمة الى المدينة كانت قبل بيعة العقبة الثانية بسنة ، بعد ان رجع من الحبشة وقد اذته قريش ، فلما بلغه ان في المدينة قوماً قد دخلوا في الاسلام هاجر إليها وهاجر من بعده عامر بن ربيعة وبنو جحش وتتابعت الهجرة .

وجاء في كتب السيرة ان صهيباً لمّا أراد ان يخرج قال له المشركون : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد ان تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك أبداً ، فقال لهم صهيب أرأيت ان جعلت لكم مالي اتخلون سبيلي قالوا : نعم فترك لهم ماله فلما بلغ رسول الله ما فعل صهيب قال ربح صهيب .

وأخذ المسلمون يتوافدون الى المدينة أفواجاً ممن آذته قريش وأزعجته وضيقت عليه ، ومن فاته دخل المدينة واستقبله الأنصار بالترحاب .

ولما لم يبق في مكة الا نفر يسير من المستضعفين ومعهم النبي (ص) وعلي وابو بكر بن أبي قحافة ، وكان ابو بكر كلما أراد ان يخرج يشير عليه النبي (ص) بالبقاء كما في كتب السيرة والتاريخ ، وشعرت قريش بأن الدعوة قد انتقلت من مكة ، واتخذت مكاناً لها فيه انصار يفتدونها بأموالهم وانفسهم ، وقدرت بأن محمداً بين عشية وضحاها سيلتحق بأصحابه وستكون له الغلبة عليهم ان عاجلاً او آجلاً ان هو خرج من بينهم والتحق بأصحابه فما عليهم اذن ، وهو لا يزال في قبضتهم ، إلا ان يتخذوا بحقه قراراً نهائياً حاسماً قبل فوات الأوان ، فاجتمع طواغيتهم في دار الندوة ليتخذوا القرار المناسب بشأنه .

وجاء عن ابن عباس رحمه الله انهم لما اجتمعوا في دار الندوة في اليوم الذي تواعدوا فيه قال بعضهم : ان هذا الرجل قد كان من امره ما كان وما قد رأيتم وإنا والله لا نأمنه من الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فقيدوه بالحديد وضعوه في بيت وأغلقوه عليه حتى يأتيه الموت .

ورأى شخص آخر ان يطرد من مكة وتنفض قريش يدها منه ، فاستبعد الحاضرون هذين الرأيين ولم يتفقوا عليهما ، وارتأى ابو جهل بن هشام ان تختار كل قبيلة فتى من فتيانها الأشداء ويعطى كل واحد منهم سيفاً ماضياً ويعمدون اليه بأجمعهم فيضربونه ضربة واحدة ، فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ، ولم يعد باستطاعة احد من بني هاشم ان يطلب بدمه ، فيختارون ديته على القتال ، فاستحسن الجميع هذا الرأي ، وبالفعل اتفقوا على الفتية وعلى الليلة التي يتم فيها تنفيذ المؤامرة وقد أشار القرآن الكريم الى هذا التدبير بالآية كما يدعي اكثر المفسرين :

﴿ واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك ، او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

والمراد من مكر الله الذي ورد في الآية ، هو ان الله قد فوت عليهم

هذا التدبير فأخبر به رسوله وامره بالخروج ليلاً ، وان يأمر علياً (ع) بالمبيت على فراشه وان يتشح ببرده الحضرمي ليفوت عليهم تدبيرهم .

وهنا تبدأ قصة من أروع ما عرفه تاريخ الفداء والتضحية ، فالشجعان والأبطال يثبتون في المعارك في وجه أعدائهم يدافعون بما لديهم من سلاح وعتاد مع أنصارهم وأعوانهم ، وقد تضطرهم المعارك الى ان يثبتوا في مقابل العدو منفردين . أما أن يخرج الانسان الى الموت طائعاً مطمئناً بدون سلاح ولا عتاد وكأنه خرج ليعانق غادة حسناء فينام على فراش تحف به المخاطر والأهوال اعزل من كل شيء إلا من إيمانه وثقته بربه وحرصه على سلامة القائد كما حدث لعلي (ع) حينما عرض عليه ابن عمه محمد (ص) امر المبيت على فراشه ليتمكن هو من الفرار والتخلص من مؤامرة قريش فهذا ما لم يحدث في تاريخ البطولات ، وما لم يعرف من احد في تاريخ المغامرات في سبيل المبدأ والعقيدة . لقد اخبر الرسول ابن عمه علياً(ع) الذي آخى بينه وبينه حينما آخى بين المهاجرين قبيل هجرتهم الى يثرب ، لقد اخبره بما اتفقت عليه قريش من اغتياله ليلاً وهو في فراشه ، فبكى علي (ع) خوفاً على الرسول ، ولما امره بالمبيت على فراشه اجابه على الفور او تسلم يا رسول الله ان فديتك بنفسي كما جاء في بعض الروايات ، قال له الرسول : نعم بذلك وعدني ربي ! فرحب علي (ع) بالأمر وتبدل حزنه فرحاً وسروراً وتقدم الى فراش الرسول مطمئن النفس واتشح ببرده الحضرمي الذي كان يتشح به ، واحاط القوم بالدار وهم من خيرة فتيان قريش الأشداء ، وجعلوا ينظرون الى المكان الذي اعتاد النبي ان ينام فيه فرأوا على فراشه رجلاً قد التحف ببردته وهم لا يشكون انه محمد بن عبد الله ، فلما كان الثلث الأخير من الليل وكان قد اختبأ في مكان من الدار خرج من خوخة في ظهرها وانطلق جنوباً الى غار ثور وكمن فيه .

وجاء في رواية ابن هشام في سيرته والطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته ان رسول الله (ص) خرج من باب الدار وانسل من بينهم وهم

ينتظرون ظلمة الليل لينفذوا خطتهم ، وكان يقرأ : ﴿ **وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ ، واخذ حفنة من التراب وجعل ينثرها على رؤوسهم وهم لا يشعرون ، ولما حان الوقت هجموا عليه الدار فثار علي في وجوههم فانهزموا منه ، ثم سألوه عن النبي فقال : لا أدري اين ذهب .

وجاء في بعض المرويات انهم كانوا يقذفون فراش النبي بالحجارة وعلي (ع) ساكن لا يتحرك ولا يبالي بما يصيبه من الاذى في سبيل سلامة محمد (ص) ، فلما هجموا عليه بسيوفهم وفي مقدمتهم خالد بن الوليد وثب علي (ع) من فراشه فهمز بيده ، فجعل خالد بن الوليد يقمز امامه قمزاً فأخذ منه السيف وشد عليهم فاجفلوا امامه اجفال الغنم وخرجوا من الدار فامعنوا النظر اليه فاذا هو علي (ع) .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩ ان الله سبحانه في تلك الليلة التي بات فيها علي (ع) على فراش النبي اوحى الى ملكين من ملائكته المقربين وهما جبريل وميكائيل اني قضيت على احدهما بالموت فايكما يفدي صاحبه فاختار كلاً منهما الحياة ، فأوحى إليهما هلا كنتما كعلي بن أبي طالب لقد آخيت بينه وبين محمد وجعلت عمر احدهما اطول من الآخر فاختار علي الموت وآثر محمداً بالحياة ونام في مضجعه ، اهبطا فاحفظاه من عدوه فهبطا يحرسانه في تلك الليلة وهو لا يعلم ، وجبريل يقول : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب من مثلك يباهي به الله ملائكة سبع سموات[1] .

وعلى اي الاحوال ، ان مبيت علي (ع) على فراش الرسول ليقيه بنفسه ويفديه بروحه وان كان من أروع ما عرفه تاريخ البطولات والتضحيات

---

(١) انظر ص ٢٩ من المجلد الثاني تاريخ اليعقوبي واسد الغابة لابن الاثير ج ٤ ص ٢٥ والشبلنجي في نور الابصار ص ٧٧ والمناوي في كنوز الحقائق ص ٣١ والغزالي في احياء العلوم كما جاء في فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣١٠ .

في سبيل الحق والعقيدة والمبدأ ، ولكن المتتبع لتاريخ ابي طالب وولده علي (ع) خلال ثلاثة عشر عاماً منذ بعثه الله نبياً الى اليوم الذي بات فيه علي على فراشه ، ان المتتبع في تاريخهما لا يجد ذلك غريباً على علي (ع) وأبيه ، فلقد كان ابو طالب زعيم قريش والامر الناهي فيها ، فضحى بكل شيء ووقف وحده يقابل قريشاً ويخاصمها ليسلم محمد وتسلم رسالته ، ووطن نفسه على الموت جوعاً خلال ثلاث سنوات وهو محصور في شعبه مع الهاشميين لا يجدون اكثر الاحيان غير نبات الأرض وورق الأشجار طعاماً لهم ، وعرض نفسه وأولاده لأشد الاخطار في سبيل محمد ، وهو يردد :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم   حتى اوسد في التراب دفينا

ولم يكن مبيت علي على فراش الرسول ليلة الهجرة بالمرة الأولى ، فلقد كان يوم حصرتهم قريش وحالت بينهم وبين جميع الناس وكانت يوم ذاك تفكر في اغتيال محمد وتحاول ان تدس بعض سفهائها لتنفيذ تلك الفكرة ، واحس بها ابو طالب ، فأمر بني هاشم بحراسة الشعب ليلاً ونهاراً لئلا يتسلل إليه احد ، فاذا جاء الليل كان يأمر محمداً ان ينام على فراشه في وقت مبكر من الليل لكي يراه الجميع اين ينام ، فاذا نام الناس وهدأت الانفاس اجلسه ونقله الى فراش آخر بعيد عن فراشه الأول واضجع احد ابنائه في مكانه ، كما جاء في رواية ابن كثير .

وفي شرح النهج من رواية الامالي لأبي جعفر محمد بن حبيب انه كان يقيم محمداً من فراشه يوم كان محصوراً في الشعب ويضجع ابنه علياً مكانه كما ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب عند الحديث عن الحصار الذي ضربته قريش على ابي طالب ومن معه من الهاشميين .

ان من يستعرض تاريخ ابي طالب وولده علي (ع) ومواقفهما الحازمة في نصرة الرسول والاسلام لا يستطيع كما اعتقد ان يفصل موقفاً على موقف

فجميع مواقفهما تأتي في القمة بين مواقف الابطال والمناضلين في سبيل الله وخير الانسانية .

والذي يدعو الى الدهشة والى الاستغراب ان الذين كتبوا التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية واحصوا الحوادث التي رافقت سيرة الرسول لم يغفلوا عن شيء من تلك الحوادث، ومع ذلك فقد كانت نتيجة ابي طالب عند القدامى والمحدثين الذين يزعمون انهم قد كتبوا بروح مجردة عن الرواسب والعقد الكريهة يذهبون الى ان أبا طالب مات مشركاً ويحاولون باساليبهم الملتوية ان يجعلوا التجاء ابي بكر الى الرسول في الغار ومسيرته معه الى يثرب فضيلة لا تثبت في مقابلها مواقف ابي طالب ولا مبيت ولده على فراشه ليلة الهجرة وغيرهما يوم كان محصوراً في الشعب وإقدامه على الموت ليسلم الرسول وبالتالي لتعم دعوته شبه الجزيرة وما وراءها من العالم ، في حين ان الله قد انزل فيه بهذه المناسبة قوله في سورة البقرة :

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾
كما نص على ذلك الرازي في تفسيره وأضاف ان جبريل قال له : بخ بخ من مثلك يباهي به الله ملائكته .

في حين ان ابا بكر حين التجأ مع الرسول الى الغار كان الرسول يطمئنه ويمنيه السلامة بواسطة الوحي ومع ذلك فلقد كان يبكي ويرتعش من الخوف وكاد ان يفقد وعيه ، والنبي يقول له : لا تحزن ان الله معنا اقول ذلك مع تقديري لمكانة ابي بكر وصحبته المبكرة للرسول (ص) .

ولا بد لي وانا اكتب عن سيرة الرسول (ص) ان اسرد القصة ولو بنحو الاجمال معتمداً في ذلك على اوثق المصادر في السيرة والتاريخ .

فلقد جاء في كتب السيرة ان رسول الله امر ابا بكر وهند بن أبي هالة ربيب رسول الله (ص) من زوجته خديجة رضوان الله عليها ان يقعدا له في مكان حدده لهما في طريقه الى الغار ، ولبث مع علي يوصيه بالصبر ولما خرج

في ظلمة العشاء من بيته والقوم محيطون به او من بيت آخر كما جاء في رواية ثانية انه مضى في طريقه حتى اتى ابا بكر وهنداً فنهضا معه ودخل هو وأبو بكر الى الغار ، وهو غار يقع في جبل خارج مكة ، ويعرف بغار ثور نسبة لثور بن عبد مناة لأنه ولد عنده، ورجع هند متخفياً الى مكة ، وجدّت قريش في طلب محمد (ص) ووضعت عليه العيون والجوائز الكبار لمن ادركه فقتله او رده الى مكة ، أو أرشدهم الى مكانه .

ولما دخل هو وابو بكر الغار قضت مشيئة الله سبحانه بأن تنسج العنكبوت على بابه وان تلتجىء الى باب الغار حمامتان بريتان .

ومضت قريش جادة في طلبه ومعها اهل الخبرة بالقيافة وتتبع الأثر ، فمضى هؤلاء يتتبعون اثره الى ان بلغوا الغار ، فانقطع الأثر عنهم ، فنظروا الى الغار فرأوا العنكبوت قد غطت بابه بنسيجها ونظروا الى الحمامتين في جانب من جوانب بابه فقال بعضهم لبعض ان عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، هذا وابو بكر عندما يسمع كلامهم ويحس وقع أقدامهم يرتعد من الخوف والحزن ، والنبي (ص) يطمئنه ويمنيه السلامة .

وفي الليلة الثانية جاء علي (ع) وهند بن أبي هالة فدخلا عليهما الغار وامر رسول الله هنداً ان يبتاع له ولصاحبه أبي بكر بعيرين فقال له ابو بكر : قد اعددت لي ولك يا رسول الله بعيرين ، فقال رسول الله : اني لا آخذهما ولا احدهما إلا بالثمن ، قال فهما لك بذلك ، وأمر علياً فأقبضه الثمن[1] .

وجاء في سيرة ابن هشام ان النبي (ص) قال له اني لا اركب بعيراً ليس لي ، فأخذه بالثمن الذي ابتاعه به .

وجاء عن ابن ابي رافع ، ان سائلاً سأله ، أكان رسول الله يجد ما ينفقه ليدفع الثمن لأبي بكر ، فقال له : اين يذهب بك عن مال خديجة ،

---

(١) اعيان الشيعة عن امالي الشيخ ابي جعفر الطوسي

ولقد كان رسول الله يفك من مالها الغارم ويحمل العاجز ويعطي في النائبة وينفق على فقراء اصحابه ، ويحمل من أراد منهم الهجرة .

ثم انه أوصى علياً بحفظ ذمته وأداء أمانته ، وامره بأن يقيم منادياً بالأبطح غدوة وعشية ينادي : الا من كانت له قبل محمد أمانة فليأت لتؤدى إليه امانته ، وأوصاه ان يقدم عليه مع ابنته فاطمة وغيرها من النسوة اذا فرغ من اداء المهمات التي كلفه بها .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق انه لم يعلم بخروج النبي الا علي وابو بكر وان علياً كان مكلفاً بأداء الأمانات والودائع التي كانت عند رسول الله .

وجاء في تاريخ ابن جرير ان ابا بكر لم يكن يعلم بخروج النبي ، ولما افتقده جاء الى علي (ع) وسأله عنه فأخبره انه في غار ثور وقال له : اذا كانت لك إليه حاجة فالحق به فخرج مسرعاً فلحق بالنبي في الطريق قبل ان يدخل الغار ولما احس بحركته رسول الله قبل ان يتأكده اسرع في مشيته مخافة ان يكون عيناً لقريش فانقطع نعله وأصاب ابهامه حجر ففلقه وسال دمه وأخيراً ادركه ابو بكر ودخلا معاً الى الغار .

ويدعي ابن كثير في تاريخه انه كان وهو يسير مع النبي (ص) الى الغار مرة يسرع فيمشي امامه ، واخرى يتأخر فيمشي خلفه ، ولما سأله النبي عن سبب هذا القلق في سيره اجابه اني مرة أخاف عليك الرصد فأمشي امامك ، ومرة اخاف ان يدركك الطلب فأمشي خلفك لأقيك بنفسي .

والرواية من المراسيل كما يدعي ابن كثير ، ولو صحت فمن الجائز القريب ان يكون مصدر هذا القلق في سير ابي بكر هو ان الخوف الذي كان قد استولى عليه جعله تارة يسرع خوفاً من طلب قريش ، فاذا فات النبي وابتعد عنه يخاف ان يكون الطلب قد اصبح امامه فيرجع ليسير خلف النبي حتى اذا التقى النبي بأحد يكون الفرار أيسر عليه ، فلم يدعه الخوف الشديد

الذي كان يرتعد منه ان يسير سيراً منتظماً، اما انه كان يصنع ذلك ليفتدي محمداً بنفسه فيما لو ادركه الطلب ، أو تلقاه الرصد ، فلم يحدث التاريخ عنه بأنه كان من ذوي البطولات والتضحيات الجسام في سبيل محمد (ص) وقصة الغار واضطرابه الشديد وهو مع النبي يطمئنه ويخفف من جزعه واضطرابه خلال المدة التي قضاها مع النبي (ص) في الغار تشهد بذلك .

وجاء في كتب السيرة انهما اقاما في الشعب ثلاثة ايام وخلالها قد استأجرا دليلاً ليقطع بهما المسافة الى يثرب على غير الطريق العام مخافة ان يدركهما طلب قريش ، وكان الدليل عبد الله بن اريقط الليثي وهو لا يزال على شركه ، ولكن النبي (ص) قد وثق به وامن من غدره ، فلما حان موعد خروجهما من الغار اتاهما الدليل ببعيريهما واتتهما اسماء بنت ابي بكر بطعامهما في جراب ونسيت ان تجعل له عصاماً ، فلما أرادا أن يرتحلا ذهبت لتعلق السفرة فاذا ليس فيها عصام فحلت نطاقها فجعلت منه عصاماً للسفرة وذهبت بالباقي فسميت ذات النطاقين . ثم ارتحلا ومعهما غلام لأبي بكر يدعى عامر بن فهيرة أردفه ابو بكر خلفه ، واخذ بهم الدليل على طريق الساحل .

وجدت قريش في طلب النبي (ص) وجعلت لمن قتله او اسره مائة ناقة ومروا في طريقهم على خيمة ام معبد الخزاعية وكانت تقري الضيف فسألوها تمراً او لحماً يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً ، فقالت والله لو كان عندنا شيء ما اعوزكم القرى ، فنظر رسول الله الى شاة في جانب الخيمة وقال : ما هذه الشاة يا ام معبد ؟ قالت : هي شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال لها النبي : هل بها من لبن ؟ قالت : هي اجهد من ذلك ، فقال : أتأذنين لي ان احلبها ؟ فقالت : نعم فداك ابي وامي ان رأيت بها حلباً ، فدعا رسول الله (ص) بالشاة فمسح ضرعها بيده وذكر اسم الله ، ثم قال . بارك الله في شأنها فدرت من ساعتها فدعا بإناء فحلب فيه فسقاها وسقى اصحابه حتى رويت ورووا وشرب هو احدهم ، ثم قال :

وساقي القوم آخرهم شراباً .

ثم حلب في الانـاء حتى امتلأ وتـركه لهـا وارتحـل ، ومـا لبث ان جـاء زوجها ابو معبد يسوق اعنزاً حيلا عجافاً هـزلاً ، فلما رأى اللبن تعجب وقال من أين لكم هذا والشاة عازبة ولا حلوبة في البيت ، قالت لا والله : إلا انـه مر بنا رجل مبارك وقصت عليه قصته ، فقـال والله اني لأظنه صـاحب قريش الذي يطلب ، صفيه لي ، قالت : رأيت رجـلاً ظاهـر الوضـاء منبلج الوجـه حسن الخلق ، لم تعيـه ثلجـة ، ولم تـزر بـه صلعـة ، وسيم قسيم في عينيـه دعج ، وفي اشفاره وطف ، وفي صـوته صحـل ، احور اكحـل ، ازج أقرن شديد سواد الشعر ، في لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الـوقار واذا تكلم سـما وعلاه البهاء ، حلو المنطق لا نزر ولا هذر ، ومضت تعدد صفاته في حـديث طويل لا يعنينا منه اكثر من ذلك ، ولما انتهت من وصفه قـال لها ابـو معبد : والله هـذا صـاحب قـريش ، ولـو وافقتـه يـا ام معبـد لالتمست ان اصحبـه ولأفعلن اذا وجدت الى ذلك سبيـلاً ، وأخيراً هـاجرت ام معبـد وزوجها الى يثرب وأسلمت .

وجاء في طبقات ابن سعد ان النبي (ص) بينما هو في طريقه الى يثرب عرض له سراقة بن مالك بن خثعم وهو على فرس له فـدعا عليـه رسول الله فـرسخت قوائم فـرسه في الأرض ، فقـال يا محمـد ادع الله ان يطلق فـرسي وارجع عنك وأرد مَنْ ورائي فدعا لـه النبي فانـطلق الفرس ، فـرجع ووجـد النـاس يلتمسون رسـول الله فقال لهم ارجعـوا فقد استبـرأت لكم خبـره فلم اجد له أثراً ، فرجعـوا وتابـع ركب النبي (ص) طريقهم يقطعون السهـول والجبال والأودية ، ويتحملون من حر الهاجـرة ورمال الصحـراء وجهد السـير خلال سبعة ايـام من رحلتهم قطعـوا بها القسم الأكبـر من المسافـة بين مكـة والمدينة واصبحوا في امان من خطر قريش ، فلما انتهوا الى قبيلة بني سهم جاء شيخها بريدة لكي يحيي النبي (ص) وكان الخبر قد سبقه الى المدينة .

وخرج ابو ذر في قبيلتي غفار وأسلم للقاء النبي (ص) ، فلما دنا منه الركب اسرع الى ناقة النبي واخذ بزمامها وهو يكاد يطير فرحاً بلقائه ، فأخبره ان غفاراً قد اسلم اكثرها ، واجتمع عليه بنو غفار ، فقالوا له : يا رسول الله : ان أبا ذر قد علمنا ما علمته فأسلمنا وشهدنا انك رسول الله ، وأسرع المتخلفون منهم الى الاسلام وبايعوا النبي وأعلنوا اسلامهم ، ثم تقدمت اسلم فقالوا انا قد اسلمنا ودخلنا فيما دخل فيه اخواننا وحلفاؤنا فأشرق وجه النبي سروراً بنصر الله ، ثم قال غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله .

واستأنف طريقه ، فلما قارب المدينة ، قال من يدلنا على الطريق الى بني عمرو بن عوف ، فمشى امامه جماعة فلما بلغ منازلهم نزل فيهم بقباء لإحدى عشرة او لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وأراد ابو بكر منه ان يدخل المدينة فأصر على بقائه في قباء، فقال ما أنا بداخلها حتى يقدم ابن عمي وابنتي يعني بذلك علياً وفاطمة (ع) وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار في المدينة يغدون كل يوم الى حر العصبة يتحينون قدومه ، فاذا علت الشمس عادوا الى منازلهم ، فلما كان يوم قدومه رآه يهودي فسمع الصوت في بني عمر بن عوف والتكبير واستقبله نحو من خمسمائة منهم فمال بهم الى قباء .

ثم كتب رسول الله منها الى علي (ع) كما جاء في بعض الأخبار ، فلما اتاه كتاب النبي (ص) ابتاع ركائب لمن معه من النسوة وتهيأ للخروج وامر من كان قد بقي في مكة من ضعفاء المؤمنين ان يتسللوا ليلاً الى ذي طوى ، وخرج علي (ع) بالفواطم وهن فاطمة بنت رسول الله وامه فاطمة بنت اسد بن هاشم ، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ، وفاطمة بنت حمزة كما نص على ذلك بعض المؤرخين ، وتبعتهم ام ايمن مولى رسول الله وابو واقد الليثي فجعل ابو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً ، فقال له علي (ع) ارفق بالنسوة يا أبا واقد ، ثم جعل علي (ع) يسوق بهن ويقول :

ليس الا الله فارفع ظنكا   يكفيك رب الناس ما اهمكا

فلما قارب ضجنان ادركه الطلب ، وكانوا ثمانية فرسان ملثمين معهم مولى لحرب بن امية اسمه جناح ، فقال علي (ع) لأيمن وأبي واقد انتحيا الابل واعقلاها وتقدم وانزل النسوة واستقبل القوم بسيفه ، فقالوا اظننت يا غدار انك ناج بالنسوة ارجع لا ابا لك ، قال (ع) فإن لم أفعل : قالوا لترجعن راغماً ودنوا من المطايا ليثوروها فحال علي بينهم وبينها فاهوى له جناح فراغ عن ضربته وضرب جناحاً على عاتقه فقده نصفين حتى دخل السيف الى كتف فرسه وشد على اصحابه وهو على قدميه شدة ضيغم وهو يقول :

خلوا سبيل الجاهد المجاهد   آليت لا أعبد غير الواحد

فتفرق القوم عنه ، وقالوا احبس نفسك عنا يا ابن ابي طالب ، فقال لهم : اني منطلق الى اخي وابن عمي رسول الله (ص) فمن سره ان أفري لحمه واريق دمه فليدن مني .

ثم أقبل علي (ع) على ايمن وأبي واقد وقال لهما أطلقا مطاياكما وسار بها ظافراً قاهراً حتى نزل ضجنان فلبث بها يومه وليلته ولحق به نفر من المستضعفين وبات ليلته تلك هو والفواطم طوراً يصلون وطوراً يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم حتى طلع الفجر فلما صلوا صلاة الفجر سار بهم حتى قدموا المدينة وقد نزل الوحي على النبي (ص) بما كان من شأنهم بقوله تعالى كما جاء في بعض المرويات :

﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ ﴿فاستجاب لهم ربهم اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً

من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ [1]

وجاء في السيرة الحلبية ان علياً لما توجه بالفواطم الى المدينة كان يسير الليل ويكمن النهار حتى تفطرت قدماه فلما بلغها اعتنقه النبي (ع) وبكى رحمة لما به ، ثم تفل في يديه وأمرّهما على قدمي علي (ع) ، فلم يشكُ منهما بعد ذلك .

وحدث في اسد الغابة ج ٤ ص ١٩ بعد ان حكى قصة مبيته على فراش الرسول ثم قال : ان علياً خرج بالنسوة يمشي الليل ويكمن النهار حتى قدم المدينة فلما بلغ النبي (ص) قدومه ، قال ادعوا لي علياً فقيل له : يا رسول الله انه لا يستطيع ان يمشي ، فأتاه النبي فلما رآه اعتنقه وبكى رحمة لما به ، وكانت قدماه تقطران دماً فتفل النبي في يديه ومسح بهما رجليه ودعا له بالعافية ، فلم يعد يشتكي منهما حتى استشهد .

وجاء في مستدرك الصحيحين عن الامام زين العابدين (ع) انه قال : أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله علي بن أبي طالب وكان يقول :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصا ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إله خاف ان يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الاله من المكر
وبات رسول الله في الغار آمناً ... مُوقًّى وفي حفظ الاله وفي ستر
وبت اراعيهم ولم يتهموني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

وجاء عن المناوي في كنوز الحقائق ص ٣١ ان الله تعالى يباهي بعلي كل يوم الملائكة [2] .

---

(١) انظر اعيان الشيعة جزء ٢ ص ٦٤

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١٢

وفي المجلد الأول من الطبقات لابن سعد ان الرسول (ص) أقام في قباء الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف فصلاها عندهم ومعه مائة من المسلمين ، وقيل انه اقام عند بني عمرو بن عوف اربع عشرة ليلة ، وبعد صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف دعا براحلته فركبها والتف حوله المسلمون وهم مدججون بالسلاح عن يمينه وشماله وكان لا يمر بحي من احياء الأنصار الا ويتعلقون به ويقولون انزل على الرحب والسعة يا نبي الله الى القوة والمنعة والثروة ، فيدعو لهم بالخير ويقول دعوا الراحلة فانها مأمورة ، وما زالت تسير به ، وكلما مر بحي اخذوا بزمامها وألحوا على النزول بينهم وهو يرفض ذلك الى ان انتهت الى حيث مسجده الآن بركت الراحلة عنده .

وجاء خالد بن زيد بن كليب المعروف بأبي ايوب الانصاري فحط رحله وأدخله منزله فقال رسول الله : المرء مع رحله ، وجاء اسعد بن زرارة فاخذ بزمام ناقة رسول الله وأدخلها داره ، وقال زيد بن ثابت : وأول هدية دخلت رسول الله في منزل ابي ايوب قصعة مثرودة فيها خبز وسمن ولبن ، فقلت ارسلت بهذه القصعة امي يا رسول الله ، فقال : بارك الله فيك وفي امك ، ودعا أصحابه فأكلوا ، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ، وما كان من ليلة من الليالي الا وعلى باب رسول الله (ص) الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون ذلك حتى تحول رسول الله من منزل ابي ايوب ، وكان مقامه فيه سبعة اشهر .

وسأل عن المربد ، وهو محل بجوار أبي أيوب فأخبره معاذ بن عفراء بأنه لغلامين يتيمين من بني النجار في حجري يقال لأحدهما سهل ، وللآخر سهيل ابني عمر بن عباد بن ثعلبة بن غنم بن مالك ، وقال له معاذ : اني سأرضيهما من مالي ، وكان فيه نخل وقبور من قبور الجاهلية ، فقطع النخل ونبش القبور وبنى فيه المسجد ، وكان يصلي قبل بنائه حيث ادركته الصلاة ، ويعمل هو والمهاجرون والأنصار في بنائه وكان بعضهم يرتجز ويقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وجاء في سيرة ابن هشام ان علياً (ع) كان يرتجز ويقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه عمار بن ياسر وجعل يرتجز بها ، فلما اكثر ظن رجل من أصحاب رسول الله انه انما يعرض به ، فقال له : لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ، والله اني لأراني سأعرض هذا العصا لأنفك ، وكان في يده عصا ، وأضاف ابن هشام الى ذلك ان ابن اسحاق سمى ذلك الرجل الذي ظن ان عماراً يعرض به ونص في التعليقة على سيرة ابن هشام المجلد الأول على ان الرجل الذي سماه ابن اسحاق هو عثمان بن عفان ، والحوار كان بينه وبين عمار رضوان الله عليه .

وبلا شك فإن الرجل هو عثمان ولو كان ابن مظعون كما يدعي بعضهم او غيره من سائر المسلمين لم يتردد احد في التصريح باسمه ونسبه ، ولما سمع رسول الله مقالة عثمان بن عفان لعمار غضب وقال : ما لهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ان عمارا جلدة ما بين عيني وانفي .

وقد أشار الرسول (ص) في حديثه هذا إلى ما سيجري لعمار على عهد معاوية وعثمان ومواقفه من الظلم والجور اللذين اشتدا في عهد الخلافة الأموية ، وقد ذكرنا فيما مضى لمحة عن حياة عمار ومواقفه المشرفة مع الحق واهله خلال الفصل الذي تحدثنا فيه عن اسلام عمار وتعذيبه في سبيل الله .

وروى المؤلفون في السيرة عن أبي أيوب الأنصاري انه قال : كنا نصنع العشاء لرسول الله (ص) وهو عندنا فاذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم ايوب موضع يده فأكلنا فضله نبتغي بذلك البركة ، وان ليلة بعثنا له بعشائه ووضعنا فيه بصلا او ثوما فرده ولم نر ليده فيه اثرا فجئته فزعا وقلت : يا

رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم ار فيه موضع يدك، فقال : لقد وجـدت فيه ريـح هذه الشجـرة وانا رجـل أناجي فـأما انتم فكلوه ، قال : فأكلنا ، ولم نصنع له طعاماً فيه الثوم والبصل فيما بعد .

وأقـام رسول الله (ص) عنـد أبي أيوب من ربيـع الأول الى صفر من السنة الثانية حيث اتم بناء المسجد ومنازلـه ، فانتقـل اليها مـع زوجته زمعـة بنت الاسود وكانت اول امرأة تزوجها بعد خديجة رضـوان الله عليها ، وقيـل انه اقام عند أبي أيوب سبعة أشهر كما ذكرنا من قبل ، وتم اسلام اهل المحلة التي نزل فيها إلا بعض الأحياء من الأوس كما جاء في سيرة ابن هشام .

وفي تاريخ ابن كثير ان رسول الله لما بنى المسجد كـان يشترك معهم في العمل كأحدهم ، وقال : ابنوه عريشاً كعريش موسى، قال الـراوي : فقلت للحسن ما عريش موسى ؟ قال : كان موسى اذا رفع يده بلغ العـريش يعني بذلك السقف ، ثم بعد مدة جمع الأنصار مالاً وأرادوا ان يدخلوا عليه بعض الإصـلاحات ويـرفعوا جـدرانه ، وقـالوا يـا رسـول الله : ابنِ هـذا المسجـد وزينه ، الى متى نصلي تحت هذا الجريد ؟ فرفض وقال : مالي رغبة عن اخي موسى ، وأضاف ابن كثير في تاريخه ان مسجد النبي (ص) كـانت سواريـه عـلى عهد رسـول الله (ص) من جـذوع النخـل ، وأعـلاه مـظلل بجـريـد النخل ، ثم طرأ عليه الخراب في خلافة ابي بكر فبناه بجذوع النخل وجريده كما كان في عهـد رسول الله (ص) وبقي المسجـد على هـذه الحال الى عهـد عثمان بن عفان فبناه بالأحجار المنقوشة وزاد فيه زيادة كبيرة .

ويـدعي ابن كثير انـه بقي على حـالته التي بنـاه عليها عثمـان الى عهد عمر بن عبد العزيز ، فأمر واليـه على المـدينة الـوليد بن عبـد الملك فزاد فيـه وأدخـل فيه الحجـرة التي دفن فيها النبي والشيخـان ، ثم ادخلت عليه بعض الـزيادات فيـما بعد من جهـة القبلة واستـطرد يصف المـرحلة الأولى من بنـاء المسجـد التي أتمها النبي (ص) ويصف عمـاراً وحماسـه واقبالـه على العمـل ونقل الادوات التي بني بها المسجد ، وقال ان غيره كان يحمل لبنة واحدة وهو

يحمل لبنتين ، فقال لرسول الله : انهم يحملون علي ما لا يحملون .

ويروى عن ام سلمة انها قالت : رأيت رسول الله ينفض وفرته بيده وكان رجلاً جعداً ويقول : ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك انما تقتلك الفئة الباغية ، وأضاف في رواية اخرى انه قال له : لهم اجر ولك اجران وآخر زادك من الدنيا شربة من لبن وتقتلك الفئة الباغية[1] .

وفي رواية اخرى انه قال له : انك تدعوهم الى الجنة ويدعونك الى النار . وأضاف الى ذلك ابن كثير بعد ان عرض تلك المرويات . أضاف ان ذلك من دلائل نبوته حيث قتله اهل الشام في صفين وهو مع علي وأهل العراق ، ولكنه قال : فإن اهل الشام وان كانوا بغاة وعلي على الحق وأحق بالخلافة من معاوية ، الا انهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من قتل عمار وقتال علي ، وليس كل مجتهد مصيباً ، وللمصيب اجران وللمخطىء اجر واحد .

وهذه الأحاديث التي نقلها ابن كثير نقلها اكثر المؤرخين وكتاب السيرة الذين وصفوا بناء المسجد في الأيام الأولى لدخول النبي الى المدينة ، وتكاد ان تكون متفقا عليها ، ومع ان ابن كثير قد اعترف بها بنصها الذي ذكرناه واعترف بأن اهل الشام وعلى رأسهم معاوية كانوا بغاة لقتلهم عمار بن ياسر وقتالهم لعلي ، وان عمارا كان يدعوهم الى الجنة ويدعوه معاوية وحزبه الى النار ، ومع ذلك يقول بأنهم كانوا مجتهدين ، ولهم اجرهم حيث اخطأوا الحق في قتالهم لعلي وقتلهم لعمار [illegible] .

والغريب في الأمر ان يحسبون [illegible] على دعوتهم تلك ، وإذا كانوا مأجورين في قتلهم لعمار ، فكيف صح من النبي (ص) ان

---

(1) [illegible]

يصفهم بالبغاة ويجعلهم من الدعاة الى النار ، في حين ان القرآن الكريم قد انذر البغاة والدعاة الى النار بالخزي والعذاب الشديد ، كما روى السنة في مجاميعهم احاديث كثيرة تنذر بسوء مصير من خالف الإمام الشرعي الذي اجتمع عليه الناس مهما كان المخالف .

فقد جاء في صحيح مسلم ج ٦ ص ٢٢ و ٢٥ ان النبي (ص) قال : ستكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق هذه الأمة وأمرها جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان ، وفي رواية اخرى فاقتلوه وروى مسلم في صحيحه انه (ص) قال من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه .

ورواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في سننه ، وصاحب تيسير الوصول ج ٢ ص ٣٥ والمحلى ج ٩ ص ٣٦٠[١] .

وجاء عن النبي (ص) كما في البخاري باب السمع والطاعة للامام ، انه قال : ليس احد يفارق الجماعة فيموت الا مات ميتة جاهلية ، وجاء عنه (ص) ايضاً من بايع اماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعمه ان استطاع ، فإن جاء احد ينازعه فاضربوا عنق الآخر ، وروى البخاري عن طريق معاوية نفسه من فارق الجماعة ولو شبراً دخل النار[٢] ، الى كثير من أمثال هذه المرويات المشحونة بها صحاح اهل السنة ومجاميعهم ، ونحن وان كنا نشك فيها ونعلم بأنها وضعت لغاية خاصة الا انا نطالبهم بالمنطق الذي التزموا به وحاربوا غيرهم فيه .

انهم يؤكدون خلافة علي وصحتها وان معاوية قد بغى عليه وعلى عمار ويسلمون بصدور الحديث عن النبي (ص) الذي ينص على ان عماراً تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، ويعترفون بأن النبي قال :

---

(١) انظر الغدير : ج ١٠ ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢) انظر الغدير ص ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٥ ج ١ .

من فارق الجماعة وخرج على الإمام الشرعي يجب قتله وهو من أهل النار ، ومع ذلك يقول ابن كثير وغيره من أهل السنة ان معاوية مجتهد له الأجر والثواب في قتاله لعلي الامام الشرعي وقتله لعمار الداعية الى الجنة ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . ولما تم بناء المسجد امر رسول الله ان يصنعوا له منبراً فصنعوه له فخطبهم عليه وكانت اول خطبة خطبها بينهم كما جاء في كتب السيرة قال فيها بعد ان حمد الله وأثنى عليه : ايها الناس قدموا لأنفسكم والله ليصعقن احدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحميه دونه ، ألم يأتك رسولي فيبلغك ، واتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع ان يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشرة امثالها الى سبعمائة ضعف .

وفي خطبته الثانية كان اوسع من الخطبة الأولى ، فلقد دعاهم فيها الى التوحيد والتمسك بالقران والى الالفة والمحبة وجهاد انفسهم والصدق في الحديث ، والتمسك بما عاهدوا الله عليه وغير ذلك مما تقتضيه ظروفهم ومصلحتهم ، وهكذا كان في خطبه المتتالية يخطو بهم خطوة خطوة نحو تعاليم الإسلام وأهدافه حسبما تقتضيه المصلحة .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لقد سبق من النبي (ص) ان آخى بين اصحابه من في مكة قبل هجرتهم الى المدينة ثم جاء في السيرة الحلبية ، فقد آخى بين ابي بكر وعمر ، وآخى بين الحمزة وزيد بن حارثة ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن

عفان ، وبين الزبير بن العوام وابن مسعود ، وهكذا وترك علياً (ع) فقال له : اما ترضى يا علي ان أكون أخاك قال : بلى يا رسول الله ، قال فأنت اخي في الدنيا والآخرة ، وأنكر بعضهم هذه المؤاخاة لا سيما مؤاخاة النبي (ص) لعلي (ع) ، ولعل السبب في انكار من انكر هذه المؤاخاة هو انه (ص) قد اختار علياً لنفسه وخصه بهذه المنزلة الرفيعة ، بينما ترك غيره وواساه بسائر الناس .

ولكن انكار المنكرين لها لا يثير الشك حولها بعد ان كان حديث المؤاخاة يكاد ان يكون اشبه بالأحاديث المتواترة .

وقد تعرض الأستاذ الغزالي في كتابه فقه السيرة الى المؤاخاة ، ورجح انه آخى بينه وبين علي (ع) ، ولكنه اراد ان يثير الشك حول حديث مؤاخاته لعلي (ع) فقال : بعد ان ذكر حديث مؤاخاة النبي (ص) لعلي ، قال ومن العلماء من يشك في اخوة الرسول مع علي (ع) ، ولكن ما صح ان رسول الله جعل علياً منه بمنزلة هارون من موسى يؤيد هذه الرواية وهذا لا يخدش من منزلة ابي بكر ومكانته في الاسلام .

وقد شق على الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المعلق على الطبعة السادسة من فقه السيرة شق عليه ان يمر بحديث المؤاخاة من غير ان يبدي ما في نفسه على الشيعة ويصف رواتهم ومحدثيهم بالكذب ، لينتهي من ذلك الى ان حديث المؤاخاة لعلي لم يثبت إلا من طريق بعض رواة الشيعة وهو حكيم بن جبير او جميع بن عمير وعيبهما الوحيد انهما متهمان بالتشيع فقد نقل الألباني في معرض التعليق على مؤاخاة النبي لعلي ، ان حكيم بن جبير ضعيف مرمي بالتشيع ، وجميع بن عمير رافضي يضع الحديث ، وأضاف الى ذلك عن ابن حبان ان عميراً كان من أكذب الناس[1] .

---

(١) انظر ص ١٩٥ من فقه السيرة للغزالي .

ويكفي عند اكثر محدثي السنة وعلمائهم ليوصف الحديث بالكذب او الضعف أن يكون راويه متهماً بالتشيع لعلي وأبنائه، وإذا كان الشيعي يفضل علياً على الخلفاء الثلاثة ، او يذهب الى احقيته بالخلافة بعد الرسول فهو رافضي خبيث كذاب على حد تعبير اكثر محدثيهم .

وبلا شك لو ان النبي (ص) قد آخى بينه وبين عثمان او أبي بكر ، وحتى لو جاءت الرواية بأنه آخى بينه وبين أبي سفيان لمر عليها الألباني بدون تعليق او تشكيك حتى ولو كان الراوي لها شيعياً رافضياً وخبيثاً .

ولكن مشكلة احاديث المؤاخاة انها تركت ابا بكر وعمر كسائر الناس وربطت بين علي ومحمد بن عبد الله (ص) ، ولا يستطيع الالباني وغيره من الحاقدين ان يتحملوا هذه الميزة لعلي (ع) ، هذا مع العلم بأن المؤاخاة رواها جميع المؤلفين في السيرة النبوية كابن اسحاق وابن هشام والحلبي وابن دحلان وغيرهم ، ومن المؤرخين الطبري وابن الأثير وابن كثير واليعقوبي وأبو الفداء ، كما رواها من المحدثين الترمذي في صحيحه جلد ٢ ص ٢٩٩ بسنده عن ابن عمر ، فقد قال : آخى رسول الله بين اصحابه فجاء علي (ع) تدمع عيناه فقال يا رسول الله آخيت بين اصحابك ولم تؤاخ بيني وبين احد ، فقال له النبي : انت أخي في الدنيا والآخرة ، ورواه الحاكم في المجلد ٣ ص ١٤[١] ، والمناوي في كنوز الحقائق وابن ماجة في صحيحه ص ١٢ عن عباد بن عبد الله عن علي (ع) ، وجاء فيما رواه عنه عباد انه قال : انا عبد الله وأخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي الا كذاب . كما رواه النسائي في خصائصه ج ٣ ص ١٨ ، والمتقي في كنز العمال ج ٩ ص ٣٩٤ كما رواه السيوطي في تفسير قوله تعالى :

---

(١) الظاهر ان رواية المستدرك التي [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ثم سنتعرض لذلك

﴿ ان الـذين آمنوا وهـاجروا وجـاهدوا بـأمـوالهم وأنفسهم في سبيـل الله ﴾ .

ورواه البيهقي والعقيـلي وسعيد بن منصـور وابن عساكـر الى غير ذلـك من عشرات المحدثين والرواة الذين ذكروا احـاديث المؤاخاة عمن رواهـا من الصحابة وغيـرهم ، ولم يتردد بهـا سوى الالبـاني وابن تيمية ونفـر غيرهمـا ممن أعماهم التعصب عن رؤ ية الحق .

وعلى اي الأحوال فما جاء في طبقات ابن سعد وغيرها وبنى عليه السيد الأمـين في أعيـان الشيعـة من ان الأخـوة التي عقـدهـا النبي بـين اصحـابـه المهـاجرين وبينهم وبـين الأنصار كـانت تقتضي تـرتيب جميـع الآثـار الثـابتـة للأخوين حتى التوارث دون الأقرب اليه من بنيه وآله ، وظلت على ذلـك الى ان جاءت الآية الناسخة لهذا الحكم وهي قوله تعالى :

﴿وأولي الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله﴾ هذا الشيء ، لم يثبت وليس له مصدر موثوق به ، وكل ما تهدف اليه قصة المؤاخاة هو تمتين الروابط بين المسلمـين وتـأكيـدهـا بتلك الأخـوة التي جعلهـا النبي (ص) بينهم في مكـة والمدينة .

ومجمل القول إن النبي (ص) لقد آخى بين المسلمين بعد هجـرته الى المدينة بين مهاجر وانصاري وربط بينهم برباط الايمان والاسلام واعتبـره اوثق من رابطة العرق والدم والتحالف وأكد بتلك الأخوة وحدة الهدف والغاية فيما بينهم بحيث لا يحبون ولا يكرهون ولا يرضون ولا يغضبون الا لله وفي سبيـل الله ، وأراد من كـل فـرد ان ينـظر لـلآخـر كـما ينـظر لأخيـه النسبي فيحس باحساسه وآلامه وأفراحه ويشاركه في السراء والضراء .

وبلا شك فإن لهذا التآخي بين المهاجرين والأنصار مغزاه الدقيق الذي

---

(١) انظر فضائل الخمسة ج / ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٢ .

يدل على بعد نظر النبي (ص) وعمق تفكيره ، فالمهاجرون قد نزلوا ضيوفا على قوم لا يرتبطون بهم بأي من الروابط التي كانت تشد العرب بعضهم لبعض والأوس والخزرج سكان المدينة بينهم حروب وثارات قديمة وكانت المعارك تنشب فيها بينهم بين الحين والاخر ولو لكلمة عابرة او تصرف طائش من احد الفريقين والاسلام مقبل على تحرك سريع وجهود شاقة تتطلب قبل اي شيء آخر تناسي الأحقاد وتراص الصفوف ووحدة الهدف والغاية .

هذا بالاضافة الى ان الوافدين الى المدينة قد تركوا كل شيء وراءهم في مكة وأكثرهم كانوا لا يملكون قوت يومهم ، فتركت تلك المؤاخات إحساساً في نفوس الأنصار بالمسؤولية تجاه اخوانهم الوافدين ، فاثروهم على نفوسهم ووفروا لهم وسائل العمل المنتج ، وأصبح الكثير منهم في بضع سنوات معدودات في مصاف غيرهم من سكان المدينة الأثرياء .

وجاء في سيرة ابن هشام انه (ص) آخى بين ابي بكر وخارجة بن زهير من الخزرج وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك اخي بني سالم بن عوف ، وبين عامر بن عبد الله المعروف بابي عبيدة بن الجراح وبين سعد بن معاذ ، وبين عبد الرحمن بن عوف الذي اصبح بعد ذلك من اثرياء المدينة بعد ان كان لا يملك قوته اخى بينه وبين سعد بن الربيع من الخزرج ، وبين الزبير بن العوام وسلامة بن وقش من بني عبد الأشهل ، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت من بني النجار ، وبين طلحة بن عبد الله وكعب بن مالك من بني النجار وترك علياً لم يؤاخ بينه وبين احد ، فأخذ بيده وقال له : انت اخي في الدنيا والاخرة ، وأضاف الى ذلك ابن هشام انه كان رسول الله سيد المرسلين وإمام المتقين وعلي بن ابي طالب اخوين .

وروى جماعة من المحدثين انه قال له : انت اخي في الدنيا والآخرة لا يقولها غيرك الا كاذب وتمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وأصبح

كـل مسلم انصاري يحس بحقـوق الاخوة نحـو اخيه المهـاجر ويؤاسيـه حتى بقـوتـه الضروري وذابت الـروابط التي كـانت تشـد النـاس بعضهم لبعض وحلت مكانها تلك الأخوة اخوة الاسلام والحقـوق والمصير المشترك ، ولعبت تلك الأخـوة دورها في الانتصـارات التي حققهـا الاسـلام في بضـع سنـوات معـدودات ، ولما بـدأت تلك الروح الإسـلامية تضعف في نفـوس المسلمـين بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الاسـلامية حتى انتهى الاسـلام الى ما هـو عليه اليوم من الانهيار واصبحوا عبيداً لغيرهم بعـد ان كانـوا السادة الأعـزاء في جميع بقاع الأرض .

الأذان والاقامة

لقـد جـاء في سيـرة ابن هشـام وطبقـات ابن سعـد والسيـرة الحلبيـة وغيـرها أن الأذان شـرّع في مـطلع الهجـرة ، وكـان المسلمـون يجتمعـون الى النبي (ص) في اوقـات الصلاة بـدون إعلام أو أذان ، وفي روايـة ابن سعد عن سعيـد بن المسيب ان النبي كان قـد اعد منـادياً ينـادي للصـلاة إذا جـاء وقتها .

وروى ابن هشـام في سيـرتـه ان رسـول الله حينـما قـدم المـدينـة ورأى اليهود فيها يستعملون بوقاً لـلاعلام عنـد حضور الـوقت المعين لاجتمـاعاتهم وعبـاداتهم ، عنـدمـا رأى ذلـك فكـر ان يستعمـل البـوق لاعـلام المسلمـين باوقات الصلاة ، وأشار عليه بعضهم باستعمال الناقوس لهذه الغـاية ، وظـل المسلمـون يتداولـون الأمر بينهم فبعضهم كـان يرجـح بـوق اليهـود والبعض الآخـر يرجـح ناقـوس النصارى ، وفيـما هم في حيـرة من امـرهم وإذا بعبـد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه احد الخزرج يـأتي رسول الله ويخبـره انه نـام ليلته ورأى وهو نائم رجلاً وعليه ثوبـان اخضران يحمـل ناقـوساً بيـده ، فقال

له عبد الله اتبيع هذا الناقوس ، فقال له وما تصنع به فقال : ندعو فيه الى
الصلاة ، فقال له ، افلا ادلك على خير من ذلك فقلت له بلى : قال تقول
الله اكبر الله اكبر اشهد ان لا إله إلا الله مرتين وعد عليه صيغة الأذان كما
هي عند المسلمين ، فلما اتم حديثه مع النبي (ص) قال : انها لرؤ يا حق
وامر بلالاً فتعلمها وأذن بها لأنه كان احسن المسلمين صوتاً، فلما اذن بلال
للمرة الأولى سمع عمر بن الخطاب فأقبل مسرعاً الى النبي وهو يقول :
والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل الذي رأى عبد الله بن
زيد بن ثعلبة .

وجاء في رواية ابن جريج عن عطاء انه سمع عبيد بن عمر الليثي
يقول : لما ائتمر النبي واصحابه في استعمال الناقوس للأذان ذهب عمر بن
الخطاب ليشتري ناقوساً لهذه الغاية فنام ليلته ورأى من علمه الأذان ،
فذهب ليخبر رسول الله بذلك فوجد الوحي قد سبقه الى النبي وعلمه
الأذان .

وفي رواية البداية والنهاية ان امرأة من بني النجار كانت تقول : كان
بيتي من اطول البيوت التي حول المسجد ، فكان بلال يؤذن فيه للفجر كل
غداة ، فيأتي بالسحر ويجلس على سطح البيت ينتظر الفجر ، فإذا راه تمطى
وشرع في الأذان ، وجاء في قصة الأذان غير ذلك .

وبعد ان أورد ابن كثير حديث الأذان كما ذكرنا عن غيره ، قال :
لقد روى السهيلي عن البزاز بسند الى زياد بن المنذر عن محمد بن علي بن
الحسين عن علي (ع) ان النبي (ص) في ليلة الإسراء سمع ملكاً من
وراء الحجاب يؤذن بهذا الأذان ، ثم اخذ الملك بيد محمد فقدمه وصلى
اماماً باهل السماء وفيهم ادم ونوح وغيرهما من الأنبياء

ولكن ابن كثير قد ضعف هذا الحديث فصحح ذلك بأن الراوي له
من الجارودية وهو مع ذلك من المتهمين بالكذب ، وأضاف في ذلك انه لو

صح بأنه سمع ليلة الاسراء ملكاً ينادي به من وراء الحجاب لكان قد امر به قبل الهجرة واستعمله بعدها في مقام الاعلام للصلاة .

ومهما كان الحال فمالا شك فيه ان حديث تشريع الأذان بالشكل الذي رواه ابن هشام وابن سعد الحلبي وابن كثير من موضوعات المنافقين او موضوعات الأمويين في عصر الصحابة او بعده ليثبتوا بأنه كان يعتمد على المنامات في تشريع الأحكام ، وكان يشترك معه فيها عمر بن الخطاب وفي الأذان اشترك مع عمر عبد الله بن زيد حيث انهما قد اخبرا النبي بالأذان كما رأياه في الطيف ووافقهما الوحي على ذلك .

وقد حاول الوضاعون ان يشركوا عمر بن الخطاب مع الوحي في تشريع بعض الأحكام كتشريع الحجاب وغيره كما سنتعرض لذلك خلال الفصول الآتية .

ومن المعلوم ان الأذان والاقامة من المستحبات الشرعية ومن الأحكام التي ليس للنبي ان يستقل بها او يرتئيها فضلاً عن غيره من المسلمين ، ووظيفته لا تتعدى التبليغ كرسول والتنفيذ كحاكم ، يتولى إدارة شؤون المسلمين حسبما تقتضيه المصلحة ومن الجائز ان يكون قبل نزول الوحي عليه قد فكر في وسيلة من وسائل الاعلام وجاءه الوحي بهذه الوسيلة .

وجاء في السيرة الحلبية عن ابن عمر وعلي بن الحسين انهما كانا يقولان في اذانهما بعد حي على الفلاح حي على خير العمل .

وفي اعيان الشيعة ج ٢ ان البيهقي في سننه بسنده عن جعفر بن محمد عن ابيه ان علي بن الحسين كان يقول في اذانه حي على خير العمل كما رواها جماعة عن عبد الله بن عمر وسهل بن حنيف وجماعة من الصحابة والتابعين .

وحكي في الروض النضير جزء ٢ ص ٤٢ عن سعد الدين التفتزاني في حاشية الـعـ ي على مختصر الأصول أن حي على خير العمل كانت ثابتة

في الأذان عـلى عهد رسـول الله وأن عمر بن الخـطاب هو الـذي امر بتـركها مخافة ان يتكل الناس على الصلاة ويتركوا الجهاد .

وعـدهـا المعلق عـلى فقـه السيـرة للغـزالي من السنـة حيث قـال : إن السنـة ان يقال الصـلاة خير من النـوم في الأذان الأول مرتـين ، وأسند ذلـك الى الطحاوي وغيره[1] .

وجاء في الكافي عن محمـد بن عمير عن حمـاد بن عيسى عن منصور بن ابي حازم عن أبي عبد الله الصـادق (ع) انه قـال : لما هبط جبـريل بـالأذان عـلى رسول الله (ص) كـان رأسـه في حجـر عـلي (ع) فـأذن جبـريـل ثم اقـام ، فلما انتبه رسـول الله قال يـا علي اسمعت قـال نعم : قـال ادع بـلالاً وعلمـه الأذان وجميـع الـروايـات الـواردة عن أهـل البيت في كيفيـة الأذان تشتمل على حي عـلى خير العمـل بعد حي عـلى الفلاح وانـه كان كـذلك في عهـد رسـول الله (ص) كـما اكـد ذلـك جمـاعـة من محـدثي السنـة ، ولكن الخليفـة الثاني استحسن إلغـاء هـذه الفقـرة من الأذان وامـر بتـركهـا حتى لا يتكـل المسلمون عـلى الصلاة ويتـركوا الجهـاد ، كـما حكى عنـه ذلـك سعد الدين التفتزاني في حاشية شرح العضدي على مختصر الأصول .

---

(١) انـظر فقه السيـرة ص ٢٠٣ ومعنى ذلك ان عمـر بن الخطاب بـامكانـه ان يشرع وان مـا يستحسنه يكـون من جملة السنن ، والصلاة كـما تكون خيـراً من النوم احيـانـاً ، فقد يكون النوم خيراً منها بملايين المرات اذا كـان لمصلحة تعـود على الإسـلام بالخير كنوم علي (ع) على فراش الرسول ، إذ لولاه لم تكن الصلاة ولا الإسلام .

الاعداد للمستقبل

لقد عرفت ان اول شيء قام به النبي (ص) بعد ان استقر في يثرب هو بناء مسجده والمساكن التي يحتاج اليها ، والمسجد في الاسلام كما يجمع الناس للعبادة وأداء فريضة الصلاة ، كان ايضاً مدرسة للتعليم وندوة يجتمعون فيه للنظر في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية وملجأ للفقراء والمساكين يأوي اليه منهم من لا يملك مسكناً ولا يجد من يؤ ويه .

وقد اعد منه النبي جانباً لأولئك البؤساء الذين لا يملكون شيئاً غير إيمانهم بربهم وانقطاعهم إليه سبحانه ، ثم بذل جهده في توثيق الصلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وتذويب العصبيات والنزعات الجاهلية التي كانت تتحكم في مصير الأفراد او الجماعات وتجرهم الى الحروب وإراقة الدماء كما كان الحال بين الأوس والخزرج الذين كانوا يتعرضون بين الحين والآخر لحروب دامية تراق فيها الدماء وتستباح الأعراض والأموال .

واستطاع في برهة يسيرة ان يعبىء نفوسهم بتعاليم الاسلام والايمان برسالته بدون جبر او إكراه ، بل بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأعطى الحق لأصحاب الأديان الأخرى ان يناقشوا ويناظروا ويبحثوا عن الحقيقة على ضوء ما تهدف اليه تلك الاديان ، وما يدعو اليه الاسلام من عبادة الواحد الأحد ، والعمل للآخرة والدنيا ليستقيم النظام وتنتظم الحياة ويستوفي كل فرد نصيبه منها ، بدون بغي او عدوان او تحكم بالفقراء والمستضعفين من الناس .

ولم يكتف الرسول بعد استقراره في يثرب بتوثيق عرى التعاون والأخوة بين الأوس والخزرج وبينهم وبين المهاجرين إليها معه من المسلمين والمؤمنين ، بل بذل جهداً كبيراً لتحقيق الوحدة بين جميع سكان يثرب من

المسلمين والمشركين وأهل الكتاب من اليهود كبني قينقاع وبني النظير وقريظة المقيمين على مقربة منها مخافة ان تثور بينهم البغضاء والعصبيات وتعصف بهم الأحقاد ، فيصبح حينذاك بين خطرين خطر التفكك والخصومات المحلية وخطر قريش التي ارتحل عنها هو وأصحابه المؤمنون برسالته .

ولولا هذا التدبير الذي ابدى فيه النبي منتهى المهارة والمقدرة والحنكة ، والذي وحد فيه بين المواطنين على ما كان بينهم من عداء وخصومات موروثة ، لولا ذلك لوجد من الصعوبات والمشاق في نشر دعوته وهو في يثرب ما لا يقل عما وجده خلال ثلاثة عشر عاماً ، ولم يكن في مقدوره ان يحقق تلك الانتصارات الباهرة التي مكنت لدعوته ان تنتشر في شبه الجزيرة خلال سنوات معدودات ، وتتعدى شبه الجزيرة الى ما وراءها لتهد عروش الطغاة والظالمين .

وقال الاستاذ هيكل حول ذلك الموقف الذي وقفه النبي من سكان المدينة على إختلاف نزعاتهم ومعتقداتهم ، فقد قال : ولكن العمل السياسي الجليل حقاً والذي يدل على اعظم الاقتدار ذلك ما وصل إليه محمد (ص) من تحقيق وحدة يثرب ووضع نظامها السياسي بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف .

وقد رأيت اليهود كيف احسنوا استقباله املاً في استدراجه الى حقوقهم ، وبادر هو الى رد تحيتهم بمثلها وإلى توثيق صلاته بهم فتحدث الى رؤسائهم وتقرب اليه كبراؤهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار انهم اهل كتاب موحدون ، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس ، وما كانت الأيام لتزيده باليهود او لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى ، كما ان سيرته وعظيم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض بره بالفقير واليائس والمحروم ، وما اورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم الى عقد معاهدة صداقة وتحالف ، وتقرير لحرية الاعتقاد .

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن موقف الرسول (ص) من يهود المدينة حين دخولها وما بذله لهم من التساهل والتسامح وحسن الجوار ان نعرض وثيقة المعاهدة بينه وبينهم بنصها الحرفي .

نص المعاهدة كما وردت في كتب السيرة والتاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد بن عبد الله النبي بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم[1] وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ثم استعرض كل بطن من بطون الأنصار الى ان قال : وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[2] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء او عقل.

وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم او ابتغى دسيعة[3] ظلم او اثم او عدوان او فساد بين المؤمنين ،

---

(١) على ربعتهم اي على استقامتهم يريد بذلك انهم على امرهم الذي كانوا عليه يتعاقلون ويراد من التعاقل انهم يحملون الدية ويتعاونون عليها .

(٢) المفرح هو المثقل بالدين والكثير العيال .

(٣) ابتغى دسيعة ظلم : أي سعى في الظلم .

وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسوة[1] غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، .وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء[2] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على احسن هدى واقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن وإنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به الا ان يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً[4] ولا يؤويه ، وإن من نصره او آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليهم وانفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ[5] إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم احد إلا باذن محمد (ص) وانه لا يتحجر[6]

---

(١) اي المساواة في المعاملة .

(٢) يبيء : أبأت فلاناً بفلان اذا قتلته به يريد ان المؤمنين بعضهم اولياء بعض فيما ينال دماءهم .

(٣) اعتبطه :اي قتله بلا جناية منه توجب القتل .

(٤) اي جانياً .

(٥) يوتغ يهلك ويفسد .

(٦) لا يتحجر اي لا يلتئم جرح على ثأر .

على ثائر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وان الله على ابر هذا[1] وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله (ص) وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين على كل ناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وان يهود الأوس مواليهم وانفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة ،وإن البر دون الاثم : لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على اصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم او آثم وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وكما ذكرنا ان هذه الوثيقة ان صحت عن الرسول ، ومن غير المستبعد صحتها ، وإن كانت تشتمل على استعمال الألفاظ الغريبة وتكرير في فقراتها مع عدم الانسجام في التركيب إلا ان ذلك لا يكفي وحده لردها ما دام المؤلفون في السيرة متفقون على صدورها .

ومن الجائز ان يكون قد طرأ عليها بعض التحوير او التقطيع مما جعلها تبدو وكأنها غريبة عن أسلوب النبي (ص) .

---

(١) اي على الرقابة .

ومهما كان الحال فالوثيقة مع قطع النظر عن هذه الناحية هي اشبه بالمعاهدة بين المسلمين وغيرهم من سكان يثرب وجيرانها من اليهود وغيرهم على التعاون المخلص وحرية الأديان والمعتقدات والدفاع عن يثرب والضرب على أيدي المعتدين ومدبري الفتن ، ومقاطعة المشركين في مكة وعدم اسداء العون لهم ، والوقوف صفاً واحداً في وجوههم فيما لو حاولوا غزو يثرب والعدوان عليها لينتقموا من النبي وأصحابه .

وقد رحب اليهود والمشركون بهذه المعاهدة حيث ظنوا بانها تتفق مع مصالحهم ومنافعهم وتحفظ لهم نفوذهم ، ولكنهم بعد ان رأوا ان الاسلام سيوحد بين العرب ويجعل من المسلمين على اختلاف أجناسهم امة واحدة ، وأيقنوا انه يحارب الاستغلال والجشع ويحرم الربا وكل المنافع التي تأتي عن طريق الغش والخداع والفجور ، أيقنوا بالخطر على مصالحهم ، وحتى على وجودهم القائم على التسلط واستغلال الآخرين . بعد ان علموا ذلك وتيقنوه صمتوا صمت المستريب ، ثم أعلنوا موقفهم من الدعوة وانحازوا الى جانب المشركين كما سننبه على ذلك في الحديث عن مواقفهم ودسائسهم التي اضطرت النبي (ص) الى استعمال القوة ضدهم .

ابو قيس بن أبي اياس

يدعي كتاب السيرة كابن اسحاق وابن هشام وغيرهما ان أبا قيس بن أبي اياس او يونس كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة واجتنب الحائض من النساء وهم باعتناق النصرانية ، ثم امسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، ومضى يعبد الله سبحانه ويدعوه ويسبحه ، ويدعو الى صلة الارحام والإحسان الى اليتامى واجتناب اموالهم ونسبوا له شعراً في ذلك من قصيدة يقول فيها :

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستزيد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال

الى ان يقول يخاطب بنيه :

يا بني الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال [1]
واتقوا الله في ضعاف اليتامى ... ربما يستحل غير الحلال
واعلموا ان لليتيم ولياً ... عالماً يهتدي بغير السؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه ... إن مال اليتيم يرعاه وال

الى غير ذلك من التشريعات والوصايا التي نسبوها اليه في حين انها من صلب ما جاء به الاسلام .

ويدعون مع ذلك انه لما سمع بالنبي (ص) بالمدينة أسلم وحسن اسلامه .

لقد روى حديث أبي قيس بهذا الشكل ابن اسحاق فيما رواه من المراسيل في سيرة النبي (ص) وعنه اخذه كل من كتب في السيرة والتاريخ اخذ المسلمات .

ومن الجائز ان يكون لهذا الرجل وجود في التاريخ وان يكون كغيره ممن نبذوا عبادة الأحجار والأصنام ، وأن يكون قد أسلم فيمن أسلم من الأنصار ولكني أرجح ان تكون تلك التشريعات التي نسبوها اليه والتي لم يعرف عنها العرب شيئاً قبل ظهور الاسلام ، من صنع الدساسين والمنافقين الذين عاصروا الرسول ، والذين جاؤوا من بعده ككعب الأحبار وعبد الله بن

---

(١) اي كونوا انتم طوالا بالصلة والبر بها إن قصرت اموالهم عن حاجاتهم .

وهب وأمثالهما ممن وضعـوا مئات الأحـاديث والقصص وأضافـوها الى السيـرة والى احاديث الرسول (ص) بقصد الاساءة الى الاسلام .

وجاء المستشرقـون من بعدهم الى كتب السيـرة فوجـدوا فيها مـا تهوى أنفسهم من المرويات التي تتفق مـع اهـوائهم وافتـرائهم عـلى الاسـلام ونبي الاسـلام ومن ذلك مـا ترويـه كتب السيرة من ان بعض الأحكـام كان بعض المسلمين يحدث بها نفسه ، أو يراها في نـومه كـما جاء في حـديث الأذان ، أو يقترحها على الرسـول (ص) كما اقتـرح عمر بن الخـطاب الحجاب ، ونحـو ذلك مما يجده المتتبع هنا وهناك والذين وضعوا تلك الأساطير ارادوا ان يضعوا بذور التشكيك في رسالة محمد (ص) بحجة ان بعض التشريعـات التي دعـا اليهـا كانت مـوجودة قبـل نبوتـه كـالـذي نسبـوه الى أبي قيس بن أبي ايـاس وبعضها كان يقترحها عليه اصحابه ، كما كان يستوحي بعض التشريعات من ظروفه والملابسات التي تحيط به ، ويتذرع هؤلاء لتغطية نواياهم السيئة بتلك المرويات التي يجـدها المتتبـع هنا وهنـاك ، وقد استغلهـا اعداء الاسـلام لبث سمومهم كما ذكرنا .

واني قد تجاهلت الكثير مما أعتقـد بأنـه مدسـوس في كتب السيرة وعـلى لسان الرسول الذي جاءت شريعته الخالدة تحمل في طياتها الاعجـاز في عصر كـانت تتحكم فيـه شـريعـة الغـاب ، وفي جميـع العصـور ، وتتحـدى جميع التشريعات والقوانين الوضعية حتى في آخر مرحلة من مراحلها .

الفَصْلُ التاسِع

تحويل القبلة الى جهة الكعبة

لقد اتفق اكثر المؤرخين على ان النبي (ص) كان يصلي منذ ان بعثه الله نبياً الى جهة بيت المقدس ، واستمر على ذلك حتى مضى عليه سبعة عشر شهراً في المدينة ، وقيل سبعة اشهر كما جاء في الرواية عن الامام الصادق (ع) وقيل انه كان يتجه خلال إقامته في مكة الى الكعبة ، فلما هاجر الى المدينة أمره الله ان يتجه الى بيت المقدس وقيل غير ذلك .

وفي الشهر السابع او السابع عشر على اختلاف الروايات أمره الله أن يتجه في صلاته الى الكعبة اينما كان كما جاء في الآية من سورة البقرة ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم** ﴾ .

وفي الآيتين ١٤٤ ، ١٤٥ ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره * وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم**

من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ .

وجاء في الآية ١٤٩ **﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴾** .

وجاء في مجمع البيان للطبرسي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) انه قال : تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلى النبي ثلاث عشرة سنة الى بيت المقدس ، وبعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة أشهر ثم وجهه الله الى الكعبة ، وذلك ان اليهود كانوا يعيرون رسول الله ويقولون له : انت تابع لنا تصلي الى قبلتنا فاغتم رسول الله لذلك غماً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر الى آفاق السماء وينتظر من الله تعالى امراً في ذلك .

فلما أصبح وحضر وقت الظهر كان في مسجد بني سالم وصلى فيه الظهر ركعتين فنزل عليه جبريل وأخذ بعضده وحوله الى الكعبة وأنزل الله عليه ، **﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾** ، فصلى ركعتين الى بيت المقدس من صلاة الظهر وركعتين الى جهة الكعبة .

وفي تفسير الرازي ما يؤيد رواية الطبرسي عن الامام الصادق (ع) فقد جاء فيه عن ابن عباس ان النبي (ص) كان يكره التوجه الى بيت المقدس في صلاته ، ولما هاجر الى المدينة قال لجبريل : وددت ان الله صرفني عن قبلتهم الى غيرها فقد كرهتها ، فقال له جبريل : انا عبد مثلك فاسأل ربك ذلك فجعل رسول الله يطيل النظر الى السماء رجاء نزول الوحي عليه بتغيير القبلة ، وكان من جملة الأسباب لكراهتها ان اليهود كانوا يقولون : يخالفنا ثم يتبع قبلتنا ، لولا نحن لم يدر أين يستقبل، وقيل في أسباب تغيير القبلة غير ذلك ، ولكن الرأي الشائع بين المحدثين موافق لما رواه الطبرسي عن الامام الصادق (ع) ورواه الرازي عن ابن عباس بتفاوت يسير لا يتنافى

مع رواية الطبرسي .

كما وان المشهور الذي عليه اكثر المفسرين والمؤرخين هو انه كان يصلي خلال المدة التي قضاها في مكة نبياً الى بيت المقدس ، وفي رواية اخرى انه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ومعنى ذلك انه كان يتجه لهما في صلاته .

اما القول بانه كان خلال اقامته في مكة يصلي الى الكعبة ، فلما هاجر الى المدينة توجه في صلاته الى بيت المقدس ، فلا استبعد ان يكون من موضوعات المنافقين ، ومعنى ذلك انه ترك قبلته التي كان عليها منذ ان بعثه الله واتجه في المدينة الى بيت المقدس مجاراة لليهود وتقرباً اليهم ، ولازم ذلك انه كان يستوحي من ظروفه لا من الله سبحانه ، ولما رأى انه لم يستطع استجلاب اليهود بهذه المحاباة ترك قبلتهم ورجع الى الكعبة .

وجاء حسب ترتيب القرآن الكريم قبل الآية ١٤٤ ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ جاءت الآية ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم** ﴾ .

لقد سبقت هذه الآية آية تحويل القبلة حسب ترتيب القرآن كما ذكرنا ، ويدعي بعضهم انها نزلت بعدها لأنها متفرعة عليها ، ولكن الذين رتبوا القرآن قدموها خطأ منهم .

والأرجح انها نزلت قبلها كما وردت في القرآن الكريم ، وجاءت تمهيداً لما سيأمر الله به من حيث التوجه الى الكعبة والغاية منها ارشاد النبي (ص) لهذا الحادث الخطير ولما يتفرع عنه من استغلال اليهود والمنافقين والمشركين للتشهير به ، وقد مهد القرآن لذلك بما ذكره قبل هذه الآية من قصص إبراهيم واسماعيل وكرامتهما على الله ودعوتهما للكعبة والأمر بتطهيرها للطائفين والعاكفين والركع السجود .

ومن المعلوم ان تحويل القبلة من جهة بيت المقدس الى جهة الكعبة بعد أربعة عشر عاماً ونصف على مبعثه من الحوادث الدينية التي شاع امرها واشتهرت بين العرب في خارج المدينة وتناقلها الناس بسرعة خاطفة الى ان بلغ خبرها مكة وجوارها .

ومن غير المعقول ان يسكت اليهود والمشركون في المدينة وجوارها عن هذا التشريع ، وقد وجدوا فيه مجالاً للدس ومحاولة ناجحة لتشكيك المغفلين والمرتابين ، وقد تراجع جماعة عن الاسلام بسبب تلاعب المنافقين والمشركين في عقولهم بعد هذا الحادث ، كما جاء في رواية ابن جريج[1] من غير المعقول ان يسكتوا عن هذا التشريع ، أولاً لأنه أبطل التشريع الأول الذين كانوا يفخرون به ويتباهون باتباع محمد لقبلتهم في صلاته التي هي من أعظم أركان شريعته .

وثانياً فلأنهم مفطورون على الدس والكذب والتشويش على جميع الأديان والشرائع والمثل ، ولا يفوتهم ذلك اذا وجدوا سبيلاً اليه ، في حين ان محمداً (ص) حينما دخل المدينة أراد ان يتقي شرهم فحاول في معاهدته التي وضعها ان يجعل من سكان المدينة وجوارها على اختلاف اتجاهاتهم وحدة متراصة ، وأعطاهم ما للمسلمين من الحقوق والواجبات ، وأكد لهم ضمانة حرياتهم ومعتقداتهم وعاهدهم على ضمانة تلك الحريات والدفاع عنها إذا اقتضى الأمر ما داموا مسالمين يحترمون ما لغيرهم من الحقوق والواجبات كما تشير الى ذلك الوثيقة التي أوردناها قبل الحديث عن تحويل القبلة .

ومع ان النبي (ص) خطط لهذه الغاية وعاهدهم على ذلك ، فقد نقضوا عهده وتجاهلوا تلك الوثيقة ولما تمض عليها أشهر قليلات وبدأوا يدسون ويتعاونون مع المشركين والمنافقين ولا يتركون وسيلة من وسائل الكيد

(١) انظر الرازي جزء ٢ ص ١١٧ .

والمكر الا استعملوها ، وبعد تحويل القبلة ، ظنوا ان الفرصة قد سنحت لهم للتشويش عليه ، كما حكى الله سبحانه عنهم بقوله :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ ، وقالوا لو كان على بينة من امره لما تغير رأيه ، وقال آخرون : لقد اشتاق الى بلد أبيه ومولده ، وأضاف اليهود الى ذلك انه لو ثبت على قبلتنا لعلمنا انه الرسول المنتظر الذي بشرت به التوراة ، وقال المشركون : لقد تحير في دينه ، فأمره الله سبحانه ان يكون لهم بالمرصاد ويكون على بينة من مكرهم وان يقول في جواب هؤلاء وهؤلاء ان الأمر بيد الله فهو الذي فرض علي أولاً ان أتوجه الى بيت المقدس لأمر اقتضاه علمه وامرني الآن ان اتوجه الى الكعبة ، وليس علي إلا ان أنفذ وأبلغ ، ولا بد لكلا التشريعين من مصلحة يعلمها المشرع ، وكل ما في الأمر يكون التشريع الثاني كاشفاً عن أن مصلحة التشريع الأول محدودة بزمان التشريع الثاني الناسخ له ، اما الاقتصار في جوابهم على خصوص المشرق والمغرب واهمال غيرهما من الجهات فلأن هاتين الجهتين أقرب من غيرهما الى الأذهان من حيث ان حركة الكواكب تبتدىء من احدهما وتنتهي بالآخر ، وهما الجهتان الرئيسيتان بنظر الناس فاذا كانا لله فغيرهما أولى بأن يكون له .

موقف اليهود والمنافقين من الاسلام

ليس بغريب على اليهود ان يقفوا من الاسلام وغيره من الأديان ذلك الموقف المعادي ، لأن الله سبحانه على حد زعمهم قد اختصهم من بين الأمم بما لم يخص احداً سواهم وجعلهم شعبه المختار لم يرد الخير لغيرهم ولا الهداية لأحد سواهم وقضى ان لا يكون لغير دينهم مهما سمت اهدافه وغاياته الا

الفشل والضياع ولذلك وقفوا من الأديان الأخرى موقفاً يتسم بالعداوة والبغضاء ، لا يرتبطون بأحد الا من زاوية المصالح والمنافع ، ولا تجمعهم مع شعب من الشعوب اهداف لا تجر عليهم نفعاً او تدفع عنهم شراً ، ومن اجل ذلك كانوا مبغوضين من جميع الشعوب ومطرودين من كل بلد ، وثارت عليهم الأحقاد وتوالت عليهم الكوارث كما يؤيد ذلك تاريخهم الطويل المشحون بالفتن والحروب والفوضى أينما حلوا وأقاموا ، وكان ولعهم بجمع المال واستغلال ثروات البلاد التي يلجؤون اليها من أبرز خصائصهم ، ومكنتهم وفرة المال بين أيديهم من السيطرة والنفوذ في شبه الجزيرة ، لأن العرب كانوا لفترة من الزمن في وضع سيء تتحكم في مصيرهم الروح القبلية بما لها من عادات وأعراف وتجر عليهم الويلات والكوارث في كثير من الأحيان ، واليهود الذين حلوا بينهم وفي جوارهم كانوا يبتسمون لما يجري ، ويزيدون النار تأججاً واشتعالاً من حيث لا يشعر جيرانهم العرب بذلك .

وظلوا على ذلك زمناً طويلاً ، الى ان جاء وقت ظهور الاسلام ، فكان اليهود بما لديهم من اشارات في كتبهم كما يذهب الى ذلك الاخباريون يتوقعون ظهور نبي قد أطل زمانه على حد تعبير بعضهم ويهددون به مواطنيهم من العرب كما نقل ذلك المؤرخون وكتاب السيرة ، ونقلنا نبذاً من هذا النوع في الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولما دخل النبي (ص) المدينة وأسلم أكثر الأوس والخزرج تقبل اليهود فكرة المهادنة بينهم وبين المسلمين والتعاون المشترك لمصلحة الطرفين ومدوا أيديهم الى النبي (ص) وتعاهدوا معه كما تبين ذلك من الوثيقة التي وضعها النبي بينه وبين يهود المدينة وجوارها ، ولكن اتجاه الاسلام وأهدافه التي تقوم على التآخي والعدالة والمساواة وتحريم الربا والغش والاستغلال واحترام جميع الأديان والمعتقدات هذا الاتجاه الذي كان من أبرز سمات الاسلام لا يتفق مع أماني اليهود ورغباتهم ونواياهم السيئة التي كانوا يبيتونها لجميع الناس لا سيما وقد لمسوا ان محمداً لا يُخدع ولا يستسلم لضغط من الضغوط مهما كان

نوعها ، ولا يمكن ان يستغل لصالح فريق على فريق ، ووجدوا ان الاسلام يغزو النفوس ويسيطر على العقول ويسير في شبه الجزيرة بسرعة غير عادية بالرغم من ضراوة اخصامه ومواقفهم المتصلبة في وجهه ، فلم يعد لهم من سبيل حسب تقديرهم إلا ان يقفوا موقف الحذر الذي يستغل الفرصة للوقيعة بخصمه .

وقد عد المؤلفون في السيرة النبوية جماعة من زعماء اليهود كانوا يكيدون للاسلام ويسألون الرسول عن أشياء بقصد تعجيزه والسخرية منه أحيانا من مختلف القبائل اليهودية كبني النضير ، وبني ثعلبة ، وبني قينقاع ، وكعب بن راشد ، ورافع بن أبي رافع وبني قريظة وغيرهم .

ويدعي ابن هشام في سيرته ان لبيد بن عاصم قد سحر النبي (ص) ومنعه من الاتصال بنسائه ، وظل مدة يخيل اليه انه قد فعل الشيء ولم يفعله ، على حد تعبير المعلق على السيرة الهشامية .

وأضاف المعلق الى ذلك ان حديث سحر النبي موجود في كتب الصحاح ولم يطعن فيه الا المعتزلة وطائفة من أهل البدع الى غير ذلك مما ورد في التعليقة ص ٥١٥ من المجلد الأول من السيرة .

وقد نقلت حديث سحر النبي (ص) عن صحيح البخاري في كتابي « دراسات في الكافي والصحيح للبخاري » ، وأثبت بالأرقام التي لا تقبل الجدل والمراجعة ان الحديث من موضوعات المنافقين او الصحابة ، بقصد التشكيك في رسالة محمد (ص) وحتى في القرآن الكريم ، لأنه اذا جاز على النبي أن يصبح في مرحلة يخيل اليه انه يقول ويفعل بدون وعي ولا تفكير يجوز عليه ان يقول على الله ما لم يقله .

واذا جاز عليه ذلك كما يزعمون ، لم يعد لكلامه ولا لحديثه قيمة يعتد بها ، بل يصبح أقل شأناً من كلام غيره ممن لم يفقدوا عقولهم ومداركهم .

وفي عقيدتي ان النبي والاسلام بريئان من كل من ينسب للنبي شيئاً

من ذلك أو يدافع عن هذه الاسطورة ويدونها بين المرويات التي تنسب الى النبي .

واضاف المؤلفون في سيرة النبي الى من ذكرناهم من أحبار اليهود وزعمائهم ممن وقفوا موقفاً معادياً للاسلام ، جماعة من بني حارثة وبني عمرو وبني النجار كانوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين أنفسهم ويثيرون الأحقاد بين الأوس والخزرج على امل أن تنشب بينهم الحروب والمعارك ويتخلوا عن محمد ورسالته عندما يشتغلون بأنفسهم .

ورووا ان شاس بن قيس كان شيخاً مسناً شديد الحقد على المسلمين والحسد لهم مر يوماً على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس كان لهم يتحدثون فيه بروح الأخوة والالفة التي طبعهم عليها الاسلام ، فغاظه ما رأى من إلفتهم واجتماع شملهم وتناسيهم الماضي على ما فيه من ثارات واحقاد وحروب فأوعز الى فتى كان معه من اليهود ان يجلس معهم ، ويذكر لهم يوم بغاث[1] وما كان قبله من حروب طاحنة بين الفريقين وينشدهم ما كانوا يتقابلون به من الأشعار ، فجلس الشاب بينهم واخذ يحدثهم وينشدهم اشعار الفريقين وأراجيزهم في ذلك اليوم ، فتغيرت وجوه القوم عندما أعاد الى أذهانهم تلك الذكريات ورجعوا الى طبيعتهم الأولى ، فتنازعوا وتفاخروا ، ثم تواثب منهم رجلان احدهما من الأوس والآخر من الخزرج فتقاولا وقال احدهما للآخر إن شئت رددناها جذعة ، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا موعدكم الظاهرة وتنادوا بالسلاح فخرج الفريقان وكادت الحرب ان تقع بينهما فبلغ الخبر رسول الله (ص) فخرج إليهم بمن معه من أصحابه المهاجرين ، فقال لهم :

يا معشر الأنصار الله الله أفبدعوى جاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان

---

(١) هو من ايام حروبهم الشديدة وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج وزعيم الاوس يوم ذاك حضير بن سماك الاشهل ، وزعيم الخزرج النعمان البياض فقتلا معاً .

هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر والف بين قلوبكم ؛ فأدرك القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فندموا على ما كان منهم وتعانق الفريقان وانصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين وانزل الله فيهم وفيمن حاولوا تأجيج الفتنة بينهم قوله :

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

وانزل في الأوس والخزرج قوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد أيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم ﴾ (آل عمران ١٠١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ﴾ .

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ .

وقد أسلم جماعة من أحبارهم ووجهائهم وصدقوا في اسلامهم كما تظاهر فريق منهم بالاسلام وأبطنوا الكفر والنفاق ، وكان من بين من أسلم وصدق في اسلامه كما يبدو من كتاب السيرة والمؤرخين عبد الله بن سلام من يهود بني قينقاع ، فقد روى ابن اسحاق عن جماعة ممن تربطهم رابطة القربى بابن سلام انه كان من أحبار اليهود وعلمائهم فقال : لما سمعت برسول الله وعرفت اسمه وصفته وزمانه الذي كنا نترقب وكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله (ص) المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل فأخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة فلما سمعت خبر قدومه كبرت ، فقالت عمتي حين

سمعت تكبيري خيبك الله ، والله لو انك سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت على ذلك ، فقلت لها : أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به فقالت : أي ابن اخي اهو النبي الذي كنا نخبر انه يبعث مع نفس الساعة ، فقلت لها نعم ، ثم خرجت الى رسول الله فأسلمت ورجعت الى بيتي فأمرتهم بالاسلام فأسلموا وكتمت اسلامي عن اليهود .

ثم جئت رسول الله يوماً وقلت له : يا رسول الله ، ان اليهود قوم على الباطل واني احب ان تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف انا فيهم قبل ان يعلموا باسلامي فانهم ان علموا به بهتوني وعابوني ، قال فادخلني رسول الله في بعض بيوته ، ولما دخلوا عليه كلموه وسألوه عما يريد ، فقال لهم : أيّ رجل الحصين[1] بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم وقلت لهم : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فاني اشهد انه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا كذبت ثم دفعوا بي .

فقلت لرسول الله ألم أخبرك يا رسول الله انهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ، ثم أظهرت اسلامي وأسلم أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن اسلامها .

وممن وفى بما عاهد عليه رسول الله من أحبارهم مخيريق من بني ثعلبة ابن الفطيون[2] .

وجاء في كتب السيرة والتاريخ انه كان حبراً كبيراً وعالماً من علمائهم ، وكان مع ذلك غنياً يملك الكثير من النخيل وغيره ، ويعرف رسول الله بصفته

(١) الحصين اسمه الاول ، ولما اسلم سماه رسول الله عبد الله .

(٢) وكلمة الفطيون كما جاء في التعليقة كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى امر اليهود .

وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه على حد تعبير ابن هشام ، ولكن غيره نص على اسلامه ولم يزل وفياً للاسلام وملتزماً بعهد رسول الله .حتى كانت الحرب في احد ، وصادف انها كانت يوم السبت ، فقال لليهود : يا معشر يهود والله لتعلمن ان نصر محمد عليكم لحق ، فقالوا : ان اليوم يوم السبت ، فقال : لا سبت لكم ، ثم اخذ سلاحه وخرج حتى اتى رسول الله ، وعهد الى من ورائه من قومه انه إذا قتل فأمواله لمحمد (ص) يصنع بها ما يريد ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله يقول انه خير اليهود ، وقبض رسول الله امواله وكانت منها أكثر صدقات رسول الله بالمدينة .

وحدث ابن اسحاق وغيره عنَ صفية بنت حيي بن اخطب انها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما الا اخذاني دونهم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه ابي حيي بن اخطب وعمي أبو ياسر بن اخطب مغلسين ، فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال اتعرفه وتثبته قال : نعم ، قال فما في نفسك منه ، قال عداوته والله ما بقيت .

وظل أكثر اليهود يتظاهرون بالسلم للنبي ويسرون الغدر ويستغلون المناسبات لإثارة الفتن وايجاد الفجوات بين المسلمين أنفسهم ، بين الأوس والخزرج تارة وبينهم وبين المهاجرين أخرى ، وانضم اليهم جماعة من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وأسروا النفاق كبديل بن الحارث ، وعبد الله بن أبي بن سلول رأس الشرك والنفاق ، وكان أشد خطراً على الاسلام من اليهود ، وفيه وفي آمثاله أنزل الله في كتابه :

﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا

معكم ﴾ .

واشتهر من بين المنافقين جلاس بن سويد بن الصامت ، وكان قد تظاهر بالإسلام وانصرف الى التآمر على المسلمين .

وجاء عنه في كتب السيرة انه كان يقول عن النبي (ص) : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن أشر من الحمير ، فبلغ قوله رسول الله عن طريق عمير بن سعد ربيب جلاس ، فقال له عمير بن سعد ، والله يا جلاس انك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي يداً ، وأعزهم علي ان يصاب بشيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني ، ولأحدهما أيسر علي من الآخر ، ثم مشى الى رسول الله (ص) فأخبره ، فجاءه جلاس وحلف بالله انه لم يقل شيئاً مما وشى به عمير فأنزل الله فيه :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا * ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم * وهموا بما لم ينالوا * وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله * فإن يتوبوا يك خيراً لهم * وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ (سورة التوبة ٧٤) .

ومن المنافقين من الأوس مربع بن قيظي، وهو الذي قال لرسول الله (ص) حينما مر بحائطه في طريقه الى احد : لا احل لك يا محمد ان كنت نبياً أن تمر في حائطي وتناول بيده حفنة من التراب ثم قال : والله لو اعلم اني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به فابتدره اصحاب النبي ليقتلوه ، فقال لهم دعوه انه لأعمى القلب والبصيرة ، فضربه سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجه .

ومنهم اخوه أوس بن قيظي القائل لرسول الله يوم الخندق ان بيوتنا عورة فائذن لنا لنرجع إليها فأنزل الله فيه :

﴿ يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فراراً ﴾ .

ومن المنافقين الذين تستروا بالاسلام خلال السنة الأولى لـدخول النبي الى المدينة ابو حبيبة بن الأزعر وثعلبة بن حاطب ، وهلال بن امية ومعتب بن قشير ووديعة بن ثابت ، وعباد بن حنيف وكانوا قـد اشتركـوا في بناء المسجـد الذي نهى الله نبيه عن الصـلاة فيه وسمـاه مسجد ضـرار كما جـاء في الآيات ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ من سورة التوبـة وسنتعرض لـذلك المسجـد وما جـرى عليه عند الحديث عن غزوة تبـوك حيث ان المنافقـين قد كلفـوا النبي (ص) ان يصلي فيه ووعدهم ان يلبي طلبهم بعد رجوعه من تبوك وكان من امره ان أمره الله بهدمه كما سيأتي ذلك عند الحديث عنه .

ومعتب بن قشير وهو احد المنافقين وهو الذي قال يوم احد لـو كان لنـا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا فأنزل الله تعالى في ذلك : **﴿ وطائفة قد اهمتهم انفسهم يـظنون بـالله غير الحق ظن الجـاهلية ﴾ ﴿ يقـولون لـو كـان لنـا من الأمر من شيء ما قتلنا ها هنا ﴾** (آل عمران ١٥٤) .

وقال يوم الاحزاب : كان محمد يعدنا ان نأكـل كنوز كسـرى وقيصر ، واحـدنا اليـوم لا يأمن ان يـذهب الى الغائط فـأنزل الله فيـه : **﴿ واذ يقـول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً ﴾** .

وجاء عن زيد بن الصلت احد يهود بني قينقاع حين ضلت ناقة رسـول الله : يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري اين ناقته ، ولما بلغ كلامه رسول الله (ص) قال : ان قائلاً يقول . يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء ولا يـدري اين ناقتـه ، واني والله لا أعلم إلا ما علمني ربي وقـد دلني عليها الآن فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها ، فذهب رجـال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسـول الله وكما وصفهـا لهم . وكان جمـاعة من المنـافقين يحضرون المسجد فيستمعون احاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بـدينهم خافتين أصواتهم قد التصق بعضهم ببعض ، فـأمر بهم رسـول الله فأخـرجوا

من المسجد اخراجاً عنيفاً .

وقام ابو أيوب الأنصاري الى عمرو بن قيس احد بني غنم من بني النجار فأخذ برجله وسحبه حتى اخرجه من المسجد وهو يقول : اتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ، وأقبل أبو أيوب أيضاً الى رافع بن وديعة فلببه بردائه ثم نثره نثراً شديداً ولطم وجهه وأخرجه من المسجد ، وقام عمارة بن حزم الى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويل اللحية فأخذ بلحيته وقاده قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد وجمع يديه ولدمه بهما لدمة خر منها الى الأرض .

وقام جماعة من المسلمين الى بقية المنافقين فأخرجوهم من المسجد بعنف وشدة حتى لا يعودوا لمثلها ، وتوالت الآيات الكريمة على النبي بشأنهم ليكون على بصيرة من امرهم فقال تعالى في سورة البقرة :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ .

﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون * الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

﴿ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس * قالوا انؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم﴾ .

الى كثير من الآيات التي بلغت اكثر من ثمانين آية في سورة البقرة ، بالاضافة الى الآيات التي وردت في التوبة والمنافقين وغيرهما من السور حسب المناسبات الداعية الى التنديد بأعمالهم ونواياهم السيئة التي كانت تظهر في اقوالهم وأفعالهم بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي اشتد فيه الجدال بين محمد واليهود ومن انضم اليهم

من المنافقين كتب رسول الله (ص) الى يهود خيبر كتاباً جاء فيه : من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى من قبل ، ألا ان الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وانكم لتجدون ذلك في كتابكم :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه ، فآرزه فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراً عظيما ﴾ .

واني انشدكم بالله وأنشدكم بما انزل عليكم وأنشدكم بالذي اطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله الا اخبرتموني ، هل تجدون فيما أنزل الله عليكم ان تؤمنوا بمحمد فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغي ، فادعوكم الى الله والى نبيه .

فكان جواب زعيمهم كما جاء في شهادة صفية بنت حيي بن أحطب بعد أن وجد في ملامحه وصفاته علامات النبي الذي بشرت به التوراة ، كان جوابه أني ماضٍ في حربه وعداوته ما بقيت .

ومضى اليهود كلهم اذا استثنينا افراداً معدودين أسلموا وأخلصوا في اسلامهم كعبد الله بن سلام وأمثاله القلائل ، ومضوا يأتون الى النبي كل يوم بطلب جديد فاذا جاءهم بما عرفوا من الحق انكروا وتنكروا له وولوا مستكبرين .

وفي الوقت الذي تأزمت فيه الأمور وتكشف اليهود على واقعهم ، وفد على النبي (ص) وفد من نصارى نجران عدته ستون راكباً ، من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه في دينهم ، وكانت ملوك الروم من

النصرانية قد شرفوه ومولوه واخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات .

ورجح الأستاذ هيكل ان هذا الوفد أقبل على المدينة حين علم بما بين النبي واليهود من الخلاف ، طمعاً ان يزيد الخلاف شدة والنار اشتعالاً ، وعندما تتأزم الأمور بين الطرفين تصبح النصرانية المتاخمة للعرب من ناحية الشام ، والمتاخمة لهم في اليمن في امن من دسائس اليهود وعدوان العرب .

واجتمعت الأديان الثلاثة من أصحاب الكتب السماوية بمجيء هذا الوفد ودار بين الأطراف الثلاثة جدل عنيف ، وأدلى كل منهم بما عنده ، فانكر اليهود رسالة عيسى ومحمد انكاراً لا يعتمد الا على التعنت والمزاعم الفاسدة التي لا يؤمنون هم أنفسهم بها ، وزعموا مع ذلك ان عزير ابن الله ، وقال النصارى بالتثليث ، وألوهية عيسى ، ودعاهم محمد (ص) الى عبادة واحد احد لا شريك له ولا ولد وإلى وحدة روحية تنتظم العالم من ازله الى أبده .

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وسأله اليهودي والنصراني عما يؤمن به من الرسل فقال :

﴿آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون﴾. وكان ينكر عليهم اشد الانكار كل ما يلقون عليه من شبهة تتنافى مع التوحيد ويتلو عليهم من القرآن ما يدل على انهم قد حرفوا ما جاءت به التوراة والانجيل ، وانهم يذهبون الى غير ما

ذهب اليه النبيون من قبلهم ، وان ما جاء بـه موسى وعيسى ومن سبقهم من النبيين لا يختلف عما جاء به .

﴿ **شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا الـه الا هو العزيز الحكيم * ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم** ﴾ اي انهم لم يختلفوا الا بعد ان جئتهم بالتـوحيد وانـه واحد لا شريك له ولا ولد ولا نظير ، وبهذه الحقيقة الخـالدة جـاء الأنبياء ولم يخالف احد منهم في ذلك ، ولكن الأصحاب والاتباع المتاجرين بالدين حرفوا وغيروا وبدلوا وكذّب بعضهم بعضاً ، فقالت النصـارى : ليست اليهود عـلى شيء ، وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء .

ثم ذكر لهم النبي ما كان من امر عيسى وكيف رفعه الله إليه حين اتفق اليهـود على قتله فقـال : ﴿ **ومكـروا ومكـر الله والله خـير المـاكـرين** ﴾ ، ثم اخبرهم ورد عليهم فيما أقروا به في صلب اليهود لعيسى ، فقال ﴿ **إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الـذين كفروا إلى يـوم القيامـة** ﴾ ، ثم اخبرهم عن عيسى وعن ولادته بقوله : ﴿ **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فـلا تكن من الممترين** ﴾ ، اي انهم إذا قـالوا كيف خلق عيسى من غـير ذكر فقـل خلقته كـما خلقت آدم من غير ذكـر ولا انثى ، وكان كعيسى انساناً من لحم وشعر وبشـر ، فليس عيسى بأعجب من آدم ان لم يكن آدم أعجب وأغرب منه .

ثم قال ﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم**﴾، إذا حاجـوك من بعد ما قصصت عليك من اخبارهم وأسرار خلقهم وكيف كان امـرهم . فادعهم الى المباهلة وقل لهم :

﴿ **تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسـاءنا ونسـاءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ .

وجاء في كتب الحديث والسيرة انهم لما نظروا الى النبي ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين انسحبوا من موقفهم وقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في امرنا وغداً نأتيك فيما نريد ان نفعل ، ثم انصرفوا عنه واجتمعوا يتشاورون مع كبيرهم أبي حارثة العاقب، فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى ، فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال ان فعلتم ، فإن كنتم أبيتم الا إلف دينكم والاقامة على ما انتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا الى بلادكم ، فأتوا رسول الله وقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا الا نلاعنك ، وان نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث رجلاً معنا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من اموالنا فانكم عندنا رضا .

وفي سيرة ابن هشام انه ارسل معهم أبا عبيدة بن الجراح ، وان عمر بن الخطاب قد تمنى ان يكون هو المبعوث من قبل النبي (ص) ، وكان يقول على حد زعم الراوي ، ما أحببت الإمارة قط حبي اياها يومئذ رجاء ان أكون صاحبها .

وينقل عن عمر بن الخطاب انه ذهب الى صلاة الغداة مبكراً ، فلما صلى رسول الله وسلم نظر عن يمينه وعن يساره فجعل عمر يتطاول ليراه رسول الله فلم يزل النبي (ص) يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه وقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، فذهب ابو عبيدة .

هذه صورة مجملة عما دار بين الوفد وبين النبي (ص) من المناظرات حول الأديان وانتهت بعجزهم وانسحابهم من المعركة وطلبوا من يعلمهم ويقضي بينهم اقتضبناها مما جاء في سيرة ابن هشام ، ولقد ذكر ابن هشام

وغيره وفد نجران من حوادث السنة الثانية ، وتبعه على ذلك ابن سعد في طبقاته .

والواقع ان الوفد كان في السنة السادسة او السابعة من هجرة النبي (ص) لأن الآية التي تنص على المباهلة من سورة آل عمران بأن يباهلهم بنفسه وأبنائه وقد خرج لهم ومعه علي وفاطمة والحسنان (ع) ، وفي السنة الثانية من الهجرة لم يكن علي (ع) قد تزوج بفاطمة ، فقد تزوج بها في اواخر الثانية او الثالثة كما جاء في بعض المرويات ، وفي السنة السادسة كان الحسنان يدرجان .

وجاء في تفسير الثعلبي عن مجاهد والكلبي انه (ص) لما دعاهم للمباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما اجتمعوا ، قالوا للعاقب وكان ذا رأي فيهم : يا عبد المسيح ما ترى فقال : والله لقد عرفتم يا معشر الأنصار ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من امر صاحبكم ، والله ما باهل قوم قط نبياً وعاش كبيرهم ونبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن ، فإن ابيتم الا إلف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم .

فأتوا رسول وقد غدا محتضناً الحسن وآخذاً بيد الحسين وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول : إذا انا دعوت فآمنوا ، فقال اسقف نجران : يا معشر النصارى اني لأرى وجوها لو سألوا الله ان يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم : رأينا ان لا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ، فقال : إذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا ، قال فاني اناجزكم فقالوا ما لنا بحرب العرب من طاقة ولكن نصالحك على ان لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدي اليك كل عام ألفي حلة ألفاً في صفر وألفاً في رجب ، وثلاثين درعاً من حديد فصالحهم على ذلك .

وأضاف الراوي ان النبي (ص) قال : والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الجبال ولما حال عليهم الحول .

وفي تفسير الميزان ان ابن اسحاق في كتاب المغازي رواها قريباً من ذلك كما رواها المالكي في الفصول المهمة والحموي عن جريح بما يقرب من رواية الثعلبي .

وجاء في صحيح مسلم في وصف حوار بين سعد بن أبي وقاص ومعاوية بن أبي سفيان جاء فيه ان معاوية طلب من سعد بن أبي وقاص ان يسب عليا ، قال له سعد : ما دمت أذكر ثلاثاً قالها الرسول لعلي فلن أسبه ، ولأن يكون لي واحدة منها احب إلي من حمر النعم :

سمعت رسول الله يقول له يوم خلفه على المدينة وشق ذلك على علي (ع) : اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها ، فقال ادعوا لي عليا : فأتى به وهو أرمد العين فبصق في عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله على يده .

ولما نزلت الآية : **﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين ﴾** ، دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال هؤلاء أهل بيتي .

وجاء في رواية اليعقوبي ان ابا الحارثة احد زعمائهم قال : انظروا من جاء معه ، وغدا رسول الله اخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بين يديه ، فقال ابو حارثة : من هؤلاء معه قالوا هذا ابن عمه وهذه ابنته وهذان ابناها فجثا رسول الله على ركبتيه ثم ركع ،فقال ابو حارثة : لقد جثا والله

كما يجثو النبيون للمباهلة وامتنع الوفد من مباهلته بعد ان رأى من معه .

وقال في تفسير الميزان ان الترمذي رواه في صحيحه ، وابو المؤيد الموفق بن احمد في فضائل علي (ع) وابو نعيم في الحلية عن عامر بن سعد ، والحموي في فرائد السمطين .

ورواه الشعبي ايضاً عن جابر ، ورواه المغازلي وصاحب الدر المنثور وابن جرير وغيرهم .

ورواه الشيعة عن أهل البيت (ع) ودونه المؤلفون من الشيعة في مجاميعهم ولم يتردد في صحته احد من المؤلفين إذا استثنينا بعض السنة الذين لم يستطيعوا انكاره ولكنهم وقفوا منه كعادتهم من الأحاديث الواردة في علي وآل علي حيث اعتادوا ان يصفوها بالكذب لأن فيها رائحة التشيع حتى ولو كان رواتها من السنة ، وبالنسبة لحديث المباهلة فقد ادعوا بأن تفسير أنفسنا ونساءنا وابناءنا بفاطمة وبعلها وولديها هذا التفسير لا مصدر له إلا الشيعة كما يزعمون والسنة اخذوه منهم ، وأضافوا الى ذلك ان النساء في لغة العرب لا تستعمل إلا في الزوجات ما دام الإنسان متزوجاً إلى غير ذلك من المغالطات[1] .

موقف سلمان الفارسي من الاسلام

ليس بغريب إذا وجد بين أتباع النبيين فريق تبدو عليهم آيات الطهر والصفاء والبراءة ، فالمرسلون الكرام يتعهدون بالتعليم والتربية وبما يتركونه من الوصايا ضمائر البشر ليدفعوا بها الى الفضيلة ، وإذا علقت بنفوسهم

---

(١) انظر تفسير الميزان ج ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها .

شهوة الى متع الدنيا حاولوا تنقيتها ليردوا عليها سناءها الذي قد تحجبه الشهوات ، فالنفوس الطيبة كالمصابيح إذا خمد ضوء احدها وأدنيته من المصباح المضيء يكتسب الضوء وتنفرج الظلمات من حوله . ومهما اوتي العقل من نفاذ وتبصر بالأمور لا يستطيع إدراك الحقائق ما لم تسدده العناية والرعاية .

وما اكثر من عالجوا شؤون الكون ومشاكل الحياة وظلوا زمناً طويلاً يبحثون عن الحقيقة فتاهوا ولم يهتدوا واصبحوا كالطيار الذي يتيه في الضباب الكثيف ، فاذا لم يتلق إرشاداً يحدد له مكانه ويعرفه كيف يسير وكيف يهبط ، فإنه يظل تائهاً وقد يهوي في مكان سحيق تكون به نهايته ونهاية من سار بهم على غير هدى ورشاد .

وقليل من يصلون في ابحاثهم الطويلة الى الغاية الا بعد جهود شاقة وأعوام طوال ، ولكن اتباع النبيين والمرسلين الذين طابت نفوسهم وطهرت قلوبهم من الأهواء والآثام قد يصلون الى غاياتهم في بضع ساعات معدودات لأن مهمة الأنبياء ان يربطوا الناس بخالق الكون على أساس الاحساس بتلك القوة والعرفان للجميل ، ولذا فإن النبي (ص) كان يحرص على إبراز الجوانب المحسوسة من مظاهر قدرة الله سبحانه التي اتسعت لجميع الكائنات يتلو على الناس في الغالب من آيات الله البينات التي تتحدث عن الكون وما فيه من المخلوقات والعجائب والنعم الجسام ليبني في نفوسهم الإيمان برسالته على اساس من المعرفة والإدراك لأبعادها . ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وانزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

ان محمداً كان يعمل بكل جهده ليغرس في القلوب والأرواح معرفة الله والحق والخير وحب الانسان لأخيه الانسان ، حتى إذا أقبل الانسان على ربه

يقبل عليه بفكره وقلبه ويهب له نفسه وحسه وجميع مـداركه وطـاقاتـه ، وهذا الذي تعنيه الآية .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

ان محمداً (ص) لم يطلب من الناس ان يقدسوا فيه صورته المركبة من اللحم والدم ، ولم يرد ان يستأثر على احد بشيء ولا بأن يتأله عليهم كما تـأله فرعون وأمثاله من الجبابرة والطغاة ، بل أرادهم ان يقدسوا فيه معنى الرسالـة وان يهتدوا إلى مثلها العليا، وان يصونوا فيها معالم الحق والرحمة والخير، وقـد استطاع ان يشحن هذه المعاني في نفوس المئـات ممن عاصـروا دعوتـه وجهوده وتضحيـاته في سبيلهـا كسلمان الفـارسي الذي آمن بـه منذ ان رآه وبعـد ان سمع شيئاً من رسالته ، حتى بلغ القمة في ايمانه ، وأصبح في زمانه كلقمان في زمانه كما جاء ذلك عن الرسول (ص) :

وحدثت السيدة عائشة انه كان لسلمـان مجلس من رسول الله ينفـرد به بالليل حتى كاد يغلبنا عليه .

وجاء في الحديث عن الـرسول (ص).ان ربي امـرني بحب اربعة عـلي وأبي ذر والمقداد وسلمان .

وروى ابـو البختري عن عـلي (ع) انه قـال : ان سلمـان علم العلم الأول والعلم الآخر ، وكان بحراً لا ينزف وهو منا اهل البيت .

وفي شرح النهج أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب وبلال في نفر من المسلمين ، فقالوا ما اخذت السيوف من عدو الله ، يعنون بـذلك ابـا سفيان وهو يسمعهم ، فقال لهم ابو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؛ وأتى النبي وأخبره بقولهم : فقال يا ابا بكر أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم ، فقد أغضبت الله ، فأتاهم ابو بكر وقال يا اخوتاه لعلي أغضبتكم ، فقالوا لا يا ابا بكر يغفر الله لك الى كثير من الأحـاديث المرويـة من طرق الشيعـة والسنة في فضله واخلاصه وخدماته التي قدمها في سبيل نشر الدعوة ، حتى بلغ به مرتبة

قال فيه النبي : سلمان منا اهـل البيت ، وقال لا تقـولوا سلمـان الفارسي ، ولكن قولوا سلمان المحمدي .

وجاء في حديث اسلامه في الطبقات الكبرى لابن سعد انه كان فارسياً من قرية تابعة لأصفهان يدين بـالمجوسيـة دين آبائـه ، فمر بكنيسـة للنصارى فأعجبته طقوسهم ، فسأل عن مصدر هذا الدين الذي تدعو اليـه الكنيسة ، فقيل له انه ببلاد الشام ، فخرج متخفياً من أهله مع قافلة من التجار واتصل بـالأسقف هناك وبقي عنـده مدة من الـزمن ، ثم خرج الى المـوصل والتحق برجل فيها من النصارى ، ومنها اتجه الى نصيبـين واتصل بـراهب فيها أخبـره بأنه سيخرج رجل يبعث نبياً في أرض الحجاز ويستقـر في أرض ذات نخل لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، وبين كتفيه خاتم النبوة .

ولما مر به ركب الحجاز سافر معهم إليهـا ، فباعـوه من رجل يهـودي ، وانتقل منه إلى احد بني قريظة في المدينة ، فاستعمله في بسـاتينه ، ولـما هاجـر النبي (ص) إلى المـدينة قـال سلمان عـلى حـد زعم الـراوي : والله اني لفي رأس نخلة وصاحبي تحتها وإذا بأحد بني عمومته يقـول له : أي فـلان قاتـل الله بني قيلة انهم ليجتمعون على رجل قدم من مكة يزعمون انه نبي فوالله ان هو إلا أن قالها فاخـذني القر والانتفـاض فنزلت من النخلة وجعلت استقصي في السؤال ، فقال لي سيدي أقبل على شأنك ودع ما لا يعنيك .

فلما أمسيت اخـذت شيئـاً كـان عنـدي من التمـر وأتيت بـه النبي (ص) ، فقلت لـه بلغني انك رجـل صالـح وان لك اصحـاباً غـربـاء ذوي حـاجة ، وهـذا الشيء عنـدي للصـدقـة وأنتم أحق بـه من غيـركم ، فقـال (ص) لأصحـابه كلوا وأمسـك ، فلم يأكـل منه شيئـاً فقلت في نفسي هـذه واحـدة وانصرفت ، فلما كـان من الغد اخـذت ما كـان بقي عندي وأتيتـه به فقلت له رأيتك لا تأكل الصـدقة وهـذه هديـة ، فقال لأصحـابه كلوا وأكـل معهم ، فقلت في نفسي هـو هـو ، وانكببت عليـه أقبله وأبكي ، فقـال مـا لك : فقصصت عليه قصتي .

هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر والف بين قلوبكم ؛ فأدرك القوم انها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فندموا على ما كان منهم وتعانق الفريقان وانصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين وانزل الله فيهم وفيمن حاولوا تأجيج الفتنة بينهم قوله :

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

وانزل في الأوس والخزرج قوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد أيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم ﴾ (آل عمران١٠١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ﴾ .

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾.

وقد أسلم جماعة من أحبارهم ووجهائهم وصدقوا في اسلامهم كما تظاهر فريق منهم بالاسلام وأبطنوا الكفر والنفاق ، وكان من بين من أسلم وصدق في اسلامه كما يبدو من كتاب السيرة والمؤرخين عبد الله بن سلام من يهود بني قينقاع ، فقد روى ابن اسحاق عن جماعة ممن تربطهم رابطة القربى بابن سلام انه كان من أحبار اليهود وعلمائهم فقال : لما سمعت برسول الله وعرفت اسمه وصفته وزمانه الذي كنا نترقب وكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله (ص) المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل فأخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة فلما سمعت خبر قدومه كبرت ، فقالت عمتي حين

سمعت تكبيري خيبك الله ، والله لو انك سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت على ذلك ، فقلت لها : أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به فقالت : أي ابن اخي اهو النبي الذي كنا نخبر انه يبعث مع نفس الساعة ، فقلت لها نعم ، ثم خرجت الى رسول الله فأسلمت ورجعت الى بيتي فأمرتهم بالاسلام فأسلموا وكتمت اسلامي عن اليهود .

ثم جئت رسول الله يوماً وقلت له : يا رسول الله ، ان اليهود قوم على الباطل واني احب ان تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف انا فيهم قبل ان يعلموا باسلامي فانهم ان علموا به بهتوني وعابوني ، قال فادخلني رسول الله في بعض بيوته ، ولما دخلوا عليه كلموه وسألوه عما يريد ، فقال لهم : أي رجل الحصين[1] بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم وقلت لهم : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فاني اشهد انه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا كذبت ثم دفعوا بي .

فقلت لرسول الله ألم أخبرك يا رسول الله انهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ، ثم أظهرت اسلامي وأسلم أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن اسلامها .

وممن وفى بما عاهد عليه رسول الله من أحبارهم مخيريق من بني ثعلبة ابن الفطيون[2] .

وجاء في كتب السيرة والتاريخ انه كان حبراً كبيراً وعالماً من علمائهم ، وكان مع ذلك غنياً يملك الكثير من النخيل وغيره ، ويعرف رسول الله بصفته

---

(١) الحصين اسمه الاول ، ولما اسلم سماه رسول الله عبد الله .

(٢) وكلمة الفطيون كما جاء في التعليقة كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى امر اليهود .

وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه على حد تعبير ابن هشـام ، ولكن غيره نص على اسلامه ولم يزل وفياً للاسـلام وملتزمـاً بعهد رسـول الله .حتى كانت الحرب في احد ، وصادف انها كانت يـوم السبت ، فقال لليهـود : يا معشـر يهـود والله لتعلمن ان نصـر محمـد عليكم لحق ، فقـالـوا : ان اليـوم يـوم السبت ، فقـال : لا سبت لكم ، ثم اخذ سـلاحـه وخـرج حتى اتى رسـول الله ، وعهد الى من ورائه من قومه انه إذا قتل فأمـواله لمحمد (ص) يصنـع بها ما يريد ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله يقول انه خير اليهـود ، وقبض رسول الله امـواله وكـانت منهـا أكـثر صـدقـات رسـول الله بالمدينة .

وحدث ابن اسحاق وغيره عنَ صفية بنت حيي بن اخطب انها قالت : كنت أحب ولـد أبي إليه وإلى عمي أبي يـاسر ، لم ألقهما قط مع ولـد لهما الا اخذاني دونهم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه ابي حيي بن اخطب وعمي أبو ياسر بن اخطب مغلسين ، فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهـما مع مـا بهما من الغم ، وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قـال اتعرفـه وتثبته قـال : نعم ، قال فـما في نفسـك منـه ، قـال عداوته والله ما بقيت .

وظل أكثر اليهـود يتظاهـرون بالسلم للنبي ويسـرون الغدر ويستغلون المناسبات لإثـارة الفتن وايجاد الفجـوات بين المسلمـين أنفسهـم ، بين الأوس والخـزرج تـارة وبينهم وبـين المهـاجـرين أخـرى ، وانضم اليهم جمـاعـة من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وأسروا النفـاق كبديـل بن الحارث ، وعبـد الله بن أبي بـن سـلول رأس الشرك والنفاق ، وكان أشد خطراً على الاسلام من اليهود ، وفيه وفي امثاله أنزل الله في كتابه :

﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شيـاطينهم قالـوا انا

معكم ﴾ .

واشتهر من بين المنافقين جلاس بن سويد بن الصامت ، وكان قد تظاهر بالإسلام وانصرف الى التآمر على المسلمين .

وجاء عنه في كتب السيرة انه كان يقول عن النبي (ص) : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن أشر من الحمير ، فبلغ قوله رسول الله عن طريق عمير بن سعد ربيب جلاس ، فقال له عمير بن سعد ، والله يا جلاس انك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي يداً ، وأعزهم علي ان يصاب بشيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني ، ولأحدهما أيسر علي من الآخر ، ثم مشى الى رسول الله (ص) فأخبره ، فجاءه جلاس وحلف بالله انه لم يقل شيئاً مما وشى به عمير فأنزل الله فيه :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا * ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم * وهموا بما لم ينالوا * وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله * فإن يتوبوا يك خيراً لهم * وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ (سورة التوبة ٧٤) .

ومن المنافقين من الأوس مربع بن قيظي ، وهو الذي قال لرسول الله (ص) حينما مر بحائطه في طريقه الى احد : لا احل لك يا محمد ان كنت نبياً أن تمر في حائطي وتناول بيده حفنة من التراب ثم قال : والله لو اعلم اني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به فابتدره اصحاب النبي ليقتلوه ، فقال لهم دعوه انه لأعمى القلب والبصيرة ، فضربه سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجه .

ومنهم اخوه أوس بن قيظي القائل لرسول الله يوم الخندق ان بيوتنا عورة فائذن لنا لنرجع إليها فأنزل الله فيه :

﴿ يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فراراً ﴾ .

ومن المنافقين الذين تستروا بالاسلام خلال السنة الأولى لدخول النبي الى المدينة ابو حبيبة بن الأزعر وثعلبة بن حاطب ، وهلال بن امية ومعتب بن قشير ووديعة بن ثابت ، وعباد بن حنيف وكانوا قد اشتركوا في بناء المسجد الذي نهى الله نبيه عن الصلاة فيه وسماه مسجد ضرار كما جاء في الآيات ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ من سورة التوبة وستعرض لذلك المسجد وما جرى عليه عند الحديث عن غزوة تبوك حيث ان المنافقين قد كلفوا النبي (ص) ان يصلي فيه ووعدهم ان يلبي طلبهم بعد رجوعه من تبوك وكان من امره ان أمره الله بهدمه كما سيأتي ذلك عند الحديث عنه .

ومعتب بن قشير وهو احد المنافقين وهو الذي قال يوم احد لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا فأنزل الله تعالى في ذلك : **﴿ وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا ها هنا ﴾** (آل عمران ١٥٤) .

وقال يوم الاحزاب : كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر ، واحدنا اليوم لا يأمن ان يذهب الى الغائط فأنزل الله فيه : **﴿ واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً ﴾** .

وجاء عن زيد بن الصلت احد يهود بني قينقاع حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري اين ناقته ، ولما بلغ كلامه رسول الله (ص) قال : ان قائلاً يقول . يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء ولا يدري اين ناقته ، واني والله لا أعلم إلا ما علمني ربي وقد دلني عليها الآن فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها ، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله وكما وصفها لهم . وكان جماعة من المنافقين يحضرون المسجد فيستمعون احاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم خافتين أصواتهم قد التصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا

من المسجد اخراجاً عنيفاً .

وقـام ابـو أيـوب الأنصـاري الى عمـرو بن قيس احـد بني غنم من بني النجار فأخذ برجله وسحبه حتى اخرجه من المسجد وهـو يقول : اتخـرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ، وأقبل أبو أيوب أيضاً الى رافع بن وديعـة فلببه بردائه ثم نثره نثراً شديداً ولطم وجهه وأخرجه من المسجـد ، وقام عمـارة بن حزم الى زيد بن عمرو وكان رجلاً طويل اللحية فأخذ بلحيته وقاده قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد وجمع يديه ولدمه بهما لدمة خر منها الى الأرض .

وقام جماعة من المسلمين الى بقية المنافقين فأخرجوهم من المسجد بعنف وشدة حتى لا يعودوا لمثلها ، وتوالت الآيات الكريمة على النبي بشأنهم ليكون على بصيرة من امرهم فقال تعالى في سورة البقرة :

﴿ ومن النـاس من يقول آمنـا بـالله وبـاليـوم الآخـر ومـا هم بمؤمنـين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ .

﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قـالوا انمـا نحن مصلحون * الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

﴿ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس * قالوا انؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهـاء ولكن لا يعلمون * واذا لقـوا الذين آمنـوا قالـوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم﴾ .

الى كثير من الآيات التي بلغت اكـثر من ثمانـين آية في سـورة البقرة ، بالاضافة الى الآيات التي وردت في التوبة والمنافقين وغيرهما من السور حسب المناسبات الداعية الى التنديد بـأعمالهم ونـواياهم السيئـة التي كانت تـظهر في اقوالهم وأفعالهم بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي اشتد فيه الجدال بين محمـد واليهود ومن انضم اليهم

من المنافقين كتب رسول الله (ص) الى يهود خيبر كتاباً جاء فيه : من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى من قبل ، **ألا ان الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وانكم لتجدون ذلك في كتابكم :**

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراً عظيما ﴾ .

واني انشدكم بالله وأنشدكم بما انزل عليكم وأنشدكم بالذي اطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى انجاهم من فرعون وعمله الا اخبرتموني ، هل تجدون فيما أنزل الله عليكم ان تؤمنوا بمحمد فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغي ، فادعوكم الى الله والى نبيه .

فكان جواب زعيمهم كما جاء في شهادة صفية بنت حيي بن أحطب بعد أن وجد في ملامحه وصفاته علامات النبي الذي بشرت به التوراة ، كان جوابه أني ماضٍ في حربه وعداوته ما بقيت .

ومضى اليهود كلهم اذا استثنينا افراداً معدودين أسلموا وأخلصوا في اسلامهم كعبد الله بن سلام وأمثاله القلائل ، ومضوا يأتون الى النبي كل يوم بطلب جديد فاذا جاءهم بما عرفوا من الحق انكروا وتنكروا له وولوا مستكبرين .

وفي الوقت الذي تأزمت فيه الأمور وتكشف اليهود على واقعهم ، وفد على النبي (ص) وفد من نصارى نجران عدته ستون راكباً ، من بينهم من شرف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه في دينهم ، وكانت ملوك الروم من

النصرانية قد شرفوه ومولوه واخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات .

ورجح الأستاذ هيكل ان هذا الوفد أقبل على المدينة حين علم بما بين النبي واليهود من الخلاف ، طمعاً ان يزيد الخلاف شدة والنار اشتعالاً ، وعندما تتأزم الأمور بين الطرفين تصبح النصرانية المتاخمة للعرب من ناحية الشام ، والمتاخمة لهم في اليمن في امن من دسائس اليهود وعدوان العرب .

واجتمعت الأديان الثلاثة من أصحاب الكتب السماوية بمجيء هذا الوفد ودار بين الأطراف الثلاثة جدل عنيف ، وأدلى كل منهم بما عنده ، فانكر اليهود رسالة عيسى ومحمد انكاراً لا يعتمد الا على التعنت والمزاعم الفاسدة التي لا يؤمنون هم أنفسهم بها ، وزعموا مع ذلك ان عزير ابن الله ، وقال النصارى بالتثليث ، وألوهية عيسى ، ودعاهم محمد (ص) الى عبادة واحد احد لا شريك له ولا ولد وإلى وحدة روحية تنتظم العالم من ازله الى أبده .

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وسأله اليهودي والنصراني عما يؤمن به من الرسل فقال :

﴿آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون﴾. وكان ينكر عليهم اشد الانكار كل ما يلقون عليه من شبهة تتنافى مع التوحيد ويتلو عليهم من القرآن ما يدل على انهم قد حرفوا ما جاءت به التوراة والانجيل ، وانهم يذهبون الى غير ما

ذهب اليه النبيون من قبلهم ، وان ما جاء بـه موسى وعيسى ومن سبقهم من النبيين لا يختلف عما جاء به .

﴿ شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا الـه الا هو العزيز الحكيم * ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم ﴾ اي انهم لم يختلفوا الا بعد ان جئتهم بالتـوحيد وانـه واحد لا شريك له ولا ولد ولا نظير ، وبهذه الحقيقة الخـالدة جـاء الأنبياء ولم يخالف احد منهم في ذلك ، ولكن الأصحاب والاتباع المتاجرين بالدين حرفوا وغيروا وبدلوا وكذّب بعضهم بعضاً ، فقالت النصـارى : ليست اليهود عـلى شيء ، وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء .

ثم ذكر لهم النبي ما كان من امر عيسى وكيف رفعه الله إليه حين اتفق اليهـود على قتله فقـال : **﴿ ومكـروا ومكـر الله والله خـير المـاكـرين ﴾** ، ثم اخبرهم ورد عليهم فيما أقروا به في صلب اليهود لعيسى ، فقال **﴿ إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الـذين كفروا إلى يـوم القيامـة ﴾** ، ثم اخبرهم عن عيسى وعن ولادته بقوله : **﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فـلا تكن من الممترين ﴾** ، اي انهم إذا قـالوا كيف خلق عيسى من غـير ذكر فقـل خلقته كـما خلقت آدم من غير ذكـر ولا انثى ، وكان كعيسى انساناً من لحم وشعر وبشـر ، فليس عيسى بأعجب من آدم ان لم يكن آدم أعجب وأغرب منه .

ثم قال **﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾**، إذا حاجـوك من بعد ما قصصت عليك من اخبارهم وأسرار خلقهم وكيف كان امـرهم . فادعهم الى المباهلة وقل لهم :

﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسـاءنا ونسـاءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

وجاء في كتب الحديث والسيرة انهم لما نظروا الى النبي ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين انسحبوا من موقفهم وقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في امرنا وغداً نأتيك فيما نريد ان نفعل ، ثم انصرفوا عنه واجتمعوا يتشاورون مع كبيرهم أبي حارثة العاقب، فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى ، فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال ان فعلتم ، فإن كنتم أبيتم الا إلف دينكم والاقامة على ما انتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا الى بلادكم ، فأتوا رسول الله وقالوا : يا أبا القاسم، قد رأينا الا نلاعنك ، وان نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث رجلاً معنا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من اموالنا فانكم عندنا رضا .

وفي سيرة ابن هشام انه ارسل معهم أبا عبيدة بن الجراح ، وان عمر بن الخطاب قد تمنى ان يكون هو المبعوث من قبل النبي (ص) ، وكان يقول على حد زعم الراوي ، ما أحببت الإمارة قط حبي اياها يومئذ رجاء ان أكون صاحبها .

وينقل عن عمر بن الخطاب انه ذهب الى صلاة الغداة مبكراً ، فلما صلى رسول الله وسلم نظر عن يمينه وعن يساره فجعل عمر يتطاول ليراه رسول الله فلم يزل النبي (ص) يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه وقال : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، فذهب ابو عبيدة .

هذه صورة مجملة عما دار بين الوفد وبين النبي (ص) من المناظرات حول الأديان وانتهت بعجزهم وانسحابهم من المعركة وطلبوا من يعلمهم ويقضي بينهم اقتضبناها مما جاء في سيرة ابن هشام ، ولقد ذكر ابن هشام

وغيره وفد نجران من حوادث السنة الثانية ، وتبعه على ذلك ابن سعد في طبقاته .

والواقع ان الوفد كان في السنة السادسة او السابعة من هجرة النبي (ص) لأن الآية التي تنص على المباهلة من سورة آل عمران بأن يباهلهم بنفسه وأبنائه وقد خرج لهم ومعه علي وفاطمة والحسنان (ع) ، وفي السنة الثانية من الهجرة لم يكن علي (ع) قد تزوج بفاطمة ، فقد تزوج بها في اواخر الثانية او الثالثة كما جاء في بعض المرويات ، وفي السنة السادسة كان الحسنان يدرجان .

وجاء في تفسير الثعلبي عن مجاهد والكلبي انه (ص) لما دعاهم للمباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما اجتمعوا ، قالوا للعاقب وكان ذا رأي فيهم : يا عبد المسيح ما ترى فقال : والله لقد عرفتم يا معشر الأنصار ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من امر صاحبكم ، والله ما باهل قوم قط نبياً وعاش كبيرهم ونبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن ، فإن ابيتم الا إلف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم .

فأتوا رسول وقد غدا محتضناً الحسن وآخذاً بيد الحسين وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول : إذا انا دعوت فآمنوا ، فقال اسقف نجران : يا معشر النصارى اني لأرى وجوها لو سألوا الله ان يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم : رأينا ان لا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ، فقال : إذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا ، قال فاني اناجزكم فقالوا ما لنا بحرب العرب من طاقة ولكن نصالحك على ان لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على ان نؤدي اليك كل عام ألفي حلة ألفاً في صفر وألفاً في رجب ، وثلاثين درعاً من حديد فصالحهم على ذلك .

وأضاف الراوي ان النبي (ص) قال : والذي نفسي بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤ وس الجبال ولما حال عليهم الحول .

وفي تفسير الميزان ان ابن اسحاق في كتاب المغازي رواها قريباً من ذلك كما رواها المالكي في الفصول المهمة والحموي عن جريح بما يقرب من رواية الثعلبي .

وجاء في صحيح مسلم في وصف حوار بين سعد بن أبي وقاص ومعاوية بن أبي سفيان جاء فيه ان معاوية طلب من سعد بن أبي وقاص ان يسب عليا ، قال له سعد : ما دمت أذكر ثلاثاً قالها الرسول لعلي فلن أسبه ، ولأن يكون لي واحدة منها احب إلي من حمر النعم :

سمعت رسول الله يقول له يوم خلفه على المدينة وشق ذلك على علي (ع) : اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها ، فقال ادعوا لي عليا : فأتي به وهو أرمد العين فبصق في عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله على يده .

ولما نزلت الآية : **﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين ﴾** ، دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال هؤلاء أهل بيتي .

وجاء في رواية اليعقوبي ان ابا الحارثة احد زعمائهم قال : انظروا من جاء معه ، وغدا رسول الله اخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بين يديه ، فقال ابو حارثة : من هؤلاء معه قالوا هذا ابن عمه وهذه ابنته وهذان ابناها فجثا رسول الله على ركبتيه ثم ركع ، فقال ابو حارثة : لقد جثا والله

كما يجثو النبيون للمباهلة وامتنع الوفد من مباهلته بعد ان رأى من معه .

وقال في تفسير الميزان ان الترمذي رواه في صحيحه ، وابو المؤيد الموفق بن احمد في فضائل علي (ع) وابو نعيم في الحلية عن عامر بن سعد ، والحموي في فرائد السمطين .

ورواه الشعبي ايضاً عن جابر ، ورواه المغازلي وصاحب الدر المنثور وابن جرير وغيرهم .

ورواه الشيعة عن أهل البيت (ع) ودونه المؤلفون من الشيعة في مجاميعهم ولم يتردد في صحته احد من المؤلفين إذا استثنينا بعض السنة الذين لم يستطيعوا انكاره ولكنهم وقفوا منه كعادتهم من الأحاديث الواردة في علي وآل علي حيث اعتادوا ان يصفوها بالكذب لأن فيها رائحة التشيع حتى ولو كان رواتها من السنة ، وبالنسبة لحديث المباهلة فقد ادعوا بأن تفسير أنفسنا ونساءنا وابناءنا بفاطمة وبعلها وولديها هذا التفسير لا مصدر له إلا الشيعة كما يزعمون والسنة اخذوه منهم ، وأضافوا الى ذلك ان النساء في لغة العرب لا تستعمل إلا في الزوجات ما دام الإنسان متزوجاً إلى غير ذلك من المغالطات[1] .

موقف سلمان الفارسي من الاسلام

ليس بغريب إذا وجد بين أتباع النبيين فريق تبدو عليهم آيات الطهر والصفاء والبراءة ، فالمرسلون الكرام يتعهدون بالتعليم والتربية وبما يتركونه من الوصايا ضمائر البشر ليدفعوا بها الى الفضيلة ، وإذا علقت بنفوسهم

---

(١) انظر تفسير الميزان ج ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها .

شهـوة الى متع الـدنيا حـاولوا تنقيتهـا ليردوا عليهـا سناءهـا الذي قـد تحجبه الشهـوات ، فالنفـوس الطيبـة كالمصـابيح إذا خمـد ضوء احـدها وأدنيتـه من المصبـاح المضيء يكتسب الضوء وتنفـرج الظلمـات من حـولـه . ومهـما اوتي العقل من نفاذ وتبصر بالأمور لا يستطيع إدراك الحقائق ما لم تسدده العنـاية والرعاية .

وما اكثر من عالجوا شؤ ون الكـون ومشاكـل الحياة وظلوا زمنـاً طويـلاً يبحثـون عن الحقيقـة فتـاهـوا ولم يهتـدوا واصبحـوا كـالـطيـار الـذي يتيـه في الضبـاب الكثيف ، فاذا لم يتلق إرشـاداً يحدد لـه مكانـه ويعرفـه كيف يسير وكيف يهبط ، فإنه يظل تائهاً وقد يهوي في مكان سحيق تكون به نهايته ونهاية من سار بهم على غير هدى ورشاد .

وقليل من يصلون في ابحاثهم الطويلة الى الغايـة الا بعد جهـود شاقـة وأعوام طوال ، ولكن اتباع النبيين والمرسلين الذين طـابت نفوسهـم وطهـرت قلوبهم من الأهواء والآثام قد يصلون الى غاياتهم في بضع ساعات معـدودات لأن مهمة الأنبياء ان يربطوا الناس بخالق الكون على أساس الاحساس بتلك القـوة والعرفـان للجميل ، ولـذا فإن النبي (ص) كـان يحـرص عـلى إبـراز الجوانب المحسوسة من مظاهر قدرة الله سبحانه التي اتسعت لجميع الكائنـات يتلو على الناس في الغالب من آيات الله البينات التي تتحدث عن الكـون وما فيه من المخلوقات والعجائب والنعم الجسام ليبني في نفوسهم الإيمان برسالتـه عـلى اساس من المعـرفـة والإدراك لأبعـادهـا . ﴿ **الله الـذي خلق السمـوات والأرض وانزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بـأمره ، وسخـر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

ان محمداً كان يعمل بكل جهده ليغرس في القلوب والأرواح معرفة الله والحق والخير وحب الانسان لأخيه الانسان ، حتى إذا أقبـل الانسان عـلى ربه

يقبل عليه بفكره وقلبه ويهب له نفسه وحسه وجميع مداركه وطاقاته ، وهذا الذي تعنيه الآية .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

ان محمداً (ص) لم يطلب من الناس ان يقدسوا فيه صورته المركبة من اللحم والدم ، ولم يرد ان يستأثر على احد بشيء ولا بأن يتأله عليهم كما تأله فرعون وأمثاله من الجبابرة والطغاة ، بل أرادهم ان يقدسوا فيه معنى الرسالة وان يهتدوا إلى مثلها العليا، وان يصونوا فيها معالم الحق والرحمة والخير، وقد استطاع ان يشحن هذه المعاني في نفوس المئات ممن عاصروا دعوته وجهوده وتضحياته في سبيلها كسلمان الفارسي الذي آمن به منذ ان رآه وبعد ان سمع شيئاً من رسالته ، حتى بلغ القمة في ايمانه ، وأصبح في زمانه كلقمان في زمانه كما جاء ذلك عن الرسول (ص) :

وحدثت السيدة عائشة انه كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا عليه .

وجاء في الحديث عن الرسول (ص).ان ربي امرني بحب اربعة علي وأبي ذر والمقداد وسلمان .

وروى ابو البختري عن علي (ع) انه قال : ان سلمان علم العلم الأول والعلم الآخر ، وكان بحراً لا ينزف وهو منا اهل البيت .

وفي شرح النهج أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب وبلال في نفر من المسلمين ، فقالوا ما اخذت السيوف من عدو الله ، يعنون بذلك ابا سفيان وهو يسمعهم ، فقال لهم ابو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؛ وأتى النبي وأخبره بقولهم : فقال يا ابا بكر أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم ، فقد أغضبت الله ، فأتاهم ابو بكر وقال يا اخوتاه لعلي أغضبتكم ، فقالوا لا يا ابا بكر يغفر الله لك الى كثير من الأحاديث المروية من طرق الشيعة والسنة في فضله واخلاصه وخدماته التي قدمها في سبيل نشر الدعوة ، حتى بلغ به مرتبة

قال فيه النبي : سلمان منا اهل البيت ، وقال لا تقولوا سلمان الفارسي ، ولكن قولوا سلمان المحمدي .

وجاء في حديث اسلامه في الطبقات الكبرى لابن سعد انه كان فارسياً من قرية تابعة لأصفهان يدين بالمجوسية دين آبائه ، فمر بكنيسة للنصارى فأعجبته طقوسهم ، فسأل عن مصدر هذا الدين الذي تدعو اليه الكنيسة ، فقيل له انه ببلاد الشام ، فخرج متخفياً من أهله مع قافلة من التجار واتصل بالأسقف هناك وبقي عنده مدة من الزمن ، ثم خرج الى الموصل والتحق برجل فيها من النصارى ، ومنها اتجه الى نصيبين واتصل براهب فيها أخبره بأنه سيخرج رجل يبعث نبياً في أرض الحجاز ويستقر في أرض ذات نخل لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، وبين كتفيه خاتم النبوة .

ولما مر به ركب الحجاز سافر معهم إليها ، فباعوه من رجل يهودي ، وانتقل منه إلى احد بني قريظة في المدينة ، فاستعمله في بساتينه ، ولما هاجر النبي (ص) إلى المدينة قال سلمان على حد زعم الراوي : والله اني لفي رأس نخلة وصاحبي تحتها وإذا بأحد بني عمومته يقول له : أي فلان قاتل الله بني قيلة انهم ليجتمعون على رجل قدم من مكة يزعمون انه نبي فوالله ان هو إلا أن قالها فاخذني القر والانتفاض فنزلت من النخلة وجعلت استقصي في السؤال ، فقال لي سيدي أقبل على شأنك ودع ما لا يعنيك .

فلما أمسيت اخذت شيئاً كان عندي من التمر وأتيت به النبي (ص) ، فقلت له بلغني انك رجل صالح وان لك اصحاباً غرباء ذوي حاجة ، وهذا الشيء عندي للصدقة وأنتم أحق به من غيركم ، فقال (ص) لأصحابه كلوا وأمسك ، فلم يأكل منه شيئاً فقلت في نفسي هذه واحدة وانصرفت ، فلما كان من الغد اخذت ما كان بقي عندي وأتيته به فقلت له رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية ، فقال لأصحابه كلوا وأكل معهم ، فقلت في نفسي هو هو ، وانكببت عليه أقبله وأبكي ، فقال ما لك : فقصصت عليه قصتي .

ثم قال يا سليمان : كاتب صاحبك فكاتبته على ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية ، وقال رسول الله للأنصار : اعينوا اخاكم فاعانوني بالنخل حتى أحضروا ثلاثمائة ودية فوضعها رسول الله بيده فصحت كلها ، إلا نخلة واحدة غرسها عمر بن الخطاب ، فقلعها رسول الله ، ثم غرسها بيده فعاشت وأثمرت ، وأتاه مال في بعض المغازي فأعطاني منه وأديت كتابتي .

وجاء في رواية الطبقات ان رجلاً من الأنصار أعطاه شيئاً يعادل البيضة من ذهب ، فأدى منه كتابته وأصبح حراً ، وأكثر الروايات حول اسلامه لا يطمأن اليها كما يبدو ذلك للباحث في أسانيدها ومتونها .

واتفق المؤرخون على انه قد اشترك في حرب الخندق وهو الذي أشار على المسلمين بحفره حول المدينة حتى لا يستطيع احد من المشركين ان يدخلها ، وقال ابو سفيان يوم ذاك انها لمكيدة ما كان العرب ليعرفوها . ويدعي بعض المؤرخين ، انه قد أسلم في السنة الأولى من دخول النبي (ص) الى المدينة .

وعلى اي الأحوال ، فلقد اتفق جميع المؤرخين والمحدثين على انه كان من الصفوة بين عظماء الصحابة ، والأحاديث التي وردت في فضله لم ترد في حق احد من صحابة الرسول (ص) .

اما الكيفية التي يرويها المؤرخون والمحدثون عن مراحل حياته وما رافقها من الأحداث حتى انتهى الحال به الى المدينة الى غير ذلك مما يرويه المؤرخون حول اسلامه فأكثره من المراسيل ، التي لا توجب الاطمئنان . وقد ذكرنا اكثر من مرة ان السيرة النبوية لم تدون تدويناً شاملاً قبل مطلع القرن الثاني ، والذين اتجهوا الى التدوين العام يوم ذاك قد ادخلوا عليها عشرات القصص والأحاديث إما عن حب وهوى ، أو بقصد التشويه والتشويش لسنة الرسول وسيرته .

ولكن الذي لا شبهة فيه انه لم يكن عادياً كسائر الموالي والمستخدمين

حتى قبل دخوله في الإسلام ، فلقد جاء عن النبي (ص) انه قال : سلمان صاحب الكتابين ، يعني بذلك الانجيل والقرآن .

وجاء في بعض المرويات عنه انه انتقل من دين الى دين عن حكمة وتدبر الى ان انتهى الى الاسلام واستقر عليه مؤمناً بأصوله ومبادئه ، مخلصاً في تطبيقه زاهداًفي الدنيا عزوفاً عن شهواتها وملذاتها ، تاركاً للأجيال مثلاً كريماً عن المصطفين الأخيار الذين أقبلت الدنيا عليهم فاعرضوا عنها وقبل ان تستعبدهم استعبدوها ورفضوها وخرج منها لا يملك من حطامها إلا بيتاً بناه له احد المسلمين من ماله ، لا يتسع لأحد سواه كما جاء في شرح النهج ج ٤ ص ٢٢٤ ، مع ان الخليفة كان قد ولاه المدائن وجهاتها وبإمكانه ان يتقاضى من خزينة الدولة من الأموال ما يكفيه لكل اسباب الراحة والنعيم ، ولكنه آثر ان يستهين بكل ما في الدنيا من نعيم ومتع ليكون مع النبيين والصديقين يوم يوفي الله العاملين اجورهم بغير حساب .

السرايا او المناوشات الأولى

لقد اتفق اكثر المؤرخين وكتاب السيرة ان النبي (ص) قبل ان تنتهي السنة الأولى من هجرته ، وقبل ان تبدو له بوادر الاطمئنان على أوضاع المدينة وجوارها ، بدأ يبعث السرايا لخارج المدينة ويختار لقيادتها الاكفاء الاشداء من بين اصحابه .

ويدعي ابن سعد في طبقاته ان عدد مغازيه التي اشترك فيها بنفسه كانت سبعة وعشرين غزوة ، وعدد سراياه التي كانت تتألف من الثلاثين والأربعين والخمسين وما يزيد على المئتين احياناً كانت سبعا وأربعين سرية ، ويرجح الكثير من الكتاب ان تلك السرايا كانت بقصد الانتقام من قريش

وانهم قد صمموا عليها منذ ان وضعتهم اقدامهم في المدينة ، ولكن الذي منعهم من تنفيذها بتلك السرعة هو انصرافهم الى إعداد مساكنهم وتنظيم وسائل عيشهم ، ويضيف الى ذلك اصحاب هذه الأفكار ان تلك الغزوات قد وضع محمد تصميمها قبل هجرته يوم اجتمع بالأوس والخزرج بالعقبة لآخر مرة وقرر فيها بنود الاتفاق الذي ينص على الدفاع والقتال ، وعلى أثرها نزلت الآيات التي تضع حداً لذلك العهد وتؤذن ببداية عهد جديد يتسم بالشدة والدفاع عن النفس .

وأصحاب هذه النظرية ومن تبعهم من المستشرقين يؤيدونها بأن النبي (ص) قد بعث عمه الحمزة في عدد من المهاجرين الى شاطىء البحر فالتقى بأبي جهل بن هشام ومعه ثلاثمائة منَ المكيين وكادت الحرب ان تقع لولا ان مجدي بن عمرو الجهني قد حجز بين الفريقين ، وكان موادعاً لهما ، فانصرفوا ولم يكن بينهم قتال .

وبعد ذلك بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً وسار بهم حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية الحرة فلقي فيها جمعاً من قريش ، ولم يكن بينهم قتال ، غير ان سعد بن أبي وقاص رمى بعضهم بسهم ، وكان اول سهم رمي بالإسلام على حد تعبير ابن هشام وغيره ، ويمضي اصحاب هذا الرأي في سرد الغزوات ويستخلصون منها ان الغرض الأول منها كان الانتقام من قريش واعلان الحرب على كل من لم يخضع للدعوة الإسلامية .

وقد تعصب لهذا الرأي المستشرقون لأنه يوافق اهدافهم الرامية الى الدس على الإسلام والتشويش عليه ، وأضافوا الى ذلك ان المهاجرين وأهل المدينة وضعوا في حسابهم نهب تجارة قريش التي كانت تبعث بها مكة والطائف الى خارج الحجاز بصورة دائمة ، وكانت تبلغ في بعض الأحيان ألفي بعير ، والنهب والسلب كانا من طباع أهل البادية .

ويدعي هؤلاء بأن النهب والسلب كانا من الأسباب الرئيسية لالتفاف

سكان المدينة حول محمد بن عبد الله (ص) الى غير ذلك من المزاعم التي لا تؤيدها سيرة محمد وتاريخ الدعوة ومبادىء الإسلام التي تهدف اول ما تهدف الى الرحمة والعفو وتوفير الاطمئنان والأمان والحياة الحرة السعيدة لجميع الناس ، ولم يشأ النبي (ص) في يوم من الأيام ان يكره احداً على التخلي عن دينه ولا ان يفرض سطوته ويتأله على الناس ، وقد عاهد اليهود والمشركين حين دخوله المدينة ، وضمن لهم حرية التصرف كما يريدون على شرط ان لا يعتدوا ولا يتعاقدوا مع احد عليه وعلى اصحابه ، وترك لهم ان يمارسوا دينهم كما يشاؤ ون ،وفعل مع نصارى نجران مثل ذلك ، في حين انه كان حينما وفدوا عليه أقوى منه حين عاهد المشركين واليهود في المدينة وغيرها ، والمتتبع لسير الدعوة وأهدافها لا يبقى لديه مجال للتردد في ان محمداً لم يكن في يوم من الأيام ليخطط للانتقام والثأر ، وقد عفا عن قاتل عمه الحمزة وعمن أكلت من كبده ومثلت به أفحش تمثيل وأقساه .

ولو كان يحقد على قريش ويطمع في اذلالها كما يدعي المستشرقون ، ويضع في حسابه ما فعلته معه خلال ثلاثة عشر عاماً حتى اضطر اخيراً ان يخرج ليلاً هارباً بدمه ، لكان باستطاعته ان يستوفي لنفسه منها حينما ظفر وكانت تظن انه سيفعل ، ولكنه بدلاً من ان يثأر لنفسه وللمعذبين من أصحابه دخل مكة عام الفتح مطأطئاً رأسه خجلاً من قومه كأنما كان يعيش بينهم في امن وأمان وتعظيم واحترام وأعلن كلماته الخالدة التي تمثل سماحة الإسلام وأهدافه العليا .

اليوم يوم المرحمة من دخل داره فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن الى غير ذلك من البلاغات التي أعلنها لتسبقه الى مكة ، فمن كان يحمل هذه الروح الطيبة الطاهرة ويدعو الى الرحمة والسلام ، والمحبة والأمن والأمان ، فمن الظلم الفاحش ان تفسر حركاته بالانتقام لنفسه ولأصحابه وهو لا يزال في مطلع عهده الجديد يعالج هو واصحابه وانصاره مشكلة المنافقين والمشركين واليهود

في المدينة وجوارها لا سيما وقد رأى منهم موقفاً لا يقل في أخطاره عن موقف قريش وأتباعها ، فلا بد وان يكون لتلك السرايا والغزوات في مطلع هجرته والتي كانت تتألف من اعداد محدودة لا تشكل خطراً على أخصامه وتوالت بشكل متتابع بين الحين والآخر لا بد وان يكون لها سر غير الجنوح الى الانتقام والثأر من القرشيين كما يدعيه اعداء الإسلام ، ويمكن تلخيص الأهداف من تلك الغزوات المتتالية بالنحو التالي .

لقد كانت بيعة العقبة الثانية التي تمت بين الأوس والخزرج من جهة وبين محمد واتباعه من جهة ثانية ، وخفيت على قريش وغيرها من سكان مكة في بداية الأمر ولم يعلموا بها إلا بعد فوات الأوان ، وكان من اهم نصوصها ان يمنعوا المسلمين مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم وعشائرهم .

وتم بين الطرفين اللقاء في يثرب وكانت حفاوتهم به بالغة اقصى حدودها واقبالهم على الإسلام يزيد يوماً بعد يوم ، وظل فريق منهم على الشرك واظهر بعضهم الإسلام وأسرَّ النفاق ، وكان في المدينة وجوارها من اليهود ما لا يقل عن عرب يثرب ، ولكنهم عاهدوه في بداية الأمر كما ذكرنا ، وانتقضوا عليه بعد اشهر قليلات من توقيع المعاهدة بينهم وبينه وبدأوا يتآمرون مع المشركين والمنافقين ، والنبي يعالج الأمور بالحكمة والحسنى ويغضي كثيراً عن سيئاتهم حتى لا يؤدي الأمر الى معركة اهلية في مقره الجديد قد لا تكون من صالحه بالنهاية .

ولكنهم بالرغم من كل مواقفه التي اتسمت باللين والتساهل والتغاضي ، فقد بدأوا يتصلون بالقبائل المتاخمة لحدود المدينة ويجاهرون بموقفهم العدائي منه ومن اصحابه وجعلوا يتصلون بالمكيين ويتآمرون معهم على المسلمين في داخل المدينة .

وبدأت قريش من جانبها تعد العدة للغزو من الخارج ومحاصرة محمد واصحابه في داخل المدينة مع أعوانهم اليهود والمنافقين قبل ان يستفحل خطر

الإسلام ، وتشير الأحاديث في بعض تلك السرايا الى هذه الحقيقة .

فقد جاء في كتب السيرة ان عبيدة بن الحارث التقى في طريقه بجمع عظيم من قريش ، كما وان الروايات التي تعرضت لسرية الحمزة تنص على انه التقى بأبي جهل بن هشام في ثلاثمائة راكب من اهل مكة وكانت سريته مؤلفة من ثلاثين مقاتلاً فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني الى غير ذلك مما يشير الى ان قريشاً كانت ترسل من قبلها السرايا بأعداد كبيرة مجهزة بالعتاد اللازم ، وإذا لم تكن الغاية منها التضييق على النبي (ص) ومحاصرته في المدينة بين عدوين من أشرس خلق الله اليهود بمن معهم من المشركين والمنافقين من جهة وقريش وأتباعها من جهة اخرى ، وليس ذلك ببعيد ويؤيده منطق الحوادث في ذلك العصر ، إذا لم تكن الغاية منها ذلك ، فمن الجائز ان تكون تلك التحركات من جانب قريش لتطمين القبائل العربية التي تسكن خارج المدينة من خطر محمد والتعاقد معها على مناهضته ، وفي الوقت ذاته لحماية تجارتها .

ومما يشير الى ذلك ان النبي في الغزوة التي أرسلها بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي كتب له كتاباً وامره ألا يفتحه إلا بعد يومين من مسيرته ، ولما فتحه في الوقت الذي حدده له النبي (ص) وجد فيه إذا نظرت كتابي فامض حتى تنزل نخلة فترصد لنا قريشاً وأخبارها وتحركاتها ، ولم يأمره فيه بالحرب ، ومعنى ذلك انه كان يحاذر من تحركات قريش وغزوها ، ودسائسها . وان سراياه الأولى كانت للاستكشاف حتى لا يؤخذ من حيث لا يعلم .

ومما يدل على ان بعض الأعراب من خارج المدينة بدأوا يتحركون ضد النبي (ص) بتحريض من الداخل والخارج ان غزوة صفوان كان سببها كما يدعي ابن هشام وغيره ان كرز بن جابر الفهري أغار بمن معه من الأعراب على المدينة واستولى على الإبل والمواشي التي كانت مع الرعاة وفر بها .

ولما علم النبي (ص) بالأمر خرج بنفسه مع جماعة من المسلمين واشتد

في طلبـه الى ان بلغ النبي وادياً يقـال له صفـوان ، وكان قـد فاتـه الرجـل ، وتعرف هذه الغزوة بغزوة بدر الصغرى ، او الأولى على حد تعبير بعضهم .

وكـان من المتعين ان لا يقف النبي من تلك التحـرشـات والتحـديـات موقف المتخاذل الضعيف فأمره الله سبحـانه بتلك السـرايا لتفهم قـريش ومن يساندها من اليهود والمنـافقين والأعـراب انه بـالمرصـاد في كل وقت لكـل من تحدثه نفسه ان يقف في طريق الدعوة ويحول بينه وبينها ، ولم يتراجع عنها يوم كان وحيداً في ثلة من اصحابه وقـد أذاقته قـريش كل انـواع الأذى والبلاء ، فـأولى به ان يمضي في دعـوته ، وقـد اصبح لـديـه من الأنصـار والأتبـاع مـا يستطيع ان يرد بهم كيد المعتـدين ويمضي في دعوتـه حيث النصر الأكيـد باذن الله .

هـذا على ان هـذا المظهـر من النبي والتصميم عـلى المضي في دعـوتـه وخـروجه بنفسـه احيانـاً مع عـدد من اصحابـه الى خـارج المـدينـة ، واكـثر الأعراب لا يزالون على شـركهم ومناهضتهم لـلاسلام ، هـذا المظهـر يثير في نفوس اصحابه العز والتصميم والاصـرار على المضي معـه ، وفي الوقت ذاتـه يكون حافزاً لمن يرغب في الإسلام ان يبقى على تصميمه مـا دام الإسلام في طريقه الى الأمام يتحدى جميع اعدائه ومناهضيه وجاء في الآيـات التي شرعت الجهاد ما يلمح الى ذلك قال سبحانه :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون عـدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وانتم لا تـظلمون * وان جنحـوا للسلم فاجنـح لها وتـوكل عـلى الله انـه هـو السميع العليم * وان يـريـدوا أن يخدعـوك فـإن حسبك الله ﴾ (سورة الأنفال ٦٠ ـ ٦٢) .

وجاءفي آية ثانية : **﴿ فقاتل في سبيـل الله لا تكلف إلا نفسك وحـرض المؤمنـين عسى الله ان يكف بـأس الـذين كفـروا والله أشـد بـأسـاً وأشـد**

تنكيلاً ﴾ .

فالآية الأولى تكاد ان تكون صريحة في انه انما امر بذلك لإرهاب المجاهرين له بالعداء والمتسترين بالإسلام وهم من ألد اعدائه وخصومه كما امره الله ان يسالمهم إذا جنحوا للسلم .

كما تنص الآية الثانية على انه انما يقاتل ليكف بأس الذين كفروا ونافقوا لا لينتقم ممن آذوه وظلموه ، ولا ليكون من قطاع الطرق كما يدعي الحاقدون على الإسلام .

وقد المح الى هذا الذي ذكرناه الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة وأضاف إليه ان هذه السرايا يمكن ان تكون انذاراً لقريش واشعاراً لها بأن تلك الخطة الجائرة التي استعملتها في مكة ضد النبي ودعوته ، ولا تزال تستعملها بعد ان اصبح لديه من القوة ما يسمح له بالمجابهة الفعلية ، هذه الخطة ستلحق بها الأضرار الفادحة وان الزمن الذي كانوا يعتدون فيه وهم بمأمن من القصاص قد مضى بدون رجعة .

ومهما كان الحال فالراجح ان تلك السرايا التي كانت تتألف من ثلاثين رجلاً كما في سرية الحمزة ، او من ستين كما في سرية عبيدة بن الحارث او ثمانية كما في سرية سعد بن أبي وقاص وعشرين على قول آخر هذه السرايا التي كانت تتألف من ذلك العدد القليل من المستبعد أن تكون الغاية منها حرب قريش او غيرها من الأعراب ، في الوقت الذي كانت قوى الشر والعدوان كلها تتكتل ضد النبي وأصحابه من كل الجهات ، وانما كانت تعني ظهوره بمظهر القوي المؤمن بحقه القادر على رد العدوان أياً كان مصدره بعد ان رأى ان لا سبيل له إلا بذلك .

وعلى اي الأحوال فأول غزوة غزاها كما جاء في تاريخ الطبري وسيرتي ابن اسحاق وابن هشام ان اول غزوة غزاها بعد ان دخل المدينة باثنتي عشر

شهراً هي غزوة ودّان يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وهي غزوة الابواء فوادعته فيها بنو ضمرة ، وكان الذي وادعه منهم كبيرهم مخشي بن عمرو ورجل آخر ، ثم رجع رسول الله الى المدينة ولم يقع بينه وبين احد شيء .

وجاء في رواية المفيد في الإرشاد ان رايته فيها كانت مع علي (ع) وهي اول راية عقدها في الإسلام ، وبعد حوالى شهرين من مقدمه أرسل عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب في ستين او ثمانين راكباً من المهاجرين فسار بهم حتى بلغ ماء في الحجاز بأسفل ثنية الحرة ، فلقي جمعاً من قريش ولم يقع بينهم شيء وانصرف كل منهما عن الآخر .

والتحق بالمسلمين في هذه الغزوة المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان بن جابر ، وكانا مسلمين ، ولكنهما خرجا مع المشركين ليجدا الوسيلة الى الالتحاق بالمسلمين ، فصادفا تلك السرية فالتحقا بها ، وكان يتولى قيادة المشركين عكرمة بن ابي جهل ، وأرسل الحمزة الى سيف البحر في ثلاثين راكباً ، فالتقى مع أبي جهل ومعه ثلاثمائة من قريش فحجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للطرفين .

غزوة العشيرة

وقد خرج فيها رسول الله (ص) فيما يدعي المؤرخون وكتاب السيرة كابن هشام وابن جرير انه خرج ليعترض قافلة لقريش كانت في طريقها الى مكة ، واستخلف على المدينة ابا سلمة بن عبد الأسد ، وكانت في السنة الثانية من هجرته ، ولواؤه مع الحمزة بن عبد المطلب ، ومضى حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ولم يلق بها احداً ، غير انه وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة .

وحدث ابن اسحاق عن جماعة عن عمار بن ياسر انه قال : كنت انا وعلي بن ابي طالب رفيقين في غزوة العشيرة فلما نزل رسول الله وأقام بها رأينا أناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم فيها نخل ، فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان هل لك ان تذهب إلى هؤلاء القوم فتنظر كيف يعملون؟ قال قلت ان شئت فجئناهم ونظرنا إلى عملهم ساعة ثم غشينا النوم ، فانطلقت انا وعلي (ع) حتى اضطجعنا في صور من النخل وفي دقعاء (اي على التراب اللين) فنمنا والله ما أيقظنا الا رسول الله (ص) يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك البقعة التي نمنا فيها ففي ذلك اليوم قال رسول الله لعلي : ما بالك يا أبا تراب ، ثم قال : الا احدثكما بأشقى الناس قلنا بلى يا رسول الله ، قال أشقى الناس رجلان أحيمر ثمود الذي عقر ناقة صالح ، والذي يضربك يا علي على هذه ووضع يده على قرنه حتى يبل منها هذه واخذ بلحيته الكريمة[1] .

ورواها ابن جرير الطبري في تاريخه على هذا النحو اولا ، وأضاف انه قيل غير ذلك ، وتتلخص روايته الثانية ان عبد العزيز بن ابي حازم روى عن ابيه انه قال قيل لسهل بن سعد الساعدي ان بعض امراء المدينة يريد ان يبعث اليك لتسب علياً على المنبر ، وتقول له يا أبا تراب ، قال والله ما سماه بذلك الا رسول الله .

قلت وكيف ذاك قال ، دخل على فاطمة ثم خرج من الدار واضطجع في المسجد في فيئه ، ثم دخل رسول الله (ص) على فاطمة وسألها عن علي (ع) ، فقالت له هو ذاك مضطجع في المسجد ، فجاءه رسول الله فوجده وقد سقط رداؤه عن ظهره وخلص اليه التراب ، فجعل رسول الله يمسح عن ظهره التراب ويقول : اجلس ابا تراب ، فوالله ما سماه بهذا الاسم الا رسول الله (ص) ، وكان والله احب اسمائه اليه .

---

(١) انظر ج١ من سيرة ابن هشام ص ٦٠٠ .

ولا منافاة بين الروايتين فمن الجائز ان يكون اول ما سماه بهذا الاسم في غزوة العشيرة كما جاء ذلك في رواية عمار حينما رآه نائماً فأيقظه ومسح عن ظهره التراب وقال كلمته الخالدة التي ظلت لغزاً طيلة اربعين عاماً حتى جاء ابن ملجم احد الشقيين فضربه بالسيف في محرابه فخضب كريمته من دم رأسه ، وناداه بهذا الاسم حينما رآه نائماً على تراب المسجد وقد علق التراب بظهره فمسحه وقال له اجلس ابا تراب .

وروى ابن هشام عن ابن اسحاق ان جماعة من اهل العلم حدثوه بأن النبي انما سمّى علياً أبا تراب لأنه كان اذا تشاجر مع فاطمة على امر من الأمور لم يكلمها ولم يقل لها ما تكره الا انه كان يأخذ التراب ويضعه على رأسه حتى اصبح علامة على انه في نزاع مع فاطمة (ع) فكان رسول الله اذا رأى ذلك منه عرف انه في نزاع مع فاطمة ، فيقول له ما لك يا ابا تراب .

وبلا شك ان هذه الرواية من موضوعات عروة او ابي هريرة اللذين روى عنهما ابن اسحاق في سيرته كثيراً ومن الثابت ان عروة كان يتعمد الكذب على علي (ع) ويضع في حقه الأحاديث ، واحياناً كان يروي ما يسيء الى علي وآل علي ويسند مروياته الى خالته عائشة في الغالب ، وموقف السيدة عائشة من علي وفاطمة معلوم لدى كل منصف ، فلقد اعلنتها حربا طائشة على علي إمام المسلمين ، وأراقت دماء الألوف من الأبرياء وتجاهلت نصوص القرآن التي امرت نساء النبي ان يقرن في بيوتهن ، ووصية رسول الله التي حذرها فيها من موقفها المعادي لعلي .

ولكنها خالفت كل ذلك وقادت جيشاً لحربه في البصرة مخالفة بذلك نصوص القرآن وسنة رسوله (ص) والسيدة فاطمة (ع) ارفع شأناً من ان تغضب علياً او تسيء اليه في قول او فعل كما تؤكد ذلك سيرتها الكريمة[1] .

---

(١) انظر سيرة هشام ج ١ ص ٦٠٠ .

سرية عبد الله بن جحش

لقد جاء في كتب السيرة والتاريخ ان النبي (ص) بعث عبد الله بن جحش في سرية مؤلفة من اثني عشر رجلاً من المهاجرين وكتب له كتاباً وامره ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين عن المدينة ، ثم ينظر فيه ويمضي لتنفيذ امره ، ولا يستكره احداً من اصحابه على متابعته بعد اعلامهم بمضمونه ، فلما سار يومين عن المدينة نظر في الكتاب واذا فيه اذا نظرت كتابي هذا فسر حتى تأتي نخلة بين مكة والطائف لترصد قريشاً وتعلم لنا من اخبارهم .

فلما قرأ الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، وقال : لأصحابه قد امرني رسول الله ان امضي الى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه باخبارهم ، وقد نهاني ان استكره منكم احداً فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ، فأما انا فاني ماض لأمر رسول الله (ص) ومضى معه اصحابه ولم يتخلف منهم احد ، فلما كان بمعدن فوق الفُرُع في موضع يقال له بحران اضل سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما فتعقباه وتخلفا عن السرية في طلبه . ومضى عبد الله ومن بقي معه حتى نزل نخلة . ووقع سعد وعتبة اسيرين في يد قريش .

ويرى بعضهم ان سعداً وعتبة بن غزوان قد جبنا فأرسلا بعيرهما وتذرعا في تخلفهما بالفحص عن بعيرهما وفضلا ان يقعا اسيرين في يد قريش على المضي مع عبد الله الى المكان الذي امره النبي بالمضي اليه .

ولما بلغ عبد الله بن جحش المكان الذي عينه لهم النبي (ص) نزل فيه فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وادماً وتجارة لقريش ومعها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا

قريباً منهم فأشرف عليهم عكاشة بن محصن من اصحاب عبد الله وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه آمنوا وقالوا لا بأس عليكم منهم .

وتشاور القوم فيهم وذكروا ما صنعته قريش بهم وما حجزته من اموالهم ، وذلك في آخر يوم من رجب وقال بعضهم لبعض ، والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن المسجد الحرام ولم يعد لكم بهم طاقة . وترددوا في امرهم وتهيبوا الإقدام عليهم ثم اتفقت كلمتهم على قتالهم واخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واسر المسلمون رجلين منهم ، وأفلت نوفل بن عبد الله وعجزوا عن القبض عليه .

وأقبل عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير الى المدينة وقال عبد الله لأصحابه ان للرسول مما غنمتم الخمس .

وأضاف ابن جرير وابن هشام الى ذلك ان هذا القول من عبد الله كان قبل ان يفرض الله الخمس في الغنائم فاذا صح ان الخمس لم يكن قد فرض في ذلك اليوم فتكون الرواية التي تنص ان عبد الله قال لأصحابه : ان لرسول الله فيما غنمتم الخمس من موضوعات المنافقين والغاية من وضعها ان النبي (ص) كان يشرع حسب الاقتراحات التي يستوحيها من اصحابه لا من الوحي الذي يأتيه من العلي القدير . وأضاف كتاب السيرة ان عبد الله قد قسم الغنائم والأموال بين اصحابه واستثنى لرسول الله خمسها ، فلما قدموا عليه قال لهم اني ما امرتكم بقتال احد في الأشهر الحرم ، وأوقف العير والاسيرين وأبى ان يأخذ من الخمس شيئاً ، وأسقط في يد عبد اللهواصحابه وعنفهم بقية المسلمين بما صنعوا واستغلت قريش الفرصة للتشنيع والتشويه ، ونادت في كل مكان ان محمداًوأصحابه قد استحلوا الأشهر الحرم وسفكوا فيها الدماء وأخذوا الأموال واسروا الرجال ، وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة ان ما اصابوه من القوم كان في شهر شعبان ولم يكن في الشهر الحرام ، كما استغل اليهود هذه الفرصة وترقبوا ان تقع الحرب بين محمد وأخصامه

وستكون لصالحهم وجعلوا يدسون ويفسدون لإشعالها وقدروا ان ذلك إذا كان سيرتاحون من محمد بدون ان يكلفهم التخلص منه ضرباً او قتالاً مع احد ، وكثر الحديث عن هذه الغزوة وما جرى فيها ، فلما اكثر الناس في ذلك انزل الله سبحانه على نبيه :

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به * والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل * ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ﴾ .

فلما نزلت الآية في حكم تلك الغزوة وما نتج عنها في مقابل الضجيج والدعايات التي أثارها المشركون والمنافقون انفرج النبي (ص) والمسلمون بهذا التشريع ، واستولى النبي (ص) على العير والأسرى ، وبعثت اليه قريش في فدائها ، فقال رسول الله لا نفديكموهما حتى يقدم علينا صاحبانا وهما سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشاكم عليهما ، فإن قتلا او اصيبا بأذى نقتل صاحبيكم .

ولما أرجع المشركون سعداً ورفيقه ترك النبي (ص) لهم الأسيرين وهما الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله ، ولكن الحكم رفض الرجوع لأنه كان قد اعتنق الإسلام وأقام بالمدينة الى ان استشهد في غزوة (بئر معونة) ، واما عبد الله فرجع الى مكة ومات بها مشركاً .

هذا ملخص غزوة عبد الله بن جحش وما نتج عنها من المضاعفات ، والواقع انها كانت اول غزوة من نوعها وقعت في ظروف غامضة محفوفة بالأخطار ، ومع ذلك فقد اقدم هذا النفر القليل يحدوهم الايمان والاخلاص لعقيدتهم وقائدهم على تنفيذ تلك الخطة مهما كانت النتائج .

وكان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ورجب واقر الاسلام تحريمها كما اقر كل عادة مستحسنة لا

سيما إذا كانت تخفف الظلم والقتل واراقة الدماء ، ولكن العرب الذين كانوا يحرمون القتال في الأشهر الحرم ظلوا ثلاثة عشر عاماً يحاربون النبي ويعذبون اصحابه بكل انواع العذاب واخيراً لم يجدوا سبيلاً لمحو الاسلام الا بقتله ، فاتفقوا على ذلك واضطروه لأن يخرج من المسجد الحرام هارباً بدمه بعد ان تسلل اصحابه وخرجوا متخفين عن قريش واحلافها .

ومضوا يتتبعون تحركاته ويتآمرون عليه مع اليهود مما اضطره لأن يدافع عن نفسه ودعوته بمن معه من المؤمنين ، وما جرى لعبد الله بن جحش معهم كان دفاعاً عن النفس ورداً على تحركاتهم وتحرشاتهم المتوالية .

وأجابت الآية اولئك المشركين الذين استغلوا تلك الحادثة ، بأن القتال في الأشهر الحرم كبير وعظيم ، ولكن الأعمال التي ارتكبتموها مع المسلمين ومع النبي (ص) ولا تزالون ترتكبونها هي اكبر وأفظع واشد خطراً على الإنسانية من القتال في الأشهر الحرم ، فالصد عن سبيل الله والكفر به اكبر من القتال في الأشهر الحرم واخراج أهله منه كما فعلتم مع النبي واصحابه .

واغتصاب اموالهم وتهديم دورهم افظع وأبشع واكثر ضرراً من استيلاء تلك السرية على شيء من اموالكم التي لا تعادل شيئاً بالنسبة لما اغتصبتموه واستوليتم عليه من اموال المسلمين في مكة ، وفتنة الناس عن دينهم بالوعد والوعيد والاغراء والتعذيب اكبر من القتال في الشهر الحرام وغير الحرام .

ولما كان الهدف الرئيسي للمشركين هو القضاء على الاسلام وعلى رسول الاسلام ، وكانوا يخططون لمحوه من الوجود امر الله سبحانه نبيه ومن معه من المسلمين ان يقاتلوا المشركين والكافرين دفاعاً عن دينهم وعن انفسهم في كل زمان ومكان ، ولم يستثن من ذلك الا القتال في المسجد الحرام ، ثم رخص لهم في قتالهم فيه اذا قاتلوهم فقال سبحانه في الآية ١٩١ من البقرة : ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم**

والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ (سورة البقرة ١٩١) .

وليس معنى ذلك ان الاسلام يدعو الى الحرب واكراه الناس على الدخول فيه كما يدعي المستشرقون والمبشرون واعداء الاسلام من شرقيين وغربيين ، الذين يعادون الاسلام ويقاومونه لا لشيء إلا لأنه يدعو الى الحق والعدالة ويقاوم البغي والفساد في الأرض والاستغلال والتسلط على الشعوب وكبت الحريات وقتل الأبرياء وتشريد الملايين من ديارهم وأوطانهم .

ان الاسلام لا يدعو الا الى حرب من يحارب الاسلام ويحاول البغي والفساد في الأرض ، ومن يحاول ان يفتن المسلمين عن دينهم وبلادهم ، أما انه يكره الناس على الدخول في الاسلام فتلك فرية كذبها القرآن نفسه في الآية ، **﴿ لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾** وفي الآية ١٩٠ من البقرة : **﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾** الى كثير من الآيات التي لم ترخص الا في قتال الذين يفتنون الناس عن دينهم ويبغون الفساد في الأرض .

وبما ان الحديث عن سرية عبد الله بن جحش قد جرنا الى الحديث عن القتال الذي رخص فيه الاسلام في مقام الدفاع أرى ان ألخص ما قاله الأستاذ هيكل بهذه المناسبة . قال ما مضمونه :

ان الحرب التي دعا إليها الاسلام في مقام الدفاع عن النفس والعقيدة هي بالوسائل التي كان المشركون يقاتلون بها ، انه حاربهم بنفس السلاح الذي استعملوه .

فاذا حارب الخصم بالحجة والرأي والمنطق ولم يستعمل وسيلة اخرى من وسائل الدفاع ليس لأحد ان يدافع ويخاصم بسلاح اقوى وافتك من ذلك ، وعندما يلجأ الخصم الى القوة المسلحة فقد رخص الاسلام دفع القوة بالقوة إذا استطاع الى ذلك سبيلاً ، اما اذا لم يستطع ذلك فما عليه الا ان

يصبر ويتحين الظرف المناسب كما فعل المسلمون الأولون قبل هجرتهم الى المدينة ، فقد احتملوا المساءة والأذى وصبروا على الهوان والضيم ولم يصدهم عن عقيدتهم جوع او حرمان ، ولكن ذلك لم يكن إلا لمن حباهم الله من قوة الايمان ما يصغر معه كل اذى وكل ضيم .

وأضاف الى ذلك انك إذا استطعت ان تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة وان تقف في وجه من يصد عن سبيل الله بوسائله وجب ان تفعل ، والا كنت مزعزع العقيدة ضعيف الايمان ، وهذا ما فعله محمد (ص) واصحابه بعد ان استقر بهم الأمر بالمدينة ، وهذا ما فعله المسيحيون بعد ان استقر لهم السلطان في رومة وفي بيزنطة ، وبعد ان لان قلب عواهل الروم لدين المسيح، واستطرد يقول ان المبشرين يقولون : ان روح المسيح تنكر القتال على اطلاقه اما الاسلام فانه يدعو الى القتال واراقة الدماء .

وتاريخ الاسلام امامنا شاهد عدل ، وتاريخ المسيحية امامنا شاهد عدل ، فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت اقطار الأرض جميعاً بالدماء وباسم المسيح خضبها الروم وخضبتها امم أوروبا كلها والحروب الصليبية انما اذكى لهيبها المسيحيون لا المسلمون ، وظلت الجيوش باسم الصليب تتحول من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة اقطار الشرق الإسلامي تحارب وتريق الدماء ، وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون تلك الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة ، افكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، وكانت مسيحيتهم زائفة ، ام كانوا ادعياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على اطلاقه ، ام يقولون ان تلك كانت العصور المسيحية المظلمة ، ان يكن ذلك بعض ما يقولون ، فإن هذا القرن المتمم للعشرين الذي نعيش فيه ، والذي يسمونه عصر الحضارة الانسانية العليا قد رأى اقبح وأفظع مما رأته تلك العصور الوسطى المظلمة ، فقد وقف اللورد اللنبي ممثل الحلفاء سنة ١٩١٨ يقول : في بيت المقدس حين استيلائه عليه في نهاية الحرب العالمية الأولى ، اليوم انتهت الحروب

الصليبية .

لقد استعرض الأستاذ هيكل موقف المسيحية العالمية من الاسلام ومواقفها العدائية منه الى حدود الحرب العالمية الأولى ، في حين ان مواقفها العدائية من الاسلام والبشرية التي لا تصبر على الضيم والاستغلال والاستعباد لم تنته ولن تنتهي ، وما زالت الأيام تطالعنا كل يوم بلون جديد من ألوان الحروب الصليبية المعادية للاسلام ومبادئه بقيادة الاستعمار والصهيونية العالمية الحاقدة على جميع القيم والأديان التي لا تقر شريعة الاغتصاب والاستغلال وتدمير المدن على السكان الآمنين والإبادة الجماعية لتحقيق اهدافهم ومصالحهم .

زواج علي امير المؤمنين من فاطمة الزهراء سيدة النساء

لقد جاء في الكافي للكليني عن الحسن بن محبوب عن حبيب السجستاني انه قال : سمعت ابا جعفر يقول : ولدت فاطمة بنت محمد (ص) بعد مبعثه بخمس سنين وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً .

وجاء في المجلد الثاني من اعيان الشيعة ان عمرها يوم تزوجت من علي (ع) كان يتراوح بين التاسعة والعاشرة والحادية عشر ، فبناء على ان زواجها كان بعد الهجرة بسنة واحدة يكون عمرها تسع سنين ، وبناءعلى انه كان في السنة الثانية كما رجح ذلك الطبري يكون لها من العمر عشر سنين .

وقيل ان عمرها كان يوم زواجها اثني عشر عاماً وولادتها كانت في

السنة الثانية من مبعثه ، وفي رواية الاستيعاب انها كانت في الخامسة عشرة ، وقيل انها كانت في الثامنة عشرة ، وولادتها كانت قبل المبعث بخمس سنوات ، وقيل غير ذلك من الأقوال التي لا يترتب على تحقيقها وتمحيصها فائدة تذكر .

وجاء في كشف الغمة عن ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال : لولا ان الله تبارك وتعالى خلق امير المؤمنين لفاطمة ما كان لها على وجه الأرض كفء أبداً ، وأضاف الى ذلك ان صاحب كتاب الفردوس روى ذلك عن النبي (ص) .

وفي مناقب ابن شهراشوب ، قد اشتهر في الصحاح بالأسانيد عن امير المؤمنين وابن عباس وابن مسعود والبراء بن عازب وغيرهم بصيغ تختلف في تركيبها وألفاظها وتتفق في مضامينها ان ابا بكر وعمر خطبا فاطمة من رسول الله (ص) مرة بعد اخرى فردهما .

وجاء في الطبقات لابن سعد ان ابا بكر خطبها من النبي (ص) فقال : انتظر بها القضاء ، وخطبها عمر فأجابه بنفس الجواب .

ولما جاءه علي (ع) خاطباً لم يزد على قوله : ذكرت فاطمة بنت رسول الله (ص) فقال النبي (ص) مرحباً وأهلاً ، فخرج علي ومن كان معه من الأنصار واخبرهم بما جرى له مع النبي ، فقالوا له قد أجابك لما تريد .

وفي الطبقات ان النبي (ص) ذكر علياً لفاطمة (ع) وقال لها : اني قد سألت ربي ان يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه ، وقد عرفت علياً وفضله ومواقفه ، وقد جاءني خاطباً ، فما ترين ، فسكتت ولم تتكلم بشيء فخرج وهو يقول : سكوتها اقرارها .

ثم ان رسول الله جمع المسلمين وخطب فيهم ، وكان مما قال : في خطبته كما جاء في رواية كشف الغمة عن المناقب ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي (ع) وقد زوجتها اياه على أربعمائة مثقال فضة ، والتفت الى

علي (ع) وقال له : أرضيت هذا الزواج يا علي ؟ قال رضيت يا رسول الله ثم خر لله ساجداً ، فقال النبي (ص) جعل الله فيكما الكثير الطيب وبارك فيكما .

وفي رواية انس بن مالك انه قال : بارك الله عليكما واسعد جدكما وجمع بنيكما واخرج منكما الكثير الطيب ، وعقب على ذلك انس بن مالك بقوله : والله لقد اخرجَ الله منهما الكثير الطيب .

وفي اكثر الروايات عن أهل البيت ان مهرها كان خمسماية درهم ، اي ما يعادل اثنتي عشرة اوقية ونصف من الفضة ، كل اوقية اربعون درهماً ، وأكد ذلك ابن سعد في طبقاته مدعياً ان جميع بنات رسول الله لم يزد مهرهن على ذلك .

وجاء علي (ع) بالمهر فصبه بين يدي رسول الله (ص) ، فقبض منه قبضة واعطاها بلالاً ، وقال : ابتع لفاطمة به طيباً ، وقبض منه بكلتا يديه ودفعه لأبي بكر وقال له : اشتر لفاطمة ما يصلحها من ثياب واثاث للبيت وارسل معه عمار بن ياسر وجماعة من اصحابه ، فكانوا يعرضون الشيء على أبي بكر فان استصلحه اشتراه ، ودفع مبلغاً من المال لأم ايمن لتشتري به امتعة للبيت ، وكان جهازها قميصاً بسبعة دراهم ، وخماراً بأربعة دراهم ، وقطيفة خيبرية سوداء ، وسريراً مزملاً[١] بشريط وفراشين من خيش مصر حشو احدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم ، وأربع مرافق[٢] من جلد الطائف حشوها إذخر[٣] وستراً رقيقاً من صوف ، وحصيراً هجرياً ، ورحى لليد ومخضباً[٤] من نحاس ، وهو اناء لغسل الثياب ، وسقاء[٥] وقبعا للبن

---

(١) اي ملفوف .

(٢) المرافق جمع مرفقة وهي ما يتكأ عليها وتوضع تحت المرفق .

(٣) الاذخر نبات طيب الرائحة .

(٤) المخضب ، ويقال له مركن واجانه وهو وعاء يستعمل لغسل الثياب .

(٥) السقاء ظرف من جلد .

وشناً [1] ومطهـرة مزفـة وجرة خضـراء وكيزان من خـزف وعباءة قـطوانية [2] وقربة ماء ونحو ذلك من الأدوات المبتذلة للطبقات الفقيرة .

ولما عرض هذا الجهاز على رسول الله (ص) جعل يقلبه بيده ويقول : بارك الله لأهل بيت جل آنيتهم الخزف .

وهكـذا تم هذا القران الذي اختـاره الله سبحـانـه لهـذين الـزوجين العظيمين وأراده لهما قبل ان يريداه ، وكتب الله لهـذين الاسمين الكـريمين ان يكونا تعبيراً صادقاً عن الانسان الكامل الذي تكاملت انسـانيته واصبـح المثل الأعـلى لكل بني الانسـان من ذكـر وانثى ، ولـو حـاول الإنســان ان يجمـع الصدق والحق والعدل والطهر والعفاف ، وما الى ذلك من الصفات الفـاضلة الكريمة لا يمكن ان يجد لها لفـظاً يحويهـا بكاملهـا غير هـذين الاسمين اللذين اتحدا مع جوهر تلك الكلمات ، فكان علي (ع) خير الناس بعد رسـول الله واحب الرجال إليـه ، وكانت فـاطمة (ع) سيـدة النساء واحبّهن اليـه ، كما جاء في رواية السيدة عائشة .

واستجاب الله لنبيه حين سأل ربه ان يخرج منهما النسل الكثير الطيب ، واخرج منهما النسل الطيب وائمة الهدى خلفاء الله في ارضه وأمناءه على وحيه الـذين من تمسك بهم ومضى عـلى سيـرتهم واخـذ بـأقـوالهم نجا وكـان مـع الفائزين ومن تخلف عن سيرتهم وتعاليمهم وانكر فضلهم وحقهم ضل وغوى وكان مع الهالكين .

---

(١) الشن هو السقاء يستعمل لتبريد الماء .

(٢) قطوانية بالتحريك عباءة بيضاء قصيرة الخمل نسبة الى قطوان موضع بالكوفة .

الفصل العاشر

بدر الكبرى

كانت سرية عبد الله بن جحش حيث اسر وقتل واستولى على القافلة بما فيها ، كانت هذه السرية انذاراً لقريش بأنها ما دامت على عنادها ومناهضتها للدعوة فسوف تلقى جزاءها العادل لا سيما وقد أذن الله لرسوله (ص) بقتال من يحاول الاعتداء والعدوان ، وأدركت قريش ان تجارتها مع الشام اصبحت تحت رحمة المسلمين ، وهكذا فلقد اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة ، ونشط المشركون في دسائسهم ومؤامراتهم على النبي (ص) واصحابه .

ومن غير الجائز او المعقول ان يقف النبي (ص) مكتوف اليد، إذا أتيح له ان يحد من نشاطهم ويحول بينهم وبين ما يريدون ، وقد أذن له القرآن كما ذكرنا بقتال الذين يحاولون ان يفتنوا الناس عن دينهم ويصدوهم عن سبيل الله ، ويعدون العدة لغزوهم ، كما حدث بالنسبة لكرز بن جابر الفهري الذي أغار بمن معه من الاعراب على المدينة واستولى على الابل والمواشي ، مما اضطر النبي ان يقود سرية في طلبه ، وأيقن النبي بعد ان توالت لديه المعلومات الكافية عما تهيئه له قريش وأحلافها بمساعدة جيرانه من اليهود

والمنافقين ، بعد ان أيقن ذلك لم يبق له خيار في اتخاذ موقف المتجاهل واللامبالي لكل ما يحدث ، ورأى من المتعين عليه ان يقف بحزم ويستعمل كل ما يملكه من القوة للحد من تحركاتهم ونشاطهم ، وكانت معركة بدر الكبرى منطلقاً للقوة التي ظهرت فيها البطولات وامتدت بسببها الانتصارات لكل ما جاء بعدها من حروب وغزوات .

لقد قضت معركة بدر على كبرياء المشركين وخيلائهم ومحت من الأذهان ما كان يدور فيها من قدرة قريش على تحطيم المسلمين والقضاء عليهم ساعة يريدون . فالمسلمون على ضعفهم وقلتهم وقفوا موقفاً حاسماً في مقابل قريش التي تفوقهم اضعافاً مضاعفة عدداً وعتاداً وكان لذلك النصر الذي احرزوه اثره البالغ في نفوس القبائل التي كانت تنتظر ما سينجم عنه العداء المستحكم بين قريش ومحمد واصحابه ولا بد لنا من عرض موجز لتلك المعركة كما روتها كتب السيرة والتاريخ .

فقد جاء فيها انه لما بلغ رسول الله (ص) ان عير قريش قد خرجت من مكة في تجارتها الى الشام بقيادة ابي سفيان مع رجال لا يزيدون عن أربعين رجلاً ، ولم يبق بمكة قرشي وقرشية عنده شيء من النقود الا بعث بها في تلك القافلة وكانت اكثر اموالها لآل سعيد بن العاص المعروف بأبي احيحة .

ولما بلغه ذلك ندب أصحابه ، ولم يعزم على احد بالخروج بل ترك الخيار لهم ، ومضى بمن معه من المهاجرين والأنصار ، وهم ثلاثمائة او يزيدون قليلاً الى المكان المعروف بالبقيع في ضواحي المدينة ، وهناك ارجع بعض الفتيان كعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد والبراء بن عازب وغيرهم من الأحداث .

وخرج بمن معه لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، ومعهم سبعون من الابل يتعاقب على كل واحد منها الاثنان والثلاثة والأربعة ، وكان

هو وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة يتعاقبون بعيراً واحداً .

وجاء عن الواقدي انه قال : حدثني عبد الله بن جعفر عن أبي عون مولى المسور عن مخرمة بن نوفل انه قال : لما لحقنا بالشام ادركنا رجل من جذام فاخبرنا ان محمداً كان قد عرض لغيرنا في ذهابنا وانه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا ، وقد حالف علينا اهل الطريق ووادعهم ، قال مخرمة : فخرجنا خائفين نخاف الرصد ، واتفق رأينا على ان نبعث ضمضم بن عمرو وكان مع القافلة ، وقد مرت به قريش وهو مقيم في الساحل ومعه بكران فاستأجروه بعشرين مثقالاً ، وامره ابو سفيان ان يخبر قريشاً ان محمداً قد عرض لعيرهم وان يجدع انف بعيره اذا دخل مكة وإن يحول رحله ويشق قميصه من قبله ودبره ويصيح الغوث الغوث ، واستطاع ضمضم ان يصور الموقف لأهل مكة كما أراد ابو سفيان ويلهب مشاعرهم ويثير فيهم كوامن الحقد على محمد واصحابه ، فقد وقف على بعيره بعد ان جدع أنفه وحول رحله وشق قميصه وتلك حالة كانت تستعملها العرب في أدق الظروف حراجة واخطر المواقف .

وصاح : يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمد وأصحابه ، ولا أرى ان تدركوها ، وكان ابو سفيان يسير بالعير قلقاً خائفاً ، فلما انتهى الى الروحاء وكان النبي (ص) قد نزل بها وارتحل عنها وفيها مجدي بن عمرو الجهني ، فسأله ابو سفيان عن خبر محمد فداوره ولم يصدقه القول ، ولكن ابا سفيان لم يطمئن لكلامه ومضى يشتد بالعير متجهاً نحو بدر ، وكاد ان يسقط في أيدي المسلمين لولا انه سأل مجدي بن عمرو اذا كان قد أحس بأحد ، فقال له : ما رأيت احداً انكره غير اني رأيت راكبين اناخا في هذا التل ثم استقيا في شن لهما وانطلقا ، وكان النبي (ص) قد بعث بسبس بن عمرو الجهني ، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار يستقيان فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري القوم النازلين على الماء تقول احداهما للأخرى غداً او بعد غد تأتي العير فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك ، ولما اشتد النزاع بينهما خلص بينهما مجدي بن

عمرو ، وسمع حوارهما الرجلان اللذان بعثهما رسول الله ، ثم استقيا ورجعا الى النبي (ص) وأخبراه بما سمعا .

ولما سأل ابو سفيان مجدي بن عمرو واخبره بالرجلين اللذين استقيا اتى ابو سفيان مناخ بعيريهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحلتين ففتها فإذا فيها النوى ، فقال هذه والله علائف يثرب ، وأدرك ان الرجلين من أصحاب محمد (ص) ، وانه قريب من الماء ، فرجع بالعير يضرب وجهها عن الطريق متجهاً بها نحو الساحل تاركاً بدراً الى يساره حتى نجا بالقافلة .

وتجهزت قريش بكل قوتها بعد ان ألهب مشاعرها ضمضم بندائه وأقامت ثلاثاً تتجهز واخرجت اسلحتها واعان قويهم ضعيفهم ، وقام سهل بن عمرو في رجال من قريش ، فقال : يا معشر قريش هذا محمد وأصحابه معه من شبابكم واهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمتكم فمن اراد ظهراً فهذا ظهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة ، وقام زمعة بن الاسود ، فقال : واللات والعزى ما نزل بكم امر أعظم من ان يطمع محمد وأهل يثرب ان يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم فأرعبوا ولا يتخلف منكم احد ، ومن كان لا قوة له فهذه قوة ، والله لئن اصابها محمد واصحابه لا يروعكم منهم الا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

وقال طعيمة بن عدي : يا معشر قريش ، والله ما نزل بكم امر اجل من هذه ان يستباح عيركم ولطيمة قريش فيها اموالكم وخزائنكم ، والله ما اعرف رجلاً ولا امرأة من بني عبد مناف له شن فصاعداً الا وهو في هذه العير فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه فحمل على عشرين بعيراً وقوى بهم وخلفهم في أهلهم بمعونة .

وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحثّا الناس على الخروج ، ولم يدعوا الى قوة ولا حملان فقيل لهما : ألا تدعوان الى ما دعا إليه غيركما من الحملان ؛ قالا :والله ما لنا مال ، وما المال الا لأبي سفيان .

ومشى نوفل بن معاوية الديلي الى اهل القوة من قريش ، وكلمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج ، فكلم عبد الله بن أبي ربيعة ، فقال : هذه خمسمائة دينار ضعها حيث رأيت ، وكلم حويطب بن عبد العزى فأعطاه مائتي ديناراً ليقوي بها السلاح والظهر ، ولم يتخلف من قريش أحد الا بعث مكانه غير أبي لهب فإنه رفض الخروج معهم ومساعدتهم بشيء مع شدة تعصبه وتصلبه ضد الدعوة .

ولم يمنعه عن الأشتراك الا رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، وكانت قد رأت قبل مجيء ضمضم بن عمرو رؤيا افزعتها فأرسلت الى اخيها العباس بن عبد المطلب ، وقالت : يا أخي لقد رأيت رؤيا افزعتني وتخوفت ان يدخل على قومك منها شر فاكتم علي ما احدثك منها ، رأيت راكباً اقبل على بعير حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غدر انفروا الى مصارعكم في ثلاث فصرخ بها ثلاث مرات فاجتمع إليه الناس ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه اذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها ثلاثاً ، ثم مثل به بعيره على رأسه أبي قبيس فصرخ مثلها ثلاثاً ، ثم اخذ صخرة من أبي قبيس فأرسلها تهوي حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلته منه فلزة .

وجاء في شرح النهج عن الواقدي ، ان عمرو بن العاص كان يحدث بعد ذلك ويقول : لقد رأيت كل هذا ورأيت في دارنا فلقة من الصخر[1] .

وأضاف الواقدي الى ذلك انه لم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بني هاشم وبني زهرة من تلك الصخرة شيء ، فاغتم العباس لهذه الرؤيا وحدث بها الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقاً له ، وفشا حديث هذه الرؤيا بين الناس ، قال العباس بن عبد المطلب : فغدوت اطوف بالبيت وابو جهل في

---

(١) وجاء في شرح النهج أن عمرو بن العاص كان يقول ذلك ساخراً ومستهزئاً .

رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة ، فقال ابو جهل للعباس : يا بني عبد المطلب اما كفاكم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم .

زعمت عاتكة انها رأت في المنام كذا وكذا فسنتربص بكم ثلاثاً ، فإن يكن ما قالت حقاً فسيكون وان مضت الثلاث ولم يكن نكتب عليكم انكم أكذب بيت في العرب ، فقال له العباس : يا مصفر استه انت اولى بالكذب واللؤم منا ، وانتقل الخبر الى نساء بني عبد المطلب فانحين باللائمة على العباس حيث ترك ابا جهل يتناول بني عبد المطلب نساء ورجالاً ، فلما كان اليوم الثالث للرؤيا جاء العباس مغضباً يشتد في طلب أبي جهل ، فلما رآه مشى نحوه ، فاذا هو ينطلق مسرعاً نحو باب بني سهم ففاته وكان قد سمع ضمضم فأخذ يصيح بالناس يستنفرهم وكان ابو جهل خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان والنظر .

ودخل عليهم من هذه الرؤيا غم كبير بعد ان سمعوا ضمضم يستنفرهم لنجدة القافلة ، واستقسمت قريش بالأزلام عند صنمها هبل للخروج ، واستقسم امية بن خلف وعتبة وشيبة بالآمر والناهي فخرج القدح الناهي ، كما استقسم زمعة بن الأسود فخرج الناهي واستقسم جماعة آخرون فلم يجدوا ما يشجعهم على الخروج ، ولكن المتحمسين منهم كأبي جهل وأمثاله اصروا على الخروج واكرهوا غيرهم عليه .

وجاء عن حكيم بن حزام انه قال : ما توجهت وجهاً قط كان اكره الي من مسيري الى بدر ولا بان لي في وجه قط ما بان لي قبل أن أخرج ، وخرجت على ذلك حتى نزلنا مر الظهران فنحر ابن الحنظلية جزوراً ، فما بقي خباء من اخبية العسكر الا اصابه من دمها ، وتشاءمت من ذلك وهممت ان ارجع ، ورأينا حين بلغنا الثنية البيضاء وهي الثنية التي تهبطك على فخ وانت مقبل من المدينة اذا عداس جالس عليها والناس يمرون ، ولما مر به ابنا ربيعة وثب إليهما وأخذ بأرجلهما وهو يقول : بأبي انتما وامي ، والله انه لرسول الله

وما تساقان الا الى مصارعكما ، وان عينيه لتسيل دمعاً على خديه .

ولما اتمت قريش تجهيزها خرجت بالقيان والدفوف وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً وقادوا معهم مائة فرس بطراً وتجبراً ، وابو جهل يقول : أيظن محمد ان يصيب منا سيعلم انمنع عيرنا ام لا .

ومضت قريش في طريقها ينحرون ويطعمون الطعام لكل من وفد عليهم ، فبينا هم في طريقهم اذ تخلف عتبة وشيبة ابنا ربيعة وهما يترددان فقال احدهما لصاحبه : ألم تر الى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فأدركهما ابو جهل ، فقال ما تتحدثون به ؟ قالا نذكر رؤيا عاتكة ، فقال ابو جهل : يا عجباً من بني عبد المطلب لم يرضوا ان تتنبأ علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء ، اما والله لئن رجعنا الى مكة لنفعلن بهم ولنفعلن ، وحاول ابنا ربيعة ان يرجعا ، ولكن ابا جهل حال بينهما وبين ذلك .

وذكر المؤلفون في السيرة ان أبا سفيان لما نجا بالعير ارسل الى قريش قيس بن امرىء القيس ، وكان مع اصحاب العير يأمرهم بالرجوع ، ويقول لهم لقد نجت عيركم واموالكم فلا تحرزوا انفسكم اهل يثرب ، انما خرجتم لتمنعوا عيركم واموالكم وقد انجاها الله ، وقال له : فإن ابوا عليك فلا يأبون خصلة واحدة يردون القيان ، فعالج قيس بن امرىء القيس قريشاً فأبت الرجوع ، قالوا واما القيان فسنردهن فردوهن من الجحفة .

ولحق الرسول ابا سفيان (بالهدة) قبل دخوله لمكة بنحو من تسعة وثلاثين ميلاً فأخبره بمضي قريش ، فقال ابو سفيان واقوماه ، هذا عمل عمرو بن هشام ، لقد كره الرجوع لأنه ترأس على الناس وبغى والبغي منقصة وشؤم ، والله لئن اصاب محمد النفير ذللنا الى ان يدخل مكة علينا .

واصر ابو جهل على المضي في طريقه وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، وكانت يوم ذاك مواسم من موسام العرب في الجاهلية يجتمعون فيها ، وقد أرسلت قريش الفرات بن حيان العجلي حين خرجت من مكة الى أبي

سفيان بن حرب تخبره بمسيرها وما قد حشدته من العدد والعتاد في مسيرتها ، فخالف ابا سفيان في الطريق لأن ابا سفيان قد انحدر بعد ان عرف موقع المسلمين الى ساحل البحر ، والفرات بن حيان لزم الطريق الذي تسلكه القوافل ، ففاته ابو سفيان والتقى مع المشركين فسمع من أبي جهل اصراره على المضي ، فقال له ما بأنفسنا عن نفسك رغبة ، وان الذي يرجع بعد ان رأى ثأره عن كثب لضعيف والتحق بالمشركين واصيب يوم بدر بجراحات كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول : ما رأيت كاليوم .

وكان الأخنس بن شريف حليفاً لبني زهرة ، فقال لهم يا بني زهرة قد نجّى الله عيركم وخلّص اموالكم ونجّى صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وانما خرجتم تبغونه وماله ، ومحمد رجل منكم وابن اختكم فإن يك نبياً فأنتم اسعد به ، وإن يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من ان تلوا انتم قتل ابن اختكم ، فارجعوا واجعلوا خبثها لي ، فلا حاجة لكم ان تخرجوا في غير ما يهمكم ، ودعوا ما يقوله ابو جهل فانه مهلك قومه سريع في فسادهم ، فاطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعاً يتيمنون به ، فقالوا فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟ فقال الأخنس نسير مع القوم فاذا امسيت سقطت عن بعيري ، فتقولوا امسى الأخنس ، فاذا اصبحوا وطلبوا المسير فقولوا لا نفارق صاحبنا حتى نعلم احي هو ام ميت ، فاذا مضوا رجعنا الى مكة ففعل بنو زهرة ذلك ، فلما اصبح المشركون بالأبواء تبين لهم ان بني زهرة قد رجعوا ، وكان عددهم يتراوح بين المائة والثلاثمائة حسب اختلاف الروايات .

وفي رواية الواقدي ان بني عدي رجعوا الى مكة بعد ما قطعوا مسافة في طريقهم الى بدر وانسلوا من بينهم في السحر ، ولما اجتمعوا بأبي سفيان ، قال لهم : لا في العير ولا في النفير يا بني عدي ، فقالوا له لقد امرت الناس بالرجوع فرجعنا واتبعنا امرك .

واما رسول الله (ص) فكان قد بلغ عرق الضبية صبيحة اربعة عشر من شهر رمضان ، فالتقى بأعرابي مقبل من ناحية تهامة ، فقال له اصحاب

رسول الله (ص) هل لك علم بأبي سفيان بن حرب ، فقال لا علم لي به ، ثم قالوا له : سلم على رسول الله ، قال أوفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال فأيكم هو ، قالوا هذا فقال انت رسول الله قال : نعم قال فما في بطن ناقتي هذه ان كنت صادقاً ، فاعترضه رجل من المسلمين يدعى سلمة بن سلامة ، فقال له لقد نكحتها وهي حبلى منك ، فكره ذلك رسول الله واعرض بوجهه عنهما .

واضاف المؤلفون في السيرة ان رسول الله مضى في طريقه حتى بلغ الروحاء ليلة الأربعاء في النصف من شهر رمضان ، فقال لأصحابه هذا وادي الروحاء : هذا افضل اودية العرب ، ولما فرغ من صلاته لعن الكفرة ودعا عليهم وقال : اللهم لا تفلتني ابا جهل بن هشام فرعون هذه الامة ، اللهم لا تفلتني زمعة بن الأسود ، اللهم امسخ عين أبي زمعة ، اللهم اعم بصر أبي سلمة ، اللهم لا تفلتني سهيل بن عمرو ثم دعا لقوم من قريش كانوا قد اسروا الإسلام وخرجوا مع القوم مكرهين .

ولما كان قريباً من بدر اتته اخبار قريش ومسيرتها اليه ، فوقف في اصحابه خطيباً واستشارهم في الأمر واحب ان يكونوا على علم من حقيقة الموقف ليكونوا على بصيرة من الأمر وخاف ان لا يكون للأنصار رغبة في القتال ، لأنه عاهدهم على ان يدافعوا في بلدهم ووقف عمر بن الخطاب يحذره من قريش وخيلائها ، وكأنه اراد ان ينهاه عن لقاء قريش بهذا الأسلوب ، وقال له يا رسول الله : إنها قريش وغدرها والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها ابداً ولتقاتلنك فاتهب لذلك اهبته واعد لذلك عدته[1] .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله . امض لأمر الله فنحن

---

(١) انظر ص ٣٢٨ من شرح النهج ج ٣ ، عن الواقدي .

معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها : اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك العماد لسرنا معك[1] ، فقال له رسول الله خيراً ودعا له .

ثم التفت الى الأنصار وقال أشيروا علي مخافة ان لا يكون لهم رغبة في القتال لأنهم شرطوا له ان يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم في المدينة لا غير كما ذكرنا فقام سعد بن معاذ وقال : كأنك تريدنا يا رسول الله فقال : اجل فقال لقد آمنا بك يا رسول الله وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا نبي الله لما اردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد وصل من شئت ، وخذ من اموالنا ما أردت ، فما اخذته من اموالنا أحب إلينا مما تركت ، والذي نفسي بيده ما سلكت هذا الطريق قط وما لي بها من علم وإنا لا نكره أن نلقى عدونا غداً ، وإنا لصبر عند الحزب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك ، ومضى يقول : انا قد خلفنا قوماً في المدينة ما نحن بأطوع اليك منهم ولا بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا انك ملاق عدواً ما تخلفوا عنك ، ولكن انما ظنوا انها العير ، نبني لك عريشاً تكون فيه ونبعد عنك رواحلك ثم نلقى عدونا ، فإن اظهرنا الله على عدونا كان ذلك ما احببنا وان تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا[2] .

---

(١) برك العماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر وهو على ثمان ليال من مكة الى اليمن .

(٢) ما أبعد ما بين الموقفين موقف عمر بن الخطاب المتخاذل المخذل الذي يوهن العزائم ويجبن الشجعان ويخدم قريشاً من حيث يريد أو لا يريد ، ان الحرب النفسية التي ترفع من معنويات الجيش أو تضع منها تفتك في ساحة الحرب إكثر من السيد والمدفع ، لقد صور قريشاً وكأنها لا يمكن ان تغلب او تقهر وحذر النبي من لقائها =

ومضى رسول الله حتى نزل وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان ، فبعث علياً (ع) والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسسون الأخبار على الماء ، وأشار لهم الى موقع ، وقال ارجو ان تجدوا الخبر عند القليب التي تلي هذا الضريب ، فاندفعوا باتجاهه فوجدوا على القليب روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم وأفلت بعضهم ، وكان ممن أفلت شخص يدعى عجبر فأخبر قريشاً بخبر النبي (ص) واصحابه ، فنادى يا آل غالب هذا ابن أبي كبشة وأصحابه قد اخذوا سقاءكم فماج عسكر المشركين .

وحدث حكيم بن حزام ، فقال : كنا يومئذ في خباء لنا على جزور نشوي من لحمها فما هو الا ان سمعنا الخبر ، فامتنعنا عن الطعام ، ولقيني عتبة بن ربيعة فقال يا ابا خالد : ما أعلم احداً يسير اعجب من مسيرنا ، ان عيرنا قد نجت وانا جئنا قوماً في بلادهم بغياً عليهم ، فقلت أراه لأمر حمّ : ولا رأي لمن لا يطاع ، هذا شؤم ابن الحنظلية ، وكان الأسرى ثلاثة احدهم لسعيد بن العاص ويدعى يسار ، والثاني لمنبه بن الحجاج ويدعى اسلم ، والثالث لأمية بن خلف ويدعى أبا رافع ، فأتي بهم النبي (ص) وهو قائم يصلي فسألهم المسلمون فقالوا نحن سقاء لقريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهم ورجوا ان يكونوا لأبي سفيان طمعاً في الاستيلاء على القافلة ، فضربوهم ، فلما اشتد عليهم الضرب قالوا نحن لأبي سفيان وهذه العير بهذا الفوز .

فلما سلم رسول الله (ص) من صلاته قال : ان صدقوكم ضربتموهم

قبل ان يعد العدة لذلك ، ما أبعد موقفه هذا من موقف سعد بن معاذ رحمه الله النابع من ايمانه العميق بعقيدته لقد الهب المسلمين حماساً وبعث في نفوسهم العزم والتصميم على القتال واعدهم للتضحية والجهاد مهما كانت النتائج وحماله ... يضعهم على ابواب النصر اذا ثبتوا وصبروا كما وقف المقداد نفس الموقف .

وان كذبوكم تركتموهم ، ثم اقبل على الغلمان وقال اين قريش : فقالوا خلف هذا الكثيب الذي ترى . قال كم هم قالوا كثير : ولا ندري عددهم ، فقال : كم ينحرون : قالوا يوماً عشرة ويوماً تسعة ، فقال القوم ما بين ألف وتسعماية ، ثم قال لهم كم خرج من اهل مكة ؟ قالوا لم يبق احد به طعمٌ الا خرج ، فأقبل رسول الله على الناس فقال هذه مكة قد ألقت اليكم افلاذ كبدها ، ثم سأل الأسرى ، هل رجع منهم احد ، قالوا : نعم رجع ابن ابي شريق ببني زهرة ، ورجع بنو عدي بن كعب ، فتركهم النبي (ص) .

والتفت الى اصحابه وقال اشيروا علي في المنزل ، فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله أرأيت منزلك هذا اهو منزل انزلكه الله ، فليس لنا ان نتقدم او نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأي والمكيدة ، قال بل هو الرأي والحرب ، فقال ان هذا ليس بمنزل انطلق بنا الى أدنى مياه القوم فاني عالم بها وان بها قليباً قد عرفت عذوبة مائه وماؤه كثير لا ينزح نبني عليها حوضاً ونقذف فيه بالآنية فنشرب ونقاتل ولا يشربون ، فقال رسول الله (ص) لقد أشرت بالرأي .

وروى عبد الله بن عباس ان جبريل نزل على النبي وقال له الرأي ما أشار به الحباب ، ثم نهض المسلمون واحتلوا المكان وفعلوا ما أشار به الحباب بن المنذر ، وأصبح الماء في قبضتهم ، وقضوا ليلاً يسوده الهدوء والاطمئنان واثقين بأن دعاة الحق سينتصرون بإذن الله ، وان الهزيمة ستكون لأعدائه .

وارسل رسول الله من يستطلع له اخبار المشركين وكان رسولاه عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، فطافا بالقوم من حيث لا يشعرون ورجعا اليه ، فقالا يا رسول الله : ان القوم مذعورون فزعون ، وان الفرس ليريد ان يصهل فيضرب صاحبه وجهه والسماء تسح عليهم بالمطر .

ولما اصبح المشركون وجدوا اثراً غريباً ، فقال منبه بن الحجاج وكان بصيراً بالأثر : هذا والله اثر ابن سمية وابن ام عبد ، لقد جاء محمد بسفهائنا وسفهاء اهل يثرب ، ثم قال : يا معشر قريش انظروا غداً إذا لقينا محمداً واصحابه فاتقوا على شبانكم وفتيانكم وعليكم بأهل يثرب لكي نرجع بهم الى مكة ليبصروا من ضلالتهم ما فارقوا من دين آبائهم .

ثم ان المسلمين بنوا للنبي عريشاً وقام سعد بن معاذ علي باب العريش متوشحاً سيفه وصف رسول الله (ص) اصحابه قبل ان تنزل قريش ، فطلعت قريش وهو يصفهم ، وقد ملأوا حوضاً كانوا يضعون فيه الماء من السحر ، ومتح فيه علي بن أبي طالب كثيراً وقذفت فيه الآنية ، ودفع رسول الله رايته الى علي بن أبي طالب وتسمى العقاب ، ولواء المهاجرين اعطاه الى مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج الى الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس الى سعد بن معاذ .

وجاء في السيرة الحلبية ان النبي (ص) اعطى الراية علياً يوم بدر وهو ابن عشرين سنة[1] .

وقال ابن دحلان في سيرته : عقد النبي يوم بدر لواءً أبيض ودفعه لمصعب بن عمير ، فكان امامه رايتان سوداوان احداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع سعد بن معاذ ، وقيل مع الحباب بن المنذر ، واكد ذلك جماعة من المؤلفين في السيرة النبوية .

واستقبل رسول الله المغرب ، وجعل الشمس خلفه ، واقبل المشركون فاستقبلوا الشمس ، ونزل بالعدوة الدنيا من الوادي ، ونزلوا بالعدوة القصوى ، ونظرت قريش الى قلة المسلمين ، فقال ابو جهل : ما هم الا اكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم باليد. فقال عتبة بن ربيعة : اترى

---

(١) والواقع ان علياً كان يوم بدر في حدود الثامنة والعشرين او أكثر من ذلك .

لهم كميناً او مدداً ، فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حول عسكر رسول الله ثم رجع اليهم ، فقال : القوم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً او ينقصون قليلاً ، ولكن امهلوني حتى انظر اذا كان لهم كمين أو مدد ، فضرب في الوادي حتى ابعد فلم يـر شيئاً فرجع اليهم ، وقال ما رأيت شيئاً ولكني وجدت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم ، والله ما أرى ان يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم ، فان اصابوا منكم اعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، الا ترون انهم خرس لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي ما ارى انهم يولون حتى يقتلوا بعددهم ، فقال له ابو جهل : كذبت وجبنت ، فانزل الله على النبي ﴿ فإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ كما يدعي المؤلفون في السيرة .

وأرسل اليهم رسول الله ان ارجعوا من حيث أتيتم ، فلأن يلي هذا الأمر مني غيركم احب إلي من ان تلوه أنتم ، فقال عتبة : ما رد هذا قوم قط وافلحوا ، ثم ركب جمله الأحمر فنظر اليه رسول الله (ص) وهو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال فقال ان يكن بأحد منهم خير فعند صاحب ذلك الجمل وان يطيعوه يرشدوا ، ثم وقف يخطب في اصحابه وقال : يا معشر قريش اطيعوني اليوم واعصوني الدهر ، ان محمداً له إل وذمة وهو ابن عمكم فخلوه والعرب ، فإن يكن صادقاً فأنتم أعلى عيناً به ، وان يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب امره .

وقال له حكيم بن حزام : إن عليك ان تتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي فقال قد فعلت ، وخاف ابو جهل ان يفلح عتبة بن ربيعة في خطته ويأخذ الناس برأيه ، فجاء الى عامر بن الحضرمي شقيق عمرو بن الحضرمي الذي قتل في غزوة العشيرة ، جاء إليه وقال ان هذا حليفك يريد ان يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، وما محمد واصحابه سوى اكلة جزور ، فقم واطلب من قريش الوفاء بعهدهم اليك .

فقـام عامر فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه ، فاشتد الناس للقتال وخرج الأسود بن عبـد الأسد المخـزومي وكان رجـلاً شرسـاً سيء الخلق على حد تعبير ابن هشام وابن اسحاق في سيرتيهما ، وقال: اني اعاهـد الله لأشربن من حوضهم او لأهدمنـه ، او لأموتن دونـه ، وخرج متجهـاً الى الحوض فلما كان قريباً منه خرج اليه الحمزة بن عبد المطلب فلما التقيا ضربه الحمـزة فأطن قـدمه من نصف السـاق قبل ان يصـل الى الحوض فـوقع عـلى ظهره تشخب رجله دماً ، ثم حبا الى الحوْض حتى اقتحمه يريد ان يبر يمينه ، فاتبعه الحمزة بضربة ثانية قتله بها وهو على الحوض . ثم برز عتبة بن ربيعة بين اخيـه شيبة وابنه الوليد ، وكان ابو جهل قـد اتهمه بـالجُبن والخوف عـلى ولده الـوليد من القتل ، فرد على أبي جهل بخـروجه مـع اخيه وولـده ، حتى اذا انتهى الى ما بين الصفين دعا المسلمين الى البراز فخرج اليه ثلاثة فتية من الانصار وهم بنو عفراء معاذ ومعوذ وعوف ، فلما انتسبـوا لعتبة قـال لهم : ارجعوا مـا لنا بكم من حاجة .

ثم نادى مناديهم يا محمد اخرج لنا اكفاءنا من قومنا فـالتفت رسول الله الى بني عمه وكان احب إليـه ان يكونـوا هم اول من يباشـر الحرب ويتحمـل اعباءها كما ناصروا دعوته منذ ان اعلنهـا بجاههم والسنتهم وامـوالهم ، فقال (ص) قم يـا عبيدة بن الحـارث ويا حمـزة بن عبـد المـطلب ويـا عـلي بن ابي طالب ، فقاموا مسرعين مستبشرين وكأنهم يدعون الى اعز امـانيهم ، واتجهوا نحو المعركة بقلوب عامرة بالايمان ونفوس طيبة بلقاء الله تسترخص كل شيء في سبيل سلامة محمد ودعوة محمد .

وان المتتبع لتاريخ الدعوة الاسلامية اذا تجرد عن النـزعات والـرواسب التي خلفتها احقاد الماضين ينتهي حتـماً وبلا تـردد الى ان الدعـوة من فجرهـا لـولا الهاشميين لم تكن ولم يكتب لها البقـاء ، ففي اليـوم الـذي اعلنهـا فيـه محمـد بن عبد الله وقف الى جـانبه ابـو طـالب يشـد ازره ويحميـه من قـريش وكبريائها وغطرستها .

وظل ابو طالب والحمزة وعلي على موقفهم المتصلب من قريش والمناصر لمحمد الى ان سلم محمد وسلمت دعوته وتسلقت اسوار مكة المنيعة وامتدت الى ما وراءها فاجتازت السهول والجبال واتخذت مركزها يثرب ، لتنطلق منها الى جميع انحاء الجزيرة ثم الى الدنيا بأسرها .

ولولا ان علياً (ع) قد بات على فراش الرسول لينجو من تلك الخطة التي كانت تستهدف حياته لقضي على الاسلام قبل ان يخرج من شعاب مكة وهضابها .

وجاءت معركة بدر التي كانت نقطة الانطلاق في تاريخ الاسلام ، فأول من برز الى جبابرة المشركين علي والحمزة وابن اخيه عبيدة ، فكانت الضربة الأولى التي بعثت في نفوس المشركين الخوف والذعر وحولت ميزان القوة الى جانب المسلمين وقضت على معنويات ذلك الجيش الذي يمثل قريشاً وخيلاءها وغطرستها كانت من الهاشميين .

وعلى اي الأحوال فلما برز علي والحمزة وعبيدة وانتسبوا لهم ،قال عتبة : اكفاء كرام فبرز عبيدة بن الحارث الى عتبة بن ربيعة وبرز علي (ع) الى الوليد بن عتبة وكانا متقاربين بالسن ، وبرز الحمزة لشيبة بن ربيعة .

وجاء في اكثر المرويات التي تحدثت عن تلك المعركة ان علياً كان يوم ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره على اختلاف الروايات في تاريخ ولادته .

وقال اكثر المؤلفين في سيرة النبي (ص) : ان حمزة لم يمهل شيبة حتى قضى عليه في الضربة الأولى ، وكذا فعل علي (ع) مع الوليد بن عتبة .

اما عبيدة وعتبة فكلاهما قد ضرب صاحبه واصابه بجروح لا يرجى منها الشفاء وكر حمزة وعلي على عتبة فاجهزا عليه .

وفي بعض المرويات ان علياً في الضربة الأولى قطع يمين الوليد فأخذ

السيف بشماله فضربه علي ضربة ثانية صرعه فيها وكانت نهاية حياته .

وقيل ان الحمزة بارز عتبة فصاحْ المسلمون يا علي أما ترى الكلب قد بهر عمك وكانا قدْ اعتنقا بعد ان تكسر سيفاهما والحمزة اطول من عتبة ، فقال له : يا عم طأطىء رأسك فادخل الحمزة رأسه في صدر عتبة فضرب علي عتبة فقده نصفين ، وكر علي والحمزة على شيبة فقتلاه وحملا عبيدة وكانت قد قطعت ساقه فألقياه بين يدي رسول الله (ص) فاستعبر وقال : ألست يا رسول الله شهيداً قال بلى ، قال لو كان ابو طالب حياً لعلم اني احق بما قال :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

وكانت نهايته بتلك الضربة[1] .

وبرز بعد ذلك حنظلة بن أبي سفيان الى علي (ع) فلما دنا منه ضربه علي بالسيف فسالت عيناه ولزم الأرض ، وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يطلب البراز فبرز اليه علي (ع) فقتله .

وجاء في الارشاد للمفيد عن أبي بكر الهذلي عن الزهري ان ابنه سعيد بن العاص دخل على عمر في خلافته وجلس ناحية . قال سعيد : فنظر إلي عمر بن الخطاب وقال : ما لي اراك تنظر الي وكأن في نفسك علي شيئاً؟ أتظن اني قتلت أباك ، والله لوددت اني كنت قتلته ولو قتلته لم اعتذر من قتل كافر ، ولكني مررت به يوم بدر فرأيته يبحث للقتال كما يبحث الثور بقرنه فهبته وزغت عنه فقال : إلي يا ابن الخطاب فصمد له علي وتناوله فوالله ما رمت مكاني حتى قتله .

---

(١) أنظر تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وغيرهما .

وكان علي حاضراً في مجلس عمر فأدرك غاية عمر من اعادة هذه الحادثة الى ذهن سعيد بن العاص فقال : اللهم غفراً ذهب الشرك بما فيه ومحا الإسلام ما تقدم ، ما لك يا ابن الخطاب تهيج الناس علي فسكت عمر ولم يتكلم ، فقال سعيد بن العاص ، اما انه ما كان يسرني ان يكون قاتل أبي غير ابن عمه علي بن ابي طالب .

ووقع امية بن خلف أسيراً بيد عبد الرحمن بن عوف فرآه بلال وكان يعجن عجيناً له فترك العجين وقال : لانجوت ان نجوت وكان يعذبه بمكة فيخرج به الى الرمضاء إذا حميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فيضعها على صدره ، ثم يقول له لا تزال هكذا او تفارق دين محمد فيقول بلال احد احد .

ثم صاح بأعلى صوته يا أنصار الله هذا امية بن خلف رأس الكفر لا نجوت ان نجا فأحاطوا به حتى جعلوه في مثل المسكة وقتلوه مع ولده علي بن أمية ، وقيل ان عمار بن ياسر هو الذي قتل ولده علياً .

ثم ان رسول الله حرض اصحابه على الجهاد وكان كلما برز احد من المشركين يقتل ، ولما رأت بنو مخزوم كثرة القتلى من المشركين احاطوا بأبي جهل خوفاً عليه من القتل وألبسوا لأمته عبد الله بن المنذر فصمد له علي فقتله وهو يظنه ابا جهل ، ومضى يقول : أنا ابن عبد المطلب ، ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة فصمد له حمزة وهو يرى انه ابو جهل فضربه وقتله وهو يقول خذها وأنا ابن عبد المطلب ثم ألبسوها حرملة بن عمرو فضربه علي وقتله ، وأرادوا ان يلبسوها خالد بن عبد الأعلى فأبى ، قال معاذ بن عمرو بن الجموح فصمدت لأبي جهل وضربته ضربة طرحت رجله من الساق فشبهتها النواة تنزو من تحت المراضخ ، فضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي من العتاق وبقيت معلقة بجلدة فذهبت أسحبها بتلك الجلدة ، فلما آذتني وضعت عليها رجلي ثم تمطيت عليها فقطعتها .

وامر رسول الله بعد ان اختلط الفريقان ان يتلمس ابو جهل ، قال ابن مسعود فوجدته في آخر رمق فوضعت رجلي على عنقه ، وقلت الحمد لله الذي اخزاك ، فقال انما اخزى الله العبد ابن ام عبد ، لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ، لمن الدبرة ، قلت لله ولرسوله ، ثم قلت له : اني قاتلك ، قال ليس بأول عبد قتل سيده ، اما اني أشد ما لقيته اليوم لقتلك إياي وان لا يكون ولي قتلي رجل من الأحلاف او المطيبين .

ثم ضربه عبد الله بن مسعود ضربة وقع رأسه بين يديه ، وسلبه واقبل بسلاحه فوضعه بين يدي رسول الله وقال : ابشر يا نبي الله بقتل عدو الله ابي جهل ، فقال : لهو احب إلي من حمر النعم .

وجاء في بعض كتب السيرة ان اللذين قتلاه معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ولعل ابن مسعود وجد به رمقاً من الحياة فاجهز عليه وسلبه كما ذكرنا .

ثم قال رسول الله : اللهم اكفني ابن العدوية وهو نوفل بن خويلد فأسره جبار بن صخر ، ورأى علياً مقبلاً نحوه فقال لجبار من هذا ؟ واللات والعزى اني لأرى رجلاً يريدني ، فقال له جبار : هذا علي بن أبي طالب ، فصمد له علي (ع) فضربه فنشب سيفه في جحفته فنزعه وضرب به ساقيه فقطعهما ثم اجهز عليه فقتله ، فقال رسول الله : من له علم بنوفل بن خويلد ؟ فقال علي انا قتلته يا رسول الله ، فكبر رسول الله وقال : الحمد الذي اجاب دعوتي .

وجاء في سيرة ابن اسحاق ان طعيمة بن عدي قتله علي بن أبي طالب شجره بالرمح وقال : والله لا تخاصمنا في الله بعد اليوم ابداً ، ومضى المسلمون يشتدون في طلب المشركين والرؤوس تتساقط والأجسام تتهاوى الى الأرض وخرج رسول الله (ص) بنفسه من العريش ولم يبق فيه غير ابي بكر ، ولم يرد له وللخليفة الثاني ذكر مع من اشترك في هذه المعركة ، واشترك

رسول الله مع المسلمين فقاتل اشد القتال وعلي والحمزة يطاردان المشركين .

واخذ النبي كفاً من الحصباء ورمى به الى جهة المشركين وقال : شاهت الوجوه اللهم ارعب قلوبهم واشتد المسلمون في طلبهم فانهزموا بين ايديهم تاركين إسلحتهم وامتعتهم ، وخاض علي والحمزة وابطال المسلمين في وسطهم يأسرون ويقتلون فتطايرت الرؤوس وتهاوت الأجسام. وامد الله المسلمين بالملائكة ليثبتوهم وليبشروهم بما اعده الله لهم كما جاء في الآية .

﴿ إذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وان للكافرين عذاب النار ﴾ (الأنفال ١٢) .

وجاء في شرح النهج عن محمد بن اسحاق ان رسول الله (ص) نهى يوم بدر عن قتل الوليد بن هشام المعروف بابن البختري لأنه كان اقل الناس إيذاء لرسوله في مكة واحياناً كان يكف الناس عن ايذائه وقد سعى في نقض الصحيفة التي تعاهدت فيها قريش على مقاطعة النبي (ص) وبني هاشم ؛ فلقيه المخدر بن زياد البلوي حليف الأنصار ، فقال له : إن رسول الله نهانا عن قتلك ، وكان مع أبي البختري زميل له خرج من مكة يقال له جنادة بن مليحة ، فقال ابو البختري : وزميلي ، فقال له المخدر : والله ما نهانا رسول الله الا عن قتلك وحدك ، فقال ابو البختري : اذن والله لأموتن انا وهو جميعاً حتى لا تتحدث نساء مكة اني تركت زميلي حرصاً على الحياة ، فنازله المخدر ، ثم اقتتلا فقتله وجاء الى رسول الله فأخبره ، وقال والذي بعثك بالحق لقد جهدت ان يستأسر فآتيك به فأبى الا القتال فقاتلته

ونهى رسول الله كما جاء في رواية الواقدي عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل وقال ائسروه ولا تقتلوه وكان كارهاً للخروج الى بدر ، فلقيه خبيب بن يساف فقتله وهو لا يعرفه فبلغ النبي (ص) ذلك ، فقال لو وجدته قبل ان

يقتل لتركته لنسائه ، كما نهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع وهو لا يعرفه .

وجاء في رواية ابن اسحاق ان النبي لما خرج من العريش وحرّض على القتال قال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم احد فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر الا ادخله الله الجنة ، فقال له عمر بن الحمام من بني سلمة وكان بيده تمرات يأكلها : بخ بخ فما بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل .

وفي شرح النهج عن الواقدي ان قباث بن اشيم الكناني قال شهدت مع المشركين بدراً ، واني انظر الى قلة اصحاب محمد في عيني وكثرة من معنا من الخيل والرجال ، فانهزمت فيمن انهزم وكنت انظر الى المشركين في كل وجه مشردين واقول في نفسي : ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه الا النساء ، وصاحبني رجل فبينا هو يسير معي إذ لحقنا مَنْ خلفنا ، فقلت لصاحبي : انك نهوض فقال لا والله ما بي فعقر وترفعت وصبحت عيفة وهي عن يسار السقيا وبينها وبين الفرع ليلة ، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد قبل الشمس وكنت هادياً بالطريق ولم أسلك المحج خوفاً من الطلب وتنكبت عنها فلقيني رجل من قومي بعيفة وقال لي : ما وراءك قلت لا شيء قتلنا واسرنا وانهزمنا فهل عندك من حملان فحملني على بعير وزودني زاداً حتى لقيت الطريق بالجحفة ومضيت حتى دخلت مكة واني لأنظر الى الحيثمان بن حابس بن الخزاعي بالغيم ، فعرفت انه تقدم ينعي قريشاً بمكة فلو اردت ان اسبقه لسبقته ولكني تنكبت الطريق حتى سبقني ببعض النهار فقدمت وقد انتهى الى مكة خبر قتلاهم وهم يلعنون الخزاعي ويقولون ما جاءنا بخير فمكثت بمكة ، فلما كان بعد الخندق قلت لو قدمت المدينة فنظرت ما يقول محمد (ص) وقد وقع في قلبي الإسلام ، فقدمت المدينة وسألت عنه فقيل لي هو ذاك في ظل المسجد مع ملأ من أصحابه فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم ، فلما سلمت قال لي يا قباث بن اشيم : أنت القائل يوم بدر ما رأيت مثل

هذا الأمر فر منه الا النساء ، قلت أشهد انك رسول الله والله ان هذا الأمر ما خرج مني الى أحد قط ولا ترمرمت به الا شيئاً حدثت به نفسي فلولا انك نبي ما أطلعك الله عليه فبايعته وأسلمت .

وحدث صاحب النهج عن الواقدي انه لما بلغ النجاشي مقتل قريش وانتصار رسول الله خرج في ثوبين أبيضين ثم جلس على الأرض ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فقال أيكم يعرف بدراً ، فأخبروه عنها فقال أنا عارف بها : لقد رعيت الغنم جوانبها وهي من الساحل على بعض نهار ، ولكني أردت أن أتثبت منكم لقد نصر الله رسوله ببدر فاحمدوا الله على ذلك فقال بطارقته : اصلح الله الملك ان هذا شيء لم تصنعه يعنون بذلك لبس البياض والجلوس على الأرض ، فقال ان عيسى ابن مريم كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً (١) .

ما جرى لقريش وللأسرى بعد معركة بدر

ولما رجعت قريش الى مكة قام فيهم ابو سفيان بن حرب ، وقال : يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ولا يندبهم شاعر ، واظهروا الجلد والعزاء فإنكم اذا نحتم عليهم بالشعر اذهب ذلك غيظكم فأكلأكم عن عداوة محمد واصحابه واذا بلغ محمداً واصحابه شمتوا بكم فيكون اعظم المصيبتين ولعلكم تدركون ثأركم فالدهن والنساء علي حرام حتى اغزو محمداً فمكثت قريش شهراً لا يبكيهم شاعر ولا تنوح عليهم نائحة .

---

(١) والحديث من مرويات الواقدي الذي اعتاد أن يروي المرسل إلى جانب المسند والصحيح الى جانب الضعيف وغير ذلك مما سمعه ورآه .

وكان الأسود بن المطلب قد اصيب له ثلاثة اولاد زمعة وعقيل والحارث ، وذهب بصره وكاد ان يموت كمدا ، ولم يستطع ان يفرج عن نفسه بالبكاء الا اذا خرج من مكة ، وقد يخرج منها احياناً لهذه الغاية .

وجاء في رواية الواقدي ان غلامه كان يقوده الى الطريق التي سلكها ولده زمعة في طريقه الى بدر ، فاذا بلغها سقاه خمراً حتى ينتشي ، ثم يأخذ بالبكاء ويحثو على رأسه التراب ، ويقول لغلامه : اياك ان تخبر قريشاً بذلك .

وسمع نائحة في الليل فقال لغلامه : انظر هل بكت قريش على قتلاها حتى ابكي على أبي حكيمة ـ وكانت كنية ولده زمعة ـ فإن جوفي قد احترق ، فذهب الغلام ورجع اليه ، فقال انما هي امرأة تبكي على بعير لها قد أضلته فقال :

أتبكي اذ يضل لها بعير	ويمنعها عن النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن	على بكر تصاغرت الخدود
فبكي ان بكيت على عقيل	وبكي حارثاً اسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعاً	وما لأبي حكيمة من نديد
على بدر سراة بني هصيص	ومخزوم ورهط ابي الوليد

وروى الواقدي ان نساء من قريش مشين إلى هند بنت عتبة وقلن لها : الا تبكين على أبيك واخيك وعمك وأهل بيتك ، فقالت : اخاف ان ابكيهم فيبلغ ذلك محمداً واصحابه فيشمتوا بنا ونساء بني الخزرج لا والله حتى أثأر من محمد واصحابه والدهن علي حرام ان يدخل رأسي حتى نغزو محمداً ، والله لو اعلم ان الحزن يذهب عن قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهبه الا ان ارى ثأري بعيني من قتلة الأحبة فمكثت على حالها لا تقرب الدهن ولا فراش ابي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة احد .

وفي شرح النهج عن الواقدي انه لما رجع المشركون الى مكة اقبل عمير بن وهب بن عمير الجمحي وجلس الى صفوان بن أمية في الحجرة. فقال صفوان : قبح الله العيش بعد قتلى بدر ، فقال عمير بن وهب : اجل والله ما في العيش بعدهم من خير ولولا دين علي لا اجد له قضاء وعيال لا أدع لهم شيئاً لرحلت الى محمد حتى أقتله ان ملأت عيني منه ، فلقد بلغني انه يطوف في الأسواق ، فإن لي عندهم علة ، أقول لهم قدمت على ابني هذا الأسير ، ففرح صفوان بقوله : وقال يا أبا أمية : وهل تراك فاعلاً قال اي ورب هذه البنية ، قال صفوان فعلي دينك ، وعيالك اسوة بعيالي وانت تعلم انه ليس في مكة رجل اشد توسعاً على عياله مني ، قال عمير قد عرفت ذلك يا أبا وهب .

ثم قال صفوان : ان عيالك مع عيالي لا يسعني شيء ويعجزهم ودينك علي ، فحمله صفوان على بعيره وجهزه واجرى على عياله مثل ما اجرى على عائلته وامر عمير بسيفه فشحذه وسمه ، ثم خرج متوجهاً الى المدينة ، وقال لصفوان : اكتم علي أياماً حتى اقدمها ، وسار عمير حتى انتهى الى المدينة ، فنزل على باب المسجد وعقل راحلته واخذ السيف وتقلد به ، ثم اتجه نحو محمد (ص) وعمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون ويذكرون نعمة الله عليهم في بدر ، فرأى عميراً وعليه السيف فنزع وقال لأصحابه دونكم الكلب هذا عمير بن وهب عدو الله الذي حرش بيننا يوم بدر وقدرنا للقوم وصعد فينا وصوب واخبر قريشاً انه لا مدد لنا ولا كمين فقاموا اليه وأخذوه وانطلقوا به الى رسول الله ، فقال عمر بن الخطاب : هذا عمير بن وهب يا رسول الله قد دخل المسجد ومعه السلاح وهو الغادر الخبيث الذي لا يؤمن على شيء ، فقال النبي (ص) : ادخله علي فخرج عمر واخذ بحمائل سيفه بعد ان احتوشه المسلمون وادخله على رسول الله (ص) فلما رآه النبي (ص) قال تأخر عنه يا عمر ، فلما دنا عمير من النبي ، قال له : انعم صباحاً يا محمد

وكانت تحية الجاهلية فقال له النبي لقد اكرمنا الله عن تحيتك وجعل تحيتنا السلام وهي تحية اهل الجنة فقال عمير ان عهدك بها لحديث ، قال النبي لقد أبدلنا الله خيراً منها ، فما الذي أقدمك يا عمير قال : قدمت في أسيري عندكم تفادونه وتقاربونا فيه فإنكم العشيرة والأصل ، فقال النبي (ص) فما بال السيف معك ، قال عمير قبحها الله من سيوف ، وهل اغنت من شيء يوم بدر ، إني نسيته حين نزلت وهو في رقبتي ، ولعمري ان لي لهماً غيره .

فقال رسول الله اصدقني يا عمير ما الذي اقدمك ، قال ما قدمت الا في أسيري قال (ص) فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ففزع عمير ، وقال ماذا شرطت له ، قال تعهدت بقتلي على ان يقضي دينك ويعول بعيالك والله حائل بينك وبين ذلك ، قال عمير : أشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله ، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء ، وان هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت لم يطلع عليه غيره وامرته بأن يكتمه أياماً فاطلعك الله عليه ، وانا قد آمنت بالله ورسوله واشهد ان ما جئت به حق من عند الله ، واحمده الذي ساقني هذا المساق ، فقال النبي (ص) : علموا اخاكم القرآن واطلقوا له أسيره فقال عمير يا رسول الله اني كنت جاهداً على اطفاء نور الله ، فله الحمد ان هداني فأذن لي ان ألحق بقريش فادعوهم الى الله وإلى الإسلام فلعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة فأذن له النبي (ص) فخرج من المدينة متجهاً الى مكة .

وكان صفوان يسأل عن عمير كل راكب يقدم من ناحية المدينة ، ويقول هل حدث بالمدينة من حدث ، واحياناً يقول لقريش ابشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر ، ثم قدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير بن وهب ، فقال لقد اسلم ، فلعنه صفوان والمشركون ، وحلف صفوان ان لا يكلمه ابداً ولا ينفعه بشيء وترك عياله ، ولما بلغ عمير بن وهب مكة نزل

في بيته واظهر الإسلام ، فبلغ ذلك صفوان بن امية ، فقال لقد عرفت ذلك منه حين نزل في اهله ولم يبدأ بي قبل منزله ، وكان رجل قد اخبرني انه ارتكس لا أكلمه من رأسي ابداً ولا أنفعه بشيء ولا عياله ، فوقع عليه عمير وهو في الحجر فتحدث معه ، ولكن صفوان بن امية قد اعرض عنه ، فقال له عمير : انت سيد من ساداتنا : أرأيت الذي نحن عليه من عبادة الأحجار والذبح لها ، انّ ذلك ليس بدين ، وأنا أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، فأعرض عنه صفوان ولم يكلمه ، وأسلم جماعة بواسطة عمير في مكة وخارجها .

وحدث ابن اسحاق عن عكرمة عن عبد الله بن العباس ان ابا رافع مولى رسول الله (ص) قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الاسلام قد دخلنا ، وأسلمت ام الفضل وأسلمت أنا ، اما العباس فقد تهيب ان يظهر اسلامه كراهية ان يعادي قومه وبقي متستراً في اسلامه ، وقد تخلف ابو لهب عدو الله عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة[1] ، فلما جاء الخبر عن مصاب المشركين في بدر كبته الله واخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً ، وكنت رجلاً ضعيفاً اعمل القداح انحتها في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي ام الفضل زوجة العباس ، وقد سرنا ما جاءنا من خبر المشركين اذ أقبل الفاسق ابو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره قريباً من ظهري ، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم من بدر ، فقال ابو لهب هلم إلي يا ابن اخي فعندك الخبر ، فجلس الحارث إليه ، والناس قيام عليه ، فقال اخبرني يا ابن اخي كيف كان امر الناس ، قال لا شيء ، والله ما كان ، الا ان لقيناهم

---

(١) وقيل بأنه لم يرسل احداً مكانه وكان متشائماً من رؤيا شقيقته عاتكة بنت عبد المطلب كما ذكرنا سابقاً .

فمنحناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض لا يقوم لها شيء .

قال ابو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي وقلت تلك هي الملائكة ، فرفع ابو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة ثم احتملني فضرب بي الأرض وبرك علي يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت ام الفضل الى عمود من اعمدة الحجرة فأخذته وضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة ، وقالت لقد استضعفته مذ غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش بعدها الا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ، وتركه ابناه ليلتين او ثلاثاً لم يدفناه حتى انتن في بيته .

وكانت قريش تتقي العدسة وعدوتها كما يتقي الناس الطاعون ، ولما انتن وانتشرت رائحته خارج البيت وفي الشوارع المحيطة به قال الناس لولديه عتبة وعتيبة ويحكما الا تستحيان ان اباكما قد انتن في بيته فادفناه وغيباه في التراب ، فقالا انا نخشى هذه القرحة ، ثم انهما قذفا عليه الماء وحملاه الى مكان في أعلى مكة فوضعاه في حفرة وقذفا عليه الحجارة حتى واروه بها .

وجاء في اكثر الروايات ان الذين قتلوا في معركة بدر من المشركين اثنان وسبعون رجلاً وان عدد الأسرى سبعون رجلاً ، ولكن الذي ذكرهم الواقدي من القتلى اثنان وخمسون رجلاً ذكرهم بأسمائهم واسماء قاتليهم وحسب احصائه فإن الذين قتلهم علي بن أبي طالب (ع) وحده أربعة وعشرون رجلاً من أصل اثنين وخمسين ، وثمانية وعشرون اشترك في قتلهم جميع المسلمين .

وفي رواية المفيد في ارشاده ان الذين قتلهم علي (ع) بلغوا خمساً وثلاثين رجلاً سوى من اختلف فيه او اشترك مع غيره في قتله .

ومن الغريب ان الأستاذ هيكل في كتابه حياة محمد ذكر معركة بدر واخذها من المصادر التي لم تتجاهل جهاد علي (ع) فيها وبطولاته الرائعة التي لم يحدث بها التاريخ لأحد من الناس ، وقد نصت جميع المصادر التي استمد منها هيكل على ان علياً كان البطل الأول في تلك المعركة وان العدد الأكبر من القتلى كان بسيفه ومع ذلك لم يزد على قوله : بأن علياً والحمزة وأبطال المسلمين خاضوا المعركة ونسي كل نفسه ، ومع ان كتب التاريخ والسيرة لم تذكر ان عمر بن الخطاب وابا بكر قد قتلا احداً او اشتركا مع احد المسلمين في قتل احد ، ولكن هيكل ابى الا ان يذكر لهما فضيلة ترفعهما على جميع من خاضوا المعارك مع النبي في بدر وغيرها .

فقد ذكر ان النبي (ص) قال لأبي بكر : ان مثلك في الملائكة كمثل ميكائيل وفي الأنبياء كمثل عيسى وابراهيم ، وقال لعمر بن الخطاب : ان مثلك في الملائكة كجبرائيل وفي الأنبياء كنوح وعيسى ، وذلك حينما أشار عليه ابو بكر بالعفو عن الأسرى ، وأشار عليه عمر بن الخطاب بقتلهم ، وان يبادر هو الى قتل عمه العباس ، وعلي الى قتل اخيه عقيل ، والحمزة الى قتل ابن اخيه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب حيث كانوا ثلاثتهم بين الأسرى ، ويأمر المسلمين بقتل بقية الأسرى ، في حين ان عمر بن الخطاب نفسه يعلم بأن الثلاثة كانوا يدافعون عن النبي (ص) في مكة وكانوا مع المحاصرين في شعب ابي طالب ، ويعلم بأنهم خرجوا مع المشركين مكرهين وان نفوسهم كانت مطوية على الإسلام والإيمان بكل ما جاء به محمد بن عبد الله ، والله هو العالم بما انطوت عليه نية ابن الخطاب ان صحت هذه الرواية عنه

وعلى أي الأحوال فلم يقتل من المسلمين في تلك المعركة سوى اربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وبعد انتهاء المعركة امر النبي (ص) بجمع الغنائم ودفن القتلى من

المسلمين ، وامر بقتلى المشركين فألقاهم في القليب ، ونظر (ص) الى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة حينما سحب المسلمون أباه عتبة وألقوه في القليب ، فرآه كئيباً حزيناً ، فقال له يا أبا حذيفة : لعله دخلك من امر أبيك شيء ، فقال لا والله يا نبي الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت اعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، وكنت ارجو ان يهديه ذلك الى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت ارجوه له احزنني ذلك ، فدعا له رسول الله بالخير .

ولما جمع المسلمون ما في معسكر قريش وفي خيامهم من الغنائم ، ولم يكونوا يعرفون لمن ستكون وكيف سيوزعها النبي بدأوا يتساءلون عن مصيرها ولعبت الأطماع دورها في النفوس واحس النبي (ص) بتلك الخواطر التي كانت تجول في أذهانهم ، فأمر بها ان تحمل الى المدينة حتى يرى فيها رأيه وأخيراً قسمها بين المسلمين بعد ان اخرج خمسها كما نصت ذلك الآية .

﴿ واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (الأنفال ٤١) .

وبعث النبيّ (ص) الى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين بما فتح عليه وسار الرجلان حتى اذا كانا بالعقيق افترقا فدخل عبد الله بن رواحة عوالي المدينة ، وصاح : يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة نبيكم وقتل المشركين وإسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وابو جهل وزمعة بن الأسود وامية بن خلف ومضى يسرد عليهم اسماء القتلى والأسرى من المشركين ، وانتشر الخبر في دور الأنصار ، واجتمعوا عليه يستفهمون منه حقيقة الموقف .

ودخل زيد بن حارثة المدينة على ناقة النبيّ القصوى يبشر اهلها

فلما بلغ المصلى صاح بأعلى صوته قتل عتبة وشيبة وفلان وفلان والناس لا يصدقون .

وأشاع المنافقون في المدينة ان محمداً قد قتل وتفرق عنه المسلمون ، وأضافوا الى ذلك ان زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الخوف والاضطراب ، وعلامة ذلك ان ناقته مع زيد ، فلو كان هو المنتصر لبقيت ناقته معه وبلغ أسامة بن زيد ما يقوله المنافقون واليهود ، فجاء الى أبيه وخلا به ثم قال له : احقاً ما تقول يا ابت ، فقال اي والله يا بني وغداً يقدم رسول الله بمن معه من المسلمين والأسرى ، واطمأن المسلمون لصحة الخبر واستبشروا بما فتحه الله على رسوله وانطوى المنافقون واليهود على انفسهم من الفشل والخذلان الذي لحق المشركين وخرج المسلمون في شوارع المدينة يهللون ويكبرون ويهنىء بعضهم بعضاً .

وخرج النبي من بدر متجهاً الى المدينة بمن معه من المسلمين والأسرى حتى بلغ الأثيل قبل غروب الشمس فبات فيها ، وكان بين الأسرى النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي من بني عبد الدار ، وقد أسره المقداد بن الأسود فنظر اليه النبي وامعن النظر اليه ، فقال النضر لرجل الى جنبه إن محمداً والله قاتلي ، لقد نظر إلي بعينين فيهما الموت ، فقال له الرجل : والله ما هذا منك إلا الخوف والرعب ، والتفت النضر الى مصعب بن عمير وكان رحماً له وقال له : كلم صاحبك ان يجعلني كرجل من الأسرى ، فقال له مصعب : انك كنت تعذب اصحابه ، فقال له اما والله لو أسرتك قريش ما قتلت ابداً وانا حي ، فقال مصعب : والله اني لأراك صادقاً ، ولكني لست مثلك لقد قطع الإسلام العهود .

ثم ان النبي قال لعلي (ع) قم يا علي واضرب عنق النضر ، فصاح المقداد اسيري يا رسول الله وكان يطمع في فدائه ، فقال النبي : اللهم اغن المقداد من فضلك فقام علي (ع) وضرب عنقه وذلك بالأثيل في طريقهم الى المدينة .

ولما بلغ خبره اخته قتيلة رثته بالأبيات التي تقول فيها :

يا راكباً ان الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وانت موفق
بلغ به ميتاً فإن تحية ... ما ان تزال بها الركائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحة ... جادت لمائحها واخرى تخنق
فليسمعن النضر ان ناديته ... ان كان يسمع ميت او ينطق
ظلت سيوف بني ابيه تنوشه ... لله ارحام هناك تمزق
صبراً يقاد الى المدينة راغماً ... رسف المقيد وهو عانٍ موثق
امحمد ولأنت نجل نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
النضر اقرب من قتلت وسيلة ... واحقهم ان كان عتق يعتق

وجاء في كتب السيرة ان النبي (ص) لما سمع هذه الأبيات رق لها وقال والله لو بلغني شعرها قبل قتله لما قتلته .

ولما بلغ النبي عرق الظبية امر بقتل عقبة بن أبي معيط فصاح عقبة لما احس بالقتل من للصبية يا محمد ، قال لهم النار وامر علياً بقتله فقتله .

ودخل النبي مع جماعة من ألمسلمين المدينة قبل الاسرى ، فلما دخلوا المدينة ونظرت سودة بنت زمعة زوجة النبي (ص) الى سهيل بن عمرو احد الأسرى مجموعة يداه الى عنقه بحبل لم تملك نفسها ان توجهت إليه قائلة : اي ابا يزيد اسلمتم انفسكم وأعطيتم بأيديكم الا متم كراماً ، فناداها النبي (ص) من خارج البيت يا سودة اعلى الله عز وجل وعلى رسوله تحرضين يا سودة ، فأجابت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه ان قلت ما قلت .

وفرق النبي (ص) الأسارى بين اصحابه وقال لهم إستوصوا بهم خيراً ، ومضى يفكر ماذا يصنع بهم ايقتلهم كما يرى عمر بن الخطاب

حيث اشار عليه بأن يبادر هو الى قتل عمه العباس ويأمر علياً بقتل اخيه عقيل والحمزة بقتل ابن اخيه نوفل ، ويأمر المسلمين بقتل بقية الأسرى ، ام يعفو عنهم ويأخذ الفداء منهم كما كان رأي اكثر المسلمين .

وبات ليلته يقارن بين كلا الأمرين ويضع في حسابه جميع الاحتمالات والنتائج التي يمكن ان تنتج منهما ، واخيراً رأى ان العفو افضل واجدى ، ولعلهم يرجعون الى رشدهم بعد ذلك ، وفيهم من خرج مكرهاً ولم يقابله بسوء خلال قيامه بالدعوة في مكة ، وفرض عليهم ان يفتدوا انفسهم بالمال ليستعين به المسلمون في حياتهم .

وفي بعض المرويات انه قد فرض على من يحسن القراءة والكتابة ان يعلمها لأطفال المسلمين في مقابل فدائه ، وكانت الفدية تتراوح بين اربعة آلاف درهم وألفي درهم وانزل الله عليه الآيات التي تعرضت لأحكام الأسرى من سورة الانفال فقال سبحانه : **﴿ ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الأخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم ﴾** (الأنفال ٦٧ ـ ٦٨) .

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم * يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم * وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ﴾ .

واختلف المفسرون في ان الخطاب متجه في هذه الآيات الى النبي (ص) او الى المسلمين ، والقائلون بأنه متجه الى النبي وقعوا في حيرة من امرهم ، حيث انه بظاهره يدل على حرمة اتخاذ الأسرى قبل ان تتمكن الدعوة وتنتشر وتبلغ من القوة حداً لم يعد يخشى عليها من تسريح الأسرى في مقابل الفداء ، وكيف اباحه النبي (ص) والحال هذه . والرأي الراجح

ان الخطاب في هذه الآيات متجه الى المسلمين ، لأنهم هم الذين اسروا المشركين وقد عاتبهم الله سبحانه وارشدهم الى انه لا ينبغي لنبي ان يكون له أسرى قبل ان يستقر دينه وينتشر بين الناس ، وهذه هي السنة بين الأنبياء السابقين فلقد كانوا اذا حاربوا اعداءهم وظفروا بهم ينكلون بهم بالقتل ليعتبر بذلك غيرهم ، فاذا انتشر الدين واصبح في امن وامان من اعدائه ، يباح لهم ان يأسروا ويأخذوا الفداء ، ومع ان سنة الأنبياء السابقين على ذلك فقد اباحه الله لهم كما يستفاد من الآية .

﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم** ﴾ ، اي لولا ما قدره الله من الاباحة لكم لأصابكم على اخذ الفدية من الأسرى عذاب عظيم ، لأنكم قد خالفتم سنن الأنبياء السابقين ، وجاءت الآية الثانية لتؤكد اباحة ما اخذوه من الغنائم التي تشمل فداء الأسرى حيث قال سبحانه : ﴿ **فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً** ﴾ ، ثم امر الله نبيه ان يقول للأسرى الذين افتدوا انفسهم بأموالهم ، اذا دخلتم في الاسلام وتراجعتم عن ضلالكم يعوض الله عليكم خيراً مما دعتموه فداء لأنفسكم .

﴿ **يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ .

ومجمل القول . ان الآيات ليس فيها ما يدل على تحريم الاسر كما وانها ليست موجهة للنبي (ص) وانما هي ارشاد للمسلمين الى سيرة الأنبياء السابقين الذين كانوا لا يأسرون ليأخذوا الفداء من الأسرى قبل ان يتمكن دينهم في الأرض وفي الوقت ذاته تدل على اباحة الفداء كما يستفاد من قوله :

﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم** ﴾ .

ولما استقر المسلمون في المدينة وابتدأ الأسرى يفادون انفسهم ، قال النبي لعمه العباس : يا عباس افد نفسك وابني اخويك عقيل بن أبي

طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم فانك ذو مال كثير ، فقال يا رسول الله : اني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني ، فقال الله اعلم باسلامك ، ان يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به ، فاما ظاهر امرك فقد كان علينا .

وكان رسول الله قد اخذ منه عشرين اوقية من ذهب ، فقال العباس احسبها لي في فدائي ، فقال لا : ذاك شيء اعطانا الله اياه منك فقال ليس لي مال غيرها فقال رسول الله : فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند ام الفضل بنت الحارث ، وقلت لها : ان اصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا، فقال والذي بعثك بالحق ما علم بهذا احد غيري وغيرها ، واني لأعلم انك رسول الله ، ففدى نفسه وابني اخويه وحليفه .

ومضى المكيون يرسلون في فداء اسراهم ، وكان من بين الأسرى عمرو بن أبي سفيان فقيل لأبيه الا ترسل في فداء ابنك ، فقال لا اجمع علي مالي ودمي لقد قتلوا حنظلة وافدي عمراً دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم .

وبقي عمرو بن أبي سفيان أسيراً في أيدي المسلمين الى ان سافر سعد بن النعمان بن اكال من بني عمرو بن عوف الى مكة معتمراً ، وهو يحسب ان قريشاً لا تتعرض لمعتمر ولا لحاج فعدا عليه ابو سفيان فحبسه بمكة مقابل ابنه عمرو وكان شيخاً كبيراً فمشى بنو عمرو بن عوف الى رسول الله فأخبروه بحاله وسألوه ان يسلمهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به أسيرهم من أبي سفيان فأجابهم رسول الله الى ذلك فأرسلوه الى أبي سفيان وترك لهم أسيرهم .

وذكر المؤرخون والمؤلفون في السيرة ان ابا العاص بن الربيع بن عبد العزى زوج زينب بنت رسول الله كان مع المشركين في بدر ووقع اسيراً في

ايدي المسلمين وامه هالة شقيقة خديجة كما ذكرنا من قبل وكان النبي قد زوجه ابنته زينب بناءً لرغبة خديجة وقد احسن عشرتها ولم يستجب لطلب قريش بفراقها كما صنع ابنا أبي لهب بالرغم من عروضهم المغرية .

ولما علمت زينب بوقوعه أسيراً في أيدي المسلمين أرسلت في فدائه بمال فيه قلادة اهدتها لها امها يوم زفافها ، فلما رآها رسول الله رق لها وتذكر ايام خديجة واحسانها ووفاءها اليه ، فقال للمسلمين ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها المال الذي أرسلته في فدائه فافعلوا فقالوا لك ذلك يا رسول الله : فاطلقوه بدون فداء ، واخذ رسول الله منه وعداً ان يرسل له ابنته زينب حين وصوله الى مكة .

وفور وصوله جهزها وأرسلها مع اخيه كنانة بن الربيع وأرسل زيد بن حارثة رجلاً من الأنصار الى مكان عينه لهم في القرب من مكة ليكونا معها الى المدينة ، ولكن ابا سفيان لما علم بالأمر خرج مع جماعة من المشركين في طلبها وبعد ان روعها القوم وقف كنانة موقف الحازم المستميت في الدفاع عنها ، فأشار عليه ابو سفيان ان يرجع بها ويخرجها في اليوم الثاني في جوف الليل حتى لا يعلم احد بذلك ، وتم الأمر كما أشار به ابو سفيان واستقرت بالمدينة مع أبيها الى ان خرج زوجها في السنة السادسة للهجرة في تجارة لقريش الى الشام ، وعند رجوعه التقى بسرية لرسول الله فأصابوا ما معه من الأموال وفر هارباً وبعد رجوع السرية بالأموال الى المدينة تسلل ليلاً ودخل بيت زوجته زينب ، وكان الإسلام قد فرق بينهما ولكنه استجار بها فاجارته .

ولما خرج النبي الى صلاة الصبح خرجت مع النساء للصلاة ، فلما انتهى النبي من صلاته وأراد ان ينصرف قامت زينب من بين صفوف النساء وقالت : ايها الناس اني قد اجرت أبا العاص بن الربيع ، فقال رسول الله : والذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت ما

سمعتم ، ثم انصرف الى منزلهـا فقال لهـا : اي بنية اكـرمي مثواه ولا يخلص اليك فانك لا تحلين له .

وجاء في اكثر كتب السيـرة ان رسول الله (ص) اتصـل بالسـرية التي استـولت على الامـوال التي كانت معـه وقال لهم : ان هـذا الرجـل منا حيث علمتم وقـد اصبتم له مـالاً فإن تحسنـوا ان تـردوا الـذي اخـذتمـوه منـه فـاني احب ذلـك ، وان أبيتم فهو شيء أفـاءه الله عليكم وانتم احق به ، فقـالـوا يا رسول الله بل نرده عليه ، واستجابوا لرغبـة النبي (ص) وارجعوا اليـه المال بكامله فاحتمله الى مكة وسلمه لأصحابه .

ثم قال : يا معشـر قريش هـل بقي لأحد منكم عنـدي مال لم يـأخذه فقالوا جزاك الله خيراً لقد أديت الأمانة ووجدنـاك وفياً كـريماً ، فقـال لهم اما انـا فاني اشهـد ان لا إله إلا الله وان محمـداً عبده ورسـولـه ، والله مـا منعني عن الإسلام عنده الا اني تخوفت ان تظنـوا اني أردت ان آكل امـوالكم ، اما وقد اديتها اليكم وفرغت منها فاني اعلن اسلامي

ثم خرج متجهاً الى المدينة مسلماً .

وجـاء في كتب السيرة ان رسـول الله (ص) قـد رد عليـه ابنتـه زينب بالنكاح الأول بعد ان فرق الإسلام بينهما مـدة خمس سنوات ، ومن المقـطوع به ان النبي (ص) قد ردها عليه ، امـا انه قـد ردها بـالنكاح الأول وبـدون عقد جديد ، فذلـك مما لم يثبت لأن النصـوص الإسلاميـة تؤكد ان الـزوجة اذا اسلمت قبل الزوج وبقي هـو على شركه الى ان خـرجت من عدتهـا تبين منـه وتحل لغيـره من الأزواج ، ومعنى ذلك ان مفعـول النكـاح الأول يصبـح باطلاً ، فلا بد لها من عقد جديد وهـو مذهب الأئمـة الهداة من اهـل البيت الذي لن يفترق عما انزله الله على جدهم الرسول الأعظم .

امـا اذا اسلم الزوج قبـل انتهاء العـدة فهو احق بهـا ، ولازم ذلك ان

النبي (ص) لا بد وان يكون قد ردها عليه بعقد جديد حسبما تقتضيه اصول التشريع .

تحريم الخمر في الاسلام

يدعي جماعة من المحدثين والمؤلفين في السيرة ان علياً (ع) قد نقل السيدة فاطمة (ع) الى بيته بعد معركة بدر وكان قد عقد له النبي (ص) عليها قبل ذلك ، وبينا هو يستعد لنقلها ، وعنده شارفان قد اناخهما الى جانب حجرة لبعض الأنصار وهو مشغول عنهما واذا بالحمزة بن عبد المطلب قد خرج عليهما من مكان وقد استولى عليه السكر وأفقده عقله ووعيه فوثب عليهما وشق بطنيهما واخرج كبديهما ومضى لسبيله ، ولما رآهما علي (ع) بهذه الحالة وعرف ان عمه الحمزة قد فعل بهما ذلك ،ذهب الى رسول الله يشكوه إليه ، فقام النبي ومشى معه حتى وقف من الشارفين ، ثم دخل البيت الذي فيه الحمزة ، فإذا هو ثمل محمرة عيناه ، فنظر الحمزة الى النبي وصعد النظر إليه ، وقال : ما انتم إلا عبيد لأبي بعد اليوم ، فتركه النبي وانصرف .

وانطلق الرواة لهذه الأسطورة من ذلك الى ان الخمر لم تكن قد حرمها الاسلام يوم ذاك ، وروى هذا الحديث كل من مسلم والبخاري في صحيحيهما من مرويات محمد بن شهاب الزهري الذي عاش في قصور الأمويين وعلى موائدهم وكانوا يغدقون عليه من خزينة الدولة كما يشاء ، وقد تحدثنا عن تاريخه في كتابنا الموضوعات وخلال بعض الفصول السابقة من هذا الكتاب . وبعد التتبع في الآيات التي تعرضت للخمر ومفاسده يظهر أن تحريم الخمر كان قبل معركة بدر وحتى قبل هجرة النبي (ص) الى المدينة فمن الآيات التي تنص على تحريمه الآية من سورة

الاعراف : ﴿ **إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق** ﴾ وقد نزلت الأعراف على النبي (ص) قبل هجرته ونص اكثر المفسرين على ان الاثم هي الخمر ، وكانت تسميته بذلك من الشائعات عند العرب وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

شربت الاثم حتى غاب عقلي كذاك الإثم يفعل بالعقول

وقال آخر :

نهانا رسول الله ان نقرب الخنا وان نشرب الاثم الذي يوجب الوزرا[1]

وجاء في تفسير الرازي في تفسير الآية ان الاثم يجب تخصيصه بالخمر لأن الله تعالى قال في سورة البقرة عن الخمر والميسر ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ .

وقال في تفسير الميزان ان الكتاب نص على تحريم الخمر في الاسلام قبل الهجرة والآيات التي نزلت بعدها كانت للتشديد والتأكيد على حرمتها .

ومما يؤكد ان تحريم الخمر كان في مطلع فجر الاسلام ان الخمر من الكبائر بالاتفاق وجميع الكبائر نهى عنها النبي (ص) في مكة .

وتشير الى ذلك الآية من سورة المائدة :

﴿ **يا ايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ ، فقد نصت على ان الخمر من عمل الشيطان واعمال الشيطان لا بد لكل نبي ان يحاربها وينهى عنها ويحرمها منذ الأيام الأولى لبعثته .

---

(١) انظر مجمع البيان ج ٣ تفسير سورة الأعراف .

(٢) الرازي جزء ١٣ تفسير الاعراف .

وقد اخرج الطبراني من طريق معاذ بن جبل ان اول ما نهى عنه النبي (ص) شرب الخمر وملاحاة الرجال وكان تحريم الخمر في المراحل الأولى لتاريخ بعثته .

ومما يؤيد ذلك ما رواه ابن هشام في سيرته عن خلاد بن قرة وغيره ان اعشى قيس خرج الى رسول الله يريد الاسلام فقال يمدح رسول الله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا   وبت كما بات السليم مسهدا

فلما كان بمكة او قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن امره فأخبره انه جاء يريد رسول الله ليسلم ، فقال له : يا أبا بصير : ان محمداً يحرم الزنا ، فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب ، فقال له وإنه ليحرم الخمر فقال الأعشى : اما هذه فإن في النفس منها لعلالات ، ولكني منصرف فاتروى منها عامي هذا ، ثم آتيه فأسلم ، فانصرف راجعاً ، ومات في عامه ولم يعد الى رسول الله .

وجاء في الكافي للكليني عن علي بن يقطين عن أبي الحسن (ع) انه قال في تفسير الآية ﴿ **إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي** ﴾ . قال اما ما ظهر منها فهو الزنا المعلن ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواحش في الجاهلية ، وما بطن ، وهو نكاح الأبناء لأزواج آبائهم ، لأن الناس كانوا قبل ان يبعث النبي (ص) إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن امه فحرم الله ذلك ، واما الاثم فهو الخمر .

على انه من المتفق عليه ان سورة البقرة نزلت على النبي في اوائل هجرته قبل معركة بدر وغيرها من غزواته وفيها يقول الله سبحانه :

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس**

وإثمهما اكبر من نفعهما﴾ وهي واردة في معرض تحريمها بضميمة الميسر الذي لا يشك احد في انه من المحرمات في جميع الشرائع والأديان .

هذا بالاضافة الى ان كتب الحديث تروي عن جماعة من كبار الصحابة انهم شربوها بعد آيتي البقرة والنساء .

فقد جاء في الدر المنثور ان رجلاً من الصحابة شربها ودخل في صلاته وهو يهجر فنزل قوله تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى ﴾ ، ومع ذلك شربها من شربها من المسلمين وكان بين من شربها عمر بن الخطاب كما جاء في المجلد السادس من تفسير الميزان عن الزمخشري في ربيع الابرار ، وقد جاء فيه انه اخذ لحي بعير فشج به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر .

وكاين بالقليب قليب بدر　　من القينات والشرب الكرام
وكاين بالقليب قليب بدر　　من السرب المكامل بالسنام
ايدعونا إبن كبشة ان سنحيا　　وكيف حياة اصداء وهام
ايعجز ان يرد الموت عني　　وينشرني إذا بليت عظامي

فبلغ ذلك رسول الله فخرج مغضباً يجر رداءه فرفع شيئاً كان في يده ليضربه فقال اعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، فأنزل الله سبحانه .

﴿ إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ﴾ .

الى كثير من المرويات التي تنص على ان جماعة من أعيان الصحابة

شربوا الخمر مع نزول الآيات المتعددة في تحريمها[1] .

ومجمل القول مما لا شك فيه ان تحريمها كان في عهد مبكر من تاريخ البعثة وقبل هجرة النبي (ص) والرواية التي تنسب الى الحمزة شربها في السنة الثالثة من الهجرة وانه بقر بطني شارفين لعلي (ع) هي من صنع الزهري وقد وضعها للأمويين في جملة ما وضعه من المرويات التي تسيء الى الهاشميين .

كما واني أشك فيما ينسب لعمر بن الخطاب وأبي بكر من هذا النوع لا سيما وقد كانا ملازمين للنبي (ص) ومن البعيد ان يتظاهرا بعمل من هذا النوع وقد نهى عنه النبي فيما نهى من المحرمات ، ولم يكن ليخفى عليهما تحريمها بعد آيتي الأعراف والبقرة اما آية المائدة وغيرها مما يتضمن النهيّ عنها فلقد جاءت للتشديد على الناس حتى لا يتساهلوا في شربها .

(١) انظر ص ١٣٣ من المجلد السادس تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي .

الفصل الحادي عشر

بين بدر واحد

مما لا شك فيه ان النتائج التي انتهت اليها معركة بدر قد تركت جرحا بليغاً في نفوس القرشيين والمنافقين واليهود ومن على شاكلتهم من الأعراب الذين كانوا لا يزالون على شركهم ، ولكنهم لم يكونوا متحمسين للوقوف في وجه الدعوة الاسلامية ذلك الحماس الذي ظهر في مواقف قريش وحلفائها من اليهود والمنافقين ، هذا الجرح الذي كان ينزف من قلوبهم دماً وسيبقى ينزف الى ان يجيء اليوم الذي يثأرون فيه من محمد واتباعه ، فأخذت قريش من جانبها تعد العدة ليوم الثأر .

وعادت تبكي قتلاها بعد ان منعت من البكاء والنحيب ورأت ان البكاء يلهب النفوس ويثير المشاعر وجعل النساء ينحن الليل والنهار وجززن شعورهن ، وكن مع ذلك يأتين براحلة الرجل او فرسه فينحن حولها ويذكرن بدراً وما جرى فيها ، ومضت قريش على ذلك لا هم لها إلا الاستعداد للثأر وتعبئة النفوس من اجل المعركة ، ولكن هنداً بالرغم من انها أصيبت بأبيها واخيها وعمها قد ابت ان تبكي او ان تظهر بمظهر الحزين الجازع مخافة ان يشمت بها محمد وصحبه على حد تعبيرها ،

واعـطت العهـد عـلى نفسهـا ان لا تبكي حتى تصيب ثـأرهـا من محمـد واصحابه .

واحتبست قريش العير التي كانت من اجلها معـركة بـدر في دار الندوة وكانت ألف بعير مع حمولتها ، فمشى عبد الله بن أبي ربيعـة وعكرمـة بن أبي جهـل وصفـوان بن امية وغيـرهـم من أشـراف قـريش ومن أصيب آبـاؤهم وأبنـاؤهم وإخـوانهم الى أبي سفيـان ومن كـان لـه سهم في تلك الأمـوال ، فقـالوا : يـا معشر قـريش إن محمداً قـد وتركم وقتـل خياركم فـاعينونـا بهذا المـال على حـربه لعلنـا ندرك فيـه ثأرنـا بمن أصاب منـا ونحن طيبو النفس ، وإنا نريد ان نجهز جيشاً بربح هذا المال لحربـه ، فقال ابـو سفيان : أنّـا اول من اجـاب الى ذلك وبنـو عبد منـاف معي .وكـانت العـير ألف بعـير فبـاعـوا امـوالها فصـارت ذهباً خمسـين ألف دينار ، فـأخذوا منهـا الـربـح وهـو خمس وعشرون ألف دينار وردوا رأس المال على اصحابه وكـان الدينـار يربـح دينارا ونزلت فيه هذه الآية :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون ﴾(الأنفال ٣٦) .

وبدأت قريش تستعـد من ساعتهـا للغـزو واخـذ الثأر ووزعت رسلهـا خارج مكة تندد بمحمد واصحـابه وتـدعو العـرب الى نصرتهـا والقضاء عليـه قبل ان يستفحل خطرهُ ، وقام بمهمة الدعـاية والاعـلام جماعـة من مكة منهم عمـرو بن العـاص وهبيـرة بن وهب وابن الـزبعـرى وأبـو عزة الجمحي ، ومسـافع بن عبـد الله الجمحي ، وكان ابـو عـزة ومسـافـع يجيـدان الشعـر ، وللشعر اثره يوم ذاك في التأثير على الجماهير وإلهاب المشاعـر ، وابو عـزة كان مع المشركين في بدر ووقع اسيراً في ايـدي المسلمين فـاستغاث بـالنبي (ص) فمن عليـه وأطلقه عـلى شرط ان لا يعـين احـداً عليـه ولا يشتـرك في حـرب ضـد المسلمين ، فجـاءه صفوان بعـد ان أطلقه النبي (ص) وقـال له إنـك لشـاعر فـأعنا بلسـانك ولـك عـلي ان رجعت ان اغنيـك وإن أصبت اجعـل

بناتك مع عيالي فقال له : إن محمداً قد منَّ علي واخذ علي عهداً أن لا اظاهر احداً عليه ، قال فأعنا ، ولو بلسانك ، وما زالوا به حتى اقنعوه فخرج من تهامة ودعا بني كنانة وحرضهم بشعره على مساعدة قريش ، كما خرج مسافع بن عبدالله الجمحي الى بني مالك وحثهم على النهوض مع قريش وذكرهم بما كان بينهم وبين قريش من التحالف .

وجاء في تاريخ ابن سعد ان أبا عزة وقع اسيراً في أيدي المسلمين في معركة احد فأمر النبي بقتله فاستغاث به كما صنع يوم بدر ، فقال النبي (ص) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين قد مننا عليك من قبل واخذنا منك عهداً ان لا تعين احداً علينا ولم تف بما عاهدت عليه ولا ندعك اليوم ترجع الى مكة تمسح عارضيك وتقول سخرت بمحمد مرتين .

ومضت قريش تعد العدة لغزو النبي في المدينة وكانت معركة احد من آثار الفشل الذريع الذي لحق بقريش ولم يقتصر اثر الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر على تماسك قريش وتصميمها على الثأر من محمد واصحابه ، بل كانت له آثاره في المدينة نفسها .فقد شعر اليهود والمنافقون بعد بدر ان هذا الانتصار قد امد المسلمين بالقوة ووجدوا هذا الرجل الذي وفد عليهم قبل عامين فاراً بمن معه من بلده يزداد قوة وتتسع هيبته يوماً بعد يوم ، وسيكون في المستقبل القريب إذا ترك وشأنه صاحب الكلمة العليا في المدينة وغيرها من انحاء الجزيرة ، وكان اليهود قبل بدر بدأوا يتحسسون خطر الاسلام على مكانتهم السياسية والاقتصادية .

المناوشات بين المسلمين واليهود وأحلافهم

بالرغم من عهد الموادعة بين الطرفين ، فقد كانت المناوشات والتحرشات من المنافقين واليهود تهيء الطرفين للانفجار في المدينة وخارجها

بين الحين والآخر ، وكان الانتصار الذي حققه النبي في بدر واعتزاز المسلمين به قد فجر الموقف في المدينة واصبح خطره لا يقل خطراً عن موقف قريش واتباعها ، واخذ اليهود والمنافقون يأتمرون بالنبي ويعدون العدة للكيد له والنيل منه مهما كانت النتائج ، ولم يكن هو لتخفى عليه هذه المواقف ، بل كان يقف على جميع اخبارهم ومؤامراتهم ، ويعمل على ان لا يترك لهم مجالاً لبلوغ اهدافهم ، ووقف المسلمون منهم موقف الحذر المترقب الذي اعد لكل شيء عدته . .

وجاء في حياة محمد لهيكل ان المسلمين لما رجعوا من بدر منتصرين تعهد سالم بن عمير بالقضاء على أبي عفك (احد بني عمرو بن عوف) لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين ويحرض بها قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك يغري بهم الناس بعد بدر ، فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان فيها ابو عفك نائماً بفناء داره فوضع سالم على كبده السيف حتى خش في الفراش .

وأضاف الى ذلك ان عصماء بنت مروان من بني امية بن زيد كانت تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه واستمرت على ذلك الى ما بعد بدر ، فجاءها يوماً عمير بن عوف في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وبينهم رضيع كانت ترضعه وعمير ضعيف البصر فجسها بيده فوجد الصبي على ثديها فنحاه عنها ثم وضع سيفه في صدرها حتى انفذه من ظهرها ، وذهب الى النبي واخبره بأمرها ، ثم رجع مارا على بيتها فوجد بنيها في جماعة يدفنونها فأقبلوا عليه وقالوا يا عمير انت قتلتها ، قال نعم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي حتى اموت او اقتلكم .

وكان كعب بن الأشرف من عشيرة طي وامه من بني النضير يؤذي رسول الله ويهجوه ، وقال حين بلغته اخبار بدر : هؤلاء اشراف وملوك الناس ، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى

مكة بعد معركة بدر يحرض قريشاً على النبي (ص) وقال له ابو سفيان : اناشدك الله ادييننا خير وأقرب الى الله ام دين محمد ، واينا أهدى في رأيك وأقرب الى الحق ، فقال له كعب بن الأشرف : انتم اهدى منه سبيلاً واقرب الى الحق ، فأنزل الله كما جاء في تاريخ ابن كثير الآية التالية .

﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ (النساء ٥١ ـ ٥٢) .

ولم يخرج من مكة حتى اجمع امرهم على الحرب ودخل المدينة وهو يلعن العداوة للاسلام ويحرض الناس على الحرب ، وجعل يشبب بأم الفضل بنت الحارث وغيرها من نساء المسلمين .

وجاء في سيرة ابن إسحاق ان رسول الله (ص) قال : من لابن الأشرف فقال له محمد بن مسلمة اخو بني عبد الأشهل : انا له يا رسول الله قال فافعل ان قدرت عليه ، فقال له يا رسول الله لا بد لنا ان نقول قال فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حل مني .

فاجتمع محمد بن مسلمة وابو نائلة احد بني عبد الأشهل ومعهم جماعة غيرهم وذهب اليه احدهم يستدرجه ويطعن على محمد (ص) ومما قاله له : لقد كان قدوم هذا الرجل بلاء علينا لقد عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، فقال كعب : انا ابن الأشرف لقد كنت اخبرك ان الأمر يصير الى ما ذكرت ، فقال له الرجل اني اريد ان تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك ، فقال ترهنوني ابناءكم ، فقال له الرجل لقد اردت ان تفضحنا ان معي اصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد اردت ان آتيك بهم لتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك دروعنا فرضي كعب بذلك .

وجاؤوه في ليلة مقمرة فلما انتهوا الى حصنه هتف به ابو نائلة وهو مع زوجته حديث عهد ، فنزل اليه بالرغم من تحذير زوجته وتعلقها بثيابه ، فقال

لها ان ابا نائلة لو وجدني نائماً ما ايقظني ، فقالت له : إني والله لأعرف في صوته الشر ، وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب ابي نائلة وكعب آمن لا يخافهم ، ومضى القوم يتماشون ويتحادثون في محمد واصحابه حتى ابتعدوا عن الحصن ، ثم وضع ابو نائلة يده على رأس كعب الاشرف وشمها وقال ما رأيت كالليلة طيبا اعطر من هذا الطيب ، ومشى قليلاً ثم عاد لمثلها واخذ بفوديه وقال لمن معه : اضربوا عدو الله فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئاً وصاح صيحة سمعها من كان في حصون اليهود ثم ضربه محمد بن مسلمة بسيفه فقضى عليه .

ورجع المسلمون الى النبي قبل الفجر فوجوده قائماً يصلي فاخبروه بما جرى .

ولما شاع خبره انتشر الرعب والخوف بين اليهود ، ولم يبق يهودي إلا واصبح خائفاً على نفسه ، ومع ذلك فلم يتراجعوا عن الدس والتحريض على المسلمين والتصدي لهم ، والنيل من النبي (ص) ، وطلب منهم النبي ان يكفوا عما هم عليه وان يلتزموا بالعهد الذي اعطوه على انفسهم حين دخوله المدينة ، فلم يزدهم ذلك الا عتواً وتمادياً في ايذاء المسلمين ونشر الفساد ، والنبي (ص) من جانبه يوصي المسلمين بالهدوء وضبط الاعصاب .

وصادف ان امرأة مسلمة دخلت سوق الصاغة ، وكان تحت سيطرتهم وأكثر العاملين فيه منهم ، ومع المرأة بعض الحلي تريد ان تعرضها للبيع فجلست الى يهودي ، فاجتمع عليها جماعة من اليهود وارادوها ان تكشف عن وجهها وهي تأبى عليهم ، فجاء يهودي من خلفها من حيث لا تعلم فأثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها فصاحت تستغيث بالمسلمين ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديا فقتله وشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستنجد اهل المسلم بالمسلمين ووقع بينهم وبين بني قينقاع الشر ، فأرسل إليهم النبي (ص) ان يكفوا عن أذى المسلمين ويلتزموا بعهد الموادعة ، او ينزل بهم ما انزله بقريش ، فاستخفوا

بوعيده وأجابوه لا يغرنك يا محمد انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة مكنتك من رقابهم ، انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس وسترى منا ما لم تره من غيرنا .

وجاء في البداية والنهاية عن سعيد بن جبير ان الله انزل على نبيه بهذه المناسبة الآية .

﴿ قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العينْ والله يؤيد بنصره من يشاء إن ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ .

فلم يبق للنبي سبيل بعد ان اجابوه بهذا الأسلوب المتغطرس إلا ان يقاتلهم حتى لا يطمعوا به ويكتلوا حولهم من يشاركهم الرأي من المنافقين والأعراب .

اخراج بني قينقاع من المدينة

لقد صبر النبي (ص) على مضض ، واوصى أصحابه بأن يستعملوا الحكمة ويتجاهلوا بني قينقاع وغيرهم حسب الإمكان وظن اليهود ان هذا الموقف الحكيم من النبي والمسلمين ناتج عن الخوف منهم فاستمروا في تحرشهم بالمسلمين ، وقد سمعهم النبي يقولون : والله لئن حاربنا محمداً ليعلمن أنا نحن الناس وسيرى منا ما لم يره من غيرنا .

فما عليه اذن بعد ذلك كله إلا ان يقف منهم موقفاً يتسم بالحزم والشدة فخرج ومعه المسلمون الى احياء اليهود ووجد اليهود ان لا سبيل لهم الى مقابلة المسلمين وجهاً لوجه ، فالتجأوا الى دورهم وحصونهم فحاصرهم المسلمون

خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم احد ولا يدخل عليهم احد بطعام او شراب .

ولما ضاقت عليهم السبل لم يجدوا بداً من النزول على حكم النبي (ص) والتسليم لقضائه فيهم ، فقرر النبي بعد ان استشار جماعة من اصحابه قتلهم والاستيلاء على اموالهم ، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول يتشفع فيهم وكان من رؤوس المنافقين ، ولكنه كان يتظاهر بالإسلام ، فقال : يا محمد احسن في مواليَّ،وكان حليفاً لهم فأعرض عنه النبي فكرر الطلب والنبي معرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع النبي (ص) فتغير النبي وبان ذلك في وجهه ، وقال له ارسلني ويحك واثر الغضب في نبرات صوته ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ، اني والله اخشى عليك الدوائر ، وكان لا يزال ذا سلطان في المشركين من الأوس والخزرج ، ولكنه كان ضعيفاً بجانب المسلمين لا سيما بعد النصر الذي احرزوه في معركة بدر الكبرى ، وتابع عبد الله الحاحه على النبي (ص) فرأى النبي اخيراً ان يعفو عنهم ويمن عليهم ولعله قدر ان استجابته لطلب عبد الله ومن معه من المشركين والمنافقين تجعله مديناً لإحسان النبي ، فيدخل هو ومن معه في الاسلام او يخفف من دسائسه ومؤامراته على المسلمين .

وقرر النبي (ص) إجلاءهم عن المدينة ، وحاول ابن أبيّ ان يعود الى النبي ويطلب منه بقاءهم في المدينة فمنعه المسلمون من ذلك وظل يلح حتى تشاجر مع بعض المسلمين وشجه في رأسه ، فقال بنو قينقاع : والله لا نقيم في بلد تشج فيه يا ابن أبي ولا نستطيع عنك دفاعاً ، وتولى عبادة بن الصامت اجلاءهم عن المدينة تاركين وراءهم السلاح وادوات الصياغة التي كانوا يصوغون فيها حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا فيها مدة من الزمن ، ومنها خرجوا باتجاه الشمال حتى بلغوا اذرعات في بلاد الشام فأقاموا بها .

غزوة بني السويق

وكان من الطبيعي ان ينكمش من بقي في المدينة عـلى أنفسهم بعد مـا جرى لأحلافهم بني قينقاع ، وان يبدو على المدينة الهدوء ولو في المظهـر الذي يعقب كل عاصفة وكل اعصار ، وظل الناس شهراً كـاملاً والهـدوء يخيم على المدينة ، فالمنافقون قد انكمشوا على انفسهم بعد جلاء احـلافهم وحادثـة بدر بالأمس القريب التي اطاحت بجبابرة قريش وسـاداتها لقنت القبـائل العـربية درساً لم يكن ليدخل في حساب احد من الناس .

شهر كامل ظل فيه الهدوء مخيماً على المدينة وجوارها وكان من المنتظر ان تتلوه شهور لولا ان ابا سفيان لم يطق البقاء في مكـة قابعـاً تحت خزي الهـزيمة ودون ان يعيد الى اذهان العرب في شبه الجزيرة ان قريشاً لا تنام على الضيم ولا تزال تحتفظ بقوتها ومقدرتها على الغزو .

وكان كما ذكرنا قد حلف بعد نتائج بدر ان لا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً فجمع مائتي راكب من قريش وخرج بهم متخفياً حتى بلغ مكاناً قريباً من المـدينة ، وخـرج في الليل سحـراً حتى بلغ بني النضير فـأتى حيي بن أخـطب وضرب عليه بابه فأبى ان يفتح له فانصرف عنه الى رجل يدعى سلام بن مشكم وكان من سادة بني النضير يوم ذاك ، فاستأذن عليه فأذن له وقدم لـه الشراب واستعلم منه اخبار المسلمين ، ورجع ابو سفيان الى اصحابه وساروا حتى بلغوا العريض في القرب من المدينة فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما وحرقوا بيتين في العريض ، وتخيل انه قد بر بذلك يمينه فانكفأ هـارباً خائفاً أن يخرج النبي في اصحابه إليهم وهم لا يزالون على مقربة من المدينة .

ولما بلغ خبره النبي (ص) خرج مع جماعة من المسلمـين في طلبه حتى بلغوا قرقرة الكدر ، وابو سفيان ومن معه جادون في الفرار خوفاً من ان يلحق

بهم النبي واصحابه ، والمسلمون يلتقطون ما يجدونه في طريقهم من السويق وغيره .

ولما رأى النبي (ص) ان القوم قد امعنوا في الفرار رجع مع اصحابه الى المدينة ، وانقلب فرار ابي سفيان عليه خزياً وعاراً ، بعد ان كان يظن ان غزوته هذه ترفع من شأنه وتعيد الى قريش شيئاً من مكانتها .

وبسبب السويق الذي ألقته قريش لتخفف عنها اعباء الفرار سميت تلك الغزوة بهذا الاسم كما ينص على ذلك المؤلفون في سيرة الرسول (ص) .

غزوة غطفان

لقد استفاضت أنباء محمد واصحابه بين العرب ، وادخلت تلك الأنباء الرعب في قلوب القبائل العربية لا سيما من كان قريباً منها الى المدينة .

لقد دخل محمد واصحابه بالأمس القريب وهم قلة يتلمسون في المدينة ملجأ يحميهم من غارات قريش وجيرانهم العرب واليهود ، واليوم اصبحوا يقفون في وجه قريش ويجلون يهود المدينة بني قينقاع ويرسلون السرايا تتهدد الطرق والمسالك الى الشام فيقتلون ويأسرون ، ويعرضون رحلات قريش والعرب وتجارتها للمخاطر ، فماذا تراهم يصنعون في مقابل هذا الزحف المتصاعد يوماً بعد يوم ، ومن حقهم ان يفكروا في مصيرهم ، وفيما عسى ان يصيبهم من محمد وأصحابه ان ظفروا بهم ، ولكن الغرور كان يستولي احياناً على بعض القبائل ، فتسول لهم نفوسهم ان يعادوا الرسول ، ولو بغزو المدينة اذا اقتضى الأمر ذلك .

فمن ذلك ان جماعة من غطفان من بني ثعلبة بن محارب تجمعوا يريدون

حرب الرسول (ص) فبلغه خبرهم فخرج اليهم في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة ، ومعه اربعمائة وخمسون رجلاً من المسلمين ، وما ان تسامع الاعراب بخبره حتى فروا الى رؤوس الجبال ومضى مع اصحابه حتى بلغ ماء يقال له ذو آمر .

وجاء في البداية والنهاية ان هذه الغزوة يقال لها غزوة (ذي آمر) فعسكروا على ذلك الماء واصابهم مطر كثير فابتلت ثياب النبي (ص) ، فنزل تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجف رطوبتها ، والمشركون من على رؤوس الجبال ينظرون اليه ، فأرسل المشركون رجلاً منهم فتاكاً يقال له دعثور بن الحارث ، وقالوا له قد امكنك الله من قتل محمد ، فانتهى إليه دعثور ومعه سيف صقيل حتى قام على رأسه والسيف مشهور بيده فقال له : يا محمد من يمنعني منك اليوم ؟ فقال النبي : الله يمنعك .

ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله (ص) وقال لدعثور : من يمنعك مني ؟ فقال لا احد ، وانا اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله ، والله لا اكثر عليك جمعاً ابداً ، فأعطاه رسول الله سيفه ، فلما رجع الى اصحابه ، قالوا له ويلك ماذا صنعت قال : نظرت الى رجل طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري فعرفت انه ملك ، وشهدت ان محمداً رسول الله ، وأعطيته عهداً ان لا اكثر عليه جمعاً أبداً .

ثم جعل يدعو قومه الى الاسلام وجاء في البداية والنهاية ان الآية التالية نزلت بهذه المناسبة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ همَّ قوم ان يبسطوا إليكم أيديهم فكف ايديهم عنكم ﴾ (المائدة ١١) .

وموضع التساؤل في هذه القصة ان النبي (ص) هل كان ينفرد عن اصحابه في غزواته ، وهل يتركه اصحابه وحيداً في تلك الفلاة والمشركون على مقربة منهم ، وهب انه ذهب الى الشجرة ليجفف ثيابه من المطر ، ولكن كيف

تركه ذلك الجيش المؤلف من أربعمائة وخمسين مقـاتلاً ، وخفي عليهم ذلـك الرجل الذي تحدر من الجبل لاغتياله وهو بعيد عن اصحابه كما جـاء في رواية البداية والنهاية ، كل ذلك يدعو الى الشك في رواية ابن كثير والله العالم بحقيقة الحال .

غزوة قرقرة الكدر

وجاء في بعض كتب السيرة ان جمعاً من غطفان وسليم تكتلوا للاعتداء على المسلمين ومهاجمتهم ، ولما بلغ النبي خبرهم خرج الى قرقرة الكدر ، وهي ارض ملساء لبني سليم فيها طيـور في الوانها كـدرة ، ومعه جمـع من المسلمين ولواؤه مع علي (ع) ليأخذ الطريق عليهم ، فلما وصل ذلك المكـان رأى آثار النعم ولم يجد احداً منهم ، فأرسل نفراً من اصحابه الى اعلى الوادي وانتظر هو في بطنه فلقي غلاماً اسمه يسار ، فسأله عن القوم ، فقال لا علم لي بهم انما أورد لخمس وهذا يوم ربيعي والنـاس قد ارتفعـوا الى الحياة ونحن عـراب في النعم ، فجمع المسلمون ما وجدوا من النعم وكانت خمسمائـة بعيـر ، فـأخذ رسول الله خمسها وقسم الباقي على المسلمين ، فأصاب كل واحد بعيران .

ورجع الى المدينة بمن معه وما لبث ان بلغه ان جمعاً كبيراً من بني سليم تجمعوا ببحران وتهيؤوا لقتاله ، فخرج في ثلاثمائة من اصحابه إليهم ، حتى اذا كانوا دون بحـران بليلة لقيهم رجل من بني سليم فسـأله النبي (ص) عنهم فأخبره انهم تفرقوا لما بلغهم خروجه إليهم ، وهكذا كـان الاعراب يجتمعـون بقصد غزو المدينة وقتال المسلمين ، وعندما يبلغهم ان النبي (ص) قـد اتجه نحـوهم بمن معه من المسلمـين يتفرقـون ويعتصمون بـرؤوس الجبال وبـطون الأودية خوفاً منه ومن اصحابه في اكثر الغزوات .

سرية زيد بن حارثة

لقد باتت قريش بعد غزوة بدر وما تلاها من مواقف المسلمين وسرايا النبي التي كانت تهدد العرب وتبث بينهم الخوف والذعر باتت بعد ذلك تفكر في تجارتها الى الشام لأنها المورد الوحيد الذي كان يقوم عليه اقتصادها ، فإذا استمر هذا الحصار الذي ضربه المسلمون عليها يضطرون الى الاستسلام لمحمد حتى لا تتعرض حياة المئات من المكيين للموت جوعاً .

ووقف صفوان بن امية يقص على المكيين والقرشيين ابعاد المعركة بينهم وبين محمد والنتائج السيئة التي ستنتج عنها ، فقال لهم :

ان محمداً واصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه . وهم لا يبرحون الساحل ، واهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معهم ، فما ندري اين نسكن ، وان أقمنا في دارنا هذه اكلنا رؤوس اموالنا ، فلم يكن لنا من بقاء ، وحياتنا بمكة تقوم على التجاوة الشام في الصيف والى الحبشة في الشتاء ، فقال له الأسود بن عبد المطلب : تنكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق ، وأرشده الى فرات بن حيان من بني بكر بن وائل لكي يدلهم على الطريق ، فقال لهم فرات بن حيان : ان طريق العراق لا يسلكها احد من اصحاب محمد ، انما هي ارض نجد وفيافي ، ولم تخف صفوان الفيافي إذا كان الفصل شتاء لأن حاجتهم الى الماء قليلة .

وتجهز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم ، وكان بمكة رجل من يثرب يدعى نعيم بن مسعود الأشجعي قد عرف الطريق الذي سيسلكه صفوان بن امية في تجارته فعاد الى المدينة وحدث احد المسلمين بما عزمت عليه قريش ، واسرع الرجل الى النبي (ص) وحدثه بذلك . وما لبث النبي ان ارسل

زيد بن حارثة في مائة راكب ليعترضوا تجارة قريش في طريقها الجديد ، فساروا يجدون السير فاعترضوا تجارة قريش في محل يدعى القردة وهو ماء من مياه نجد ، ففر صفوان بمن معه من الرجال واصاب المسلمون القافلة بكاملها وأسروا الدليل فرات بن حيان ورجعوا الى المدينة فقسم النبي الغنائم بين اصحابه وجيء بفرات الى النبي فعرض عليه الاسلام فأسلم لينجو بحياته .

ورجع صفوان بن امية بمن معه الى مكة فزاد ذلك من حقد قريش واستعدادها للثأر من محمد (ص) مهما كانت النتائج ومهما بلغت التضحيات ، ولم يغب ذلك عن محمد وبعد نظره وسلامة تفكيره فجعل يستعد لكل حادث ويشد من عزيمة المسلمين ويتتبع تحركات قريش واستعداداتها بكل دقة ويخبر المسلمين بما يتوفر لديه من معلومات عن قريش وتحركاتها ليكونوا على اتم الاستعداد لكل ما يمكن ان يطرأ عليهم من قريش وغيرها .

مولد الامام الحسن

كان مولد الامام الحسن في النصف من رمضان في السنة الثالثة للهجرة قبل معركة احد ، ولما ولد جاء به علي الى النبي (ص) فحمله بين يديه واذن في اذنيه وحنكه بريقه ، وسماه حسناً ، فكان اول سبط ملأ قلب النبي (ص) بجمال طفولته وروعة تحركاته واشراقة محياه ، فتعاهده بالتربية وغذاه من لسانه ونوه بفضله وبمستقبله ولأكثر من مناسبة قال حسن وحسين مني وأنا منهما من احبهما واحب اباهما وامهما كان معي في الجنة .

وجاء في مسند احمد وصحيح ابن ماجة ومستدرك الصحيحين وطبقات ابن سعد وغيرها ان ام الفضل زوجة العباس رأت انه كان في بيتها عضوان من اعضاء رسول الله ، فأتت رسول الله وقصت عليه طيفها فقال لها : خيراً رأيت تلد فاطمة

غلاماً فتكفلينه بلبن ابنك قثم ، فلما ولدت فاطمة الحسن ارضعته بلبن ابنها قثم بن العباس[1] .

وشاهده رجل من الأنصار يوماً يضم الحسن الى صدره يشمه ويقبله بلهفة الوالد الشفوق العطوف ، فاستغرب من النبي (ص) ذلك وقال : ان لي ابناً ما قبلته قط ، فقال له النبي (ص) أرأيت إذا كان الله قد نزع من قلبك الرحمة فما اصنع لك ، الحسن والحسين ابناي من احبهما احبني ومن أحبني احبه الله ، ومن احبه الله ادخله الجنة ، ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله ادخله النار .

وفي صحيح البخاري كتاب الأدب عن ابن عمر ان رسول الله قال : الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا ، وأضاف الى ذلك في ذخائر العقبى وكنز العمال انه قال من احبهما احبني .

وفي صحيح الترمذي بسنده الى ابي بريدة انه قال : كان رسول الله (ص) يخطبنا اذ الحسن والحسين عليهما قميصان احمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله (ص) عن المنبر مسرعاً فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله حيث يقول : ﴿ انما اموالكم واولادكم فتنة ﴾ . لقد نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم استطع ان اصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما الي .

وجاء في صحيح ابن ماجة وتاريخ بغداد والمناوي في كنوز الحقائق ان رسول الله كان يقول : من احب الحسن والحسين فقد احبني ومن أبغضهما فقد ابغضني .

وجاء في سنن البيهقي بسنده عن زر بن حبيش ان رسول الله كان ذات يوم يصلي بالناس فاقبل الحسن والحسين وهما غلامان فجعلا يتوثبان على ظهره اذا

---

(١) هذا مع العلم بأن اكثر الروايات تنص على ان قثماً كان اكبر من الحسن ، وان العباس في السنة الثالثة كان لا يزال مع عائلته في مكة .

سجد ، فلما فرغ اقبل الناس عليهما ينحونهما عنه فقال : دعوهما بأبي وامي والتفت الى الناس وقال من احبني فليحب هذين .

وفي صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجة والمستدرك وحلية الأولياء وتاريخ بغداد والاصابة لابن حجر وكنز العمال عن جماعة من رواة الصحابة ان النبي (صٌ) قال في اكثر من مناسبة فاطمة سيدة نساء اهل الجنة والحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة .

وجاء في كنز العمال ج ٦ ص **٢٢٢** عن انس بن مالك انه قال : بينا رسول الله راقد اذ جاءه الحسن (ع) يدرج حتى قعد على صدره وبال على ثيابه فجئت انحيه عنه فقال ويحك يا انس دع ابني وثمرة فؤادي فإن من آذى ابني فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله الى كثير من الروايات في فضل الحسنين رواها محدثو السنة في مجاميعهم وصحاحهم[1] .

---

(١) انظر فضائل الخمسة المقصد الرابع والخامس ج ٣ .

الفصل الثاني عشر

معركة احد

كانت معركة بدر وما تلاها من الغزوات ، وما رافق ذلك من الغنائم والانتصارات تدعو الى الاطمئنان ومع ذلك كله فلم يطمئن النبي على مصير الإسلام ، ولم ينخدع بتلك الانتصارات ، ما دامت قريش على موقفها المتصلب ، وكان على اتصال دائم بأخبارها واستعدادها لطلب الثأر وتجهيز جيش قوي تشترك فيه مكة وغيرها ،وتعهدت بتحويل المحاربين وتجهيزهم بما يحتاجون إليه .

وكانت العير التي كانت من اجلها معركة بدو هي النواة الأولى ، ولا تزال في دار الندوة ينتظرون بها ساعة المعركة ، واخيراً تولى جماعة بيع الأموال التي بها وعزلوا ارباحها للحرب ، وحشدت مكة جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل منها ومن غيرها من الأعراب ، بينهم سبعمائة دارع وقادوا معهم مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير .

واختلفت قريش بينها في اخراج النساء معها فمن قائل ان خروجهن يلهب النفوس ويبعث فيها الحماس ، فعارض اصحاب هذا الرأي نوفل بن معاوية ومعه جماعة من المشركين وقالوا يا معشر قريش : ليس من الرأي ان تعرضوا

حرمكم لعدوكم ولا نأمن ان تكون المعركة لغير صالحكم فتفتضحوا في نسائكم .

وفيما هم في جدال واخذ ورد حول هذه الناحية واذا بهند بنت عتبة تصيح بأعلى صوتها وتقول لنوفل بن معاوية ، انك سلمت يوم بدر فرجعت الى نسائك ، واللات والعزى اننا سنخرج ولا نسمح لأحد ان يردنا كما رددتم القيان حينما سرتم لبدر فقتل الأحبة ، ولم يكن معهم من يحرضهم على القتال واستقر الرأي بعد اصرار هند وتصلبها في موقفها على اشتراك النساء في هذه المعركة وكانت هند من اشد قريش حرصاً على الثأر لأبيها وعمها واخيها .

وجاء في بعض كتب السيرة ان اللواتي اشتركن من النساء في معركة احد كن خمس عشرة امرأة منهن هند بنت عتبة ، وام الحكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل وسلافة بنت سعد زوجة طلحة بن أبي طلحة ، وقد قتل زوجها في تلك المعركة واربعة من أولادها ، وريطة بنت منبه بن الحجاج زوجة عمرو بن العاص وخناس بنت مالك كانت مع ابنها أبي عزيز بن عمير وابنها مصعب بن عمير كان الى جانب المسلمين وقتل معهم ، وعمرة بنت علقمة بن الحارث الكنانية زوجة غراب بن سفيان ، وهي التي اقدمت على لواء المشركين وحملته بعد ان سقط الى الأرض ، فتراجعت قريش والتفت حول اللواء وفيها يقول حسان بن ثابت :

ولولا لواء الحارثية اصبحوا يباعون بالأسواق بالثمن البخس

الى غير ذلك من النساء اللواتي خرجن مع ازواجهن وأولادهن .

وخلال الفترة التي كانوا يستعدون فيها للخروج كان العباس معهم يطلع على كل صغير وكبير من امرهم ، ولم يكن قد تجاهر بالاسلام ، بل كان يبطنه ويحاربهم في ظاهر الحال ، ولكنه في واقعه كان مخلصاً ووفياً للاسلام ، وبقاؤه بينهم وبخاصة بعد ان أسر في بدر واعلن اسلامه في المدينة لعله كان برأي النبي لمصلحة الاسلام .

وبلا شك فإن إيمانه بمحمد ورسالته من جملة الدوافع التي دفعته الى اعلام النبي بتحركاتهم واستعداداتهم لتلك المعركة ، فقد كتب إليه كتاباً وصف له به صنيعهم واجتماع كلمتهم وعدتهم وعددهم ودفعه سراً الى رجل غفاري ليوصله الى النبي (ص) وأوصاه بالكتمان وان يجد السير ليلاً ونهاراً .

ومضى الغفاري بالكتاب ولا همٌّ له الا ايصاله للنبي ، ومضت قريش في طريقها الى غزوا النبي (ص) في المدينة وبلغت الابواء وفيها قبر آمنة بنت وهب ام النبي (ص) ، فدفع الحماس بعض القرشيين الطائش الى التفكير في نبشه وألحت على ذلك هند بنت عتبة وكادت تبرك في مكانها لا تبرحه حتى تنفذ لها قريش ما تريد ، ولكن بعض زعماء قريش حال بينهم وبين ما يريدون ، وقال لهم ان ذلك لو تم لأصبح عادة عند العرب ، وما يمنع خزاعة وبنو بكر ان تنبش قبور موتى قريش ايضاً .

ومضى الغفاري ومعه رسالة العباس يجد السير حتى بلغ المدينة في ثلاثة ايام فوجد النبي (ص) بقباء على باب المسجد فدفع اليه الكتاب ، فدفعه النبي الى أبي بن كعب فقرأه عليه فأمره النبي ان يكتم الخبر ولا يحدث احداً بما فيه .

وعاد النبي (ص) الى المدينة وقصد دار سعد بن الربيع وقص عليه ما بعث به العباس وامره بالكتمان ، فقال والله اني لأرجو ان يكون في ذلك خير ، فلما خرج النبي (ص) قالت له امرأته ما قال لك رسول الله ، فقال ما لك ولذلك لا ام لك ، فقالت كنت استمع عليكم واخبرته الخبر واسترجع واخذ بيدها ولحق النبي فأخبره خبرها فقال خفت ان يفشو الخبر فترى اني انا المفشي له ، فقال له النبي (ص) خلِّ عنها .

وتابعت قريش مسيرتها حتى بلغت العقيق ونزلت في سفح جبل على خمسة اميال من المدينة ، ثم ساروا حتى نزلوا في مقابل المدينة بذي الحليفة وذلك لخمس بقين من شوال فتركوا خيلهم وابلهم ترعى في زروع المدينة المحيطة بها .

وبعث رسول الله انس ومؤنس ابني فضال يستطلعان له الخبر فألفياهم وقد قاربوا المدينة واطلقوا الخيل والإبل في الزروع ، وبعث بعدهما الحباب بن المنذر بن الجموح سراً وقال له : إذا رجعت فلا تخبرني بخبرهم بين الناس ، الا ان ترى فيهم قلة ، فذهب حتى دخل بينهم ووقف على عددهم وعدتهم فرجع واخبره بحالهم وقال له : ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً او ينقصون قليلاً والخيل فوق المائتين ورأيت دروعاً ظاهرة فوق الثياب واحسب انها سبعمائة ، فقال له النبي لا تذكر من امرهم شيئاً حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك اصول وبك اجول .

وبات وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ليلة الجمعة وعليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله حتى أصبحوا خوفاً عليه من المشركين ، وتولى جماعة حراسة المدينة ، وفي صبيحة يوم الجمعة صعد النبي المنبر وقال : رأيت البارحة في منامي اني ادخلت يدي في درع حصينة ورأيت بقراً تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما واني اردفت كبشاً وقد اولتها بأن الدرع الحصينة هي المدينة والبقر التي تذبح أناس من اصحابي يقتلون واما الثلم في سيفي فرجل من اهل بيتي يقتل ، واما الكبش فكبش الكتيبة يقتله الله ، فإن رأيتم ان تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا اقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها فإنا اعلم بها منهم ، وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فكان رأي رسول الله على حد زعم بعض الرواة ان لا يخرج من المدينة تشاؤماً من تلك الرؤيا ، واحب ان يوافقه المسلمون على رأيه .

ثم استشار اصحابه في الخروج ، فأشار عليه عبدالله بن أبيّ ابن سلول ان لا يخرج من المدينة ، وقال يا رسول الله : أقم بالمدينة ولا تخرج منها فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط الا اصاب منا ولا دخلها الا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر منزل ، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا وكان ذلك رأي كبار المهاجرين كأبي بكر وعمر وبعض الأنصار .

ولكن فتيان المهاجرين والأنصار وبعض الشيوخ ممن لم يشهدوا بدراً وبعض من شهدها منهم وذاقوا حلاوة النصر وامتلأت بالايمان قلوبهم ظنوا انهم لا يغلبون فأحبوا الخروج الى العدو وملاقاته حيث نزل بأرضهم مخافة ان يتهموا بالخوف والجبن .

وقال اياس بن أبي أوس احد بني عبد الأشهل اني يا رسول الله لا احب ان ترجع قريش الى قومها لتقول حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها فتكون هذه جرأة لقريش وها هم قد وطئوا سعفنا فاذا لم نذب عن عرضنا وزرعنا فلم نزرع ؟ وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا فنذبهم عنا فنحن اليوم احق اذ أمدنا الله بك وعرفنا مصيرنا فلا نحصر انفسنا في بيوتنا .

وقام خيثمة ابو سعد بن خيثمة فقال :يا رسول الله ان قريشاً مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من احابيشها ثم جاؤونا قد قادوا الخيل واعتلوا الابل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا اطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا ويجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا وعسى الله ان يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا ، او تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصفا ولقد بلغ من حرصي ان ساهمت ابني في الخروج فرزق الشهادة وقد كنت حريصاً على الشهادة وقد رأيت ابني البارحة في النوم في احسن صورة يسرح في ثمار الجنة وانهارها وهو يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً وقد والله اصبحت يا رسول الله مشتاقاً الى مرافقته في الجنة وقد كبرت سني ودق عظمي واحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله ان يرزقني مرافقة سعد في الجنة فدعا له رسول الله بذلك فقتل مع من قتل في تلك المعركة .

وقال الحمزة بن عبد المطلب : والذي انزل عليك الكتاب لا اطعم اليوم طعاماً حتى اجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة وكان الحمزة صائما يومي الجمعة والسبت حينما التقى مع المشركين كما جاء في شرح النهج المجلد الثالث .

وجاء في الكتاب المذكور ان الحمزة وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك وغيرهم من الأوس والخزرج من اهل النية الحسنة واهل السن قالوا لرسول الله : انا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج اليهم جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فأظفرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير نتمنى هذا اليوم وندعو الله له وقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه .

وتتابع الناس كل يدلي برأيه وبما عنده ورسول الله يبدو كارهاً للخروج فلم يزالوا به حتى اظهر موافقته لهم وكانوا الأكثرية الغالبة من المقاتلين ، فلما جاء وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى بالناس وصعد المنبر فوعظهم وحثهم على الجد والاجتهاد والصبر واخبرهم بأن النصر سيكون حليفهم اذا صبروا واخلصوا في جهاد اعداء الله واعداء رسوله ، ثم امرهم ان يتجهزوا للقاء العدو ، فاستبشر اكثرهم لهذا القرار .

ولما حان وقت العصر صلى بهم وكانوا قد احتشدوا حول النبي ليعرفوا رأيه النهائي وحضر اهل العوالي ، ولما فرغ من صلاته دخل منزله ووقف الناس ينتظرون خروجه ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : لقد استكرهتم رسول الله على الخروج فاتركوا الأمر اليه ، وكان قد خرج لابساً لأمته ، وقد تعمم ولبس الدرع وتقلد سيفه وتنكب القوس ووضع الترس في ظهره ، ولما رأوه بتلك الحال اقبل عليه جمع ممن كانوا قد تحمسوا للخروج وقد ندموا على موقفهم مخافة ان تنزل بهم آية من عند الله فقالوا يا رسول الله ما كان لنا ان نخالفك فاصنع ما بدا لك والأمر الى الله وإليك فإن خرجت خرجنا وان اقمت أقمنا ، فرد عليهم النبي بقوله :

لقد دعوتكم لذلك فأبيتم ، وما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه انظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم .

هذه الصورة الموجزة لما دار بين النبي (ص) وبين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حول البقاء في المدينة بانتظار ان يلتقوا مع قريش فيها ، وبين الخروج إليهم حيث نزلوا ومقابلتهم في خارجها كما رواها جميع المؤرخين والمؤلفين .

ويبدو أن جميع المؤلفين في السيرة قد خرجوا من هذا الحوار وهم على قناعة تامة بأن الرسول كان يرى رأي ابن سلول وغيره من شيوخ الصحابة ويفضل الاعتصام بالمدينة ، ولكن حماس الأكثرية قد اضطره الى النزول على رغبتهم .

والذي أراه ان النبي من اول الأمر لم يكن يفضل ملاقاة المهاجمين في المدينة على ملاقاتهم خارجها ، وقد استشارهم اولاً ليختبر نواياهم وهو يعلم علم اليقين ان ملاقاتهم داخل المدينة سيمكنهم من احتلالها خلال ساعات معدودات لأنهم سيجدون من المنافقين والمرتابين وهم عدد كبير بين سكان المدينة وكانوا على اتصال دائم بهم سيجدون منهم اعواناً على محمد واتباعه ، ومن غير المعقول ان يخلص عبد الله بن ابي ومن معه من المنافقين والمرتابين من المهاجرين والأنصار للدفاع عن محمد ورسالته ، وهم يلتقون مع الغزاة التقاءً كاملاً ، وكان عبد الله بن أبي اول المشيرين على النبي بالاعتصام بالمدينة ووافقه على ذلك بعض شيوخ المهاجرين وادرك النبي (ص) الغاية التي يقصدها المنافقون ، ولكنه بقي يتظاهر بالموافقة على رأي ابن سلول ليختبر بقية المسلمين ويكتشف نواياهم .

وبلا شك انه لقد كان بين من وافقوا ابن ابي سلول من مهاجرين وانصار جماعة لا يتطرق الشك الى حسن نواياهم كما كان منهم مرضى النفوس والمتآمرون ، ولما وقف على نوايا الجميع ومحصهم تمحيصاً دقيقاً اعلن عن رأيه الذي كان قد انطوى عليه منذ اللحظة الأولى حينما اتصلت به اخبار قريش .

ومما يرجح انه لم يتبن رأي ابن ابي سلول ومن معه من المنافقين والمرتابين ، وانه يعلم بأنهم سيكونون اعواناً لقريش عليه ، أنه لما خرج خرج معه ابن ابي

سلول في نحو من ثلاثمائة وخمسين من اتباعه المنافقين وبعض اليهود وقطعوا معه أميالاً خارج المدينة في طريقهم لملاقاة الغزاة ثم رجعوا بلا سبب .

وفي رواية ثانية انه هو امرهم بالرجوع وقال : لا نحارب المشركين بالمشركين كما جاء في بعض المرويات .

وسواء كان رجوعهم بناء لرغبتهم ام كان بناء لطلب النبي فذلك يشكل دليلاً قاطعاً على سوء نواياهم وانه كان يتخوف منهم عندما تحتدم المعركة ان ينضموا الى المشركين وهم يشكلون قوة لا يستهان بها ، واذا كان في ريب من امرهم وهم خارج المدينة فكيف يوافقهم على مقابلة الغزاة في داخلها ويطمئن لاخلاصهم في الدفاع على ابوابها وفي شوارعها .

وإذا كان ابن أبي سلول صادقاً في قوله بأنه سيدافع عن المدينة اذا هاجمها الغزاة فلماذا رجع من الطريق وهو يعلم بأن جيش النبي في امس الحاجة الى المساعدة والمساندة . والذي اراه ان التدبير الذي اتخذه النبي (ص) كان تدبيراً حكيماً وحازماً من الناحية السياسية والعسكرية ، وارجح انه لو بقي في المدينة لوجد المشركون من كانوا على رأيهم في المدينة اعواناً لهم على احتلالها وانتقال الحرب الى شوارعها واذا انتهت بما انتهت اليه في احد يصبح النبي واتباعه تحت رحمة المشركين والمنافقين خلال ساعات معدودات .

ومهما كان الحال فلقد استخلف النبي (ص) على المدينة ابن ام مكتوم ليصلي بالناس وعقد ثلاثة ألوية فاعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب ، ولواء الاوس الى اسيد بن حضير ، ولواء الخزرج الى الحباب بن المنذر ، وقيل اعطاه الى سعد بن عبادة الانصاري ، ثم ركب فرسه وخرج في ألف من المقاتلين بينهم مائة دارع ومعهم فرسان وقيل اكثر من ذلك ، وخرج السعدان سعد بن معاذ وسعد بن عبادة امامه والناس عن يمينه وعن شماله ، فلما انتهى الى رأس الثنية التفت فنظر الى كتيبة خشناء لها زجل خلفه فقال ما هذه ؟ قيل له : حلفاء ابن أبي من اليهود ، فقال لا نستنصر بالشرك على اهل الشرك فرجع ابن أبي وجماعته .

وفي رواية ابن اسحاق انه لما بلغ الشوط وهو مكان بين المدينة واحد انخذل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس ، وقال اطاعهم محمد وعصاني ، ما ندري علام نقتل انفسنا ها هنا ايها الناس ورجع بمن اتبعه من المنافقين والمرتابين ، واتبعهم عبد الله بن عمر بن حزام اخو بني سلمة يقول : يا قوم اذكركم الله الا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر مع عدوه ، فقالوا لو نعلم انكم تقاتلون لما اسلمناكم ولكنا لا نرى انه يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا الا الانصراف عنهم قال : ابعدكم الله اعداء الله فسيغني الله نبيه عنكم[1] .

وهذه الرواية تؤيد ما ذكرنا من ان عبد الله بن أبي كان في رأيه الذي اشار به على النبي ينوي الغدر بالمسلمين ومساعدة المشركين من حيث لا يشعر المسلمون بذلك .

ثم ان رسول الله (ص) قال لأصحابه : من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ومن طريق لا يمر بنا عليهم ، فقال ابو خيثمة اخو بني حارثة بن الحارث انا يا رسول الله ، فنفذ به في ارض لبني حارثة وبين املاكهم حتى سلك في مال لمربع بن قيظي وكان رجلاً منافقاً اعمى البصر ، فلما سمع حس رسول الله (ص) ومن معه من المسلمين قام يحثو التراب في وجوههم ويقول : ان كنت رسول الله فلا احل لك ان تدخل حائطي واخذ حفنة من التراب وقال : والله لو اعلم أني لا اصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك فابتدره القوم ليقتلوه فنهاهم رسول الله وقال: انه لأعمى القلب والبصر، وضربه سعد بن زيد على رأسه فشجه ، وذلك قبل ان ينهاهم رسول الله عن التعرض له .

ومضى رسول الله مع الصبح حتى بلغ احداً فاجتازوا مسالكها وجعلوها بين اظهرهم وجعل يصف اصحابه ويعدهم للقتال ووضع منهم خمسين رجلاً على

---

(١) انظر ج ٣ من شرح النهج ص ٣٦٤ .

شعيب في الجبل ، وقال لهم : تحموا لنا ظهورنا فانا نخاف ان يجيئونا من ورائنا ، وأكد عليهم ان يلزموا مكانهم حتى ولو قتل المسلمون عن آخرهم ، وأضاف الى ذلك ان عليكم ان ترشقوا خيلهم بالنبل اذا رأيتموها تحاول الاغارة علينا من ورائنا ، لأن الخيل لا تقدم على النبال ، ثم نهى المسلمين ان يقاتلوا القوم حتى يأمرهم بالقتال ، وكان المسلمون كما تنص على ذلك كتب السيرة سبعمائة مقاتل في مقابل ثلاثة آلاف أو يزيدون ومعهم النساء تحرضهم على الثأر لقتلى بدر .

وكان حينما استعرض جيشه ارجع غلماناً من المسلمين قد استصغرهم منهم عبد الله بن عمر واسامة بن زيد وزيد بن ثابت أحد بني مالك بن النجار واسيد بن ظهير ، ورد سمرة بن جُندب ورافع بن خديج الى الجيش بعدما امرهما بالانصراف وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وكان سبب ارجاعهما انهما يجيدان الرمي بالنبال بعد ان قيل له عنهما ذلك .

وأقبل المشركون فاستدبروا المدينة في الوادي واستقبلوا احداً وصفوا صفوفهم فاستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى الخيل صفوان بن امية ، وعلى الرماة عبيد الله بن أبي ربيعة واعطوا اللواء الى طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار .

وصاح ابو سفيان بن حرب يحرض بني عبد الدار ويقول : يا بني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم فاذا زالت زالوا فإما ان تكفونا لواءنا واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فإنا قوم مستميتون موتورون نطلب ثأراً حديث العهد ، وإذا زالت الألوية فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ، فغضب بنو عبد الدار ، وقالوا نحن نسلم لواءنا لا كان هذا ابداً ، واما المحافظة عليه فسترى ، ثم اسندوا الرماح إليه واحدقت به بنو عبد الدار وأغلظوا القول لأبي سفيان ، فقال ابو سفيان فنجعل لواءً آخر فقالوا نعم ، ولكن لا يحمله الا رجل من بني عبد الدار لا كان غير ذلك ابداً .

ولما عبأ النبي (ص) اصحابه سأل من يحمل لواء المشركين فقيل بنو عبد الدار ، وكان اللواء مع علي (ع) فأخذه منه واعطاه الى مصعب بن عمير لأنه من بني عبد الدار ، فلما قتل مصعب بن عمير رجع اللواء الى علي (ع) فكان معه هو والراية كما جاء في رواية الشيخ المفيد في ارشاده ، وقيل في مقام الفرق بينهما ان الراية هي العلم الأكبر واللواء دونها .

ووقف النبي (ص) تحت راية الأنصار .

وفي رواية الطبري انه جعل الزبير على الخيل ومعه المقداد بن الأسود وخرج الحمزة بالجيش بين يديه ، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فبعث رسول الله الزبير ، وقال له : استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه حتى أؤذنك بالحرب .

ثم إنه (ص) وقف خطيباً في اصحابه فقال : ايها الناس اوصيكم بما اوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه ، ثم انكم بمنزل اجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كريه ، قليل من يصبر عليه الا من عزم له على رشده .

ان الله مع من أطاعه وان الشيطان مع من عصاه فاستفتحوا اعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي آمركم به فاني حريص على رشدكم ، ان الاختلاف والتنازع والتثبيط من امر العجز والضعف وهو مما لا يحبه الله ولا يعطي عليه النصر والظفر .

ايها الناس إنه قد قذف في قلبي انه من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على محمد صلى الله عليه وملائكته عشراً ، ومن احسن الى مسلم وقع اجره على الله في عاجل دنياه او في آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا صبياً او امرأة او

مريضاً اوعبداً مملوكاً ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غني حميد ، ما اعلم من عمل يقربكم الى الله الا وقد امرتكم به ، ولا اعلم من عمل يقربكم الى النار الا وقد نهيتكم عنه ، وانه قد نفث الروح الأمين في روعي انه لن تموت نفس حتى تستوفي اقصى رزقها لا ينقص منه شيء وان أبطأ عنها .

فاتقوا الله ربكم وأجملوا في طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على ان تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده الا بطاعته ، لقد بين لكم الحلال والحرام غير ان بينهما شبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس الا من عصم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعي الى جنب الحمى اوشك ان يقع ويفعله ، وليس ملك إلا وله حمى، ألاوان حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها ان ابا عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان احد بني ضبيعة كان قد خرج الى مكة ومعه خمسون غلاماً من الأوس وخمسة عشر رجلاً غيرهم كما جاء في بعض المرويات ، وكان موالياً لقريش وقد وعدها انه لو لقي قومه من الأوس لم يختلف عليه اثنان ، وخرج مع قريش الى احد ، فلما التقى الناس كان ابو عامر اول من قابل الأوس بالاحابيش وعبدان مكة ، فنادى يا معشر الأوس انا ابو عامر ، فقالوا لا انعم الله بك علينا يا فاسق ، وكان يكنى في الجاهلية بالراهب فسماه رسول الله الفاسق فلما سمع ردهم عليه قال لقد اصاب قومي بعدي شر ثم قاتلهم ورضخهم بالحجارة .

ثم اخرج رسول الله سيفاً وقال من يأخذ هذا السيف بحقه فقام إليه رجال فأمسكه عنهم منهم عمر بن الخطاب كما جاء في رواية ابن كثير وغيره وما زال ينادي

---

(١) انظر ج ٣ من شرح النهج ص ٣٦٥ .

ويردد قوله ، حتى قام ابو دجانة الأنصاري ، سماك بن خراشة من بني ساعدة ، فقال وما حقه يا رسول الله ، فقال حقه ان تضرب به العدو حتى ينحني ، قال انا آخذه يا رسول الله فأعطاه إياه وكان ابو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ويعتصب بعصابة له حمراء ، فاذا اعتصب بها عرف الناس انه عازم على الحرب .

وجاء في شرح النهج عن الواقدي ان احد المنافقين في المدينة وكان يدعى قزمان قد تخلف عن احد ، فلما اصبح عيره نساء بني ظفر ، وقلن له يا قزمان لقد خرج الرجال وبقيت الا تستحي بما صنعت ما انت الا امرأة وما زلن يؤ نبنه حتى دخل بيته ولبس لأمته وخرج يعدو حتى انتهى الى رسول الله (ص) وهو يسوي صفوف المسلمين فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فانضم اليه ، وحينما بدأت المعركة كان اول من رمى بسهم من المسلمين وجعل يرسل النبال كأنها الرماح ، ثم اخذ السيف وفعل الأفاعيل واخيراً قتل نفسه ، وذلك انه لما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه وجعل يقول : الموت احسن من الفرار . يا للأوس قاتلوا عن الأحساب واصنعوا مثل ما اصنع ، فكان يدخل بالسيف في وسط المشركين حتى يقال لقد قتل ، ثم يخرج من بينهم ويقول : انا الغلام الظفري حتى قتل منهم سبعة رجال واصابته جراحات كثيرة فضعف عن القتال وهوى الى الأرض فمر به قتادة بن النعمان ، فقال له يا ابا الغيداق ، قال قزمان لبيك : قال هنيئاً لك الشهادة .

قال قزمان : والله ما قاتلت يا ابا عمرو الا على الحفاظ حتى لا تسير قريش فتطأ سعفنا ، ولما آذته الجراحة قتل نفسه ، فقال النبي (ص) ان الله يؤ يد هذا الدين بالرجل الفاجر .

ثم التحمت المعركة وقام الرماة بدورهم يرمون خيل المشركين بالنبل فولت هاربة فقال بعض المسلمين : والله لقد رأيت نبلنا يومئذ ما رأيت سهماً واحداً مما يرمى به خيلهم يقع على الأرض إما في فرس او في رجل ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقدم المشركون طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم واقاموا النساء خلف

الرجال يضربن بين اكنافهم بالطبول والدفوف وهند ومن معها يحرضن الرجال ويذكرن بقتلى بدر ويقلن :

نحن بنات طارق	نمشي على النمارق
مشي القطا البوارق	المسك في المفارق
والدر في المخانق	ان تقبلوا نعانق
او تدبروا نفارق	فراق غير وامق

وجاؤ وا بطلحة بن أبي طلحة حامل اللواء فصاح من يبارز ، فقال له علي (ع) هل لك في مبارزتي ؟ قال : نعم فبرزا بين الصفين ورسول الله جالس تحت الراية وعليه درعان ومغفرة وبيضة ، فالتقيا فضربه علي (ع) ضربة على رأسه فمضى السيف حتى فلق هامته وانتهى الى لحيته فوقع كالثور يخور بدمه وانصرف عنه علي (ع) ، فقيل له هلا ذففت عليه ، فقال لما صرع استقبلني بعورته وسألني الرحم .

وفي رواية ثانية ان طلحة ضرب علياً بسيفه فاتقاه علي بالدرقة ولم يصنع شيئاً فحمل عليه علي ، وعلى طلحة درع ومغفر فضربه بالسيف فقطع ساقيه وخر الى الأرض ، فلما قتل طلحة كبر رسول الله تكبيراً عالياً وكبر معه المسلمون ثم شد اصحاب رسول الله على كتائب قريش يضربون وجوههم حتى انتقضت صفوفهم .

وفي سيرة الواقدي وغيرها انه لما قتل طلحة حامل اللواء جاء اخوه عثمان بن ابي طلحة وانشد . . .

ان على رب اللواء حقاً	ان يخضب الصعدة او ينقدا

فتقدم باللواء والنسوة خلفه يحرضن ويضربن بالدفوف فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى الى

مئزره فبدا سحره ورجع ، فقال الحمزة انا ابن ساقي الحجيج ، وحمل اللواء بعدهما اخوهما ابو سعيد بن أبي طلحة فحمل عليه علي فقتله ، وقيل رماه سعد بن ابي وقاص فأصاب حنجرته وكان دارعاً وعليه مغفر وعلى رأسه بيضة فأدلع لسانه ادلاع الكلب .

وجاء عن الواقدي انه لما حمل اللواء وتقدم به نحو المسلمين قام النساء خلفه يقلن :

ضربا بني عبد الدار ضربا حماة الأدبار ضربا يصل بالثار

فلما حمل عليه سعد بن أبي وقاص ضربه على يده اليمنى فقطعها فأخذ اللواء باليد اليسرى ، ثم حمل عليه فقطع يده اليسرى ، فأخذ اللواء بذراعيه ، ثم حمل عليه ثالثة فقتله واراد سلبه فمنعه عنه سبيع بن عوف ونفر معه ، وكان سعد بعد ذلك يتحسر حيث فاته سلبه .

وفي شرح النهج عن الواقدي ، ثم حمل لواء المشركين مسافع بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله فحمل الى امه سلافة بنت سعد بن الشهيد وهي مع النساء بأحد ، فقالت من اصابك قال لا ادري ولكني سمعته يقول خذها وانا ابن الأفلح ، فقالت : افلحي هو والله وكان وإياها ينتميان الى الأوس ، ونذرت يوم ذاك امه سلافة ان تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر ، وجعلت لمن جاءها برأسه مائة من الأبل ، فلما قتله المشركون في غزوة الرجيع ارادوا ان يأخذوا رأسه طمعاً في الجائزة من سلافة فحمته الدبر يوم ذاك ولم يستطع احد ان يدنو منه فتركوه الى الليل ظناً منهم ان الدبر لا تجتمع عليه ليلاً ، وبدخول الليل جاء الوادي بسيل فحمله ولم يجدوا له اثراً .

ثم حمل اللواء اخوه كلاب بن طلحة فقتله الزبير بن العوام ، ثم اخذه اخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد ، ثم حمله ارطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب ، ثم حمله غلام لبني عبد الدار فقتله علي

(ع) ، وتعاقب حملة اللواء من بني عبد الدار حتى قتل منهم تسعة من خيرة ابطال المشركين .

ولما قتل اصحاب الألوية انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء حتى احيط بنسائهم ووقع الصنم الكبير الذي حملوه معهم يتيمنون به من فوق الجمل الذي كان يحمله ومن خلال الهودج الذي كان يحويه .

وجاء في شرح النهج وغيره عن الواقدي انه قال : ان النصر الذي تهيأ لمحمد (ص) يوم احد بمشيئة الله لم يتهيأ له في موطن قط وظل النصر بجانبهم حتى عصوا الرسول وتنافسوا على الغنائم .

واضاف الى ذلك ان كثيراً من الصحابة الذين حضروا احداً كانوا يقولون : والله لقد كنا ننظر الى هند وصواحبها منهزمات ما دون اخذهن شيء لمن ارادهن ، ولكن لا مرد لقضاء الله ، فلقد اصيب المسلمون من قبل الرماة الذين وضعهم النبي (ص) من ورائه ليحموا ظهورهم بنبالهم اذا هوجموا من جهة الخيل التي تلي ظهورهم ، وحاول خالد بن الوليد اكثر من مرة ان يهاجمهم من تلك الجهة فلم يستطع حتى فعل ذلك مراراً ، وقد كان النبي (ص) في منتهى الحكمة والمهارة في قيادته حين امر تلك الحامية المؤلفة من خمسين رجلاً تقريباً ان لا تبرح مكانها حتى ولو انهزم المسلمون وقتلوا ، ولكنهم لما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون حتى اجلوهم عن المعسكر واخذوا يستولون على ما فيه من الغنائم قال بعضهم لبعض : لمَ تقيمون هنا وقد هزم الله المشركين وهؤلاء اخوانكم يستولون على عسكرهم فادخلوا عسكر المشركين مع اخوانكم ، فقال لهم جماعة : ألم تعلموا ان رسول الله قال لنا : احموا ظهورنا وان رأيتمونا غنمنا او قتلنا فلا تبرحوا مكانكم فقالوا لم يرد رسول الله ذلك : وقد اذل الله المشركين وهزمهم ، فلما اختلفوا خطبهم اميرهم عبد الله بن جبير وامرهم بطاعة رسول الله فعصوه وانطلقوا نحو العسكر يتسابقون الى الغنيمة ، ولم يبق معه سوى نفر قليل لا يتجاوزون العشرة والحارث بن أنس ينادي فيهم يا قوم اذكروا عهد نبيكم

وأطيعوا اميركم فلم يلتفت اليه احد وانكشف ظهر المسلمين للمشركين وفي ذلك نزلت الآية :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخـرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقـد عفا عنكم والله ذو فضـل عـلى المؤمنين ﴾ (آل عمران ١٥٢) .

هذا والمشركون منهزمـون شر هـزيمة قـد دب الرعب في قلوبهم وتـركوا معسكرهم وهند ومن معها قد لذن بالفرار ولو اراد المسلمون اسرهن لما وجدوا من يمنعهم من ذلك ، وكان خالد بن الوليد قد ولى بخيله هارباً ، ونظر الى الجبل الذي كان حريصاً على ان يجد منه منفذاً ليهاجم المسلمين من ورائهم ، نظر إليه في تلك الحالة وقريش قد انهزمت وتركت امتعتها وكل ما معها غنيمة للمسلمين ، وقد كان يراقبه دائماً ليجد منه منفذاً فوجده خالياً إلا من اولئك النفر القلائل الذين ظلوا متمسكين بامر الرسول ، وادرك خالد بن الوليد ان الحامية التي كانت قد تفرقت ومن بقي منها لا يغني شيئاً ، فرجع بخيله الى تلك الحامية واصطدم بها فرموه بالنبل حتى لم يبق معهم من النبال شيء ، فسلوا سيوفهم واقبلوا على تلك الخيل يضربون وجوهها ودافعوا حتى النفس الأخير وخلال تلك الفترة من الكفاح البطولي الذي قام به عبد الله بن جبير ومن معه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، نظر المنهزمون من المشركين الى خيلهم فوجدوها رجعت لتهاجم المسلمين من الوراء ، وعلموا انها قد وجدت منفذاً للهجوم المعاكس على المسلمين وهم منصرفون الى الغنائم والسلب ، وقد ألهتهم تلك الغنائم حتى عن التفكير بالنبي (ص) وعادوا من حيث ذهبوا وخالد بن الوليد قد اقبل من ناحية الجبل بعد ان اباد تلك الحامية التي تتألف من عدة انفار ، فما احس المسلمون الا والعدو قد تغلغل في أوساطهم واصبحوا كالمدهوشين يتعرضـون لضرب السيـوف وطعن الرماح اينما اتجهوا ، واشتد الأمر عليهم حتى ضرب بعضهم بعضاً وهم يحسبون انهم يضربون اعداءهم .

وجاء في كتب السيرة ان اليمان ابا حذيفة وثابت بن قيس قد تخلفا في المدينة بأمر من الرسول لأنهما شيخان كبيران ، وخلال المعركة قال احدهما للآخر افلا نأخذ أسيافنا ونلحق برسول الله فاتفقا على هذا الرأي واقبلا مسرعين نحو المعركة فصادف ان وصلا في تلك اللحظات الحرجة ولم يعرفا معسكر المسلمين من غيره ، فدخلا من جهة المشركين فالتفت جماعة من المشركين بثابت بن قيس وقتلوه ونفذ ابو حذيفة حتى اصبح بين المسلمين وهم لا يعرفون المسلم من غيره ، فاتجه اليه بعض المسلمين وضربه بالسيف وابنه حذيفة يصيح : إنه ابي يا قوم ، ولكن الزحام ووقع الحديد قد حالا دون وصول صوته الى سمع القاتل فوقع قتيلاً ، فدفع رسول الله بعد ذلك ديته ، وتصدق بها ولده حذيفة على المسلمين ، هذا وعلي وجماعة من المسلمين قد احاطوا بالرسول يدفعون عنه السهام والنبال والسيوف ويجالدون بين يديه حتى قتل حامل اللواء مصعب بن عمير ، فدفع النبي (ص) اللواء إلى علي (ع) وتفرق عنه اكثر اصحابه وحمل عليه المشركون وكان كل ما يهمهم ان يقتل النبي (ص) ولكن علياً والحمزة وابا دجانة وسهل بن حنيف ونفراً غيرهم جالدوا وكافحوا كفاحاً لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، هذا ورسول الله ثابت في مكانه يرميهم بقوسه ويطعن كل من دنا منه حتى نفدت نبله وانقطع وتر قوسه واصابته بعض الجراحات وأغمي عليه .

قال الشيخ المفيد في إرشاده : بسنده الى ابن مسعود ان الذين ثبتوا مع رسول الله هم علي وابو دجانة وسهل بن حنيف فقد وقفوا حول رسول الله يدفعون عنه غارات قريش . وتؤكد اكثر المصادر ان طلحة قد وقف موقفاً سلبياً في ذلك اليوم ، ولما افاق الرسول من غشيته وفتح عينيه قال لعلي (ع) ما فعل الناس ، فقال له لقد نقضوا العهد وولوا الدبر ، وفيما هو يخاطبه ويقص عليه اخبار المنهزمين واذا بكتيبة من المشركين قد اتجهت نحو النبي (ص) فقال يا علي اكفني هؤلاء فانقض عليهم علي كالصقر فانهزموا بين يديه وفيما هو يطاردهم واذا بكتيبة اخرى قد اتجهت نحو النبي وكادت ان تبلغ منه غايتها لولا ان علياً سمع النبي ثانية يقول : يا علي اكفني هؤلاء فانقض عليهم وفرقهم ، وعادوا إليه من ناحية

اخرى فكر عليهم علي وفرقهم عنه .

وجاء في شرح النهج عن محمد بن حبيب في اماليه ان رسول الله (ص) لما فر معظم اصحابه عنه يوم احد تكاثرت عليه كتائب المشركين وقصدته كتيبة من بني كنانة ، ثم من بني عبد مناة من كنانة وفيها اكثر من خمسين فارساً فقال يا علي اكفني هذه الكتيبة ، وكان (ع) راجلاً وهم على خيولهم فما زال يضربهم بسيفه حتى فرقهم عن الرسول ، ثم جاءته كتيبة اخرى ففعل فيها مثل ما فعل في الأولى ، وتجمعوا عليه مراراً وعلي يصدهم عنه حتى قتل عشرة من بني سفيان بن عوف ، فنزل جبريل على رسول الله (ص) وقال له يا محمد : ان هذه المواساة لقد عجبت منها الملائكة ، فقال وما يمنعه من ذلك وهو مني وانا منه ، فقال جبريل وانا منكما ، وسمع ذلك اليوم من قبل السماء منادٍ لا يرى شخصه ينادي لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي ، فسئل رسول الله عن ذلك فقال هذا جبرائيل .

وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة وأضاف في النهج اني قد وقفت عليه في بعض نسخ مغازي ابن اسحاق ، وسألت عنه شيخي عبد الوهاب بن سكينة ، فقال هو من الأخبار الصحيحة ، قلت فما بال الصحاح لم تشتمل عليه ، قال او كلما كان صحيحاً تشتمل عليه الصحاح ، لقد اهمل جامعو الصحاح كثيراً من الأخبار الصحيحة[1] .

ورواه الطبري في تاريخه ص ١٧ من المجلد الثاني وروى هذا الحديث بالنحو الذي ذكرناه وانهم سمعوا صوتاً ينادي :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي رواه الحافظ ابو جعفر المحب الطبري في الرياض النضرة ج / ٢ ص ١٧٢ وعلي بن سلطان في مرماته جلد ٥ ص ٥٦٨ ، واخرجه احمد في المناقب والهيثمي في مجمع الزوائد والطبراني وغيرهم[2] .

---

(١) انظر شرح النهج ص ٣٢٢ غزوة احد .

(٢) انظر فضائل الخمسة ج١ ص ٣٤٣ .

هذا والحمزة بن عبد المطلب في وسط القوم لا يدنو منه احـد الا بعجه بسيفه .

وفي رواية ابن كثير في بدايته انه كان كالجمل الأورق يهد الناس بسيفـه هداً ، وهم يفرون بين يديه ، واتى ابن قميئة الحارثي احد بني الحارث بن عبد مناة فرمى رسول الله (ص) بحجر اصاب وجهه الشريف فكسر انفه ورباعيته وشق شفته ، ودخلت حلقتان من المغفر في جبهته فسال الدم على وجهه فأخذ يمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو مع ذلك يدعوهم الى الله .

وجاء في رواية الطبري انه قد تفرق عن رسول الله اصحابه من المهاجرين والأنصار وفر عثمان بن عفان حتى انتهى الى مكان بعيد عن المعركة ، وكان ممن تفرق عنه عمر بن الخطاب ، وأضـاف الى ذلك الـطبري بسنـده الى محمد بن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع ان أنس بن النضر ، قال لعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ناحية ما يجلسكم هنا فقالوا لقد قتل محمد رسول الله ، فقال وما تصنعون بالحياة من بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم تركهم واستقبل القوم فقاتل حتى قتل .

ومضى الطبري يقول في ص ٢٠ الجزء الثالث من تاريخه انه قد فشا في الناس ان محمداً قد قتل ، فقال بعض اصحاب الصخـرة ممن فروا عن النبي (ص) والتجأوا إليها وفيهم عمر بن الخطاب كما هو مفاد الرواية وابو بكر كما جاء في حياة محمد لهيكل حيث عده من الفارين الذين التجأوا الى الصخرة ، فقال بعض من على الصخرة ليت لنا رسولاً الى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا اماناً من أبي سفيان ، يا قوم ان محمداً قد قتل فارجعوا الى قومكم قبل ان يأتوكم فيقتلوكم ، فقال لهم انس بن النضر : يا قوم ان كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد (ص) .

ثم قال اللهم اني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء وابرأ اليك مما جاؤوا به ، ثم

شد بسيفه على المشركين وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل بعد ان اصيب بسبعين ضربة ولولا ان اخته عرفته لم يعرفه احد من المسلمين .

ومقتضى هاتين الروايتين ان عمر بن الخطاب وابا بكر كانا على الصخرة مع من تمنى شفاعة عبد الله بن أبي عند أبي سفيان ، ولم يحدث بأن احداً منهما ولا ممن كان معهما انكر على القائل مقالته اذا استثنينا انس بن النضر الذي انكرها واعتذر الى الله منها كما ذكرنا .

ويدعي بعض المؤلفين في السيرة ان الآية :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (آل عمران ١٤٤) .

واحتمال ان يكون ابو بكر مع اصحاب هذه المقالة الذين كانوا من الفارين مصدره رواية هيكل في كتابه حياة محمد .

اما رواية الطبري فلم تذكر غير عمر وجماعة من الصحابة ، كما وان اصحاب السير لم يذكروا لأبي بكر اسماً مع المقاتلين في احد ، غير ان ابن ابي الحديد في المجلد الثالث من شرح النهج روى انه خلال الجولة الأولى مع المشركين برز بين صفوفهم عبد الرحمن بن أبي بكر وطلب البراز ، وكان ابو بكر الى جانب النبي (ص) ، فقال انا له يا رسول الله ، فالتفت إليه النبي وقال اجلس ومتعنا بحياتك يا ابا بكر .

ومما يؤيد انه كان مع الفارين عن رسول الله ما جاء في شرح النهج حيث قال حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه في داره بدرب الوداب ببغداد في سنة ثمان وستماية وقارىء يقرأ عنده مغازي الواقدي فقرأ حدثنا الواقدي عن ابن أبي سيرعن خالد بن رياح عن أبي سفيان مولى ابن أبي احمد قال سمعت محمد بن مسلمة يقول : سمعت أذناي ورأت عيناي رسول الله يقول يوم احد وقد انكشف عنه الناس الى الجبل وهو يدعوهم ولا يلوون عليه سمعته

يقول : إليّ يا فلان إليّ يا فلان أنا رسول الله فما عرج عليه احد منهما ومضيا مع من مضى انه ، فأشار ابن معد إلي أي اسمع فقلت وما في هذه فقال هذه كناية عنهما فقلت له ويجوز ان لا يكون عنهما لعله عن غيرهما ، فقال ليس في الصحابة من يحتشم يستحي من ذكره باسمه بالفرار وما شابهه من العيب فيضطر القائل الى الكناية الا هما ، قلت هذا وهم ، فقال دعنا من جدلك ومنعك ، ثم حلف بالله ان الواقدي ما عنى غيرهما ولو كان غيرهما لذكره صريحاً وبان في وجهه التنكر من مخالفتي له[1] .

واما عثمان فقد جاء في رواية الطبري وغيره انه فر ومعه رجلان من الأنصار حتى بلغوا الجلعب وهو جبل بناحية المدينة مما يلي الأغرض فأقاموا بها ثلاثاً ، ولما رجعوا الى المدينة بعد رجوع رسول الله إليها قال لهم : لقد ذهبتم بها عريضة .

وفي رواية الواقدي انهم انتهوا الى مكان يسمى الأغرض ، فلما رجعوا الى المدينة قال لهم رسول الله لقد ذهبتم بها عريضة .

وعلى اي الأحوال فتكاد الروايات تتفق انه لم يثبت مع رسول الله في احرج ساعات المحنة الا علي والحمزة وثلاثة من المهاجرين والأنصار .

وقال الأستاذ هيكل : وكان اكبر همّ كل مسلم ان ينجو بنفسه الا من عصم الله امثال علي بن أبي طالب .

واستطاع امير المؤمنين علي (ع) ومن معه ان يفرقوا تلك الجموع التي تدفقت لقتل رسول الله ، وجعل رسول الله يدعو الناس ويقول : إليّ عباد الله يكررها ثلاثاً فلم يستجب له الا نفر قليل من المسلمين .

وفي شرح النهج عن الواقدي انه روى كثير من المحدثين ان النبي حين سقط ثم اقيم قال لعلي اكفني هؤلاء الجماعة فحمل عليهم وفرقهم وقتل منهم عبد الله بن حميد من بني عبد العزى ، حملت على النبي كتيبة اخرى فقال لعلي اكفنيهم فحمل عليهم وفرقهم عنه وقتل منهم امية بن أبي حذيفة بن المغيرة

---

(١) انظر ص ٣٩٠ من المجلد الثالث شرح النهج طبع مصر دار الكتب العربية الكبرى .

المخزومي ولما تراجع بعض المسلمين احاطوا بالنبي فأصيب بسهم في يده فيبست ، وأقبل ابن خلف الجمحي وقد حلف ليقتلن محمداً ، فقال النبي (ص) بل انا اقتله ثم طعنه في جيب الدرع فجرح جرحاً خفيفاً ووقع يخور خوار الثور فجاء اليه المشركون واحتملوه وقالوا ليس بك جراحة فما هذا الجزع ، فقال أليس محمد قال لأقتلنك ولو قالها لجميع ربيعة ومضر لقتلهم فلم يلبث الا يوماً او بعض يوم ومات من ذلك الجرح .

وجاء في تاريخ الطبري ان رسول الله (ص) جعل يدعو الناس حتى انتهى الى اصحاب الصخرة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب كما اجمع على ذلك المؤرخون ، وابو بكر بن قحافة كما جاء في بعض الروايات ، وكانوا قد فكروا ان يوسطوا ابن ابي ابن سلول ليكون لهم شَفيعاً عند ابي سفيان كما ذكرنا ، فلما كان النبي قريباً من الصخرة وضع رجل سهماً في قوسه واراد ان يرمي النبي (ص) وهو يظنه احد المشركين على زعم الراوي .

وما ادري هل خفي عليهم انه الرسول كما زعموا ام عرفوه ولعل ذلك هو الأقرب وأرادوا قتله بحجة انهم ظنوه بعض المشركين ، وقد علم الرسول بتلك المحاولة فصاح به ويحك انا رسول الله ففرحوا بذلك وكانوا يظنون ان الرسول قد قتل على حد تعبير الراوي ، كما فرح رسول الله بمن رأى من اصحابه وهو يحسب انه سيمتنع بهم من قريش على حد تعبير ابن جرير .

ثم اقبل ابو سفيان ومعه جماعة حتى اشرف عليهم ، فلما نظروا اليه نسوا الذي كانوا عليه من الفرح بحياة رسول الله وخافوا من أبي سفيان وجماعته ، فقال رسول الله ليس لهم أن يعلونا ، اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد أبداً ، ثم ندب اصحابه فرموهم بالحجارة حتى انزلوهم ، فقال ابو سفيان : اعل هبل حنظلة بحنظلة ويوم بيوم بدر يشير بقوله حنظلة بحنظلة الى حنظلة الراهب ، وكان قد قتل في ذلك اليوم وغسلته الملائكة لأنه كان جنباً واصبح يعرف بغسيل الملائكة ، والذي اراده ابو سفيان ان حنظلة هذا في مقابل حنظلة بن أبي سفيان الذي قتل يوم بدر .

مقتل الحمزة

بعد معركة بدر لم يكن ابو سفيان وزوجته يفكران في غير الثأر من محمد ، ولم يكن احد المسلمين ليشفي غليلهما غير محمد وعلي والحمزة ، ووقع اختيارهما على غلام حبشي فتاك يدعى وحشي وكان مملوكاً لجبير بن مطعم فجاءته هند واغرته بالمال على ان يغتال احد الثلاثة ، فقال لها اما محمد فلا حيلة لي به لأن اصحابه يحيطون به دائماً ، واما علي فإنه إذا قاتل كان احذر من الغراب ، وأما الحمزة فاني اطمع ان أصيبه ، لأنه إذا غضب لم يعد يبصر ما بين يديه .

وروى الطبري في تاريخه ان وحشياً كمن للحمزة خلف صخرة كبيرة وقال والله اني لأنظر الى الحمزة يهد الناس بسيفه هذا كالجمل الأورق وإذا بسباع بن عبد العزى قد تقدم نحوه ، فقال له الحمزة : هلم إليّ يا ابن مقطعة البظور فضربه بسيفه، وكنت قد اعددت حربتي وهو لا يراني فهززتها حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت في اليته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي ولكنه غلب ووقع على الأرض فأمهلته حتى إذا مات جئت اليه وأخذت حربتي وتنحيت ولم يكن لي بغيره حاجة .

وفي رواية ثانية ان الحمزة لما قتل سباع بن عبد العزى نظر الى وحشي قد سدد حربته واختبأ خلف صخرة وكان بينه وبينه خندق فأقبل عليه الحمزة فزلت رجله ووقع على قفاه وقبل ان ينهض رماه وحشي بحربته فأصابته في اليته .

ولما علمت هند بقتله لم يشفها ذلك وانطلقت هي والنسوة اللواتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين يجدعن الآذان والأنوف ويقطعن الأيدي والأرجل ، وجعلت هند لنفسها ولمن معها من آذان الرجال وأنوفهم قلائد واقراطاً ، ثم جاءت الى الحمزة فبقرت بطنه وجذبت بيديها كبده وقطعت منها قطعة ووضعتها في فمها وجعلت تلوكها بأسنانها ، ولكن لم تستطع ان تبتلعها .

وفي رواية شرح النهج عن الواقدي انه لما اخبرها وحشي بقتل الحمزة نزعت ثيابها وحليها واعطته اياها ، وقالت له : اذا جئت مكة اعطيك عشرة دنانير ، ثم قالت له : ارني مصرعه فأراها مكانه فشقت بطنه وقطعت مذاكيره وأنفه وأذنيه ثم جعلت ذلك مسكتين ومعضدين وأخذت كبده معها الى مكة .

وجاء ابو سفيان بن حرب الى الحمزة (ع) وهو بتلك الحالة فلم يكتف بما فعلته زوجته ، بل طعنه في شدقه كما نص على ذلك الطبري وغيره فمر عليه الحليس بن زبان اخو بني الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش وهو يضرب في شدقه برأس الرمح ويقول ذق عقق ، فقال الحليس يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون ، فقال له ابو سفيان اكتمها علي فلقد كانت زلة .

وفي شرح النهج عن الواقدي ان عمرو بن الجموح كان رجلاً اعرج ، فلما كان يوم احد وقد خرج بنوه الأربعة مع النبي (ص) فأراد ان يخرج فحبسه قومه وقالوا له : لقد ذهب بنوك مع النبي وانت رجل اعرج لا حرج عليك ، فقال لا يكون ذلك أبداً ان أولادي يذهبون الى الجنة واجلس انا عندكم ما كان ذلك ابداً ، قالت زوجته هند بنت عمرو بن حزام : كأني انظر اليه مولياً قد اخذ درقته وهو يقول : اللهم لا تردني الى اهلي فخرج ولحقه اهله يكلمونه في الرجوع فأبى وجاء الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله ان قومي يريدون ان يحبسوني عن الخروج معك ، واني لأرجو الله ان أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال له النبي (ص) اما انت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك فأبى ، فقال النبي لقومه وبنيه لا عليكم ان تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخلوا عنه .

وكان بعض المسلمين يحدث عنه ويقول : لقد نظرت الى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون عن النبي (ص) ، ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول لكأني انظر الى خلفه وهو يعرج في مشيته ويقول انا مشتاق الى الجنة ، وابنه يعدو في اثره حتى قتلا جميعاً .

وقال الواقدي : ان عائشة قد خرجت من المدينة تتطلع الأخبار ومعها نسوة من المدينة فالتقت بهند بنت عمرو بن حزام تسوق بعيراً لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاد بن عمرو واخوها عبد الله بن عمرو بن حزام ابو جابر بن عبد الله الأنصاري ، فقالت لها عائشة : فما وراءك قالت هند اما رسول الله فهو بخير وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، فقالت لها عائشة ومن هؤلاء قالت اخي وزوجي وابني ، قالت وأين تـذهبين بهم قـالت الى المدينـة لأدفنهم فيها .

وبينما هي تسوق بعيرها واذا به يبرك بهم ، فلما زجرته وقف فوجهته الى المدينة فعاد وبرك ، فرجعت به الى احد فأسرع وكأنه لم يحمل شيئاً فرجعت الى النبي (ص) وكان لا يزال في احد واخبرته بما جرى ، فقال انه لمأمور ، هل قال زوجك حينما خرج شيئاً ، قالت : نعم انه لما توجه الى احد استقبل القبلة ، ثم قال اللهم لا تردني الى اهلي ، فقال لها النبي : ان منكم يا معشر الأنصار من لو اقسم على الله لأبره منهم زوجك عمرو بن الجموح ، ثم دفنهم رسول الله وقال لهند ، يا هند لقد ترافقوا في الجنة ثلاثتهم ، فقالت يا رسول الله : ادع الله ان يجعلني معهم فدعا لها بالخير .

وجاء في رواية ثانية ان رسول الله قد امر ان يدفن عبد الله بن عمرو بن حزام ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد وقد مثل المشركون بهما وكانا متحابين في الدنيا وقد دفنهما مما يلي الجبل فأصاب قبرهما سيل بعد مضي خمسة واربعين سنة فكشف عنهما التراب فوجدا وكأنهما قد دفنا في ذلك اليوم .

وقال جابر رأيت ابي في حفرته وكأنه نائم لم يتغير من حاله شيء واكفانه عليه كما هي حينما وضعت عليه واردت ان اضع عليه طيباً فنهاني اصحاب محمد (ص) .

وقال الواقدي ان من النساء اللواتي شهدن احداً :نسيبة بنت كعب ام عمارة ابن غزية ، وكانت قد شهدت مع زوجها غزية وابنها عمارة بن غزية وولدها ايضاً

عبد الله بن زيد وقد خرجت ومعها شن لها في اول النهار تريد ان تسقي الجرحى فقاتلت يومئذ وابلت بلاء حسناً وجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح وضربة بسيف .

ودخلت عليها ام سعد بنت سعد بن الربيع ، فقالت لها يا خالة حدثيني خبرك ، فقالت خرجت اول النهار الى احد وانا انظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فـانتهيت الى رسول الله في الصحـابة والـدولة للمسلمـين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله فجعلت أباشـر القتال واذب عن رسـول الله بالسيف وارمي بالقوس حتى اصابتني الجراحات ، قالت فرأيت على عاتقها جرحاً اجوف له غور ، فقلت يا ام عمارة من اصابك بهذا الجرح ، فقالت لقد اقبل ابن ابي قميئة وقد وَلى الناس عن رسول الله (ص) وهو يصيح دلوني على محمد لا نجوت ان نجا ، فاعترضه مصعب بن عمير وناس معه كنت فيهم فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

فقلت لها يدك ما اصابها : قالت اصيبت يوم اليمامة في حرب مسيلمة لما جعلت الأعراب تنهزم بالناس وكنت مع الأنصار حتى انتهينا إلى حديقـة الموت فاقتتلنا عليها ساعة وقتل ابو دجانة على باب الحديقة ودخلتها وانا اريد عدو الله مسيلمة الكذاب فعرض لي رجل ضرب يدي بالسيف فقطعها فوالله اني لم اتوقف حتى وقفت على الخبيث مقتولاً وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه ، فقلت له اقتلته قال نعم وسجدت لله شكراً وانصرفت .

وقال الواقدي وكان حمزة بن سعيد يحدث عن جدته وكانت قد شهدت احداً لتسقي الماء فقال سمعت رسول الله (ص) يقول : لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ، وكان يراها تقاتل يومئذ اشد القتال وانها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً .

وحدث عنها حفيدها عبد الجبار بن عمارة قال قالت ام عمارة : لقد رأيتني وقد انكشف الناس عن رسول الله فما بقي الا نفر ما يتمون عشرة وانا وابنائي

وزوجي بين يديه نذب عنه والناس يمرون عليه منهزمين فرآني النبي (ص) ولا ترس لي ورأى رجلاً من المسلمين منهزماً ومعه ترس ، فقال يا صاحب الترس الق ترسك الى من يقاتل به فألقى ترسه فأخذته وجعلت ادافع به عن رسول الله وقد فعل بنا اصحاب الخيل الأفاعيل ، ولو كانوا رجالة مثلنا لكنا اصبناهم فأقبل رجل على فرس وضربني فاتقيت ضربته بالترس فلم تصنع شيئاً وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبي يقول يا عمارة امك امك فعاونني عليه ولدي حتى اوردته شعوباً .

وفي رواية ثانية ان عمارة قال لقد رميت رجلاً بحجر وهو على فرس فأصاب الحجر عين الفرس فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه وجعلت اعلوه هو والفرس بالحجارة والنبي (ص) ينظر إلي ويبتسم فنظر إلى جرح بأمي على عاتقها فقال امك امك اعصب جرحها بارك الله عليكم من اهل بيت لمقام امك خير من مقام فلان وفلان ومقام ربيبك يعني زوج امك خير من مقام فلان .

وروى نفس هذا المضمون بزيادة بسيطة عبد الله بن أبي صعصعة عن الحارث بن عبد الله انه قال سمعت عبد الله بن عاصم يقول شهدت احداً مع رسول الله وساق حديثاً قريباً في مضمونه من الحديث السابق وفي آخره قال النبي : لمقام امك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام زوج امك خير من مقام فلان ، ثم دعا لهم بأن يكونوا من رفقائه في الجنة .

وبلا شك ان النبي يعني بفلان الثالث عثمان بن عفان الذي فر حينما بدأت المعركة حتى قطع شوطاً بعيداً ولم يرجع الى النبي الا بعد ثلاث على حد تعبير الراوي ، فقال له النبي (ص) لقد ذهبت بها عريضة ، وانما أفرده النبي (ص) بالذكر وقارنه بزوج نسيبة الذي لم يبرح المعركة وظل الى جانب الرسول الى نهايتها هو وزوجته لأن عثمان كان زوجاً لأم كلثوم بنت النبي (ص) ، وغزية كان زوجاً الى نسيبة ام عمارة ، فلقد قابل بين هذين الرجلين زوج ام عمارة الذي كان يكافح ويدافع عن الرسول حتى لا يصل اليه سوء وعثمان بن عفان ختن الرسول على ابنته الذي كان اول الفارين عنه ، هذان الختنان ختن عمارة على امه وختن

الرسول على ابنته كان بينهما تلك المسافة البعيدة التي لفتت نظر الرسول (ص) واما فلان الأول والثاني فهما معروفان بين المحدثين والتعبير عنهما بهذا النحو مألوف ومتعارف عليه بين المحدثين ولا اظن احداً يتردد فيهما .

وقال ابن ابي الحديد في شرح النهج : كان على الراوي ان يذكر فلاناً وفلاناً باسميهما حتى لا تترامى الظنون الى امور مشتبهة ومن امانة المحدث ان يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئاً فما باله كتم اسم هذين الرجلين[1] .

وجاء في كتب السيرة ان حنظلة بن أبي عامر كان قد تزوج من جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فأدخلت عليه في الليلة التي كانت في صبيحتها احد ، وقد استأذن رسول الله ان يبيت عندها فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله فلزمته جميلة فعاد إليها ونام معها وخرج الى رسول الله مسرعاً ولم يغتسل من جنابته ، وقبل خروجه اشهدت عليه أربعة انه قد دخل بها فقيل لها بعد ذلك لَمَ اشهدت عليه ، قالت رأيت في الطيف كأن السماء قد انفرجت فدخل بها ، ثم اطبقت عليه فعلمت انه سيقتل ، وحملت منه بعبد الله بن حنظلة وتزوجها من بعده ثابت بن قيس فولدت منه محمد بن ثابت بن قيس .

والتحق حنظلة برسول الله وهو يسوي الصفوف ، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فقطعه ووقع ابو سفيان الى الأرض يصيح يا معشر قريش انا ابو سفيان بن حرب وحنظلة يحاول ان يذبحه بسيفه ، فنظر اليه الأسود بن شعوب فأسرع الى حنظلة وحمل عليه بالرمح فمشى اليه حنظلة وضربه ثانية برمحه فقتله ، ووجد ابو سفيان ان لديه مجالاً للفرار ففر يعدو على رجليه فلحق ببعض القرشيين فأردفه وراءه على فرسه .

---

(١) الظاهر ان هذين الرجلين كانا من وجوه الصحابة الملازمين للنبي ممن لم يباشروا القتال وكانا مع اول الفارين ومع الذين تمنوا ان يشفع لهم ابن أبي ابن سلول عند ابي سفيان ، ولولا انهما من ذوي الجاه والاتباع والسلطان حينما حدث الراوي بهذه الرواية ويخاف منهما او من اتباعهما لذكرهما باسميهما الصريحين انظر شرح النهج ج ٣ معركة احد طبع مصر .

وروى الواقدي ان ابا عامر الراهب مر على ولده حنظلة وهو مقتول الى جانب الحمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ، فقال : لقد كنت احذرك هذا الرجل يعني بذلك رسول الله (ص) قبل هذا المصرع ، والله لقد كنت براً بالوالد شريف الخلق في حياتك ، وان مماتك مع سراة اصحابك واشرافهم فإن جزى الله حمزة خيراً ، او جزى احداً من اصحاب محمد خيراً فليجزك ، ثم نادى يا معشر قريش حنظلة لا يمثل به وان كان خالفني وخالفكم فمثل المشركون بالقتلى وتركوه .

وجاء في سيرة ابن هشام انه لما انتهى رسول الله الى فم الشعب بعد ان توقف القتال خرج علي بن أبي طالب (ع) حتى ملأ درقته ماء من المراس وجاء بها الى رسول الله ليشرب من ذلك الماء فوجد له رائحة فعافه ولم يشرب منه وغسل عن رأسه الدم وصب منه عليه .

وفي تاريخ ابن الأثير انه لما جرح جعل علي ينقل له الماء ليغسل جراحاته فلم ينقطع الدم منها فأتت فاطمة الزهراء (ع) وعانقته وبكت ، ثم احرقت له حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع .

واشرف ابو سفيان على المسلمين وقال افيكم محمد بن عبد الله فلم يجيبوه فظن انه قد قتل فقيل له انه يسمع كلامك ، فعلم انه حي وان ابن قميئة كاذب في دعواه ، فقال عند ذلك : اعلُ هبل ، فقال رسول الله الله اعلى واجل ، فقال ابو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله : الله مولانا ولا مولى لكم ، ثم قال ابو سفيان هذا يوم بيوم بدر والحرب سجال .

وفي رواية ثانية ان رسول الله كان يلقن عمر بن الخطاب وهو يجيبه .

ولما انصرف ابو سفيان ومن معه من احد ظن كثير من المسلمين انهم سيعرجون على المدينة يعبثون بها بعد ان اصابوا من المسلمين ما اصابوا وعرضوا الأمر على رسول الله ولم يكن يظن ذلك ولكنه لكي يطمئن المسلمين ارسل علياً (ع) وقال له اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون فإن كانوا قد اجتنبوا

الخيل وامتطوا الإبل فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فهم يريدون المدينة ، ثم قال فوالذي نفسي بيده لأن ارادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم ، قال علي (ع) فخرجت في آثار القوم فرأيتهم قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فرجعت الى رسول الله واخبرته بخبرهم فاطمأن المسلمون بأن قريشاً لا تريد المدينة . وقد عرض الشيخ محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة معركة احد عرضاً موجزاً بأسلوبه الذي عرض فيه سيرة الرسول (ص) وتجاهل فيه علي بن أبي طالب ومواقفه الخالدة في تلك المعركة مع فئة قليلة ممن وقفوا بحزم وثبات الى جانب الرسول (ص) تلك المواقف التي لولاها لم يبق للاسلام اسم ولا رسم كما يستفاد من كتب التاريخ والسيرة من حيث لا يقصد مؤلفوها ، ولم يرد في عرضه لحوادث تلك المعركة ذكر لعلي الا بمناسبة استشهاد مصعب بن عمير ، وقد ذكره بتلك المناسبة كغيره ممن حضروا المعركة ، ولم يذكر له اثراً يلفت النظر .

فقد قال في ص ٣٠٣ ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل الحمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطراً على الموقف كله وحمل لواء المسلمين في هذا القتال مصعب بن عمير الداعية العظيم ، فلما استشهد حمل اللواء علي بن أبي طالب واستبق المهاجرون والأنصار في ميدان الشرف .

لقد وصف مصعب بن عمير بما يستحق وبخل على علي ولو بما وصف به مصعب بن عمير ، وادعى بأن الحمزة قد قتل في الجولة الأولى مع المشركين كما يظهر من قوله : ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقُتل الحمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطراً على الموقف .

في حين ان الحمزة قد قتل في الجولة الثانية بعد ان انهزم المسلمون بما فيهم ابو بكر وعمر وعثمان وظل هو وعلي ونفر من الأنصار منهم ابو دجانة يجاهدون ويجالدون والحمزة يهد الناس بسيفه هذا على حد تعبير المؤرخين وعلي يدافع عن رسول الله كتائب المشركين التي كانت تزحف نحوه بين الحين والآخر ، والمهاجرون واكثر الأنصار قد فروا عن الرسول وقال بعض المهاجرين

من يذهب الى ابن ابيّ ابن سلول ليكون شفيعاً لنا عند ابي سفيان ، ومر عليهم في تلك اللحظات الحاسمة انس بن النضر وقال لهم قوموا فموتوا على ما مات عليه محمد ، فإن كان محمد قد مات فان رب محمد لم يمت ومضى الى القتال فجاهد حتى اكلته الرماح والسيوف وهم جلوس لا يفكرون الا بمن يشفع لهم عند ابي سفيان واللات والعزى التي يعبدها ابو سفيان كما ذكرنا .

واستشهد الغزالي في ص ٢٧٧ بحديث مسلم الذي يقول فيه : ان النبي (ص) افرد يوم احد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما ارهقه المشركون قال من يردهم عني وله الجنة ، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم عادوا فأرهقوه فقال : من يردهم عني وله الجنة فلم يزل يقاتل حتى قتل السبعة ، والغزالي يعلم ان الرجلين من قريش واحدهما علي بن ابي طالب (ع) كما صرحت بذلك اكثر المصادر الموثوقة وقد نقلنا بعض ما ذكروه في المقام ، ولكن العقد الموروثة منعته من التصريح باسمه حتى لا تكون له ميزة على من فروا عن الرسول واعتصموا برؤ وس الجبال ، وكنت اتمنى على الأستاذ الغزالي وهو يكتب في سيرة النبي العظيم ان يتحرى الحق اينما كان ولأي جهة كان ولا يحاول تحوير الحقائق لمصلحة من يحب ويهوى .

وعلى اي الأحوال فلقد قتل من المسلمين في معركة احد نحو من سبعين رجلاً كتب الله لهم الشهادة ليفوزوا بما وعدهم به الرسول الأمين مع النبيين والصديقين ، وقتل من المشركين ثمانية وعشرون من أبطالهم ، قتل منهم علي بن أبي طالب اثني عشر رجلاً كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج ص ٤٠١ عن الواقدي وغيره .

وكان لبعض الأنصار والمهاجرين موقف مشكور يدل على ايمانهم القويم واخلاصهم للرسول ودعوته ذلك الإيمان الذي انساهم في تلك المعارك الضارية انفسهم وأولادهم واعز ما يملكون .

كأنس بن النضر الذي ذكرنا مواقعه لأكثر من مناسبة ، وحنظلة بن أبي

عامر المعروف بالراهب ، وكان والده ممن التجأ الى مكة يحرض اهلها على الرسول ، ولكن ولده حنظلة لم يتردد في موقفه المناهض لأبيه وللمشركين ، وترك زوجته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول في صبيحة الليلة التي زفت اليه فيها ، والتحق بالنبي (ص) وقاتل بشجاعة وايمان حتى قتل ، وعرف فيما بعد بغسيل الملائكة كما ذكرنا ، وعمرو بن الجموح ، وكان قد سقط عنه الجهاد ومع ان اولاده الأربعة كانوا مع النبي (ص) ، فقد أبى الا ان يلحق بهم طمعاً في الشهادة ، وكان القتل مع النبي احب اليه من جميع متع الدنيا وملذاتها ، وظل يجاهد بين يدي النبي ويدافع عنه في ادق المراحل واحرجها حتى استشهد ، فحملته زوجته هند مع ولدها خلاد بن عمرو واخيها عبد الله على بعير لها ثلاثتهم لتدفنهم في المدينة كما ذكرنا ، وكانت تسوق بعيرها وهم على ظهره حامدة شاكرة ثابتة الجنان مستبشرة بحسن مصيرهم وسلامة رسول الله (ص) من كيد اعدائه ، وقدمت بذلك للتاريخ وللأجيال افضل ما يمكن ان تقدمه امرأة من البذل والتضحية والصبر الجميل في سبيل الله .

وغير هؤلاء كأبي دجانة الأنصاري وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير ومصعب بن عمير وغيرهم ممن استشهد اكثرهم في سبيل عقيدتهم ودينهم واستهانوا بالحياة وملذاتها طمعاً بما عند الله سبحانه .

وذكر الرواة ان عبد الله بن جحش كان بين القتلى في تلك المعركة : ويدعون انه قال للنبي (ص) قبل المعركة : يا رسول الله ان هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى يحادون الله ورسوله ويطمعون ان ينالوا منك ما يريدون ، وقد سألت الله وأقسمت عليه ان نلقى عدونا غداً وان يقتلوني ويبقروا بطني ويمثلوا بي ، وأنا أسألك يا رسول الله اذا اصبت في هذه المعركة مع اعداء الله ان تلي تركتي من بعدي وتتصرف بها كما تريد ، وكان من امره ان قتل ومثلوا به فتولى تركته رسول الله واشترى لأمه مالاً بخيبر واقبلت اخته حمنة بنت جحش ، فقال لها رسول الله احتسبي يا حمنة ، فقالت من يا رسول الله فقال خالك ، قالت انا لله وانا إليه راجعون غفر الله له ورحمه وهنيئاً له الشهادة ، ثم قال احتسبي

قالت من يا رسول الله ، قال اخوك عبد الله ، فاسترجعت وقالت هنيئاً له الشهادة ، ولما اخبرها عن بعلها مصعب بن عمير صرخت وقالت واحزناه ، فقال رسول الله (ص) ان للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد من الناس .

وجاء عن الواقدي ان السمداء بنت قيس احدى نساء بني دينار ، قد اصيب ابناها بأحد مع النبي (ص) وهما النعمان بن عبد عمرو وسليم بن الحارث ، فلما نعيا اليها قالت ما فعل رسول الله (ص) قالوا بخير هو بحمد الله صالح على ما تحبين ، فقالت أرونيه انظر إليه فأشاروا لها إليه ، فقالت كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله . ولقيتها عائشة فقالت ما وراءك فأخبرتها قالت فمن هؤلاء معك قالت ابناي احملهما الى القبر ، ويجد المتتبع امثلة اخرى من هذا الطراز الرفيع بين المؤمنات والمجاهدات في سبيل الله وخير الإسلام .

ولما تفرغ الناس للقتلى ودفنهم ، قال النبي (ص) من ينظر الى ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أو الأموات ، فقال رجل من الأنصار انا أنظر لك يا رسول الله فذهب يبحث عنه فوجده بين القتلى وبه رمق ، فقال له : ان رسول الله امرني ان انظر له في الأحياء انت ام في الأموات ، قال : انا في الأموات فأبلغ رسول الله عني السلام وقل له ان سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله خير ما جزى نبياً عن امته ، وابلغ عني قومك السلام ، وقل لهم : ان سعد بن الربيع يقول لكم : انه لا عذر لكم عند الله ان خلص الى نبيكم وفيكم عين تطرف ، ثم تنفس فخرج منه مثل دم الجزور ومات رحمه الله فرجع الأنصاري الى النبي (ص) وأخبره بحاله ، فقال رحم الله سعداً نصرنا حياً وأوصى بنا ميتاً .

ثم قال من له علم بعمي حمزة ، فقال الحارث بن الصمة انا اعرف موضعه يا رسول الله فجاء ووقف عليه فوجده بتلك الحالة التي تركته عليها هند لعنها الله ، فكره ان يرجع الى النبي ويخبره بحاله ، فالتفت رسول الله الى علي (ع) وقال له : اطلب عمك الحمزة فلما وقف عليه كره ان يخبر النبي

بحاله ، فخرج رسول الله (ص) بنفسه حتى وقف عليه فوجده ببطن الوادي قد بقرت هند بطنه واخرجت كبده وقطعت مذاكيره وانفه واذنيه وفعلت به ما لا تفعله الوحوش الضارية ، فلما رآه بتلك الحالة بكى وقال والله لن اصاب بمثلك ابداً ، وما وقفت موقفاً قط أغيظ علي من هذا الموقف .

ومضى يقول رحمك الله يا عم لقد علمتك فعولاً للخير وصولاً للرحم ، ثم قال لولا اني اخاف ان تراه صفية بتلك الحالة فتجزع ويصبح ذلك سنة من بعدي لتركته حتى يحشر من اجواف السباع وحواصل الطير ، ولئن اظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين من رجالهم ، وفي رواية بسبعين من خيارهم وقال المسلمون لما سمعوا ذلك لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب فأنزل الله سبحانه على النبي بهذه المناسبة الآية :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ (النحل ١٢٦) فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة .

وجاء في السيرة الحلبية عن ابن مسعود انه قال : ما رأينا رسول الله (ص) باكياً اشد من بكائه على حمزة ، لقد وقف عليه وانتحب حتى شهق وكاد يغشى عليه وهو يقول : يا عم رسول الله واسد الله وأسد رسوله يا فاعل الخيرات يا كاشف الكربات يا ذاب يا مانع عن وجه رسول الله ، ثم القى عليه بردة كانت عليه وكانت إذا مدها على رأسه بدت رجلاه ، وإذا مدها على رجليه بدا رأسه فمدها على رأسه وألقى على رجليه الحشيش .

وجاء في شرح النهج عن الواقدي ان صفية بنت عبد المطلب اخت الحمزة لأمه وأبيه قالت لقد صعدنا يوم احد على الآطام وهي رؤوس التلال وكان معنا حسان بن ثابت وهو من اجبن الناس ونحن في محل مرتفع فجاء نفر من اليهود يرومون التلال التي كانت عليها بعض النسوة ومعهن صفية بنت عبد المطلب فقالت له صفية دونك يا حسان فقال والله لا استطيع القتال ، ثم صعد يهودي الى محل النسوة ، فقالت صفية فناولني حسان السيف فضربت عنق

اليهودي ورميت برأسه الى رفاقه فانكشفوا من حولنا .

وأضافت الى ذلك لقد خرجت آخر النهار حتى جئت رسول الله وهو في احد ومعي نسوة من الأنصار فلقيته واصحابه واول من لقيني ابن اخي علي بن أبي طالب فقال ارجعي يا عمة فإن في الناس تكشفاً فقلت له اخبرني عن رسول الله ، فقال : إنه بخير ، فقلت له دلني عليه ، فأشار إليه إشارة خفيفة فاتجهت نحوه ، ولما طلعت عليه ، قال النبي يا زبير اغن عني امك ، والمسلمون يحفرون لحمزة ، فاستقبلها الزبير وقال لها يا أماه ان في الناس تكشفاً فارجعي فقالت ما انا بفاعلة حتى ارى رسول الله ، فلما رأته قالت يا رسول الله اين ابن امي حمزة فقال هو في الناس ، قالت لا ارجع حتى انظر إليه فجعل ابنها يقف في طريقها ويشدها الى الأرض حتى وقفت ، وكان النبي كارهاً لأن تراه على الحالة التي هو عليها .

وجاء في رواية اخرى ان صفية لما جاءت الى المعركة حال الأنصار بينها وبين رسول الله فقال لهم النبي دعوها فأقبلت حتى جلست عنده فجعلت تبكي والنبي يبكي لبكائها وكان معها فاطمة سيدة النساء (ع) ثم قال لصفية وفاطمة ابشرا فإن جبرائيل اخبرني ان حمزة مكتوب في اهل السموات أسد الله وأسد رسوله .

ثم ان النبي (ص) امر بدفن القتلى ودفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد وكان كلما اتي بشهيد ليصلي عليه ضم اليه الحمزة وصلى عليهما .

وجاء عن علي (ع) انه كبر عليه سبعين تكبيرة فيكون قد صلى عليه مع الشهداء أربع عشرة مرة وفي كل صلاة خمس تكبيرات كما هو رأي الشيعة الإمامية . ولما فرغ من دفن القتلى دعا بفرسه فركبه والتف المسلمون حوله وعامتهم جرحى وكانت الجراح متفشية في بني سلمة وبني عبد الأشهل ، فلما كان بأصل الحرة قال اصطفوا فاصطف الرجال صفين وخلفهم النساء وعدتهن أربع عشرة امرأة فرفع يديه وقال : اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما

بسطت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم اني أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك ، اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم اني أسألك الأمن يوم الخوف والغنى يوم الفاقة ، وأعوذ بك اللهم من شر ما اعطيت ومن شر ما منعت اللهم توفنا مسلمين وحبب الينا الايمان وزينه في قلوبنا وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين وعذب كفرة اهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، وانزل عليهم رجسك وعذابك إله الحق آمين .

ثم مضى في طريقه حتى نزل ببني حارثة ومنهم الى بني عبد الأشهل ، وهم يبكون قتلاهم ، فقال لكن حمزة لا بواكي له ، وخرج النساء ينظرن الى سلامة رسول الله وأطلت من بيتهاام عامر الأشهلية وتركت النوح ، فلما نظرت اليه وعليه الدرع كما هي قالت : كل مصيبة بعدك جلل يا رسول الله .

وخرجت اليه كبشة بنت عقبة بن معاوية من الخزرج تعدو مسرعة نحوه وهو على فرسه وسعد بن معاذ آخذ بعنانها ، فقال سعد يا رسول الله امي فقال مرحباً بها فدنت منه وتأملته ، ثم قالت : ان رأيتك سالماً فقد أشفت المصيبة فعزاها بولدها عمرو بن معاذ ، وقال لها : يا ام سعد ابشري وبشري أهليهم ان قتلاهم في الجنة قد ترافقوا جميعاً ، وقد شفعوا في أهليهم ، فقالت رضينا يا رسول الله ومن يبكي عليهم بعد هذا ، ثم قالت يا رسول الله ادع لمن خلفوا ، فقال : اللهم اذهب حزن قلوبهم وآجر مصيبتهم واحسن الخلف على من خلفوا .

ثم قال النبي (ص) لسعد بن معاذ : ان الجراح في اهل بيتك فاشية ، فمن كان مجروحاً فليداو جرحه ولا تبلغوا معي بيتي ، فنادى فيهم سعد بن معاذ ان رسول الله يعزم عليكم ان لا يتبعه جريح من بني عبد الأشهل ، فتخلف عنه كل مجروح وكانوا ثلاثين جريحاً وباتوا يداوون جراحاتهم .

ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله الى بيته ، ثم رجع الى نسائه فساقهن فلم تبق امرأة الا جاء بها إلى بيت رسول الله يبكين بين المغرب والعشاء ، وقام رسول الله بعد ان مضى من الليل الثلث فسمع البكاء فقال : ما هذا قيل نساء الأنصار يبكين على حمزة فقال رضي الله عنكن وعن أولادكن وامر النساء أن يرجعن الى منازلهن ، قالت ام سعد بن معاذ فرجعنا الى بيوتنا بعد ثلث الليل ومعنا رجالنا فما بكت منا امرأة قط الا بدأت بالحمزة .

وفي بعض المرويات ان معاذ بن جبل جاء بنساء بني سلمة ، وعبد الله بن رواحة جاء بنساء بلحرث من الخزرج ليندبن الحمزة ، فقال رسول الله : ما ذلك ونهاهن عن النوح وظلت نساء المدينة زمناً طويلاً اذا اردن ان يندبن موتاهن يبتدئن بندب الحمزة اولاً .

وجاء في رواية المفيد في ارشاده ان النبي (ص) لما رجع الى المدينة استقبلته فاطمة (ع) ومعها اناء فيه ماء فغسل وجهه الكريم ، ثم لحقه امير المؤمنين (ع) وقد خضب الدم يده الى كتفه ومعه ذو الفقار فناوله فاطمة (ع) وقال خذي هذا السيف فلقد صدقني اليوم وانشد يقول :

أفاطم هاك السيف غير ذميم	فلست برعديد ولا بلئيم
لعمري لقد أعذرت في نصر احمد	وطاعة رب بالعباد عليم
اميطي دماء القوم عنه فإنه	سقى آل عبد الدار كأس حميم

وقال لها رسول الله : لقد ادى بعلك ما عليه وقتل الله بسيفه صناديد قريش .

وحدث ابن هشام في سيرته عن ابن ابي نجيح انه قال : نادى مناد يوم احد لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي .

وبات وجوه الأوس والخزرج في تلك الليلة على باب رسول الله يحرسونه ، كسعد بن عبادة وسعد بن معاذ والخباب بن المنذر وقتادة بن النعمان

وغيرهم .

ويبدو مما رواه ابن ابي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج ان قريشاً ارسلت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن امية بن عبد شمس قريب عثمان يتجسس لها عن اخبار محمد واهل المدينة بعد الهزيمة التي لحقت بهم ليعرفوا مدى الوهن والضعف اللذين لحقا بهم وليروا ما اذا كان بامكانهم ان يرجعوا الى المدينة فيضربوا المسلمين فيها ضربة قاضية لا تقوم لهم بعدها قائمة لا سيما وان لهم اعواناً بالمدينة كابن ابي سلول ومن معه من المنافقين واليهود وحتى من المهاجرين انفسهم .

فقد جاء في رواية شرح النهج عن البلاذري ان معاوية بن المغيرة كان قد جدع انف الحمزة ومثل به وانه انهزم يوم احد فمضى على وجهه فبات قريباً من المدينة فلما اصبح دخلها في ظلمة الصباح فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص وهو ابن عمه فضرب بابه فقالت ام كلثوم زوجته ابنة رسول الله ليس هو ههنا ، فقال لها ابعثي إليه فإن له عندي ثمن بعير ابتعته منه عام اول وقد جئته به الآن فإن لم يجيء ذهبت فأرسلت إليه وهو عند رسول الله ، فلما حضر قال لمعاوية اهلكتني واهلكت نفسك ما جاء بك فقال يا ابن عم لم يكن احد أقرب الي ولا امس رحماً بي منك فجئتك لتجيرني ، فأدخله عثمان داره وخبأه في ناحية منها بحيث لا يراه احد .

وخرج الى رسول الله ليطلب منه اماناً له ومع وصوله سمع رسول الله (ص) يقول : ان معاوية في المدينة وقد اصبح بها فاطلبوه ، فقال بعضهم ما كان ليعدو منزل قريبه عثمان بن عفان فاطلبوه فيه فدخلوا منزل عثمان فلم يجدوه فأشارت اليهم ام كلثوم ابنة النبي الى مكانه ، هذا وعثمان على يقين بأنهم لن يعثروا عليه في داره فاستخرجوه من تحت حمارة لهم حيث اشارت اليهم ام كلثوم ، وانطلقوا به الى رسول الله ، فلما رآه عثمان في أيديهم قال : والذي بعثك بالحق ما جئت الا لأطلب له الأمان فهبه لي يا رسول الله فوهبه له وأجله ثلاثاً وأقسم اذا وجده بعدها يمشي في ارض المدينة وما حولها ليقتلنه .

وخرج عثمان فجهزه واشترى له بعيراً وقال له ارتحل ، وسار رسول الله في صبيحة ذلك النهار الى حمراء الأسد ليلحق بقريش قبل ان ترجع الى المدينة ، وأقام معاوية الى اليوم الثالث ليعرف اخبار النبي والمسلمين ويأتي بها قريشاً على حد تعبير الراوي ، فلما كان في اليوم الرابع قال رسول الله لأصحابه : ان معاوية بن المغيرة اصبح قريباً لم ينفذ فاطلبوه فأجابوه وقد اخطأ الطريق فادركوه وكان اللذان اسرعا في طلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فوجداه في مكان يدعى الحماء فضربه زيد بالسيف ، وقال عمار ان لي فيه حقاً فرماه بسهم فقتله .

وأضاف الى ذلك في شرح النهج ان الواقدي في كتابه ذكر مثل هذه الرواية ثم نقل عن ابن الكلبي ان معاوية هذا اخذه المسلمون بالقرب من احد بعد ان فر مع المشركين ، مع العلم بأن الرواية الأولى تقول : بأنه قد جدع انف الحمزة وفر مع المشركين ، والمشركون لم يقتلوا الحمزة الا في الجولة الثانية التي فر فيها المسلمون وكانت الغلبة فيها للمشركين وهذا لا يجتمع مع كونه فر مع المشركين .

والذي أراه وقد المح اليه ابن أبي الحديد ان قريشاً بعد ان خرجت من المعركة باتجاه مكة بدا لها ان تبعث الى المدينة من يتجسس لها اخبارها حتى إذا كان الخوف والضعف والانهيار قد غلب على اهلها ، ترجع اليها لتضرب المسلمين في داخلها ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة ، فأرسلوا معاوية لهذه الغاية ليختبر لهم الموقف بواسطة قريبه فيها ومن ثم يعود اليهم بالنتيجة ، ولكن الله سبحانه قد اخبر نبيه بمكانه وبالغاية التي جاء من اجلها فأرسل في طلبه واجله ثلاثاً ، ولكنه تأخر الى اليوم الرابع فأرسل النبي من قتله وهو يحاول انفاذ مهمته .

ومما يؤيد ذلك ان النبي (ص) في صبيحة ذلك النهار امر المسلمين بالخروج الى حمراء الأسد بحجة انه يريد ان يتعقب المشركين ، ويظهر بمظهر

القوي الذي لم يتأثر بتلك النكسة التي استبشر بها المنافقون وقدروا انها ستكون سبباً لاستخفاف العرب بالنبي واصحابه والتنكيل بهم حيثما كانوا ، مما دعا النبي الى الخروج من المدينة في اليوم الثاني والثالث بمن معه من المسلمين ليتعقب قريشاً حتى لا يظهر بمظهر المنهزم المتخاذل ويحفظ للمسلمين معنوياتهم وكرامتهم ، ويقطع الطريق على الشامتين من المنافقين واليهود .

وأيد ذلك الطبري ، فقال : انما خرج مرهباً للعدو وليبلغهم انه قد خرج في طلبهم ليعلموا ان الذي اصابهم لم يرهقهم ويشل معنوياتهم .

غزوة حمراء الأسد

قال ابن هشام في سيرته ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال اذن مؤذن النبي (ص) بطلب العدو وقال لا يخرجن معنا احد إلا من حضر يومنا بالأمس ، ومن ذلك يبدو ان خروجه كان في اليوم الثاني او الثالث لرجوعه الى المدينة ، وقد كلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام ، فقال : يا رسول الله ان أبي كان قد خلفني على أخوات لي سبع ، وقال لي يا بني لا ينبغي لي ولا لك ان تترك هؤلاء النسوة ولست بالذي اوثرك بالجهاد مع رسول الله (ص) على نفسي فتخلف مع اخواتك فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله (ص) فخرج معه واعطى اللواء الى علي . وخرج معه المسلمون والجراح فيهم فاشية حتى ان اخوين من الأنصار وهما عبد الله بن سهل ورافع بن سهل كانا معه في احد ورجعا جريحين ، فلما اذن مؤذن النبي بالخروج في طلب العدو قال احدهما للآخر : أتفوتنا غزوة مع رسول الله (ص) ، والله ما لنا دابة نركبها وما منا إلا جريح بجرح ثقيل ، ومع ذلك فقد خرجا مع النبي (ص) فقال عبد الله لقد كنت أيسر جرحاً من اخي ، فكنت اذا غلب حملته حتى انتهينا الى ما انتهى اليه المسلمون ومضى رسول الله بمن معه من المسلمين حتى

انتهى الى مكان يدعى حمراء الأسد ، وهو على ثمانية اميال من المدينة فأقام بها ثلاثاً .

وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً من التمر وساق جزرا فنحروا منها في يوم الاثنين والثلاثاء وامرهم رسول الله بجمع الحطب فكانوا اذا أمسوا أوقدوا النار فيوقد كل رجل ناراً على حدة حتى ترى من المكان البعيد .

ومر بهم معبد بن أبي معبد الخزاعي وهو يومئذ مشرك ، وكانت خزاعة مسلمها وكافرها مسالماً للنبي (ص) فقال معبد : يا محمد عز علينا ما اصابك في نفسك وفي أصحابك وودنا ان الله تعالى اعلى كعبك وان المصيبة كانت بغيرك ومضى في طريقه حتى التقى بأبي سفيان ومن معه بالروحاء وكانوا يفكرون في الرجوع الى المسلمين بالمدينة ويقولون لقد أصبنا محمداً وأصحابه ، وليس من الرأي ان نرجع قبل ان نستأصلهم فنكر على بقيتهم ونفرغ منهم ، فلما رأى ابو سفيان معبداً قال ما وراءك يا معبد قال إن محمداً خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم ار مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا .

فقال ابو سفيان ويلك ما تقول يا معبد : قال والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ، فقال والله لقد اجمعنا الكرة عليهم حتى نستأصل بقيتهم ، فقال اني انهاك عن ذلك وقد حملني ما رأيت ان قلت فيهم ابياتاً :

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردي بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدواً اظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل
اني نذير لأهل البسل ضاحية ... لكل ذي إربة منهم ومعقول
من جيش احمد لا وخش قنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فثنى ذلك ابا سفيان ومن معه[1] .

وجاء في رواية اخرى ان صفوان بن امية نهاهم عن الرجوع الى المدينة وقال لهم : ان القوم قد غضبوا ونخشى ان يكون لهم قتال غير الذي كان فرجعوا واتجهوا الى مكة ، فقال النبي (ص) وهو بحمراء الأسد حين بلغه انهم هموا بالرجعة والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كالأمس الذاهب .

ومضى النبي لما بلغه انهم قد عدلوا عن الرجوع مضى راجعاً الى المدينة وقد اعاد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم واسترد لهم مكانتهم التي تزعزعت في احد ، ومع ذلك فقد ظل المنافقون واليهود يرفعون رؤوسهم ضاحكين يحاولون تشكيك المسلمين برسالة محمد (ص) ويقولون ما محمد الا طالب ملك ولو كان نبياً ما أصيب هكذا ولم يصب نبي في نفسه وأصحابه بمثل ما أصيب .

ومرة يقولون : إذا كانت بدر آية من آيات الله على رسالة محمد فما عسى ان تكون احد وما دلالتها ؟ واحس النبي (ص) بحراجة الموقف ودقته لا في المدينة وحدها بل عند سائر القبائل العربية ، فمن ارعبتهم نتائج معركة بدر ، فقد ردت عليهم معركة احد من السكينة والطمأنينة ما يشجعهم على معارضته ، وحتى على غزوه في داخل المدينة ، لذلك فقد اتجه الى العمل لإرهاب المشركين وقطع الطريق على من يحاول بعث الشكوك وإلى التعويض عما فقده المسلمون في تلك المعركة .

---

(١) انظر الطبري جزء ٣ ص ٢٨ و ٢٩ .

سرية ابي سلمة

لقد جاء في حياة محمد للأستاذ هيكل وغيرها من كتب التاريخ ان اول ما بلغه بعد مرور شهرين على معركة احد ان طليحة وسلمة ابني خويلد كانا على رأس بني اسد يحرضان قومهما ومن أطاعهما من العرب على مهاجمة المدينة والسير الى محمد في عقر داره علهم يصيبون منه او من نعم المسلمين واموالهم وشجعهم على ذلك ما أصاب المسلمين في معركة احد ، وما لبث النبي (ص) حين اتصل به الخبر ان دعا اليه ابا سلمة بن عبد الأسد وعقد له اللواء على سرية تبلغ نحواً من مائة وخمسين رجلاً امرهم بالسير ليلاً والتخفي نهاراً وان يسلكوا على غير الجادة حتى لا يطلع احد على اخبارهم فيفاجئوا العدو بالإغارة عليه من غير ان يعلم بذلك .

وبالفعل توجه ابو سلمة على رأس السرية ونفذ الخطة التي وضعها له النبي (ص) ومضى حتى انتهى الى القوم وهم على غير استعداد للقتال فأحاط بهم المسلمون في ظلمة الفجر وحثهم قائدهم على الجهاد والفتك بالعدو ، فلم يستطع المشركون ان يثبتوا لهم واستولت تلك السرية على ما عندهم من النعم وغيرها ورجعوا الى المدينة بتلك الغنائم ظافرين ، واستعاد المسلمون شيئاً من هيبتهم التي ضاعت بسبب سوء تصرفهم في معركة أحد وكان أبو سلمة قد أصيب بجراحات بليغة في أحد ، ولما ندبه النبي (ص) لقيادة تلك السرية لم يكن قد شفي كاملاً من جراحاته ، فلما اجهد نفسه في تلك السرية عادت جراحاته كحالتها الأولى ومات متأثراً بها .

واتصل بعد ذلك بفترة يسيرة ان خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي نازل بمكان يدعى عرنة ، ويدعو الناس لغزو المدينة على حين غفلة من اهلها ، فدعا النبي (ص) عبد الله بن أنيس وبعثه ليتجسس له اخبارهم ويعود اليه بما

يجري ، فسار عبد الله فوجده مع ظعن له يرتاد لهن منزلاً ، فلما انتهى اليه سأله خالد من الرجل ؟ فقال له انا رجل من العرب : سمع بأنك تجمع الناس لغزو محمد في داره فجئتك لذلك ، فلم يخف خالد عنه قصده ،ومضى معه عبد الله حتى إذا كان في عزلة من رجاله وليس معه الا النسوة استدرجه ليسير معه جنباً الى جنب ، فلما امكنته منه الفرصة بادر إليه وحمل عليه بالسيف فقتله وفر هارباً تاركاً ظعائنه منكبات عليه يبكينه ويندبنه ، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول بخبره ، وهدأت قبيلته بعد موت زعيمها زمناً تتحين الفرصة المناسبة للثأر .

يوم الرجيع

وبدخول السنة الرابعة من هجرته (ص) حدث الطبري عن محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر عن قتادة انه قال قدم على رسول الله (ص) بعد معركة أحد رهط من عضل والقارة ، فقالوا يا رسول الله : ان فينا إسلاماً وخيراً فابعث معنا نفراً من اصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله معهم ستة من اصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان حليفاً لحمزة بن عبد المطلب وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح وحبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق، وامر عليهم مرثد بن أبي مرثد فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يشعر المسلمون وهم في رحالهم الا بالرجال في أيديهم السيوف وقد احاطوا بهم فأسرع المسلمون الى اسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم والله انا لا نريد قتلكم ولكنا نريد ان نصيب بكم شيئاً من اهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ان لا نقتلكم، فأما مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً فقاتلوهم حتى قتلوا .

واما زيد بن الدثنة وحبيب بن عدي وعبد الله بن طارق فلانوا ورغبوا في

الحياة فأسروهم ثم خرجوا بهم الى مكة ليبيعوهم بها حتى اذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القرآن واخذ سيفه وتأخر عن القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه ودفن بالظهران وساروا بحبيب بن عدي وزيد بن الدثنة حتى انتهوا بهماالى مكة فباعوهمافابتاع حجير بن أبي اهاب التميمي حليف بني نوفل حبيب بن عدي وكان حجير اخاً لحارث بن عامر ، ابتاعه ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه امية بن خلف ، ولما قدم زيد للقتل سأله ابو سفيان انشدك الله يا زيد اتحب ان محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وتسلم انت وتعود الى اهلك ، فقال زيد رضوان الله عليه ، والله ما احب ان محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانا جالس بين أهلي فعجب ابو سفيان وقال : ما رأيت من الناس احداً يحبه اصحابه كما يحب اصحاب محمد محمداً .

واما حبيب فلما خرجوا به ليقتلوه صلباً قال لهم ان رأيتم ان تدعوني حتى اركع ركعتين فافعلوا فأعطوه ما أراد فركع ركعتين ، ثم اقبل على القوم وقال : اما والله لولا ان تظنوا اني انما طولت فيهما جزعاً من الموت لأطلت ركوعهما وسجودهما ، ثم التفت الى القوم وقال : اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم احداً ، فأخذت القوم رجفة من صوته واستلقوا على جنوبهم مخافة ان تصيبهم لعنته .

وكانت هذيل حينما قتل عاصم بن ثابت قد أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد ، وقد نذرت حينما قتل ابنها يوم احد ان قدرت على رأس عاصم قاتل ولدها ان تشرب في قحفته الخمر ، فلما ارادوا قطع رأسه حومت عليه الدبر فمنعتهم عنه فتركوه الى الليل فبعث الله سيلاً فاحتمله ولم يعرف مكانه كما جاء في رواية الطبري وغيره .

ويدعي المؤرخون ان حادثة هؤلاء الستة على يد هذيل انتقاماً لقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي الذي اغتاله عبد الله بن أنيس .

ولما بلغ خبرهم رسول الله (ص) حزن هو واصحابه لذلك وازداد تفكيره في امور الدعوة وخشي ان تتكرر امثال هذه الحوادث فتستخف العرب بشأنه .

وقال جماعة من المنافقين : ويح هؤلاء المفتونين لا هم قعدوا في أهلهم ولا هم ادوا رسالة صاحبهم فأنزل الله تعالى في شأن اولئك المنافقين الذين اظهروا الشماتة كما جاء في سيرة ابن هشام .

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾ .

وقد رثاهم حسان بن ثابت كما جاء في كتب السيرة بأبيات كثيرة منها :

يا عين جودي بدمع منك منسكب ... وابكي خبيباً مع الفتيان لم يؤب
صقراً توسط في الأنصار منصبه ... سمح السجية محضاً غير مؤتشب
قد هاج عيني على علات عبرتها ... إذ قيل نُصَّ على جذع من الخشب

وقال يهجو هذيلا ويذكر غدرها بذلك الوفد :

ان سرك الغدر صرفاً لا مزاج له ... فأت الرجيع وسل عن دار لحيان[1]
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والانسان مثلان
لو ينطق التيس يوماً قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شان

---

(١) لحيان بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر .

حادثة بئر معونة

لقد تركت معركة أحد آثاراً سيئة تحمل المسلمون نتائجها واضعفت هيبتهم في مكة وخارجها ، وكان المشركون قد احسوا بالانفراج بعد الضيق وبعد الخوف اللذين جرتها عليهم معركة بدر الكبرى ، وكان من نتائج هزيمة المسلمين في احد ان طمع فيهم الأعراب من كل حدب وصوب ، بالرغم من ان النبي (ص) قد عمل كل ما في وسعه لإعادة هيبة المسلمين ، وبالرغم من ذلك فلولا معركة احد ما كانت هذيل لتجرؤ على قتل الوفد الذي أرسله النبي (ص) للدعوة الى الاسلام وإرشاد المسلمين الى أصوله وفروعه فيما هو معروف في كتب السيرة بيوم الرجيع الذي غدر فيه المشركون بستة أو سبعة من خيار المسلمين ، وبعدها بمدة يسيرة حادثة بئر معونة التي قتل فيها اربعون من خيار المسلمين كما جاء في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وغيرهما .

وجاء في سيرة النبي من أعيان الشيعة للسيد الأمين وفي رواية ثانية للطبري ان الوفد كان مؤلفاً من سبعين رجلاً لم يفلت منهم سوى رجل واحد . وكان السبب لهذه الحادثة ان عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الاسنة المعروف بأبي براء من بني صعصعة وفد على النبي بالمدينة وإهدى له هدية فأبى ان يقبلها الرسول منه وقال له اني لا أقبل هدية مشرك ، ودعاه الى الاسلام وأخبره بما له ان أسلم عند الله من الثواب والأجر العظيم ، وقرأ عليه شيئاً من القرآن فامتنع عن الاسلام ، ولكنه لم يكن متعصباً على المسلمين ولا كارهاً للاسلام ، وقال للنبي (ص) ان امرك الذي تدعو اليه حسن وجميل ، فلو بعثت رجالاً من اصحابك الى أهل نجد يدعونهم الى الاسلام رجوت ان يستجيبوا لك ، فلم يستجب له النبي ، وخاف على أصحابه ان يغدروا بهم كما غدرت هذيل بوفده بالأمس .

واصر ابو براء ملاعب الأسنة على ارسال الوفد وأدخلهم في جواره وتعهد بمساعدتهم اذا همّ أحد بهم بسوء ، وكان محترماً في قومه لا يخاف من اجاره عادية احد عليه كما يدعي الاخباريون فاستجاب له النبي (ص) عند ذلك وأرسل معه اربعين رجلاً من خيار المسلمين وقيل سبعين كما في رواية ثانية للطبري عن انس بن مالك ، أرسلهم النبي بقيادة المنذر بن عمرو فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهو مكان متوسط بين بني سليم وبني عامر .

وقد أرسل معهم النبي كما جاء في كتب السيرة كتاباً الى عامر بن الطفيل فأرسله اليه الوفد مع حرام بن ملحان احد المسلمين ، فلما أتاه بالكتاب لم ينظر بما فيه وامر بقتل الرسول ودعا بني عامر لقتال المسلمين فامتنعوا عليه ، وقالوا ان أبا براء قد أجارهم ونحن لن نخفر ذمة لأبي براء فاستنجد عليهم قبائل بني سلم وهم عصية ورعل وذكوان فأجابوه الى ذلك وخرجوا معه الى المسلمين على حين غفلة فأحاطوا بهم من كل جانب ، ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاع المستميت فقتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم سوى كعب بن زيد من بني النجار فإنهم تركوه وبه رمق ، فانسل من بين القتلى وعاش الى ان قتل في معركة الخندق الى جانب المسلمين .

وكان عمرو بن امية الضمري ورجل من الأنصار من بني عوف قد خرجا يرعيان ابل الوفد ، ولم يكونا على علم بما جرى لأصحابهما لولا انهما وجدا ان الطير تحوم فوق معسكرهم ، فقالا ان لهذه الطير لشأناً فأقبلا لينظرا اليها فإذا قومهما يتخبطون في دمائهم، والخيل التي اصابتهم لا تزال في مكان المعركة ، فقال الأنصاري لعمرو بن امية ماذا ترى قال : ارى ان نلحق برسول الله ونخبره بما جرى ، ثم قال الأنصاري : ما كنت لأرغب بنفسي عن المنذر بن عمرو واسأل الناس عن اخباره ، ثم قاتل حتى قتل وأخذ عمرو بن أمية الضمري أسيراً ، فلما انتسب لهم الى مضر أطلقه عامر بن الطفيل بعد ان جز ناصيته ، ومضى في طريقه الى المدينة حتى اذا كان في مكان يدعى قرقرة استظل تحت شجرة وفيما هو تحتها وإذا برجلين قد أقبلا عليه وجلسا تحتها فسألهما من

،بتها فانتسبا الى بني عامر وظنهما من القوم الذين قتلوا اصحابه ، فأمهلهما حتى ناما قام اليهما وقتلهما وهو يعتقد بأنه قد أدرك بعض ثأره من القوم ، وتبين ان معهما جواراً وعهداً من رسول الله لم يعلم به عمرو بن امية ، وتابع سيره الى المدينة فأخبر النبي (ص) بما جرى لأصحابه وبما صنع مع الرجلين وهما من جماعة ابي براء المعاهدين لرسول الله .

وكانت هذه الحادثة اشد وقعاً على رسول الله وأصحابه من سابقتها واكثر إيلاماً لأنه فقد فيها عدداً كبيراً من اخلص اصحابه وقادتهم فترحم عليهم ودعا الله سبحانه ان ينتقم من اولئك المجرمين الذين غدروا بأصحابه كما تأثر المسلمون لهذه الكارثة وزادتهم تصميماً على الدفاع عن عقيدتهم وعن الرسول مهما كانت التضحيات وعقدوا العزم على المضي في مطاردة اعداء الله في كل وجه ومكان .

وقال النبي (ض) هذا عمل ابي براء لقد كنت كارهاً لهذا الأمر ومتخوفاً من الغدر ، ولكن ابا براء قد تعهد وأجار .

ويبدو من جميع المؤرخين ان أبا براء كان سليم النية في دعوته تلك ، وقد شق عليه هذا الأمر حتى لقد ذهب ابنه ربيعة وطعن عامر بن الطفيل برمحه حينما وجد اباه متأثراً من تلك الجريمة .

ولكني اشك في براءة ابي براء منها ، فلقد كان ابو براء زعيماً مطاعاً في قومه ، والعرب يعتبرون الجوار كالنسب اذا لم يكن اوثق منه ، والتاريخ مليء بالشواهد على ان العرب كانوا يشعلون نار الحرب من اجل عجوز هرمة اذا دخلت في جوارهم فكيف وقد ادخل في جواره سبعين رجلاً من أتباع محمد وتعهد له بحمايتهم من كل سوء ، ولم يحدث التاريخ بأنه قد وقف مع هؤلاء الغدرة موقف من يريد ان يثأر لكرامته التي كان العربي يغذيها بأعز ما لديه ويشعل نار الحرب من اجلها مهما كانت التضحيات . اما القتيلان اللذان قتلهما عمرو بن امية كما يدعي المؤلفون في السيرة فقد فداهما النبي وذهب الى بني

النضير يستعين بهم على فديتهما ، وفي رواية ثانية ولعلها ارجح من الأولى انه استدان منهم الفدية .

ومن الجائز ان يكون النبي (ص) قد رأى من اليهود بعد هذه الحادثة وسابقتها ما أضعف هيبة الإسلام في نفوسهم وخاف ان يبادروه بالشر ، فذهب اليهم ليكشف نواياهم التي يضمرونها له ولأصحابه وحتى يتضح للناس انهم هم البادئون في نقض العهد ، ولما عرض عليهم الاشتراك في دية الرجلين عملاً بنصوص المعاهدة التي ابرمها بينه وبينهم رحبوا بهذا الأمر واظهروا استعدادهم للمساهمة وأحسنوا الاجابة فجلس الى جنب جدار من بيوتهم ، ولكنه كان يراقب حركاتهم وتصرفاتهم فرأى جماعة منهم يتحركون بحركات مريبة ، واتفقوا على ان يصعد رجل منهم الى سطح البيت ويلقي عليه صخرة من حيث لا يشعر هو ولا احد من أصحابه ، ولما علم سلام بن مشكم احد زعمائهم بالأمر نهاهم وحذرهم من ذلك ، وقال لهم انه سيعلم بما انطويتم عليه وفي ذلك نقض للعهد ، وسيكون له الحجة عليكم ، فلم يسمعوا لقوله .

وقبل ان تنفذ المؤامرة التي تطوع لها عمرو بن جحاش بن كعب اخبره الوحي بما عزموا عليه وامره ان يغادر المكان ، ونهض النبي (ص) فجأة من مكانه من غير ان يشعر احد من أصحابه بالغاية التي نهض من اجلها وتوجه الى المدينة ولم يعد ، واستغرب ذلك اصحابه وخرجوا في اثره يتساءلون ولم يعرفوا السبب إلا بعد ان لحقوا به وأعاد الى أذهانهم تلك التصرفات والتحركات التي كانت ترسم نواياهم في نفسه والتي اكدها له وحي السماء فأيقنوا بذلك .

ثم ارسل اليهم محمد بن مسلمة وقال له : اذهب الى اليهود وقل لهم : ان النبي يقول لكم اخرجوا من هذا البلد ولا تساكنوني فيه بعد ان هممتم بالغدر وقد اجلكم عشرة أيام فمن وجده بعد ذلك ضرب عنقه ، فقالوا يا محمد ماكنا نظن ان يجيئنا بذلك رجل من الأوس ، وكانوا قد تحالفوا قبل الإسلام مع الأوس على الخزرج .

فقال محمد بن مسلمة نفرت القلوب ومحا الاسلام العهود. ومكث القوم على ذلك اياماً يتجهزون ليخرجوا من المدينة ، وفيما هم على ذلك وإذا بعبد الله بن أبي قد جاءهم وقال لا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى الي من قومي ألفين ، هذا بالاضافة الى يهود بني قريظة فإنهم سيدخلون معكم ، فبلغ قوله هذا كعب بن اسد كبير بني قريظة وهو الذي عاهد رسول الله عنهم ان لا يغدروا به ولا يعينوا عليه احداً ، فأنكر مقالة عبد الله بن أبي وقال : لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي .

وقال سلام بن مشكم لحيي بن اخطب زعيم بني النضير : يا حيي اقبل هذا الذي قال محمد ، فإنما شرفنا على قومنا بأموالنا قبل ان نقبل منه ما هو شر من ذلك ، فقال وما هو شر من ذلك ، قال اخذ الأموال وسبي الذراري وقتل المقاتلة فأبى عليه ابن اخطب ذلك ، وأرسل حيي بن اخطب الى رسول الله إنا لا نترك دارنا فافعل ما بدا لك ، فكبر رسول الله وكبر المسلمون ، وقال لقد عزمت اليهود على الحرب ، وانطلق جدي بن اخطب الى ابن ابي سلول فوجده جالساً في نفر من اصحابه ، فدخل ابنه عبد الله بن عبد الله بن ابي وجدي عنده فأخذ سلاحه ثم خرج يعدو وانضم الى صفوف المسلمين .

قال جدي بن اخطب فأخبرت بذلك كله حيي بن اخطب فقال هذه مكيدة من محمد ، ثم ان رسول الله زحف اليهم بمن معه من المسلمين وحاصرهم وكانت رايته مع علي بن ابي طالب ، واعتزلتهم قريظة كما خذلهم عبد الله بن ابي وحلفاؤهم من غطفان وانزل الله سبحانه بهذه المناسبة :

﴿ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ .

وسار النبي (ص) بالناس حتى حاصرهم وقد تحصنوا وقاموا على

حصونهم يرمون المسلمين بالنبل والحجارة ، وكان رجل يدعى عزور رامياً يبلغ نبله الى القبة التي بنيت للرسول فحولها المسلمون الى مكان آخر ، وفقد المسلمون علياً قرب العشاء ، فقال الناس يا رسول الله : ما نرى علياً فقال دعوه انه في بعض شأنكم وفيما هم يتحسسون اخباره وإذا به قد أقبل عليهم ومعه رأس اليهودي عزور . وكان قد كمن له علي (ع) حين خرج ومعه جماعة من اليهود يتحين الفرصة ليفتك بالمسلمين فشد عليه علي فقتله وفر من كان معه وكانو تسعة من اليهود ، وبعث معه النبي (ص) عشرة من المسلمين فيهم ابو دجانة الأنصاري وسهل بن حنيف فأدركوهم قبل ان يدخلوا الحصن واشتبكوا معهم في معركة اسفرت عن قتل اليهود التسعة فاحتزروا رؤ وسهم وحملوها الى النبي (ص) فأصر ان تطرح في بعض آبار بني حطمة ، وأرعب قتل هؤلاء قلوب اليهود وأوهن من عزائمهم .

وظل النبي (ص) نحواً من عشرين ليلة واليهود محاصرون يتخللها قتال بين الحين والآخر الى ان دب اليأس في قلوبهم لا سيما وقد قطع النبي بعض نخيلهم كما جاء في بعض الروايات ولما بلغهم ذلك نادوا يا محمد لقد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بالك اليوم تقطع النخيل وتحرقها فأنزل الله تعالى عليه كما يدعي المفسرون :

﴿ ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾[1] وكان جميع ما قطعه المسلمون واحرقوه من نخيل لا يتجاوز ست نخلات .

والذي تعنيه الآية ان ما قطع من النخيل وما بقي منها قائماً على اصوله كان بأمر الله ليغيظ بذلك كفار بني النضير لأنهم كما اغتاظوا لقطع ما قطع منه كذلك سيغتاظون لما بقي منه حيث انهم يرون انه اصبح لأعدائهم ينتفعون بثمره .

---

(١) واللينة واحدة اللين وهو نوع من النخل .

ويمكن ان تكون المصلحة الداعية الى قطع بعض النخلات هو انه اراد ان يبعث في نفوسهم اليأس في المهادنة والبقاء لأن الذي يربط الانسان بوطنه هو ارضه وماله اكثر من أي شيء آخر ، فاذا ذهب المال تضعف الروابط بين الانسان وبلده ووطنه .

وقد استعمل النبي (ص) هذا الأسلوب طمعاً في جلائهم وحتى لا يتعرضوا للإبادة بإصرارهم على البقاء ، ومهما كان الحال فقطع النخيل والأشجار المثمرة بذاته وإن لم يكن صالحاً ومستحسناً ولكن قد تفرضه المصلحة احياناً كما في المقام .

ولقد يئس اليهود من تراجع النبي وأيقنوا ان لا سبيل لهم إلا بالخلاص وان بقاءهم يعرضهم لقتل الرجال والنساء ، فلم يجدوا بداً من التوسل بالنبي بصلح يحفظ عليهم اموالهم ودماءهم وذراريهم على ان يخرجوا من المدينة وقد عرض عليهم المسلمون ذلك فأبوا الا القتال والتحدي للمسلمين ، ولكنه بعد موقفهم العدائي المتصلب رفض طلبهم ولم يسمح لهم الا بأنفسهم وما تحمله الابل من الأمتعة على ان يتركوا الأسلحة التي حملوها لحرب المسلمين فنزلوا على ذلك ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ويأخذون منها ما يستحسن من الأبوباب والأدوات حتى لا ينتفع بها المسلمون وحملوا ما اخذوه على ستمائة بعير ووجد النبي من الأسلحة التي تركوها خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة واربعين سيفاً عدا ما تركوه من الأثاث فقسم اكثره بين المهاجرين لأن الكثير منهم كانوا لا يزالون عالة على الأنصار ، ورحل جماعة منهم لخيبر وآخرون الى بلاد الشام ، وكان ممن التجأ الى خيبر حيي بن اخطب وسلام بن الحقيق وكنانة بن الربيع ، وثلاثتهم من زعماء بني النضير .

وقد تعرضت سورة الحشر لشيء مما جرى لبني النضير كما تشير الى ذلك الآيات التالية :

﴿ هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لأول

الحشر ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار * ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ . ثم ان الله سبحانه بعد ان بين احكام ذلك المال الذي استولى عليه المسلمون من بني النضير بدون قتال وعبر عنه بالفيء في مقابل الغنيمة وهي ما يستولي عليه المسلمون بالحرب ، بعد ان بين ذلك اوصى الرسول بفقراء المهاجرين كما جاء في الآية الثامنة من هذه السورة التي كان يسميها ابن عباس سورة بني النضير :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ﴾ .

﴿ والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

مولد الامام الحسين (ع)

لقد جاء في تاريخ الطبري ان الحسين بن علي (ع) ولد في السنة الرابعة من الهجرة لليالي خلون من شعبان واكثر الروايات عن اهل البيت انه ولد في الخامس من شعبان من تلك السنة .

وجاء في الكافي للكليني انه ولد في السنة الثالثة للهجرة في حين انه يقول بأنه قتل سنة احدى وستين للهجرة وهو في السابعة والخمسين ، ولازم ذلك ان ولادته كانت في السنة الرابعة كما يبدو ذلك بعد التأمل .

ولقد سماه رسول الله حسيناً كما سمى اخاه حسناً من قبله وبينه وبين اخيه احد عشر شهراً وتعهدهما بالتربية والرعاية .

وجاء عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه كان اذا بكى يقول لفاطمة ان بكاءه يؤذيني فيأخذه ويضع ابهامه في فمه فيمتص منها ، وفي رواية ثانية انه كان يضع لسانه في فمه فيمتص منه ما يكفيه .

وفي الكافي للكليني عن محمد بن عمرو الزيات عن ابي عبد الله الصادق ان جبريل قبيل ولادة الحسين نزل على النبي (ص) وقال له : ان الله يبشرك بمولود يولد من فاطمة تقتله امتك من بعدك ويبشرك بأنه جاعل من ذريته الامامة والوصاية فأخبر النبي (ص) فاطمة بذلك فحمد الله وسلمت امرها اليه .

ومن المجلد الثالث من فضائل الخمسة عن صحيح الترمذي ، وصحيح ابن ماجة وكنز العمال وغيرها من كتب الحديث ان النبي (ص) كان يقول في مختلف المناسبات حسين مني وانا من حسين احب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط وهو واخوه الحسن سيدا شباب اهل الجنة ، وأضاف الى ذلك ان البخاري رواه في الأدب المفرد في باب معانقة الصبي .

ومضى يقول : ان الحاكم في مستدرك الصحيحين قال وجده النبي يلعب مع الصبيان في السكة فأقبل عليه النبي فجعل الحسين يفر ها هنا وها هنا والنبي يضاحكه ، ثم اخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ووضع فاه على فمه فقبله وقال حسين مني وانا من حسين احب الله من احبه الى كثير من أمثال هذه الروايات التي رواها محدثو السنة في مجاميعهم ، وكان النبي يحرص ان لا تفوته مناسبة لينوه بها على ما للحسين (ع) من المكانة المنزلة في نفسه ومن الفضل والجاه عند الله ، ويؤكد ذلك بالنسبة له ولأخيه وامهما وأبيهما على رؤوس اصحابه للحجة وتحذيراً لهم من عواقب الاستخفاف بهم

والتعدي على حقوقهم وأراقة دمائهم[1] .

غزوة ذات الرقاع

لقد اطمأنت المدينة بعد اجلاء بني النضير عنها اذلاء صاغرين ، وضعف امر المنافقين الذين كانوا يتآمرون مع اليهود على النبي واصحابه ، وأصبح عبد الله بن أبي بن أبي سلول خائفاً يترقب اليوم الذي يلاقي فيه هو واتباعه مصير احلافه اليهود ، وكانت المدينة لثلاثة اشهر تبدو عليها الطمأنينة ويخيم عليها السكون والهدوء ، وبمضي ايام قلائل من جمادى الأولى من تلك السنة كما جاء في تاريخ الطبري واكثر المؤلفات في السيرة بلغه ان بني محارب وبني ثعلبة من غطفان يعدون العدة لغزوه فخرج اليهم في اربعمائة من المسلمين ، وقيل في سبعمائة ، واستخلف على المدينة ابا ذر الغفاري كما جاء في سيرة ابن هشام وقيل غيره .

ولما بلغ ذات الرقاع وهي محلة فيها جبل فيه سواد وبياض وحمرة لقي جمعاً عظيماً من غطفان قد تأهبوا لحربه واستعدوا لقتاله كما جاء في رواية الطبري ، فتهيب كل من الفريقين الآخر ، ولم يحدث بينهما قتال ، وشرع الله صلاة الخوف في ذلك الموقف ، فصلى النبي (ص) بأصحابه ركعتين ركعتين ، بعد ان صلى نحو من نصفهم معه ووقف الباقون يحرسونهم من عدوهم ، وبعد انتهائهم صلى بالباقين ايضاً ، ولم يذكر احد من المؤرخين انه وقع بين الطرفين قتال في هذه الغزوة ، كما وأنه لم يذكر احد بأن المسلمين قد غنموا فيها سوى ابن سعد في طبقاته فقد جاء فيها ان النبي مضى في طريقه حتى انتهى الى محلاتهم فلم يجد بها احداً غير النسوة فأخذهن وفر الرجال والأعراب الى رؤوس الجبال .

---

(١) انظر فضائل الخمسة الصحاح الستة ج ٣

وذكر ابن سعد هذه الغزوة بعد بدر الموعد وذكرها غيره من المؤلفين في السيرة قبلها . ويدعي هيكل في كتابه حياة محمد والسيد الأمين في اعيان الشيعة ، ان غطفان ومن معها لما رأوا النبي تفرقوا تاركين نساءهم وامتعتهم فحمل المسلمون منها ما استطاعوا ولا مصدر لهما سوى ابن سعد في طبقاته .

ومن الجائز ان يكون النبي قد غزاهم مرتين في وقتين مختلفين غنم منهم في إحداهما ولم يغنم في الأخرى .

وجاء في تاريخ ابي الفداء ان رجلاً من غطفان قال لقومه : ألا اقتل لكم محمداً قالوا بلى فحضر عند النبي (ص) وقال يا محمد اريد ان أرى سيفك هذا وكان محلى بالفضة وقد وضعه النبي على ركبتيه فدفعه اليه النبي (ص) فأخذه واستله ، ثم جعل يهزه ويهم بضرب النبي ويكبته الله ، ثم قال يا محمد ألا تخافني ، فقال له النبي لا أخافك فإن الله يمنعني منك ، ثم ان الرجل رد السيف الى غمده وأعطاه للنبي (ص) فأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ .

وقد ورد نظير هذه الحادثة في احدى غزوات النبي لغطفان بواسطة دعثور بن الحارث احد المعروفين بينهم بالفروسية والفتك في حدث ذكرناه سابقاً ومن الجائز ان يحدث في غزوة نظير ما حدث في سابقتها ، كما يجوز ان يختلف الرواة في مكان وزمان الحادثة الواحدة كما نجد ذلك كثيراً في كتب السيرة والتاريخ ومرد ذلك التشويش الموجود في كتب التاريخ والسيرة الى تأخير زمان التدوين عن حياة النبي (ص) وتلاعب القصاصين والرواة وعملاء الحكام بأكثر الحوادث خلال الفترة التي كان التدوين فيها خاضعاً لسيطرة الحاكمين كما ذكرنا ذلك في كتبنا السالفة .

غزوة بدر الثانية

لقد جاء في طبقات ابن سعد انها كانت في اول ذي القعدة على رأس خمسة واربعين شهراً من الهجرة .

وفي تاريخ الطبري وأبي الفداء وسيرة ابن هشام والبداية والنهاية انها كانت في شعبان وسماها المؤرخون بغزوة بدر الموعد ، لأن أبا سفيان حينما خرج من احد نادى في المسلمين ان موعدنا معكم بدر في العام القادم ، وهو يريد بذلك أن ينتقم لقتلى بدر في المكان الذي قتلوا فيه، وفي الموعد المذكور نذر النبي (ص) اصحابه الى لقاء قريش وخرج في ألف وخمسمائة من المقاتلين واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، واعطى لواءه لعلي (ع) ، وسار النبي بمن معه حتى انتهى الى بدر وأقام فيها ثمانية أيام ، وقيل انها كانت مركزاً يجتمع فيها العرب في كل عام يبيعون ويشترون ، وقد اخرج المسلمون معهم بضائع باعوها حيث صادف تجمع العرب فربح الدرهم درهماً وأقاموا بها ثمانية أيام ورجعوا وتخلف ابو سفيان عن الموعد .

وموضع التساؤل في ان المسلمين كما جاء في كتب التاريخ كانوا قد خرجوا لملاقاة ابي سفيان حيث تهددهم بالحرب في ذلك المكان ، فقد خرجوا إذن لحرب مرتقبة مع قريش واتباعها من العرب ، ومع ذلك فكيف يخرجون بأمتعتهم للتجارة في تلك الايام التي يجتمع فيها الاعراب في كل عام يبيعون ويشترون كما تنص على ذلك بعض المؤلفات في السيرة وكيف يخرج النبي (ص) لحرب قريش في ايام تجمع الاعراب من مختلف النواحي للبيع والشراء واكثرهم لا يزالون على الشرك ، ومن غير البعيد لو وقع قتال في هذه الحالات ان ينحاز اكثرهم مع المشركين ، وبذلك يتعرض المسلمون لأشد المخاطر على

اموالهم وانفسهم ، وكل هذه الاحتمالات لا بد وان يضعها النبي في الحساب ويتحاشاها .

والذي ارجحه ان الغزوة لم تكن في الموعد الذي تجتمع فيه الاعراب للبيع والشراء ولم يحمل المسلمون معهم في تلك الغزوة من اموالهم وبضائعهم شيئاً ، بل كانت كسائر غزواته لرد كيد المعتدين والمشركين .

والذي حدث فيها ان النبي (ص) خرج في ألف وخمسمائة او اقل من ذلك او اكثر على اختلاف الروايات وكان ابو سفيان كارهاً للخروج ومتخوفاً من ملاقاة النبي (ص) في ذلك المكان ووضع في حسابه انه سيلتقي بقوم موتورين وقد استفادوا من معركة أحد دروساً ربما توفر لهم النصر على قريش واحلافها ، ومع ذلك فقد التقى بنعيم بن مسعود الاشجعي في مكة قبل خروجه وكان معتمراً فيها ، فقال له : يا نعيم كيف تركتِ محمداً في يثرب قال تركته على تعبئة لغزوكم ، فقال له ابو سفيان يا نعيم ان هذا عام جدب ولا يصلح لنا إلا عام ترعى فيه الابل ونشرب فيه اللبن ، وقد جاء اوان موعد محمد ، فالحق بالمدينة وثبطهم واعلمهم انا في جمع كثير لا طاقة لهم بنا لكي يأتي الخلف من قبلهم ، ولك مني عشرة فرائض اضعها لك في يد سهيل بن عمرو وهو يضمنها لك ، فجاء الى سهيل بن عمرو وقال له يا أبا يزيد : أتضمن هذه الفرائض لكي اذهب إلى محمد ومن معه فأثبطه عن الخروج في هذا الموعد ، فقال له نعم اني ضامن لذلك فخرج نعيم حتى قدم المدينة فوجد الناس يتجهزون فاندس بينهم ، وقال ليس هذا برأي : ألم يخرج محمد بنفسه الى أحد وقد قتل اصحابه فيها ، ومضى يخوف المسلمين من نتائج هذه الغزوة ويصور لهم مخاطرها حتى تخوف الكثير منهم وتردد جماعة في الخروج مع الرسول (ص) ، ولما بلغ رسول الله ان جماعة قد ترددوا في الخروج جمعهم وحثهم على الخروج ، وقال : والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي احد لخرجت وحدي ، ولما وجده المسلمون مصمماً على الخروج خرجوا معه كما ذكرنا .

ولكن الواقدي وكاتبه ابن سعد صاحب الطبقات يؤكدان ان المسلمين قد اخرجوا معهم بضائع واموالاً باعوهـا في بدر حيث يجتمـع الناس في ذلـك الموعد من كل عام .

واما ابو سفيان فلما يئس من تراجع النبي (ص) خرج من مكة في الفين من المشركين ومضى حتى انتهى الى مر الظهران ، وفي رواية ثـانية الى مكـان يدعى عسفان بعد مسيرة يـومين من مكـة ، وكان متخـوفاً من لقـاء المسلمين واضعاً في حسابه معركة بدر الكبرى ونتائجها التي اودت بحياة الاشـراف من قـريش ففضل الـرجوع الى متـابعة المسيـرة المحفوفـة بتلك المخاطـر ، فجمع اصحابه ونادى فيهم ان هذا العام عام جدب لا يصلح لنا الخروج في مثله ، ولا يصلح لكم إلا عام خصيب ترعون فيه انعامكم وتشربون البانها وإني ارى الرجوع الى مكة خيراً لنا فاستجاب له اكثر من كان معه ، فرجع بهم الى مكة فسماهم اهل مكة جيش السويق ، يعنون بذلك انهم خرجوا لشرب السويق لا للحرب .

ويدعي المؤلفون في السيرة انه خلال الأيام التي كان النبي ينتظر فيها ابا سفيان في بدر اتاه مخشي بن عمرو الضمري وكان قـد وادعه النبي (ص) في بعض غزواته ، فقال له يا محمد أجئت للقـاء قريش عـلى هذا الماء ، فأحس النبي منه الاستغراب والسخرية ، فقال له نعم : يا اخا بني ضمرة وإن شئت مع ذلك رددنا اليك مـا كان بيننـا وبينك ، ثم جـالدنـاك حتى يحكم الله بيننا وبينك ، فقال لا والله يا محمد : ما لنا بذلك من حاجة .

ولولا ان النبي احس منه الاستهـزاء والسخريـة ، لم يكن ليقابله بهـذا الاسلوب لأنه لم يكن داعية حرب ، بل كان موادعاً لا يقوم على منابـذة احد وحربه الا إذا اضطرته الظروف لذلك ، وكان مع ذلك لين الطبع كريم النفس قد بلغ الغاية من النبل والاخلاق الكريمة حتى انزل الله فيه :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ولما يئس النبي من ملاقاة قريش وعلم برجوعهم الى مكة رجع بمن معه الى المدينة مستريحاً الى هذا النصر الذي اعاد للمسلمين شيئاً من هيبتهم التي فقدوها في معركتهم مع المشركين في احد ، ومضى النبي ينظم امور المسلمين حسبما يوحى اليه تنظيماً دقيقاً يتناول يوم ذاك عدة ألوف من المسلمين ، وهو على ثقة بأن ذلك النظام الذي يستمده من وحي السماء سيصبح بعد ذلك دستوراً ونظاماً لمئات الملايين من البشر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجاء في بعض المؤلفات في السيرة ان الآيات التالية نزلت على رسول الله (ص) بمناسبة هذه الغزوة .

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم * الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافونِ ان كنتم مؤمنين ﴾[1] .

دومة الجندل

لقد جاء في طبقات ابن سعد وبعض المؤلفات في السيرة النبوية ان النبي (ص) بلغه ان بدومة في القرب من الحدود السورية ، وهو المكان المعروف اليوم بالجرف كما يدعي السيد الأمين في المجلد الثاني من أعيان الشيعة ، بلغه ان سكان تلك المنطقة يقطعون الطريق على المارة ويستعدون لغزو المدينة فندب المسلمين لغزوهم وسار اليهم في ألف من المقاتلين ، ومضى يسير الليل ويكمن

---

(١) لقد جاء في اكثر التفاسير ان الآية : **﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم ﴾** تعني نعيم بن مسعود الذي استأجره ابو سفيان لتشيط عزائم المسلمين عن تلك الغزوة .

النهار ومعه دليل من بني عذرة يدعى مدكـور وذلك في أواخـر ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة وبين المدينة وبينهم خمسة عشر يوماً او اكثر كما يدعي ابن سعد في طبقاته ، فلما انتهى قريباً منهم وجد ماشيتهم ورعاتهم فاستولى عليها .

ولما بلغ اهل دومة الجندل خبرهم تفرقوا تاركين بيوتهم ومضاربهم خالية فنزل بها وبث سراياه في تلك المنطقة فلم يجد احداً وأسر منهم رجلاً فسأله عنهم فقال : انهم لما سمعوا بقدومكم تفـرقوا ، فعـرض عليه رسـول الله الاسلام فأسلم وخلى سبيله ورجع النبي (ص) الى المدينة في اواخر ربيع الثاني ومعـه الغنائم ففرقها بين المسلمين .

وجاء في البداية والنهاية عن محمد بن عمرو الواقدي باسناده عن شيوخه ان رسول الله اراد ان يدنو الى بلاد الشام ليرعب قيصر الحاكم لتلك البلاد يوم ذاك ، وفي الوقت ذاته بلغه ان اهلها يريدون غزو المدينـة وجاء في سيـرة ابن هشام انه رجع قبل ان يصل الى دومة الجندل .

والجدير بالذكر ان اخبار هذه الغزوة اكثرها عن الواقدي ، واخبـاره في الغالب من نوع المراسيل ، ومن البعيد ان يترك النبي المدينة قرابة شهر كامل كما يدعي المؤلفون في السيرة الى مكان بعيد مسافة تزيد عن خمسة عشر يـوماً والأعراب من حولها لا يزالون على الشـرك وهم يترقبـون المسلمين ويستغلون الفرصة المناسبة للوقيعة بهم ومن ذا يمنعهم من المدينة إذا غاب عنها النبي مع ألف من اصحابه وفيها من المنافقين ما لا يقل عدداً عن المسلمين وكانـوا على اتصال دائم بقريش واحلافها من المشركين ، من البعيد ان بتركها ليغزو اطراف الجزيرة المتاخمة لحدود الشام في مثل هذه الظروف الا ان يكون مأموراً بذلك من الله سبحانه والله أعلم بحقائق الأمور .

الفصل الثالث عشر

زوجات النبي (ص)

في الفترة الواقعة بين اواخر السنة الرابعة والنصف الأخير من السنة الخامسة من هجرة النبي (ص) تزوج بزينب بنت خزيمة وام سلمة وزينب بنت جحش .

فقد جاء في البداية والنهاية انه في شهر رمضان من السنة الرابعة تزوج النبي (ص) من زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال وهي التي يقال لها ام المساكين لكثرة عطفها على الفقراء وصدقاتها عليهم ، وقد اصدقها اثنتي عشر أوقية من الفضة ، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث ، فطلقها ، ثم تزوجها اخوه عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف .

وجاء في اسد الغابة لابن الأثير انها كانت متزوجة من عبد الله بن جحش فقتل عنها يوم احد ، وتوفيت بعد زواجها من رسول الله بشهرين او ثلاثة كما جاء في الواقدي . وفي البداية والنهاية عن الواقدي انه في شهر شوال من تلك السنة تزوج من ام سلمة بنت امية ، وكان زوجها ابو سلمة قد شهد احداً واصيب بجراحات بليغة ، وقبل ان يشفى منها شفاءً كاملاً وبعد مضي شهر

تقريباً على رجوعه من احد ارسله النبي على رأس سرية لمهاجمة بني اسد فغزاهم بمن معه من المسلمين واستولى على نعمهم واموالهم ، وبعد رجوعه انتقضت عليه جراحاته ومات منها كما ذكرنا من قبل .

ولما انقضت عدتها خطبها رسول الله ، فقالت له يا رسول الله : اني امرأة في غيرة شديدة واخاف ان ترى مني شيئاً يعذبني الله عليه ، وقد كبر سني وتخطيت الشباب ، ومع ذلك فإني امرأة ذات عيال واحتاج لأن اعمل في قوتهم فقال لها اما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك ، واما السن فقد اصابني ما اصابك[1] واما ما ذكرت من العيال فعيالك عيالي فرضيت وتزوجها النبي وعاشت بعد وفاته زمناً طويلاً وكانت افضل من تركهن النبي من نسوته في دينها وعقلها والتزامها بوصايا رسول الله وسنته ، وكان ولدها سلمة ملازماً لعلي (ع) في حربه الناكثين بالبصرة التي تولت قيادتها عائشة ، وفي حروبه مع القاسطين في صفين بقيادة معاوية بن هند .

وخلال السنة الخامسة تزوج رسول الله (ص) من زينب بنت جحش كما جاء في رواية الطبري حيث قال وهو يعرض كيفية زواجها من زيد واسباب طلاقه لها ، فقال لقد كان النبي (ص) قد زوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ابنة عمته امامة بنت عبد المطلب ، وكان إذا تأخر زيد عن النبي ذهب في طلبه فتأخر عنه يوماً فذهب في طلبه وعلى بابه ستر من شعر فرفعت الريح الستر وكانت زينب في حجرتها حاسرة فوقع إعجابها في قلب النبي (ص) ، فلما وقع ذلك كُرّهت الى الآخر على حد تعبيره .

وفي رواية ثانية انه لما رآها ادار وجهه عنها وهو يقول سبحان مصرف القلوب سبحان الله ، فلما جاء زيد الى منزله اخبرته ان رسول الله قد اتى الى منزله ، فقال لها الا قلت له ادخل ، فقالت قد عرضت عليه ذلك وأبى ، قال اسمعته يقول شيئاً ، قالت سمعته يقول حين ولى وجهه سبحان الله العظيم ،

---

(١) وفي ذلك دلالة على انها كانت في سن تقرب من سن النبي (ص) .

سبحان مصرف القلوب فخرج زيد من منزله الى رسول الله ، وقال لـه بلغني انك جئت منزلي فهلا دخلت بأبي انت وامي يا رسول الله لعل زينب اعجبتك فأفارقها ، فقال له الرسول : امسك عليـك زوجك ، فـما استطاع زيـد اليها سبيلاً بعد ذلك اليوم ، فكان يأتي رسول الله فيخبره ورسـول الله يقول لـه : امسك عليك زوجك ، ثم طلقها زيد واعتزلها .

وحدث الطبري عن عائشة انها قالت : بينا رسول الله يتحدث معها إذ اخذته غشية ، فلما سرى عنه الوحي إذا به يبتسم ويقول من يذهب الى زينب ويبشرها ان الله قد زوجنيها وتلا رسول الله الآية :

﴿ وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليـه أمسك عليـك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ .

اي انك تخفي في نفسك رغبتك بها وعـزمك عـلى الزواج منهـا وتخشى الناس والله احق ان تخشاه .

﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولاً ﴾ .

واكثر المؤرخين والمفسرين من السنة والشيعة عندما يذكرون زواج النبي من زينب بنت جحش يخلطون في المقـام ويضعون النبي في مستـوى الانسـان العادي الذي لا يهمه الا اشباع شهواته ولو بغير الطرق المألوفة ، ولعل بعضهم يضعونه بهذا المستوى من حيث لا يقصدون ولا يدركون المغزى الذي من اجله وضـع اعداءه تلك المـرويات في حـين ان ما ورد حـول زواجه منهـا كـما رواه الطبري واكثر المؤلفين في السيرة اما من موضوعـات المنافقـين الذين تستـروا بالاسلام في عهد الرسول (ص) وعاشوا بعده مدة من الزمن لم يكن ليشغلهم خلالها شيء عن الدس والكذب والتشويش على الاسلام والنبي (ص) .

او من موضوعات الأمويين اعداء الاسلام الألداء ، وهؤلاء قد سخروا جماعة ممن اسموهم بالصحابة لهذه الغاية .

ولما جاء عصر التدوين باشراف الأمويين وعملائهم كالزهري وأبي بكر ابن حزم وامثالهما دونوا هذه الموضوعات من بعدهم ولا سيما بعد ان كانت تخدم رغبة الأمويين ، وجاء من بعدهم فأخذها اخذ المسلمات .

وقد يسر هؤلاء لأعداء الاسلام من مستشرقين وغيرهم ان يصوروا النبي (ص) وكأنه رجل مسيّر لشهواته يسيل لعابه لمنظر المرأة ومفاتنها ، فلا يكفيه على حد تعبيرهم ان يكون زوجاً لثلاثة نسوة ، بل تزوج غيرهن خلال اشهر معدودات ، ومن بينهن من هي ذات بعل قد شغفه حبها لمجرد انه مر ببيتها واستقبلته بدون ان تستر محاسنها فتعلق قلبه بها وقال عندما رآها سبحان مقلب القلوب ، وكرر هذه الكلمة وهو منصرف عنها حتى لقد أيقنت بأنه افتتن بها ورأت ذلك في عينيه فأعجبت بنفسها وتنكرت لزوجها واصبحت حياتها جحيما لا يطاق ، فذهب الى النبي ليطلقها ، فقال له امسك عليك زوجك واتق الله في معاشرتها قال له ذلك وهو يخفي غرامه بها وحبه لها على زعم هؤلاء الذين يحاولون بكل ثمن ان يخلقوا في تاريخ النبي ولو ثغرة لينفذوا منها الى التضليل والتشهير والافتراء عليه .

ومضى هؤلاء يقولون : ولما لم تعد تحسن معاشرته ، ولم يعد هو من جانبه يستطيع ان يتحمل منها هذا الجفاء فارقها على كره منه وتزوجها النبي ، واباح بذلك لنفسه ما حرمه على غيره من سائر الناس إرضاء لهواه واستجابة لشغفه بهذا النوع من الملذات على حد تعبيرهم .

ويمضي المبشرون والمستشرقون ودعاة الصهيونية العالمية يطلقون لخيالهم العنان ليخلقوا من طلاق زيد بن حارثة لزوجته وزواج النبي منها بعد ذلك قصة غرامية كان محمد بن عبد الله بطلها الأول المفتون بالمرأة ومحاسنها .

وليس بغريب على هؤلاء وامثالهم من دعاة المسيحية والصهيونية ودعاة الالحاد من شرقيين وغربيين ان يقفوا هذا الموقف العدائي للاسلام وبني الاسلام لأن الاسلام وحده من بين الأديان الموجودة في هذا العالم هو الذي يستطيع فيما

لو رجع المسلمون اليه واخذوا بأصوله ومبادئه وتعاليمه ان يضع حداً للجشع والاستغلال ويناصر المظلومين والمعذبين وينشر العدل والرخاء والأمن والسلام في كل بقاع الأرض ويكشف زيف مخططاتهم التي ضللوا بها الملايين من الناس ، بما في اصوله وتعاليمه وتشريعاته من اصالة وواقعية يستمدها من لدن حكيم خبير لينعم الانسان بالأمن والرخاء والعدل وحرية القول والعمل في كل ما يعود عليه بالخير ولا يسيء الى غيره من الناس .

ليس بغريب ان يقف هؤلاء وأسيادهم هذه المواقف المسعورة من النبي العظيم وإنما الغريب المؤسف ان يأخذ كتاب السيرة واكثر المحدثين بتلك المرويات الموضوعة التي تتحدث عن الكيفية التي انتهى اليها زواج النبي (ص) من زينب وبقية زوجاته اللواتي بلغن تسعاً او اكثر على زعم المؤرخين بدون تحقيق في اسانيدها ولا تدبر لمضامينها ، وجاءت اكثر المؤلفات في التفسير تعتمد على تلك المرويات وبنت عليها تفسير الآيات ومناسبات نزولها .

وقد اكد الرازي في تفسيره ان المراد من قوله تعالى﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ﴾ انك تخفي رغبتك في التزوج بها إذا طلقها زوجها ، وأضاف الى ذلك في تفسيره قوله : ﴿ **ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل** ﴾ (سورة الأحزاب ٣٨) ، اضاف ان الله يشير بقوله سنة الله في الذين خلوا من قبل الى قصة داود النبي حيث افتتن قبلك بامرأة اوريا وهو احد أتباعه[١] .

ومعنى ذلك كما يزعم الرازي انك لست وحدك الذي احببت زينب وافتتنت بها وهي مع زوجها ، فلقد سبقك الى ذلك داود النبي حيث افتتن بزوجة احد أتباعه المعروف بأوريا .

وقد تعلق المستشرقون وغيرهم من اعداء الاسلام بهذه التأويلات لتركيز حملاتهم المسعورة على النبي (ص) في حين ان ظواهر الآيات التي تعرضت لزواجه من زينب وسياقها يأبى ما ذكره الرازي وغيره اشد الإباء ، والمتتبع

---

(١) انظر الرازي جزء ٢٥ ص ٢١٢ و١١٣ .

لتاريخ حياة النبي وكيفية زواجه من زينب وغيرها يقطع بأن زواجه منها ومن غيرها كانت دوافعه إنسانية صرفة قبل ان تكون لإشباع شهواته او لمصالح اخرى .

وإذا أباح بعض الكتاب من المسلمين في بعض العصور لأنفسهم ان يقولوا ان محمداً كان يتزوج بدافع من شهواته ، إذا اباحوا لأنفسهم ان يقولوا ذلك عن جهل بواقع محمد (ص) ليصوروه بأنه كان عظيما في كل شيء حتى في هذا النوع من الشهوات ، فذلك تصوير خاطىء يأباه تاريخ محمد (ص) اشد الاباء وتأباه حياته كلها .

قال العقاد في كتابه عبقرية محمد : ولو كانت لذات الحس هي التي تسيطر على زواج النبي (ص) بعد زواج خديجة ، لكان من الأحجى بإرضاء هذه الملذات ان يجمع اليه تسعاً من خيرة الفتيات الأبكار اللواتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية وبلا شك لو أراد ذلك لأسرعن اليه هن وأولياؤ هن ووجد أولياؤ هن انفسهم فخورين بهذه المصاهرة التي لا تعلوها صلة من الصلات .

لقد كان محمد بن عبد الله معروفاً في صباه الى كهولته بالعفة البالغة ، فلم يعرف عنه انه استسلم للملذات في ريعان صباه ، ولا لهاكما كان يلهو غيره من الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا تبيحه الشرائع والأديان ، بل كان وهو في ريعان فتوته ووسامة طلعته وكمال رجولته معروفاً بالطهر والأمانة والجد والرصانة ، وحينما قام بالدعوة على كثرة شانئيه وضراوتهم في خصومته ومقاومته لم يستطع احد ان ينسب اليه شيئاً يسيء الى سمعته ولم يقل احد بأنه كان ممن يستهويه الجمال وتسيطر عليه مفاتن المرأة ولو كان فيه شيء من ذلك لظهر عليه وهو في تلك المرحلة من مراحل حياته ، ولحدثنا التاريخ عن العشرات من اخصامه الألداء تقول للناس : ان هذا الداعية الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات لقد كان بالأمس القريب مسيراً لشهواته وملذاته .

لقد تزوج من خديجة رضوان الله عليها وهو في الثالثة والعشرين او الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يحدث احد بأنه كان يعرف النساء قبلها ، وكانت هي قد تخطت الأربعين ، وظلت وحدها زوجته المفضلة على جميع النساء طيلة ثمانية وعشرين عاماً ، في حين ان تعدد الزوجات كان مألوفاً عند العرب وغيرهم بدون تحديد في الغالب ، وفي حين انه كان له اكثر من مندوحة لأن يتزوج عليها لا سيما وانه لم يسلم له من اولاده منها غير الاناث ، وعد ذلك المشركون نقصاً فيه وسموه بالأبتر يعنون بذلك انه لا عقب له والأنثى لا تعد عقباً عندهم ، ومع ذلك فقد بقيت معه الى ان توفيت وهي في حدود السابعة والستين من العمر ، لم يفكر في الزواج من غيرها خلال تلك المدة الطويلة ، كما لم يعرف عنه خلال ذلك وقبل ذلك انه ممن تغريه مفاتن النساء في وقت لم تكن المرأة تحجب محاسنها عن احد من الناس .

ومن غير المعقول ان ينقلب انساناً آخر وقد تخطى الخامسة والخمسين تغريه امرأة بمفاتنها وهي متزوجة من غيره ، بل هي بمنزلة ابنته رباها صغيرة ورعاها كبيرة ، ويعرف من جمالها وصفاتها اكثر من أي كان من الناس ، لأنها ابنة عمته ، وهو الذي اختار لها هذا الزواج وكانت كارهة له هي واخوها عبد الله ، ولولا ان الله سبحانه قد هددهما وحذرهما من مخالفته لم تكن لتقدم عليه كما جاء في الآية :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (الأحزاب ٣٦) .

عند ذلك نزلت على ارادته وتزوجت من ذلك الرجل الصالح الذي سبق الناس جميعهم الى الاسلام بعد علي وجعفر ابني ابي طالب ، وبعد زواجها لم تكن في اكثر الأحيان بعيدة عن النبي ولا كانت لتستر عنه الا ما حرمه الله سبحانه عليه وقد كان يراها وتراه في اكثر الاحيان ، فهل من المعقول بعد ذلك ان يفتتن بها وينقلب إنساناً آخر تستبد به الشهوات التي لم تستبد به قبل نبوته ، ايام صباه وشبابه ، وهما من اشد الأدوار وأدقها على الانسان عند الغالبية

العظمى من الناس ، وفي الوقت الذي طلقها زوجها كان عنده خمس من النساء ومن بينهن عائشة وهي لا تزال في حدود الخامسة عشرة من عمرها .

وكانت اول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة سودة بنت زمعة ارملة السكران بن عمرو بن عبد شمس ، ولم يرد عن احد من الرواة انها كانت من الجمال والثروة والجاه ما يحمله على الزواج منها لمطمع في متع الدنيا ، بل كان زواجه لأن الرجل لا بد له من زوجة وفي الوقت ذاته فقد كانت من السابقات الى الإسلام وعانت هي وزوجها ما عاناه المسلمون الأوائل من المشركين وهاجرت معه الى الحبشة وفيها توفي زوجها، ولم يكن لها من خيار إلا البقاء في ارض الحبشة بلا كفيل او معين او الرجوع الى اهلها وهم لا يزالون على شركهم وقد يضطرونها الى الرجوع عن الاسلام ، فكان زواجه منها بالاضافة الى حاجته الملحة الى النساء تعويضاً عما لحقها من الاذى ومما كانت تعانيه من الحاجة ، وفي الوقت ذاته تأليفاً لأهلها الذين كانوا من اعدائه الألداء .

وإذا استعرضنا البقية من زوجاته كأم سلمة التي قد تخطت الشباب ، وقد أراد كما ذكرنا ان يعوض عليها ويضمها هي وأولادها الى عائلته تقديراً لمواقف زوجها الخالدة في سبيل الاسلام وكانت مثالاً للمرأة الصالحة طيلة حياتها كما ذكرنا .

وجويرية بنت الحارث وقد تزوجها بعد إعتاقها فأعتق المسلمون جميع ما بأيديهم من أسرى قومها تكريماً لها ، وأسلم بعد هذه المصاهرة خلق كثير من قومها على حد تعبير المؤلفين في سيرة الرسول .

ورملة بنت ابي سفيان التي أسلمت هي وزوجها في مكة بالرغم من عداوة ابيها للاسلام وهاجرت معه الى الحبشة وتوفي فيها ولم يعد لها ملجأ غير ان ترجع الى ابيها عدو الاسلام والمسلمين وإذا رجعت واصرت على الاسلام فلا بد ان تتعرض لأشد انواع الأذى والتعذيب من أبيها وأتباعه .

وجاء في اكثر المرويات ان زوجها تنصر في الحبشة وتركها وهي غريبة

وليس لها معيل ، فأرسل النبي (ص) الى النجاشي وطلب منه ان يزوجه منها لينقذها من الغربة وضياع القرين .

ومن الجائز ان يقصد النبي من زواجه منها ان يتألف ابا سفيان كما تألف غيره بالاتصال بهم بالمصاهرة .

وعلى اي الأحوال فالباحث في تاريخ النبي بتجرد ونزاهة يخرج وهو على يقين بأن النبي لم يكن في اي مرحلة من مراحل حياته يبالي بالملذات والشهوات ومفاتن النساء وغير ذلك من متع الدنيا ومظاهرها .

ولو افترضنا ان النبي كان يتزوج بالدوافع الطبيعية الموجودة في جميع الناس باعتباره إنساناً لم يفقد غريزة الجنس كما فقدها السيد المسيح ، وكان يحب المرأة ليلبي رغبة الطبيعة ، فأي ضير في ذلك ما دامت المرأة وغيرها لم تشغله عن اي عمل من اعماله صغيراً كان ام كبيراً وعن المضي في توطيد دعائم الاسلام ونشر تعاليمه ومكافحة اعدائه الذين تألبوا عليه من كل حدب وصوب .

وان في تاريخه لعشرات الشواهد والأدلة على انه لم يستسلم في يوم من الأيام للملذات ، فكان لا يأكل غير خبز الشعير ، واحياناً لم يكن يملك غير قوته فيبذله للفقراء ويبقى طاوياً ليس لديه ما يسد الرمق وقد اوشك ان يطلق بعض نسائه لانهن طلبن منه المزيد من النفقة ، وخيرهن اكثر من مرة بين الطلاق والرضا بحياة التقشف كما تشير الى ذلك الآية :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتعكن وأُسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيماً ﴾ (الأحزاب ٢٨ ـ ٢٩) .

ومجمل القول فيما يتعلق بزواجه من زينب بنت جحش ابنة عمته هو انها منذ ان نشأت كانت في رعايته كإحدى بناته ولما بلغت السن التي تؤهلها من الزواج خطبها منه الأشراف من المسلمين فلم يوافق على زواجها من احد ،

وكان زيد بن حارثة مملوكاً لخديجة فوهبته للنبي ، فأعتقه وبقي عنده مسلماً مؤمناً مخلصاً في اسلامه فتبناه رسول الله ، وأرادها النبي (ص) ان تكون زوجة لزيد مولاه حتى لا يستنكف احد بعد ذلك ان يزوج من هو دونـه في الجاه والنسب لأن الاسلام لا يعتد إلا بالتقوى والأعمال الصالحات ، وزيد كـان من افضل المسلمين في دينه وإخلاصه .

ولما عرض عليها الأمر انفت نفسها من ذلك ورأت هي وأخوها عبد الله ان ذلك عار لم يقدم على مثله احد من العرب ، ولكن النبي اصـر على ذلـك ليكون هو اول من يخرج على تلك التقاليد ويباشر بهدمها ، وظلت هي واخوها على موقفهما المتصلب ، ولما نزلت الآية الكريمة بهذا الخصوص :

﴿ وما كان لمؤمن ولا لمؤمنـة اذا قضى الله ورسولـه امراً ان يكـون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾ .

بعـد هذه الآيـة لم يبق لعبد الله واختـه إلا الاذعان والتسليم لأمـر الله ورسوله ، واتم النبي الزواج وبذل لها المهر وهاجرت معه حين هاجر ، ولكنها لم تلن له ، ولم تستطع ان تتخلص من تلك الرواسب التي كان العرب يغالون في التمسك بها ، وكانت تؤذيه احياناً وتفتخر عليه بأصلها ونسبهـا حيناً آخـر وهو يتحمل منها بمرارة واحيـاناً يشكـوها للنبي ويبـدي له رغبتـه في التخلص منها ، والنبي ينهاه عن ذلك ويتمنى عليها ان تكف عن ايذائه وتتناسى اخلاق الجاهلية وعاداتها التي لم يقـرها الاسـلام . ولكن النفوس مهـما سمت وطابت فمن الصعب ان تتخلص مما ترثه عن الآباء والاجداد بتلك السرعة ، لا سيما وانها قد تجد من مثيلاتها من يثرن في نفسها الاعجاب بأصلها ونسبها والتـرفع عن مثل هذا النوع من الزواج ، وظلت بـين الحين والآخـر وتعترض حيـاتهما بعض المشاكل فيعود الى النبي ويشكوها ويبدي رغبته في التخلص منها والنبي يـأبى عليه ذلـك ، واخيراً تـأزمت حياتهـما واصبحت أشبه بـالجحيم ، وكان الطلاق هو الحل الأخير ، وتم الطلاق بينهما .

وبالرغم من ان الطلاق كان محققاً لرغبتها فقد ادخل عليها ألماً وغماً بالرغم من انها قد تخلصت من ذلك الزواج الذي كان على خلاف رغبتها ، ولما كان النبي (ص) هو السبب لكل ما تحسه من الآلام اراد ان يتدارك ذلك ، ولا شيء يزيل ما بنفسها ويعوض عليها إلا إذا تزوجها وضمها الى نسائه .

لقد ذكر في ذلك وحدث به نفسه ، ولكنه خشي ان يقول الناس ان محمداً قد تزوج من زوجة ابنه ، والناس يوم ذاك ينزلون الأدعياء منزلة الأولاد ، فأنزل الله عليه ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ﴾ اي ان ما تخفيه سيحققه الله ، ولا حرج عليك فيما احله الله وإن لم يكن مألوفاً عند الناس ، وتخشى الناس والله احق ان تخشاه ، اي لا ينبغي لك ان تمتنع من زواجها مراعاة لما هو المألوف عند الناس ، ما دام فيه رضا لله سبحانه ، وستكون قدوة لغيرك في التزويج من نساء ادعيائهم ، لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولاً .

ثم نفى بنوة زيد للنبي (ص) بقوله :

﴿ **ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ (الأحزاب ٤٠) .

فليس في الآيات التي تعرضت لزواجه من زينب اشعار بما تضمنته مرويات بعض المفسرين وكتاب السيرة ، ولا بما تشدق به المستشرقون والمبشرون ودعاة الصهيونية ، بل تفيد الآيات والروايات الصحيحة ان طلاق زيد لها كان نتيجة لصراع بينهما يتصل بتاريخ زواجهما .

وقد حاول النبي اكثر من مرة ان يهون على زيد ويحد من اباء زينب وغطرستها عليه ولكنه لم يفلح في ذلك وكان الفراق آخر علاج لإنقاذ حياتهما من التردي والشقاء .

ولا صحة لكل ما جاء حول هذا الموضوع في التفاسير والتاريخ ولا تؤيده ظواهر الآيات التي نزلت بهذا الخصوص ، وتم زواج النبي منها بتلك الدوافع

الشريفة التي ذكرناها وهو ان دل على شيء فإنما يدل على ارفع مراتب النبل والرحمة والخلق الكريم[1] .

تعدد الزوجات في الاسلام وغيره من الأمم

وبعد ان انتهى بنا البحث الى الحديث عن ازواج النبي وقصة زواجه بزينب رأيت ان اشير ولو بإيجاز الى تعدد الزوجات في الاسلام الذي يحاول اعداء الاسلام ان يتخذوا منه منفذاً الى انتقاص الاسلام والتشويش عليه ، ولا بد لي من التمهيد الى ذلك بالاشارة الى تعدد الزوجات عند العرب وغيرهم من الأمم السابقة ومواقفهم الجائرة من المرأة الى حدود القرن التاسع عشر .

قال الأستاذ محمد عطية الأبرشي في كتابه عظمة الرسول : كان اليونان في قديم الزمان اكثر الأمم حضارة ومدنية ، وكانت اثينا مدينة الحكمة والفلسفة والطب ومع ذلك فقد كانت المرأة اليونانية لديهم تباع وتشترى وكأنها سلعة من السلع التجارية ، بل كانت بنظرهم رجساً من عمل الشيطان لا يسمح لها ان تتعاطى غير شؤون البيت وتربية الأطفال ، ويحق للرجل ان يتزوج اكبر عدد من النساء بلا قيد او شرط .

وفي مدينة اسبرطة من اليونان لم يكن يسمح للرجل ان يتزوج اكثر من امرأة واحدة ، في حين انه يباح للمرأة ان تجمع بين زوجين او اكثر واعتادت الأكثرية من نساء اسبرطة على ذلك .

---

(١) لقد اعتمدنا فيما كتبنا عن ازواج النبي وزواجه من زينب على « حياة محمد » لهيكل (وعبقرية محمد) للعقاد وكتابنا (عقيدة الشيعة الامامية) .

اما الرومان فقد كان تعدد الزوجات منتشراً بينهم بالرغم من ان القانون لم يقرهم على ذلك ، وظلت المرأة الرومانية تقاسي من ذلك الى ان جاء جوستنيان ، فسن القوانين التي تمنع من تعدد الزوجات ولكن الأكثرية الرومانية لم تبال بتلك القوانين ، واستمر الناس وحتى الحكام يلبون رغباتهم الجنسية بتعدد الزوجات ، وتساهل رجال الدين في ذلك فسمحوا لمن يريد ان يتزوج بأكثر من واحدة واعطوه ترخيصاً بذلك ، واستمر الحال على ذلك عند الرومانيين الى ما بعد ظهور الاسلام بزمن طويل .

اما المرأة عند اليهود فكانت بمنزلة الخادم فيسمحون للأب ان يبيع ابنته الصغيرة بثمن يتفق عليه مع المشتري ، وهي مع ذلك لا ترث من مال أبيها إلا اذا لم يترك احداً من الأبناء الذكور ، وأضاف الى ذلك ان التاريخ القديم ينص على ان المشركين قبل الاسلام يعددون الزوجات بدون نظام او تحديد للعدد ، فللرجل منهم ان يتزوج العشرين والثلاثين ، وبقي ذلك منتشراً بين العرب الى قبيل الاسلام .

ويدعي الأستاذ الأبرشي ان بني اسرائيل كانوا يبيحون تعدد الزوجات وكان منتشراً بينهم قبل عصر موسى ، وحينما ارسل اليهم موسى استمروا على ذلك وتزوج موسى بأكثر من زوجة ، كما تزوج داود النبي عدداً كبيراً من النساء ، ومضى يقول ان تلمود اورشليم جعل تعدد الزوجات مقصوراً على القادرين على الانفاق على زوجاتهم بسعة ، ونصح علماء اليهود بأن لا يتزوج الرجل اكثر من اربع زوجات ، في حين ان طائفة تعرف بطائفة القرائين لم يعترفوا بشرعية تحديد العدد ، لأن ديانة بني اسرائيل تبيح للرجل ان يتزوج اكبر عدد من الزوجات من غير تحديد او حصر .

اما الفرس القدامى فكانت ديانتهم تمنح جائزة تشجيعية لمن يتزوج اكثر من زوجة ، ولمن يجمع بين اكبر عدد من الزوجات ، واستطرد يقول : بعد ان انتشرت المسيحية في العالم الروماني كان تعدد الزوجات منتشراً ومعترفاً به حتى في ايام السيح عيسى بن مريم ، ولم يمنع تعدد الزوجات الا

القوانين المدنية التي وصفها جوستنيان بالقوانين الدينية ، ومع ذلك فقد استمر تعدد الزوجات وظل منتشراً ومعمولاً به لدى اكثر الرومانيين المسيحيين حتى اصدر المجتمع الحديث قانوناً يعاقب من يتزوج اكثر من واحدة .

واستطرد يقول : ان المرأة العربية كانت تعد جزءاً من ثروة الرجل ، وكان ابنه يرثها بمجرد ان يلقي عليها ثوباً ، فإذا اراد ان يتزوجها كان له ذلك بدون ان يسوق لها مهراً وله ان يزوجها من غيره ويستوفي مهرها ، وله ان يمنعها من الزواج ليكون الوارث الوحيد لها الى غير ذلك من الوان التعذيب والامتهان التي كانت تلاقيها المرأة عند جميع الأمم .

بل كانوا لا يرونها انساناً ولا تستحق ان تعامل معاملة الانسان ، وفي سنة ٩٥٨ ميلادية عقد اجتماع في فرنسا بين قادة الفكر للنظر في ماهية المرأة ، وبعد نقاش حاد وجدال بين جميع الحاضرين قرر المجتمعون انها انسان ، ولكنها خلقت لتخدم الرجل لا غير .

في حين ان الاسلام في الوقت الذي كانت تعامل فيه بتلك القسوة عند جميع الامم منحها جميع حقوقها وجعلها في مستوى الرجل في جميع الحقوق والواجبات ، في حدود الصون والعفاف والطهارة والخلق الكريم ، وقال : لهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، واعطى لكل منهما الحق في ان يتعلم ويعلم ، فقال : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقال (ص) خيركم عند الله خيركم لعياله ، وفرض على الرجل ان ينفق عليها بما يتناسب معها ولو كانت تملك الملايين ، وإذا اراد ان يطلقها فعليه ان يدفع لها مهرها بكامله بالغاً ما بلغ كما نصت على ذلك الآية :

﴿ وإن اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (النساء ٢٠) .

الى كثير من امثال تلك التشريعات التي تحفظ لها حقها وتصون لها كرامتها وشرفها وعفافها .

اما تعدد الزوجات فالاسلام ليس هو الدين الوحيد الذي اباح التعدد كما يدعي اعداء الاسلام الذين يحاولون بكل الوسائل الافتراء عليه ، بل هو الدين الوحيد الذي نظم شؤون الزواج وحدد تعدد الزوجات عند وجود المبررات للتعدد كالقدرة على الانفاق والعدالة بين الزوجات ، فان خاف الظلم وعدم القدرة على الانفاق والميل الى واحدة منهن اكثر من الاخرى بنحو يضر بها فليس له ذلك كما تدل على ذلك الآية التي حددت تعدد الزوجات واحاطته بتلك القيود والشروط التي يتعسر في الغالب على الانسان ان يطبقها على وجهها الصحيح ، فقال سبحانه في الآية من سورة النساء :

﴿ وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم انه كان حوباً كبيراً * وإن خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع * فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم ذلك ادنى الا تعولوا ﴾ (النساء ٢ - ٣) .

وجاء في الآية ١٢٩ **﴿ ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾** (النساء ١٢٩) .

وجاء في تفسير الآية ان الحروب والغارات كانت تنشب بينهم بين الحين والآخر ويكثر القتل بينهم فيأخذون يتامى النساء واموالهن ويتزوجون بهن ويأكلون اموالهن ثم يتركونهن بلا مال ولا معيل ، فنهاهم الله عن ذلك وأباح لهم ان يأخذوا من النساء مثنى وثلاث ورباع ويتركوا اليتامى وشأنهم اذا لم يقسطوا فيهن ، واكد عليهم في اكثر من آية ان يجتنبوا اموال اليتامى ، فقال في الآية من سورة النساء :

﴿ وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم انه كان حوباً كبيراً ﴾ .

الى غير ذلك من الآيات التي تؤكد حرمة التصرف في اموال اليتامى بما لا يعود عليهم نفعه ثم عقب الآية التي اباحت للانسان مثنى وثلاث ورباع بما

يحفظ للمرأة حقها ويصون لها كرامتها ، فقال ﴿ **وإن خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم** ﴾ ، أي ان خفتم ألا تعدلوا في الحرائر واقتضت مصلحتكم التعدد فعليكم بالإماء فإن الأمر فيهن أسهل من الحرائر وقيل في تفسير الآية غير ذلك .

اما فيما يعود الى النبي وتعدد زوجاته ، فقد ذكرنا في اول هذا الفصل ان الغرض من زواجه لم يكن اشباع شهواته الجنسية فحسب كما يتصور الكثير من الناس والحمقى من المسلمين ، وليس ادل على ذلك من انه في ايام شبابه التي هي من اشد المراحل في حياة الانسان كان منصرفاً عن الزواج والملذات ومتع الدنيا انصرافاً كاملاً ، ولم يستطع اشد العرب عداوة له ان يتهموه بشيء من هذا النوع ، وقد تزوج بخديجة وهي في الأربعين وظلت زوجته الوحيدة اكثر من خمسة وعشرين عاماً لم يعرف غيرها ، وبعد وفاتها وهو في السابعة والخمسين تزوج بعدد من النساء كن متقدمات في السن لا معيل لأكثرهن ، فشق عليه بعد ان اصبحن بلا معيل وكفيل ان يراهن يتعرضن للاذلال والمهانة فأراد ان ينقذهن مما كن فيه من البلاء والفاقة ، وكما ذكرنا سابقاً فإنا لا نريد من ذلك ان ندعي ان الغاية من زواجه كانت لهذا السبب وحده بل يمكن ان يكون لأسباب اخرى فرضتها مصلحة الاسلام العليا .

وإذا اضفنا الى ذلك ما نقله الرواة عن حياته الخاصة وكيف كان يقضي نهاره في الكفاح والجهاد لإعلاء كلمة الله وإرساء دعائم الاسلام ، وليله في العبادة وتلاوة كتاب الله كما وصفه الله في كتابه بقوله : ﴿ **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ .

وبقوله: ﴿ **ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم** ﴾ (المزمل ٢٠) .

اذا اخذنا هذه الناحية بعين الاعتبار ، لم يعد لدينا من شك في انه كان منصرفاً عن الملذات الجسدية الى النـواحي الروحيـة التي لا يعادلهـا شيء من متع الدنيا وملذاتها ، وبخـاصة عنـد من عرفـوا الله وانكشفت لديهم الحجب وايقنوا بما عند الله من الجزاء العاجل والنعيم الـدائم كالأنبيـاء الهداة والأئمـة الكرام .

على ان في النفس شيئاً حـول العدد المـوجود في كتب السيـرة والتاريـخ لـزوجات النبي (ص) ومجـرد اتفاق المؤرخـين على امـر ما لا يـوجب الجزم الذي لا يقبل المراجعة .

الفصل الرابع عشر

غزوة بني المصطلق

هذه الغزوة ذكرها اكثر المؤرخين والمؤلفين في السيرة من حوادث السنة السادسة للهجرة وفي الشهر السابع منها بالذات ، ونهج على ذلك ابن هشام في سيرته ، وابن كثير في تاريخه والطبري وغيرهم ، ولكن ابن سعد في طبقاته ذكرها من حوادث السنة الخامسة وأيده في ذلك ابو الفداء في تاريخه ، ورجح ذلك بعض المحدثين منهم الزرقاني كما جاء في التعليقة على سيرة ابن هشام ، وأيد هؤلاء رأيهم بأن حديث الإفك كان بعد رجوع المسلمين من تلك الغزوة ، وحصل نزاع بين السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حول هذا الموضوع بالذات ، مع العلم بأن سعد بن معاذ قد توفي بعد ان حكم على بني قريظة بالقتل كما اجمعت على ذلك المؤلفات في السيرة وكان ذلك من حوادث السنة الخامسة لهجرة النبي ، ولو كانت هذه الغزوة من حوادث السنة السادسة لم يبق وجه لما جاء حول حديث الإفك عن سعد بن معاذ لأن وفاته تكون على هذا التقدير قبل غزوة بني المصطلق التي كان حديث الإفك في اعقابها .

وعلى اي الأحوال فكل من ذكرها في حوادث السنة السادسة يبدو عليه التردد وعدم الجزم لأنهم عقبوا على ذلك بقولهم : وقيل انها كانت في حوادث

السنة الخامسة .

ومجمل القول فيها كما جاء في كتب السيرة من حديث الواقدي وابن سعد وغيرهما ان الحارث بن أبي ضرار دعا قومه خزاعة ومن في جوارهم من الأعراب الى غزو المدينة ، ولما بلغ خبرهم رسول الله بعث بريدة بن الحصيب ليكشف له خبرهم فاستأذنه بريدة ان يقول ما يشاء لإنجاح مهمته فأذن له النبي (ص) ومضى بريدة اليهم ، ولما انتهى الى المكان الذي تجمعوا فيه ، قالوا له من الرجل : فقال رجل منكم قدمت عليكم بعد ما بلغني انكم تعدون العدة وتتأهبون لغزو هذا الرجل يعني بذلك النبي ، فإذا صح الخبر فأنا معكم بمن اطاعني من قومي لنكون يداً واحدة عليه ولعلنا نستأصلهم .

فرحب الحارث به وطلب اليه التعجيل بمن معه من قومه ، فرجع الى رسول الله (ص) واخبره بحالهم فندب رسول الله (ص) الناس اليهم لليلتين خلتا من شعبان كما جاء في كتب السيرة فأجابوه الى ذلك وخرج معه في هذه الغزوة جماعة من المنافقين طمعاً في الغنائم وخرج رسول الله بمن معه حتى بلغ ماء يقال له المريسيع وكانوا قد تجمعوا عليه واعطى راية المهاجرين في هذه الغزوة لعمار بن ياسر ، وراية الأنصار لسعد بن عبادة واصاب عيناً للمشركين كان قد وجهه الحارث ليأتيه بخبر رسول الله فعرض عليه النبي ان يسلم فأبى عليه فأمر بقتله ، وزحف كل من الفريقين للآخر واحتدم القتال بينهما فقتل منهم عشرة ووقع الباقون في ايدي المسلمين اسارى ، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد قتله بعض المسلمين خطأ .

وجاء في سيرة ابن هشام ان علياً (ع) قتل رجلين من بني المصطلق واسرهم النبي (ص) مع نسائهم واستولى على مواشيهم واموالهم ، وكانت الابل ألفي بعير والغنم خمسة آلاف شاة واسر مائتي عائلة ومن بينهم جويرية بنت الحارث ، وحينما قسّم رسول الله الغنائم وقعت في سهم ثابت بن قيس ابن الشماس ، وكانت عزيزة في قومها .

ويدعي ابن هشام في سيرته وابن كثير في تاريخه وغيرهما انها كاتبته في فداء نفسها فأتت رسول الله تستعين به في فدائها ، وحدث جماعة عن عائشة انها قالت لقد رأيت جويرية على باب حجرتي فكرهتها وعرفت بأنه سيرى منها رسول الله ما رأيت من جمالها فدخلت عليه وقالت له : يا رسول الله انا جويرية بنت الحارث بن ابي ضرار سيد قومه ، وقد اصابني من البلاء ما لم يخف عليك ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن الشماس وقد جئتك استعينك على كتابتي فقال لها افهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: اقضي عنك كتابتك واتزوجك فرحبت بذلك ، وتم زواجه منها بعد ان أعتقها كما جاء في بعض المرويات .

ولما بلغ المسلمين حديث زواجها من رسول الله ارسلوا من كان بأيديهم من الاسرى ، وهم اكثر من مائة اهل بيت كانوا لا يزالون في ايدي المسلمين بدون فداء على حد تعبير الرواة ، وعقب على ذلك ابن هشام بأنه لا يعلم امرأة كانت اعظم بركة على قومها منها إلا انها كانت السبب في اسلامهم وخلاصهم من الأسر .

وقيل ان اباها جاء الى النبي يطلبها منه فردها عليه ثم تزوج منها وقيل غير ذلك .

وقد ادرك المسلمون في هذه الغزوة نصراً مظفراً بدون ان يكلفهم سوى قتيل واحد قتله احد المسلمين خطأ كما ذكرنا ، ولم يحدث فيها ما يعكر صفو المسلمين سوى ما جاء في كتب السيرة من ان خادماً لعمر بن الخطاب كان يستقي من ماء المريسيع ازدحم على الماء مع مولى لبني عوف من الأنصار وكادا ان يقتتلا ، فاستغاث مولى عمر بن الخطاب بالمهاجرين ، ومولى بني عوف بالأنصار فاجتمع الطرفان وكاد الشر ان يقع بينهما .

واستغل هذه الحادثة عبد الله بن ابي وكان في جماعة المنافقين ، وفيهم زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال ابن ابي لقد كاثرونا في بلادنا ، اما

والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وأقبل على قـومه يحثهم ويحرضهم على التنكر للرسول واصحابه، فذهب زيد بن ارقم واخبر الرسول بمـا سمع من عبـد الله بن ابي وعنده عمـر بن الخطاب ، فـدعا الى قتـل عبد الله بن ابي فأنكر عليه النبي ذلك وقال له يا عمر اتريد ان يتحدث الناس بأن محمداً قتل اصحابه ، ثم امر بالرحيل في سـاعة لم يكن ليـرحل بهـا لولا تلك الحـادثة ، ومشى بـالنـاس طـوال الليـل وشـطراً من اليـوم الثـاني حتى آذتهم الشمس فنـزلوا وقـد انهكهم السير ، فلما استـراحوا تـابع مسيـرته الى المـدينة ونزلت سورة المنافقين كما جاء في تاريخ ابن خلدون .

ولما سمع عبد الله بن عبد الله بن ابي بمقالة أبيه تبرأ منه وجاء الى النبي وقـال يـا رسـول الله انت والله الأعـز وهـو الأذل : وإن شئت اخـرجتـه من المدينة ، ثم اعترض اباه قبل دخولها وقال له : والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله فأذن له النبي (ص) ودخلها مـع الناس ثم قـال ولده عبـد الله : بلغني يا رسول الله انك تريد قتل ابي وإني أخشى ان تأمر احداً بقتله فتدعوني نفسي الى الثـأر منه ، وإن قتلت قـاتله اكون قـد قتلت مسلماً بكافـر ، ولكن مرني بذلك فأنا والله مستعد لأن آتيك برأسه فجزاه رسول الله خيراً وقال له : لا يصل الى ابيك سوء ابداً ولنحسنن صحبته ما دام بين اظهرنا .

وجاء في بعض المرويـات ان جماعـة قالـوا لعبد الله بن ابي : اذهب الى رسـول الله ليستغفر لـك فلوى رأسه تـرفعاً واستخفـافاً بـذلك القـول ونزلت الآيات من سورة المنافقين بهذه المناسبة :

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسـول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (المنافقون ٥) .

ويـدعي المؤلفـون في سيـرة النبي (ص) ان النبي بعـد ان اسـر بني

المصطلق وتزوج من جويرية ابنة زعيمهم وترك المسلمون ما بأيديهم من الأسرى تكريماً لها اسلم زعيمهم الحارث واخذ الاسلام ينتشر بينهم ، وبعد عامين من اسلامهم كما جاء في تاريخ ابن خلدون بعث النبي الوليد بن عقبة بن ابي معيط ليجبي صدقاتهم فخرجوا يتلقونه فخافهم على نفسه فرجع الى رسول الله واخبره ان القوم قد هموا بقتله وامتنعوا عن اعطائه الصدقات فأكثر المسلمون الحديث عنهم وأشاروا على النبي بغزوهم ثانية ، وظلوا يلحون على رسول الله حتى هم بذلك ،وفيما هم في الحديث عن غزوهم وإذا بوفد منهم أقبل على المدينة ليبين للنبي حقيقة ما جرى ، وحلفوا له بأنهم لا يزالون على اسلامهم وقد خرجوا لاستقباله لا لقتله كما يدعي الوليد بن عقبة .

ونزلت الآية من سورة الحجرات لتؤكد للنبي صدقهم وهي قوله تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ (الحجرات ٦) .

وفي مجمع البيان المجلد الخامس بعد ان نقل القول الأول في نزول الآية قال وقيل انها نزلت فيمن قال لرسول الله (ص) ان مارية ام ابراهيم يأتيها ابن عم لها قبطي ، فدعا رسول الله (ص) علياً وقال له : يا اخي خذ هذا السيف فان وجدته عندها فاقتله فقال علي (ع) يا رسول الله اكون في امرك اذا ارسلتني كالسكة المحماة امضي لما امرتني به ام الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فقال بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب .

قال علي (ع) فأقبلت متوشحاً بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلما عرف اني أريده صعد الى نخلة ثم رمى بنفسه وشفر برجليه فإذا هو اجب امسح ما له مما للرجال قليل او كثير ، فرجعت واخبرت النبي

بذلك ، فقال الحمد لله الذي يصرف عنا السوء اهل البيت ونزلت الآية[1] .

حديث الافك

في هذه الغزوة اثناء رجوع النبي (ص) منها تحدث الناس عن عائشة بما يمس شرفها ويسيء الى سمعتها ، واستغل المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن ابي ما تحدث به الناس فروجه بقصد ايذاء النبي وإيقاع الفتنة بين المسلمين .

ويتلخص ما جاء حولها اثناء رجوعها كما تروي هي هذه القصة ومنها اخذها المحدثون ودونوها في مجاميع الحديث والتفسير والتاريخ وجميع الرواة لها ينتهون اليها ، فقد روى عنها الرواة بأن رسول الله (ص) كان اذا أراد سفراً اقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها اخرجها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق اقرع بينهن كما كان يصنع قالت فخرج سهمي فحملني رسول الله معه وكنت نحيفة خفيفة وقد اعد هودجاً لمن تكون معه من نسائه كما كان المسلمون يصنعون إذا حمل احدهم نساءه معه ، فاذا أرادوا المسير يأتون بالجمل عليه الهودج الى باب خيمة النبي فيتنحى الناس فأدخل الهودج ويأخذ الرجال به فيضعونه على ظهر الجمل ويشدونه في الحبال ، وذهبت مع النبي في تلك الغزوة على هذا الحال، فلما فرغ رسول الله من غزوته تلك ورجع منها في طريقه الى المدينة وسار بمن معه تلك المسيرة الطويلة التي استمرت يوماً وليلة وشطراً من اليوم الثاني ونزل منزلاً بات فيه ثم اذن في الناس بالرحيل .

---

(١) وكانت عائشة قالت للنبي انه لا يشبهك ولعلها هي التي قالت للنبي ان مارية يأتيها ابن عم لها من الأقباط واتهمتها به مما دعا النبي (ص) ان يرسل علياً في طلبه وكان من امره ما ذكرناه .

وجاء في كتب السيرة عنها انها في تلك الساعة التي اذن فيها بالرحيل كانت قد خرجت من خيمة النبي (ص) لبعض حاجتها ، والهودج على باب الخيمة قد اعد لها لتدخل فيه ، وكان في عنقها عقد قد انسل منها وهي تقضي حاجتها من غير ان تشعر بذلك ، فلما رجعت الى الرحل ادركت ان العقد قد انسل منها فرجعت الى حيث كانت من غير ان يعلم احد بذلك كما تزعم هي في روايتها لتلك الحادثة وفتشت عنه طويلاً حتى انهكها التعب ، وخلال تلك المدة ظن القوم انها قد دخلت هودجها فاحتملوه كعادتهم ووضعوه على الجمل وساروا به وهم لا يشكون انها في هودجها .

قالت عائشة فرجعت الى المكان الذي كانوا فيه فلم اجد احداً وظننت ان القوم سيعلمون بحالي ويرجعون مسرعين في طلبي فاخترت ان ابقى في مكاني ولا اسير على قدمي لا سيما وقد ابتعدوا مسافة عن المكان الذي كانوا فيه ، فألقيت علي جلبابي واضطجعت فيه منتظرة رجوعهم .

وفيما انا كذلك اترقب رجوعهم كما جاء في حديثها وإذا بصفوان بن المعطل السلمي يسير في اثرهم وكان قد تخلف لحاجته فبصر بي وهو يعرفني قبل ان يضرب الحجاب على نساء النبي (ص) ، فلما بصر بي اقبل نحوي وقال ظعينة رسول الله هذه ، وسألني عن أسباب تخلفي فلم اجبه ، فنزل عن بعيره وقدمه لي وتخلف ناحية ، وقال لي اركبي ، فلما ركبت البعير انطلق يقوده مسرعاً رجاء ان يدرك المسلمين قبل وصولهم فلم يدركهم ، وكانوا قد اسرعوا في مسيرتهم يريدون المدينة ليستريحوا من عناء السير ، فدخلوا المدينة ولم يفقدوني الا بعد ان حطوا اثقالهم .

ودخل صفوان المدينة في وضح النهار وانا على ظهر بعيره فأنزلني ودخلت بيتي ولم اكن اظن احداً يحتمل بي وبصفوان السلمي سوءاً .

ويروي الرواة عنها ان الظنون حامت حولها وتهامس الناس في ذلك، ولكنها لم تكن تعلم شيئاً مما يجري على ألسنة الناس ، وانتهى حديث الناس

الى رسول الله (ص) والى ابويها ابي بكر وأم رومان زينب بنت عبد دهمان ، واشتكت من عارض طرأ عليها بعد رجوعها وأنكرت من رسول الله موقفه منها وعدم عنايته بها وهي مع ذلك لا تعلم ما قيل وما يجري على ألسنة الناس .

وتضيف الروايات عنها بأنها قالت كان رسول الله (ص) اذا دخل علي وعندي امي تمرضني لا يزيد على قوله « كيف تيكم » ، في حين انه كان قبل ذلك يرعاني ويتلطف بي فضقت ذرعاً بما رأيته منه من غير ان اعلم لذلك سبباً فاستأذنته امي بأن تنقلني الى بيتها لتتولى تمريضي فأذن لها ، وانتقلت معها وفي نفسي من الدهشة لهذا الجفاء ما لم اكن اتصوره .

ويدعي الرواة عنها انها ظلت في بيت امها اكثر من عشرين يوماً في مرضها حتى برئت وهي لا تعرف شيئاً مما يدور حولها ، وظنت ان جويرية بنت الحارث وكان زواج النبي منها خلال تلك المدة وهي وسيمة جميلة قد حلت في قلب النبي محلها .

ويدعي المؤلفون في السيرة ان عبد الله بن أبي قد استغل هذا الحادث ووجد فيه ما يشفي حقده على النبي وجعل يشيعه للفتنة وإيذاء النبي وساعده على ذلك حسان بن ثابت وحمنة شقيقة زينب بنت جحش ، وعوف الملقب بمسطح ، وكانت زينب حديثة عهد بزواجها من النبي ، ومع جمالها وقرابتها منه لم تبلغ من نفسه مكانة عائشة ، وكانت حمنة تنقل اخبار عائشة لعلي (ع) وتجده سميعاً لها على زعم السيدة عائشة .

وتروي عائشة ايضاً كما جاء في كتب السيرة ان النبي (ص) قد استشار جماعة بشأنها بعد ان تناقل الناس حديثها منهم اسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب ، فاما اسامة فقد اثنى عليها خيراً وأكد للرسول براءتها من كل ما ينسب اليها ، واما علي بن أبي طالب فإنه قال له ، على حد زعمها ، يا رسول الله ان النساء لكثير وإنك لقادر على ان تستخلف غيرها .

وأضـافت الى ذلك الـرواية عن عـائشة انـه قال لـه سل الجـارية فـإنها ستصدقك ، فدعا رسول الله بريرة ليسألها وقام اليهـا علي (ع) فضـربها ضـرباً شديداً وهو يقول لها : اصدقي رسـول الله ، فقالت لـه والله لا اعلم منها إلا خيراً وما كنت لأعيب عليها شيئاً إلا اني كنت اعجن العجين فأدعوها لتحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة وتأكله .

اما كيف انتهى خبر تلك الأسـطورة الى عائشـة ، فيدعي المؤلفـون في السيرة ان الخبر انتهى اليها عن طريق امرأة من المهاجرين تدعى ام مسطح ، فلقد خرجت معها ليلاً لقضـاء حاجـة فبينا هي تسـير معها وإذا بهـا تتعثر في كسائها ، فقالت تعس مسطح : فقـالت لها عـائشة بئس مـا قلت لرجـل من المهاجرين شهد بدراً مـع رسول الله ، فقـالت او ما بلغـك الخبر يـا بنت ابي بكر ، ثم اخبرتها بالذي كان ، فلما بلغها ذلك احست كأن السماء قد أطبقت عليها ، وكأن قلبهـا قد تصـدع ، وذهبت الى امها وقـد أثقلها الهم والجزاع، فقالت لها والعبرة تخنقها : تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً . فحاولت امها التخفيف عنها والتقليل من شأن هذه الشائعة ، ومضت تقـول لها : اي بنيـة خففي من شأن مـا قيل ، واعلمي انـه قلما تكون امـرأة حسناء مثلك عند رجل قد حلت من قلبه المحل الذي حللته ولهـا ضرائـر إلا أكثرن القول فيها وحاولن الوقيعة بهـا حسداً منهن لهـا ، ولكن عائشـة لم تتعز بكـل ذلك وايقنت ان النبي (ص) قـد تأثـر بما قيـل لا سيما وقـد رأته تغـير عليها ووجدت منه جفوة لم تعهدها منه منذ ان تـزوج بها ، ولكن مـا عساهـا تصنع وقد قيل ما قيل ولفظ فيه الكثيرون واهتم بإشـاعته المنـافقون حتى شق ذلك على رسول الله ووقف خطيباً في المسلمين ، وكان مما قال :

ايها الناس ما بال رجال يؤذونني في اهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت فيهم إلا خيراً ، وما علمت من ذلك الـرجل سـوءاً ولم يدخـل بيتاً من بيوتي إلا وأنا معه .

ولما انتهى النبي من حديثـه حوَل هـذا الموضـوع وقف اسيد بن جعفـر

وقيل سعد بن معاذ وقال يا رسول الله ان يكن الذين يتحدثون بهذا الحديث من الأوس نكفك اياهم ، وإن كانوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فيهم ، فأثارت مقالته سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال والله انك لم تقل ما قلت إلا وانت تعلم انهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك لم تقل ذلك ، وكاد ان يقع بينهم الشر لولا ان رسول الله قد امرهما بالسكوت ، وأظهر عدم المبالاة .

ودخل على زوجته وعندها ابوها وامرأة من الأنصار وهي تبكي ، والمرأة تبكي لبكائها ، فلما رأته كفكفت دموعها ولم تفاتحه بشيء ، ثم قال لها يا عائشة : انه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله ، وإن كنت قد قارفت سوءاً كما يقولون فتوبي الى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، وانتظرت عائشة من أبيها وامها ان يجيبا رسول الله (ص) ولكنهما سكتا ولم ينبسا بكلمة واحدة ، والتفتت اليهما والحزن مطبق على صدرها وقالت لهما ألا تجيبان ، فقالا والله ما ندري بما نجيب وعادا الى وجومهما المطبق ، فاتجهت عند ذلك الى رسول الله وقالت ودموعها تنحدر من عينيها والله لا أتوب مما ذكرت أبداً لأني بريئة ولا أتوب مما لم يكن . وسكتت قليلاً وعادت الى القول فإذا انكرت لا اخالكم تصدقونني وسأقول كما قال يعقوب لأولاده فصبراً جميلاً والله المستعان على ما تصفون .

ومضت تقول كما حدث عنها الرواة وابن هشام في سيرته وكنت ارجو ان يرى رسول الله (ص) في نومه شيئاً يكذب ما تحدث به الناس عني ، وكانت نفسي احقر عندي من ان ينزل بشأني قرآن يبرئني من تلك التهمة ، فوالله ما برح رسول الله منزله حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ساعة نزول الوحي فسجي بثوبه ووضعت له وسادة من ادم تحت رأسه ، فلما سرّي عنه جلس يتصبب عرقاً فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول البشرى يا عائشة فقد انزل الله براءتك ، فقلت الحمد لله لا بحمدك ولا بحمد اصحابك وفي رواية الطبري انها قالت له بحمد الله وذمكم ثم خرج الى الناس وخطبهم

وتلا عليهم ما انزل الله عليه في ذلك[1] .

﴿ ان الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (النور ١١) .

﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ﴾ (النور ١٢) .

﴿ لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ (النور ١٣) .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ . الى قوله **﴿ يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبداً ان كنتم مؤمنين ﴾** (النور ١٤ ـ ١٧) .

وجاء في سيرة ابن هشام ان الذي تعنيه الآية والذي تولى كبره ، هو حسان بن ثابت ، ونقل عن ابن اسحاق انها تعني عبد الله بن أبي واصحابه .

وفي تفسير الرازي انها تعني حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة . كما روى الرازي في اسباب نزولها عن الزهري عن عروة بن الزبير وعلقمة بن ابي وقاص عن عائشة ان حديث الافك كان في غزوة غزاها النبي (ص) قبل غزوة بني المصطلق ، وأضاف الى ذلك في خلال حديثه عن اسباب نزول الآية التي تشير اليه ، ان النبي قد استشار اسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب ، ولم يزد على قوله : ان علياً قال له ان الله لم يضيق عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله جاريتها بريرة وسألها عن امرها فأكدت له انها لم تر عليها ما يريب ، ولم يذكر ان علياً (ع) ضربها او اساء اليها كما يدعي المؤلفون في السيرة .

---

(١) انظر ص ٧٠ من الجزء الثالث طبع دار القاموس الحديث بيروت .

وبلا شك في ان السيدة عائشة التي تنتهي اليها جميع الأحاديث حول هذه الأسطورة تريد ان تدعي بأن علياً أراد ان يغتصب من الجارية اعترافاً يسيء الى سمعتها وشرفها وتقصد من ذلك انه كان كارهاً لها وحاقداً عليها منذ ان اتصلت بالرسول (ص) لتبرر بذلك حقدها عليه ووقوفها بجانب المناوئين والمعارضين له .

وجاء في الطبري عن بعض الرواة ان حديث عائشة كان في عمرة القضاء .

هذا هو ملخص حديث الإفك الذي اتفق الرواة والمؤلفون في سيرة الرسول على مضمونه والقصة كما ترويها عائشة ويرويها الرواة عنها ليس بذلك الوضوح الذي يفرض على الباحث ان يمر عليها بدون محاكمة ولو لبعض جوانبها ويتغاضى عن عيوبها .

لقد جاء في بداية القصة ان النبي (ص) كان اذا خرج لحرب او غزوة اقرع بين نسائه فأيتهن خرجت عليها القرعة اخذها معه ، وكانت القرعة قد خرجت على السيدة عائشة في تلك الغزوة فأعد لها هودجاً حملها فيه وحيثما نزل ينزل وإياها في خيمة تكون قد اعدت لهما ، في حين ان السيرة لم تتحدث بأن احداً من المسلمين كان يأخذ معه زوجته او امرأة في الغالب ، ولا استبعد ان يكون حديث المؤرخين عن خروج زوجاته معه في حروبه وغزواته من المكذوبات على الرسول بقصد تصويره بأنه حتى في اوقات الحرب التي هي من اعسر الأوقات وأحرجها لا يترك الملذات ولا يستغني عن النساء ، مع العلم انه في غزواته وحروبه كان يقابل اعداء من اشرس خلق الله يستبيحون الاساءة اليه وإلى كل من يتصل به بنسب او حسب ، وبلا شك لم يكن يخرج في غزوة من غزواته إلا وكان يحتمل الهزيمة كما يحتمل النصر ، لأنه كان يقاتل بالأسباب العادية لا بالخوارق والمعجزات ومع ذلك فمن المستبعد ان يأخذ معه احدى زوجاته في غزواته كما يدعون وهو يحتمل الهزيمة ولو قدرت ستكون فريسة لأعدائه الألداء بلا شك في ذلك .

على اني لا اتصور من رجل كمحمد بن عبد الله (ص) عظيم في تفكيره وقيادته وغيرته ان لا يفارق النساء حتى في مثل هذه الظروف في حين ان اصحابه يخرجون معه تاركين نساءهم واولادهم من ورائهم لا يفكرون بغير القتال واستئصال الأعداء .

هذا بالاضافة الى انا لو اردنا تمحيص اسانيد تلك المرويات التي نصت على انه لم يكن ليغزو غزوة الا ومعه الواحدة او الاثنتين من نسائه لا نجد في رواية منها محلاً للوثوق والاطمئنان . ولو تغاضينا عن كل ذلك فمقتضى العادة ان القائد لا يأمر بالرحيل الا بعد ان يطمئن على ان جيشه بكامله قد اصبح جاهزاً ومهيأ لذلك ، وقد كان هو وزوجته في خباء واحد كما تزعم المرويات ، فكيف جاز عليه ان يغفل عنها لمجرد انها ذهبت لقضاء حاجتها ورجعت تتفقد عقداً كان قد انفرط منها ، وعملية من هذا النوع لا تستوعب زمناً طويلاً ينسيه اقرب زوجاته الى قلبه كما يزعمون ، ولا يستغرق في الغالب إلا دقائق معدودات .

وكيف انه كان لا يأمر بالرحيل الا بعد ان يتفقد جيشه ويطمئن عليه وعلى امتعته كما تنص على ذلك المرويات ولا يتفقد زوجته وهي وإياه في خيمة واحدة وقد خرجت لحاجتها من الخباء الذي كانت وإياه فيه ، ثم يأمرهم بتحميل هودجها قبل ان يطمئن لرجوعها وبتلك السرعة الخاطفة ، ومن البعيد جداً ان تخرج من الخيمة وتعود اليها ثم ترجع حيث كانت لتبحث عن عقدها وهو لا يعلم بشيء من ذلك .

ثم ان الحادث اذا كان وهو في طريقه الى المدينة كما يدعي المؤلفون في السيرة فكيف طلب جاريتها وسألها عن الحادث مع ان الجارية كانت في المدينة ولم تكن معها في تلك الرحلة .

ولو افترضنا ان وزن السيدة عائشة كان يومذاك ثلاثين كيلو غراماً وهو اقصى ما يمكن ان تكون عليه من النحافة والضعف فمن البعيد ان لا يترك

عدم وجودها اثراً على المحمل ، بحيث يظنها الموكل بتحميل الهودج فيه وهي لا تزال في خارجه .

والآيات الكريمة التي يدعي المفسرون والمؤرخون انها نزلت بهذه المناسبة ليست صريحة في ذلك ، ولو كانت صريحة في هذا الأمر لوقفنا مؤمنين خاشعين لأنها من عند الله العزيز الحكيم الذي لا يغرب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء .

ولكنها تقول: **﴿ ان الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ﴾** الى آخر الآيات والإفك لا ينحصر بهذا النوع من التهم الباطلة بل يشمل كل ما كان مخالفاً للواقع وكثيراً ما كان المنافقون يفتعلون ويكذبون وينسبون للرسول والى المسلمين والمسلمات ما ليس فيهم .

على ان الآيات السابقة على هذه الآية قد تعرضت لحكم الزاني والزانية والذين يتهمون زوجاتهم بالسوء ولم يكن لهم شهداء إلا انفسهم الى غير ذلك من الأحكام والتشريعات شأنها شأن غيرها من الآيات التي كانت تنزل على النبي لبيان الأحكام اما عند حدوث بعض المناسبات ، او ابتداء كما يبدو ذلك للمتتبع في آيات الأحكام .

ومن الجائز ان يكون المراد من الافك في الآية هو ما حدث بين غلام عمر والأنصاري ، وان يكون ما حدث كان مصطنعاً لإيقاع الفتنة بين المسلمين ، لكي يتاح لبني المصطلق ان ينقضوا على المسلمين وهم على تلك الحالة من الصراع ، ولذا فإن النبي (ص) اسرع في الرحيل وتابع مسيرته على خلاف ما هو المألوف من امره ، وظل يجد السير ليلاً ونهاراً حتى نزل بذلك المكان .

على ان جماعة من المفسرين ذهبوا الى ان الآية : **﴿ ان الذين جاؤوا بالافك ﴾** نزلت فيمن اتهم مارية القبطية ، وجاء ذلك في مجمع البحرين للطريحي مادة افك وفي تفسير السيد عبد الله شبر ان الآية نزلت فيمن اتهم

مارية القبطية لا في عـائشة وجـاء في تفسير القمي ان الخـاصة رووا ان الآيـة نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة .

وروي عن الحسن بن علي انه قال بسنده الى زرارة انه قال سمعت أبا جعفر الباقر (ع) يقول : لمـا هلك ابراهيم ابن رسـول الله حزن عليـه حزنـاً شديداً ، فقالت عائشة : ما الذي يحزنك عليه ما هو إلا ابن جريح .

وأضاف الى ذلك ان هناك روايات تـدل على مشـاركة غيـرها معهـا في قذف مارية ، وقد ارسل النبي علياً لقتله اذا وجـده عندهـا وذهب علي (ع) فـوجده في البيت فلما رآه خـاف منه فصعـد عـلى جـذع النخلة وألقى بنفسـه وشفر برجليه فاذا هو مجبوب فرجع واخبر النبي بذلك وقد ذكرنا مـا كان من امره في مناسبة سابقة .

وعـلى اي الأحوال فـاني ارجـح ان هـذا الحـادث مفتعـل من أسـاسـه للأسباب التي ذكرناها .

والغـريب في هذا الحـادث المزعـوم ان المسلمين ظلوا شهـراً او اكـثر يلغطون ويتهامسون حول السيدة عائشة وصفوان بن المعطل واستغله المنافقون لإيذاء النبي وإيقاع الفتنة بين المسلمين ومـع ذلك فجميـع من رواه قد انهاه الى السيدة عائشة وإلى امها ام رومان وعنها رواه جميـع المؤرخين والمفسـرين لكتاب الله ، ومجرد اتفاق المؤرخين والمحدثين على تدوين حادثة من الحوادث لا يمنع من التساؤل والتشكيك فيها وبخاصة اذا احيطت بمثل هذه الملابسات ولو صح ان احداً اتهم السيدة عائشة بما يسيء لشرفهـا وسمعتها فمن الجـائز ان يكون ذلك من وضع المنافقين وهي في المدينة مع العلم بأنه لا يتـردد احد من الشيعة ببراءتهـا من هذه التهمـة على تقـدير وقـوعها وقـد جاءت الآيـات الكريمة لتؤكد براءتها وتضع حداً لكل من يحاولون ان يعبثوا بأعـراض الناس ويقذفوا غيرهم بما ليس فيه والله العالم بحقيقة الحال .

الفصل الخامس عشر

غزوة الخندق

بعد تلك الغزوات المتتالية والانتصارات التي حققها المسلمون بقيادة النبي (ص) وبعد النكسات التي اصابتهم في أحد والرجيع والبعث المؤلف من أربعين او سبعين رجلاً الى نجد بناء لطلب احد زعمائها عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة ظل المسلمون يعيشون في جو يسيطر عليه الخوف والحذر من حملة واسعة تشترك فيها قريش بعد ما منيت بما يشبه الهزيمة في بدر الموعد ، تشترك فيها مع غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة لحدود الشام ، ويهود بني قينقاع والنضير الذين اجلاهم النبي عن المدينة وشردهم في الآفاق ، واصبحوا يتربصون به وبأصحابه ويودون لو يتاح لهم ولو بأغلى الأثمان ان يدركوا ثأرهم منه .

ان محمداً الذي فر من مكة مع أتباعه ، وأصبح في بضع سنوات مرهوب الجانب يهدد الجزيرة بكاملها ، ويمني قومه بأنهم سيحكمونها مع بلاد الفرس والرومان في المستقبل القريب وقريش تعرف كل ذلك وتهزها اخباره اكثر من جميع العرب واليهود ، وهي التي وقفت في طريقه منذ ان اعلن دعوته وظلت تكافحه وتطارده طيلة ثلاثة عشر عاماً حتى هاجر لينجو من الموت الذي اختارته له .

وما عليها بعد ان أعياها امره إلا ان تمد يدهـا الى اليهود والأعـراب في مختلف انحـاء الجزيـرة عساهم ان اتفقـوا عليه وهـاجمـوه في البلد الـذي آواه ونصره، ان يدركوا ثأرهم منه ومن اتباعه في ايام معـدودات . وتطوع اليهـود في بادىء الأمر للقيام بتأليب الناس عليه وجمعهم لمهاجمته في المدينة في حين ان هذه الفكرة كـانت تراود قـريشاً وغيـرها من العـرب ولكنها شكـرت لهم هذه البادرة وباركت جهودهم في هذا السبيل بعد ان جمعتهم الغاية ووحدت بينهم الأهداف .

فقد جاء في كتب السيرة والتاريخ انه في شهر شوال من السنة الخامسـة لهجرة النبي (ص) اتفقت قريش وجماعة من الأعراب واليهود على غزو محمد في المدينة .

وكان من امرهم ان جماعة من زعـماء يهود بني النضـير الذين اجـلاهم النبي عن المدينة وصـادر بعض ممتلكاتهم منهم سـلام بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب ، وكنانة بن ابي الحقيق وهوذة بن قيس الـوائلي وجمـاعة غيـرهم وفدوا على قريش في مكـة وحرضـوهم على حـرب المسلمين ووعـدوهم بأن يكـونوا معهم حتى يستـأصلوا النبي واصحابـه ، فقالت لهم قـريش : يا معشـر اليهود انكم اهـل الكتاب الأول وتعلمـون بما اصبحنـا عليـه نحن ومحمـد ، ونحن نسألكم أديننا خير ام دينه ، فقالوا : بل دينكم خير من دينه وانتم اولى بالحق منه وبهذه المناسبة نزلت الآية :

﴿ ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغـوت ويقـولون للذين كفـروا هؤلاء اهدى من الـذين آمنوا سبيلاً * أولئك الـذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ (النساء ٥١ ـ ٥٢) .

ولمـا سمعت قريش من اليهـود ذلك استبشـرت وطمعت بهـذا التكتـل الجديد ان يحقق لهـا النصر النهـائي على محمـد واتباعـه وتواعـدوا وإياهم عـلى حربه عندما يتيسر لهم من العرب من يناصرهم عليه .

ولم يكتف اليهود بتفضيل الوثنية على التوحيد الذي يدعو اليه محمد وجميع الأديان السماوية بما في ذلك اليهودية ، لم يكتفوا بذلك بل ذهبوا يتجولون بين الأعراب ويحرضون على حرب محمد ويخوفونهم منه ومن اتباعه ان استتب لهم الأمر ، وذكروا لهم ما دار بينهم وبين قريش ، وما تم عليه الاتفاق من غزو المدينة بأكبر عدد ممكن لا يمكن للمسلمين ان يواجهوه مهما بلغوا من القوة والبأس ، وتيسر لهؤلاء ان يستنفروا اكبر عدد من الأعراب لمساندتهم وفي الموعد المعين لخروجهم خرجت قريش بقيادة ابي سفيان في اربعة آلاف مقاتل ، بينهم ثلاثة آلاف فارس ، وعقدوا لواءهم في دار الندوة واعطوه الى عثمان بن طلحة بن ابي طلحة وقادوا معهم الفاً وخمسمائة بعير ، وخرج من بني سليم سبعمائة بقيادة سفيان بن شمس حليف حرب بن امية وخرج معهم بنو اسد وفزارة في الف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن ، وخرج معهم من اشجع وبني مرة بن عوف وغيرهم عدد كبير حتى بلغ مجموعهم اكثر من عشرة آلاف مقاتل .

وبلغ خبرهم رسول الله (ص) عن طريق جماعة من خزاعة وفدوا عليه واخبروه بالتجمع الذي اعدته قريش واحلافها من العرب واليهود لغزوه ، فجمع النبي جماعة من اصحابه واخبرهم بما اجتمعت عليه قريش واحلافها وحثهم على الجهاد والاستعداد لمقابلة الغزاة واستشارهم فيما يجب ان يتخذه لمنعهم من دخول المدينة ، فأشار عليه سلمان الفارسي بأن يحفر خندقاً من الجهة التي يمكن للمشركين ان يدخلوا منها ، وقال له : يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا حفرنا خندقاً يحول بيننا وبين عدونا ، فاستحسن النبي واصحابه هذا الرأي وامر بحفره ، وبهذه المناسبة اجتمع المهاجرون والأنصار بسلمان الفارسي وكل يقول : سلمان منا ، فقال النبي : سلمان منا اهل البيت كما جاء في تاريخ الطبري .

ثم ان النبي حدد لكل عشرة من المسلمين ان يحفروا اربعين ذراعاً ، وكان هو كأحدهم يحفر بيده ويجهد نفسه بالعمل وواصل المسلمون عملهم

بـإخلاص ونشـاط اذا استثنينا جماعة ممن تـظاهروا بـالاسلام وأبـطنوا|الغـدر والنفـاق كـانـوا يتسللون الى بيـوتهم ومنهم من يـأتي الى النبي يـطلب الاذن ويتذرع بأسباب لا تمت الى الواقـع بصلة ويدعـون بأن بيـوتهم مكشوفـة الى الغزاة ومعرضة للاحتلال .

﴿ يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ .

ومضى المخلصـون يعملون ليلاً ونهاراً لا يتـركون العمـل الا لأسبـاب قاهرة ، ثم يعودون الى عملهم ، وبهذه المنـاسبة انـزل الله على النبي الآيـات التالية :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على امر جـامع لم يـذهبوا حتى يستـأذنوه إن الـذين يستأذنـونك اولئـك الـذين يؤمنـون بـالله ورسوله * فإذا استأذنـوك لبعض شأنهم فـائذن لمن شئت منهم واستغفـر لهم الله ان الله غفـور رحيم * لا تجعلوا دعـاء الـرسـول بينكم كـدعـاء بعضكم بعضـاً قد يعلم الله الـذين يتسللون منكم لواذاً ليحـذر الـذين يخـالفـون عن أمـره ان تصيبهـم فتنـة او يصيبـهم عـذاب أليم ﴾ .

وجاء في كتب السيرة انه بينها كان سلمان مع تسعة يحفرون في المساحـة التي حددها الرسول لهم ، وإذا بصخـرة بيضاء قـد اعترضتهم وهم يحفـرون فأعجزتهم ولم تصنع بها المعـاول شيئاً ، فقـالوا لسلمـان اذهب الى رسول الله وأخبره بذلك فلعله يأمرنا بالعدول عنها ، فإنا لا نريد ان نتخطى امره .

ولما اخبره بذلك اقبل عليهم وهبط بنفسه الى الخندق وأخذ المعـول من سلمان وضرب الصخرة ضربة صدعتها وخرج منها بريق اضاء اجواء المـدينة حتى لكأنها مصباح في بيت مظلم على حد تعبير الراوي فكبر رسول الله ، ثم ضربها ضربة ثانية فتصدعت وخرج منها نفس البريق الأول وفي الضربة الثالثة تكسرت وظهر لها بريق اضاء ما وراء المدينة ، فكبر رسول الله وأشرقت نفسه الكبيرة للنصر المؤمل في النهاية ، ثم اخذ بيـده سلمان وصعـد من الخندق ،

فقال له بأبي وامي انت يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط ، فالتفت رسول الله الى القوم وقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ فقالوا نعم يا رسول الله بأبينا انت وامنا لقد رأيناك تضرب فيخرج البريق كالموج فرأيناك تكبر فكبرنا ولم نر غير ذلك ، قال صدقتم لقد أضاءت لي في البرقة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى واخبرني جبريل بأن امتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم ، واخبرني جبريل بأن امتي ظاهرة عليها ، وفي الضربة الثالثة أضاءت لي قصور صنعاء واخبرني جبريل بأن امتي ظاهرة عليها فاستبشر المسلمون بذلك .

وقال المنافقون حينما سمعوا بذلك ألا تعجبون من محمد يحدثكم ويمنيكم ويخبركم بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وصنعاء ومدائن كسرى وانتم تحفرون خندقاً ليحول بينكم وبين اعدائكم واحدنا اليوم لا يأمن ان يذهب لقضاء حاجته فنزلت الآية :

﴿ وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ (الأحزاب ١٢) .

ومضى المسلمون يشتدون في حفر الخندق حتى اتموه في ستة ايام كما جاء في رواية الطبري وغيره .

وأقبل المشركون بعدتهم وعددهم البالغ نحواً من عشرة آلاف مقاتل بين فارس وراجل حتى نزلوا بالجانب الآخر من الخندق .

ويبدو من بعض كتب السيرة ان المدينة كانت من سائر جوانبها محصنة بالبنيان والأشجار ما عدا الجانب الذي حفروا فيه الخندق ، ونزل النبي ومن معه وهم ثلاثة آلاف مقاتل كما نص على ذلك الطبري وغيره في مقابل القوم والخندق بينهما وذلك في سفح جبل يدعى سلع واصبح الجبل من ورائهم وامر بالذراري والنساء ان تخرج الى الآطام وهي المرتفعات والحصون لكي تكون أبعد عن الخطر ، واستخلف على المدينة ابن ام مكتوم . وكان يهود بني قريظة

لا يزالون على عهدهم مع رسول الله الذي تم بينهم حينما دخل الى المدينة ، فدس اليهم ابو سفيان حيي بن اخطب لينقضوا العهود وينضموا الى صفوف المشركين وبذلك يشتد الحصار على النبي واصحابه ، وكان زعيمهم كعب بن أسد القرظي هو الذي وقع العهد مع النبي (ص) ، فذهب إليه حيي بن اخطب ولما احس به عرف غايته فأغلق الباب في وجهه فاستأذنه بالدخول فأبى ان يأذن له ، وقال له انك امرؤ مشؤوم وقد عاهدت محمداً ولست بناقض عهده ، لأني لم أر منه الا وفاءً وصدقاً ، فقال له حيي بن اخطب : ويحك افتح فإني اريد ان أكلمك بأمر عسى ان يكون لك خيراً ، فأصر كعب بن أسد على موقفه ، وقال له حيي : انك لم تغلق بابك إلا خوفاً من ان آكل من طعامك ، فافتح بابك ايها الرجل لقد جئتك بعز الدهر وببحر طام ، لقد جئتك بقريش وساداتها وغطفان واحلافها حتى انزلتهم بمجتمع الأسيال وقد عاهدوني وعاقدوني ان لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ، فقال له : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد اهرق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حيي دعني وما انا عليه ، فاني لم ار من محمد إلا صدقاً ووفاءً ، فلم يزل حيي يفتله في الغدوة والغارب حتى سمح له بالدخول واعطاه عهداً وميثاقاً قال اذا رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ان يدخل معه في حصنه ويواسيه بنفسه وقومه ، فنقض كعب عهده مع الرسول وبرىء مما كان عليه بينه وبين رسول الله .

ولما انتهى الى النبي (ص) ان كعباً قد نقض العهد وانحاز الى الغزاة بعث رسول الله سعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة ، وخوان بن جبير احد بني عوف ، وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا احق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ام لا ، فان كان حقاً فالحنوا الي لحناً ولا تصرحوا ، وإن كان لا يزال على العهد الذي كان بيننا وبينه فاجهروا بذلك ليعلم الناس كذب ما بلغنا ، فلما انتهوا اليه وجدوا بني قريظة على اخبث ما بلغهم ، فنالوا من رسول الله وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وعادوا الى رسول الله

الـرحمن بن عوف لعثمـان ومضى يقول مؤلف فلسفـة التـوحيـد والـولايـة ، ومعنى هـذا ان عمر بن الخـطاب او اي انسان آخـر لو بـايـع علياً وتمت لـه الخـلافة لكـان اولى بها من جميـع الصحابـة بما فيهم ابـو بكر ، وتصبـح بعد ذلك جميع النصوص على خلافته وولايـة المعصومـين من اولاده قطعيـة السند والدلالة .

واستـطرد يقـول لقـد وقعت الحـرب بـين عـلي (ع) ومعـاويـة بن ابي سفيـان وشاءت الأقـدار والظروف ان يحكم معـاوية كـما حكم الأول والثـاني والثـالث ، فتبنى السنـة حكم ابن ابي سفيـان واعتـرفـوا بـه ودافعـوا عنـه لا لشيء إلا لأنه قد اصبح حاكـماً وهم يعلمون كـل العلم بأن معـاوية وابـاه لم يخلصا للاسلام ولو ساعة واحدة .

وكـان قد تـواتر عن الـرسول انـه قال : ان عمـاراً تقتله الفئة البـاغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النـار ، لقد تـواتر عن الـرسول هـذا الحديث حتى اصبـح وكأنـه آية قـرآنية وبخـاصة بعـد ما رواه البخـاري في صحيحـه كتاب الصلاة باب التعاون في بنـاء المساجـد ، وقد قتله معـاوية ، ومـع ذلك فقد رفض السنة ان ينعتـوه بالبغي كـما نعته من لا ينـطق عن الهوى ورفضـوا ذلـك وهم على يقـين من قول الـرسول ، بـل قالـوا ان معـاويـة قـد اجتهـد وأخطأ وهو معذور ومأجور بقتل عمار وسب علي (ع) على المنابر .

ومما لا شك فيـه ان معاويـة قد فشـل في حربـه مع عـلي ولم يستتب له الحكم لنعته السنة بالطاغية الباغي لنفس هذا الحديث المتواتر .

الأسود العنسي

بعـد ان انهى الرسـول (ص) المهمة التي امـره الله بأدائهـا في غـديـر خم وتفـرق عنه الألـوف من الناس كـل باتجـاه وطنـه سـار بمن بقي معـه الى

نعطيهم اموالنا ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله : فأنتم وذاك ، ثم تناول سعد الصحيفة ومحا ما فيها ، واستمر الحصار والخوف مسيطرين على المسلمين ، وفيما هم كذلك وإذا بعمرو بن ود العامري وعكرمة بن ابي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب بن مرداس قد خرجوا على خيولهم ومروا على بني كنانة وامروهم بأن يستعدوا للحرب ، ثم اقبلوا نحو الخندق فلما رأوه قالوا ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، ووجدوا مكاناً ضيقاً في الخندق فضربوا خيولهم واقتحموه فعبرته خيولهم الى الجانب الثاني وجعلوا يجولون بين الخندق وعسكر المسلمين .

وقال ابن هشام في سيرته والطبري في تاريخه وابن كثير وغيرهم : ان عمرو بن ود لما اقتحم الخندق من تلك الثغرة اقبل علي (ع) في نفر من المسلمين ورابطوا عليها حتى لا يقتحمها احد غيرهم واقبلت فرسان قريش تحاول العبور ، ولكن موقف علي الى جانب تلك الثغرة صدهم عنها .

وأضافوا الى ذلك ان عمرو بن ود العامري قاتل مع المشركين في معركة بدر واصيب بجراحات بالغة منعته عن الاشتراك معهم في أحد ، وكان من فرسان العرب المبرزين ، فلما كان يوم الأحزاب خرج معلماً ليرى مكانه على حد تعبير الطبري وابن هشام وغيرهما وجعل يدعو الناس الى البراز والمسلمون يرتعدون من الخوف ولم يستطع احد ان يرد عليه ، ولما سمعه علي (ع) يدعو إلى البراز ترك مكانه وجاء الى النبي (ص) وقال له انا له يارسول الله ، فقال له النبي : اجلس انه عمرو بن ود وكرر عمرو النداء فلم يتحرك له احد من المسلمين غير علي ، والنبي (ص) يأمره بالجلوس ليرى مقدار التضحية والبذل والعطاء من المسلمين لا رغبة بعلي عن المخاطر ، ولما رأى عمرو ان احداً لا يجيبه جعل يتحداهم ويقول اين جنتكم التي تزعمون ان من قتل منكم دخلها ، أفلا يبرز الي احد وانشد كما في رواية الحلبي في سيرته والمفيد في ارشاده :

ولقـد بحـحت مـن الـنـداء   بجمعكـم هـل من مبـارز
اني كـذلـك لم ازل   متسـرعـاً نحـو الهـزاهـز
ان الـشـجـاعـة في الـفـتى   والجـود من خـير الغـرائـز

والنبي يلتفت يمنة ويسرة ويدعو المسلمـين الى مبارزتـه فلم يستجب له احـد ، فقام عـلي (ع) الى النبي وقال انـا له يـا رسول الله والنبي يقـول له اجلس انـه عمرو ، فقـال علي وإن كـان ، فأذن لـه وأعطاه سيفـه ذا الفقـار وألبسه درعه وعممه بعمامته وقال كما جاء في بعض المرويات : اللهم انك قد اخـذت مني عبيدة يـوم بدر وحمـزة يوم احـد وهذا عـلي اخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وانت خير الوارثين فبرز اليه علي وهو يقول :

لا تعجلن فقد اتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز

اني لأرجو ان أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى صيتها بعد الهزاهز

وقال النبي (ص) لما برز له علي (ع) برز الايمـان كله الى الشرك كله كما جاء في شرح النهج المجلد الرابع[1] .

ولما تقابلا قال له عمرو من انت ، قـال انا عـلي بن أبي طالب ، فقـال ليبرز الي غيرك يـا ابن اخي من اعمامـك من هو اشـد منك ، فـاني اكره ان أقتلك لأن اباك كان صديقاً ونديماً لي في الجاهلية .

وجاء في شرح النهج ان شيخنا ابا الخير مصدق بن شبيب النحوي كان يقول اذا مررنا في القراءة عليه الى هذا الموضع : والله مـا امره بالرجوع ابقاءً عليه كما يدعي ، بل خوفاً منه ، فلقد عرف قتلاه في بدر وأحد وعلم انـه إن

---

(١) انظر ص ٣٤٤ من المجلد المذكور .

ناهضه قتله فاستحيا ان يظهر الفشل فأظهر الابقاء والارعاء وإنه لكاذب فيهما .

وأضاف المؤلفون في السيرة ان علياً قال له لكني احب ان اقتلك ، فقال يا ابن اخي اني لأكره ان اقتل الرجل الكريم مثلك فارجع وراءك خير لك ، فقال له علي (ع) ان قريشاً تتحدث عنك انك تقول : لا يدعوني احد الى خلتين الا اخذت واحدة منها ، وفي رواية ثانية الى ثلاث إلا اجبت ولو الى واحدة منها قال اجل ، فقال له علي : فإني ادعوك الى الاسلام فقال دع عنك هذه ، قال فاني ادعوك الى ان ترجع بمن تبعك من قريش الى مكة ، قال اذن تتحدث عني نساء مكة ان غلاماً مثلك خدعني ، قال فاني ادعوك الى البراز فقال اني لا احب ان اقتلك فقال له علي ولكني احب أن أقتلك فأخذه الحماس عندئذ واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم اقبل على علي (ع) فتنازلا وتجاولا فضربه عمرو بسيفه فاتقاه علي بدرقته فأثبت فيها السيف وأصاب رأسه كما جاء في بعض المرويات ، فضربه علي على حبل عاتقه فسقط يخور بدمه .

وجاء في بعض المؤلفات في السيرة عن جابر بن عبد الله الأنصاري انه قال : كنت قد تبعت علياً لأنظر ما يكون من امره ، ولما ضربه علي ثارت غبرة شديدة حالت بيني وبينهما غير اني سمعت تكبيراً فكبر المسلمون عند ذلك ، فعلمنا ان علياً قد قتله ، وانجلت الغبرة عنهما فإذا علي على صدره يحز رأسه وفر اصحابه ليعبروا الخندق فطفرت بهم خيلهم الا نوفل بن عبد الله فانه قصر به فرسه فوقع في الخندق فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال يا معشر المسلمين قتلة اكرم من هذه : فنزل اليه علي فقتله .

وجاء في سيرة ابن هشام عن الزهري انه كان مع عمرو بن ود ابنه مسحل بن عمرو بن ود فقتله علي (ع) ، ولحق علي بهبيرة بن أبي وهب وكان علي راجلاً وهبيرة فارساً فضربه بالسيف فأصاب قربوس سرجه فسقطت

درعه وانهزم عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، وأصيب منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بسهم فمات منه بمكة كما جاء في رواية الطبري .

وفي سيرة ابن اسحاق ان المشركين بعثوا الى رسول الله يعرضون عليه عشرة آلاف درهم في مقابل جثة عمرو بن ود فقال لهم لا حاجة لنا بها وإنا لا نأخذ ثمن الموتى ، وقيل ان العرض كان في مقابل جثة نوفل بن عبد الله بن المغيرة .

وفي الارشاد وغيره عن محمد بن اسحاق انه قال : لما قتل علي (ع) عمرو بن ود واقبل نحو رسول الله ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا سلبته درعه فانه ليس في العرب درع مثلها ، فقال اني استحييت ان اكشف سوءته .

وفي شرح النهج ان مبارزة علي لعمرو بن ود يوم الخندق اعظم من ان يقال عنها عظيمة واجل من ان يقال عنها جليلة وما هي الا كما قال شيخنا ابو الهذيل وقد سأله سائل ايما اعظم منزلة عند الله علي ام ابو بكر ، فقال يا ابن اخي : والله لمبارزة علي عمراً يوم الخندق تعدل اعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتربي عليها فضلاً عن ابي بكر وحده .

وفي المجلد الثاني من فضائل الخمسة من الصحاح الستة عن المجلد الثاني من مستدرك الصحيحين عن سفيان الثوري بسنده عن النبي (ص) انه قال : لمبارزة علي بن ابي طالب لعمرو بن ود يوم الخندق افضل اعمال أمتي الى يوم القيامة ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه ج ١٣ ص ١٩ .

وذكر هذا الحديث بنصه الحرفي الرازي في تفسيره الكبير في الجزء الأخير خلال حديثه عن ليلة القدر وفضلها .

وجاء في الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ ، جاء فيه عن ابن

ابي حـاتم وابن مـردويـه وابن عسـاكـر ان الله كفى المؤمنـين القتـال بعـلي (ع)[1] .

وجـاء في شرح النهـج عن قيس بن الربيـع بسنده الى ربيعـة بن مالـك السعـدي انه قـال : اتيت حـذيفـة بن اليمـان فقلت يـا عبـد الله ان النـاس يتحـدثون عن عـلي بن أبي طالب ومنـاقبـه ، فيقـول لهم أهـل البصـرة انكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل ، فهل انت محدثي بحديث عنه اذكـره للناس فقال يا ربيعة وما الذي تسألني عن علي ، وما الـذي احدثـك عنه ، والـذي نفس حذيفة بيده لو وضعت جميع اعمال امـة محمد في كفـة الميزان منـذ بعث الله محمداً الى يوم النـاس هذا ووضـع عمل واحـد من اعمال عـلي في الكفة الأخرى لرجح على اعمالهم كلها .

قال ربيعة هـذا المدح الـذي لا يقام لـه ولا يقعد ولا يحمـل واين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبـر اليهم عمرو واصحـابه فملكهم الهلع والجـزع ودعـاهم الى المبارزة فـأحجموا عنـه حتى برز اليـه علي فقتله ، والـذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم اعظم اجراً من اعمال امة محمد الى هذا اليوم ، وإلى ان تقوم الساعة .

وفي رواية ثانية انه قال يا لكع وكيف لا يحمل هذا المدح ، وأين كـان فلان وفلان وحذيفة وجميع اصحاب محمد (ص)[2] .

ولما نعي الى اخته عمرة قالت من قتله ، من الـذي اجترأ عليـه ، قيل

---

(١) انظر فضائل الخمسة ج ٢ ص ٣٢٣ وانظر الرازي في تفسير سورة القدر الجزء الاخـير ص ٣١ الطبعة الاولى جزء ٣٢ .

(٢) انظر شرح النهج ج ٤ ص ٣٤٤ و ٣٤٥ ، وكل باحث مجرد يـراقب مواقف المشـركين المتغطرسين في ذلك اليوم والانهيـار الذي اصـاب المسلمين لا بـد وان ينتهي الى ذلك لان قتله لعمـرو واصحابـه بدل المـوقف رأساً على عقب وادخل الـذعر واليـأس على المشركين .

لها علي بن ابي طالب قالت لقد قتل الأبطال وبارز الأقران وكانت ميتته على يد كفء كريم من قومه ثم انشأت تقول :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله	لكنت ابكي عليه دائم الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به	قد كان يدعى ابوه بيضة البلد
من هاشم في ذراها وهي صاعدة	الى السماء تميت الناس بالحسد
قوم ابى الله إلا ان يكون لهم	كرامة الدين والدنيا بلا لدد
يا ام كلثوم ابكيه ولا تدعي	بكاء معولة حرى على ولد

ومع هذه الضربة القاسية التي لم تكن قريش واحلافها تنتظرها فقد بقي الغزاة على مواقفهم ، وتأزمت الأمور على المسلمين بعد ان نقض بنو قريظة العهد وانحازوا إلى جانب المشركين ، وخاف المسلمون ان يهاجموهم من حصونهم ، وقد بدأوا يتسللون لى المرتفعات التي فيها النساء .

فقد حدث يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه انه قال : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت وكان حسان مع النساء والأطفال ، وقالت صفية فمر بنا رجل من اليهود وجعل يطوف بالحصن وقريظة قد قطعت ما بينها وبين رسول الله من العهد وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا ورسول الله والمسلمون في مقابل عدوهم ، والعدو كاد ان يحيط بالمدينة من جميع جهاتها لا سيما بعد ان انضم بنو قريظة اليهم وهم اعرف بالثغرات التي تمكنهم من التغلغل في شوارع المدينة وتنفذ بهم الى مسجد الرسول وبيته ، وادركت صفية ان اليهودي ربما يكون عيناً لقومه بني قريظة ليجد منفذاً الى حصون النساء يدلهم عليه والنبي (ص) ومن معه في شغل عنهم بتلك الحشود الهائلة التي تصول وتجول لتجد منفذاً للهجوم الشامل .

لقد ادركت صفية خطر هذا اليهودي الذي تلصص حول حصون النساء فقالت : يا حسان ان هذا اليهودي كما ترى يطوف حول حصوننا وإني

والله مـا آمنه ان يـدل على عـوراتنا من وراءنـا ورسول الله في شغـل عنـا بمن احاط به من المشركين ، فانزل اليـه واقتله ، فقال يغفـر الله لك يـا ابنة عبـد المطلب ، والله انك لتعلمين اني لست بصاحب هذا الأمر . قـالت صفية فلما سمعت منه ذلك ويئست من خيره شددت وسـطي بثوب كـان علي واخـذت عموداً ونزلت اليـه من الحصن فضربته بالعمـود حتى قتلته ، فلما فـرغت منه رجعت الى الحصن ، وقلت له يا حسان انزل اليه فاسلبه ، فـانه لا يمنعني من سلبه الا انه رجل ، فقال ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب .

وظـل الحصار مضـروباً عـلى المدينـة وفي كثير من المـرويـات ان بعض كتـائب المشركـين تسللت من جهة بني قـريـظة الى داخـل المـدينـة فـدافعهم المسلمون فيها وثبت المؤمنون الصادقون يحدوهم الأمل بنصر الله سبحانه كـما وعدهم الرسول وانزل الله فيهم قوله :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسولـه وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا ايماناً وتسليماً ﴾ (الأحزاب ٢٢) .

وامـا المنافقـون وضعاف الايمـان من المهاجـرين والأنصار فقـد استغلوا تلك الأزمـة للتضليل والتشكيـك وجعلوا يتندرون بمـا كان النبي (ص) قـد وعدهم به من دخول مكة فـاتحين واحتـلال قصور كسـرى وقيصر فـأنزل الله فيهم قوله :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعـدنا الله ورسـوله الا غروراً ﴾ .

وظـل النبي (ص) يفكـر ويعمـل للخـلاص من تلك الأزمــة التي لم يعرف لها المسلمون نظيراً من قبل ، ولكنـه لم يفكر في الاشتبـاك الشامـل مع المشركين ولا وضعه في حسابه الا اذا اضطروه اليه ، لأن الحشود التي تجمعت وتكالبت قد اثرت الى حد ما على معنويات المسلمين واصبح من الصعب ان يثبتـوا لهم ، لا سيما وان يهـود بني قريـظة قـد انضمـوا الى الغـزاة واصبحـوا

يهددون المدينة من الداخل ، ففكر اولاً ان يصانع غطفان ومن معها بشيء من ثمار المدينة كما ذكرنا ، ووجد من غطفان استعداداً لذلك ، ولكنه لم يكن ليعقد اتفاقاً من هذا النوع ، مع ما له من الفوائد بدون موافقة اصحاب تلك الثمار ، لأن ثمار المدينة لأهلها ، وما كان ليستبد عليهم في اموالهم ، وبعد ان عرض الفكرة على زعيمي الأوس والخزرج لم يجد منهما استجابة لطلبه كما ذكرنا من قبل .

وفيما هو يفكر في عمل يخفف من حدة الموقف ويؤدي الى تشتيت القوم وبعث الخلاف بينهم ، وإذا بنعيم بن مسعود بن عامر ينسل من بين المهاجمين ويأتي النبي (ص) ليقول له اني قد اسلمت وآمنت برسالتك يا رسول الله ، وان قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت فوجد رسول الله ان يوجهه ليبث روح التفرقة بين القوم ، ما داموا يحترمون رأيه ويعتقدون بأنه منهم ، فقال له : انما انت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى انتهى الى بني قريظة وكان لهم نديماً من قبل ، فقال لهم : يا بني قريظة لقد عرفتم ودي لكم وصلتي بكم ، فقالوا قل ما تريد فلست عندنا بمتهم ، فقال لهم ان قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم وفيه اموالكم واولادكم ونساؤكم ومن الصعب عليكم ان تتحولوا لغيره ، اما قريش وغطفان فقد جاؤوا لحرب محمد وتركوا نساءهم واموالهم وأولادهم في بلدهم آمنين ، فان قدر لهم ان يصيبوا محمداً وأصحابه فذاك ما يريدون ، وإن عجزوا رجعوا الى بلادهم وخلوا بينكم وبينه ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، وأرى لكم ان لا تقاتلوا مع القوم إلا ان تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونوا بأيديكم وعندها يضطرون ان لا يتخلوا عنكم ويرجعوا الى بلادهم .

واقتنعت قريظة بهذا الرأي وقالوا له لقد أشرت بالصواب ، ثم خرج واتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وقد بلغني امر رأيت علي حقاً ان ابلغكموه فاكتموه علي ، فقالوا لك

ذلك ، قال بلغني ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد ارسلوا اليه بذلك وعرضوا عليه ان يأخذوا رجالاً منكم ومن غطفان ويسلموه اياهم ليضرب اعناقهم ثم ينحازوا معه حتى يستأصلوكم ، فأجابهم هو لذلك ، فان بعث اليكم اليهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تسلموا لهم احداً .

وخرج الى غطفان وقال : يا معشر غطفان انتم اهلي وعشيرتي واحب الناس الي ، ولا اراكم تتهموني في شيء ، فقالوا انت لست بمتهم عندنا ، ثم قال لهم ما قاله لقريش وحذرهم من اليهود وغدرهم بهم ، واستطاع ان يشحن جو قريش وغطفان بالشك والريب في يهود بني قريظة .

وجاء في كتب السيرة انه لما كانت ليلة السبت من شوال ارسل ابو سفيان ورؤوس غطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل ومعه جماعة من قريش وغطفان فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر فاستعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا اليهم ان اليوم يوم السبت ونحن لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان احدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً يكون بأيدينا لنطمئن بانكم ستقاتلونه الى النهاية فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ان تسرعوا الى بلادكم وتتركونا وإياه وهو في بلدنا ولا طاقة لنا به وحدنا .

فرجع عكرمة ومن معه الى قريش وغطفان واخبروهما بمقالة القوم ، فقالوا عند ذلك صدق نعيم بما حدثنا به ، فأرسلوا اليهم انا لا ندفع لكم رجلاً واحداً من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا لنقاتله غداً واصر كل من الطرفين على موقفه ورفض اليهود ان يتعاونوا معهم إلا اذا دفعوا لهم الرهائن .

وصمم ابو سفيان ومن معه من غطفان على ان يناجزوا محمداً في

صبيحة يومهم التالي بعد ان يئسوا من بني قريظة ، وكانت قبلها تحصل مناوشات بين الطرفين بالنبال والسهام ، فلما كان الليل عصفت ريح شديدة هوجاء مصحوبة بأمطار وصواعق لا عهد لأحد منهم بها وظلت العواصف والأمطار تشتد حتى اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم وداخلهم من الرعب والخوف ما لم يعهدوه في تاريخهم الطويل ، وخيل اليهم ان المسلمين سينتهزون هذه الفرصة للوثبة عليهم والتنكيل بهم .

فقام طلحة بن خويلد ونادى ان محمداً قد بدأكم بالشر فالنجاة النجاة ، وقال ابو سفيان : يا معشر قريش انكم والله ما اجتمعتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره وقد لقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فاني راحل الساعة فأسرع القوم والعواصف تعبث بخيامهم وامتعتهم واستخفوا ما امكنهم حمله في تلك الحالة من امتعتهم ، وانطلقوا بمن معهم من غطفان والأحزاب راجعين عن المدينة وقد استولى عليهم الخوف والرعب ولم يعد لهم طمع بالنجاة بأنفسهم تاركين الكثير من امتعتهم حيث كانوا .

وجاء في كتب التاريخ والسيرة عن حذيفة بن اليمان ان رسول الله قد دعا عليهم وسأل الله سبحانه ان يكشف عنه ما احاط به من البلاء ويصرف عنه شرهم ، ولما احس ان القوم يتحركون مذعورين التفت الى المسلمين وقال من منكم يذهب اليهم وينظر لنا ما فعلوا وأنا أضمن له ان يكون رفيقي في الجنة ، فلم يقم احد ، فدعاني رسول الله لذلك ، فلم اجد بدأ من تنفيذ امره ، فقمت وذهبت الى القوم ودخلت بينهم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل وهم يستعدون للانصراف فما زلت بينهم حتى انصرفوا فرجعت واخبرت رسول الله بحالهم فحمد الله سبحانه والى ذلك تشير الآية :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ (الأحزاب ٩) .

ورجع النبي ومعه اصحابه الى المدينة بعد ان وقفوا في وجه الغزاة اكثر من عشرين يوماً ليلاً ونهاراً قد اعياهم الجوع والسهر والخوف من تسلط العدو على نسائهم وذراريهم وتمنوا ان يخلدوا الى الراحة ولو اياماً قليلة بعد تلك الغزوة الطويلة التي لم يسبق للمسلمين وحتى ليثرب في تاريخها الطويل ان عانت ما عانته في تلك الأيام من الخوف والقلق والجوع كما ذكرنا ، وقد أوجز الله سبحانه حالتهم بالآية التالية :

﴿ اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ (الأحزاب ١٠ ـ ١١) .

لقد تمنى المسلمون بعد تلك الجهود المضنية لو يتاح لهم ان يخلدوا الى الراحة ولو بضعة أيام ، ولكن انى لهم الراحة والاطمئنان على مصيرهم ، واليهود الذين اغروا قريشاً وغطفان وغيرهما من الأعراب بالوقوف الى جانبهم في ذلك الغزو الذي كاد ان يقضي على المسلمين لولا العناية الالهية التي وفرت للمشركين اسباب الهزيمة وبدت طلائعها ابتداء من قتل علي (ع) لعمرو بن ود العامري ونوفل بن عبد الله وفرار من معهما من الأبطال الذين استطاعوا عبور الخندق ، والتدابير الحكيمة التي اتخذها النبي (ص) بواسطة نعيم بن مسعود لتشتيت امرهم وتمزيق وحدتهم ، وانتهاء بتلك العواصف والصواعق والأمطار التي سدت عليهم جميع المنافذ ولم تترك لهم مجالاً للاستقرار والبقاء ولا املاً بالسلامة ، وامتلأت قلوبهم من الخوف والرعب .

هؤلاء الذين ساهموا في حشد تلك الألوف وانضموا اليهم متجاهلين معاهدتهم للنبي وعهودهم التي قطعوها على انفسهم بالوفاء لجميع بنودها ، هؤلاء لا يزالون الى جانبهم في المدينة ونفوسهم لا تنطوي على غير المكر والغدر والخداع وسيمثلون بالغد القريب نفس الدور الذي مثلوه بالأمس مع قريش واحلافها من الأعراب في غير ذلك الفصل الذي حدثت فيه تلك

الأحداث التي روعت المشركين وزعزعت جميع آمالهم واهدافهم .

ولو افترضنا ان النبي (ص) جدد العهد معهم في تلك الفترة ، فما الذي يمنعهم من نقضه والخروج عليه مرة ثانية كما فعلوا بالأمس ، في حين انهم لم يجدوا منه الا الصدق والوفاء كما اعترف بذلك زعيمهم حينما دعاه حيي بن اخطب للاشتراك مع الغزاة كما ذكرنا .

لقد التزم النبي (ص) بجميع بنود الاتفاق مع بني قريظة كما التزم بها مع بني النضير وبني قينقاع وظل وفياً كريماً يحوطها ويرعاها بما انطوت عليه نفسه الكريمة من النبل والكرم والوفاء ، ومع كل ذلك فقد كانوا اداة سوء وشر لم يذق هو وأصحابه طعم الراحة إلا بعد ان اخرجهم منها ، وها هم بنو قريظة يمثلون نفس الدور الذي مثله بنو قينقاع والنضير وأسوأ منه .

الفصل السادس عشر

غزوة بني قريظة

في اليوم الذي رجع فيه النبي الى المدينة ودخل كل واحد من المسلمين بيته يدعي المؤرخون والمؤلفون في السيرة النبوية ان جبريل جاء الى النبي وقال له ان الله يأمرك ان تسير الى بني قريظة ، فأمر رسول الله (ص) منادياً فأذن في الناس ان من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة واعطى النبي رايته لعلي (ع) وتبعه المسلمون بالرغم مما كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار قريش وغطفان لهم ، وسار علي والمسلمون الى بني قريظة وهم في حصونهم حتى إذا دنا منهم سمعهم يشتمون النبي ويتكلمون فيه بأفحش ما يكون من الكلام ، فرجع ليطلب من النبي ان لا يدنو من حصونهم حتى لا يسمع مقالهم فيه ، ولكن النبي تابع مسيرته حتى إذا دنا من حصونهم قال كما جاء في رواية الطبري :

يا إخوان القردة هل اخزاكم الله وانزل فيكم نقمته ، فقالوا يا ابا القاسم ما كنت جهولاً : ونزل على بئر من آبارهم حتى تكامل المسلمون وحاصرهم النبي (ص) نحواً من شهر تقريباً فلما اشتد عليهم الحصار قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله وكان الخوف قد استولى عليهم ودخل حيي بن اخطب معهم في حصونهم حين رجعت قريش وغطفان وفاء منه

بالعهد الذي اعطاه لكعب بن اسد احد زعمائهم ، ولما ايقنوا ان رسول الله (ص) غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال لهم كعب بن اسد : يا معشر اليهود انه قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا ايها شئتم، قالوا وما هي : قال نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم انه نبي مرسل ، وانه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم واموالكم وابنائكم ونسائكم .

فقالوا لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره ، فقال لهم إذا ابيتم هذا فهلم نقتل ابناءنا ونساءنا ثم نخرج من حصوننا الى محمد واصحابه مصلتين سيوفنا وليس وراءنا ما يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبينه ، فإن نهلك لا نكون قد تركنا وراءنا ما نخشى عليه وإن نظهر على محمد فالنساء كثير ، فقالوا : انقتل النساء والذرية بلا ذنب فلا خير في العيش بعدهم ، قال فاذا أبيتم هذه علي ، فان الليلة ليلة السبت ولعل محمداً واصحابه قد امنوا اننا لا نحاربهم فيها فانزلوا من حصونكم لعلنا نصيب من محمد واصحابه غرة ، فقالوا إذا فعلنا ذلك فقد افسدنا سبتنا واحدثنا فيه ما لم يحدثه احد من قبلنا ، وقد علمت ما اصاب من احدث فيه من المسخ .

وظلوا داخل حصونهم والمسلمون قد احاطوا فيهم من جميع الجهات ولم يقع بينهم غير التراشق بالنبل والحجارة بين الحين والآخر ، ولما يئسوا من تراجع المسلمين عنهم بعثوا الى النبي ان أرسل لنا ابا لبابة بن عبد المنذر اخا عمرو بن عوف نستشيره في امرنا ، فأرسله رسول الله (ص) فلما رأوه قام اليه الرجال والتف حوله النساء والأطفال يبكون في وجهه فرق لهم ، وقالوا له يا ابا لبابة : أترى ان ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقه يريد بذلك ، انه الذبح ان لم تنزلوا .

وندم ابو لبابة على اشارته هذه كما جاء في كتب السيرة واعتبرها خيانة للرسول (ص) فخرج من بني قريظة الى المسجد وربط نفسه الى عمود من

اعمدة المسجد حتى يتوب الله عليه ، واخيراً قبل الله توبته والرسول في بيت ام سلمة واذن لها الرسول ان تبشره بذلك ، فخرجت اليه وبشرته بقبول توبته كما جاء في رواية ابن اسحاق انزل فيه كما يدعي المؤلفون في السيرة وجماعة من المفسرين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون** ﴾ ، وانزل في توبته :

﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم** ﴾ (التوبة ١٠٢) .

وكانت خيانته انه افشى ما كان يضمره رسول الله (ص) ، وقال لهم كعب بن أسد لم يبق لكم اذاً الا ان تنزلوا على حكم محمد (ص) وقد سمعتم من ابي لبابة ما أعده محمد لكم ، وجعلوا يتشاورون فيما بينهم ، فقال بعضهم انكم لن تكونوا اسوأ من بني النضير مصيراً ، وان أولياءكم من الأوس سيدفعون عنكم الشر إذا أراده محمد بكم ، واعرضوا عليه ان ننزح عن حصوننا الى اذرعات ولا نظنه يجد بأساً في ذلك .

وبعثت قريظة الى النبي (ص) تعرض عليه الخروج الى اذرعات تاركة وراءها ما تملك ، فابى عليهم الا ان ينزلوا على حكمه فأرسل بنو قريظة الى الأوس يطلبون إليهم التدخل مع النبي (ص) بقبول هذا العرض كما تدخل الخزرج معه في امر بني النضير فمشى جماعة من الأوس الى النبي (ص) وقالوا يا رسول الله الا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من بني النضير حلفاء الخزرج ، فقال لهم النبي : ألا ترضون ان اجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم ؟ قالوا بلى يا رسول الله : قال فقولوا لهم ان يختاروا من الأوس من شاؤوا ، فاختار اليهود سعد بن معاذ ، ونسوا موقفهم مع سعد حينما نقضوا العهد وانضموا الى الغزاة ، وتحذيره اياهم من الإقدام على هذا الأمر ، وكيف قابلوه بشتم رسول الله واصحابه حتى اضطروه ان يقابلهم بالمثل .

وكان سعد بن معاذ قد اصيب بسهم في أكحله قطع عرقاً منه خلال حصار الأحزاب للمسلمين نزف منه اكثر دمه واصبحت حياته مهددة بالخطر ، وكان قد قال حين اصابه السهم : اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لها فإنه لا قوم احب إلي من ان اجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم ان كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة . وكان النبي بعد رجوعه من الخندق امرهم ان يضعوه في خيمة رفيدة في المسجد ليكون قريباً منه ، لأنها كانت تعالج الجروح الصعبة وتداوي الجرحى ، فلما اختارته قريظة ليكون حكماً بينها وبين النبي (ص) اتاه قومه من الأوس واحتملوه وأقبلوا به الى رسول الله ، وهم يقولون يا أبا عمرو احسن في مواليك ، فإن رسول الله انما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما اكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم .

فرجع عند ذلك بعض من كان معه من قومه الى دار بني عبد الأشهل ونعوا لهم رجال بني قريظة قبل ان يصل اليهم سعد بن معاذ ، وأيقن بنو عبد الأشهل ان سعداً لا ينسى لهم غدرهم برسول الله ونقضهم العهود التي كانت بينهم وبينه ، وانهم ان خرجوا من المدينة كما خرج بنو قينقاع والنضير سيحتلون الدور الذي مثلوه بالأمس ، وربما يشتد خطرهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم .

ولا شك ان النبي (ص) كان يرى فيهم هذا الرأي ، ولو كان يحتمل فيهم ان يهادنوا المسلمين ولو احتمالاً خفيفاً لم يقدم على ما أقدم عليه ، لأنه لم يكن يلجأ الى السيف الا لعلاج اخير لا يرى بديلاً عنه وهو القائل لذة العفو خير من لذة الانتقام واذا ظفرت في خصمك فليكن العفو احلى الظفرين ، ولكنه كان يائساً من مهادنتهم للمسلمين مهما صنع معهم من الخير والاحسان .

واذا عفا عنهم اليوم فسيمثلون معه نفس الدور الذي مثلوه بالأمس حينما انضموا لأخصامه كما كان واثقاً من ان سعداً لا يداري ولا يحابي احداً على حساب الإسلام ، ومن سوء طالع بني قريظة انهم اختاروا زعيم حلفائهم ليكون حكماً بينهم وبين رسول الله (ص) ، وهو الذي جاءهم بالأمس القريب يذكرهم فيما بينه وبينهم من تحالف وتعاون من عشرات السنين ويخوفهم عواقب غدرهم ونقضهم للعهد القائم بينهم وبين النبي (ص) ويستعطفهم بأن لا يتعاونوا مع الأحزاب ، وان يقفوا على الحياد ، في حين ان المعاهدة بينهم وبين النبي تنص على التعاون المتبادل لخير الطرفين ، فقابلوه بأفحش ما يكون من القول .

وكان لا بد لسعد وهو الذي شهدت له مواقفه في بدر وأحد والخندق وبقية الغزوات بالاخلاص والصلابة في الحق ، كان لا ينتظر منه ان يحكم فيهم بغير حكم الله سبحانه ، ما دام يعتقد بأن بقاءهم يهدد الاسلام بأشد الأخطار بعد المراحل التي مر فيها معهم .

ولما انتهى الى النبي استقبله وقال لمن حوله من الأوس قوموا الى سيدكم فقاموا اليه وأنزلوه عن دابته ، فلما جلس قالوا : يا أبا عمرو ان بني قريظة قد حكموك ورضي رسول الله بحكمك فيهم .

وجاء في رواية ابن اسحاق انه التفت الى القوم ، وقال عليكم عهد الله وميثاقه ان الحكم سيكون ما حكمت عليكم قالوا نعم ، والتفت الى الناحية الثانية التي فيها رسول الله وقال مثل مقالته فرد عليه رسول الله وقال نعم ، فقال سعد عند ذلك اني احكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري وتقسيم اموالهم على المسلمين ، فقال له النبي (ص) كما جاء في كتب السيرة : لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبعة أرقعة .

وقال ابن هشام في سيرته : ان الذي اضطرهم الى النزول على حكم سعد بن معاذ هو انهم رأوا علياً (ع) قد هاجمهم ومعه الزبير بن العوام وهو

يقول : لأذوقن ما ذاق عمي حمزة او لأفتحن حصونهم ، فلما رأوه يشتد اليهم اخذهم الخوف والرعب منه وأيقنوا بالهلاك ، وقالوا يا محمد رضينا بحكم سعد فينا .

ثم ان رسول الله خرج الى سوق بالمدينة فحفر بها الخنادق وقتلهم عن آخرهم ودفنهم فيها ، وكان بينهم حيي بن أخطب وعليه حلة قد شققها من كل ناحية حتى لا يطمع فيها احد ويداه مجموعتان الى عنقه ، فلما نظر الى رسول الله قال والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل .

ثم التفت الى الناس وقال : ايها الناس لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدر وملحمة كتبت على بني اسرائيل ، ثم جلس وضربت عنقه ، ولم يقتل من نسائهم الا امرأة واحدة .

وجاء في كتب السيرة عن عروة بن الزبير ان خالته عائشة كانت تقول : والله ان تلك المرأة كانت عندي تتحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله يقتل رجالهم في السوق اذ هتف هاتف باسمها فقامت ، فقلت لها ويلك ما لك قالت : سأقتل ، قلت : ولِم ؟ قالت : لحدث احدثته .

وكان من امرها ان خلاد بن سويد احد المسلمين كان جالساً بالقرب من دارها فالقت عليه الرحا وقتلته كما جاء في المؤلفات في سيرة الرسول (ص) .

وتشفع ثابت بن قيس بن شماس باحد بني قريظة وكان شيخاً كبيراً قد منَّ على ثابت بن قيس في حرب وقعت بينهم يوم بغاث فأخذه أسيراً وجز ناصيته وأطلقه ، ويدعى الزبير بن باطا القرظي ، فلما حكم عليهم سعد بن معاذ بالقتل ، جاء ثابت بن قيس الى الزبير بن باطا وهو يوم ذاك شيخ كبير ويكنى بأبي عبد الرحمن فقال له : هل تعرفني يا ابا عبد الرحمن ، قال : وهل يجهل مثلي مثلك فقال له : إني اريد ان اجزيك بيدك عندي ، فقال : ان الكريم يجزي الكريم ، فأقبل ثابت على رسول الله وقال قد كانت للزبير علي

يد وله عندي منة وقد احببت ان أجزيه بها فهب لي دمه يا رسول الله ، فقال النبي (ص) هو لك ، فأتاه واخبره بأن رسول الله قد عفا عنه .

فقال له الزبير : إني شيخ كبير وما اصنع بالحياة وانا على هذه الحالة بعد اهلي وأولادي ، فرجع ثابت الى رسول الله واستوهبه اهله وولده وما له فوهبهم له النبي ، فرجع الى الزبير واخبره بذلك ، فالتفت إليه الزبير وقال : ما فعل الذي كان وجهه كالمرآة تتراءى فيها عذراء الحي ، يعني بذلك كعب بن أسد زعيم قريظة، وأضاف ما فعل بنو عمرو بن قريظة ومضى يسأل عن جماعة من اعيانهم وشبابهم ، وثابت بن قيس يقول له قد قتلوا بحكم سعد بن معاذ ، فقال له عند ذلك : اني أسألك بيدي عندك ان تلحقني بهم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء خير ، فقدمه ثابت وألحقه بقومه .

وكانت سلمى بنت قيس ام المنذر إحدى خالات الرسول (ص) قد تشفعت برفاعة بن سموأل القرظي بعد ان التجأ إليها ولاذ بها فوهبه لها رسول الله (ص) ولقائل ان يقول كيف اقر النبي حكم سعد فيهم مع ما فيه من العنف والقسوة كما قيل ذلك واستغله الأعداء للتشويش على الإسلام ولكننا نقول في الجواب بالاضافة الى ما ذكرناه سابقاً ان سعدا حكم عليهم بشريعتهم التي يدينون بها ويحكمون على الناس بموجبها .

قال العقاد في كتابه العبقريات الإسلامية ص ٢١٩ طبع دار الفتوح : انما دانهم سعد بنص التوراة التي يؤمنون بها كما جاء في الاصحاح ١٠ الى ١٥ من التثنية ، حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، واما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمة تفتحها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الهك .

وجاء في الكاشف ج ٦ ص ٢٠٩ ان هذا النص موجود في التوراة اصحاح ٢٠ من التثنية لا اصحاح ١٠ الى ١٥ واضاف الى ذلك ان هذا النص يدل بوضوح على اكثر مما حكم به سعد بن معاذ على بني قريظة ، لأنه يقول بصراحة ان استجابت المدينة الى الصلح فجميع اهلها عبيد مسخرون ، وإن ابت وجب ذبح جميع الذكور بحد السيف المقاتلين منهم وغير المقاتلين ونهب الأموال وسبي الأطفال والنساء والذراري ، ومضى صاحب الكاشف يقول : وهناك نص آخر في التوراة لم يذكره العقاد ، وهو اعظم جوراً من النص الأول ، لأنه يأمر بقتل جميع السكان ولا يستثني النساء والأطفال كما يأمر بإحراق المدينة بجميع ما فيها بحيث لا يمكن بناؤها وتجديدها الى الأبد .

فقد جاء في الاصحاح الثالث عشر من التثنية ما نصه بالحرف الواحد : فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف وتجمع كل امتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة ، وكل امتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلاً الى الأبد لا تبنى بعد .

وبعد هذه النصوص التي يدين بها اليهود ويطبقونها على الشعوب في تاريخهم الطويل تنفيذاً لنصوص توراتهم وكتبهم المقدسة فيقتلون الرجال وينهبون الأموال ويسبون النساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى من كل شعب يغتصبونه ولو لم ينكث لهم عهداً او يعلن عليهم حرباً ، فهل بعد تلك النصوص التي وردت في كتبهم المقدسة وتلك المعاملة التي يعاملون بها الشعوب التي يسيطرون عليها في ماضيهم وحاضرهم يكون ظالماً لهم من حكم عليهم بما يدينون به وعاملهم بما عاملوا به الناس ولو لم ينقضوا لهم عقداً او يعلنوا عليهم حرباً ، مع العلم بأن النبي (ص) لم يقتل احداً منهم الا بعد ان نقضوا العهد الذي ابرمه معهم وأعلنوا عليه الحرب مع قريش واحلافها الغزاة وبعد ان اعذر اليهم وأرسل اليهم زعماء احلافهم من الأوس يطلبون اليهم الالتزام بالعهود والمواثيق التي ابرموها مع النبي (ص)

فقابلوهم بشتم الاسلام ونبي الاسلام وبعد ان اختاروا سعداً ليحكم عليهم بما يستحقون ، وقد اتفقت جميع الشرائع السماوية والوضعية على ان من دان بدين لزمته احكامه ، وهنا يكمن السر في قول الرسول الأعظم (ص) لسعد بن معاذ حكمت فيهم بحكم الله من سبعة ارقعة .

وفي رواية ابن اسحاق ان النبي قد ارسل سعيد بن زيد الأنصاري وارسل معه مما تركه بنو قريظة ليشتري له بها خيلاً وسلاحاً فذهب بالأموال واشترى بها وهكذا كان يصنع كلما سنحت له الفرصة ليشتري السلاح والخيل لتتوفر لديه اسباب القوة لمحاربة الظلم والفساد والطغيان ، ويعطي الأفضلية لهذه الناحية ، ويتحمل هو واصحابه اشد ما يمكن من الحاجة والفقر في كثير من الأحيان كما تحدث بذلك كتب السيرة تنفيذاً لأمر الله سبحانه :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (الأنفال ٦٠) .

ويدعي كتاب السيرة انه قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة فكانت عنده تخدم في بيته الى ان توفي ، ويدعي بعضهم انه عرض عليها ان يتزوج بها ويضمها الى نسائه فأبت عليه واحبت ان تبقى في ملكه ، وأبت ان تسلم اولاً ، ثم دخلت في الاسلام بعد ذلك .

وبمناسبة موقف بني قريظة من النبي (ص) وما أصابهم بعد ذلك قال الله سبحانه :

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان على كل شيء قديراً ﴾ (الأحزاب ٢٦ ـ ٢٧).

وبعد ان نفذ رسول الله حكم سعد في بني قريظة توفي سعد بن معاذ ، فلما اخبر رسول الله بوفاته قام يجر ثوبه الى المسجد فوجده ميتاً .

وجاء في بعض المرويات انه قال : والـذي نفسي بيده لقـد استبشرت الملائكة بروح سعد ، ولما صلى عليه ودفنه قـال : ان للقبر لضغـطة لو كـان احد ناجياً منها لنجا سعد بن معاذ ، وأكثر من التـرحم عليه وعـلى من مضى ممن صدقوا ما عاهدوا عليه الله ورسوله .

ولما سمع امه تندبه وتنوح عليـه ونسوة من الأنصـار قال : كـل نائحـة تكذب الا نائحة سعد بن معاذ .

مقتل سلام بن أبي الحقيق

ولمـا انتهى المسلمـون من امــر الأحـزاب وبني قــريـظة وقتلوا حيي بن أخـطب الذي اشتـرك هو وسـلام بن أبي الحقيق في تحريض قـريش وغطفـان وبني قـريظة عـلى غزو المسلمـين وكان قـد استقـر في خيبـر والتجـأ الى بعض حصونها فاستأذنت الخزرج رسول الله في قتله بعد قتـل بني قريـظة وزعمائهم بحكم سعد بن معاذ فأذن لهم رسول الله بـذلك فخـرج اليه من الخـزرج من بني سلمة خمسة نفـر كما جـاء في المؤلفات في السيـرة خرجـوا اليه بقيـادة عبد الله بن عتيـك ونهاهم رسول الله ان يقتلوا وليـداً او امرأة فخـرجوا مستتـرين حتى انتهـوا الى دار ابن ابي الحقيق ليلاً ، وكـان في علية يصعـد اليهـا بعجلة تشبه السلم في غرفنا اليوم فلما بلغوا باب البيت الـذي هو فيـه استأذنـوا عليه فخرجت اليهم امرأته وقالت من انتم قالوا من العرب نلتمس الميرة ، فقـالت ذاك صاحبكم فادخلوا عليه فدخلوا عليه وأغلقوا الأبواب حتى لا يحس احد بما يجري بينهم فلما رأت منهم زوجته ذلك احست بالشـر فرفعت صـوتها تحـاول التشهير بهم فأسرعوا اليه بسيوفهم وهو نائم على فراشه ، وتعالى الصيـاح من زوجته ولكنهم لم يمسوها بسوء تنفيذاً لوصية رسول الله (ص) ، ولمـا اجهزوا عليه خرجوا مسرعين مخافة ان يدركهم الطلب ، وتسامع الناس بـالحادث من

صياح زوجته وعويلها فأسرعوا اليه وأوقدوا النيران يفحصون عنهم ، وقد التجأوا الى ناحية لم تدخل في حساب احد ، ثم تسلل احدهم الى المجتمعين ليتأكد لهم من وفاته من حيث لا يشعر اليهود بذلك ، وسمع زوجته تقول لقد سمعت صوت ابن عتيك ، ثم تراجعت وقالت واين ابن عتيك من هذه البلاد ، ثم رجعوا الى رسول الله وكل يدعي قتله .

غزوة بني لحيان وذي قرد

يدعي جماعة من المؤلفين في السيرة النبوية ان غزوة بني لحيان وذي قرد كانتا بعد صلح الحديبية ، وذهب ابن سعد في طبقاته انهما كانتا قبل الحديبية وذكرهما ابن هشام في سيرته بعد غزوة الأحزاب وقتل بني قريظة وقبل غزوة بني المصطلق بعد ان مر عليهما نحو من ستة اشهر ، وكان ذلك في ربيع الأول .

وقيل في جمادى الأولى وقد خرج النبي من المدينة في مائتين من اصحابه قاصداً بني لحيان لينتقم لأصحابه السبعة الذين غدر بهم بنو لحيان عند ماء الرجيع قبل ذلك الوقت بنحو من سنتين تقريباً ، ولم يعلم احداً بمقصده مخافة ان يتسرب خبره الى القوم فينهزموا ، او يتخذوا الحيطة لأنفسهم ، واظهر انه يريد الشام . وجعل يجد السير مسرعاً بمن معه حتى بلغ منازل بني لحيان ، وصادف ان جماعة رأوه وهو متجه نحوهم فأخبروا بني لحيان بذلك فتركوا منازلهم واعتصموا برؤوس الجبال ومعهم امتعتهم وذراريهم ، فلم يتمكن منهم النبي فرجع واتجه نحو عسفان موهماً اهل مكة انه قاصد اليها ، فنزل عسفان وبعث فارسين من اصحابه حتى بلغا كراع الغميم على مقربة من مكة ، ورجع بمن معه الى المدينة وهو يردد مع اصحابه آيبون تائبون لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال .

غارة عيينة بن حصن على ابل المدينة

وبعد رجوعه بأيام قليلة أغار عيينة بن حصن بن حذيفة على ابل حلوب لرسول الله ومعه جماعة من غطفان ، والابل كانت مع رجل من بني غفار وامرأته ، وقيل انها كانت مع ابي ذر وابنه وزوجته وثلاثة غيرهم فقتل ابنه واسرت زوجته ونجا هو ومن معه .

وفي رواية الطبري عن أبي سلمة بن الأكوع ان رسول الله بعد صلح الحديبية بعث بإبله مع راعيها وغلامه رباح وكنت معه على فرس لطلحة بن عبيد الله ، فأغار عبد الرحمن بن عيينة على ابل رسول الله فقتل راعيها واستاقها ، قال سلمة بن الأكوع فقلت لرباح خذ هذا الفرس واعطه لطلحة واخبر رسول الله ان ابن عيينة قد أغار على ابله واستاقها .

وأضاف ابن الأكوع الى ذلك كما جاء في كتب السيرة انه وقف على مشرف المدينة وقال واصباحاه : وكانت الكلمة التي تستعمل لطلب النجدة ، ومضى يقول : اني خرجت في آثار القوم فجعلت أرميهم بالنبل واعقر خيولهم حين يكون الشجر ، فإذا رجع الي فارس جلست له الى جانب الشجرة ورميته ، فلم يدن مني فارس إلا اصبته او عقرت به فرسه ، فلما انتهينا من الأشجار وبلغنا المرتفعات والجبال علوت الجبال والمرتفعات وجعلت ارميهم بالنبل والأحجار حتى ما بقي شيء من ابل رسول الله الا وتركوه واصبح ورائي ، وما زلت ارميهم واسير في اثرهم حتى القوا اكثر من ثلاثين رمحاً وثلاثين بردة يستخفون منها ، وكلما تركوا شيئاً جمعته في طريق رسول الله ووضعت عليه الحجارة ، ومضيت في اثرهم حتى إذا كان الضحى اتاهم عيينة بن بدر القزاري مدداً لهم وهم في ثنية ضيقة وانا فوق الجبل فقال لهم عيينة ما هذا الذي أرى ، قالوا لقد لقينا منه شراً ، والله ما فارقنا منذ السحر

حتى الآن ولقد اخذ كل ما بأيدينا وجعله وراء ظهره فقال عيينة : لـولا ان له مدداً وراءه لتركِكم .

ثم انتـدب إلي أربعـة منهم فصعـدوا نحـو الجبـل فلما رأيتهم قلت أتعرفونني ، قالوا من انت قلت انـا ابن الأكوع ، والـذي كرم وجه محمد لا يـطلبني رجل منكم فيـدركني ولا أطلبه فيفـوتني ، ومضى يقول : فـما برحت مكـاني حتى نظرت الى فـوارس رسول الله (ص) يتخللون الشجـر يتقدمهم الأخـرم الأسـدي ، وفي اثـره ابـو قتـادة والمقـداد بن الأسـود الكنـدي فـولى المشـركون ونـزلت من الجبل واخـذت عنان فـرس الأخرم ، وقلت يـا اخـرم احـذر القـوم فـاني لا آمن ان يقـطعـوك فـانتـظر حتى يلحقـك رسـول الله واصحابه ، فقال : يا سلمـة ان كنت تؤمن بالله واليـوم الآخر فـلا تحل بيني وبين الشهادة ، فخليت عنان فرسه ، ولحق بعبد الـرحمن بن عيينة ، فعـطف عليه عبد الرحمن فاختلفا طعنتين فعقر الأخرم فرس عبد الـرحمن وطعنه عبـد الرحمن فقتله ، وركب عبد الرحمن فرس الأخرم ، فلحق به ابو قتادة فضـربه فعقر به الفرس وقتله .

ومضى القوم يشتدون حتى انتهوا قبل غيـاب الشمس الى ماء يقـال له ذو قرد فارادوا ان يشـربوا فـابصروا الـطلب في اثرهم ، فمـالوا الى ثنيـة ذي بشـر ، وانتهى رسول الله بمن معـه من المسلمين الى ذي قـرد وكانـوا نحواً من خمسمائة من الصحابة ، وقسم في كل مائة جزوراً ينحرونها .

قـال ابن الأكوع : فـأتيت رسول الله وقلت لـه انتخب من اصحابـك معي مائة لكي نهاجم المشركين عشاء فلا يبقى منهم مخبر ، فقال اكنت فاعلاً ذلك يا سلمة ؟ قلت نعم والذي اكرمك بالنبوة فضحك حتى بدت نواجذه .

ثم قـال النبي (ص) انهم الآن اصبحوا بـأرض غطفـان ، فلما اصبح رسول الله رجع بمن معه الى المدينة واسترجع جميع الابـل التي كان الغـزاة قد استاقوها .

وجاء في بعض المرويات من كتب السيرة ان زوجة ابي ذر التي اسروها وهي مع زوجها ترعى الابل كانت ترصد القوم حتى اذا ناموا ركبت بعض القلائص التي بقيت معهم من ابل رسول الله وفرت هاربة بها الى المدينة ، ولما بلغتها قالت يا رسول الله : اني كنت قد نذرت ان انحرها ان نجاني الله عليها ، فقال لها : بئسما جزيتها لا نذر في معصية ولا فيما لا تملكين وكانت الناقة لرسول الله وتسمى العضباء ، وقبله كانت لرجل من عقيل فوقع اسيراً في ايدي المسلمين فمر عليه رسول الله وهو قيد الأسر فقال يا محمد علام تأخذوني ؟ فقال النبي نأخذك بجريرة حلفائك ثقيف ، وكانوا قد اسروا رجلين من المسلمين ، واخيراً افتدته ثقيف بالرجلين من المسلمين وبقيت العضباء مع ابل رسول الله[1] .

وبعد التتبع في كتب التاريخ والسيرة يجد الباحث اختلافاً بيناً وكبيراً في سرد اخبار تلك الغزوات واحياناً كل واحد يناقض الآخر في مروياته مما يبعث على الشك في كثير من المرويات حول السيرة وغيرها من اخبار العرب والمسلمين في العصور الأولى ، تلك الأخبار التي يعتمدها الباحث والمستشرق واعداء العرب والمسلمين اساساً لابحاثهم ودراساتهم على عيوبها وعلاتها ويخرجون احياناً بنتائج تسيء الى الرسول وسيرته .

ان رواية ابن الأكوع في هذه الغزوة اشبه بأساطير العرب القدامى التي كان القصاصون يضعونها في اخبار الملاحم والغزوات .

لقد ادعت الرواية عنه انه تتبعهم وحده وهو راجل وهم عدد كبير وكأنهم النعاج بين يديه يفتك بهم ويعقر خيولهم حتى تركوا الابل وراءهم ، وتركوا مع ذلك اكثر من ثلاثين رمحاً وحلة ، وما زال وحده يطاردهم حتى اجهدهم ، في حين ان بعض المرويات تنص على ان المسلمين قد طاردوهم

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير .

مع النبي (ص) واسترجعوا من الابل عشرة لا غير ونجا الغزاة بما بقي منها .

وتنص بعض المؤلفات في السيرة على ان الأسيرة زوجة ابي ذر ترصدت القوم حتى إذا ناموا ، ركبت من الابل التي بقيت معهم العضباء ناقة النبي وفرت بها الى المدينة ، والبعض الآخر من المرويات تنص على ان النبي واصحابه استرجعوا الابل بكاملها وقتلوا من الغزاة جماعة الى غير ذلك من التشويش والاضطراب .

ويبدو من اكثر المؤلفات في سيرة الرسول (ص) انه كان لسلمة بن الأكوع دور مشكور في هذه المناسبة ، اما تحديده بما ترويه بعض السيرة وكتب التاريخ فلا تؤيده المصادر الأخرى بل هو اشبه بالأساطير كما ذكرنا .

وجاء في تاريخ الطبري ان عكاشة بن محصن ادرك بعض الغزاة في هذه الغزوة ، ويدعى أدبار ، وكان هو وابنه عمرو بن أدبار على بعير واحد فطعنهما بالرمح طعنة انتظمت الاثنين وقتلهما معاً .

ولعل مرد الاختلاف الوارد في هذه الحادثة وغيرها يعود الى ان تدوين السيرة كان بعد مضي اكثر من ثمانين عاماً على وفاة الرسول (ص) ، واعتمد المؤلفون فيها في تلك الفترة على التابعين والموالي وغيرهم ممن تناقلوا الأخبار وحوادث السيرة عن الطبقات التي سبقتهم ، وكانت الذاكرة هي الوعاء لكل الآثار الإسلامية باستثناء نتف محدودة من المدونات لم تستوعب الا القليل من الآثار ، وكان ذلك من اسباب الغموض الذي يكتنف بعض الجوانب الاسلامية والمرويات عن سيرته وغزواته ، هذا بالاضافة الى دور القصاصين والوضاعين وغيرهم كما اشرنا الى ذلك في مختلف المناسبات .

الفصل السابع عشر

غزوة الحديبية

كـان ما يسميـه بعض المؤلفين في السيـرة بغـزوة الحـديبيـة ، ويسميـه آخـرون بصلح الحديبيـة في مطلع ذي القعـدة بعد ست سنوات مضت عـلى خروجه من مكة مهاجراً بمن معه من المسلمين الى المدينـة ، وما ان استقـر في المدينة حتى تتابعت الأحداث ، وظل النبي ومن معه من المسلمين منذ الأيـام الأولى لهجرته وهم في جهاد مستمر وغزوات متصلة بينهم وبين قـريش وبينهم وبـين اليهود وعـرب الجـزيـرة تتخللهـا انتصـارات وغنـائم امـدت المسلمـين بالقوة ، وساعدت على انتشار الاسـلام ، كما تتخللهـا نكسات ولكن آثـارها كانت محدودة لم تؤثر على مسيرة الدعوة وانتشارها .

وكان النبي (ص) بما اوتي من حكمة يطوقهـا قبل ان يستغلهـا اعداء الاسـلام لصالحهم ، وقـد استطاع خـلال هذه المـدة القصيـرة القضـاء عـلى الطوائف الثلاث من اليهود ومن كان ينـاصرهم من الأعـراب ، واتجه الكثـير من عـرب الجزيـرة الى الدين الجـديد وارتفعت معنـويـات المسلمـين وايقنـوا بالنصر في النهاية على جميع اخصامهم واعدائهم في الجزيرة بكاملها . وخـلال تلك السنين من مبعثه مع ما كان يعانيه من المشركـين واليهود والمنـافقين كـان يبلغ مـا يتلقاه من الـوحي من التشـريعـات التي تنظـم صلة الانسـان بـربـه

وبمجتمعه واسرته ومعاملاته والتي تناولت جميع جوانب الحياة ، ومن بين تلك التشريعات ما يتعلق بشأن الحج والمسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وامناً .

وكان المسلمون خلال ذلك يتحرقون شوقاً الى الحج وزيارة الكعبة وقد اصبحت قبلتهم في صلاتهم منذ السنة الأولى التي غادر النبي ومن معه مكة مكرهين ، ولكن قريشاً لم تكن لتمكنهم من ذلك او تتساهل معهم في امر من هذا النوع مهما كان الحال .

وفيما كان المسلمون يتحرقون لتلك الرحلة ، وإذا بالنبي (ص) يخبرهم بما عزم عليه بأمر من الله سبحانه لتجديد العهد بزيارة البيت وأداء بعض المناسك في العشرة الأولى من شهر ذي القعدة وسرى نبأ هذه الرحلة في جميع انحاء المدينة بأسرع من البرق ، وأعلن النبي (ص) بأنه لا يفكر في حرب قريش ولا في استعمال القوة ما دام يجد سبيلاً لذلك . ودعا عامة المسلمين في المدينة وخارجها وأوفد رسله الى القبائل من غير المسلمين يدعوهم الى الخروج معه الى بيت الله مسالمين غير محاربين وظهر بمظهر الحريص على ان يدخل مكة بأكبر عدد من المسلمين وغيرهم ، لتعلم قريش وغيرها انه قد خرج في الشهر الحرام لا يريد قتالاً ولا حرباً ، وإنما خرج لأداء فريضة فرضها الاسلام كما فرضتها شريعة العرب وبعض الأديان من قبل ، وعلامة ذلك انه قد خرج ومعه جمع كبير ممن لا يؤمنون بدينه ولا يعترفون بنبوته ، فما على قريش بعد ذلك ، اتراها تستقبله كما تستقبل الحجاج لا سيما وان معه من سيقف الى جانبها إذا كان ناوياً للفتح او للحرب ، ام تراها تعلن عليه الحرب وإن علمت انه جاءها معتمراً لا غازياً ومسالماً لا محارباً ، وماذا يكون موقفها عند ذلك من تلك القبائل المشركة التي لا ترى لموقفها هذا مبرراً من رجل جاءها مسالماً يريد ان يعتمر في الأشهر الحرم كما كانت تصنع العرب في جاهليتهم مع ما كان بينهم من احقاد وحروب وثارات .

ومن الجائز القريب ان تكون دعوته لغير المسلمين بالاشتراك معه في

تلك الرحلة لإحراج قريش وإتمام الحجة عليها كما ذكرنا .

وبالفعل ارسل الى العرب الذين لا يزالون على شركهم يدعوهم الى هذه المسيرة ، ولكن المؤلفين في سيرة النبي (ص) يؤكدون ان الأعراب لم يتجاوبوا معه ، ومع ذلك فقد اصر على الخروج بمن معه من المهاجرين والأنصار ، وكانوا ألفاً واربعمائة وقيل اكثر من ذلك واستخلف على المدينة ابن ام مكتوم .

وقال المفيد في ارشاده انه اعطى لواءه لعلي (ع) كما أعطاه اياه في اكثر حروبه وغزواته وساق من الهدي سبعين بدنة وخرج يتقدمهم على ناقته القصوى ومعهم سيوفهم في اغمادها ومضى بمن معه من المسلمين وغيرهم حتى بلغ ذا الحليفة[1] فأحرم فيها ولبى ودعا بالبدن وجرح عدداً منها في الشق الأيمن من سنامها ووضع في اعناقها قطعاً من الجلد تشير الى انها هدي .

ولما بلغ عسفان بلغ قريشاً خبره ، فاجتمعوا على صده عن المسجد الحرام وخرجوا ومعهم النساء والصبيان ونزلوا بذي طوى ، وأرسلوا مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد الى كراع الغميم[2] ليقطع الطريق عليه ، وكان قد دخل بشر ، او بشير بن سفيان مكة واطلع على موقف قريش وخروجها بعدتها وعددها لمنعه من دخول المدينة فخرج من مكة والتقى بالنبي (ص) بعسفان ، فقال له يا رسول الله : هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم ، وقد روى ذلك ابن هشام وغيره .

---

(١) هو ميقات اهل المدينة الذي يحرمون منه للحج ويقع على ستة اميال من المدينة .

(٢) كراع الغميم منزل بين مكة والمدينة قبل عسفان بثمانية اميال .

وهـذه الروايـة تؤكد ان خـالد بن الـوليد كـان لا يزال مشـركـاً يكيـد للإسلام والمسلمين مع قريش وغيرها من الأعراب ولكن رواية الطبـري تنص على ان الذي جاء بالخيل عكرمة بن ابي جهل فانتدب له النبي خالـداً فهزمـه حتى ادخله حيطان مكة وهكذا كان يصنع به كلما عاد ليهاجم المسلمين .

ولكن اكثر المؤلفين في السيرة والمؤرخين يصرحون بـأن خالـداً كان لا يزال مشركـاً وقد تـولى للمشركـين قيادة الخيـل لصد الـرسول واصحـابه عن دخول مكة ، وقد اورد الطبري الروايتين ورجح الرواية المشهورة .

وعندما اخبر بشير بن سفيـان رسول الله بمـوقف قريش قـال (ص) يا ويح قريش لقد اكلتهم الحرب مـاذا عليهم لو خلوا بيني وبـين العرب ، فـإن هم اصـابوني كـان الذي أرادوه ، وإن أظهـرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافـرين ، وإن لم يعقلوا قاتلوا وبهم قـوة ، فما تـظن قـريش ، فـوالله لا ازال اجاهد على الذي بعثني الله به او تنفرد هذه السالفة[1] .

ووقف عند ذلك يفكر ماذا يصنع ما دامت قريش مصرة عـلى منعه من دخول مكة ومستعدة لحربه وهو لم يخرج من المدينة لذلك ، وكان كـل همه ان يتجنب الصـدام معهم حتى لا تكـون لهم الحجـة عليـه عنـد العـرب الـذين يقدسون الأشهر الحرم ويحرمون فيها القتال ، وفي الـوقت ذاته لا يـرى القتال في مثل هذا الظرف من مصلحته لا سيما وانه لم يخرج بالعتاد اللازم .

وجاء في كتب السيرة انه قال لأصحابه : من منكم يخـرج بنا عـلى غير طريقهم التي هم عليها فتقـدم اليه رجـل من اسلم وقال انـا يا رسـول الله : فسلك بهم طـريقاً وعـراً كثير الحجـارة بين شعـاب مضنية فسـاروا فيه الى ان خرجوا منـه الى ارض سهلة سلكوا فيهـا ذات اليمين في طـريق اوصلتهم الى ثنية المرار مهبط الحديبية من اسفل مكة .

---

(١) السالفة صفحة العنق ويعني بذلك اني لا ازال اجاهد حتى الموت .

فلما رأت خيل قريش ما صنع النبي كروا راجعين ادراجهم الى جهة مكة ليقفوا مدافعين عنها إذا اراد محمد (ص) دخولها ، ومضى رسول الله في ثنية المراد حتى بلغ الحديبية فبركت ناقته القصوى ، فقال الناس خلأت الناقة يعنون بذلك انها حرنت او اجهدت ، فقال النبي ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعوني قريش الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا اعطيتهم اياها .

ثم قال للناس : انزلوا فقيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه ، فأخرج سهماً من كنانته واعطاه رجلاً من اصحابه فنزل به في بئر من تلك الآبار الموجودة في ذلك المكان وغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس منه بعطن على حد تعبير المؤلفين في السيرة يعنون بذلك ان الماء قد ظهر منه وارتفع ، واضاف ذلك ابو الفداء في تاريخه ان هذه الكرامة من مشاهير معجزات النبي (ص) وبقي النبي في مكانه وقريش ترابط بكل قوتها على حدود مكة لجهة الحديبية .

ويدعي بعض المؤلفين في السيرة ان قريشاً اوفدت اليه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به ، فأخبرهم بأنه لا يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته ، وقال لهم نحواً مما قاله لبشير بن سفيان فرجعوا الى قريش واخبروها بما سمعوه منه ، وقالوا : يا معشر قريش انكم تتعجلون على محمد ، انه لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت وحاولوا إقناعهم فلم يفلحوا وقالوا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك العرب .

ثم بعثوا مكرز بن حفص بن الأحنف من بني عامر بن لؤي ، فلما رآه رسول الله مقبلاً قال هذا رجل غادر ، فلما انتهى الى رسول الله وكلمه أجابه بمثل ما اجاب بديلاً واصحابه ، فرجع اليهم واخبرهم فرفضوا ما جاءهم به .

ثم ارسلوا اليه الحليس بن علقمة وكان يوم ذاك سيد الأحابيش والأحابيش يشكلون قوة لقريش وتعتمد عليهم في القتال ، وقد ارسلوه على امل ان يزداد حماساً إذا رأى ان محمداً لا يسمع له ولا يستجيب لطلبه . وخرج الحليس متوجهاً نحو معسكر النبي (ص) فلما رآه مقبلاً قال النبي ان هذا من قوم يتألهون ، فأمر بالهدي ان تعرض امامه ليرى بعينه ان محمداً قد جاء حاجّاً لا مقاتلاً ، ولما رأى الحليس سبعين بدنة تتجه نحوه من الوادي في قلائدها قد اكلت اوبارها من طول الحبس تأثر بهذا المنظر ورجع الى قريش قبل ان يتصل بالرسول ، وهو مقتنع بأن المسلمين لا يريدون حرباً ولا عدواناً على احد ، واخبرهم بما شاهد ورأى ، فأجابوه إنما انت رجل اعرابي لا تدرك اهدافهم .

وقال ابن هشام انه لما سمع منهم ذلك غضب وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لئن لم تتركوا محمداً وما جاء لأجله او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

وخشيت قريش عاقبة غضبه لأنه بمن معه من الأحابيش يشكلون الجزء الأكبر من قوة قريش ، وطلبوا منه ان يتريث حتى ينتهوا مع محمد الى نتيجة لصالحهم وترضي حليساً واصحابه .

ورأت قريش بعد ذلك ان توفد الى محمد (ص) ع روة بن مسعود الثقفي وكانوا يطمئنون الى رأيه وحكمته في معالجة المشاكل ، ولكنه اعتذر اليهم بعد ما رأى وسمع من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم . وبعد ان اكدوا له انهم يثقون بحكمته وتدبيره ولا يتهمونه بسوء ، خرج الى النبي وجلس بين يديه ، ثم قال له يا محمد : لقد جمعت الناس على اختلاف اجناسهم وجئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم ، انها قريش لقد خرجت اليك ومعها الصبيان والنساء قد لبسوا جلود النمور وهم يعاهدون الله على ان لا

تدخلها عليهم عنوة مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ومد يده الى لحية رسول الله وهو يفاوضه في امر قريش وتصلبها في موقفها منه ومن اتباعه ، والمغيرة بن شعبة واقف فوق رأس النبي يقرع يد عروة كلما مد يده الى لحية رسول الله ؛ ويقول ارفع يدك عن وجه رسول الله قبل ان لا تصل اليك ، وعروة يقول له : ويحك ما افظك وأغلظك ورسول الله يبتسم .

ثم قال له عروة من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن اخيك المغيرة بن شعبة فقال له يا غادر : وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس ، وأشار عروة بذلك الى ما كان من غدر المغيرة وقتله لثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فهاج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط القتلى ، والأحلاف رهط المغيرة ، فأصلح بينهم عروة وادى ثلاثة عشر دية عوضاً عن القتلى من ماله .

ولما انتهى عروة من حديثه مع النبي اجابه بما اجاب به الوفود السابقة وأكد له بأنه لم يقصد حرباً ولا عدواناً ، وقد رأى عروة اصحاب النبي محدقين يتفانون في سبيله ويتبركون بالتراب من تحت قدميه ، فرجع الى قريش وقال لهم : يا معشر قريش اني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه ، ورأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ابداً .

وجاء في المؤلفات في السيرة ان النبي بعد هذه المحاولات من قبل قريش ارسل خراش بن امية الخزاعي اليهم على بعير له ليبلغهم ما جاء من اجله فعقروا به البعير وارادوا قتله لولا ان الأحابيش قد حالت بينهم وبين ما يريدون ، فرجع الى رسول الله واخبره بما جرى معه .

وحدث ابن اسحاق عن ابن عباس ان قريشاً ارسلت خمسين رجلاً ليصيبوا من اصحاب محمد احداً واخذوا يقذفونهم بالحجارة فأسرهم اصحاب النبي وجاؤوا بهم اليه فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، فدعا عمر بن الخطاب

وامره بأن يأتي قريشاً ويبين لهم اهداف محمد من هذه الرحلة ، فقال له : اني اخاف قريشاً على نفسي ، ولا اجد من بني عدي من يمنعهم عني[1] .

ثم دعا بعثمان بن عفان فأرسله اليهم ليبلغهم انه جاء معتمراً لا غازياً ولا محارباً وجاء معه بالهدي لينحرها في سبيل الله وينصرف الى حيث اتى ، فوفد عثمان على ابان بن سعد بن العاص فأجاره من القوم وبلغهم رسالة النبي فرفضوا ان يمكنوه من دخول مكة رفضاً قاطعاً واحتبسوا عثمان عندهم ثلاثة ايام حتى ظن المسلمون انه قد قتل ، وبلغ ذلك رسول الله (ص) ، فقال لا نبرح حتى نناجزّ القوم ، ودعا اصحابه اليه وقد وقف تحت شجرة في ذلك الوادي فبايعوه جميعاً ان لا يفروا عنه حتى الموت وهي المعروفة ببيعة الرضوان وهذه البيعة هي التي انزل الله فيها كما يدعي المفسرون الآية التالية :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (الفتح ١٨) .

وبعد اتمام البيعة بلغ النبي ان عثمان لم يصب بأذى ، وقد بلغ رسالة النبي اليهم ولكنهم رفضوها وأصروا على موقفهم الأول وهم على يقين بأن محمداً لم يخرج إلا لأداء المناسك وبعد هذا الموقف المتصلب بدا لهم ان يكونوا اقل تصلباً مما هم عليه ولعلهم قدروا بأن الحرب قد لا تكون لصالحهم ، وانهم لا يستطيعون ان ينالوا من محمد ما يريدون مهما كلفهم ذلك من تضحيات لا سيما بعد ان وصف لهم عروة بن مسعود التفاف اصحابه به وتفانيهم في سبيله .

لقد بدا لهم ان يكونوا أقل تصلباً مما هم عليه وان يستأنفوا المفاوضات مع محمد (ص) بروح اكثر مرونة مما كانوا عليه ، ولعل عثمان قد حمل الى

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣١٥ .

النبي وجهة نظرهم التي يمكن ان تكون الأساس للمفاوضات ، وكان المفاوض الأخير من قبلهم سهيل بن عمرو ومعه حويطب بن عبد العزى ، وقد اخذت عليهما قريش ان لا يتساهلا مع محمد في امر دخوله الى مكة في رحلته هذه ، واتصل وفد قريش بالنبي (ص) .

ويبدو من كتب السيرة والحديث انه جرت محادثات طويلة ومحاولات شتى بين الفريقين واضطر سهيل خلال المفاوضات ان يراجع قرشاً فيما دار بينه وبين النبي ، ثم يعود ليبدي له وجهة نظرهم ، ويظهر مما جاء في بعض مجاميع الحديث ان المفاوضة بين الطرفين لم تقتصر على دخول النبي مكة لأداء مناسك الحج بل تناولت ارجاع من أسلم من اهالي مكة الى عائلاتهم واهاليهم .

فقد جاءفي صحيح الترمذي ج ٢ وكنز العمال ج ٦ ص ٤٠٧ وخصائص النسائي ص ١١ وتاريخ بغداد ص ٦٣٣ ان المفاوضة لم تقتصر على موقف الطرفين من دخول النبي لمكة هذا العام او عدمه بل تناولت اموراً اخرى ، فقد روى الترمذي وغيره بسنده الى ربعي بن خراش عن علي بن ابي طالب انه قال : لما كان يوم الحديبية خرج الينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأناس من رؤساء المشركين فقالوا يا محمد خرج اليك ناس من ارقابنا وإخواننا وارقائنا وليس لهم فقه في الدين وإنما خرجوا فراراً من اموالنا وضياعنا فارددهم الينا ، فقال إذا لم يكن لهم فقه في الدين سنفقههم فيه واستطرد يقول يا معشر قريش لتنتهن او ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن الله قلبه على الايمان ، فقال له ابو بكر وعمر والمشركون من هو هذا ؟ فقال خاصف النعل وكان قد اعطى علياً نعله ليخصفها .

ورواها النسائي في خصائصه والحاكم في مستدرك الصحيحين وغيرهما ، ولكن رواية النسائي والحاكم تنص على ان النبي (ص) حينما طلب منه المشركون ارجاع من فروا اليه التفت الى ابي بكر وعمر وقال لهما ،

ما تقولان : قالا صدق الرجل ، فتغير وجه رسول الله والتفت الى الوفد وقال لن تنتهوا يا معشر قريش حتى يبعث الله رجلاً منكم قد امتحن الله قلبه للايمان يضرب اعناقكم ، فقال ابو بكر انا هو يا رسول الله ، وقال عمر انا هو يا رسول الله ، فقال لا ولكنه خاصف النعل ، فالتفتوا وإذا بعلي يخصف نعلاً لرسول الله (ص) .

ويدعي السيد مرتضى الفيروزابادي في كتابه فضائل الخمسة من الصحاح الستة ان هذه الحادثة رواها الكثيرون من المحدثين والمؤرخين ، وقد عرض في كتابه المذكور رواية الترمذي والنسائي والخطيب وأشار الى مصادرها في مجاميع الحديث السنية[1] .

وعلى اي الأحوال فيدعي المؤلفون في السيرة والتاريخ ان المفاوضات بين النبي وسهيل بن عمرو وان تكن قد تناولت اموراً كثيرة كما تدعي بعض المصادر إلا انها تركزت حول عدم دخول النبي مكة هذا العام ودخوله لها في العام القادم واتفقا على جميع بنود المعاهدة ، ولم يبق إلا كتابة تلك البنود في نسختين احداهما للنبي والأخرى للمشركين .

وكان من اهم بنود الاتفاق رجوع النبي بمن معه هذا العام ، وفي العام الذي يليه يأتي مكة بمن معه من المسلمين ويخرج منها اهلها ويبقى فيها النبي ثلاثة ايام بدون سلاح غير السيوف في اغمادها ، وان من احب من المشركين ان يدخل في عهد محمد كان له ذلك ، ومن احب ان يدخل مع المشركين فله ذلك ايضاً من غير حرج عليه من احد الطرفين .

وجاء في كتب السيرة انه لما تم الاتفاق بين النبي ومشركي مكة ولم يبق إلا تسجيل الاتفاق وتوقيع الطرفين وثب عمر بن الخطاب بعد حوار دار بينه وبين ابي بكر وجاء الى النبي وقال له : ألست برسول الله قال بلى قال السنا

---

(١) انظر ص ٣٣٧ من الجزء الثاني فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

بالمسلمين وهم مشركون قال بلى ، قال فعلام نعطي الدنية في ديننا فقال له النبي : انا عبد الله ورسوله ولن اخالف امره ، ولم يقتنع بذلك بالرغم من ان جواب النبي صريح بأنه مأمور بهذه المهادنة من قبل الله سبحانه ، حيث قال له النبي : ولن أخالف امره .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير انه قال له : أولست كنت تحدثنا انا سنأتي البيت ونطوف به قال بلى ، ولكني هل اخبرتك بأنك تأتيه هذا العام ، فقال لا قال النبي (ص) انك آتيه .

وجاء في رواية ثانية انه قال ما شككت منذ اسلمت إلا ذلك اليوم .

وفي سيرة ابن هشام ان بعض من كان مع رسول الله قال له بعد ان قدم المدينة الم تقل انك تدخَل مكة آمناً قال بلى أفقلت لكم في عامي هذا قال لا .

وجاء في الطبري وسيرة ابن هشام وغيرهما انه بينا علي بن ابي طالب يكتب الكتاب بحضور رسول الله وسهيل بن عمرو وإذا بأبي جندل بن سهيل بن عمرو قد انفلت من المشركين وجاء الى النبي (ص) مقيداً بالحديد فلما رأى سهيل ابنه قام اليه وضرب وجهه واخذ بتلابيبه وقال يا محمد لقد تمت القضية بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا ، فقال له النبي صدقت ، وجعل يجر ولده ليرده الى قريش وولده يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين ليفتنوني عن ديني ، فقال له رسول الله : يا ابا جندل اصبر واحتسب فإن الله سيجعل لك ولمن معك مخرجاً وفرجاً ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً واعطيناهم واعطونا العهود على ذلك وإنا لا نغدر بهم ، ووثب عمر بن الخطاب مع ابي جندل يمشي الى جانبه ويدني منه قائم السيف ويقول له ، انما هم المشركون وإنما دم احدهم دم كلب ، قال الراوي ان عمر بن الخطاب كان يقول لقد أدنيت منه قائم السيف وقلت له ان دم احدهم دم كلب رجاء ان يأخذه ويضرب اباه ، ولكنه ضن بأبيه ونفذت

القضية[1] .

والذي يدعو الى التساؤل في موقف عمر بن الخطاب هذا كما اتفق عليه المؤرخون هو انه كيف اقدم على عمل من هذا النوع مع ان رسول الله قال له بأني لم أفعل ما فعلت الا بأمر من الله ، ومع انه رأى من النبي الحرص والاصرار على تنفيذه ووضع بنود الاتفاق في كتاب خاص يلتزم به الطرفان ، فكيف يقدم سيفه لأبي جندل ويحرضه على قتل والده وهو في مقام التفاوض مع رسول من قبل قريش ولو قدر لأبي جندل ان ينفذ رغبة عمر بن الخطاب ويقتل اباه بسيفه فماذا يكون موقف النبي من قريش وقد قتل مندوبها واحد زعمائها المبرزين فيها ، بل وحتى عند جميع العرب الذين يعدون هذا النوع من الفتك من اقبح انواع الفتك القذر الذي يترفعون عنه مهما كانت النتائج .

ثم ان قريشاً هل تسكت فيما لو تحققت امنية عمر بن الخطاب ، وبلا شك بأنها كانت ستخوض مع النبي هي واحلافها معركة من اشرس المعارك على ابواب مكة وبطاحها والمسلمون لا يملكون الا سيوفهم حين ذاك ، ومن الصعب ان يتخلص المسلمون من ايديهم وهم على مثل هذا الحال وكل الملابسات تشير الى ان النصر سيكون لقريش ، وكما ذكرنا لو نجح عمر في تخطيطه لكان ذلك سبباً لاتهام المسلمين بالغدر ونقض المواثيق ، وتكذيب النبي فيما اعلن عنه منذ خروجه من المدينة فلقد صرح في عشرات من المناسبات بأنه لم يخرج غازياً ولا مقاتلاً ولا يريد الاساءة الى احد ، ولم يتحرك إلا لأداء مناسك الحج لا غير .

ومجمل القول ان هذا الموقف من ابن الخطاب لو صح يسيء الى النبي والى سمعته ويوشك ثم ان يعرض المسلمين لحرب ضارية لا بد وان يكون

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٨ و ٣١٩ وتاريخ الطبري والبداية والنهاية وغيرها .

النصيب الأكبر من اخطارها للمسلمين حسب تقديرنا للملابسات التي كانت تحيط بهم حين ذاك .

وعلى اي الأحوال فقد اتفق المؤلفون في السيرة ان علياً (ع) هو الذي تولى وضع بنود الاتفاق في كتاب خاص ، وذكروا ان النبي قال لعلي وهو يكتب : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال له سهيل لا اعرف من هو الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم فوافق النبي على ذلك ، ثم قال له : اكتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو ، واعترضه سهيل قائلاً لو كنا نعترف بأنك رسول الله لما قاتلناك ، فاكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي لعلي امحها واكتب ما يريد .

وجاءفي رواية البخاري ان علياً قال والله لا امحوها ، فأخذها النبي من يده ومحا كلمة رسول الله .

وروى النسائي في خصائصه ان النبي قال لعلي عند ذلك ، اما ان لك مثلها وستأتيها وانت مضطر لذلك[1] .

وجاء في عهد الصلح انهما قد اصطلحا على رفع الحرب عن الناس لمدة عشر سنين وفي رواية اليعقوبي لمدة ثلاث سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض وعلى انه من اتى محمداً من قريش بدون اذن وليه رد عليهم ، ومن جاء قريشاً من اتباع محمد لم يردوه عليه ، وانه من احب من

---

(١) وقد رواها جماعة من المحدثين منهم ابن ابي الحديد في شرح النهج ، وصدق رسول الله فيما اخبر به فعندما وقعت الهدنة بين علي (ع) ومعاوية في صفين نتيجة لمكيدة ابن العاص وأرادوا ان يكتبوا بنود الاتفاق كتب هذا ما اتفق عليه امير المؤمنين ومعاوية ، فقال له وفد معاوية ، لو كنا نعلم انك امير المؤمنين لما قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فأمر علي الكاتب ان يكتب اسمه واسم ابيه وكان الكاتب عبد الله بن العباس فامتنع عن ذلك فأخبره علي بما قاله له النبي في صلح الحديبية وذلك من دلائل نبوته التي لا تحصى .

العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ومن احب محالفة قريش فله ذلك ، وان يرجع محمد واصحابه عن مكة عامهم هذا على ان يعودوا اليها في العام المقبل فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة ايام ومعهم من السلاح السيوف في اغمادها ولا سلاح غيرها ، ووقعه جماعة من المشركين بالاضافة الى سهيل بن عمرو كما وقعه جماعة من المسلمين مع النبي ، واسرعت خزاعة فعقدت حلفاً مع النبي (ص) ، كما عقد بنو بكر حلفاً مع قريش ، واحتفظ كل من الطرفين بنسخة عن عهد الصلح .

وجاء في سيرة ابن اسحاق انه بعد ان تم الصلح بين الطرفين نحر رسول الله هديه وحلق رأسه ، فلما رأى الناس رسول الله ينحر ويحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون .

وروي في البداية والنهاية انه قبل خروجه من الحديبية جاءه نسوة مؤمنات من مكة فأنزل الله عليه في امرهن .

﴿ اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ﴾ .

والصحيح كما يستفاد من اكثر كتب السيرة ان المؤمنات اللواتي تعنيهن الآية قد هاجرن الى المدينة بعد صلح الحديبية كما سننبه على ذلك ، وأقام النبي بالحديبية نحواً من عشرين يوماً لم يدخل فيها مكة ورجع الى المدينة ، وفيما هو في طريقه انزل الله عليه سورة الفتح كما يدعي اكثر المفسرين والمؤلفين في سيرة النبي . واختلفوا في الفتح الذي تعنيه الآية **﴿ انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾** فقيل وهو الأرجح انه صلح الحديبية قد اتاح لكثير من العرب ان يدخلوا الإسلام ، وقد دخل فيه خلال سنتين اي من السنة السادسة الى الثامنة عدد كبير من العرب ، وقيل اكثر مما دخله من تاريخ دخول النبي الى المدينة لذلك التاريخ . فقد خرج النبي الى مكة في السنة السادسة في الف واربعمائة ، وخرج في الثامنة لفتح مكة في عشرة آلاف

مقاتل ، فكـانت رحلته الى مكـة وما تم فيهـا من الاتفاق من اسبـاب انتشار الاسلام ، بل كـان في واقعه فتحـاً ، لأن وقوف قـريش معه مـوقف المفاوض والمعاهد يشكل اعترافاً من قريش بوجود محمد ورسالته في الجزيرة العربية بعد ان كانت لا ترى له وجوداً .

وروى ابن هشام في سيرته عن الزهري انه قـال ما فتـح الله فتحاً قبله كان اعظم منه ، فلما كانت الهدنة وامن الناس بعضهم بعضا فلم يكلم احـد في الاسلام يعقل شيئاً الا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين اكثر ممن كان على الاسلام .

وقيل ان المراد من الفتح في الآية فتح خيبر لأن صلح الحديبية قـد مهد للمسلمين غزوة خيبر والتغلب على من بها من اليهود وقيل غير ذلك .

كما اختلف المفسرون فيما تعنيه الآية الثانية :

﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح ٢) .

وقـد خلط الكثير من المفسـرين في تفسيرهـا ووضعوا النبي في مستـوى سائر النـاس وألصقوا بـه الذنـوب والمعاصي من حيث لا يشعـرون حتى قال بعضهم ليغفر لك الله ذنـوبك قبـل النبوة وبعـدها الى غـير ذلك من الهـذيان الذي لا يتناسب مع مقام النبي وعصمته عن الذنـوب صغيرهـا وكبيرهـا قبل النبوة وبعدها .

والأرجـح في تفسيرهـا ان ذلك الفتـح الذي تسبب في انتشـار الاسلام واتساعه ودخول قريش في الاسلام قد غـير موقف قـريش وغيرهـا من العرب منك واصبحوا يرونك باراً رحيماً وشفوقاً عـطوفاً بعـد ان كانـوا يرونـك عاقـاً وظالماً وخارجاً على دينهم وعاداتهم وتقاليدهم ، هـذه النظرة التي كـانت تنظر اليك قريش بها قد تبدلت واصبحت تراك بـاراً ورحيماً ومشفقـاً قبل دخـولك مكة وبعده وتبين لها خطأها فيما ارتكبته منك ونسبته اليـك من الذنـوب وقيل غير ذلك .

على ان نزولها بعد صلح الحديبية ليس امراً مفروغاً منه عند جميع المفسرين فقد رجح بعضهم ان نزولها بعد فتح مكة وليس ذلك ببعيد .

وجاء في بعض المرويات ان النبي لما قرأها على الناس قال له رجل : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال النبي : بئس الكلام هذا بل هو اعظم الفتح لقد رضي المشركون ان يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا واظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو اعظم الفتح .

فقال المسلمون : صدقت يا رسول الله ، ويبدو ان الرجل هو عمر بن الخطاب لأنه كان يكثر التردد في موقف النبي (ص) كما نصت على ذلك اكثر المؤلفات في السيرة .

وجاء في البداية والنهاية رواية البخاري في صحيحه عن زيد بن اسلم عن ابيه ان عمر بن الخطاب كان يسير مع النبي ليلاً فسأله عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، وكرر عليه السؤال فلم يجب ، فخشي عمر على حد زعم الراوي ان يكون قد نزلت فيه آية من الله سبحانه ، قال عمر فحركت بعيري وتقدمت امام المسلمين وخشيت ان ينزل في قرآن ، فما نشبت ان سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت لقد نزل بي قرآن فجئت الى رسول الله مستعلماً فأخبرني بنزول سورة الفتح .

وجاءفي كتب السيرة ان رسول الله لما انتهى الى المدينة جاءه عتبة بن أسيد بن جارية المكنى بأبي بصير ، وكان من المسلمين المحبوسين في مكة ، فلما بلغ امره المشركين كتبوا الى رسول الله كتاباً مع رجلين منهم ليرده عليهم عملاً بالاتفاق الذي تم بينهم وبينه في الحديبية ، فقال رسول الله لأبي بصير : يا ابا بصير انا قد اعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا ان نغدر ، وان الله سيجعل لك ولمن في مكة من المسلمين فرجاً ومخرجاً وامره ان يرجع مع الرجلين الى مكة ، فانطلق معهما حتى اذا كانوا بذي الحليفة تناول

السيف من احدهما بحجة انه يريد ان ينظر اليه فاستله من غمده وضرب به صاحبه فقتله وفر الرجل الثاني ورجع الى المدينة ، فلما اقبل على الرسول وهو جالس مع اصحابه ، قال ان هذا الرجل قد جاءكم فزعاً ، فلما انتهى اليه اخبره بما فعل ابو بصير بصاحبه .

وفيما هو يقص على الرسول ما جرى لهما وإذا بأبي بصير قد اقبل متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله وقال يا رسول الله قد والله وفيت ذمتك ورددتني اليهم ثم انجاني الله منهم ، فلم ير من النبي ارتياحاً لقوله وظهرت على وجهه ملامح الغضب ، فعلم انه سيرده اليهم ، فخرج من المدينة الى مكان تمر به قوافل قريش في تجارتها الى الشام ، وتسلل اليه جماعة من المسلمين المحتجزين في مكة حينما بلغهم خبره منهم ابو جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده النبي اليهم في الحديبية ، وجعل كل من يدخل الاسلام في مكة يلتحق بأبي بصير ، لأن الاتفاق بين النبي والمشركين لا يسمح لأحد ان يلتحق به في المدينة ، وجعلوا يتسللون الى ابي بصير حتى بلغوا سبعين رجلاً ، وانضم اليهم جماعة من العرب كانوا قد دخلوا في الاسلام حتى تكامل عددهم ثلاثمائة مقاتل فقطعوا الطريق على تجارة قريش ، واصبحت لا تمر في طريقها الى الشام الا اعترضوها فقتلوا الرجال واستولوا على القافلة ، وضاق الأمر بقريش ، فلم تجد وسيلة للتخلص منهم الا بالتوسل بالنبي (ص) فأرسلوا اليه يناشدونه بالله والرحم ان يردعهم ويؤويهم الى المدينة ، فأرسل اليهم النبي فرجعوا الى المدينة وانضموا الى المسلمين ، ولم تعد قريش تطالب بأحد ممن يتسلل الى المدينة مخافة ان يمثل الدور الذي مثله ابو بصير واصحابه ، وتنازلت عن هذا البند من بنود المعاهدة على كره منها .

اما النساء المسلمات اللواتي كن في مكة وهاجر بعضهن الى المدينة فلم يردهن الرسول وكان يرى ان عهد الحديبية لا يشمل النساء المسلمات لأن الاسلام لا يقر زواج المسلمة من المشرك ولا بقاءها على زوجيته ويجب التفريق

بينهما .

وجاء في كتب السيرة ان ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط خرجت بعد الهدنة مع نسوة كن يتسترن في اسلامهن فخرج اخواها عمارة والوليد يطلبان من الرسول ان يردها الى مكة فأبى عليهما النبي ان يردها معهما وقد انزل الله عليه بهذه المناسبة :

﴿ يا ايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن إذا آتيتموهن اجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما انفقتم وليسألوا ما انفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ .

ويدعي الزهري كما جاء في سيرة ابن هشام انه لما نزلت **﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾** طلق عمر بن الخطاب زوجتيه قريبة بنت امية بن المغيرة وام كلثوم بنت جرول ام ولده عبد الله فتزوج الأولى معاوية بن ابي سفيان ، وتزوج الثانية ابو جهم بن حذيفة بن غانم وهما مشركان .

الفصل الثامن عشر

غزوة خيبر

كـان رسول الله (ص) كـما ذكرنـا قد تحـرك من المدينـة قـاصـداً اداء المناسك في اوائـل ذي القعدة من السنـة السادسـة ، وقد صـدته قـريش عن دخول مكة ، واعتبرت ذلك هزيمة لهـا واهانـة عليها ، وكـان صلح الحديبيـة بعـد محاولات ومشـاورات بين النبي وقـريش بواسـطة وفود الـطرفـين ، وتم الاتفاق اخيراً عـلى المعاهـدة ، ومن اهم بنودهـا ان يزور النبي مكـة في العام القـادم هـو واصحـابـه لأداء منـاسـك الحــج بمـا ادخله الاســلام عليـه من التعـديلات ، وان لا يعتـدي احد الـطرفين عـلى الآخـر ، ورجـع النبي الى المدينة وفي طريقه انزل الله عليه سـورة الفتح فتـلاها عـلى المسلمين مستبشـراً بنصـر الله ، وكانت المعـاهدة بمـا اشتملت عليه من البنـود والشـروط تشكـل اعترافاً من قريش بوجود الإسلام كدين الى جانب غيره من الأديان التي كانت يوم ذاك في شبه الجزيرة ، بعد ان كانت قريش قبل ذلك تعتبر محمداً خارجـاً على جميع الأديان تجب مقاومته والقضاء عليه مهما كانت النتائج .

واطمأن النبي بعد صلح الحديبية الى حد ما من ناحية قـريش والعرب الذين كانوا لا يزالون على الشـرك ، واتجه النبي بعـد ذلك الى ارسال دعـاته الى حكام الفرس والرومان وعمان واليمامة وغيرهـا من البلاد المتـاخمة لحـدود

الحجاز ، ولكنه ظل يراقب اليهود الذين لا يزالون خارج المدينة ويخشى غدرهم ، واليهود اشد من العرب وغيرهم عداوة للاسلام وقد يجدون من الدول المتاخمة لحدود الحجاز من يحركهم ويغريهم بالمساعدة ويذكرهم باخوانهم بني قريظة والنضير وقينقاع الذين اجلاهم النبي من ديارهم وسفك دماءهم ، ومن الصعب ان يطمئن اليهم ويوادعهم كما وادع قريشاً في مكة بعد ان جربهم ووجدهم لا يلتزمون بعهد ولا بحلف ، واخذ يعد العدة لغزوهم في حصونهم ومعاقلهم قبل ان يتصلوا بغيرهم من القبائل المعادية للاسلام داخل حدود الحجاز وخارجها . ولم يلبث بالمدينة بعد رجوعه من الحديبية اكثر من شهر كما هو الشائع بين المؤرخين حتى اعلن عن رأيه لأصحابه وامرهم ان يتجهزوا لغزو خيبر في اسرع وقت ممكن ، على ان لا يغزو معه الا من شهد الحديبية ، إلا ان يكون غازياً متطوعاً ، كما جاء في بعض المؤلفات في السيرة .

وخرج من المدينة في ألف وستمائة من المسلمين ، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، واعطى الراية لعلي بن ابي طالب كما جاء في رواية ابن هشام في سيرته ، ومضى النبي في طريقه الى خيبر رقطع المسافة بينها وبين المدينة بثلاثة ايام ودخل الى مشارفها ليلاً فنزل هو واصحابه بالقرب منها ، ودعا الله بالنصر وان يرده الى المدينة فاتحاً غانماً .

وفيما الناس يخرجون من بيوتهم مبكرين على عادتهم لمزارعهم ومصالحهم فوجئوا بجيش المسلمين على ابواب مدينتهم فولوا راجعين يصرخون هذا محمد قد جاءكم بأصحابه واحاط بكم ، فانتبه الناس من نومهم مذعورين واستبشر النبي وقال الله اكبر : لقد خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ويبدو من بعض كتب السيرة ان اليهود كانوا يتوقعون هذا الغزو وكانوا على اتصال بغطفان ، وعندما فوجئوا بالمسلمين اتصلوا بها على الفور وطلبوا

الاسراع في النجدة .

ويدعي بعض المؤرخين انها هبت لنصرتهم ولكن جيش المسلمين قد حال بينهم وبين ما يريدون .

وفي رواية اخرى ان غطفان بعد ان خرجت لنجدة يهود خيبر سمعوا الصياح في احيائهم فرجعوا مخافة ان يكون جيش المسلمين قد داهم منازلهم واحياءهم . ومهما يكن الحال فلقد كان يهود خيبر من اقوى الطوائف اليهودية في بلاد الحجاز واكثرهم عدداً وعدة وامنعهم حصوناً .

ووقف العرب عامة وبخاصة قريش يتطلعون بشوق ولهفة الى نتائج هذه الغزوة ، ويأملون ان تكون الدائرة فيها على المسلمين ، ويتراهنون على نتائجها ، وتشاور اليهود فيما بينهم واتفقوا اخيراً على القتال فأدخلوا نساءهم وذراريهم واموالهم حصن الوطيح والسلالم ، وادخلوا ذخائرهم حصن ناعم ودخلت المقاتلة حصن نطاة ، والتقى الجمعان حول هذا الحصن واقتتلوا قتالاً شديداً حتى جرح عدد كبير من المسلمين ، واستبسل الفريقان المسلمون يهاجمون واولئك يدافعون بحماس وضراوة لا مثيل لهما ، وظلوا على ذلك شطراً من النهار وقتل في ذلك اليوم محمود بن مسلمة برحى القاها عليه احد اليهود من اعلى الحصن .

وقال ابن هشام : ان القتال بقي اياماً يشتد والرسول يولي القيادة كل يوم رجلاً من اصحابه ويرجع خائباً ومضى يقول ويروي عن ابن اسحاق بسنده الى ابي سلمة بن عمرو الأكوع انه قال بعث رسول الله ابا بكر ،وبرايته وكانت بيضاء الى بعض حصون خيبر فرجع ولم يصنع شيئاً ، ثم بعث في اليوم الثاني عمر بن الخطاب وكان نصيبه نصيب صاحبه .

وفي رواية الطبري عن ابي بريدة الاسلمي انه لما خرج عمر بن الخطاب بالراية ونهض معه الناس والتقى مع اهل خيبر انكشف عمر واصحابه ورجعوا الى رسول الله (ص) يجبنه اصحابه ويجبنهم وظل القتال

مستمراً وكلما اعطى الراية الى احد رجع خائباً او فاراً .

ولما بلغ الجهد بالمسلمين ونفد اكثر زادهم قال النبي (ص) بصوت رفيع سمعه اكثر المسلمين : والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فتطاولت لها قريش ورجا كل واحد ان يكون صاحب الراية .

وفي رواية ابن كثير في بدايته ونهايته ان عمر بن الخطاب قال : اني ما احببت الامارة إلا ذلك اليوم وتمنيت ان اعطى الراية بعد ان سمعت ذلك من رسول الله وكان علي قد اصيب برمد ، قيل انه تخلف اياماً في المدينة من شدة الوجع ، ولما وجد ان الرمد قد استمر ركب ناقته والتحق بالنبي فوافاه في تلك الساعات الحرجة .

وقيل انه خرج مع النبي من المدينة واعطاه الراية كما ذكرنا في اول حديثنا عن هذه الغزوة ، وعلى ذلك يكون الرمد قد اصابه بعد وصوله الى خيبر .

ومهما يكن الحال فقد استدعاه النبي بعد ان فشل المسلمون في التغلب على اليهود وكان ارمد العين كما اتفقت على ذلك الروايات فمسح بيده الكريمة على عينه وقيل تفل فيها فبرئت من ساعتها ، وقال له خذ الراية ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، فقال له علي (ع) : على ماذا اقاتلهم يا رسول الله ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا ان لا إله الا الله واني رسول الله فاذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم ، قال سلمة بن الاكوع فانطلق علي (ع) يهرول هرولة ونحن خلفه نتتبع اثره حتى ركز الراية بين حجارة مجتمعة تحت الحصن فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن ، وقال من انت ؟ قال انا علي بن ابي طالب ، قال اليهودي : علوتم وما انزل على موسى وخرج اليه اليهود يتقدمهم ابطالهم وفيهم الحارث اخو مرحب وكان من شجعانهم المعروفين فحمل بمن معه على المسلمين ، فوثب علي (ع) وضربه بسيفه فخر صريعاً ،

ثم كر باصحابه على اليهود فتفرقوا بين يديه وانخذلوا بعد مقتل الحارث وجماعة منهم وولوا منهزمين الى داخل الحصن فاستعظم ذلك قائدهم مرحب بعد ان شهد مصرع اخيه وهزيمة من معه ، فخرج من الحصن يتبجح بشجاعته وعليه درعان وقد تقلد بسيفين وتعمم بعمامتين ومعه رمحه وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر اني مرحب　　شاكي السلاح بطل مجرب
اذا السيوف اقبلت تلتهب　　أطعن احياناً وحيناً اضرب

فبرز له علي (ع) وهو يقول :

انا الذي سمتني امي حيدرة　　كليث غابات شديد قسورة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة

فاختلف هو وعلي ضربتين فضربه علي بسيفه فقد الحجر الذي كان قد ثقبه ووضعه على رأسه مكان البيضة وشق المغفر ورأسه نصفين حتى وصل الى أضراسه ، وسمع اهل العسكر صوت ضربته ولما ابصر اليهود فارسهم مرحبا ولوا منهزمين واستولى المسلمون على الحصن .

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق بسنده الى ابي رافع مولى رسول الله انه قال : خرجنا مع علي بن ابي طالب حين بعثه رسول الله برايته فلما دنا من الحصن خرج اليه اهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود بالسيف فاتقاه بترسه فوقع الترس من يده فتناول باباً كان عند الحصن واخذه بيده مكان الترس ، ولم يزل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم القاه من يده حين فرغ فلقد اجتمعنا ثمانية على ان نقلب ذلك الباب فلم نستطع ، وأضاف الى ذلك هيكل في كتابه حياة محمد ان علياً بعد ان اخذ الباب بيده مكان الترس ظل يقاتل حتى انهزم اليهود وكانوا قد حفروا خندقاً حول الحصن فجعل علي (ع) الباب الذي كان بيده قنطرة على الخندق واجتاز المسلمون عليه الى داخل ابنية الحصن وذلك بعد ان قتل قائدهم الحارث بن ابي زينب .

وقال ابن دحلان في سيرته ان علياً لما ضربه مرحب بالسيف واتقاه بترسه وقع الترس من يده فتناول علي باباً كان عند الحصن وتترس فيه عن نفسه وكان طوله ثمانين شبراً ، وروي عن البيهقي ان علياً انقض على مرحب وضربه على رأسه فاتقى ضربته بترسه فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر الذي تحته وفلق هاسته حتى اخذ السيف في اضراسه كما روى حديث قتل علي لمرحب كل من الطبري وابن سعد في طبقاته وصاحب السيرة الحلبية ، وادعى ان الأخبار متواترة على ان علياً هو القاتل لمرحب .

وقال ابن الأثير ان ذلك هو الصحيح الذي اتفق عليه اهل السير والحديث وجزم به مسلم في صحيحه ، وقال الحاكم في المستدرك : ان الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة على ان قاتل مرحب هو امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

كما جاء في الاستيعاب انه الصحيح الذي عليه اكثر اهل السيرة ورواه ابن كثير في بدايته .

وقال اليعقوبي في تاريخه : ان حصن القموص كان من امنع حصون خيبر واشدها وهو الحصن الذي كان فيه مرحب ، فقال رسول الله : لأدفعن الراية غداً الى رجل كرار غير فرار يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا ينصرف حتى يفتح الله عليه ، فدفعها الى علي (ع) فقتل مرحباً واقتلع باب الحصن وكان حجراً طوله اربعة اذرع في عرض ذراعين في سمك ذراع فرمى به الى خلفه ودخل الحصن هو والمسلمون .

كما نص على ان علياً هو الذي قتل مرحباً ابو الفداء في تاريخه وروى حديث تترسه بالباب كما رويناه عن غيره من قبل .

وقد وصف الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه محمد رسول الحرية معركة خيبر ومواقف علي فيها والانتصارات الحاسمة التي حققها خلال ساعات قلائل بعد محاولات استمرت عدة ايام من جميع المسلمين لم تغن

عنهم شيئاً .

فقال : ورأى محمد ان يحشد كل قواه الضاربة لفتح هذا الحصن فاجتماع اليهود فيه يجعلهم اقدر على الفتك بالمسلمين .

وجمع محمد جيشه وامرهم ان يقتحموا الحصن وسلم ابا بكر راية الجيش ، ولكن ابا بكر لم يستطع ان يصنع شيئاً ولا ان يقتحم الحصن ، وفي اليوم التالي جعل القيادة لعمر بن الخطاب ، وحارب عمر يومه كله ولكنه لم يستطع ان يقتحم الحصن وظل اليهود على مواقفهم المنيعة يسددون ضرباتهم دون ان يخرج منهم رجل واحد للقتال في السهل المكشوف .

فدعا محمد (ص) علي بن ابي طالب وقال له خذ هذه الراية ، فتح الله عليك وخلع علي عنه الدرع ليكون خفيف الحركة وطالب رجاله ان يتخففوا من الدروع التي تثقلهم ليكونوا خفافاً ، وانصرف وفي ذهنه وصية محمد : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الاسلام فإن لم يطيعوا فقاتلهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم وتقدم علي فدعاهم الى الاسلام ولكنهم سخروا منه فطالبهم ان يحاربوا المسلمين رجلاً لرجل ويبعثوا اليه شجعانهم ليبارزهم هو بنفسه الواحد تلو الآخر وخرج اليه الحارث احد شجعانهم فصرعه علي ، وخرج اليه رجل آخر فصرعه ايضاً .

وإذ ذاك تعالت من المسلمين صيحات السخرية بقوة شجعانهم ، وسأل علي شجعان خيبر ان يبعثوا اليه برجل يثبت في المعركة ، فخرج اليه زعيمهم مرحب وكان هو حقاً سيد فرسان خيبر ، ولكنه خرج الى علي بطيئاً في كبرياء وثقة مطمئنة مهيباً ضخماً بيده حربة ذات ثلاثة رؤوس وكل جسده الفارع الشاهق في الزرد ، والحديد يغطي رأسه وساقيه وليس في كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف .

وتقدم اليه علي بقامته المعتدلة بلا درع وفي يده السيف وحده وتوقع

المسلمون واليهود جميعاً انها نهاية علي (ع) ، ولكن علياً استطاع ان يحسن الاستفادة من تخففه من الدرع والزرد ، وترك مرحباً يتقدم بدرعه وزرده وحربته حتى إذا اوشك سن الحربة ان يمس صدر علي (ع) تراجع علي فجأة ثم قفز في الهواء متفادياً حربة مرحب ، ثم اقتحم واهوى بكل قوته على رأس مرحب بالسيف ، فانفلق الحديد من على رأس مرحب وسقط سيف علي على الجمجمة فشقها نصفين ، وهوى مرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين .

واندفع علي الى باب الحصن هو ورجاله يدكونه بكل طاقاتهم حتى اقتحموه ، واليهود الذين اذهلهم موت مرحب يفرون فزعين الى حصن آخر[1] .

وروى السيد مرتضى الفيروزابادي في كتابه فضائل الخمسة في المجلد الثاني حديث الراية في خيبر بكامله عن صحيحي البخاري ومسلم ، وعن احمد بن حنبل والنسائي والاستيعاب وكنز العمال والرياض النضرة والترمذي وابن ماجة وغيرهم .

ويبدو من جميع ذلك ان حديث الراية ومواقف علي في خيبر واخذه الباب الذي يعجز عن تحريكه سبعة رجال على اقل التقادير كل ذلك يكاد يكون متفقاً عليه بين المؤرخين والمحدثين إذا استثنينا ابن هشام في سيرته فلقد تجاهل موقف علي من مرحب ونسب قتله الى محمد بن مسلمة ، كما وإن ابن كثير في تاريخه بعد ان ذكر مواقف علي في خيبر وقتله لمرحب ذكر الرواية التي اعتمدها ابن هشام عن سيرة ابن اسحاق، واعتمد هؤلاء المشككون على رواية موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤٥ هـ عن الزهري وادعوا انه قد الف كتاباً في المغازي اخذه عن الزهري كما اعتمدوا على رواية عبد الله بن سهل التي نسبها لجابر بن عبد الله ؛ وعبد الله بن سهل وابن عقبة كلاهما من المتهمين بين

---

(١) انظر ص ٣٣٢ و ٣٣٣ من كتاب الشرقاوي محمد رسول الحرية .

رجال الحديث .

فقد جاء في تهذيب التهذيب لابن حجر ان عبد الله بن سهل كانت اكثر مروياته عن عائشة وهي مصدره الوحيد تقريباً[1] .

ومن غير المستبعد على موسى بن عقبة ان ينسب الرواية التي تنص على ان محمد بن مسلمة هو القاتل لمرحب لجابر بن عبد الله في حين انه قد اخذها عن عائشة ، وموقف السيدة عائشة من علي (ع) في جميع ادوارها قد ابرزه التاريخ بنحو لا يمكن تفسيره بغير عدائها الشخصي لعلي وآل علي ، وقد بذلت جهداً كبيراً في اخفاء فضائله ونسبت الكثير منها لغيره .

واما المصدر الثاني لهذه الأسطورة فهو محمد بن شهاب الزهري وقد اسندها موسى بن عقبة اليه ، ومَن المعلوم ان الزهري كان عميلاً للأمويين ومنحرفاً عن علي وآل علي (ع) كما اثبتنا ذلك بالأرقام في كتابنا الموضوعات في الآثار والأخبار[2] .

على ان الذين ترجموا محمد بن شهاب كابن حجر في تهذيب التهذيب وغيره بالرغم من تقديرهم له ذكروا ان اكثر مروياته من نوع المراسيل ، واكد الاسماعيلي في كتاب العتق ان موسى بن عقبة لم يسمع من الزهري شيئاً كما نص على ذلك ابن حجر في المجلد العاشر من تهذيبه وهو يترجم موسى بن عقبة .

وعلى اي الأحوال فهذه الرواية الشاذة لا يمكن ان تثبت في مقابل اجماع المحدثين والمؤرخين القائم على ان القاتل لمرحب هو علي عليه السلام .

ولم اجد من اخذ بهذه الرواية الشاذة من المؤلفين المحدثين سوى هيكل في كتابه حياة محمد فلقد اخذ بها بدون تردد وتجاهل الرواية الثانية المشهورة

---

(١) انظر مجلد ١٢ من تهذيب التهذيب لابن حجر .

(٢) انظر الموضوعات في الآثار والاخبار للمؤلف .

بين المحدثين والمؤرخين ، وليس ذلك بغريب عليه وعلى امثاله ممن يحاولون التقليل من اهمية مواقف علي (ع) .

وقد اورد الغزالي في كتابه فقه السيرة الروايتين ووضع نفسه في موضع المتردد في صحة ايهما ، والذي اظنه انه لا يتردد هو ولا غيره في صحة الرواية الشائعة ولكن عز عليه ان يتركها لعلي صافية بدون ان يضع في مقابلها ما يثير ولو ادنى مراتب الشك فيها وقد جرى على ذلك في كتابه فقه السيرة فلم يذكر موقفاً او فضيلة لعلي (ع) الا حيث لا يرى بديلاً لذلك ، فإذا جاء لغيره تجده يحاول بكل الأساليب ان يخلق من العدم شيئاً ومن الوهم واقعاً ومن الباطل حقاً .

ومهما يكن الحال فمواقف علي وأبيه في سبيل الاسلام وتضحياتهما في سبيل محمد ودعوته لم يسبق لها نظير في تاريخ البشرية ولا ينكرها او يشكك فيها الا الحاقدون على الرسول وآله الكرام .

وجاء في بعض كتب السيرة انه بعد ان قتل علي مرحباً برز اخوه ياسر وكان من فرسان اليهود وابطالهم فبرز اليه علي (ع) فألحقه بأخيه ، وفي رواية ثانية ذكرها المؤلفون في السيرة عن هشام بن عروة ان الذي قتله الزبير بن العوام ، وكانت امه صفية كما يدعي ابن كثير قد خرجت مع المسلمين فلما رأت ولدها قد خرج خافت عليه وجاءت الى النبي (ص) فقالت ايقتل ابني يا رسول الله ، فقال لها بل ابنك يقتله فقتله الزبير .

وروى اكثر المؤلفين في السيرة ان علياً (ع) بعد ان قتل مرحباً واخاه استولى الخوف على اليهود فالتجأوا الى الحصن وأغلقوا بابه وكان منيعاً يعرف بحصن القموص وقد حفروا حوله خندقاً يتعذر على المسلمين اجتيازه فاقتلع باب الحصن وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون ، واستبسلوا بقيادة علي (ع) فهاجموا بقية الحصون وتغلبوا على من فيها حتى انتهوا الى حصن الوطيح والسلالم وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما الذراري والنساء والأموال .

ولما احس اليهود بأنه اسقط في ايديهم وان المسلمين سيأسرونهم ويقتلونهم ان هم ظلوا على موقفهم طلبوا الصلح من النبي (ص) فأجابهم الى ذلك بعد ان استولى على اموالهم وابقاهم يعملون في الأرض على ان يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم ، وكانت صفية بنت حيي بن اخطب مع نسوة اليهود داخل حصن القموص وهي زوجة لكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق ، فلما اسرها علي أرسلها مع بلال الى رسول الله ومعها نسوة من قريباتها ، فمر بهن بلال على قتلى اليهود فصاحت احداهن وحكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، ولما علم النبي بذلك قال له : انزعت الرحمة من قلبك تمر بهن على القتلى من رجالهن وابنائهن ؟

وجاء في سيرة ابن هشام ان كنانة بن الربيع كان عنده كنز بني النضير فطلبه رسول الله وسأله عن الكنز فلم يعترف به فجاء رجل من اليهود وقال لرسول الله : اني رأيت كنانة بن الربيع يأتي هذه الخربة في كل غداة ولكن كنانة اصر على انكاره ، فأمر الرسول بحفر الخربة فأخرج منها بعض كنوزهم ، وسأله عن الباقي فأبى ان يعترف ، فقال النبي للزبير خذه وعذبه حتى تستأصل ما عنده ، ولما لم يعترف اعطاه النبي (ص) الى محمد بن مسلمة فقتله بأخيه محمود بن مسلمة .

ورجع من الحبشة جعفر بن ابي طالب ومن معه من المسلمين في اليوم الذي تم فيه فتح المسلمين لخيبر ، فتلقاه النبي واحتضنه وقبل ما بين عينيه ، ثم قال، والله ما أدري بأيهما انا أشد سروراً أبقدوم جعفر ام بفتح خيبر وظهرت عليه علائم الارتياح والانشراح بتلك المفاجأة التي تساوي عنده فتح خيبر او اكثر من ذلك ، وظن بعض المسلمين ان جعفراً ومن معه من المهاجرين اقل قدراً من اولئك الذين كانوا مع النبي (ص) وهاجروا معه واشتركوا في الحروب والغزوات .

فقد جاء في فقه السيرة للغزالي ان اسماء بنت عميس زوجة جعفر بن

ابي طالب دخلت على حفصة زوجة النبي (ص) تزورها فدخل عمر بن الخطاب على ابنته واسماء عندها ، فقال لابنته من هذه ، قالت هي اسماء بنت عميس ، فقال الحبشية هذه البحرية هذه ، والتفت اليها قائلاً لقد سبقناكم في الهجرة فنحن احق برسول الله منكم ، فغضبت اسماء وقالت كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا في ارض البغضاء بالحبشة وذلك في الله وفي رسوله ، وايم الله لا اطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى اذكر ما قلته لي لرسول الله وأسأله عنه ، وإني لا اكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه ، ثم اتت النبي (ص) وقالت يا رسول الله : ان عمر بن الخطاب يقول كذا وكذا : فقال لها فما قلت له فأخبرته بمقالتها ، فقال (ص) : انه ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة ولكم اهل السفينة هجرتان .

وعد الشيخ الغزالي في فقه السيرة هذا الحديث من الصحاح ، وأضاف ان الشيخين مسلم والبخاري قد اورداه في صحيحيهما .

ويدعي المؤلفون في السيرة والمحدثون ان النبي (ص) قد اعطى لجعفر ومن معه من المهاجرين كما اعطى غيرهم ممن اشتركوا في فتح خيبر ، ولم يعط احداً غيرهم كما جاء في رواية البخاري .

موقف النبي من يهود فدك ومصيرها
في حياته وبعد وفاته

لقد جاء في كتب السيرة والتاريخ انه لما تغلب المسلمون على يهود خيبر واستولوا على اموالهم ، وتم الاتفاق بينهم وبين النبي (ص) على ان تبقى الأرض في ايديهم يعملون فيها بنصف الناتج والنصف الثاني للمسلمين ،

استولى الخوف على اهل فدك وظنوا ان النبي سيغزوهم وايقنوا ان لا طاقة لهم بمقابلته ، فأرسلوا اليه قبل ان يتجه نحوهم انهم على استعداد لأن يسلموه الأرض وما يملكونه على ان يحقن دماءهم ، وعرضوا عليه ان يعملوا في الأرض بنصف الناتج ويلتزموا بما يفرضه عليهم كما اتفق مع يهود خيبر فوافق على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض ، فكانت خيبر ملكاً للمسلمين لأنه استولى عليها بالحرب ، وفدك للنبي ، وقد وهبها النبي لفاطمة الزهراء (ع) في حياته ، فكان يدفع لفاطمة من غلتها ما يكفيها والباقي يصرفه في شؤون المسلمين كما اجمعت على ذلك المصادر الشيعية وبعض المصادر السنية ، فقد جاء في الدر المنثور للسيوطي عن البزاز وابي يعلى وابن حاتم وابن مردويه عن سعيد الخدري انه قال لما نزلت الآية ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ دعا رسول الله فاطمة واعطاها فدكاً كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس[1] .

وجاء في شرح النهج عن أبي سعيد الخدري أنه (ص) وهبها لفاطمة، ولما انتهت الخلافة لأبي بكر كان اول ما قام به ان انتزعها من يدها بحجة ان النبي على حد زعمه قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة واصر على انتزاعها من يدها بالرغم من انها طالبت بها واقامت البينة على ملكيتها لها .

وفي بعض الروايات انها لما افحمتهم بحجتها كتب لها كتاباً فيها ودفعه اليها ، ولكن عمر بن الخطاب ابى عليه ذلك وانتزع الكتاب منها في حديث طويل لا يعنينا منه اكثر من هذه الاشارةالعابرة وظلت في يد الخلفاء كمورد من موارد الدولة حتى انتهى الحكم لمعاوية فقسمها ثلاثاً بين مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان ويزيد بن معاوية ، وانتهت كلها لمروان أيام خلافته فوهبها لولده عبد العزيز ، وعبد العزيز وهبها لولده عمر بن عبد العزيز ، ولما انتهت

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ص ١٣٦ من الجزء الثالث .

الخلافة اليه كانت اول ظلامة ردها على العلويين وسلمها للامام علي بن الحسين (ع) فكان يوزع ناتجها على ذرية فاطمة ، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز انتزعها من العلويين يزيد بن عبد الملك وبقيت بيد خلفائهم الى ان جاءت الدولة العباسية فردها ابو العباس السفاح احد حكامهم على العلويين ، وانتزعها المنصور بعد ثورة عبد الله بن الحسن ، ثم ردها عليهم المهدي العباسي ، وانتزعها منهم موسى بن المهدي العباسي ، وبقيت في ايدي العباسيين الى عهد المأمون فسلمها للفاطميين ، وبقيت في ايديهم الى ان جاء المتوكل وكان شديد الكراهية لعلي وبنيه ، فانتزعها منهم الى كثير من المرويات حولها .

ومما يؤكد ان فدكاً كانت لفاطمة هبة لها من ابيها ما جاء في كتاب علي (ع) لعثمان بن حنيف الأنصاري فقد قال فيه : بلى كانت في ايدينا فدك من كل ما اظلته السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله[1] .

ولما اطمأن رسول الله على مصير الاسلام من اليهود وتضعضع مركزهم في بلاد العرب واراد الرجوع الى المدينة جاءته زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم بشاة مطبوخة كانت قد وضعت فيها السم واكثرت منه في ذراعها بعد ان بلغها انه يحب من الشاة لحم الذراع ، فلما وضعتها بين يديه جلس هو واصحابه ليأكلوا فتناول منها الذراع ووضع قطعة منه في فمه فلاكها ولم يستسغها فلفظها وهو يقول : ان هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم ، وكان بشر بن البراء قد تناول قطعة وازدردها ثم توقف هو واصحابه عن الأكل ودعا بزينب وسألها عن السم فاعترفت وقالت لقد بلغت من قومي ما بلغت ، فصنعت لكم هذه الشاة وقلت في نفسي ان كان ملكاً اكون قد

---

(١) انظر شرح النهج ج ٤ ص ٣٧ وما بعدها .

ادركت ثأري منه وإن كان نبياً كما يدعي فسيخبره الله بذلك ، ومات بشر بن البراء من ساعته .

واختلف الرواة بشأن زينب بعد هذه الحادثة فقيل ان النبي قبل عذرها وعفا عنها لأنها صنعت ذلك بدافع الثأر لأبيها وزوجها وقيل انه امر بقتلها في بشر بن البراء الذي قتله السم ، وهو الأرجح ولا يمكن ان يقبل لها النبي عذراً في إقدامها على هذه الجريمة .

ويدعي المؤرخون ان آثار السم بقيت في جسم النبي (ص) وتغلبت عليه في مرضه الأخير وبتأثيرها كانت وفاته كما يزعمون .

وتجهز رسول الله بعد ذلك للعودة الى المدينة عن طريق وادي القرى ، فاستعد يهودها لقتال المسلمين فعبأ رسول الله اصحابه كما جاء في رواية الواقدي ودفع لواءه لسعد بن عبادة ، ثم دعاهم الى الاسلام ، وقال لهم ان اسلمتم تحرزون اموالكم ودماءكم ولكنهم رفضوا الاسلام واصروا على المقاومة، فبرز منهم رجل وطلب القتال ، فخرج اليه الزبير وقتله ، ثم برز رجل آخر من ابطالهم ، فبرز اليه علي بن ابي طالب (ع) واحتدمت المعركة بين الطرفين حتى قتل منهم احد عشر رجلاً ، وكان كلما قتل علي منهم رجلاً دعاهم الى الاسلام وهم يرفضون ، واستمر القتال بينهم وبين المسلمين الى اليوم الثاني فلما ارتفعت الشمس استسلموا فاستولى المسلمون على اموالهم وامتعتهم وترك النبي لهم الأرض والنخيل على ان يستعملوها بنصف ناتجها كما صنع مع اهل خيبر .

اما يهود تيماء فقد عرض عليهم النبي ان يدخلوا في الاسلام او يدفعوا الجزية فقبلوا بالجزية والتزموا بدفعها ولم يقع بينهم وبين المسلمين قتال ، وانتهى بذلك كل ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة ، واصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال الى حدود الشام ، كما اصبحوا بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية .

وجاء في كتب الحديث والسيرة ان احد المسلمين ممن اشتركوا في غزوة خيبر ويدعى الحجاج بن ملاط السلمي كانت له ديون في مكة على جماعة من اهلها ، وخاف ان يمتنعوا عن وفائها فجاء الى رسول الله بعد سقوط خيبر وفدك في ايدي المسلمين وقال له يا رسول الله ان لي عند صاحبتي ام شيبة بنت ابي طلحة وغيرها اموالاً ولا استطيع تحصيلها الا ان اقول ما ليس بواقع ، فقال له النبي (ص) قل ما تشاء يا حجاج .

فخرج الحجاج مسرعاً حتى انتهى الى مكة ، قال فوجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش خرجوا يتطلعون الى اخبار معركة النبي مع اليهود ونتائجها وكان يهمهم ان يهزم النبي في تلك الغزوة كما ذكرنا فلما رأوني اسرعوا الي ولم يكونوا قد علموا بإسلامي ، وقالوا لقد بلغنا ان القاطع سار بمن معه الى خيبر فأخبرنا بما عندك ، فقلت لهم ان عندي من الخبر ما يسركم فالتفوا حول ناقتي ، فقلت لهم لقد هزم الله محمداً واصحابه هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، لقد قتل اصحاب محمد ووقع هو اسيراً بيد اليهود واتفقوا على ان يرسلوه اليكم لتقتلوه بما اصاب من رجالكم ، فاستبشروا وصاحوا بمكة من جميع الجوانب يبشرون اهلها بذلك ويقولون ان محمداً وقع اسيراً في يد اليهود وسيقدمون به عليكم ليقتل بين اظهركم .

ثم قال لهم الحجاج اعينوني على جمع اموالي من غُرمائي لأني اريد ان ارجع فوراً الى خيبر لأشتري مما غنمه اليهود من محمد قبل ان يسبقني التجار الى ذلك ، فأسرعوا في جمع الديون التي كانت لي بكاملها ، وجئت صاحبتي فأخذت منها ما كان لي عندها من المال ، وقلت لها اني راجع مسرعاً لعلي اصيب مما غنمه اليهود من محمد قبل ان يسبقني اليه التجار وانتشر الخبر بين احياء مكة وبيوتها بأسرع ما يكون واخذ كل واحد يبشر الأخر وعلت الهتافات والزغاريد وشهدت مكة في تلك الساعات من الفرح والبهجة ما لم تشهده في تاريخها الطويل ، ولكن هذه الشائعة كانت صدمة على الهاشميين كادت تزهق لها نفوسهم .

ولما سمع العباس بن عبد المطلب جاءني مسرعاً ووقف الى جانبي وانا في خيمة من خيام التجار ، فقال لي يا حجاج : ما هذا الذي جئت به فقلت له : هل عندك حفظ لما اضعه عندك ، قال نعم : فقلت له تأخر حتى القاك على خلاء فإني مشغول بجمع مالي ، فانصرف عني حتى إذا انتهيت من جمع كل شيء كان لي بمكة وعزمت على الخروج منها خلوت به ، وقلت له احفظ علي حديثي يا ابا الفضل ثلاثاً فاني اخشى الطلب ، وبعد ذلك قل ما تشاء فقال افعل ذلك فقلت له : والله لقد تركت ابن اخيك عروساً على ابنة ملكهم صفية بنت حيي بن اخطب ، ولقد افتتح خيبر وفدك واستولى على اموالهم واصبحت له ولأصحابه فقال ما تقول يا حجاج فقلت والله ان الأمر كذلك فاكتم علي ثلاثاً ، واني قد اسلمت وجئتهم بهذا الخبر لآخذ اموالي خوفاً من ان اغلب عليها ، وانصرفت عنه فلما كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق واخذ عصاه ، ثم خرج واتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا يا ابا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة قال كلا والذي حلفتم به لقد افتتح خيبراً واحرز اموالهم واصبح عروساً على ابنة ملكهم واصبحت خيبر له ولأصحابه ، فقالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذي جاءكم بما جاءكم به ولقد دخل عليكم واخذ ماله ليلحق برسول الله واصحابه ، فقالوا لقد افلت عدو الله ، اما والله لو علمنا بذلك لكان لنا وله شأن ، وما لبثوا حتى جاءتهم الأخبار بانتصار الرسول واستيلائه على خيبر وفدك وغيرها ورجوعه الى المدينة بمن معه من اصحابه فاتحين فرحين بنصر الله .

وكان رجوعه خلال النصف الثاني من صفر ، فأقام بالمدينة شهري ربيع وجماديين ورجب وشعبان ورمضان وشوال من السنة السابعة ، وخلال المدة التي اقامها في المدينة الى ان جاء الموعد الذي تواعد فيه مع قريش على الرجوع الى مكة لأداء مناسك الحج ، خلال تلك الأشهر انصرف الى تنظيم امور المسلمين وتبليغ الأحكام حسبما كانت تنزل عليه بين الحين والآخر ، وكان مع ذلك يبعث السرايا السرية تلو الأخرى يتعقبون عبدة الأصنام من

الأعـراب عندمـا يبلغه انهم يفكـرون في الاعتـداء عـلى المسلمـين ، او سلب شيء من امـوالهم ، وتمكن المسلمون من اولئـك الأجلاف الغـلاظ قبيلة اثـر قبيلة بعـد ان تبـدد شملهم في غـزوة الأحـزاب ، وبعـد مـوادعـة قـريش في الحـديبية والقضـاء على آخـر معقل من معـاقل اليهـود في خيبر وفـدك وتيـماء وغيرها .

ويدعي المؤلفون في السيـرة انه ارسـل ابا بكـر في سريـة الى بني فزارة وعمر بن الخطاب الى مكان يدعى تربة ، فرجعا ولم يكن بينهم قتال .

وبعث عبـد الله بن رواحة الى بشـير بن رزام اليهودي ، فقـال له لقـد ارسلنا رسول الله اليك ليستعملك على خيبر ، ولم يزالـوا به حتى ركب معهم في ثـلاثين رجـلاً ، وفي الطريق نـدم بشير بن رزام عـلى سفـره ، وحـاول ان يغتال عبد الله بن رواحة ، فانتبه له عبد الله ، ثم قتله ، وقتل كـل رجل من المسلمين رديفه من اليهود ، وكانـوا ثلاثـين رجلاً ولم يفلت منهم سـوى رجل واحد ، كما جاء في رواية ابن كثير في تاريخه .

وبعث بشـير بن سعد في سـرية تتـألف من ثـلاثـين رجـلاً الى بني مـرة فتغلب عليهم بنـو مـرة وقتلوهم وسلم بشـير بن سعـد فكـر راجعـاً الى النبي فأرسل اليهم رسول الله غالب بن سعد ومعه اكثر من مائة رجل من المسلمين فغنموا من اموالهم وكروا راجعين الى المدينة ، وظلت سراياه تنطلق من المدينة لى خارجها كلما بلغه عن قبيلة تفكر في الغزو او تنوي الغدر .

ومـع انه كـان في عمل دائم لم يكن ليشغله شيء عن التفكـير في نشـر الدعوة خارج الجزيرة لا سيما وان اخصامها في شبه الجزيرة قد اصبحوا ما بين مهادن وخائف ، فالأعراب قد يئسوا من التغلب عليه بعد القضـاء على آخـر معقل من معاقل اليهود ، وقريش قد التزمت من جانبها بالهدنة الى سنتـين او اكثر ، حسب اختلاف الروايات في امرها .

انطلاق الدعوة من الحجاز الى خارجه

لقد جاء في كتب السيرة انه بعد ان اطمأن الرسول على سير الدعوة في شبه الجزيرة اتجه الى ما وراءها فـأرسل رسله الى هـرقل ملك الـروم وكسرى ملك فارس ، والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشـة ، وإلى عامل كسرى في بلاد اليمن ، وكان هرقل وكسرى يوم ذاك على رأس دولتين من اقوى دول ذلك العصر ، فقد صنع خاتمـاً نقش عليه محمـد رسول الله وكتب الى هـرقل بعـد التسميـة من محمد عبـد الله الى هرقـل عظيم الـروم ، سـلام عـلى من اتبـع الهدى ، اما بعد فاني ادعوك الى دين الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فإن توليت ، فإنما عليك اثم الأريسيين[1] .

﴿ يا اهل الكتاب تعالـوا الى كلمة سـواء بيننا وبينكم ألا نعبـد إلا الله ولا نشـرك به شيئاً ولا يتخـذ بعضنـا بعضـاً اربـابـاً من دون الله ﴾ وارسـل الكتـاب مع دحيـة بن خليفة الكلبي ، وكتب الى كـل رئيس وملك بنحو من ذلك ، ودفع كتاب كسرى الى عبد الله بن حذافة السلمي ، وكتاب النجاشي الى عمـرو بن امية الضمـري ، وكتـاب المقـوقس الى حـاطب بن ابي بلتعـة ، وكتـاب ملك عمـان الى عمـرو بن العـاص السهمي ، وكتـاب سليط ملك اليمامة الى سليط بن عمـرو ، وهكذا فقـد بعث الى كل ملك او رئيس دولـة خارج الحجاز بكتاب مع رجـل من المسلمين ، وانـطلق الرسـل بالكتب التي معهم الى حيث وجههم في وقت واحد على قـول بعض المؤرخين وفي اوقـات مختلفـة على قـول آخـر ، وكـان رد هؤلاء الملوك والأمـراء عـلى رسـل محمـد وإجاباتهم على رسائله مختلفة ، وفي بعضها رقة ولين وفي بعضهـا الآخر قسـوة

---

(١) اي انك مسؤول عن رعيتك فعليك اثمهم لصدك اياهم عن الدين .

وغلظة تبدو عليها الغطرسة والجبروت ، كما يبدو ذلك من موقف كسرى حينما وصله كتاب النبي حيث اخذه الغضب ، فمزق الكتاب وبعث الى عامله على اليمن ان يغزو محمداً ويبعث اليه برأسه ، وكانت النتيجة ان بازان ارسل رسالة الى النبي لم يذكر المؤرخون محتوياتها .

وخلال ذلك مات كسرى وانتقل ملكه الى ولده شيرويه ، وعرف النبي بذلك ساعة موته ، فأخبر رسل بازان عامله على اليمن بموته ، ورغب اليهم ان يكونوا رسله الى بازان يدعونه الى الاسلام ، وكان الأمر كذلك ، فاستجاب له بازان وجماعة من الناس ودخلوا في الاسلام وكانوا قد عرفوا قبل ذلك بظهور الاسلام وانتصاراته المتتالية على عرب الجزيرة ، وقاسوا من الاستعمار الفارسي ضروباً من الاستغلال والامتهان ، ووجدوا في الدين الجديد منفذاً لهم الى التحرر ، فرحبوا بالدعوة وبقي بازان عاملاً للنبي على اليمن كما تنص على ذلك بعض المرويات .

وكما يبدو من موقف الحارث الغساني حيث بعث الى هرقل يستأذنه في ان يبعث جيشاً لحرب النبي يتولى قيادته بنفسه ، ولكن هرقل لم يعبأ برسالة النبي واعتقد انها لا تشكل خطراً عليه ، فلم يوافق الحارث على رأيه وطلب منه ان يأتي اليه ليرافقه الى زيارة بيت المقدس ، ولم يكن ليتصور ان تلك الدعوة من النبي سيقيض الله لها النجاح العاجل ، وان بلاد الشام وفلسطين واكثر المناطق التي كانت تخضع لحكم الرومان ستكون بعد سنوات قليلات خاضعة لذلك الدين الذي يدعوه اليه اليوم .

وكان رد المقوقس في مصر يحمل طابعاً آخر ، فقد اكرم الرسول واحسن ضيافته وحمله رسالة الى النبي تتضمن الاعتراف منه بظهور نبي في ذلك العصر ، ولكنه على حد زعمه انه سينطلق اول ما ينطلق من بلاد الشام لا من الحجاز ، وأرسل له مع الرسول بهدية جاريتين وبغلة بيضاء وحماراً ومقداراً من المال فقبل هديته شاكراً له صنيعه ، اما رد النجاشي فقد كان

جميلاً لأن مواقفه السابقة مع المسلمين الذين التجأوا اليه تشهد بحسن نيته ، فقد اكرمهم ووفر لهم جميع اسباب الراحة ، وزوج رملة بنت ابي سفيان من النبي بناءً لطلبه ، ولما رجع المسلمون من الحبشة جهز لهم سفينتين مجهزتين بكل ما يحتاجون اليه ونقلهم بواسطتها الى سواحل الحجاز .

اما حكام اليمامة وعمان فلم يتنكروا لدعوة النبي (ص) وتركوا باب المفاوضة بينهم وبين النبي (ص) مفتوحاً ، وأسلم من بين اولئك الأمراء المنذر بن ساور العبدي ودعا الناس الى الاسلام وكتب للنبي بذلك فتركه النبي عاملاً له على تلك المنطقة[1] .

---

(١) لقد اعتمدنا فيما كتبناه عن رسائل النبي ورسله الى الملوك والامراء ،اجوبتهم المختلفة عليها على ما كتبه الاستاذ هيكل حول هذا الموضوع .

الفصل التاسع عشر

عمرة القضاء

لقد كانت الأشهر الثمانية الواقعة بين انتهاء النبي من يهود خيبر وفدك واليمامة وبين عمرة القضاء حافلة بالعمل المتواصل لتركيز دعائم الاسلام وانتشاره ، فلما استدار العام وجاء ذو القعدة من السنة السابعة عزم على ان يخرج هو واصحابه الى مكة لأداء مناسك الحج حسبما تم الاتفاق عليه بينه وبين قريش في الحديبية فنادى مناديه في الناس ان يتجهزوا للسفر الى مكة ، فأسرع الناس بلهفة الى تلبية هذا الطلب وهم على احر من الجمر لحلول الوقت الذي تم الاتفاق عليه .

وخرج النبي (ص) من المدينة في الفين من المهاجرين والأنصار ومعهم اسلحتهم بكاملها ، فقيل له : يا رسول الله لقد حملت معك السلاح وقد شرطوا عليك ان تدخلها وليس معك الا السيوف في اغمادها فقال سوف لا ندخل عليهم مكة بغير السيوف ، وما بقي من سلاحنا سنضعه في خارجها بحيث يكون قريباً منا .

ولما انتهى الى ذي الحليفة احرم للحج هو واصحابه وساق معه ستين بدنة وقدم الخيل امامه وكانت نحواً من مائة بقيادة محمد بن مسلمة ، ولما

اصبح قريباً من مكة خرج منها زعماؤها الى رؤوس الجبال والتلال المجاورة لها كأبي قبيس وحراء والمرتفعات المطلة عليها ، وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد اخذ عبد الله بن رواحة بخطام ناقة النبي القصوى واحاط به كبار الصحابة ، ومن خلفه البقية ممن خرج معه من المدينة ، ولما انكشف لهم البيت انفرجت شفاه المسلمين بالنداء لبيك اللهم لبيك ووقف من بقي بمكة عند دار الندوة ينظرون اليه وإلى اصحابه .

وكانت قريش تظن ان محمداً في جهد وضيق وعسرة وتتحدث بذلك ، فلما دخل رسول الله المسجد وادخل بعض ردائه تحت عضده اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسر وقال رحم الله امرأ اراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن وخرج يهرول حول البيت حتى اذا واراه البيت عنهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الاسود ، وكلما هرول هرول اصحابه من خلفه حتى اتم الطواف وقريش تنظر اليه من فوق رؤوس الجبال فيأخذها العجب لهذا المنظر .

وفي تلك اللحظات التي كانت قريش تتطلع الى هذا الطريد الذي خرج من مكة مطروداً قبل سبع سنوات قد عاد اليها اليوم ودخلها كما يدخل الفاتح المنتصر لا يصده عنها صاد ولا يحول بينها وبينه حائل ، في تلك اللحظات نادى منادي المسلمين لا إله إلا الله وحده نصر عبده واعز جنده وخذل الأحزاب وحده فتجاوب الوادي من جميع جهاته بأصداء تلك الأصوات ، فارتجفت قلوب اولئك الذين تسنموا رؤوس الجبال والمرتفعات وتملكهم الحقد والغضب لهذا التحدي الصارخ . ولما اتم المسلمون الطواف حول الكعبة انتقل بهم النبي (ص) الى الصفا والمروة واتم مناسك العمرة ، وخلال الايام الثلاثة كان النبي يؤدي فريضة الصلاة في اوقاتها وخلفه الفان من المسلمين وقريش تنظر الى هذه المشاهد كلها ، وتزوج النبي خلال هذه الرحلة بميمونة بنت الحارث شقيقة ام الفضل زوجة العباس ومهرها العباس اربعمائة درهم .

ولما انتهت الايام الثلاثة التي اتفقا عليها في عهد الحديبية ارسلت قريش حويطب بن عبد العزى ومعه نفر من قريش ، وطلب من النبي ان يخرج من مكة عملاً بنص الاتفاق ، فقال لهم النبي : وما عليكم لو تركتموني وصنعت لكم طعاماً فحضرتموه ، فقالوا لا حاجة لنا في طعامك : اخرج عنا فقد انقضى الأجل بيننا ، فخرج النبي من مكة الى المدينة وذلك في شهر ذي الحجة ، ويدعي جماعة من المفسرين انه في هذه العمرة نزل قوله تعالى :

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (الفتح٢٧) .

اسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وعثمان بن طلحة

رجع النبي (ص) من عمرة القضاء كما يسميها المؤلفون في السيرة الى مكة في شهر ذي الحجة كما ذكرنا ، وبانتهائه دخلت السنة الثامنة للهجرة فأقام بالمدينة بضعة اشهر اسلم خلالها عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة كما جاء في رواية ابن كثير في البداية والنهاية ، وكانوا من المناهضين للاسلام ومن اعدائه الألداء في جميع المراحل التي مر فيها وقد ذكرنا بعض مواقفهم في الفصول السابقة .

وجاء في بعض كتب السيرة عن اسلام خالد بن الوليد انه قال : لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الاسلام وحضر لي رشدي ، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها مناوئاً لمحمد ولا موطن من المواطن

شهدته الا وانصرف وانا أرى في نفسي اني في غير شيء وان محمداً سيظهر ، فلما جاء لعمرة القضاء تغيبت ولم اشهد دخوله مكة ، وكان اخي الوليد بن الوليد معه فيمن دخل في الاسلام فطلبني فلم يجدني في مكة يوم ذاك ، فكتب الي كتاباً ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد ، فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ومثل الاسلام لا يجهله احد ، وقد سألني رسول الله عنك فقلت يأتي به الله فاستدرك ما فاتك من مواطن صالحة . فلما جاءني الكتاب زادني رغبة في الاسلام ، ورأيت في منامي كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت منها الى بلاد خضراء واسعة ، فلما عزمت على الخروج الى المدينة لقيت صفوان بن امية فقلت له يا أبا وهب : اما ترى ان محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا ،فقال لو لم يبق من العرب غيري ما اتبعته أبداً ، فقلت في نفسي هذا رجل قتل ابوه واخوه ببدر ، فلقيت عكرمة بن أبي جهل وقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فأجابني بمثل جوابه ، فقلت له اكتم علي ما قلت لك .

ثم لقيت عثمان بن طلحة الجمحي وكان قد قتل ابوه وعمه وإخوته في احد فترددت في الحديث معه ، ولكني اخبرته اخيراً برأيي فأسرع الى إجابتي ، ووعدني ان سبقني انتظرني في مكان عينه لي وإن سبقته انتظرته وخرجنا ليلاً من مكة باتجاه المدينة فنزلنا محلاً مع طلوع الفجر فوجدنا عمرو بن العاص فيه ، فقال مرحباً بالقوم : اين مسيركم فأخبرناه بما عزمنا عليه ، فقال وانا في هذا الطريق ثم اتفقنا في طريق واحدة حتى أتينا المدينة فأقبلنا على رسول الله (ص) والمسلمون حوله .

وجاء في البداية والنهاية ان اول من تقدم وبايع رسول الله خالد بن الوليد وتقدم عثمان بن طلحة فبايع ايضاً ، ثم تقدم بعدهما عمرو بن العاص فجلس بين يديه ينظر ببصره الأرض حياء من رسول الله ، وطلب من النبي ان يغفر له ما تقدم من ذنوبه ، فقال له: ان الاسلام يجب ما قبله ثم بايع

رسول الله (ص) .

وجاء في اسلام ابن العاص انه بعد صلح الحديبية قد تصور ان محمداً سيدخل مكة في العام القادم ولا يستطيع ان يتصوره فيها ورأى من الخير له ولجماعة من قومه ان يخرجوا من الحجاز الى الحبشة حتى لا يدخل محمد مكة وهم في تلك البلاد فخرج مع جماعة من قومه وحملوا الهدايا الى النجاشي فاستقبلهم ورحب بهم ، وخلال اقامتهم عنده جاءه وفد رسول الله عمرو بن امية الضمري يحمل كتابه اليه ، فطلب من النجاشي ان يسلمه رسول محمد ليقتله فأنكر عليه النجاشي ذلك واخبره ان محمداً يأتيه الناموس الاكبر الذي كان يأتي عيسى بن مريم وحثه على الدخول في الاسلام ، واخيراً بايع له واسلم بواسطة النجاشي ، وخرج من الحبشة متجهاً الى الرسول في المدينة حتى جمعه الطريق بخالد وعثمان بن طلحة في حديث طويل ذكره المؤلفون في سيرة النبي يكاد يشبه الأساطير ، رواه الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن عمرو بن العاص[1] .

والمتتبع لتاريخ ابن العاص منذ ان بعث النبي حتى دخوله في الاسلام الى آخر نفس من حياته يخرج جازماً بأنه لم يدخل في الاسلام عن قناعة وإيمان برسالة محمد بن عبد الله والذي دفعه الى اتخاذ هذا الموقف من الاسلام انه قد ادرك بعد تلك الانتصارات التي حققها الرسول على العرب واليهود في شبه الجزيرة العربية انه لم يعد بإمكان قريش وغيرها من العرب ان يقفوا في طريقه ، وايقن ان محمداً بعد ان دخل مكة معتمراً على كره من قريش سيدخلها فاتحاً ان عاجلاً او آجلاً ، وعندما تسقط مكة لا يبقى في الحجاز

---

(١) عبد الحميد بن جعفر روى عن جماعة منهم الزهري وغيره وضعفه جماعة من المحدثين منهم سفيان الثوري ويحيى بن سعيد ، وعده النسائي مع الضعفاء ، ووثقه جماعة كما جاء في تهذيب التهذيب ، ويكفي هذه القصة عيباً انها تنتهي في سندها الى ابن العاص الذي بقي بعد ان اظهر الاسلام منحرفاً عن الحق يعمل لمصلحة معاوية وغيره من المنحرفين عن الاسلام .

بأسرها من يستطيع الوقوف على قدميه في وجه الزحف الاسلامي الذي سوف لا يقف عند حدود الجزيرة وماذا يكون مصيره وامثاله من الأعداء الألداء الذين قادوا جميع التحركات المعادية للاسلام . لقد أيقن ان لا بديل له يحميه من محمد واصحابه فيها لو استمر على ما هو عليه غير اقراره لمحمد بالنبوة ولو بلسانه فبادر الى ذلك قبل فوات الاوان ، ووسعه عفو محمد (ص) الذي وسع بعد اشهر قليلات من اسلامه ابا سفيان وزوجته هنداً التي مثلت بعمه الحمزة اسد الله وأسد الاسلام وأكلت من كبده ثم حملتها معها الى مكة لتتشفى بالنظر اليها كلما تذكرت ما جر على أبيها وأخيها وعمها يوم بدر كما روى ذلك جماعة من الاخباريين .

السرايا والغزوات بين عمرة القضاء وفتح مكة

وخلال تلك الشهور التي تلت عمرة القضاء وقعت بين المسلمين والمشركين مناوشات قامت بها بعض السرايا التي ارسلها النبي الى جماعة من المشركين كسرية الأخرم بن ابي العوجا الى بني سليم في خمسين رجلاً من المسلمين ، فاستعان بنو سليم بأحلافهم من العرب وأحاطوا بالمسلمين فقاتلوا حتى قتلوا ، ولم ينج منهم الا قائد السرية واثنان معه .

وسرية غالب بن عبد الله الليثي الى بني الملوح بالكديد في جماعة من المسلمين وكانت نتيجتها لمصلحة المسلمين حيث انهم قتلوا من بني الملوح جماعة واستولوا على نعمهم ومواشيهم ورجعوا سالمين .

وسرية شجاع بن وهب الأسدي في ربيع الأول من السنة الثامنة ومعه اربعة وعشرون من المسلمين الى جماعة من هوازن وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى بلغ منازلهم في السحر فاستولى على نعمهم وأغنامهم ورجع الى المدينة .

وسرية كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً الى ذات اطلاح من ارض الشام ولما انتهوا اليها وجدوا جمعاً كبيراً من الناس فدعاهم كعب بن عمير الى الاسلام فأجابوه بالنبال والسيوف فقاتلهم المسلمون اشد قتال حتى قتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم سوى رجل واحد .

غزوة مؤتة

تلك هي صورة عن الحوادث التي وقعت خلال الأشهر الخمسة او الستة بين عمرة القضاء وغزوة مؤتة التي جهز اليها النبي (ص) جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل وامرهم بالخروج الى بلاد الشام لدعوة اهلها الى الاسلام ، وقتالهم إذا هم رفضوا ولم يقبلوا بشروط المسلمين ، وكان ذلك في الشهر الخامس من السنة الثامنة للهجرة .

وقد اختلف المؤرخون في الدوافع الى هذه الغزوة ، فقال بعضهم ان الدافع اليها هو الانتقام للحارث بن عمير الأزدي ، وكان قد وجهه النبي (ص) بكتاب الى ملك بصرى ، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وقال له اين تريد فقال الشام ، قال لعلك من رسل محمد قال : نعم فأوثقه رباطاً ثم قدمه وضرب عنقه ، ولم يقتل غيره من الرسل الذين وجههم النبي الى الملوك والروساء خارج الحجاز ، فكان لهذه الحادثة وقع شديد على النبي والمسلمين ، فأرسل رسول الله هذا الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف للاقتصاص من ذلك الوالي واتباعه .

وقيل ان هذه السرية كانت للانتقام لسرية كعب بن عمير التي ارسلها النبي (ص) الى ذات اطلاح في بلاد الشام يدعوهم الى الاسلام ، وكان من امرها ان قابلتهم تلك الحشود التي تجمعت في ذلك المكان بالسيوف والنبال ولم يفلت منهم سوى رجل واحد وقع جريحاً ، ثم تحامل بعد انتهاء المعركة

وانصراف الناس وانسل من بين القتلى مثخناً بالجراح ورجع الى المدينة ليخبر النبي بما جرى لـه ولأتباعـه الى غير ذلـك مما قيـل حول اسبـاب هذه الغـزوة ودوافعها .

وليس ببعيـد ان يكون الـدافـع الى هـذه الغـزوة المؤلفـة من جيش لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل كما تجمع الروايات على ذلـك بعد ارسـال الرسـل الى هرقل وغيره من الملوك والامراء ، هو ان النبي (ص) لم يرسل الى عرب الحجاز وحدهم بل ارسل الى العالم بأسره ، وبعد ان اصبـح بحكم المطمئن على دعوتـه في شبه الجـزيرة كـان يفكر ان يجـد لها منفـذاً لخارج المنـطقة التي انطلقت منها ، وكانت الدولة الرومانية هي الدولة الكبـرى التي امتد نفـوذها لبلاد الشام المتصلة بحدود الحجاز وصلة المكيين والحجازيين بتلك البلاد اوثق من صلتهم بأي بلد آخر ، فأرسل دعاته اولاً وقـواته ثـانياً لا للحـرب ولكن للدعـوة الى الاسلام ، امـا الحرب فهي آخـر ما كـان يفكر فيـه ، ولذا فقـد اوصى قواد تلك السرية بالدعوة الى الاسلام وبذل جميع المحاولات لإقناعهم وان لا يستعملوا القوة الا اذا اضطروا اليها كما كان يصنع هو نفسه في غزواته مع مشركي مكة وعرب الحجاز ويهودها .

ولم يكن يحسب بـأنهم سيصطدمـون بتلك الحشود الهـائلة التي يقدرهـا فريق من الرواة بمائة الف وفريق آخر بمـائتي ألف ، وحتى لو كـان يعلم ذلك فلم يكن في سائر غزواته وحـروبه يقـدر للكثرة قـدراً او يحسب لها حسـاباً ، ومع ان جيشه رجع كالمنهزم من تلك المعركة ومني بخسائر فادحـة في الارواح الا انـه ترك اثـراً عميقاً في نفـوس اولئك الحكـام الذين كـانوا يتصـورون ان بإمكانهم القضاء على محمد واصحابه متى ارادوا .

لقد ايقنوا بعد تلك الغزوة ان محمداً واتباعه قد اصبحوا قوة بين القوى الموجودة في العالم ، وانهم بإيمـانهم وإخلاصهم لعقيـدتهم ومبادئهم يـطمحون الى اخضـاع الدول الكبـرى ولا يهابـون العدة والعـدد مهما بلغ شـأنها ، وقد

رأوا من اقدامهم بهذا العدد اليسير على تلك الحشود الهائلة واستبسالهم في القتال ومرونتهم في ادارة المعارك ما بهر عقولهم وزرع في قلوبهم بذور الرعب والخوف ، واصبحوا يحذرون ويتهيبون هذه الدولة الفتية الناشئة التي لا تستهدف تسلطاً على البشر ولا استغلالاً لموارد الأرض ولا ضم بقاع منها الى نفوذها وسلطانها ، وإنما تستهدف ان تجمع البشرية على الايمان بإله واحد احد لا شريك له ولا ولد وتخليصها من سيطرة الطغاة والمتجبرين وتحرير الضعفاء والمظلومين من تسلط الأقوياء واستغلالهم للانسان ليكون حراً في تفكيره وسلوكه وحياته لا يخضع لغير الخالق الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

ومهما كانت دوافع تلك الغزوة فلا شك ان محمداً (ص) كان حكيما يستمد من حكيم خبير وتتسع نظراته لما وراء زمانه بزمن طويل ، مهما كانت دوافعها فلقد جهز هذا الجيش وعين ثلاثة من الصفوة بين اصحابه يتولون قيادته على التعاقب .

وتجمع المصادر الشيعية انه جعل القيادة لجعفر بن ابي طالب ، ومن بعده لزيد بن حارثة ، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة ، وترك للجيش ان يختار لقيادته من يراه صالحاً اذا اصيب الثلاثة .

كما تجمع المصادر السنية انه جعل القيادة لزيد بن حارثة ومن بعده لجعفر بن أبي طالب ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة .

وجاء في شرح النهج لابن ابي الحديد عن الواقدي ان النبي (ص) خرج مع من بقي في المدينة لوداع الجيش ومشى معهم حتى بلغ ثنية الوداع ووقف عندها يوصيهم بتقوى الله والاعتماد عليه والصبر والثبات في ساعات الشدة ، وقال لهم : انكم ستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً ، ولا تقطعوا

نخلاً وشجراً ولا تهدموا بناء لأحد .

ولما ودع عبد الله بن رواحة قال له عبد الله : زودني يا رسول الله بشيء احفظه عنك فقال له يا عبد الله : انك قادم الى بلد السجود فيه قليل فأكثروا من السجود لله فقال له زدني يا رسول الله : فقال له اذكر الله واستغن به فإنه عون لك على ما تطلب ، ولما طلب منه المزيد اوصاه بالاحسان الى الناس ، وقال يا بن رواحة ما عجزت فلا تعجز ان اسأت عشراً ان تحسن واحدة ، فقال له ابن رواحة لا أسألك بعد هذه عن شيء ، ثم ودعهم النبي (ص) ومن معه وانشد عبد الله يرد على دعاء المسلمين لهم بالعودة سالمين :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
او طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال اذا مروا على جدثي ... يا أرشد الناس من غاز وقد رشدا

وانطلق الجيش متجهاً نحو مشارف الشام فنزل وادي القرى واستراحوا بها وهم يفكرون ان يأخذوا القوم على غرة منهم كما هي عادتهم في اكثر الغزوات ويرجعون ظافرين منتصرين ، ولكن اخبارهم كانت قد سبقتهم وبلغت المناطق التي يتولاها شرحبيل عامل هرقل فجمع القبائل من حوله ، وأرسل الى هرقل ليمده بجيش من عنده فأمده بعدد كبير من العرب .

وتذهب بعض الروايات ان هرقل بنفسه خرج على رأس ذلك الجيش كما تذهب بعضها انه أرسله بقيادة اخيه (تيودور) حتى اجتمع من الروم والعرب لمقابلة جيش المسلمين مائة الف ، او مائتا الف حسب اختلاف الروايات في ذلك . ولما انتهى المسلمون الى معان بلغتهم اخبار تلك الحشود ، وقيل ان اخبارها بلغتهم وهم في وادي القرى فأقاموا ليلتين يتداولون الرأي بينهم في الرجوع والمضي ، فارتأى فريق منهم ان يكتبوا الى

النبي ويخبروه باستعداد القوم وعدد جيوشهم ، فإما ان يمدهم بالرجال ويأمرهم بالمضي ، او يأمرهم بالرجوع ، وكاد هذا الرأي ان يتغلب لولا ان عبد الله بن رواحة وقف في القوم يشجعهم ويقول : يا قوم والله إنا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة بل نقاتل بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فإنما هي احدى الحسنيين اما ظهور على العدو ، واما الشهادة فكان لهذه الكلمات اثرها الطيب على تلك النفوس المؤمنة فصمموا على المضي والقتال مهما كانت النتائج ومضوا في طريقهم ، فلما بلغوا ارض البلقاء بلغهم ان جيش الروم يرابط في قرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة وعبأوا جيوشهم بها ولما التقى الجمعان ثلاثة آلاف مسلم من جهة ، ومائتا الف من جيوش الروم في مقابلهم في الجهة الثانية ، فأخذ الراية زيد بن حارثة وحمل على القوم بمن معه من المسلمين بسيوفهم ورماحهم يقاتلون قتال المستميت الذي لا يطمع في الحياة ابداً وظل يقاتل لفترة من الزمن حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ومضى بها يقاتل ويشد على القوم بسيفه فينفرجون عنه وهم كالسيل لا يدرك البصر آخرهم .

ويروي المؤرخون عمن حضروا تلك المعركة انه لما احتدم القتال اقتحم عن فرس له شقراء وعقرها حتى لا يبقى له امل بالفرار وحمل على القوم راجلاً ومضى يقاتل ويقتل كل من دنا منه حتى احاطوا به من كل جانب فضربه رومي على يمينه فقطعها فأخذ الراية بيساره ، فضربه آخر على يساره فقطعها فاحتضن الراية فضربه احدهم بالسيف فقطعه نصفين ، فوجدوا في احد نصفيه خمسة وثلاثين جرحاً .

وجاء في رواية ثانية انهم وجدوا في مقدم بدنه تسعين جرحاً ما بين طعنة برمح وضربة بسيف .

وجاء في مجاميع الحديث السنية والشيعية ان النبي (ص) قال لقد ابدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة .

وروى البخاري في صحيحه عن الشعبي عن ابن عمر انه كان اذا سلم على عبد الله بن جعفر يقول له : السلام عليك يا بن ذي الجناحين .

وروى ابن كثير في بدايته ان جعفر بن ابي طالب لما نزل عن فرسه وعقرها حمل على جيوش الروم وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة انسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

ومضى يقول هو وغيره من المؤلفين في السيرة انه لما قتل جعفر بن ابي طالب اخذ الراية عبد الله بن رواحة فاعتراه بعض التردد والخوف ثم قال مخاطباً نفسه :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت ان تفعلي فعلهما هديت

ثم نزل عن فرسه وحمل على القوم بمن معه من المسلمين وفيما هو يقاتل اتاه ابن عم له بعظم عليه لحم وقال شد به صلبك ، فانك قد لقيت في ايامك هذه ما لقيت فأخذه من يده وانتهش منه نهشة ، ولما رأى المسلمين يشتدون في القتال القاه من يده وحمل على القوم وقاتل حتى قتل .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان رسول الله نعى زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة الى الناس ساعة قتلوا وقال لهم : لقد اخذ الراية زيد واصيب ، ثم جعفر واصيب ، ثم اخذها ابن رواحة وقاتل بها بعد تردد واصيب .

وجاء في كتب السيرة انه دخل على اسماء بنت عميس زوجة جعفر فقال لها : اين بنو جعفر فجاءته بهم وهم ثلاثة عبد الله وعون ومحمد فأجلسهم في حجره وجعل يمسح على رؤوسهم كما يمسح على رؤوس الأيتام ثم ذرفت

عيناه بالدموع وبكى ، فقالت له : يا رسول الله انك تمسح على رؤ وسهم كالأيتام فهل بلغك عن جعفر واصحابه شيء فعجب من عقلها وقال لها يا اسماء ألم تعلمي بأن جعفراً قد استشهد فبكت ، فقال لها لا تبكي ، فإن الله اخبرني ان له جناحين في الجنة من ياقوت احمر يطير بهما مع الملائكة .

فقالت له يا رسول الله : لو جمعت الناس واخبرتهم بفضل جعفر فقام رسول الله وصعد المنبر وتحدث عن جعفر وفضله والحزن ظاهر على وجهه ، ثم رجع الى بيته وقال لأهله اصنعوا لأولاد جعفر طعاماً ودخل على ابنته فاطمة وهي تقول : واعماه فقال على جعفر فلتبك البواكي .

وجاء في كتب السيرة والتاريخ انه لما قتل عبد الله بن رواحة انهزم المسلمون فاخذ الراية ثابت بن ارقم وجعل يصيح بالأنصار فرجع اليه جماعة منهم.فقال لخالد بن الوليد خذ الراية يا ابا سليمان فأخذها خالد بن الوليد وحمل بمن معه على جيش الروم وجعل المشركون يحملون عليه حتى دهمه منهم بشر كثير ، فانحاز بالمسلمين وانكشفوا راجعين واضاف الى ذلك الواقدي انه روي ان خالداً ثبت بالناس ، ولم ينهزم والصحيح انه انهزم .

وفي شرح النهج عن ابي سعيد الخدري انه قال : أقبل خالد بالناس منهزمين ، فلما سمع اهل المدينة بهم استقبلوهم الى الجرف وجعلوا يحثون في وجوههم التراب ، ويقولون لهم يا فرار فررتم في سبيل الله ، فقال النبي لهم : ليسوا بالفرار ولكنهم كرار ، وأضاف الى ذلك الواقدي انه ما لقي جيش بعث مبعثاً ما لقي اصحاب مؤتة من اهل المدينة لقد قابلوهم بالشر حتى ان الرجل كان يأتي اهله وبيته فيدق عليهم الباب فيأبون ان يفتحوا له ويقولون الا تقدمت مع اصحابك فقتلت كما قتلوا ، وجلس الكبار منهم في بيوتهم استحياء من الناس حتى ارسل اليهم رسول الله رجلاً رجلاً وقال لهم انتم الكرار في سبيل الله .

ومهما كان الحال فلقد رجع خالد بن الوليد الى المدينة منهزماً كما تؤكد

ذلك اكثر كتب السيرة .

وجاء في بعضها انه استطاع ان يدير المعركة ببطولة ومهارة وينظم الجيش تنظيماً اوهم العدو بأن المدد قد جاءهم من المدينة وانهم في المرحلة الثانية بعد هذا المدد المتصل بالمدينة سيكون موقفهم اصلب واشد من مواقفهم الأولى ، ولذلك فقد تقاعس الروم عن مهاجمتهم ، واستبشروا بانسحابهم ولكن مهما كانت الطريقة التي استعملها لم تكن الا لتسهيل وسائل الانسحاب لا غير ولقد قابلهم المسلمون في المدينة بالجفاء والسخرية حتى لزم جماعة منهم بيوتهم خجلاً من الناس في حين ان الرسول قد هون عليهم الأمر واستقبلهم استقبال الفاتحين كما ذكرنا .

اما الآثار التي تركتها هذه الغزوة ، فلقد ارتاحت لها قريش واعتبرتها هزيمة منكرة واستخفت بعدها بمكانة المسلمين ومعنوياتهم ، ولم يعد لوثيقة الصلح ذلك الأثر الذي يفرض عليهم الالتزام بها ، لذلك فقد اسرعت الى نقض بنود المعاهدة وناصرت بني بكر على خزاعة احلاف النبي (ص) وامدتهم بالسلاح والرجال حتى قتلوا من خزاعة رجالاً واصبحت قريش حرباً على المسلمين ومن دخل في عهدهم .

الفصل العشرون
فتح مكة

لقد التزم النبي والمسلمون بكل بنـود الاتفاق التي اشتمـل عليها كتاب الصلح بينه وبين قريش في الحديبية ، ولكن قـريشاً قـد استخفت بقوة المسلمين بعد معركة مؤتة وجرها هذا الاستخفاف الى ارتكاب حماقة اصبح بعدها عهد الموادعة لاغياً .

فقد جاء في كتب السيرة والتاريخ ان عهد الحديبية قد اعطى الحق لكل من اراد من العرب ان يدخل في عهد محمد ان يدخل في عهده ، كما يحق لمن اراد ان يدخل في عهد قريش ان يـدخل فيـه ، وكانت بـين بني بكر وخـزاعة أحقـاد قديمـة وحروب متـواصلة ، فلما تم صلح الحديبيـة دخلت خـزاعـة في عهد محمد كما كانت حليفة لجده عبد المطلب من قبل ، ودخل بنو بكر في عهد قريش ، ومضى الناس على ذلك ، وهم يحسبـون انهم قد اصبحوا آمنين على دمائهم واموالهم وانحاز كل من القبيلتين الى فريق من المتصالحين .

فلما كانت معركة مؤتة تخيل بنو الديل او الدؤ ل من بني بكر بن عبد مناة احلاف قريش ان الفرصة قد سنحت لهم ليقتصوا من خزاعة حليفة المسلمين لثاراتهم القديمة ، وظنوا ان المسلمين بعد تلك النكسة التي اصيبوا بها لم يعد في مقدورهم ان يناصروا من دخل في عهدهم كخزاعة وغيرها ، وحرضهم عـلى

ذلك عكرمة بن ابي جهل وصفوان بن امية وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص وغيرهم من وجوه قريش ودسوا اليهم الرجال والسلاح وبيتوا خزاعة وهم على ماء لهم يدعى الوتير فقتلوا منهم عشرين رجلا وذلك في شعبان من السنة الثامنة للهجرة فالتجأت خزاعة الى الحرم ، ثم الى دار بديل بن ورقاء في مكة وشكوا اليه نقض قريش وبني بكر عهدهم لرسول الله .

ويدعي المؤلفون في السيرة ان ابا سفيان كان كارهاً لهذا العدوان لأنه يشكل نقضاً لعهد الصلح بينهم وبين رسول الله (ص) وكان مما لا بد منه ان تستنجد خزاعة بالنبي (ص) فذهب جماعة منهم الى المدينة فلما دخلوا على الرسول انشد عمرو بن سالم الخزاعي قوله :

يا ربّ اني ناشد محمدا	حلف ابينا وابيه الأملدا
ان قريشاً اخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا	وقتّلونا ركعاً وسجدا

ولما انتهى من ابياته جلس يقص على النبي ما حدث عليهم من بني بكر وقريش ويستنصره على قريش وبني بكر ، كما قص عليه اعضاء الوفد ما جرى عليهم من قريش واحلافها .

وجاء في رواية الواقدي انه قال عند ذلك : لا نصرت ان لم انصر خزاعة في ما أنتصر منه لنفسي ، وايقن ان قريشاً قد نقضت العهد من جانبها ولم يعد العهد قائماً لأنه لا يقوم الا بطرفين ، وقام من ساعته وندب المسلمين في المدينة وخارجها لأن يكونوا على أهبة الاستعداد عندما يدعوهم الى الخروج معه من غير ان يعرفوا وجهته التي يريدها .

وتوالت الوفود عليه حتى اجتمع في المدينة خلال العشرة الأولى من شهر رمضان نحو عشرة آلاف مقاتل ، وندمت قريش على ما صنعت مع خزاعة ، وادركت ان ذلك نقض للعهد من جانبها فمشى الحارث بن هشام وعبد الله بن

ابي ربيعة ومعهما جماعة الى ابي سفيان ، فقالوا له : ان هذا الأمر لا بد له ان يصلح ، وانه ان لم يصلح لا يردعكم الا محمد في اصحابه ، وقال لهم ابو سفيان : ان هنداً قد رأت رؤ يا كرهتها وافظعتها وخفت من شرها ، لقد رأت كأن دماً اقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندق ملياً ، ثم كأن ذلك الدم لم يكن ، فكره القوم هذه الرؤ يا ، وقالوا هذا هو الشر .

وتم الاتفاق بينهم على ان يشد ابو سفيان الرحال الى محمد ويكلمه في الأمر قبل ان تستنجد به خزاعة ، لعله يجدد العهد فيما بينهم وبينه ويزيد في امد الهدنة ولم يكونوا قد علموا بوفد خزاعة الى النبي وخرج ابو سفيان من مكة ومعه مولى له على راحلتين واسرعا في مسيرتهما وهو يحسب انه اول خارج من مكة بعد ذلك الحدث الذي اطاح بعهد الصلح بينهم وبين النبي .

وكان النبي (ص) قد قال لأصحابه حينما جاءه وفد خزاعة ، لكأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يطلب تجديد العهد وزيادة امد الهدنة ، وقال لبني خزاعة بعد ان اخبروه بما جرى لهم : ارجعوا وتفرقوا في الأودية ، فلما اتوا الأبواء تفرقوا كما امرهم رسول الله ، فذهب بعضهم باتجاه الساحل على غير الطريق العام ، ولزم الطريق العام بين مكة والمدينة بديل بن ورقاء ومعه نفر من قومه ، فالتقوا بأبي سفيان وهو في طريقه الى المدينة ، فلما رآهم ايقن انهم قد سبقوه الى محمد ، فقال لهم : منذ كم عهدكم بيثرب ، قالوا لا عهد لنا بها ، فأيقن انهم كتموه ، ثم قال لهم اما معكم من تمر يثرب شيء تطعموننا منه ، فإن لتمر يثربَ فضلاً على تمر تهامة ، فقالوا ليس معنا مما تطلب شيء واراد ابو سفيان ان يتأكد من امرهم ، فقال : يا بديل هل جئت محمداً فقال لا ، ولكني سرت في بلاد خزاعة من هذا الساحل في قتيل كان بينهم فأصلحت امرهم ، فقال له ابوسفيان والله ما علمت انك برواحل وافترقا .

وظل الخوف يساور ابا سفيان ان يكون بديل قد سبقه الى محمد ، فجاء الى مراقد ابلهم وفت من بعرها فوجد فيها النوى ، كما وجد في مكانهم اثراً

لعجوة يثرب ، فأيقن بعد ذلك ان القوم قد سبقوه وان مسعاه سوف لا يجديه شيئاً ، بعد ان سبقته خزاعة الى حليفها الوفي الذي لا يقر الظلم حتى ولو كان من مشرك لمشرك ، ولكنه تابع مسيرتـه ، ليجرب عسـاه يجد مخـرجاً من تلك الأزمة .

ولما انتهى الى المدينة قصد النبي وطلب منـه ان يجدد العهـد ويزيـد في امده ، فقال له النبي (ص) الهذا جئت يـا ابا سفيـان قال نعم ؛ قـال فهل حدث عندكم ما يوجب ذلك ، قال معاذ الله فنحن على مـوقفنا وصلحنـا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل ، وقام من مجلس النبي ودخل على ابنته رملة المكناة بأم حبيبة ، وكان النبي قد تزوج منها وهي بالحبشة بعد وفاة زوجها او تنصره على اختلاف الروايات في ذلك ، فلما اراد الجلوس على الفـراش الذي يجلس عليه رسول الله طوته دونه ، فقال لهـا ارغبت بهذا الفـراش عني ام رغبت بي عنه ، فقالت بل هو فراش رسول الله ، وانت امرؤ نجس مشرك ، فقال لها : لقد اصابك بعدي شر يا ام حبيبة ، فقالت له ان الله هداني للإسلام ، وانت سيد قريش وكبيرها ، وما ادري كيف تتنكر للاسلام وتعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً ، فقال لها وهذا اعجب منك تريدين ان اتـرك دين آبائي واتبع دين محمد ، ثم قام من بيتها وقد استولى عليه الغضب من هذا المـوقف الذي لم يكن يترقبه من اقرب الناس اليه .

وجاء في كتب السيرة والتـاريخ ان ابـا سفيان ذهب الى ابي بكـر وعمر وعثمان يستعين بهم على اقناع النبي بتجديد العهد وزيادة امده فلم يجد منهم تجاوباً على ذلك ورفضوا مراجعة النبي بهذا الخصوص ، ثم دخل على فاطمـة الزهراء (ع) وطلب منها ان تجيره كما اجارت اختها زينب ابا العاص بن الربيع يوم كان مشركاً على حد تعبير الراوي فـأبت عليه ان تتـدخل بشيء من هـذا النوع مع ابيها ، وظل يصر عليها ويتوسل اليها بولديها الحسن والحسين وبقيت على موقفها السلبي منه .

وذهب الى علي (ع) وعرض عليه نفس الشيء الذي عرضه على غيره ، فقال له علي (ع) ويحك يا ابا سفيان ان رسول الله عزم ان لا يفعل ، وليس احد يستطيع ان يكلمه في شيء يكرهه ، ولما يئس منه ابو سفيان طلب منه ان يشير عليه بما ينفعه ، فقال له اني لا ارى لك الا ان تقوم فتجير بين الناس فإنك من سادة كنانة ، ومع ذلك فإني لا اظن ان ذلك يجديك شيئاً ، فخرج ابو سفيان وصاح على ملأ من الناس الا واني قد اجرت بين الناس ودخل على النبي واخبره بذلك ، ثم قال له اني لا اظنك ترد جواري يا محمد ، فقال له النبي انت تقول ذلك .

وركب ابو سفيان ناقته متجهاً نحو مكة وكانت قد طالت غيبته فظنت قريش بأنه قد دخل في الاسلام ، ولما انتهى الى مكة ودخل على زوجته هند اخبرته بما دار حوله من تكهنات ، وقد دنا منها لقضاء حاجته فلما اخبرها بما جرى له في مكة ضربته برجلها في صدره ، وقالت قبحت من رسول قوم . ولما اصبح ذهب الى الكعبة وحلق رأسه عند صنميه اساف ونائلة وذبح لهما ومسح بالدم على رأسيهما ، ثم قال موجهاً كلامه لهما : اني لا افارق عبادتكما حتى اموت على ما مات عليه آبائي .

ولما اجتمع عليه الناس اخبرهم بما جرى له في رحلته وبما اشار به علي عليه ، فقالوا له : لقد لعب فيك علي بن ابي طالب ، واعتبرته قريش فاشلاً في رحلته وساورها الخوف من محمد ولكنها انطوت على نفسها وظلت تراقب ما ستنجلي عنه الأيام القادمة .

ولما عزم رسول الله على غزو مكة قال لعائشة جهزينا واخفي امرك ومنع احداً ان يخرج من المدينة مخافة ان يتسرب خبر استعداده لقريش ، وقد كان يحب ان يدخل مكة فاتحاً بدون حرب ولا قتال ، ودعا الله سبحانه ان يمنع عن قريش العيون والأخبار .

ودخل ابو بكر على ابنته عائشة وهي تعد الجهاز لرسول الله (ص)

فسألها عن الجهة التي يريدها رسول الله (ص) فقالت له لا ادري ، ثم دخل على رسول الله فأخبره انه يريد قريشاً واوصاه ان يكتم الأمر والح عليه بذلك ، فقال له ابو بكر : اوليس بيننا وبينهم عهد ، قال لقد نقضوا العهد ، واكد عليه ان يطوي الخبر عن اي كان من الناس .

ويدعي المحدثون انه لم يكن احد من الناس يظن انه يريد قريشاً ، وكانت تحركاته توحي الى الناس انه يريد غيرها من الأعراب الذين لا يزالون على شركهم كبني سليم وهوازن وثقيف وغيرها حرصاً منه على ان لا تدخل مكة في حساب احد فقد ارسل ابا قتادة في جماعة من اصحابه الى مكان يدعى اليطن ليوهم الناس انه متجه الى تلك الجهات .

ومع هذا التحفظ الشديد وتكتمه عن سائر الناس ما عدا ابا بكر وبعض الخاصة من اصحابه كما يدعي المؤلفون في السيرة النبوية فقد تسرب نبأ مسيرته الى حاطب بن أبي بلتعة ، وكان من المسلمين فكتب الى قريش يخبرهم بالذي عزم عليه رسول الله ، واعطى الكتاب الى امرأة من مزينة واعطاها مبلغاً من المال في مقابل ايصال كتابه لقريش فوضعت الكتاب في رأسها وفتلت عليه قرونها وخرجت باتجاه مكة فنزل الوحي على الرسول يخبره بما صنع حاطب ، فأرسل النبي من ساعته عليا والزبير ، وامرهما ان يجدا السير في طلب المرأة قبل ان تفوتهما فخرجا مسرعين حتى ادركاها بذي الحليفة على اميال من المدينة فاستنزلاها والتمسا الكتاب في رحلها فلم يجدا شيئاً معها ، ثم قالا لها : والله لتخرجن الكتاب او لنكشفنك ، فلما رأت منهما الجد حلت قرونها واخرجت الكتاب ودفعته اليهما ، فأقبلا به على رسول الله (ص) .

وروى جماعة من المحدثين والمؤرخين ان الزبير سبق علياً الى المرأة وسألها عن الكتاب فأنكرت ان تكون قد حملت معها شيئاً وبكت فرجع عنها وقال لعلي ليس معها شيء ارجع بنا الى رسول الله لكي نخبره ببراءتها ، فقال له علي (ع) يخبرني رسول الله ان معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها وتقول انت لا شيء

معها .

ثم اخترط سيفه واقبل عليها وقال لها : اما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك ثم لأضربن عنقك ، فلما رأت منه ذلـك قالت لـه اعرض وجهـك عني ، فلما اعرض عنها كشفت قناعها واخرجت الكتاب من عقيصتها ودفعته اليه فجاء به الى النبي (ص) فجمع المسلمين حتى امتلأ بهم المسجـد فوقف بينهم وقال ايها الناس : لقد كنت سألت الله ان يخفي اخبارنا عن قريش ، وان رجلا منكم كتب اليهم كتاباً يخبرهم بخبرنا ، فليقم صاحب الكتاب قبـل ان يفضحه الوحي فلم يقم احد، ولما اعاد النبي مقالته قام حاطب بن أبي بلتعة وهو يرتعد كالسعفة في مهب الريح العاصف وقال انا صاحبه يا رسول الله ومضى يعتذر الى النبي ويقول يا رسول الله : والله اني لمسلم مؤمن بـالله ورسولـه ما غيرت وما بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم اصل ولا عشيرة واصبح لي بين اظهرهم اهل وولد فصانعتهم وامر النبي بإخراجه من المسجد ، فجعل الناس يدفعونه في ظهره حتى اخرجوه وهو يلتفت الى النبي (ص) ولا يتكلم فرق له وارجعه الى المسجد واوصاه ان لا يعود لمثلها .

وجاء في بعض المرويات عن الواقـدي وغيره ان عمـر بن الخطاب قـال للنبي (ص) دعني يا رسول الله اضـرب عنقه فلقـد نافق ، فلم يلتفت اليـه الرسول ، ولما الح في الطلب قال له النبي (ص) كما يـدعي الواقـدي ، وما يدريك يا عمر فلعل الله قد اطلع على اهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فلقد غفرت لكم[1] .

---

(١) هذا الحديث من الموضوعات ، والذين وضعوه ارادوا بذلك تغطية بعض الجرائم التي ارتكبها بعض من حضر معركة بدر ، وليس من منطق الاديـان ان يسمح الله للنـاس بارتكاب الجرائم والمخالفـات لمجرد انهم اشتـركوا في معـركة كـانت نتائجهـا لصالـح المسلمين ، او لأنهم فعلوا خيراً واحسنوا الى الناس مهما كان احسانهم بالغ الاثر لقـد حدد القرآن موقف الاسلام من المحسنين والمسيئين بالآية التالية :
﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ويدعي المؤلفون ان الله انزل بهذه المناسبة الآية التالية :

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما اخفيتم وما اعلنتم * ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ (سورة الممتحنة ١)

ولما تم تجهيز الجيش خرج النبي (ص) من المدينة في العشرة الأولى من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل كأسلم وغفار ومزينة وجهينة واشجع وسليم وغيرهم ومعهم نحو من الف فرس وعقد للمهاجرين ثلاثة الوية ، فأعطى علياً (ع) لواءً واعطى للزبير ولسعد بن ابي وقاص لكل واحد لواء ووزع الألوية والرايات على الباقين فأعطى لكل قبيلة لواء لرجل منها وكان العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل قد خرجا من مكة يريدان المدينة وهما يظنان ان النبي (ص) لا يزال فيها ، فلقياه في السقيا فمضى العباس ورفيقه مع النبي ، وأرسل العباس اهله وثقله الى المدينة .

وكان ممن لقيه بالطريق وهو في طريقه الى المدينة ابن عمه واخوه من الرضاعة ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقيل اسمه المغيرة ، وابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب وهو عبد الله بن ابي امية المخزومي اخو ام سلمة لأبيها ، فاستأذنا على رسول الله فأعرض عنهما .

فقالت ام سلمة يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، فقال لا حاجة لي بهما اما ابن عمي فقد هتك عرضي يعني بذلك انه كان يهجوه ، واما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال ، يعني بذلك قوله له : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً الى السماء فتعرج فيه وانا انظر ثم تأتي بصك واربعة من الملائكة يشهدون ان الله ارسلك ، فأعادت عليه القول وقالت :

لا يكن ابن عمك وابن عمتك اشقى الناس بك يا رسول الله فقال ابن عمه ابو سفيان بن الحارث : والله ليأذنن لي او لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فرق لهما النبي وقال علي لأبي سفيان ائت من قبل وجهه ، فقل له ما قال اخوة يوسف : ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا** ﴾ ، فقال له النبي (ص) : لا تثريب عليكم اليوم .

وقال ابو سفيان يعتذر مما كان منه في جملة ابيات جاء فيها :

لعمرك اني يوم احمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران اظلم ليله	فهذا اواني حين اهدى واهتدي

ولما بلغ رسول الله الظهران قال العباس بن عبد المطلب : يا سوء صباح قريش والله لئن بغتها محمد في بلادها ودخل.مكة عنوة انه لهلاك قريش آخر الدهر ، ثم ركب بغلة رسول الله البيضاء وسار عليها ليرى احداً متجهاً الى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله لعلهم يأتونه ويطلبون منه الأمان ، وفيها هو يسير وإذا به يسمع صوت ابي سفيان ، وكانت قريش قد ارسلته ليتجسس لهم اخبار النبي (ص) هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ، ولما سمع صوته العباس قال يا ابا حنظلة فعرفه ابو سفيان ، وقال لبيك يا ابا الفضل ، فقال له ويحك هذا رسول الله في عشرة آلاف مقاتل وهو مصبحكم ، فقال : بأبي وامي هل من حيلة ، قال نعم تركب معي عجز هذه البغلة لكي اذهب بك الى رسول الله ، فإنه ان ظفر بك دون ذلك ليقتلنك ،فقال والله اني ارى ذلك .

قال العباس بن عبد المطلب كما جاء في رواية الواقدي ، فأردفته خلفي واتجهت نحو معسكر المسلمين وكانوا قد اوقدوا النيران ليلاً ، فلما مررت به على جماعة من المسلمين قالوا عم رسول الله على بغلة رسول الله ، حتى إذا مررت على جماعة فيهم عمر بن الخطاب فرأى ابا سفيان خلفي ، فقال ابو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ، وخرج يشتد نحو رسول

الله ، فقال العباس فحركت البغلة حتى اجتمعنا معاً على باب خيمة رسول الله ، فدخلت وإياه على النبي ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه فدعني اضرب عنقه ، فقلت اني قد اجرته يا رسول الله ،ثم لزمت رسول الله وقلت والله لا يناجيه الليلة احد غيري ، فلما اكثر عمر بن الخطاب قلت مهلاً يا عمر والله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، فقال مهلا يا ابا الفضل ، والله ان اسلامك كان احب إلي من إسلام رجل من ولد الخطاب ، فقطع النبي حوارهما بقوله للعباس : اذهب به فقد اجرناه فليبت عندك حتى تغدو به علينا إذا اصبحت .

فلما اصبحت عدوت به على رسول الله فالتفت اليه ، وقال ويحك يا ابا سفيان الم يأن لك ان تعلم ان لا إله إلا الله ، قال بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك قد كان يقع في نفسي انه لو كان مع الله إله لأغنى عنا ، قال ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله قال بأبي وامي ما احلمك واكرمك واعظم عفوك ، اما هذه ان في النفس منها شيئاً حتى الآن ، فقال له العباس : ويحك تشهد ، وقل لا إله إلا الله محمد رسول الله قبل ان تقتل كما جاء في رواية الواقدي والطبري وغيرهما ، فشهد على كره منه حينما ادرك ان الموت ينتظره لحظة بعد لحظة وفي نفسه من نبوة محمد اشياء وأشياء وظلت تلك الأشياء في نفسه الى ان مات .

وكانت تبدو منه بين الحين والآخر فلتات تدل على انه من اخبث المشركين واشدهم حقداً على الاسلام ونبي الاسلام كما يبدو ذلك لكل من تتبع تاريخه منذ ان ادعى الاسلام حتى النفس الأخير من حياته .

ثم التفت النبي (ص) الى العباس وقال له : انصرف به واحبسه عند حطيم حتى تمر به جنود الله فيراها ، فقال العباس يا رسول الله ان ابا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً يفخر به على قومه فقال النبي (ص) عند ذلك كلماته الخالدة التي انبعثت من قلبه الكبير الذي لا يحمله إنسان في هذه الدنيا ، لقد اتسع قلبه لأهل مكة قاطبة وهم الذين كذبوه واهانوه وعذبوا اتباعه

وطردوه وجمعوا له العرب حتى غزوه في دار هجرتـه ومثلوا بعمه اقبـح تمثيل ، ومنعوه قبل عامين من دخول مكة لأداء مناسك الحج ، وفعلوا معه ما لا تبيحه اعراف العرب وعاداتهم . وكان ابو سفيان وزوجته هند من اشد الناس عداوة لله ورسـوله ، ومـع ذلك حينـما امكنه الله منهم منّ عليهم وامـر من ينادي في الناس من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره واغلق عليه بابه فهو آمن . بعد ان اعطاه الرسول هذه الميزة ارضاء لعاطفة الفخر في نفسه ، اخذه العباس الى المكان الذي عينه له الرسول حيث يمر ذلك الجيش العظيم الذي لم تعهد له مكة نظيراً من قبل .

ولكن ابا سفيان ظن ان النبي اراد به شراً في ذلك المكان لأنه هو مطبوع على الغدر والمكر ، والغادر لا يفكر الا بالغدر والغادرين ، فقال للعباس اغدراً يـا بني هاشم ، فـرد عليه العبـاس بقولـه : ان اهل النبـوة لا يغدرون يـا ابا سفيان ، وإنما حبستك لحاجة ، فقال له : فهلا بدأت بها اولاً فاعلمتنيها فذاك اقر لروعي وأهدأ لنفسي .

ثم مرت به القبائل والكتائب والرايات يتلو بعضها بعضا ، فأول ما مر به خالد بن الـوليد في بني سليم ولهم لـواءان يحمل احـدهما العبـاس بن مرداس والآخر خفاف بن ندب ، وراية يحملها المقداد بن الأسود ، فقال ابو سفيان من هؤلاء يا ابا الفضل ؟ فقال هؤلاء بنو سليم وعليهم خالد بن الوليد فلما حاذى خالد بن الوليد ابا سفيان والعباس كبر ثلاثاً وكبروا معه وهكذا اخذت القبائل تمر به الواحدة تلو الأخرى ، وكلما مرت قبيلة بحذائه كبرت ثلاثاً وابو سفيان يسأل عنها والعباس يجيبه ، الى ان مرت جميع الكتائب ولم يبق الا الكتيبة التي فيها رسول الله (ص) .

فلما اطلت كتيبة رسول الله اطلت وسط سواد شديد وغبرة من سنـابك الخيل وجعل الناس يمرون وابـو سفيان يقـول للعباس : امـا مر محمـد بعد ، والعباس يقول له لا . وفيما هم كذلك وابـو سفيان يهـزه الحقد والبغض وإذا

برسول الله (ص) قد اطل عليهما وهو على ناقته القصوى بين ابي بكر واسيد بن حضير وهو يحثها ، فقال له العباس هذا رسول الله يا ابا سفيان في كتيبته الخضراء فجعل ابو سفيان ينظر ويرتعد ، وكان قد حشد في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار والألوية والرايات وكلهم منغمسون في الحديد لا يرى منهم الا الحدق ، وفي الكتيبة الفا دارع ، وراية رسول الله (ص) مع سعد بن عبادة الأنصاري وهو امام الكتيبة ، فقال ابو سفيان للعباس : ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ولا اخبرنيه مخبر ، سبحان الله ما لأحد بهؤلاء طاقة ولا يدان ، لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً يا ابا الفضل فقال له العباس : ويحك انه ليس بملك وإنما هي النبوة .

ولما حاذاهما سعد نادى يا ابا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تسبى الحرمة ، اليوم اذل الله قريشاً ، ولما حاذاهما رسول الله (ص) ناداه ابو سفيان لقد امرت بقتل قومك يا رسول الله ان سعداً يقول اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة اليوم اذل الله قريشاً ، واني انشدك الله في قومك ، فأنت ابر الناس وارحم الناس واوصل الناس ، ثم قال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان : يا رسول الله انا لا نأمن سعداً ان يكون له في قريش صولة ، فوقف رسول الله وناداه يا ابا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم اعز الله قريشاً ، وارسل علياً الى سعد ليأخذ اللواء منه ويدخل به مكة .

وجاء في شرح النهج عن الواقدي ان العباس قال لأبي سفيان : اذهب ويحك فأدرك قومك قبل ان يدخل عليهم رسول الله ، فخرج ابو سفيان مسرعاً حتى دخل من كداء وهو ينادي من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن حتى انتهى الى زوجته هند بنت عتبة ، فقالت ما وراءك يا ابا سفيان ، قال : هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد ، وقد جعل لي انه من دخل داري فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ومن القى سلاحه فهو آمن ، فقالت قبحك الله من رسول قوم ، وجعلت تقول ويحكم اقتلوا وافدكم قبحه الله من وافد قوم ، وابو سفيان يقول : ويحكم لا تغرنكم هذه من انفسكم فإني

رأيت من الرجال والكراع والسلاح ما ليس لأحد به طاقة ، ان محمداً في عشرة آلاف مقاتل اسلموا تسلموا .

وجاء في رواية المبرد في الكامل انها امسكت برأسه وقالت لهم اقتلوه ، وخرج الكثير من اهل مكة الى ذي طوى ينظرون الى رسول الله ، والى تلك الحشود التي التفت من حوله ، واصر جماعة على المقاومة بالرغم من تحذير ابي سفيان لهم منهم صفوان بن امية وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عمرو بمن معهم من بني بكر وهذيل وإعداد العدة للحرب ، واقسموا بما يعبدون ان لا يدخلها محمد عنوة ابداً .

وكان من بين هؤلاء المتحمسين رجل من بني الدؤل يدعى حماس بن قيس بن خالد فقد اسرع الى بيته وجعل يصلح سيفه وسلاحه ، فقالت له امرأته : لماذا تعد سلاحك ، قال لمحمد واصحابه ، واني لأرجو ان اخدمك منهم خادماً ، فقالت له : ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً ، واني والله ما اراه يقوم لمحمد واصحابه شيء ومضى مسرعاً مع صفوان وجماعته لم يلتفت لكلام زوجته واتجه مع المقاتلين الى الخندمة احد المسالك المؤدية لمكة ، وكان خالد بن بن الوليد قد امره النبي (ص) ان يدخل مكة بمن معه من المسلمين من تلك الناحية ونهاه ان يقاتل احداً الا اذا قاتلوه فعارضه صفوان بمن معه من قريش واحلافها ، واشتد القتال بينهم فقتل في اول جولة من قريش واحلافها ثمانية وعشرون رجلاً ، وانهزم صفوان ومن معه ، وكان من بين المنهزمين حماس بن قيس بن خالد ، وجاء مسرعاً الى بيته كالمدهوش من الخوف ، فأغلق عليه بابه ، فقالت له زوجته : اين الخادم الذي وعدتني به ، قال لها ويحك لقد جاءنا محمد بجيش لا طاقة لأحد عليه ، وقد قال من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن دعي هذا واغلقي الباب ، قالت الم انهك عن قتال محمد انه ما قاتلكم مرة الا وظهر عليكم .

وكان رسول الله (ص) قد خطط لدخول مكة من جهاتها الأربع ،

ودخل علي (ع) باللواء من الجهة التي دخلها النبي (ص) كما نص على ذلك جماعة من المؤرخين .

وجاء في المؤلفات في السيرة ان النبي (ص) اشرف من على ثنية اذاخر فنظر الى البارقة ، فقال ما هذا : الم انه عن القتال ، قيل له يا رسول الله ان جماعة من اهالي مكة منعوا خالد بن الوليد وشهروا اسلحتهم في وجه المسلمين فقاتلهم وقتل جماعة منهم ، ولولا ذلك ما قاتلهم فقال قضاء الله خير .

ودخل رسول الله مكة بتلك الحشود التي تنساب من خلفه الى اكبر معقل من معاقل الشرك ، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر منه ولو إيماءة حتى لا يدع بمكة احداً يمشي على ارضها ، وتمثلت له في تلك اللحظات وهو على ابواب مكة فصول طوال ذاق فيها الأمرين خلال ثلاثة عشر عاماً وخرج في نهايتها مطروداً يكمن في الكهوف نهاراً ويسير ليلا خوفاً من القتل والتعذيب .

وتمثل له كل ماقاساه خلال تلك الأعوام الأولى من تاريخ الدعوة ، ورأى نفسه اليوم يعود اليها منتصراً بعد ان خرج منها مطروداً خائفاً يترقب ، انها لنعمة عنده لا تعادل بشيء وكرامة اتحفه الله بها ، وبدلاً من ان يدخلها عليهم بزهو الفاتح ونشوة المنتصر ، دخلها بخشوع العبد الشاكر قد طأطأ رأسه حتى ليكاد يلصق برحله تواضعاً لله واعترافاً بجميله .

وفيما هو يسير جاءه احد اصحابه قائلا الا تنزل دارك يا رسول الله ، فقال وهل ابقى لنا عقيل داراً ، ثم نزل بالأبطح وضربت له خيمة فيه ، ومعه من نسائه زوجتاه ام سلمة وميمونة ، وامر بقتل جماعة ، ستة من الرجال وأربع من النساء ، وقيل احد عشر رجلا منهم عبد الله بن ابي سرح وكان قد اسلم واتخذه كاتباً له كما في رواية اليعقوبي في تاريخه يكتب له ما ينزل عليه من القرآن وكان يحاول ان يغير ويبدل فيما يمليه عليه ، ويذهب الى اصحابه من المنافقين فيقول لهم انا اقول كما يقول محمد ، والله ما هو بنبي ولو كان نبياً لعرف ما كنت اصنع ولما احس رسول الله (ص) بتحريفه لما يمليه عليه فرّ الى مكة والتحق

بقريش وجعل يندد في مجالسهم ويسخر من محمد ومن القـرآن ويقول لهم اني حرفت فيه كثيراً ، وعندما دخل النبي مكة التجأ عبد الله الى عثمان بن عفان وكان اخاه من الرضاعة فغيبه ، ثم اتى به رسول الله وطلب له الأمان فسكت رسول الله طويلا ، ثم قال نعم فانصرف به عثمان وكان من اقرب المقربين اليه أيام خلافته ، فلما انصرف قال رسول الله لمن حوله لقـد سكت طويـلا ليقوم بعضكم فيقتله ، فقال له احد الأنصار : هلا أومأت الى احد منا ، فقـال ان النبي لا يقتل بالإشارة .

ومنهم عبد الله بن خطل وكان مسلماً فقتل مـولاه وارتد عن الاسـلام ، وجعل يهجو النبي بشعره وقد اشترك في قتله سعيد بن حـرث المخزومي وابـو برزة الاسلمي ، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي وكان يؤذي النبي واصحابه بمكة قتله علي بن ابي طالب ، ومقيس بن صبابة ، كان له اخ يدعى هشام فقتله احد الأنصار خطأ في غزوة ذي قرد وهو يظنه من الأعداء فـأعطاه النبي (ص) ديته ، ثم عدا على قاتل اخيه فقتله ورجع الى قريش مرتداً قتله نميلة بن عبد الله ، وعكرمـة بن ابي جهل وقـد فر من مكـة باتجـاه اليمن بعد دخول النبي اليها ، فجاءت امرأته ام حكيم بنت الحارث بن هشام واسلمت وطلبت الأمان لزوجها فأمنه النبي فخرجت في طلبه واتت به رسول الله وقبل دخوله على النبي (ص) قال لأصحابه سيأتيكم عكرمة بن ابي جهل فلا تسبوا اباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت فلما دخل عليه وثب رسول الله ولبس عليه رداءه ثم جلس ورحب به ، فوقف عكرمة بين يديه ومعه زوجته ، فقال يا محمد ان هذه اخبـرتني انك امنتني ، فقـال صدقت انت آمن ، فقـال عكرمة : فعلام تدعو فقال الى ان تشهد ان لا إله إلا الله واني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وجعل يعد عليه اصول الاسلام وفروعه ، فقال عكرمة : ما دعوت إلا الى حق وإلى حسن جميل ، ولقد كنت فينا من قبل ان تدعو الى ما دعوت اليه اصدقنا حديثاً واعظمنا براً ، ثم اسلم واعتذر عما كان منه قبل هذا الموقف فقبل النبي عذره ودعا له بالخير .

ومنهم وحشي قاتل الحمزة في معركة أحد ، فقد جاء الى النبي يطلب الأمان فأجابه لذلك ، ولكنه قال له غيب وجهك عني فإني لا احب ان ارى قاتل عمي ، فلم يظهر بعد ذلك للنبي وعاش الى ما بعد فتح بلاد الشام ومات في حمص سكران كما روى ذلك جماعة من المؤرخين .

ومنهم كعب بن زهير بن ابي سلمى وكان شاعراً يهجو النبي (ص) فخرج من مكة هارباً ، واخيراً عفا عنه النبي ومدحه في قصيدته بانت سعاد المشهورة ، وهبار بن الأسود الذي روع ابنته زينب وهي في طريقها الى المدينة وألقت حملها .

وعبد الله بن ابي ربيعة والحارث بن هشام من بني مخزوم وقد دخلا بيت ام هانيء بنت ابي طالب فاستجارا بها فأجارتهما ، وبينما هم عندها وإذا بعلي (ع) قد دخل عليها وهو مدجج بالحديد فلم تعرفه ، فقالت له انا ام هانيء بنت عم رسول الله (ص) فأسفر عن وجهه عند ذلك فاعتنقته ، ولما نظر اليهما شهر عليهما سلاحه ، فقالت له انت اخي وتصنع معي ذلك وتقدمت اليهما والقت عليهما ثوباً فقال لها اتجيرين المشركين ، وحالت بينه وبينهما ، وقالت له اذا اردت قتلهما فاقتلني معهما فتركهما وخرج .

وجاء في رواية الواقدي انها قالت عندما خرج اخي علي من بيتي اغلقت عليهما الباب وقلت لهما لا تخافا وذهبت الى خباء رسول الله بالبطحاء فلم اجده ووجدت فيه فاطمة فقلت لها ما لقيت من ابن امي علي لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، فكانت فاطمة اشد علي من زوجها ، وبينما انا معها في الحديث وإذا برسول الله قد اقبل ، فلما رآني قال مرحباً بأم هانيء ، فقلت له ماذا لقيت من ابن امي علي ، لقد اجرت حموين لي من المشركين فتفلت عليهما ليقتلهما ، فقال ما كان ذلك له قد اجرنا من اجرت وامنا من أمنت ، ولما سمعت منه ذلك رجعت اليهما واخبرتهما بمقالة رسول الله ، وقلت لهما ان شئتما ان تقيما عندي او ترجعا الى بيوتكما فذاك اليكم فأقاما عندي

يومين ورجعا الى منزليهما .

واما النساء اللواتي أهدر دمهن ، فهن هند بنت عتبة وسارة مولاة بني هاشم ، وكانت مغنية نواحة بمكة ، وقد وفدت على رسول الله بالمدينة وشكت اليه الحاجة وذلك بعد بدر وأحد ، فقال لها ما كان لك في غنائك ونواحك ما يكفيك ، فقالت له ان قريشاً منذ قتل منهم من قتل تركوا الغناء فوصلها رسول الله وأوقر لها بعيراً طعاماً فرجعت الى قريش وكانت بعد ذلك تجتمع اليها قريش وتغنيهم بهجاء رسول الله (ص) .

وجاريتان لابن خطل تدعيان قريبة وفرتنا كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، فقتلت قريبة ، وهربت فرتنا ، ثم عفا عنها رسول الله (ص) وعاشت الى ان انتهت الخلافة لعثمان ، ولم يقتل من الرجال الذين امر بقتلهم سوى اربعة وعفا عن الباقين .

ثم ان رسول الله دعا براحلته بعد ان اغتسل وصلى فأدنيت الى باب الخيمة التي ضربت له بالحجون وخرج منها وعليه السلاح والمغفر على رأسه والناس مجتمعون قد اصطفوا ينتظرون خروجه فركبها وسار بالناس فمر بحذاء بيت لسعيد بن العاص المعروف بأبي احيحة فخرج بناته وقد نشرت شعورهن فلطمن وجوه الخيل بالخمر فتبسم رسول الله وانشده رجلٌ كان الى جانبه قول حسان بن ثابت :

تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء

ولما انتهى الى الكعبة تقدم على راحلته فاستلم الركن وكبر ، فكبر المسلمون لتكبيره وعجوا بالتكبير حتى ارتجت مكة وجعل رسول الله يشير اليهم ان اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ومحمد بن مسلمة آخذ بزمامها وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصوصة بالرصاص وكان هبل اعظمها وهو باتجاه الكعبة من ناحية بابها واساف ونائلة

حيث ينحرون ويذبحون الذبائح ، فجعل كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، فيقع الصنم لوجهه .

ثم امر بهبل فكسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبي سفيان يا ابا سفيان : لقد كسر هبل ، اما انك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين زعمت انه قد انعم عليكم فقال : دع هذا عنك يا ابن العوام فقد ارى انه لو كان مع إله محمد إله غيره لكان غير ما كان . ثم جلس النبي (ص) ناحية من نواحي المسجد وارسل بلالاً الى عثمان بن طلحة يطلب منه مفتاح الكعبة وكان المفتاح بيد امه ، فقال لها ان رسول الله قد ارسل يطلب مفتاح الكعبة ، فقالت اعيذك بالله ان تكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده وامتنعت من تسليمه اياه ، فقال: والله لتأتيني به او ليأتينك غيري فيأخذه منك فدفعته اليه فجاء به واعطاه للنبي (ص) ، ولما تناوله النبي بسط العباس يده وقال بأبي انت وامي يا رسول الله اجمع لنا بين السقاية والحجابة ، فقال اني اعطيكم ما ترضون به ، ولا اعطيكم ما ترزؤون منه ، وامر ان تفتح الكعبة ففتحت له ودخلها وكانت التماثيل والصور قد ملأت جدرانها من الداخل فأمر من كان معه ان لا يدع صورة ولا تمثالاً الا محاه ، وقيل انه باشر ذلك بنفسه وامر بدلو فيه ماء وثوب فجعل يبل الثوب بالماء ويضرب به الصور حتى محاها عن آخرها ، وكانوا قد صوروا ابراهيم شيخاً يستقسم بالأزلام .

وجاء في رواية الواقدي انها اغلقت عليه ومعه بلال بن رباح واسامة بن زيد وعثمان بن طلحة فمكث بها ما شاء الله ، ولما ازال كل ما كان فيها من التماثيل والصور وصلى فيها خرج منها واخذ بعضادتي الباب واشرف على الناس ومعه مفتاحها واهل مكة قيام تحته وبعضهم جلوس على الأرض فقال الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، إلا ان كل مأثرة او دم او ربا في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحج ، ثم التفت الى قريش وقال يا معشر قريش : ان الله قد اذهب نخوة الجاهلية

وتعظمها بالآباء الناس لآدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ .

ووجه حديثه الى المكيين ثانية وسألهم ماذا ترون اني فاعل بكم وما تظنون قالوا اخ كريم وابن اخ كريم وقد قدرت واصبح امرنا بيدك ، فقال اني اقول لكم : ما قاله اخي يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء ، واطمأن المكيون على مصيرهم بعد هذا الاعلان العام وبعد ان اصبحوا في قبضته وتحت قدميه ، وحياتهم جميعاً رهن بكلمة واحدة يوجهها لتلك الألوف المدججة بالسلاح القادرة على ابادتهم جميعاً وضرب بذلك للعالم كله وللأجيال في كل عصر وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفع عن الحقد والانتقام .

ثم انه استدعى عثمان بن طلحة وكان قبل هجرته الى المدينة قد التقى به ورأى مفتاح الكعبة بيده ، فقال له يوم ذاك : لعلك ترى هذا المفتاح بيدي يوماً اضعه حيث شئت ، فقال له عثمان : لقد هلكت قريش اذن وذلت ، فأجابه النبي بل عمرت وعزت ، فلما استدعاه يوم الفتح ليسلمه مفتاح الكعبة ، فقال له الست الذي قلت لك في مكة كذا وكذا ، فقال نعم يا رسول الله ، ثم سلمه مفتاح الكعبة وقال خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، وانتقلت سدانة الكعبة من بعده الى اخيه شيبة وتوارثها اولاده من بعده .

وفيما كان مفتاح الكعبة بيده التفت الى من حوله وقال ادعوا الي عمر بن الخطاب فلما جاءه قال له النبي (ص) : هذا الذي كنت وعدتكم به وهو بذلك يشير الى موقف عمر بن الخطاب يوم الحديبية ، وكان النبي قد وعدهم قبل عام الحديبية بأنهم سيدخلون مكة فاتحين ، ولما هادن قريشاً عام الحديبية ، ورجع الى المدينة وقف عمر بن الخطاب موقف المتردد والمتشكك بنبوة محمد ، وقال له اوليس قد وعدتنا بأن ندخل مكة فأين ما وعدتنا به ، فقال له رسول الله اقلت لك انك

تدخلها هذا العام قال لا ، قال ستدخلها ان شاء الله ، وفي هذا الموقف ومفتاح الكعبة بيده استدعاه وقال له هذا الذي كنت قد وعدتكم به وكان عمر قد قال ما شككت منذ أسلمت الا حين رجعنا من الحديبية ولم ندخل مكة لأن النبي قد وعدنا بدخولها ولم يتمكن من ذلك[1] .

ولما جاء وقت صلاة الظهر امر رسول الله بلالاً ان يؤذن فوق الكعبة ، فلما شرع في الأذان وبلغ الى قوله اشهد ان محمداً رسول الله رفع صوته بها كأشد ما يمكن ان يكون ، فقال جماعة من قريش ليتنا متنا قبل هذا اليوم ولم نسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة .

وتكلم آخرون بما ينم عن حقدهم على محمد (ص) فنزل عليه الوحي وأخبره بمقالتهم كما جاء في شرح النهج . وجاء فيه وفي غيره من كتب السيرة ان سهيل بن عمرو قال : لما دخل محمد مكة دخلت بيتي واغلقت بابه وقلت لولدي عبد الله وكان قد اسلم من امد بعيد : اذهب فاطلب لي اماناً من محمد فإني لا آمن على نفسي لأني لم اجد احداً اساء اليه إلا واشتركت معه وحضرت مع قريش بدراً وأحداً ، فذهب عبد الله وطلب منه الأمان فقال هو آمن ثم التفت الى من حوله ، وقال من لقي منكم سهيلاً فلا يشدن النظر اليه ، ان سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثله من يجهل الاسلام فذهب عبد الله واخبر اباه بمقالة الرسول (ص) فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وكبيراً فخرج من بيته يتجول في مكة فلم يتعرض له احد بسوء ، واشترك مع النبي في معركة حنين كما سيأتي .

وخرج رسول الله من المسجد الى الصفا والمروة فجلس يدعو الله سبحانه ويبتهل اليه وراه الأنصار جالساً يدعو ربه ويشكره فخيل اليهم انه قد يترك المدينة ويتخذ مكة وطناً له بعد ان فتحها الله عليه واخذوا يتداولون فيما بينهم ، ويذكرون المرجحات التي قد يعتمدها النبي لاختيار مكة وترك المدينة ، وعرف ما دار

---

(١) انظر شرح النهج ج ٣ ص ١٠٩ وتاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ج ٢ ص ٢٢ .

بينهم ، وبعد ان فرغ من دعـائه التفت اليهم وقـال : معاذ الله المحيـا محياكم والممات مماتكم ، فاطمأن الأنصار ان رسول الله لا يفضل عليهم احداً .

ورجع النبي الى المسجد والتف حوله اهل مكة يبايعونه على الاسلام رجالاً ونساء خلا افراد قلائل خرجوا من مكة خوفاً من القتل ، فيبايع الرجـال على شهادة ان لا إله الله وان محمداً عبده ورسوله وعلى السمع والطاعة لله ولرسوله واقبل رجال مكة افواجاً يتزاحمون على البيعة والدخول في الاسلام .

وجاءه رجل ليبايع فأخذته الرعدة والخوف ، فنظر اليه رسول الله بعطف ورحمة وقال له : هون عليك فإني لست بملك ، انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

ولما انتهت بيعة الرجال ، أقبل النساء على البيعة ، وكانت الطريقة التي استعملها في بيعتهن انه وضع بين يديه اناء فيه ماء ، فإذا اسلمن يدخل يده في الماء ثم يخرجها منه فيدخلن ايديهن فيه .

وقيل انه كان يضع على يده ثوباً وبعد الاقرار بالشهادتين يمسحن ايديهن على ذلك الثوب ، ويشترط عليهن ان لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه ولا يعصينه بمعروف .

وجاء عن ابن عباس ان المراد بالبهتان الذي نهاهن عنه ، هو ان المرأة كانت تلتقط الولد وتقول لزوجها هذا ولدي منك .

وكانت هند بنت عتبة بين النساء اللواتي بايعنه ولم يكن قد عرفها ، فلما قال : ولا يشركن بالله قالت والله انك لتأخذ علينا امراً ما اخذته على الرجال وسنعطيك اياه ، فلما قال ولا يسرقن قالت ان ابـا سفيان رجـل شحيح ولا يعطيني ما يكفيني وولدي ، وربما اخذت منه وهو لا يعلم ، فقال وانك لهند ، قالت انا هند فاعف عما سلف عفا الله عنـك فقال خـذي ما يكفيـك وولدك بالمعروف ، فلما قال ولا يزنين قالت او تزني الحرة يا رسول الله فتبسم رجل من قريش كانت بينه وبينها علاقات قبل الاسلام كما جاء في بعض المؤلفات في السيرة

النبوية ، فلما قال ولا يقتلن اولادهن قالت ربيناهم صغاراً ونقتلهم كباراً ، ولما قال ولا يعصينك في معروف ، قالت ما جلسنا هـذا المجلس ونحن نريـد ان نعصيك .

وكما عفا عن هند وامثالها من ذوي الجرائم الكبيرة عفا عن صفـوان بن امية ، وكان قد رابط هو وجماعة في الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد ، وفر بعد ذلك حيث لم تجده المقاومة وخرج من مكة هارباً ومعه غلامه يسار ، فجاء عمير بن وهب الى النبي (ص) يطلب له الأمان فأجابه النبي الى ذلك وعفا عنه .

ولكن صفوان لم يطمئن لحديث عمير بن وهب وطلب منه ان يأتيه بعلامة من النبي يطمئن اليها فرجع عمير الى النبي وعرض عليه طلب صفوان ؛ فأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ، فأخذها عمير اليه ومضى وهو يقول له : جئتك من عند خير الناس وابر الناس واحلم الناس مجده مجدك وعزه عزك وملكه ملكك ، وقد بعث اليك ببرده الذي دخل فيه مكة ، فرجع صفوان معه الى رسول الله وهو يصلي العصر ، قال صفوان كم يصلون قيل خمس صلوات في اليوم والليلة ، قال محمد يصلي بهم فقيل له نعم ، فلما سلم النبي من صلاته قال له صفوان يا محمد : ان عمير بن وهب جاءني ببردك وزعم انك دعوتني للقدوم عليـك فإن رضيت الاسلام وإلا خيرتني شهرين ، فقال رسول الله انزل ابا وهب ولك اربعة اشهر فنزل واطمأن لمصيره وبقي على شركه حتى كانت معركة حنين ، فاستعار منه النبي (ص) مائة درع واشترك مع المسلمين في تلك المعركة ، ولما انتهت مر رسول الله على شعب مملوء من النعم والشاء ، فنظر اليه صفوان وأطال النظر ، فقال له النبي (ص) يعجبك هذا الشعب يا ابا وهب قال نعم : قال هو لك وما فيه فقال صفوان اما والله ما طابت نفس احد بمثل هذا إلا نفس نبي ، وأنا أشهد ان لا إله إلا الله وانك يا محمد رسول الله .

وجاء في كتب السيرة انه بعد ان فتح رسول الله مكة وفي غداة اليوم الثاني عدت خزاعة حليفة رسول الله على رجل من المشركـين ينتسب الى بني هذيـل فقتلوه ، وحين علم النبي (ص) بذلك قام في الناس خطيباً ، وكان مما قال :

ايها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق الله السموات والأرض فهي حرام الى يوم القيامة لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دماً او يقطع فيها شجراً ، لم تحلل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على اهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم ان رسول الله قد قاتل فيها فقولوا : ان الله قد احلها لرسوله ولم يحللها لكم ، يا معشر خزاعة ارفعوا ايديكم عن القتل فقد كثر ان نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه من مالي ، فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النظرين ، ان شاؤ وا فدم قاتله وإن شاؤ وا فديته ، ثم ادى دية القتيل .

واكبرت منه قريش جميع مواقفه من مكة واهلها التي تجلى فيها تعظيم مكة وتقديسها وعطفه وسماحته وعفوه العام الذي شمل اشد الناس عداوة له فمالت قلوبهم اليه واقبلوا على الإسلام يقول بعضهم لبعض من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنماً الا حطمه ، واستسلم سادتها واتباعهم وعلت كلمة الله في جنباتها ، وانزل الله على رسوله :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً ﴾ (سورة النصر) .

وحدث ابن هشام في سيرته انه بينما كان النبي يطوف بالبيت بعد ان دخل مكة فاتحاً اقبل عليه فضالة بن عمير بن الملوح الليثي وهو يحدث نفسه بقتله فلما اقبل عليه قال له النبي افضالة : قال نعم يا رسول الله قال بماذا كنت تحدث نفسك قال لا شيء ، لقد كنت اذكر الله ، فضحك النبي ، ثم قال استغفر الله ووضع يده على صدري فسكن قلبي ، وأضاف الى ذلك ابن هشام في سيرته ان فضالة كان يقول : بعد ذلك والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله احد احب إلي منه ثم رجعت إلى أهلي فمررت على امرأة كنت أتحدث اليها ، فقالت هلم الى الحديث فقلت : لا . ثم انبعث يقول :

قالت هلم الى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله الاسلام

لــو مــا رأيــت محــمــداً وقــبــيــلــه بــالفتــح يــوم تكســر الأصنــام
لــرأيــت ديـن الله اضحـى بيـنـاً والشـرك يغشى وجـهــه الاظــلام

وجــاء في طبقات ابن سعد وغيرها من المؤلفات في السيرة ان النبي اقام بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شؤ ون مكة ويفقه اهلها في الدين واستعمل عليها عتاب بن اسيد وترك معـاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه .

مسيرة خالد بن الوليد بعد الفتح الى بني جذيمة

ويبــدو ان تحرك خالد بن الوليد الى بني جذيمة ليدعوهم الى الاسلام كان والنبي لا يزال بمكة ، فقد ارسله في جماعة من المسلمين قيل انهم كـانوا ثلاثمائة وخمسين رجلاً من الأنصار والمهاجرين وفيهم عبد الرحمن بن عوف وبنو سليم فنزلوا على ماء لبني جذيمة ، وكان بنو جذيمة في الجاهلية قد اصابوا نسوة من بني المغيرة وقتلوا عوفاً والد عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة ، وكانا قد اقبلا تاجرين من اليمن ونزلا ضيوفاً على بني جذيمة فقتلوهما ومع عوف ابنه عبد الرحمن فقتل قاتل ابيه ، فلما كان فتح مكة وارسل النبي اليهم تلك السرية بقيادة خالد بن الوليد استقبلوه بأسلحتهم فقال لهم خالد ضعوا السلاح فإن الناس قد اسلموا .

فقال رجل من جذيمة يدعى جحدم ، ويلكم يا بني جذيمة انه خالد بن الوليد والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق ، والله لا اضع سلاحي ابداً فأخذه رجال من قومه وقالوا يا جحدم اتريد ان تسفك دماءنا فإن الناس قد اسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب وآمن الناس وما زالوا به حتى وضع سلاحه ، فلما وضعوا السلاح امر بهم خالد بن الوليد فكتفوا ثم عرضهم على السيف وقتل جماعة منهم .

ولما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) رفع يديه الى السماء ، وقال : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا رسول الله علي بن ابي طالب كما جاء في رواية ابن اسحاق وغيره وقال يا علي اخرج الى هؤلاء القوم وانظر في امرهم واجعل امر الجاهلية تحت قدميك فخرج علي (ع) ومعه ما اعطاه اياه رسول الله ، فلما بلغ القوم دفع اليهم دية القتلى وما اصيب من اموالهم ، وقال لهم : هل بقي لكم بقية من دم او مال قالوا لا فأعطاهم ما بقي معه من المال احتياطاً مما لا يعلم ولا يعلمون ، ثم رجع الى النبي وأخبره بما صنع ، فقال له لقد اصبت واحسنت ، ثم قام رسول الله واستقبل القبلة شاهراً يديه وهو يقول : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد ثلاث مرات .

وجاء في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام انه وقع جدال بين عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد ، فقال له عبد الرحمن انك عملت بأمر الجاهلية في الاسلام ، فقال له : اني اخذت لك بثأر ابيك ، فقال له عبد الرحمن كذبت : اني قد قتلت قاتل ابي يومذاك ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة وكاد ان يقع بينهما الشر ، فلما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) قال : اللهم اني ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم ارسل علياً واعطاه الأموال وكان من امره ما ذكرنا .

الفصل الحادي والعشرون

غزوة حنين

كانت هذه الغزوة بعد ان فتح النبي مكّة واستقام له اهلها ملتفين حوله حيث اقام وحيث ذهب ونفوسهم مطمئنة الى ان ما بقي من العرب على الشرك سيدخلون في الاسلام طائعين خلال اشهر معدودات وانهم لكذلك يعيشون في هذا الجو من الاطمئنان والهدوء والتطلع الى غد افضل ، والنبي (ص) لا يزال في مكة يبعث السرية تلو الأخرى الى القبائل المجاورة لمكة ليطهر المنطقة من عبادة الأوثان ويجمعهم على الإيمان بالله ورسوله ، وفيما هم يعيشون في هذا الجو من الغبطة ، وإذا بالاخبار تترامى اليهم بأن هوازن واحلافها كثقيف وجشم ونصر قد ساءهم انتصار النبي في مكة وقدروا ان الدائرة ستدور عليهم ، وان المسلمين سيقتحمون عليهم بلادهم وديارهم ان عاجلاً او آجلاً ، فاجتمعوا بقيادة مالك بن عوف لمهاجمة محمد ولصده عن ديارهم وبلادهم اذا هو فكر في غزوهم .

وكانوا حينما خرج النبي من المدينة ظنوا انه متجه اليهم فاجتمعوا لمقابلته ، وتبين لهم بعد ذلك انه قاصد لمكة ، ولم يبق لديهم من شك بعد ان خضعت له مكة واقبل اهلها وهم الأعداء الألداء لرسالته يتهافتون على الدخول فيها انه سيغزوهم في بلادهم فأعدوا العدة لذلك وتكتلوا مع احلافهم لمهاجمته بجموع لم

يشهدها من قبل ، ولم يتخلف عنهم سوى قبيلتي كعب وكلاب ، فلم يستجب منهما احد لطلب مالك بن عوف .

وكان دريد بن الصمة احد بني جشم شيخاً كبيراً قد حملوه معهم ليستفيدوا من رأيه وخبرته بالحروب ، كما اشترك معهم زعماء تلك القبائل ولكن القيادة العامة كانت لمالك بن عوف ومضت تلك الحشود التي قدرها المؤرخون بثلاثين الفاً او تزيد بقيادة مالك بن عوف لغزو محمد حيث كان ، ونزلت بسهل اوطاس المعروف بحنين ، ولما نزلوا قال لهم دريد : بأي واد انتم قالوا بأوطاس ، فقال نعم مجال الخيل : لا حزن ضرس ولا سهل دهس[1] ، ثم قال لهم ما لي اسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وثغاء الشاة وبكاء الصغير ، فقال له مالك بن عوف لقد حملنا مع الناس النساء والأطفال حتى لا يطمع احد بالفرار ، فقال له دريد ، وهل يرد المهزوم شيء انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في اهلك ومالك .

ثم قال له دريد : ما فعلت كعب وكلاب ، فقال لم يشهد معنا منهم احد ، فقال غاب الجد والحد ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب ، ولوددت انكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، ثم سأله من شهد منكم فأجابه عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، فقال ذانك الجذعان لا ينفعان ولا يضران ، ودار حوار بينهما لم يتفقا فيه على رأي واحد ، واخيراً قال له مالك : انك قد كبرت وكبر علمك ، والتفت الى تلك الجموع وقال والله ان عصيتموني لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري وكان شاباً في الثلاثين من عمره قوي الارادة ماضي العزيمة فتبعه الناس ، ومضى دريد معهم لا يرد لهم رأياً بالرغم من كبر سنه وخبرته بالحروب والمعارك ، وامر مالك اصحابه ان ينحازوا الى قمم حنين ومنعطفاتها .

ولما بلغ رسول الله (ص) خبر تلك الحشود التي خرجت لحربه ارسل عبد

---

(١) يعني بذلك انه مكان صالح للحرب لا كثير الاصحار ولا كثير التراب .

الله بن حدرد الأسلمي وامره ان يدخل بين الناس متنكراً ويأتيه بخبرهم ، فذهب ودخل بينهم واطلع على عدتهم وعددهم وإصرارهم على حرب رسول الله ، والنبي يعد العدة ويحرض المسلمين على قتالهم والصبر والثبات ، ورجع عبد الله الى النبي واخبره بحالهم ، فدعا رسول الله عمر بن الخطاب واخبره بما رجع به عبد الله بن حدرد ، فقال له عمر ان عبد الله بن حدرد يكذب عليك يا رسول الله ، فقال له عبد الله كما جاء في رواية ابن هشام والطبري وغيرهما ان تكذبني فطالما كذبت بالحق يا عمر ، فقال له عمر الا تسمع ما يقول ابن حدرد يا رسول الله وأراد النبي ان يلطف الجو بينهما ، فقال لقد كنت ضالاً فهداك الله الى الاسلام يا عمر .

ولما اتم النبي تجهيز جيشه واستعار بعض الأعتدة من صفوان بن امية كما ذكرنا خرج من مكة في اثني عشر الف مقاتل ، منهم الفان من مكة وعشرة آلاف كانوا معه يوم دخل مكة فاتحاً ، وتحرك ذلك الجيش من مكة وفي مقدمته الفرسان والإبل تحمل الذخيرة لثلاث خلون من شوال في السنة الثامنة من الهجرة ، والمسلمون قد اخذهم الغرور بهذا العدد الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ حروبهم مع المشركين ، وقال ابو بكر كما جاء في بعض المرويات : لا نغلب اليوم من قلة .

وبعث مالك بن عوف ثلاثة من اتباعه وامرهم ان يندسوا بين اصحاب النبي ويأتوه بأخبارهم ، فذهبوا وما لبثوا ان رجعوا اليه كالمدهوشين قد استولى عليهم الخوف ، وقالوا له : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا ان اصابنا ما ترى ، ولكنه مضى في طريقه مصمماً على قتال المسلمين وإبادتهم اذا وجد سبيلا لذلك .

وجاء في كتب السيرة عن الحارث بن مالك انه قال : خرجنا مع رسول الله (ص) الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، وكانت لقريش وغيرهم من العرب سدرة عظيمة يسمونها ذات انواط يجتمعون تحتها في كل عام فيذبحون تحتها ويأكلون ويستريحون ويسمرون ، فلما رأيناها تنادينا يا رسول الله اجعل لنا

ذات انواط كما لهم ذات انواط ، فرد عليهم النبي وقال لقد قلتم كما قال قوم موسى :

﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة انكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال لتركبن سنن من كان قبلكم وبلغ النبي (ص) حنيناً مع المساء فنزلوا على ابواب واديها واقاموا بها حتى الفجر وعبأ النبي اصحابه ووزع الألوية والرايات، فأعطى لواء المهاجرين لعلي (ع) واعطى الراية لسعد بن ابي وقاص ، واعطى لواء الأوس الى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج لسعد بن عبادة ، ووزع على بقية القبائل الرايات والألوية ، وركب بغلته البيضاء ، ولبس درعين ومغفراً .

قال جابر بن عبد الله الأنصاري لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من اودية تهامة وذلك في عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا فكمنوا لنا في شعابه واحنائه ومضايقه ، واننا لكذلك ، فما راعنا ونحن نسير الا كتائب هوازن ومن معها من العرب قد شدوا علينا شدة رجل واحد فانهزم الناس عن رسول الله (ص) لا يلوي احد منهم على احد قد اخذهم الخوف والفزع ، وانحاز رسول الله (ص) الى ذات اليمين ، ثم قال ايها الناس الي انا رسول الله محمد بن عبد الله فلم يجبه احد من المنهزمين ، وقال ابن قتيبة في المعارف : ان الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين علي بن ابي طالب والعباس بن عبد المطلب، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب واسامة بن زيد بن حارثة .

وجاء عن العباس بن عبد المطلب انه قال في ذلك الموقف :

نصرنا رسول الله في الحرب سبعة — وقد فر من قد فر منهم واقشعوا
وثامننا لاقى الحمام بسيفه — بما مسه في الله لا يتوجع

وقال الشيخ المفيد في ارشاده لم يبقَ مع النبي الا عشرة نفر تسعة من بني هاشم ، والعاشر ايمن بن ام ايمن فقتل ايمن وثبت التسعة ، حتى رجع الى رسول الله من كان قد انهزم .

وجاء في تاريخ الخميس وفي رواية انه لم يبقَ معه الا اربعة ثلاثة من بني هاشم علي والعباس وابو سفيان بن الحارث وكان قد اخذ بعنان بغلته والرابع عبد الله بن مسعود ، وأضاف الى ذلك ان علياً والعباس كانا يحفظانه من قِبل وجهه وعبد الله بن مسعود يحفظه من جانبه الأيسر وكان كل من يقبل على رسول الله يقتل[1] ونص على ذلك ايضاً في السيرة الحلبية وقد وصف الله حالة المسلمين في ذلك اليوم بقوله :

﴿ ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها ﴾ (التوبة ٢٥ ـ ٢٦) .

وجاء في ارشاد المفيد ان الآية تعني بالمؤمنين علياً ومن ثبت معه من الهاشميين كما جاء في تاريخ اليعقوبي المجلد الثاني ان المسلمين قد انهزموا عن رسول الله وبقي في عشرة من بني هاشم وقيل تسعة وهم علي بن ابي طالب والعباس بن عبد المطلب وابو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وعتبة ومعتب ابنا ابي لهب والفضل بن العباس وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، وأضاف الى ذلك وقيل ان ايمن بن ام ايمن كان معهم .

وعلى اي الأحوال فلقد اتفق المؤلفون في سيرة النبي ان علياً واكثر بني هاشم قد ثبتوا مع النبي ، وبعض الروايات الشاذة تنص على ان ابا بكر وعمر قد ثبتا معه ولكن تاريخهما في حروب النبي مع المشركين يؤكد انهما ليسا ممن يثبتون في الأزمات ولم يرو لهما ذكر مع المقاتلين في اكثر حروب النبي وغزواته وكانا اول المنهزمين في احد كما ذكرنا في ذلك المقام .

واتفق المؤلفون في سيرة النبي (ص) على جماعة تظاهروا بالإسلام في مكة اظهروا الشماتة واسفروا عن واقعهم .

---

(١) تاريخ الخميس في اصول انفس نفيس للشيخ حسين الدياربكري ص ١٠٢ .

قال الطبري في تاريخه وابن هشام في سيرته والشيخ حسين الدياربكري في تاريخ الخميس وغيرهم انه لما انهزم المسلمون ورأى من كان مع رسول الله من جفاة مكة الهزيمة قال ابو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، هذا والأزلام في كنانته وكان مستبشراً بتلك الهزيمة وقال شيبة بن طلحة : اليوم ادرك ثاري من محمد وتقدم منه ليقتله فرأى علياً ومن معه من بني هاشم قد احاطوا به من كل جانب يدافعون عنه .

وجاء في رواية الطبري عن شيبة ان الذي منعه منه شيء تغشاه فلم يعد يطيق ذلك فعلم انه قد منع منه ، هذا مع العلم بأن النبي قد كرمهم بالأمس في مكة ورد عليهم مفتاح الكعبة . وقال كلدة بن حسل اخو صفوان بن امية لأمه الآن بطل السحر ، ولما سمع صفوان من اخيه ذلك ورأى ابا سفيان مستبشراً قال لهما : لأن يملكني رجل من قريش احب الي من ان يملكني رجل من هوازن ، يعني بذلك ان انتصار محمد احب إليه من انتصار مالك بن عوف ، وقد بدا عليه الانزعاج من شماتة ابي سفيان وغيره ممن اعجبتهم هزيمة المسلمين في حين انه كان لا يزال على شركه .

ومهما كان الحال فلقد كان موقف المسلمين في حنين اسوأ من موقفهم في احد في بداية الأمر وبعد ثبات النبي (ص) ومن معه من بني هاشم بدأ الموقف يتحول لصالح المسلمين . ويصف العباس بن عبد المطلب الموقف في ذلك اليوم بقوله : اني لمع رسول الله آخذ بزمام بغلته البيضاء ، وكنت امرأ جسيما شديد الصوت ورسول الله (ص) يقول حين رأى من المسلمين ما رأى : الى اين ايها الناس وهم لا يلوون على شيء ، فقال لي يا عباس : صح يا اهل بيعة الرضوان يا اصحاب سورة البقرة ، يا اهل بيعة الشجرة الى اين تفرون عن رسول الله ، فناديت في الناس وكنت جهوري الصوت فأخذوا يتراجعون الى ان اجتمع اليه نحو من مائة رجل فاستقبلوا بسيوفهم ورماحهم القوم .

وبرز جرول وكان معه راية هوازن يصنع بالمسلمين ما يصنع على حد تعبير

الطبري وغيره فتحاماه الناس فبرز اليه علي بن ابي طالب فقتله كما جاء في رواية اليعقوبي والمفيد وغيرهما ، وفي رواية ابن هشام والطبري ان علياً اقبل فضرب عرقوب جمله فوقع الى الأرض فتناوله رجل من الأنصار وقتله واشتدت عزيمة المسلمين بذلك وتجالد الفريقان والنبي يتقدم ببغلته رويداً رويداً ويضرب بسيفه ويقول الآن حمي الوطيس .

وفي رواية ثانية انه نزل عن بغلته وقال انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب وتقدم نحو تلك الجموع يقارع الأبطال ويصرع الشجعان فما رئي في الناس اشد منه ، هذا وعلي (ع) مرة يظهر عن يمينه واخرى عن شماله يحصد بسيفه الرؤوس ويصرع الأبطال حتى قتل اربعين من ابطالهم ، وعاد اكثر المسلمين الى المعركة مسرعين حتى ان الرجل منهم كان اذا ابطأ به بعيره او التوى به من شدة الزحام وثب عنه واتجه الى حيث ينادي العباس يريد ان يدفع عنه عار الفرار والهزيمة ، وبعضهم لم يرجع الا بعد ان ايقن ان المعركة تتجه اتجاهاً صحيحاً لصالح المسلمين .

ولم تتضح معالم الصباح حتى كانت ارض المعركة تهتز لوقع القتال ، واخذ النبي حفنة من التراب تناولها بيده ، وقيل ناوله اياها ابو سفيان بن الحارث فألقاها في وجوه الأعداء ، وقال : شاهت الوجوه هم لا ينصرون وتقدم نحو القوم وقد تكاثر المسلمون خلفه فما تعالى النهار حتى كانت الكرة للمسلمين يضربون ويطعنون في صدور المشركين حتى انتقضت صفوفهم وتفرقت كتائبهم وصدتهم المسالك والزحام عن الفرار ، ولم يكن لهم بد من الهزيمة والمسلمون في اثرهم يقتلون ويأسرون ، وقد اخذهم الحماس حينما رأوا النبي يباشر الحرب بنفسه ببسالة لم يسمع بمثلها ومن حوله علي وبنو هاشم الذين ثبتوا معه في الساعات الأولى من المحنة التي حلت بهم في ظلمة الفجر ، ولولاهم لانتهت المعركة بنتيجة لم يكن الشرك ليحلم ببعض منها ، ودب الذعر والخوف في صفوف المشركين واصبح كل انسان يفكر في الطريق الى الخلاص بعد ان ايقنوا ان المقاومة لا تجديهم وانهم معرضون للفناء عن آخرهم فما هو إلا ان انكشفت المعركة واسفرت

عن هزيمتهم تاركين نساءهم واولادهم واموالهم تحت رحمة المسلمين .

وفيما هم يطاردون فلول هوازن واحلافهم ادرك ربيعة بن رفيع السلمي دريد بن الصمة وكان شيخاً كبيراً قد حملوه معهم ليستفيدوا من رأيه وتجاربه ، ولقد نصحهم قبل المعركة وحذرهم مما انتهت اليه نتائجها ، وابى مالك بن عوف ان يأخذ برأيه وبقي معهم في هودج على بعير له ، ولما ادركه ربيعة بن رفيع ظنه قبل ان يكشف الهودج امرأة من اشرافهم ، فلما اناخ بعيره وجده رجلاً فسأله من انت ؟ قال انا دريد بن الصمة وما تريد مني قال : اريد ان اقتلك ، ثم ضربه بالسيف فلم يصنع شيئاً فقال له دريد بئس ما سلحتك امك خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضربني به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت اقتل الرجال ، وإذا اتيت امك فاخبرها انك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد متعت فيه نساءك ، ثم قتله .

ولما رجع الى امه واخبرها قالت : والله لقد اعتق لك ثلاث امهات في غداة واحدة انا وامي وام ابيك .

وتتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا اوطاساً وهناك اوقعوا بهم شر هزيمة وسبوا من حملوه معهم من النساء حتى بلغ عدد الأسرى ستة آلاف اسير ، واحصوا الغنائم فكانت اثنين وعشرين الفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشياه ، واربعة آلاف اوقية من الفضة وغير ذلك مما حملوه معهم من الأمتعة .

وكانت الشيماء بنت الحارث بن عبد الله بن عبد العزى اخت الرسول من الرضاعة مع السبي فقالت للمسلمين : اني والله اخت صاحبكم من الرضاعة فأتوا بها رسول الله (ص) فلما رأته قالت اني اختك من الرضاعة يا رسول الله كما جاء في رواية الطبري ، قال وما علامة ذلك ، قالت عضة عضضتنيها في ظهري وانا مدركتك ، فلما عرفها رسول الله (ص) قام وبسط لها رداءه واجلسها عليه وقال لها ان احببت ان تقيمي عندي محببة مكرمة ، وان احببت امتعتك وترجعين الى قومك ، قالت بل متعني وردني الى قومي ، فأعطاها وردها على قومها معززة

مكرمة .

ثم جمع السبي والأموال فجمعت في محل واحد ، وجعل على حراستها بديل بن ورقاء وجماعة من المسلمين ، وامرهم ان ينتقلوا بها الى الجعرانة ويقوموا بحراستها الى ان يعود من مطاردة العدو ومن حصار الطائف ، وكان مالك بن عوف قد فر مع ثقيف الى الطائف ، فأمر النبي اصحابه ان يسيروا الى الطائف ليحاصروا اهلها ، طمعاً في اسلامهم ، وكانت الطائف مدينة محصنة لها ابواب تغلق عليها ، واهلها مع ذلك ذوو خبرة بالحرب وثروات طائلة مكنتهم ثرواتهم ان يجعلوا حصونهم من امنع الحصون .

وسار المسلمون في طريقهم الى الطائف تاركين وراءهم اسرى حنين وغنائمها تحت الحراسة ريثما يرجعون من الطائف وفي طريقهم الى الطائف في مكان يدعى لِيه مروا بحصن لمالك بن عوف فهدموه وفي مكان يدعى نخب نزل النبي بمن معه تحت سدرة يقال لها الصارة ، والى جانبها حائط لرجل من ثقيف ، فأرسل اليه رسول الله اما ان تخرج وإما ان نخرب عليك حائطك فلما امتنع من الخروج امر رسول الله بتخريبه ، ومضى رسول الله حتى نزل على مقربة من الطائف، وجمع اصحابه ليفكروا بما يصنعون ، ولكن ثقيفاً ما لبثت حين رأت تلك الجموع قد نزلت على مقربة من حصونها ما لبثت ان امطرتهم بوابل من النبال ، فأصابت جماعة من المسلمين ، مما دعا النبي (ص) ان يتخذ للمسلمين مكاناً ابعد عن مرمى النبال والسهام ، فانتقلوا الى مكان آخر وضربوا فيه خيامهم .

واقام المسلمون اياماً ينتظرون ان يواجههم العدو ، ولكن ثقيفاً لم تكن على استعداد للمواجهة بعد تلك الهزيمة التي منيت بها مع احلافها في حنين ، وادركت انها لا تستطيع ان تثبت في وجه محمد واصحابه اكثر من ساعات قلائل ، ولماذا تعرض نساءها واموالها لخطر الغنيمة والأسر وهي تملك من الذخائر والمؤن ما يكفيها لأمد طويل ، وتعلم ان اسلحة المسلمين لا تمكنهم من اجتياح تلك

الحصون المنيعة ، وما عليهم الا ان ينتظروا والانتظار قد يطول ، وهو لصالحهم اكثر منه لصالح المسلمين .

واشار عليهم سلمان الفارسي كما في بعض الروايات باستعمال المنجنيق ، ولم يكن معروفاً عند العرب قبل ذلك فصوره لهم وصنعوه وقذفوا به الصخور الى ما وراء الحصون ، وكان قليل الجدوى لم يكن يؤثر على حصونهم ولا على اعصابهم فاستعملوا نوعاً آخر من الأسلحة كان لبعض القبائل المقيمة بأسفل مكة علم بها وهو الدبابة وهي آلة يدخلون في جوفها تقيهم النبال والسيوف ، ثم يندفعون بها الى الحصون ومنها ينفذون الى ما وراءها ، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث اكرهوا هؤلاء على ان يلوذوا بالفرار ، فقد حموا قطعاً من الحديد بالنار وقذفوا الدبابة بها فأحرقتها ولاذ من بها بالفرار ولما خرجوا منها رشقوهم بالنبال فأصابوا رجالاً منهم .

ولم يبق للنبي من وسيلة للضغط عليهم الا الالتجاء الى تقطيع الكروم والأشجار وكانت الطائف غنية بالكروم ومختلف انواع الأشجار المثمرة عساهم يستسلمون عندما يرون املاكهم قد تعرضت للخطر ، وبدلاً من ان يستسلموا ارسلوا الى النبي (ص) يناشدونه ان يكف عنها لأصحابها او يأخذها لنفسه ، فأمر عند ذلك اصحابه بالكف عنها .

ثم نادى مناديه اهل الطائف انه سيعفو عن كل وافد اليه منهم ، ففر اليه جماعة ، منهم ابو بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة فأخبر النبي انهم يملكون من المؤن والذخائر ما يكفيهم زمناً طويلاً ، فاستدعى رسول الله نوفل بن معاوية الدؤلي واستشاره في امرهم ، فقال نوفل : يا رسول الله ان ثقيفاً كثعلب في جحر فإن اقمت عليه اخذته وان تركته لم يضرك ، وكان قد مضى على النبي نحو من خمسة عشر يوماً او تزيد ، وقد اصبحوا على ابواب ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم ، وقد حرم فيه الإسلام القتال ، فآثر النبي (ص) ان يرفع الحصار عنهم ويرجع بمن معه الى الجعرانة حيث الأسرى والغنائم ، ومنها الى مكة ثم الى المدينة

على ان يعود الى الطائف بعد انقضاء الأشهر الحرم ، فيما لـو اصرت القبـائل المتحصنة بالطائف على موقفها المعادي للإسلام ، وانصرف عنهم ومعه المسلمون الى الجعرانة حيث تركوا غنائمهم واسراهم .

وادركت هوازن حراجة الموقف ، وان نساءهم واموالهم ستصبح غنيمة لمحمد ومن معه من المسلمين وفيهم الكثير ممن التحقوا فيه طمعاً في الغنيمة ، ولو كانت الأموال وحدها لكان بإمكانهم ان يتجاهلوهـا ويتغاضـوا عنها ، ولكنهـا النسـاء والأطفال ستـة آلاف بين امـرأة وطفل قـد اصبحوا غنيمـة للمسلمين والمتظاهرين بالإسلام ، وبنتيجة التداول فيما بينهم اتفق رأي الأكثرية منهم على ان يستسلموا للنبي ويدخلوا في الاسلام الذي كاد ان يصبح بين عشية وضحاها دين الجـزيرة بكـاملها ، فـأرسلوا وفداً منهم الى النبي (ص) يعتـذرون اليـه ويعلنون إسلامهم بين يديه ليرد عليهم نساءهم واطفالهم ، فبلغ الوفد الجعرانة والنبي يوزع الغنائم بعد ان اختص بخمسها ، وكان الوفد مؤلفاً من اربعة عشر رجلاً من شيوخهم كما في بعض المرويات وفيهم رجل يدعى ابا ثردان ، او أبا برقان عم رسول الله من الرضاعة ، ورئيس الوفد زهير بن صرد فقال له عمه من الرضاعة : يا رسول الله ان في هذه الحظائر من كن يكفلنك من عماتك وخالاتك وحواضنك وقد حضناك في حجورنا وارضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك رضيعاً فما رأيت رضيعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك اهلك وعشيرتك فامنن علينا منَّ الله عليك .

وقال زهير بن صرد : يا رسول الله انا اهل وعشيرة وانما في هذه الحظائر عماتك وخالاتك وخواضنك ولو انا رجعنا الى ابي شمر الغساني ، او النعمان بن المنذر لرجونا عطفه وانت خير الناس اجمعين ، ثم انشد قائلاً :

امنن عـلينـا رسـول الله في كـرم ... فـإنـك المـرء نـرجـوه ونـدخـر
امنن عـلى نسـوة قـد عـاقهـا قـدر ... ممـزق شملهـا في دهـرمـا غـير

ومـن غير المعقول ان يضيق عطف النبي عنهم ويتسع لأبي سفيان وزوجته هند ، ولقريش التي لم تترك وسيلة من وسائل العنف الا وجربتها ولغير قريش من العشرات هنا وهناك ، فلا بد وان يتسع لهوازن التي جاءت تعلن الطاعة وتطلب العفو وفيها بنو سعد وقد عاش بينهم النبي (ص) اكثر من اربع سنوات كان فيها المجتبى عند الجميع ، وهو الذي حث على المعروف وكافأ عليه وكان حزءاً من رسالته .

وهل من المعقول ان ينسى لهم تلك المواقف وبالأمس القريب جاءته الشيماء اخته من الرضاعة فبسط لها رداءه واجلسها عليه واغناها من عطائه ، لقد كان عرفان الجميل من ابرز خصاله والعفو عند الظفر من احب الأمور لديه ، فقال لهم : نساؤكم وابناؤكم احب اليكم ام اموالكم ، فقالوا يا رسول الله لقد خيرتنا بين اموالنا واحسابنا ونحن لا نختار على نسائنا واولادنا شيئاً .

فقام خطيباً في المسلمين وكان مما قال : ان اخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين ويرغبون ان تردوا عليهم سبيهم ، الا وإن ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لهم والتفت الى هوازن وقال : اذا انا صليت الظهر فقوموا وقولوا : انا نستشفع الى رسول الله بالمسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله في ابنائنا ونسائنا ، فلما فرغ من صلاة الظهر نفذت هوازن ما قاله النبي ، فأجابهم اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وقام المهاجرون فقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله ووقف الأنصار نفس الموقف .

ووقف الأقرع بن حابس وقال اما انا وبنو نعيم فلا نترك حقنا ووقف عيينة بن حصن عن بني فزارة نفس الموقف ، وقام العباس بن مرداس فقال اما انا وبنو سليم فلا نرد عليهم شيئاً ، ولكن بني سليم رجعوا فقالوا ما كان لنا فلرسول الله ووقف رسول الله ، وقال للذين تمسكوا بحقهم في السبي : ان هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين وكنت خيرتهم بين السبي وبين الأموال فاختاروا نساءهم وابناءهم ، الا ومن تمسك بحقه في هذا السبي فليتركه لهم وله بكل

انسان ست فرائض[1] فطابت نفوسهم بذلك وترك الجميع حقهم واسترجعت هوازن النساء والأبناء بعد ان اعلنوا اسلامهم . وسأل النبي (ص) وفد هوازن عن مالك بن عوف الذي قاد تلك الجموع ، فقالوا هو بالطائف وقد التجأ اليها مع ثقيف ، فقال لهم اخبروه ان اتاني مسلماً رددت عليه اهله وماله واعطيته مائة من الإبل ، فلما اخبروه بمقالة الرسول خرج متخفياً وجاء الى النبي (ص) فأسلم فرد النبي عليه اهله وماله واعطاه ما وعده به ، واستعمله على قومه وعلى من اسلم من القبائل حول الطائف .

ولما انتهى النبي (ص) من هوازن ورد عليهم نساءهم واموالهم ركب واراد ان يسير بالناس باتجاه مكة فالتف حوله المسلمون وقالوا يا رسول الله اقسم علينا فيئنا وخافوا ان يهب الغنائم لمن يفد عليه من الأعراب مسلماً كما صنع مع مالك بن عوف ، وما زالوا يتدافعون عليه حتى ألجأوه الى شجرة هناك واختطف عنه رداؤه ، فقال ردوا علي ردائي ايها الناس فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم قام الى جانب بعير واخذ وبرة من سنامه فجعلها بين اصبعيه ثم رفعها وقال ايها الناس : والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة الا الخمس والخمس مردود عليكم .

واتجه الى توزيع الغنائم وبدأ بالمؤلفة قلوبهم ، فأعطى ابا سفيان وابنيه معاوية ويزيد وحكيم بن حزام والعلاء بن جارية الثقفي والحارث بن هشام وصفوان بن امية وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ومالك بن عوف النصري لكل واحد منهم مائة بعير ، واعطى دون ذلك لآخرين منهم مخرمة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب وهشام بن عمرو واعطى سعيد بن يربوع وعامر بن مخزوم وجماعة غيرهما لكل واحد خمسين بعيراً ، وقيل اقل من ذلك ، واعطى العباس بن مرداس اربعين بعيراً ، فلم يرض بهذا المقدار بعد ان اعطي لغيره اكثر من ذلك ، فقال في ذلك معاتباً لرسول الله

---

(١) ست من الابل .

(ص) وقيل اعطاه اربعة اباعر :

كـانـت نهابـاً تـلافيـتـهـا بكـدي عـلى المهـر في الأجـرع
وايقـاظي القـوم ان يـرقـدوا اذا هـجـع النـاس لم اهجـع
فـما كـان حـصن ولا حـابس يفـوقـان مـرداس في المجمـع [1]
ومـا كنت دون امـرىء منهـما ومن تضـع اليـوم لا يـرفـع

وجـاء في رواية المفيد في الإرشاد ان النبي (ص) لما سمع قوله : قال لعلي (ع) قم يا علي واقطع لسانه ، فقال العباس بن مرداس : والله لهذه الكلمة كانت اشد علي من يوم خثعم حين اتونا في ديارنا ، فأخذ بيدي علي بن ابي طالب وانطلق بي ولو كنت ادري احداً يخلصني منه لدعوته ، فقلت يا علي انك قاطع لساني فقال اني لممض فيك امر رسول الله ، فما زال بي حتى ادخلني الحظائر فقال لي اعتد ما بين اربعين الى مائة ، فقلت بأبي انتم وامي ما اكرمكم واحلمكم واعلمكم ، ثم قال : ان رسول الله اعطاك اربعين وجعلك مع المهاجرين ، فان شئت فخذها وان شئت فخذ مائة وكن مع اهل المائة ، قلت اشر علي ، فقال اني آمرك ان تأخذ ما اعطاك رسول الله وترضى فقلت اني افعل .

واقتصر اكثر المؤلفين في السيرة على القـول بأن رسول الله لما سمع شعره قال اذهبوا واقطعوا لسانه فاعطوه ما يريد .

ولما تم توزيع الغنائم على هذا النحو وكان القسم الأكبر لأولئك الذين لا يزالون يبطنون الشرك كأبي سفيان ومعاوية وعكرمة وامثالهم ، وكان الحرمان من نصيب الأنصار عز ذلك عليهم ، وقال بعضهم : ليست هذه القسمة بعادلة ، وقال آخرون منهم : لقد لقي محمد قومه وما يصنع بنا بعد ذلك الى غير ذلك مما بدر منهم من الكلمات التي تدل على انهم لم يرتاحوا لتوزيع الغنائم بالنحو الذي تم توزيعها عليه .

---

(١) يشير بذلك الى تفضيل الاقرع بن حابس وعيينة بن حصن في العطاء عليه .

وجاء سعد بن عبادة الى النبي (ص) واخبره بموقف الأنصار ، فقال له النبي (ص) فأين انت من ذلك يا سعد ، قال فما انا إلا من قومي فقال له اجمع لي قومك يا سعد في هذه الحظيرة فجمعهم فجاء النبي ومعه علي (ع) وجاء آخرون من المهاجرين فردهم النبي والتفت الى الأنصار وقال : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في انفسكم ، الم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله واعداء فألف بين قلوبكم الله قالوا بلى يا رسول الله ، ثم قال الا تجيبوني يا معشر الأنصار قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ولرسوله المن والفضل ، فقال (ص) اما والله لو شئتم لقلتم وصدقتم ، اتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك ، فارتفعت اصواتهم بالبكاء ، وقام شيوخهم وساداتهم اليه وقبلوا يديه ورجليه وقالوا رضينا بالله ورسوله وهذه اموالنا بين يديك ، فإن شئت فاقسمها على قومك ، وانما قال من قال منا على غير وغر في صدر وغل في قلب ، ولكنهم ظنوا سخطاً عليهم وتقصيراً منهم وقد استغفروا الله من ذنوبهم فاستغفر لهم يا رسول الله .

فقال رسول الله : اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء ابناء الأنصار ، يا معشر الأنصار اما ترضون ان يرجع غيركم بالشاء والنعم وترجعون برسول الله ، قالوا رضينا فقال رسول الله (ص) عند ذلك : الأنصار كرشي وعيبتي لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، فطابت نفوسهم بهذه السياسة الرشيدة الحكيمة .

وخرج النبي (ص) بمن معه من الجعرانة متجهاً الى مكة في شهر ذي القعدة فأتم عمرته وحل من احرامه واستخلف على مكة عتاب بن اسيد ومعه معاذ بن جبل يفقه الناس بالدين ويعلمهم القرآن وخرج منها متجهاً الى المدينة بمن معه من المهاجرين والأنصار ودخلها في الأيام الأخيرة من ذي القعدة بعد انتصارين من اعظم الانتصارات التي حققها في حروبه وغزواته وهما فتح مكة وهزيمة جيش مؤلف من ثلاثين الف مقاتل في حنين هزيمة لم تعرف هوازن واحلافها أسوأ منها ، وتركت هذه الانتصارات المتتالية اثراً بليغاً في نفوس عظماء

العرب وقادتهم الذين كانوا لا يتصورون ان تضطرهم الأيام للخضوع لمحمد والإقرار له بالطاعة .

وجاء في كتب السيرة انه بعد رجوع النبي من الطائف كتب بجير بن زهير بن ابي سلمى لأخيه الشاعر كعب بن زهير بن ابي سلمى يخبره فيه ان محمداً قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ، وان من بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن ابي وهب قد هربوا على وجوههم خوفاً من القتل ، فإن كان لك في نفسك حاجة فاقدم على رسول الله فانه لا يقتل من جاءه تائباً ، وإن انت لم تفعل فانج الى محل ينجيك منه .

فلما بلغ كعباً كتاب اخيه ضاقت به الأرض واشفق على نفسه من القتل وارجف به من كان معه فأيقن كعب صدق اخيه وإخلاصه في نصيحته له ، وانه ان لم يأت محمداً سيبقى طريداً مشرداً ما دام حياً ، فأسرع الى المدينة ونزل على صديق له ليفاوض له النبي في العفو عنه ، فغدا به على رسول الله (ص) فجلس كعب بين يدي رسول الله ووضع يده في يده ورسول الله لا يعرفه ، فقال له يا رسول الله : ان كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل انت قابل منه ان انا جئتك به ، فقال رسول الله نعم : فعندها قال له كعب بن زهير : انا كعب بن زهير يا رسول الله ، فأسلم وعفا عنه وانشده قصيدته التي يقول في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول[1]
وما سعاد غداة البيت اذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ويقول فيها :

نبئت ان رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

(١) المكبول : المقيد .

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم اذنب ولو كثرت في الأقاويل

وقد مدح فيها المهاجرين وتجاهل الأنصار ، فلما اتمها قال له النبي (ص) هلا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك اهل ، فنظم الأبيات التي يقول فيها :

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار[1]
ورثوا المكارم كابراً عن كابر ان الخيار هم بنو الأخيار
الناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار

فأكرمه رسول الله ونزع بردة كانت عليه وألبسه اياها .

وجاء في تاريخ الطبري ان رسول الله خلال الأيام القليلة من رجوعه الى المدينة تزوج من فاطمة بنت الضحاك بن سفيان فاختارت الدنيا عندما خير رسول الله نساءه ، وأضاف الى ذلك انها استعاذت بالله منه ففارقها .

وجاء في بعض المرويات ان عائشة قالت لها : ان النبي يعجبه اذا دخل على نسائه ان يقلن له : أعوذ بالله منك فأخذت بقولها وقالت له ذلك فطلقها قبل ان يتصل بها .

---

(١) المقنب:الجماعة من الخيل ويريد به القوم على ظهور جيادهم .

مولد ابراهيم

وقيــل في نهاية السنة الثامنة ولدت له مارية القبطية ولده ابراهيم فقد روى الطبري واليعقوبي انه ولد في ذي الحجة من السنة الثامنة ولما بشره به ابورافع وهب له مملوكاً واستبشر به وسماه ابراهيم تيمناً بصاحب هذا الاسم جد الأنبياء وجاءه جبرائيل وقال له : السلام عليك يا ابا ابراهيم وتمنت كل مرضعة من نساء الأنصار ان تتولى ارضاعه ، ولكن النبي (ص) سلمه الى ام بردة بنت المنذر بن يزيد من نساء بني النجار .

وأضاف اليعقوبي الى ذلك ما رواه الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت دخل علي رسول الله ومعه ابنه ابراهيم يحمله فقال انظري الى شبهه بي ، قالت عائشة اراه يشبهها ، فقال لها : أما ترين بياضه ولحمه ، فقالت من قصر عليه اللقاح ابيض وسمن .

لقد أراد النبي (ص) بقوله بياضه ولحمه ان يدفع افتراءها على زوجته مارية القبطية ويؤكد لها انه لا يشبه احداً سواه ، ولكنها لم تتراجع عن موقفها بالرغم من ان اثارة هذه الشبهة حول زوجته تسيء اليه وتعرضها للعقوبة التي فرضها الاسلام فقالت من قصر عليه اللقاح ابيض وسمن .

وقيل ان الآية من سورة النور ﴿**إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم**﴾ نزلت فيمن اتهم مارية حيث انها اتهمتها بابن خالتها جبير كما ذكرنا خلال حديثنا عما ورد من اتهام عائشة بصفوان بن المعطل السلمي بعد رجوع النبي من غزوة بني المصطلق ، كما قيل ان الآية ﴿ **ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة** ﴾ نزلت بهذه المناسبة كما ذكرنا من قبل .

وكانت تستبد بها الغيرة في كثير من الأحيان فتتفق هي وحفصة ومن يلوذ

اليهما من نسائه فيطلبن من النفقة ما لا يستطيع حتى آذينه بغيرتهن وطلباتهن فأنكر ابو بكر وعمر بن الخطاب على ابنتيهما هذا الموقف من رسول الله وبهذه المناسبة نزلت الآية :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميلاً * وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيما ﴾ (الأحزاب ٢٨ ـ ٢٩) .

وصادف انه دخل مرة على زوجته زينب بنت جحش ، وفي رواية ثانية على ام سلمة وتأخر عندها فلعبت الغيرة في نفوس زوجاته ، قالت عائشة كما جاء في الرواية عنها فاتفقت انا وحفصة ان دخل عليها ان نقول له اني اجد ريح مغافير ، والمغافير نبت كريه الرائحة والنبي لا يحب الرائحة الكريهة ، فدخل على عائشة ، فقالت له اني اجد ريح مغافير ، فقال لها لقد شربت عسلاً عند زينب ولن اعود اليه ، ثم دخل على حفصة فقالت له ذلك ايضاً فأجابها بما اجاب به عائشة .

وجاء في رواية ثانية ان اكثر نسائه تواطأن مع عائشة على ان يقلن له ذلك فحرمه على نفسه[1] ، وحدث حفصة حديثاً وامرها ان لا تنقله لأحد ، وقيل حدث به عائشة فنقلته لأبيها او الى رفيقتها كما في رواية ثانية الى كثيرمن التصرفات التي كانت تبدر منهن بين الحين والآخر ، فاعتزلهن النبي شهراً كاملاً ، وشاع بين المسلمين ان النبي (ص) قد طلق زوجاته ، وبلغ الحال به ان خطب المسلمين يوماً وكان مما قال : من ههنا تخرج الفتنة حيث يطلع قرن الشيطان قالها ثلاثاً وأشار بيده الى بيت عائشة على حد تعبير البخاري في صحيحه ج ٢ ص ١٨٩ .

وقد انزل الله عليه بهذه المناسبات الآيات التالية :

﴿ يا أيها النبي لمَ تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك والله غفور

---

(١) وتبدو على هذه الرواية دلائل الكذب والوضع لأنها تصور النبي وكأنه آلة بيد نسائه يتصرفن به كما يردن وهو ارفع واجل من ان يكون بهذا المستوى كما تؤكد ذلك مواقفه معهن في مختلف المناسبات .

رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض * فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير * ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكاراً ﴾ (التحريم ١ ـ ٥) .

وقيل ان النبي (ص) حرم مارية على نفسه وذلك بعد ان وجدته حفصة معها في يومها فحرمها على نفسه واوصاها ان تكتم ذلك ، كما اخبرها بأن ابا بكر وعمر سيملكان من بعده فعاهدته على ان لا تخبر احداً بذلك ، ولما فارقها اخبرت عائشة ، وقيل ان ذلك وقع مع عائشة فأخبرت هي حفصة بما عاهدت النبي عليه الى غير ذلك مما جاء في كتب التفسير حول اسباب نزول هذه الآيات .

وفود العرب على النبي (ص)

ثـم دخلت السنة التاسعة وبدخولها توالت على النبي وفود العرب تعلن اسلامها ، وأرسل هو جباته الى القبائل لجباية الزكاة فاستقبلتهم اكثر القبائل بالترحاب ، ودفعت لهم زكاة اموالها بنفوس طيبة راضية ، ولم يتخلف عن دفع الزكاة سوى فرع تميم وبني المصطلق .

وجاء في بعض المؤلفات في السيرة ان بني العنبر فخذ من تميم لما جاءهم الجابي اخذوا سيوفهم ونبالهم وطردوه من ارضهم ، فلما بلغ النبي (ص) ذلك ارسل عيينة بن حصن على رأس سرية مؤلفة من خمسين فارساً فهاجموا بني العنبر من حيث لا يشعرون ففر الرجال ، واسر المسلمون منهم نحواً من خمسين ما بين رجل وامرأة وطفل ورجعوا الى المدينة فأنزلهم النبي في مكان اعده لهم ، وكان من

بين تميم جماعة اسلموا ووقفوا الى جانب النبي في فتح مكة وفي حنين ، ومنهم من لا يزال على الشرك ، فلما بلغهم ما اصاب قومهم من بني العنبر ارسلوا الى النبي وفداً من أشرافهم فنزلوا المدينة ودخلوا المسجد ونادوا من وراء حجراته ان اخرج الينا يا محمد ، فنزلت الآية كما يدعي بعض المؤلفين في السيرة .

﴿ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ﴾ .

وما كان ليخرج اليهم وهم يخاطبونه بهذا الاسلوب الجاف لولا ان المؤذن قد أذن لصلاة الظهر فلما خرج ذكروا له ما صنع عيينة بأهلهم وما لقومهم من مكانة بين العرب وأرادوا ان يفاخروه فقام خطيبهم عطارد بن حاجب ، وانتدب له النبي من المسلمين ثابت بن قيس ليرد عليه كما رد على شاعرهم حسان بن ثابت وأخيراً قال الأقرع بن حابس : ان هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه اخطب من خطيبنا ، ولشاعره اشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم اعلى من اصواتنا واسلم القوم واعتذروا للنبي واعلنوا الطاعة فرد عليهم قومهم وعفا عنهم .

وجاءه بنو المصطلق ليؤكدوا له إسلامهم واستعدادهم لدفع الزكاة ، وأضافوا الى ذلك انهم لم يتراجعوا عن الإسلام ولم يقصدوا سوءاً مع الجابي فقبل عذرهم ودعا لهم بالخير .

وفي مطلع هذه السنة وفد عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله (ص) وكان غائباً عن الطائف يوم حاصرها النبي (ص) فأسلم وسأل النبي ان يرده على قومه ليدعوهم الى الإسلام فقال له رسول الله : انهم قاتلوك ان رجعت اليهم بهذا الأمر ، فقال له عروة يا رسول الله انا احب اليهم من ابكارهم ، وكان معظماً بينهم مطاعاً ، فرجع اليهم ، فلما اشرف عليهم واظهر لهم دينه ودعاهم الى الإسلام رموه بالنبل من كل مكان فأصابه احد سهامهم فقتله ، فقيل له وهو يصارع الموت ما ترى في دمك قال كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي ولست الا كأحد الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله قبل ان يرتحل عنكم فادفنوني معهم فدفنوه معهم .

وجاء عن رسول الله (ص) انه قال حينما بلغه قتله كما جاء في سيرة ابن هشام : ان مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه ، وخلال تلك المدة اسلمت القبائل المحيطة بالطائف ، وكانت تراقب ثقيفاً وتقطع الطريق عليها احياناً فأحسوا بالخطر وأيقنوا مع ذلك ان محمداً لن يتركهم وليس بإمكانهم ان يقاتلوه او يفلتوا من العقاب ، فاجتمع رأيهم على ان يذهبوا الى النبي لتدارك الأمور قبل فوات الأوان ، وكان ذلك قبل خروجه الى تبوك كما ذهب الى ذلك الطبري وبعض المؤلفين في السيرة .

اسلام ثقيف

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها ان عمرو بن امية احد زعمائهم كان بينه وبين احد قادتهم وهو عبد يا ليل بن عمرو خصومة بلغت اقصى حدودها ولما ايقن عمرو بن امية بالخطر وان موقفهم من الإسلام سيؤدي الى هلاكهم ان هم اصروا عليه ، ذهب الى خصمه عبد يا ليل ، ولما انتهى الى باب داره ارسل اليه ان يخرج لمقابلته ، فقال للرسول ويلك أعمرو أرسلك إلي ؟ قال نعم وها هو ذا واقف في دارك ، فقال ان هذا لشيء ما كنت اظنه ، ان عمراً امنع في نفسه من ذلك ، ثم خرج اليه ورحب به ، فقال له عمرو لقد نزل بنا امر لا تصلح لنا معه الهجرة والمقاطعة ، لقد كان من امر هذا الرجل ما قد رأيت وقد اسلمت العرب كلها وليس لكم بحربهم طاقة فانظروا في امركم ، فاجتمعت ثقيف وتشاوروا في الامر وقال بعضهم لبعض : ألا ترون انه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم احد الا تعرض لشر ، واجمع امرهم ان يرسلوا الى رسول الله رجلاً يتفاوض معه على شروط اتفقوا عليها ويأخذ منه كتاباً بها ، واتفق رأيهم على كبيرهم عبد يا ليل ، ولكنه رفض ان يذهب الى النبي (ص) وحده وخاف ان يصنعوا به ما صنعوه مع عروة بن مسعود حينما دعاهم الى الإسلام ، وبعد مفاوضات استمرت اياماً اتفقوا

على وفد مؤلف من ستة من زعمائهم يمثلون مختلف قبائل ثقيف ، وهم عثمان بن ابي العاص من بني يسار ، واوس بن عوف من بني سالم ، ونمير بن خرشة بن ربيعة من بني الحارث ، وعبد يا ليل ، والحكم بن عمرو وابن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، وهؤلاء الثلاثة ينتمون الى قبيلة واحدة ، ورئاسة الوفد كانت لعبد يا ليل ، وخرج الوفد من الطائف متجهاً الى المدينة ، وقبل دخولهم المدينة نزلوا في بعض ضواحيها والتقوا بالمغيرة بن شعبة وكان ثقفياً يرعى إبل الرسول حيث كانت نوبته في تلك الفترة فأخبروه بأمرهم ، فترك الإبل مع الثقفيين وذهب يشتد ليبشر رسول الله بقدوم الوفد ، وفي طريقه الى الرسول (ص) التقى بأبي بكر واخبره ان ثقيفاً قد أقبلت تريد الإسلام ، فرغب ابو بكر ان يكون هو المخبر لرسول الله وقال للمغيرة اقسمت عليك بالله ان لا تسبقني الى رسول الله حتى اكون انا الذي احدثه بما يريدون فاستجاب المغيرة لطلبه .

ودخل ابو بكر على رسول الله (ص) واخبره بقدومهم ورجع المغيرة الى الوفد فأخبرهم بما جرى معه وعلمهم تحية الإسلام ، ولما وفدوا على النبي (ص) انزلهم في مكان خارج المسجد ، وكان السفير بينه وبينهم خالد بن سعيد بن العاص ، وأرادوا ان يضعوا شروطاً لدخولهم في الإسلام ، منها ان يترك لهم صنمهم اللات ثلاث سنوات فأبى عليهم ، وظلوا يتدرجون معه وهو يصر على هدمها واخيراً سألوه تركها ولو لمدة شهر واحد فأبى عليهم وأصر على هدمها فوراً .

ومنها ان يعفيهم من الصلاة ، فلم يوافق معهم وقال لا خير في دين لا صلاة فيه ، واخيراً طلبوا منه ان لا يكلفهم بتكسير اوثانهم بأيديهم ، فوافق معهم على ذلك ، وتم الاتفاق بينهم وبين النبي على ان يسلموا ويلتزموا بشروط الاسلام بلا قيد او شرط وكتب لهم كتاباً بذلك ، وامر عليهم احد اعضاء الوفد وهو عثمان بن ابي العاص ، بعد ان رأى منه رغبة في الاسلام وحرصاً على تعلم احكامه واصوله .

وجاء عنه كما في رواية ابن اسحاق انه قال : كان من آخر ما عهد إلي رسول

الله حين بعثني على ثقيف ان قال لي : صل بهم وقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وصاحب الحاجة . وبعث ابا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الى الطائف لهدم اللات فخرجا من المدينة مع الوفد ، فلما بلغا الطائف قال المغيرة لأبي سفيان بن حرب تقدم فاهدمها انت ، فأبى عليه ابو سفيان وقال : ادخل انت على قومك فإنك امنع عندهم مني ، فدخل المغيرة واقام ابو سفيان بما له في مكان يدعى الهدم ، وباشر المغيرة هدمها فعلاها وجعل يضربها بالمعول واحاط به قومه بنو معتب مخافة ان يرمى بالنبال والسهام كما رمي بها عروة بن مسعود ، واتم هدمها من غير ان يتعرض له احد بسوء ، كما لم تبدر من احد بادرة تسيء الى الوفد في حين ان الوفد دعاهم الى الإسلام واخبرهم بأن محمداً قد رفض شروطهم وابى ان يهادنهم على حساب الاسلام ، ولكن النساء حين نظرن الى اللات وقد تهدم خرجن حاسرات باكيات يندبن برجالهن لأنهم لم يدافعوا عنه .

ولما فرغ المغيرة من هدمه استولى على الأموال التي كانت فيه واخبر بها رسول الله فجاء ابو مليح بن عروة الى رسول الله وسأله ان يقضي منها الديون التي على ابيه عروة بن مسعود فرحب رسول الله بذلك ، فقال له قارب بن الاسود ودين الاسود يا رسول الله ، فقال رسول الله : ان الاسود مات مشركاً ، والاسود وعروة اخوان لأب وام ، فقال قارب يا رسول الله انك ان قضيت دينه تصل بذلك مسلماً يعني بذلك نفسه ومضى يقول للنبي انما الدين علي وانا الذي اطالب به ، فأمر رسول الله ان يقضي من ذلك المال دين عروة واخيه الاسود .

الفصل الثاني والعشرون

غزوة تبوك

لقد كانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة وكان فيما يذكر المؤلفون في سيرة الرسول قد اتصل به نبأ من بلاد الروم ان ملك الروم قد هيأ جيشاً كبيراً لغزو العرب في شبه الجزيرة واعد العدة للقضاء على محمد واتباعه الذين اصبحوا يهددون المناطق المتاخمة لحدود الحجاز .

وجاء في تاريخ الخميس ، ان جماعة الأنباط قدموا المدينة وأخبروا النبي بذلك وحينما اتصل به هذا النبأ لم يتردد في مواجهة تلك الحشود التي اعدتها الروم بنفسه على رأس جيش قوي يستطيع القضاء على كل امل يراود الغزاة .

وأرسل النبي الى القبائل العربية في مختلف المناطق يعلمهم بما عزم عليه ويدعوهم للتهيؤ لإعداد اكبر جيش يمكن اعداده ، وقد خالف في هذه الغزوة وحدها الطريقة التي كان يتبعها من قبل حيث كان لا يخبر في الغالب إلا خواص اصحابه بما يريد ، واحياناً لا يخبر احداً بل يرسل فرقة من الجيش لتتحرك في غير الاتجاه الذي صمم عليه ، تضليلاً لأعدائه وللمنافقين الذين اندسوا بين اصحابه مخافة ان يتصلوا بالعدو فيستعد للمقابلة او الفرار .

واهتم النبي (ص) بتجهيز ذلك الجيش وصمم على ان يكون في المستوى

المناسب لأنه سيقابل به اكبر دولة يومذاك ، ولما لم يكن بإمكانه ان يوفر لذلك الجيش كل ما يحتاجه من المؤ ن والعتاد رأى ان المصلحة تحتم عليه ان يكلف اغنياء المسلمين ويستعين بهم على تجهيزه بما يحتاج اليه من المؤ ن والعتاد ، فأرسل الى جماعة منهم رغب إليهم ان يتعاونوا معه بما آتاهم الله من فضله ، فأسرع جماعة منهم الى البذل بسخاء في هذا السبيل بالرغم من الفائقة التي اصابت الحجاز في ذلك العام واصبحت ضرورات الحياة في حكم المتعذرة على الطبقات الضعيفة من آثار القحط والجفاف .

وكانت الغزوة في فصل الصيف اللاهب والناس ينتظرون موسماً جديداً من ثمار المدينة وخيراتها ، ويتمنون لو كانت في فصل آخر من السنة اكثر اعتدالاً ويسراً من ذلك الفصل ، بالرغم من كل ذلك فلقد استقبل جماعة من المسلمين هذه الدعوة بقلوب عامرة بالإيمان ونفوس مطمئنة بما وعد الله به المجاهدين تاركين نساءهم وابناءهم ليقطعوا الصحاري والفيافي الى عدد يفوقهم في العدد والعتاد في تلك السنة المجدبة التي سماها المؤ رخون سنة العسرة بالنظر لما اصاب الناسُ فيها من القحط والجفاف .

واستقبل تلك الدعوة جماعة ممن دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة متثاقلين يتلمسون الأعذار يحتجون بالحر تارة وبعدالمسافة اخرى ، وقوة العدو الذي قهر جيش الفرس وجند في مقابل المسلمين في غزوة مؤتة اكثر من مائتي الف مقاتل حتى اضطرهم الى الفرار تاركين قتلاهم في ارض المعركة ثالثة الى غير ذلك مما كانوا يتعللون به ويتهامسون فيه لتثبيط عزيمة المسلمين ومعنوياتهم .

وانزل الله على رسوله سورة التوبة التي تحث على الجهاد في سبيل الله مهما كانت العقبات والصعاب ، وتتضح مع ذلك نوايا المنافقين والمتخاذلين وتنذرهم بالعذاب وسوء المصير .

وبينا رسول الله يجهز الناس الى الخروج معه جاءه الجد بن قيس احد بني سلمة فقال له النبي (ص) يا ابا قيس هل لك في جلاد بني الأصفر ولعلك تحتقب

من بناتهم[1] فقال له الجد لقد علم قومي اني من أشدهم اعجاباً بالنساء ، واني إذا رأيتهم لم اصبر عنهن ، فائذن لي ولا تفتني ، فأعرض عنه رسول الله وقال اذنت لك ، فجاء ابنه عبد الله وكان اخاً لمعـاذ بن جبل لأمه ، وجعل يلوم اباه على ما اجاب به رسول الله (ص) ، وقال له : انت اكثر بني سلمة مالاً فـما منعك ، ان تخرج ، فقال ما لي وللخروج الى بني الأصفر ، والله ما آمنهم وانا في منزلي هذا واني عالم بالدوائر ، فقال له ابنه لا والله ما بك الا النفاق ، والله لينزلن على رسول الله فيك قرآن تفتضح به فأخذ نعله وضرب به وجه ابنه فأنزل الله فيه :

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (التوبة ٤٩) .

ولما تلا النبي (ص) الآية على الناس جاءه ابنه وقال له الم اقل لك انه سوف ينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ، فقال له ابوه اسكت يا لكـع والله لا انفعك بنافعة ابداً ، وانك لأشدعلي من محمد ، ثم جعل الجد يثبط قومه عن الجهاد ويمنعهم عن الخروج .

وقال جماعة من المنافقين لا تنفروا في هذا الفصل وانتظروا حتى ينتهي فصل الحر فأنزل الله فيهم :

﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم اشـد حراً لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ (التوبة ٨١ ـ ٨٢) .

وجاء في كتب السيرة وغيرها ان اثنين وثمانـين رجلاً جـاؤ وا الى النبي (ص) يعتذرون إليه عن الخروج معه فلم يعذرهم وقعد جماعة في بيوتهم بدون عذر فأنزل الله فيهم **﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾** (التوبة ٩٠) .

---

(١) الاحتقاب هو الاحتمال والمحتقب هو الذي يردف وراءه واحداً .

وبلغ النبي ان اناساً من المنافقين قد اجتمعوا في بيت من بيـوت اليهود يثبطون الناس ويخوفونهم من لقاء الروم ، فلم يتهاون معهم مخافة ان يستفحل خطرهم ويسري التخاذل بين الناس فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من اصحابه واشعل النار في البيت ففر احدهم من ظهر البيت وانكسرت رجله ، واقتحم الباقون النار فنجوا منها وكانوا مثلاً لغيرهم ، ولم يعد بإمكان احد بعد ذلك ان يتجاهر بعمل من هـذا النوع ، وكـان لهذه الشـدة اثرهـا في خذلان المنافقين .

واقبل ذوو اليسار ينفقون على تجهيز الجيش كل حسب استطاعته .

وجاء في بعض المؤلفات في السيرة عن عبد الرحمن بن سمرة انه قال : لقد قدم عثمان بن عفان للنبي (ص) ألف دينار مساهمة منه في تجهيز الجيش فصبها في كمه على حد تعبير الراوي ، فأخذ رسول الله يقلبها بيده ويقول ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

وقد وصف صاحب تاريخ الخميس هذا الحديث بالغرابة ، وروي عن قتادة ان عثمان حمل في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً ، كما روي ايضاً من حديث حذيفة انه قدم للنبي عشرة آلاف دينار فصبها بين يديه فجعل يقلبها ويقول : اللهم اغفر لعثمان ما قدم واخر وما اسر وما اعلن ما يبالي عثمان بما يفعل بعد اليوم .

لقد اختلفت الروايات حول ما قدمه عثمان في تلك الغـزوة وتضاربت مضامينها كما ذكرنا ، وكلها تنص على ان النبي قد قال : ما ضر عثمان ما يفعل بعد اليوم ، ومن المقرر عند علماء الدراية ان الاختلاف في مضامين الروايات من الأسباب الموجبة لتوهينها وعدم الاعتداد بها وقد وصف بعضها البكري في تاريخه بالغرابة .

هذا بالاضافة الى انها من المراسيل ، والارسال من عيوب الرواية كما هو مقرر في محله ، على انها قد اشتملت على ما يتنافى مع منطوق القرائن ، حيث جاء

فيها ان النبي قال : ما ضر عثمان ما يفعل بعد اليوم ، والقرآن يقول : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

ومن الجائز ان يكون عثمان قد ساهم في تسريح هذا الجيش كما ساهم غيره من المسلمين ، وقد جاء في اكثر المرويات ان النساء ساهمن بحليهن في هذه الغزوة وشاركن الرجال في ذلك .

فقد ورد في بعض المؤلفات في السيرة ان النساء قد اشتركن بكل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخيل واقراط وخواتيم .

وجاءه سبعة من فقراء المسلمين يلتمسون منه ان يهيء لهم ما يمكنهم من الخروج معه فاعتذر إليهم وقال لا اجد ما احملكم عليه فتولوا عنه واعينهم تفيض من الدمع فسماهم الناس بالبكائين وانزل الله على النبي الآيات الكريمة التي تضع حداً لمن يجب عليه الجهاد ومن يسقط عنه . فقال سبحانه : ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ الى قوله : ﴿ **ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ .

وجاء في تاريخ الطبري ان يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليل عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان ، فقال لهما ما يبكيكما ؟ فقالا لقد جئنا رسول الله (ص) فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحاً وزودهما بمقدار من التمر فخرجا مع النبي ، واتم النبي تجهيز جيش بلغ ثلاثين الفاً ، وقيل اربعين الفاً وقيل سبعين الفاً واتفق المؤرخون والمحدثون بأنه امر عليفا (ع) بأن يبقى في هذه الغزوة بالمدينة وهي الغزوة الوحيدة التي لم يشترك بها علي (ع) وقد تركه في المدينة خوفاً ان ينقض عليها المنافقون والاعراب ممن اسلموا خوفاً وطمعاً ، والنبي (ص) يعلم بأنه لا يصلح لهذه المهمة غيره .

ومما يؤكد ذلك ان الذين تخلفوا عنه من المنافقين والأعراب كانوا بمقدار من

خرج معه كما يبدو ذلك مما جاء في كتب السيرة من ان الذين تخلفوا مع عبد الله بن ابي ليسوا بأقل العسكرين على حد تعبيرهم .

وهب ان هذا العدد مبالغ فيه كما هو ليس ببعيد ، ولكن من المتيقن انهم كانوا عدداً كبيراً ، وبإمكانهم ان يعبثوا بالمدينة وخارجها اذا لم تكن ادارتها بيد شخص مرهوب الجانب لا يحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوة والمكانة وهذه الناحية لا تتوفر في غير علي بعد رسول الله (ص) .

وقيل انه استخلفه على اهله وشؤونه الخاصة ، واستخلف على ادارة شؤون المدينة سباع بن عرفطة الانصاري وقيل غيره .

ورجح منهم ابن عبد البر في الاستيعاب انه لم يستخلف على المدينة غير علي (ع) ويظهر ذلك من اليعقوبي في تاريخه حيث قال : واستخلف على المدينة علياً ولم يزد على ذلك .

وأكد ذلك الشيخ المفيد في ارشاده وغيره من محدثي الشيعة ، ولما سار النبي بالجيش ثقل على المنافقين بقاء علي في المدينة فقالوا ان محمداً لم يستخلفه في المدينة الا استثقالاً له وكرهاً به ، لأنهم كما يبدو قد صمموا على ان يعبثوا في المدينة خلال غيبة الرسول عنها ، ووجود علي فيها سيحول بينهم وبين ما عزموا عليه وخططوا له ، وظنوا انهم اذا أثاروه بمثل هذه الشائعات سيلحق بالرسول ويستعمل غيره ممن هو اضعف منه ولا يستطيع ان يحول بينهم وبين ما يضمرون .

ولما شاعت مقالتهم في المدينة وبلغت علياً (ع) اخذ سلاحه ولحق بالنبي وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله لقد زعم المنافقون بأنك انما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال له النبي (ص) كما جاء في رواية الطبري وابن هشام في سيرته وتاريخ ابي الفداء وغيره انما خلفتك لما ورائي ، وأضاف الى ذلك المفيد ان المدينة لا تصلح الا بي او بك فأنت خليفتي في اهل بيتي ودار هجرتي وقومي ، اما ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي .

والظاهر اتفاق المؤرخين والمحدثين على ان النبي (ص) قال لعلي : اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي كما يبدو ذلك بعد التتبع في الصحاح الستة وغيرها من مجاميع الحديث ، واضاف الى ذلك في مستدرك الصحيحين انه قال له : ان المدينة لا تصلح الا بي او بك ، وأضاف الى ذلك المحدث احمد بن حنبل في مسنده انه قال له : لا ينبغي ان اذهب الا وأنت خليفتي .

وجاء في فضائل الخمسة من الصحاح الستة ان الحديث مروي مع هذه الفقرة في الخصائص للنسائي ج٢ ص ٢٠٣ وفي الموافقات للحافظ ابي القاسم الدمشقي وفي مجمع الزوائد للهيثمي وغيرهم[١] .

ورجع علي الى المدينة بناء-لأمر النبي (ص) وكان ممن تخلف عنه جماعة منهم ابو الخيثمة احد بني سالم فقد جاء الى اهله بعد ان مضى رسول الله بأيام وعنده زوجتان فوجد كل واحدة منهما قد رشت عريشها وهيأت له الطعام والماء فوقف على باب العريشين ونظر الى زوجتيه والى ما صنعتا له ، وقال رسول الله في الضح والريح والحر وابو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء مقيم في ماله ما هذا بالنصف ، والله لا ادخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله فهيئا لي زاداً ففعلتا ، ولما اتم تجهيزه قدم ناضحه وحمل عليه زاده والتحق برسول الله (ص) وفي الطريق ادرك عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله فترافقا ولحقا رسول الله في تبوك .

ومضى رسول الله في طريقه وكان يتخلف عنه في الطريق جماعة ممن خرجوا معه من المدينة وكلما تخلف عنه شخص قال له اصحابه لقد تخلف فلان يا رسول الله ، فيقول دعوه فإن يكن به خير فسيلحقه الله بكم وان يكن غير ذلك فقد اراحكم الله منه .

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص ٢٩٩ وما بعدها .

ولما بلغ الحجر وبها اطلال لمنازل ثمود منقورة في الصخر ، هنالك امر رسول الله بالنزول واستقى الماء من بئر في ذلك المكان فلما خرج منها قال لهم : لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرجن احد منكم الليلة الا ومعه صاحب له ومن كان له بعير فليوثقه بعقاله ، ذلك ان المكان لم يكن احد يمر به وكانت تعصف فيه احياناً عواصف من الرمال فتطمر الناس والابل فخرج منهم رجلان من بني ساعدة خرج احدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له فاحتملت الريح احدهما وطمرت الآخر الرمال ووجدوا الرمال قد طمرت البئر ولم يبق فيها ماء ففزعوا من الظمأ في طريقهم الطويل .

وفي رواية ثانية انه لما مر بالحجر اسرع السير حتى جاوز الوادي والحجر ، وهو وادي قوم صالح وديارهم وهم ثمود الذين سكنوا ذلك الوادي وقال لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا الا وانتم باكون حتى لا يصيبكم ما اصابهم .

واضاف الى ذلك الراوي انه لما تجاوز الحجر اصبح ولا ماء معه ولا مع اصحابه وقد نزلوا على غير ماء فشكوا إليه العطش فاستقبل القبلة ودعا ولم يكن في السماء سحابة فما زال يدعو حتى اجتمعت السحب من كل ناحية فما برح من مكانه حتى نزل المطر وانكشفت السحب فسقى الناس وارتووا عن آخرهم وملأوا اسقيتهم ، فقال احد المسلمين لبعض المنافقين : ويحك ابعد هذا شيء ، وهل بقي عندك شيء من الريب ، فقال انما هي سحابة مارة ، وانطلق الجيش في طريقه الى تبوك ، وقبل وصولهم إليها نزلوا في مكان فضلت ناقة الرسول (ص) فخرج اصحابه في طلبها ، فقال زيد بن الصلت القينقاعي وكان من المنافقين : أليس محمد يزعم انه نبي يخبركم عن السماء وهو لا يدري الآن اين ناقته ، وعلم رسول الله بهذه المقالة عن طريق الوحي فقال وعنده عمارة بن حزم ، ان رجلاً قال : ان محمداً يخبركم عن السماء وهو لا يدري اين ناقته ، واني والله لا اعلم الا ما علمني ربي ، وقد دلني الآن عليها وهي في الوادي قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوا بها فذهبوا فوجدوها كما اخبر رسول الله .

ثم مضى رسـول الله وقصرت ببعض المسلمـين رواحلهم منهم ابـو ذر الغفاري ، فأخذ يعالج بعيره ليلحق بالجيش فلم تجده المحاولة فلما يئس اخذ متاعه عنه وحمله على ظهره وترك البعير في مكانه ، وجعل يجد السير ليلحق بالنبي (ص) فنظر احد المسلمين فوجد رجلاً مسرعاً يسير ليلحق بهم فأخبر رسول الله (ص) قال رحم الله ابا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده .

وفي رواية ثانية انه قال له : تعيش وحدك بدلاً من تمشي وحدك .

وصدق رسول الله (ص) حيث عاش ابو ذر وحده ومشى على طريق الحق مع القلة القليلة من اصحاب رسول الله وناهض حكم الطغاة والجبابرة ، ولما لم يجدوا سبيلاً الى إسكاته نفوه الى مفازة من الأرض خالية من السكان وبعيدة عن الناس حتى لا يتصل بأحد ، وظل فيها ما بقي من حياته ممنوعاً عن الاتصال بأي كان من الناس كما توعدوا كل من يحاول الاتصال به وليس معه الا زوجته وابنته واخيراً مات في ذلك المكان بعيداً عن جميع الناسّ ، ولولا ان يقيض الله له ركباً من الكوفة كانوا في طريقهم الى الحجاز فاستغاثت بهم زوجته واخبرتهم بمكانه وتبين ان فيهم من صحابة الرسول ممن عرفوه وسمعوا من الرسول ما كان يثني به عليه وحتى هذه المقالة التي قالها وهو في طريقه الى تبوك ويؤكد الشيخ حسين الديار بكري ان عبد الله بن مسعود كان معهم وحدث الركب بقول رسول الله كما نص على ذلك في كتابه تاريخ الخميس ولولا هذا الركب لم تجد زوجته سبيلاً لدفنه .

وسيبعث ابو ذر وحده كما قال رسول الله الصادق الأمين من بين عشرات الألوف من صحابة الرسول حاملاً لواء الحق الذي عذب من اجله واقصي من اجله ، وقد عرفنا لمحة من حياة ابي ذر عندما تحدثنا عن اسلامه في الفصول الأولى من هذا الكتاب .

ومع ان رسول الله (ص) كان حريصاً على ان لا يشترك معه المنافقون في هذه الغزوة وبخاصة بعد ان رجع ابن ابي سلول ، او بعد ان ارجعه النبي كما في بعض المرويات ، وكان عدد الذين عسكروا مع ابن ابي سلول لا يقل عن العسكر

الثاني كما ذكرنا ، ومع ذلك فلم يخل جيشه من المرتابين والمنافقين .

وحدث ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق ان رهطاً من المنافقين كانوا في جيش رسول الله منهم وديعة بن ثابت من بني عمرو بن عوف ومخشن من حمير من حلفاء سلمة وغيرهما كانوايشيرون الى رسول الله وهو منطلق الى تبوك ويقول بعضهم لبعض : اتحسبون ان جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الحبال ، يقولون ذلك تخويفاً وتخذيلاً للمسلمين ، واحس بعضهم بأن النبي سيعلم بمقالتهم وموقفهم عن طريق الوحي ، فقال وددت اني اقاضى على ان يضرب كل رجل منا مائة جلدة وانا نفلت من نزول القرآن فينا . وقبل ان يفشوا حديثهم بين الناس نزل الوحي على رسول الله فأخبره بمقالتهم ليتخذ الحيطة لما قد ينتج عن مقالتهم هذه ، فقال رسول الله لعمار بن ياسر رحمه الله : ادرك القوم يا عمار وسلهم عما قالوا فإن انكروا فقل لهم لقد قلتم كذا وكذا ، وانطلق عمار بن ياسر ولما سألهم عما كانوا يتحدثون به اسرعوا الى رسول الله يعتذرون اليه ، وتقدم وديعة واخذ بزمام ناقته وقال يا رسول الله لقد كنا نخوض ونلعب ولم نكن جادين في شيء قلناه فعفا عنهم النبي (ص) وانزل الله فيهم :

﴿ ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ (التوبة ٦٥) .

وقيل ان الآية نزلت في جماعة من المهاجرين والأنصار كانوا مع النبي في تبوك وهم اثنا عشر رجلاً وقد تعاقدوا وتعاهدوا على اغتيال النبي وهو راجع من تبوك ، وقال بعضهم لبعض اذا لم نقدر عليه وسألنا بماذا كنتم ؟ نقول له : كنا نخوض ونلعب الآية وتمامها **﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾** (التوبة ٦٥ ـ ٦٦) .

وجاء في بحار الأنوار عن كتاب دلائل النبوة للشيخ ابي بكر احمد البيهقي بسند ينتهي الى عروة بن الزبير انه قال لما رجع رسول الله قافلاً من تبوك الى المدينة

حتى إذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من اصحابه وتآمروا ان يطرحوه في العقبة وارادوا ان يسلكوها معه لهذه الغاية ، فأخبر رسول الله خبرهم ، فقال لأصحابه من شاء منكم ان يأخذ بطن الوادي فإنه اوسع لكم ، فأخذ النبي العقبة واخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين أرادوا المكر به ، فقد استعدوا وتلثموا وامر رسول الله حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وامر عماراً ان يأخذ بزمام الناقة وحذيفة يسوقها ، فبينما هم يسيرون اذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوهم فغضب رسول الله (ص) وامر حذيفة ان يراهم ويتعرف عليهم فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها بالمحجن وابصر القوم وهم متلثمون فأرعبوا حين ابصروا حذيفة وظنوا ان مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس . وأقبل حذيفة حتى ادرك رسول الله ، فلما ادركه قال اضرب الناقة يا حذيفة وامش انت يا عمار فأسرعوا وخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبي يا حذيفة هل عرفت احداً منهم ، فقال عرفت راحلة فلان وفلان ، وكانت ظلمة الليل قد غشيتهم وهم متلثمون ، فقال رسول الله هل عرفت ما شأنهم وما يريدون قال لا يا رسول الله ، قال فإنهم فكروا ان يسيروا معي حتى إذا صرت في العقبة طرحوني فيها ، فقال اهلا ترأف بهم إذا جاءك الناس ، قال اكره ان يتحدث الناس ويقولوا ان محمداً قتل اصحابه ، ثم سماهم بأسمائهم[1] .

وذكر قصة المؤامرة اليعقوبي في تاريخه بصورة مجملة وقال ان حذيفة كان يقول انه يعرفهم بأسمائهم .

وقبل ان يصل النبي بجيشه الى تبوك كانت اخباره قد بلغت الروم كما

---

(١) من المعلوم من سير الحوادث ان المسألة اذا كانت تتعلق بكبار الصحابة فلا ترد اسماؤهم صريحة فيها ، ويأتي التعبير عنهم بفلان وفلان ، وكل مورد من هذا القبيل فهو يعني جماعة يخاف الراوي من التصريح بأسمائهم ، اما اذا لم يكن الحادث مع الكبار من الصحابة فيأتي الاسم صريحاً كما يبدو ذلك للمتتبع وقد تحدثنا عن هذه الناحية خلال حديثنا عن غزوة احد .

بلغتها من قبل اخبار انتصاراته المتتالية في جميع المعارك التي دارت بينه وبين قريش وغيرها من القبائل العربية ، فتجسدت لديهم المخاطر وقدروا ان محمداً لو انتصر في هذه المعركة سوف لا يقف عند حد ، وستتبعها انتصارات اخرى ، وبالتالي قد تتعرض الامبراطورية الرومانية بكاملها لغزو هذا الجيش الذي زودته الانتصارات بكل اسباب القوة وذاق حلاوة النصر واصبح يفكر فيه وحينما يدخل المعركة لا يتصور غيره ، وفي الوقت ذاته كان الجندي المسلم لا يرى للحياة وزناً ما دام سينتقل منها الى حياة دائمة ونعيم دائم .

لقد عرف الرومان كل ذلك وتصوروا المخاطر التي يجرها الصدام مع هذا الجيش الذي يرى ان الجنة تحت ظلال الأسنة فهو ان حارب وقتل فله الجنة وان قتل فله الجنة فآثروا الانسحاب من مواقعهم التي كانوا عليها الى داخل بلادهم ليلتزموا حصونهم ويدافعوا عنها فيما لو تعرضت لغزو المسلمين .

ولما انتهى المسلمون الى تبوك وعلموا ان القوم قد انسحبوا منها الى داخل بلادهم نزلوا بها ينازلون من يحاول ان يقف في طريقهم .

وكان يوحنا بن رؤ بة صاحب ابلة من الأمراء المقيمين في تلك المنطقة فوجه اليه النبي رسالة يدعوه فيها الى الإسلام او إلى الجزية ، فجاءه يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب فقدم للنبي الطاعة والهدايا وصالحه على الجزية في كل سنة ثلاثمائة دينار كما صالحه اهل الجرباء واذرح[1] على الجزية وكتب بينه وبينهم كتباً تتضمن شروط الصلح بما يحفظ للمسلمين حقهم في الجزية والتجول في تلك المناطق آمنين على انفسهم واموالهم ويضمن لأصحاب تلك المناطق حرية العقيدة والعيش مع جيرانهم المسلمين بسلام واطمئنان .

واطمأن النبي بعد معاهدة تلك القبائل المتاخمة لحدود الحجاز ، ولم يبق

---

(١) الجرباء قرية تابعة لعمان واذرح بلد في اطراف بلاد الشام من نواحي البلقاء وعمان متاخمة لحدود الحجاز .

عليه الا اكيدر بن عبد الملك الكندي امير دومة ، فقد تخوف النبي ان يتعاون مع جيوش الروم فيما لو حاولوا غزو الحجاز من ناحيته ، فأرسل اليه خالد بن الوليد مع خمسمائة من فرسان المسلمين وقال له انك ستجده يصيد البقر ، وفيما كان خالد في طريقه إليه كان اكيدر على سطح له في ليلة مقمرة وبينما هو على سطح قصره واذا ببقر الوحش تحك باب قصره بقرونها ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا ، فقال لا والله ، ثم نزل من قصره وركب فرسه ومعه اخوه حسان ونفر من جماعته ، وفيما هم يطاردون بقر الوحش واذا بخالد بن الوليد يلتقي بهم وجهاً لوجه ، فوقع اكيدر اسيراً في ايدي المسلمين ، وحاول اخوه حسان ان يقاوم فقتل على الفور واخذ خالد اخاه اسيراً الى رسول الله ، وكان عليه حلة من ديباج مطرزة بالذهب فأخذها منه خالد وأرسلها الى رسول الله قبل قدومه عليه ، فلما رآها المسلمون جعلوا يلمسونها بأيديهم معجبين بها ، فقال لهم رسول الله أتعجبون من هذه ، فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة احسن من هذه .

ولما التحق خالد ومعه اكيدر بالنبي عرض عليه الاسـلام فأبى ان يسلم وصالحه على الجزية كما فعل مع غيره وكتب بينه وبينه عهداً وخلى سبيله .

وجاء في رواية ثانية ان خالد بن الوليد لما اسر اكيدر هدده بالقتل ان لم يفتح له ابواب دومة ففتح اهل المدينة ابوابها خوفاً على اسيرهم ، فساق خالد منها الفي بعير وثمانمائة شاة واربعمائة وسق من الحنطة واربعمائة درع وذهب بها ومعه اكيدر الى رسول الله فأسلم اكيدر ورجع داعياً الى الاسلام .

ورجع النبي (ص) الى المدينة بعد ان اقام بتبوك قرابة عشرين يومـاً لم يقاتل احداً وغنموا ما كان في دومة كما جاء في الرواية السابقة ، وحقق المسلمون انتصاراً قد يكون في معناه انفع للمسلمين من انتصاراتهم في بدر وحنين وغيرهما ، ذلك ان خطر تلك الدولة الكبرى المتاخمة لحدود الحجاز والتي ترتبط بعض قبائلها بقبائل الحجاز كان من اشد الأخطار .

ومن الصعب ان يستتب الأمن وتهدأ الحال في الحجاز ما دامت تلك الدولة

ترى ان هذا التبدل الذي حدث في الحجاز من اقصاه الى اقصاه اذا استتب واستقر يشكل خطراً عليها ، فحشدت جيوشها على الحدود لغزو الحجاز ، ولما بلغ النبي خبرهم تحرك من المدينة في ثلاثين الفاً او اكثر من ذلك ، وحينما بلغتهم اخباره استولى عليهم الخوف فانسحبوا الى داخل حصونهم واعتصموا بها خوفاً من ذلك الجيش الزاحف بقيادة محمد بن عبد الله (ص) ، وحينما بلغ تبوك لم يجد غير سكان المنطقة فنزلوا على شروطه وعاهدوه ان لا يتعاونوا مع احد عليه ، ولا يتخذوا من بلادهم مركزاً للعدوان على اراضي الحجاز ، وبذلك يكون النبي قد حقق في هذه الغزوة انتصاراً لم تحققه غزوة من غزواته ، فلقد انهار ذلك الجيش الذي يبلغ مائتي الف او يزيد وانسحب عن خط المواجهة الى حصونه ومعسكراته وسلمت للمسلمين تلك المناطق المتاخمة لحدود الحجاز بعد ان التزم اهلها بالجزية وعاهدوا النبي على ان لا يتعاونوا مع احد ضده .

ولكن اكثر المسلمين لم يدركوا تلك النتائج التي حققتها تلك الغزوة ولم يقيموا لها وزناً ، وجعل جماعة من المنافقين يهزأون مما تم فيها ، لأنها لم تدر عليهم ربحاً مادياً كبقية الغزوات ولم تحقق لهم الأهداف التي كانوا يحلمون بها .

وجاءه جماعة ممن تخلف عنه يعتذرون اليه فلم يقبل معذرتهم ، وبدأ يتشدد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل ، وتبين له بعد ان عسكر ابن ابي فيهم ولم يكونوا بأقل مما كان معه كما جاء في رواية ابن هشام وابن سعد وغيرهما ، تبين له ان التساهل معهم يشجعهم على الفساد وبث الفوضى في صفوف المسلمين .

وجاء القرآن الكريم ليطلعه على كثير من اخبارهم وتصرفاتهم ويحذره مكرهم ووساوسهم ويأمره ان لا يستعين بهم في حرب اعدائه وان لا يقبل لهم معذرة فقال سبحانه في سورة التوبة :

﴿ فإن رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابداً ولن تقاتلوا معي عدواً انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ (التوبة ٨٣) .

﴿ ولا تصلّ على احد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (التوبة ٨٤) ، وجاء فيها ايضاً .

﴿ يعتذرون إليكم اذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من اخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (التوبة ٩٤) .

﴿ سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ (التوبة ٩٥) .

الى كثير من الآيات التي تعرضت لحالهم ووصفتهم بواقعهم ، ومن اجل ان سورة التوبة تعرضت للمنافقين واعمالهم ونواياهم التي كانوا يبيتونها ضد الاسلام والمسلمين سميت الفاضحة .

ومن المنافقين الذين تستروا بالاسلام منذ السنين الأولى لدخول النبي (ص) الى المدينة ابو حبيبة بن الازعر ، وثعلبة بن حاطب وهلال بن امية ومعتب بن قشير ووديعة بن ثابت وعباد بن حنيف وهؤلاء مع جماعة غيرهم عددهم في مجمع البيان اثني عشر رجلاً قد اشتركوا في بناء المسجد الذي نهى الله رسوله عن الصلاة فيه وسماه مسجد ضرار كما جاء في الآيات ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ من سورة التوبة .

مسجد ضرار

وجـاء في مجمع البيان وغيره ان بني عمرو بن عوف قد بنوا مسجد قباء وطلبوا من النبي ان يصلي فيه فجاءهم النبي (ص) وصلى فيه واصبح المسجد مركزاً للاجتماع والنظر فيما يعود على المسلمين بالخير ، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف كما ذكرنا وعزموا على ان يبنوا مسجداً في مقابله كي

لا يحضروا مع جماعة المسلمين الذين اخلصوا في اسلامهم وكانوا اثني عشر رجلاً وقيل اكثر من ذلك ، فلما اتموا بناءه جاؤ وا الى رسول الله وكان يتجهز الى تبوك كما جاء في بعض كتب التفسير والسيرة فقالوا يا رسول الله لقد بنينا مسجداً لذوي العلة والحاجة والليلة المطرة وانا نحب ان تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال لهم اني على جناح سفر فاذا رجعنا نصلي فيه ان شاء الله ، فلما رجع النبي من تبوك وأراد ان يصلي فيه نزلت الآيات من سورة التوبة بشأنه :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ (التوبة ١٠٧) .

﴿ لا تقم فيه ابداً لمسجد أسس على التقوى من اول يوم احق ان تقوم فيه ، فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ (التوبة ١٠٨) .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وكان احد المنافقين وهو ابو عامر الراهب قد امرهم ببناء هذا المسجد ، وقد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، فلما دخل النبي المدينة كان يشاغب عليه ، وبعد أن فتح النبي مكة التجأ ابو عامر الى الطائف ، ولما أسلم اهل الطائف التحق ببلاد الشام وتنصر ، وقد أرسل الى المنافقين ان يتموا بناء المسجد ويجدوا في امرهم ووعدهم بأنه سيذهب الى قيصر ويحرضه على إرسال جيش قوي الى المدينة للقضاء على محمد ومن معه من المسلمين ، فكان المنافقون يتوقعون ذلك ، ولكنه هلك قبل ان يتصل بملك الروم وأراح الله العباد والبلاد منه .

ولما نزل الوحي على النبي وقص عليه حديث هذا المسجد امر النبي (ص) بهدمه وإحراقه وأمرهم ان يتخذوا محله مكاناً للأوساخ والنفايات .

وجاء في رواية الكافي عن ابي عبد الله الصادق (ع) ان الحلبي سأله عن

المسجد الذي أسس على التقوى فقال هو مسجد قباء الذي بناه بنو عوف ويقع في جنوب المدينة على ميلين منها .

وقيل ان المسجد الذي اسس على التقوى من أول يوم هو مسجد رسول الله (ص) الذي شرع في بنائه حين دخوله المدينة واشترك في العمل به مع وجوه الأنصار والمهاجرين .

﴿ فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ .

ان هذا المسجد الذي اسس من اول يوم قد أسس لله وللخير الناس وللعبادة ، لا للفساد والنفاق والتآمر على المسلمين كمسجد هؤلاء المتظاهرين بالاسلام الذين أرادوا ان يتخذوا المسجد قاعدة ينطلقون منها الى التخريب والإساءة الى الاسلام والمسلمين .

ومجمل القول ان المساجد التي تبنى اليوم وقبل اليوم لأغراض لا تمت الى الدين بصلة من الصلات لا فرق بينها وبين المسجد الذي بني في مطلع فجر الإسلام للاضرار بالمسلمين والتفرقة بينهم والدس على الاسلام ، وقد امر النبي بهدمه وإحراقه .

ولم يكن موقف النبي من مسجد ضرار الذي تحدث عنه القرآن الا كتخطيط إسلامي للأهداف التي يجب ان تبنى لأجلها المساجد وغيرها من المشاريع العامة التي توجد في كل زمان ، هذه المساجد والمشاريع يجب ان تكون لله لا للشيطان وللخير لا للشر ، ولتأليف الناس وجمعهم على الحق والهدى ، لا للبغضاء والنفاق والمظاهر الفارغة التي لا تخدم الدين والانسانية .

والذين يتظاهرون بالدين ويتاجرون بالمشاريع او بناء الجوامع لأغراض تخدم اعداء الدين ويتخذون منها منطلقاً للمؤامرة على الاسلام والمسلمين هؤلاء أضر وشر من ابي عامر الراهب ، وإذا وجدوا من يناصرهم من الأبرياء او ممن يلتقون معهم في الهدف والغاية كما وجد ابو عامر الراهب من منافقي المدينة

واليهود من ناصره فسوف ينكشفون على واقعهم ان عاجلاً ام آجلاً ولا يجدون من الله سبحانه إلا جزاء ما كسبت ايديهم وانطوت عليه ضمائرهم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

وفاة عبد الله بن ابي

لقد كان عبد الله شيخ المنافقين وكبيرهم ومرجعهم في الشدائد والملمات ومع انه كان من اشد المنافقين عداءً للنبي وللاسلام وحليفاً لليهود وناصراً لكل من يقوم بعمل يسيء الى الاسلام ، فقد كان النبي (ص) يوصي المسلمين بأن لا يمسه احد بسوء إكراماً لولده الذي صدق ما عاهد الله عليه ، ولما توفي بعد رجوع النبي (ص) من تبوك بشهرين تقريباً شيعه الى قبره مع المشيعين وصلى على جنازته كما جاء في كتب السيرة ، في حين انهم يدعون بأن عمر بن الخطاب قد نهاه عن الصلاة عليه ، وأضافوا الى ذلك انه لما تقدم للصلاة على جنازته حاول ان ينحيه عنها ولكنه لم يلتفت اليه ، مع العلم بأن النصوص التي تصرح بأن النبي قد صلى عليه ليست بالمستوى الذي تطمئن اليه النفس وإذا صح ذلك فلا بد وان يكون مأموراً من الله لمصلحة تقتضي ذلك .

اما الأحاديث التي تقول بأن عمر بن الخطاب قد نهاه واخذ يشده بثوبه لينحيه عن الجنازة وهو مشغول بالصلاة عليها هذه الاحاديث ليس من المستبعد فيها ان تكون من الموضوعات التي دسها المنافقون في سيرة النبي لينطلقوا منها الى ان عمر بن الخطاب كان يسيطر على النبي (ص) احياناً ويكيفه كما يريد ، ويتدخل حتى في شؤون التشريع كتدخله المزعوم في الصلاة على عبد الله بن ابي ، وفي حجاب النساء وزوجات النبي وقصة الأذان التي ذكرناها في الفصول السابقة وغير ذلك مما هو موجود في مطاوي كتب التاريخ والسيرة .

وإذا صح انه أراد ان يمنع النبي من الصلاة عليه وشده بثوبه ليصرفه عنها فإن ذلك يدل على سوء تصرفه وعدم اطمئنانه لأفعال النبي وتصرفـاته ، والله سبحانه يقول :﴿ ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ، فمن نسبوا اليه انه كان يعارض النبي (ص) ويقترح عليه بعض ما يتعلق بأمور التشريع فقد أساؤوا اليه من حيث لا يقصدون .

اسلام عمرو بن معد يكرب الزبيدي

لقـــد جاء في الارشاد للشيخ المفيد ان النبي لما رجع من تبوك وفد عليه عمرو بن معد يكرب فقال له النبي : اسلم يا عمرو يؤمنك الله من الفزع الأكبر قال يا محمد : وما الفزع الأكبر ، فاني لا افزع فقال يا عمرو : انه ليس كما تظن وتحسب ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر ولا حي الا مات إلا ما شاء الله ، ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات ويصعقون جميعاً وتنشق السماء وتهد الأرض هدّاً وتخر الجبال وترمي النار بشرر كالجبال فلا يبقى ذو روح الا انخلع قلبه وذكر ذنبه واشتغل بنفسه إلا ما شاء الله ، فأين انت يا عمرو من هذا ، فقال : ألا واني أسمع اليوم امراً عظيماً ، ثم اسلم هو ومن معه ورجعوا الى قومهم مسلمين .

ثم ان عمرو بن معد يكرب نظر يوماً الى ابي بن عثعث الخثعمي فـأخذ برقبته وجاء به الى رسول الله (ص) وقال له اقدني على هذا الفاجر الذي قتل والدي يا رسول الله فقال له النبي (ص) لقد أهدر الاسلام ما كان في الجاهلية فانصرف عمرو وارتد عن الاسلام وأغار على قوم من بني الحارث بن كعب ومضى الى قومه ولما بلغ النبي (ص) الخبر استدعى علياً وأرسله مع جماعة من المهاجرين الى بني زبيد عشيرة عمرو بن معد يكرب ، وأرسل خالد بن الوليد في طائفة من الأعراب الى بني جعفي ، وأوصاه إذا التقى بعلي (ع) ان يكون علي هو الآمر على

الناس كلهم فخرج علي بن ابي طالب باتجاه بني زبيد واستعمل على مقدمته خالد بن سعيد بن العاص ، واستعمل خالد على مقدمته ابا موسى الأشعري واتجه الى بني جعفي ، ولما سمع بنو جعفي بالجيش افترقوا فريقين فرقة ذهبت باتجاه اليمن ، وانضمت الأخرى الى بني زبيد ، ولما بلغ ذلك علياً (ع) كتب الى خالد بن الوليد ان قف حيث ادركك رسولي ، فلم يتوقف فكتب علي الى خالد بن سعيد ان يعترضه ويحبسه عن السير ، فاعترضه خالد وحبسه عن السير ولما التحق علي بهما انضما اليه وسار بالمسلمين حتى لقي بني زبيد وكانوا قد تجمعوا بواد يقال له كسر ، فلما رآه بنو زبيد قالوا لعمرو ، كيف انت يا ابا ثور اذا لقيك هذا الغلام القرشي فأخذ منك الأتاوة ، قال سيعلم اذا لقيني .

ولما اقترب الفريقان بعضهم من بعض خرج عمرو بن معد يكرب يطلب البراز فخرج اليه علي (ع) وقام خالد بن سعيد وطلب من علي ان يأذن له بمبارزته فأبى عليه علي وارجعه ، ثم برز الى عمرو وصاح به صيحة هزته وارتعد منها ثم انهزم من بين يديه وقتل اخوه وابن اخيه قتلهما علي (ع) ، واسر المسلمون زوجته ركانة بنت سلامة ونسوة معها من بني زبيد ليقبض صدقاتهم ويعلمهم احكام الإسلام ، وبعد انتهاء المعركة رجع عمرو الى خالد بن سعيد وعاد الى الإسلام فرد عليه زوجته وولده حيث كانوا مع الأسرى ، وذهب له عمرو سيفه المعروف بالصمصامة وأضاف الى ذلك المفيد في إرشاده ان علياً قد اصطفى لنفسه جارية من بني زبيد ، فبعث خالد بن الوليد بريدة الأسلمي الى النبي (ص) وامره ان يسرع ليدخل المدينة قبل دخول الجيش ويخبر النبي بالجارية التي اصطفاها علي لنفسه .

ولما بلغ بريدة باب الرسول التقى بعمر بن الخطاب فسأله عما تم لهم في هذه الغزوة ، فأخبره بنتائجها وبالجارية التي اصطفاها علي بن ابي طالب لنفسه فحثه عمر بن الخطاب على ابلاغ النبي (ص) ، ودخل بريدة على النبي (ص) ومعه كتاب من خالد وأخبره حينما ناوله الكتاب بما صنع علي (ع) وقال له : انك ان رخصت للناس في مثل هذا ذهب فيئهم ، فتغير النبي (ص) وبدت عليه

علائم الانفعال ، وقال ويحك يا بريدة لقد احدثت نفاقاً ، ان علي بن ابي طالب يحل له من الفيء ما يحل لي وانه لخير الناس لك ولقومك ، وخير من أخلف بعدي لكافة امتي .

يا بريدة احذر ان تبغض علياً فيبغضك الله ، وأضاف الى ذلك الراوي ان بريدة قال عند ذلك : فتمنيت ان الأرض قد انشقت وابتلعتني ، وقلت اعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله استغفر لي يا رسول الله فلن ابغض علياً ولا أقول فيه الا خيراً فاستغفر له النبي ودعا له بالخير .

وقد ذكر ابن هشام وغيره وفادة عمرو بن معد يكرب على النبي واسلامه مع جماعة من قومه وانه بقي على اسلامه حتى ارتد بعد وفاة رسول الله ، ولم يرووفادته عليه بالشكل الذي رواه المفيد احد من المؤلفين في السيرة على ان ما ورد في رواية المفيد من ان علياً قد اصطفى لنفسه جارية من سبي بني زبيد لم تؤكده النصوص التاريخية .

وفي اكثر المرويات انه لم يستبدل بسيدة النساء امرأة غيرها بأي نحو كان وظلت هي الزوجة الوحيدة لا يعرف غيرها من النساء الى ان توفيت كما كان رسول الله مع امها خديجة الكبرى .

غزوة ذات السلاسل

ذكـــر هذه الغزوة ابن جرير الطبري وابن هشام وغيرهما في حوادث السنة الثامنة لهجرة النبي (ص) ولم يرد فيها ذكر لعلي بن ابي طالب (ع) .

وجاء في ما ذكره الطبري حولها ان النبي (ص) ارسل عمرو بن العاص الى ارض بَلى وعَذْرة يستنفر الناس لغزو الشام واختار لهذه المهمة ابن العاص لأن جدته ام العاص كانت من تلك المنطقة .

وخرج عمرو بن العاص بمن معه حتى بلغ ماء بأرض جذام يقال له السلاسل وبعث الى النبي يطلب منه المدد ، فبعث رسول الله ابا عبيدة بن الجراح في جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم ابو بكر وعمر بن الخطاب ، وقال لأبي عبيدة لا تختلفا ، ولما انتهى ابو عبيدة الى المكان الذي فيه عمرو بن العاص ، قال له عمرو ، انا الأمير على الناس فلم يخالفه ابو عبيدة .

وفي سيرة ابن هشام ان النبي بعث عمرو بن العاص في ثلاثمائة من المقاتلين الى بني قضاعة وكان قد بلغه انهم يحاولون مهاجمة اطراف المدينة ، ولما بلغته كثرتهم بعث الى النبي يستمده فأمده بأبي عبيدة في مائتين من المهاجرين والأنصار .

ومحصل ما جاء في الارشاد حول هذه الغزوة ان اعرابياً جاء يخبر النبي (ص) ان قوماً من العرب قد اجتمعوا بوادي الرمل واتفقوا على ان يبيتوك بالمدينة ووصفهم له فأرسل إليهم ابا بكر في جماعة من المسلمين ومضى حتى قارب ارضهم وكانت كثيرة الأحجار والقوم يقيمون في بطن الوادي ، فلما انتهى بمن معه الى الوادي خرجوا اليه وقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم بمن معه ، فلما دخل المدينة أرسل النبي (ص) عمر بن الخطاب فكان نصيبه نصيب صاحبه ، ثم ارسل عمرو بن العاص فمثل نفس الدور الذي مثله صاحباه ، واخيراً لم يجد بداً من ارسال علي (ع) فأرسله في جماعة فيهم ابو بكر وعمر وعمرو بن العاص وغيرهم من المهاجرين والأنصار وخرج معهم الى خارج المدينة فودعه ودعا له ومضى علي (ع) بمن معه متجهاً نحو العراق فظن من معه انه يريد غيرهم ومضى على غير الطريق المؤدية اليهم ، ثم انحرف نحوهم واستقبل الوادي الذي فيه القوم وكان يسير ليلاً ويكمن نهاراً .

فلما اقترب من الوادي لم يشك ابن العاص ان الفتح سيكون على يده ، فجاء الى ابي بكر وقال له انا اعلم بهذه الأرض من علي بن أبي طالب وفيها من الضباع والذئاب ما هو اشد علينا من بني سليم ، فإن خرجت علينا قطعتنا فكلمه

لعله يتركنا نعلو الوادي ، فجاءه ابر بكر يعرض عليه الفكرة فلم يلتفت اليه علي (ع) ، ثم جاءه عمر فلم يلتفت اليه ، وبقي امير المؤمنين مرابطاً في مكانه حتى الفجر ثم هاجم القوم على غفلة منهم فأمكنه الله من السيطرة عليهم وقتل سبعة من أبطالهم الأشداء وتم الفتح على يده .

ونزلت على النبي (ص) سورة العاديات بهذه المناسبة فبشر النبي اصحابه بالفتح وامرهم ان يستقبلوا علياً ، ولما انصرف علي عنهم راجعاً الى المدينة ومعه الغنائم والأسرى واصبح قريباً منها رأى النبي (ص) مقبلاً عليه ومعه المسلمون ، فترجل عن فرسه ، فقال له النبي اركب : فان الله ورسوله عنك راضيان ، فبكى امير المؤمنين فرحاً ، فقال له النبي (ص) يا علي : لولا اني اشفق ان تقول فيك طوائف من امتي ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك مقالة لا تمر على ملأ من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك .

في هذه الغزوة يقول السيد الحميري :

وفي ذات السلاسل من سليم	غداة اتاهم الموت المبير
وقد هزموا أبا حفص وعمراً	وصاحبه مراراً فاستطيروا
وقد قتلوا من الأنصار رهطاً	فحل النذر او وجبت نذور
ازار الموت مشيخة ضخاماً	جحاجحة تسد بها الثغور

وجاء في مجمع البيان للطبرسي عن ابي عبد الله الصادق (ع) ان سورة العاديات نزلت لما بعث النبي (ص) علياً الى ذات السلاسل فأوقع بهم ، بعد ان بعث غيره من الصحابة ورجعوا خائبين ، ولما نزلت على النبي خرج الى الناس يصلي بهم الغداة فقرأ السورة في صلاته ، فلما فرغ قال المسلمون ان هذه السورة لم نعرفها ، فقال رسول الله نعم ان علياً ظفر بأعداء الله وبشرني جبريل بذلك هذه الليلة فقدم علي بعد ايام بالغنائم والأسرى .

وجاء في سبب تسمية هذه الغزوة بذات السلاسل هو ان علياً بعد ان تغلب

عليهم وقتل منهم جماعة شد الأسرى في الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل .

وقيل بأن السلاسل اسم لماء في ذلك المكان ، وقيل ان المشركين ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل حتى لا يفروا من القتال .

ويدعي الأمين في اعيان الشيعة ان الذين ذكروا هذه الغزوة بهذا النحو كل من الراوندي في الخرائج وعلي بن ابراهيم في تفسيره والزجاج ومقاتل ووكيع الثوري والسدي وعد جماعة غير هؤلاء .

سرية علي بن ابي طالب الى طيء

وإسلام عدي بن حاتم

لقد ذكر اكثر المؤلفين في السيرة غزوة المسلمين لبلاد طيء ، ورجوع المسلمين من تلك الغزوة ومعهم بين السبي سفانة بنت حاتم الطائي ، وفرار اخيها عدي بن حاتم الى بلاد الشام ، ورجوعه منها الى المدينة وإسلامه ، ولم يذكروا قائد تلك السرية وعدد الجيش الذي ارسله النبي (ص) في تلك الغزوة .

وجاء في بعضها انه ارسل علياً في سرية لبلادطيءقوامها مائة وخمسون رجلاً ليهدم صنماً كانوا يقدسونه في مكان يدعى الفلس ، فخرج بمن معه في ربيع الثاني من السنة التاسعة للهجرة ومضى علي يقود تلك السرية حتى قارب بعض الأحياء العربية الموالية لطيء ، ومع تباشير الفجر مضى بمن معه الى احياءطيءوشن عليهم هجوماً مفاجئاً فمزق شملهم وقتل جماعة منهم واسر بعضهم وفر الباقون واستولى على بعض مواشيهم وهدم الصنم الذي كانوا يلوذون به واخرج من خزانته ثلاثة سيوف وثلاثة دروع وفر زعيمهم عدي بن حاتم الى بلاد الشام ، ورجع علي

بالسبي والغنائم الى المدينة ، وكانت سفانة بنت حاتم معهم ، فأنزل السبي في حظيرة الى جانب المسجد قد اعدت لهذه الغاية .

ومر النبي بالأسرى وهن في تلك الحظيرة فقامت اليه سفانة وكانت ذات عقل ووقار وقالت يا رسول الله : هلك الوالد وغاب الرافد ، فقال من رافدك ، قالت عدي بن حاتم ، فقال الفار من الله ورسوله ومضى .

ومر في اليوم الثاني فأشار اليها علي ان تكلمه فكلمته وكان مما قالت له كما جاء في بعض المؤلفات في السيرة : يا محمد ان رأيت ان تخلي عني ولا تشمت بنا احياء العرب فاني ابنة سيدهم ، وكان ابي يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويفشي السلام بين الناس فامنن علينا منّ الله عليك ، فقال قد فعلت ، فلا تعجلي حتى تجدي ثقة يبلغك بلادك ، واذا اردت الذهاب آذنيني ، وبقيت عنده معززة مكرمة حتى اذا جاء وفدطيء اخبرته ان لها فيهم ثقة واطمئناناً فكساها وحملها على بعير واعطاها من النفقة ما يسد حاجتها فلما رأت عطاءه قالت : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر واصاب الله ببرك مواضعه ولا جعل لك الى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم الا وجعلك سبباً لردها عليه .

وجاء في سيرة ابن هشام والطبري ان سفانة بعد رجوعها الى طيء شدت الرحال الى اخيها بالشام ، فلما وقعت عليه اخذت تلومه وتندد به وتقول : يا قاطع يا ظالم احتملت اهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك ، فقال لها قولي ما تشائين فوالله ما لي من عذر .

ثم قالت له ارى والله ان تلحق بمحمد سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً ، فلسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن وانت انت فتركت هذه النصيحة من سفانة المعروفة بحسن الرأي وسلامة التفكير اثراً طيباً في نفس اخيها ، وشد الرحال من فوره الى النبي (ص) .

وحدث عنه المؤرخون انه قال : دخلت على النبي وهو في المسجد فلما

سلمت عليه وعرفته بنفسي قام وانطلق بي الى بيته ، فوالله وهو عامد بي اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته طويلاً فوقف لها تكلمه في حاجتها ، فقلت في نفسي والله ما هذا بملك ، ثم مضى بي الى بيته فتناول وسادة من ادم محشوة ليفاً فقذفها إلي وقال اجلس عليها ، قلت بل اجلس انت عليها فأبى علي ذلك فجلست عليها وجلس هو على الأرض فعدت الى نفسي وقلت ما هكذا تصنع الملوك .

ثم قال ايه يا عدي بن حاتم الم تكن ركوسياً[1] ؟ قلت بلى ، قال الم تكن تسير في قومك بالمرباع قلت بلى قال ان ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، قلت اجل والله وعلمت انه نبي مرسل يعلم ما يُجهل ، ثم قال لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .

ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ما تراه من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف احداً ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان في غيرهم .

وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم ، هذا وعدي بن حاتم صامت لا يتكلم ، ولكنه كان شارد الفكر يفكر في الملوك والأمراء والكهان والسحرة وفي جميع من استطاع ان يستعرضهم في ذهنه في تلك اللحظات فلم يجد لمحمد شبهاً بأحد منهم ولا تفسيراً لما رآه وما سمعه منه غير النبوة التي تسيرها ارادة الله وتمدها بما لا طاقة لأحد عليه ، فأسرع الى الإسلام وأخلص في إسلامه ، عن قناعة لا شبهة فيها لا كإسلام اصحاب المطامع والجبناء الذين انضموا الى الاسلام بعد ما عجزوا عن قهره ، واخذو يعملون في الستار ليضربوا الراية التي يتحركون تحتها حين يحين الوقت ، بل كان من دعائم الاسلام طيلة حياته .

---

(١) الركوسي من الركوسية وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

وروى الرواة عنه انه كان يقول : ما دخل وقت صلاة قط إلا وانا مشتاق اليها وما اقيمت الصلاة منذ اسلمت الا وانا على وضوء .

واتفق المؤلفون في سيرة الرسول ان الوفود توالت عليه بعد رجوعه من تبوك وكان من بين من وفد عليه جماعة من قضاعة فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي فخرج بهم حتى ادخلهم على رسول الله وهو جالس بين اصحابه فرحب بهم ، فقال رويفع : يا رسول الله لقد قدموا وافدين عليك مقرين بالاسلام وهم على من وراءهم من قومهم ، فقال النبي (ص) من يرد الله به خيراً يهده للاسلام .

ثم تقدم شيخ الوفد ابو الضبيب فجلس بين يدي النبي وقال يا رسول الله : انا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد انك نبي من عند الله ونخلع ما كنا نعبد وآباؤ نا فدعا لهم رسول الله وردهم الى بلادهم بعد ان علمهم اصول الاسلام وشيئاً من احكامه واجازهم كما كان يصنع مع اكثر الوفود .

ووفد عليه بنو تميم وعلى رأسهم حاجب بن زرارة بن عدس وفيهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم وغيرهم من وجوه تميم فدخلوا المسجد ونادوا النبي ان اخرج إلينا لنفاخرك وقد اشرنا الى هذا الوفد فيما تقدم عند الحديث عن سرية عيينة بن حصن الى بني العنبر احد افخاذ تميم .

وفد حمير وكتاب رسول الله اليهم

وأرسل اليه ملوك حمير كتاباً مع جماعة باسلامهم ، كما بعث اليه زرعة بن ذي يزن مالك بن مرة الرهاوي باسلامهم فكتب لهم رسول الله كتاباً جاء فيه من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان ذي رُعيني ومعافر وهمدان .

اما بعد فاني احمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو فقد ورد علينا رسولكم عائدين من أرض الروم وبلغ ما أرسلتم به وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم من المغانم خمس الله وسهم رسوله ، ثم بين لهم الرسول في كتابه إليهم كما جاء في سيرة ابن هشام وغيرها ما تجب فيه الزكاة ومقدارها في ناتج الأرض وفي الابل والبقر والشياه .

ومضى يقول : انها فريضة من فرائض الله على عباده فمن أداها وظاهر المسلمين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته او نصرانيته ، فانه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حال ذكراً كان او انثى حراً او عبداً ديناراً او قيمته من ثياب اليمن ، ومن منعها فانه عدو لله ولرسوله .

ثم ارسل لهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة .

وكتب الى زرعة بن ذي يزن ان يجمعوا ما عندهم من الصدقة والجزية ويدفعوها الى رسله هؤلاء وكان اميرهم معاذب بن جبل ، وأضاف في كتابه الى زرعة بن ذي يزن ان رسولك مالك بن مرة قد حدثني انك كنت السابق الى الاسلام من حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولا تخونوا ولا تتخاذلوا ، فإن رسول الله هو ولي غنيكم وفقيركم ، وان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وانما هي لفقراء المسلمين وابن السبيل واوصاه بالوفد خيراً .

وتوالت الوفود على رسول الله من جميع الجهات لتعتنق الاسلام والنبي يستقبل كل وفد منها ويرحب به ويعلمهم الاسلام احياناً بنفسه واحياناً يأمر احداً من اصحابه ليتولى هذه الناحية ويكتب لهم كتباً تتضمن اكثر احكام الاسلام ، كما حدث لعمرو بن حزم حين بعثه مع وفد بني الحارث بن كعب ، ولمعاذ بن جبل وغيره ممن كان يرسلهم مع الوفود الى بلادهم ، وظلت الوفود طيلة ما بقي من السنة التاسعة تتوافد عليه مترامية على الإسلام مقرة بالطاعة تعطيه العهود

والمواثيق ان لا تخون ولا تنحرف ولا تتعاون مع اعداء الاسلام ، وكان لغزوة تبوك هذا الدفع السريع حيث تأكد العرب ان تلك الحشود الهائلة التي تزيد على مائتي الف مقاتل قد استبد بها الخوف والرعب وانسحبت عن حدود الحجاز بعد ان كان هرقل قد اعدها لمهاجمة المسلمين في بلادهم وحتى في عاصمتهم اذا اقتضى الأمر ، ولكنها بدلاً من ذلك تراجعت الى معاقلها وحصونها في اواسط البلاد تاركة حدود بلادها المتاخمة لحدود الحجاز فريسة للمسلمين يفرضون عليها سلطتهم وسلطانهم من غير ان يكلفهم ذلك قطرة من الدم .

كما ترك هذا الانسحاب نفس الأثر في نفوس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان وغيرها فأقبلوا على الاسلام وأخذوا يتوافدون على المدينة ليعلنوا عن طاعتهم واسلامهم وينتظموا في وحدة اسلامية شاملة تستظل بعلم الاسلام وتخلصهم من تحكم الفرس والرومان .

وجاء في كتب السيرة ان بني سعد بن بكر ارسلوا ضمام بن ثعلبة الى رسول الله (ص) لينظر لهم ما عنده فشد الرحال ومضى في طريقه الى المدينة فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ودخل على رسول الله وهو جالس بين اصحابه وكان رجلاً جلداً ذا غديرتين فأقبل على من في المسجد وقال : ايكم ابن عبد المطلب ، فقال رسول الله انا ابن عبد المطلب ، قال أمحمدانت قال نعم قال يا ابن عبد المطلب اني سائلك وملح عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك علي فقال له النبي (ص) سل عما بدا لك قال: انشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله بعثك الينا رسولاً؟ قال: اللهم نعم، قال فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك الله امرك ان نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وان نخلع هذه الانداد التي كان آباؤ نا يعبدونها؟ قال اللهم نعم، قال انشدك الله إلهك وإله من كان قبلك الله امرك ان تصلي الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم، ثم جعل يعدد عليه الفرائض فريضة فريضة ويناشده عند كل فريضة بالله والنبي يقول له نعم ولم يترك شيئاً فرضه الاسلام إلا وناشده بالله فيه، ولما انتهى من عدادها قال: اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله، واشهد الله على نفسه بأنه سيؤدي جميع ما فرضه

الاسلام وينتهي عن كل ما نهى عنه، ثم خرج من المسجد واطلق عقال بعيره وخرج من المدينة متجهاً الى قومه، ولما انتهى اليهم اجتمعوا عليه فكان اول ما تكلم به معهم ان قال بئست اللات والعزى، فقال مه يا ضمام: اتق البرص والجذام والجنون، وكانوا يعتقدون بأن من أهانهما يبتلى بأحد هذه الأمراض.

فقال لهم ضمام ويلكم انهما والله لا يضران ولا ينفعان ، ان الله قد بعث رسولاً وانزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني اشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما امركم به وما نهاكم عنه ، فما امسى ذلك اليوم حتى اسلم كل من حضره من الرجال والنساء .

الى كثير من امثال هؤلاء الذين توافدوا عليه يعلنون عن اسلامهم وايمانهم برسالته ومبادئها ولم يبق من يناوىء الاسلام الا افراد قلائل كان يستولي عليهم الغرور فيشذون عن قبائلهم امثال عامر بن الطفيل وأربد من بني عامر بن صعصعة ، ومسيلمة الكذاب من بني حنيفة وغيرهم .

فقد حدث المؤلفون في سيرة الرسول ان وفداً من بني عامر بن صعصعة جاؤوا الى المدينة ليعلنوا اسلام قومهم ، وكان مع الوفد ثلاثة يضمرون الشرك حضروا معهم بقصد اغتيال محمد بن عبد الله (ص) .

وكان قوم عامر بن الطفيل قد قالوا له من قبل : انْ الناس قد اسلموا كما اسلم قومك ، فقال لهم والله لقد آليت الا انتهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفأنا أتتبع عقب هذا الفتى من قريش ، فلما توجه مع الوفد قال لأربد اذا قدمت على الرجل فإني شاغل عنك وجهه فاذا رأيتني فعلت ذلك فاضربه بالسيف فلما قدموا على رسول الله دخل عليه الوفد وفيهم عامر وأربد ، فقال له عامر خالني اي تفرد بي حتى اكلمك ، فقال النبي (ص) لا والله حتى تؤمن بالله وحده ، وجعل يكرر حديثه مع الرسول وهو يأمل من أربد ان ينفذ ما تواعدا عليه ، وأريد لا يدري كيف يصنع ، ولما يئس من أربد قال للنبي (ص) : والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال رسول الله اللهم اكفني عامر بن الطفيل .

ولما انصرفا عن النبي (ص) قال عامر لأربد ويلك يا أربد اين ما كنت اوصيتك به ، والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو اخوف على نفسي عندي منك ، وايم الله لا اخافك بعد اليوم ابداً ، فقال له أربد لا تعجل علي لا أبا لك والله ما هممت بالذي امرتني به مرة الا ورأيتك دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف ، وفيما هم في طريقهم ليلاً يسيرون وإذا بعامر بن الطفيل يصاب بالطاعون في عنقه فعجز عن المسير والتجأ الى بيت امرأة من سلول فمات فيه وهو يردد يا ابن عامر اغدة كغدة البعير وموتة في بيت سلولية ، فدفنه اصحابه وانصرفوا .

ولما انتهوا الى قومهم قال بنو عامر لأربد : ما وراءك يا أربد قال لا شيء والله لقد دعانا الى عبادة شيء لوددت انه عندي الآن فأرميه بنبلي هذه حتى اقتله ، فخرج بعد مقالته هذه بيومين ومعه جمل يريد بيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما ولكن عناد عامر بن الطفيل وأربد بن قيس لم يمنع قومهما من الدخول في الاسلام والانضواء تحت لوائه .

مسيلمة بن حبيب المعروف بالكذاب

لقد كان مسيلمة من اولئك الذين استبد بهم الجهل والغرور فقد جاء الى المدينة مع وفد بني حنيفة ودخلوا على النبي وهم يسترونه بالثياب ، والنبي جالس وبيده عسيب من سعف النخل له في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى رسول الله (ص) كلمه وسأله ، فقال له رسول الله والله لو سألتني هذا العسيب ما اعطيتكه .

وجاء في رواية ابن اسحاق عن شيخ من بني ضبعة ان بني حنيفة لما وفدوا على رسول الله خلفوا مسيلمة في رحالهم ، فلما اسلموا ذكروا مكانه وقالوا يا

رسول الله : انا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله بمثل ما امر به للقوم وقال انه ليس بشركم مكاناً ، يعني بذلك انه قد حفظ لكم امتعتكم ، فلما رجعوا الى اليمامة ادعى بأنه شريك مع النبي في الرسالة ، وقال لأصحابه ان محمداً لم يقل لكم بأني لست بشركم مكاناً الا لعلمه بأني شريك له في الأمر وجعل يسجع لقومه ويتكلم بكلمات يدعي انه يضاهي بها القرآن ، ومن امثلة كلامه لقد انعم الله على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشاً .

وجاء في البداية والنهاية انه جاء رجل الى عبد الله بن مسعود ، فقال له اني مررت ببعض مساجد بني حنيفة وهم يقرؤ ون قراءة ما انزلها الله على محمد بن عبد الله قال وما سمعتهم يقولون ؟ قال سمعتهم يقولون والطاحنات طحنا والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً واللاقمات لقماً ، فأرسل إليهم عبد الله بن مسعود وهم سبعون رجلاً ، وعلى رأسهم عبد الله بن النواحة فأمر بعبد الله فقتل .

وجاء في تاريخ الطبري انه كتب الى النبي كتاباً قال فيه من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله سلام عليك وبعد فاني شريكك في الأمر وان لنا نصف الأرض ولقريش النصف وارسله مع رسولين ، فلما قدما على النبي (ص) بكتاب مسيلمة قال لهما ما تقولان انتما : قالا نقول كما قال ، فقال لهما النبي (ص) لولا ان الرسل لا تقتل لضربت عنقيكما ، ثم كتب الى مسيلمة من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

اما ما عدا هؤلاء وامثالهم من المغرورين ، فقد اقبلوا على الإسلام من مختلف انحاء الجزيرة وعلى رأس وفودهم رجال اعزاء في قومهم تاركين عبادة الأوثان ، فقابلهم بالترحاب وبكل حفاوة واعزاز مما زادهم تعلقاً به واقبالاً على الاسلام ، واصبح القسم الأكبر من شبه الجزيرة لا يعرف ديناً غير الإسلام ، وتم

اكثر ذلك بعد غزوة تبوك طواعية واختياراً من غير ان تزهق نفس او تراق قطرة دم .

ولا أرى من حاجة لتعداد تلك الوفود كما فعل اكثر المؤلفين في السيرة من المؤرخين القدامى لتشابه امرهم ودوافعهم في الغالب .

وفاة ابراهيم ابن النبي (ص)

في اواخـــر السنة التـاسعة من الهجـرة والنبي تغمر قلبـه الفـرحـة بانتصاراته على الشرك والوثنية حتى اخرج قومه من ظلمات الجهل الى نور الهداية وجمعهم تحت لواء الإسلام اخوة تشد بعضهم الى بعض روابط اوثق من رابطة العرق والدم ، واصبحوا يتطلعون الى ما وراء شبه الجزيرة بعد ان اطمأنوا على مصير الإسلام فيها .

هذا الجو الذي كان النبي يعيش فيه وفي الأشهر الأخيرة من السنة التاسعة وولده ابراهيم قد دخل في النصف الأول من عامه الثاني وملامح النبي تزهر على قسماته وتزداد وضوحاً على مرور الأيام ، والنبي يحنو عليه ويداعبه ويرتاح الى حركاته ونموه السريع .

وما ان دخل في الشهر السابع عشر على اشهر الروايات حتى دب فيه الداء واشتد عليه واصبح يهدد حياته فنقله الى نخل بجوار مشربة امه مارية وقامت على تمريضه هي واختها سيرين ومعهما حاضنته ام سيف ، وزادت وطأة الداء عليه حتى دخل في دور الاحتضار .

وبلغ خبره النبي فأسرع إليه وهو يجود بنفسـه في حجرامـه فأخـذه منها ووضعه في حجره وارتسمت علائم الحزن في وجهه ، ثم قال : انا يا ابراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً ، ولما فاضت نفس ابراهيم ذرفت عيناه بالدموع وقال :

يا ابراهيم لولا انه امر لا بد منه وان آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك بأشد من هذا وانهمرت عيناه بالدموع وهو يقول : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يغضب الله وإنا يا ابراهيم عليك لمحزونون .

واراد بعض اصحابه ان يخفف عنه من وقع المصاب فلم يجدوا بداً الا ان يذكروه بما نهى عنه فقالوا يا رسول الله : أولست قد نهيتنا عن هذا ، فقال ما عن الحزن نهيت ولكني نهيت عن رفع الصوت بالبكاء ، وان ما ترون بي من آثار ما في القلب من محبة ورحمة .

وغسلته ام بردة وحمله على سرير صغير ومعه جماعة من المسلمين الى البقيع ، ودفنه حيث يدفن الموتى من المسلمين .

وصادف ان الشمس قد كسفت في ذلك اليوم ، فقال بعض المسلمين : ان ذلك لموت ابراهيم وتهامس بعض الناس بذلك ، وادرك النبي ان السكوت عن مثل هذه الخواطر التي قد تشيع وتنتشر وربما تصبح عقيدة تنتقل بين الناس جيلاً بعد جيل يسيء الى الاسلام ، لأن للكواكب نظاماً دقيقاً يسير على قواعد ثابتة لا يمكن ان تنحرف عن نظامها ولا عن خطها ولو قدر ذلك تتعرض جميع الكائنات للدمار والخراب فلم يترك النبي (ص) مجالاً لاشاعة هذه الخاطرة ولا للتفكير في شيء من هذا النوع ، فقال للمسلمين : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت احد من الناس مهما بلغ من العظمة ولا تستقيمان لحياته ، فاذا رأيتم مثل ذلك فافزعوا الى الله بالصلاة والدعاء .

سورة براءة

ولما جاء شهر ذي الحجة من السنة التاسعة ونزلت الآيات الأولى من سورة براءة أرسل النبي (ص) ابا بكر ليحج بالناس ، والمشركون لا يزالون يشاركون المسلمين في اداء الفريضة فيجتمع في الموسم من يؤمن بالله ومن يؤمن بالجبت والطاغوت ومضى ابو بكر بمن معه من المسلمين ليشرف على الحج في ذلك العام حتى انتهى الى ذي الحليفة وهو الميقات المعروف بمسجد الشجرة في يومنا هذا ، وفيما هو يسير بمن معه واذا بالوحي ينزل على النبي ويأمره بأن يرسل علياً مكان ابي بكر وقال له لا يؤديها الا انت او رجل منك ، فأرسل النبي (ص) علياً وامره ان يأخذ الآيات من ابي بكر ويؤديها بنفسه فلحقه علي وهو بذي الحليفة فأخذها منه ورجع ابو بكر الى المدينة خائفاً ان يكون قد نزل فيه ما يغضب النبي (ص) فقال يا رسول الله انزل في شيء فقال النبي لا ولكني امرت ان ابلغها انا او رجل مني ، ومضى علي (ع) حتى بلغ مكة فقرأ على الناس الآيات الأولى من سورة براءة في اليوم العاشر من ذي الحجة كما جاء في رواية ابن كثير في البداية والنهاية ، ونادى في الناس ان لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ولا يطوف في البيت عريان ، ولا تدخل الجنة الا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده الى مدته .

وفي رواية ثانية انه تلا عليهم من سورة براءة حتى بلغ قوله تعالى :

﴿ انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾

ثم أعاد عليهم القول لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن في البيت

عـريـان ومن كـان بينـه وبـين رسـول الله عهـد فـأجله الى مـدتـه ، وأصغى المشـركون الى هـذا القرار بقلوب تـرتعد من الخـوف ويسعـرهـا الحقـد ، ثم رجعوا الى انفسهم وتلاوموا وقال بعضهم لبعض : مـا تصنعون وقـد اسلمت قـريش واكثر العـرب فـأسلم اكثـرهم قبـل نهايـة الأشهـر الأربعـة وجـاء في المستـدرك للحاكم بسنـده الى ابن عباس ان رسـول الله بعث ابا بكـر وامـره ان يحج بالناس وينادي فيهم بهذه الكلمات ، ثم اتبعه علياً وحمله على نـاقته فبينا ابو بكر ببعض الطريق اذ سمع رغاء نـاقة رسـول الله فخرج فـزعاً وهـو يـظنه رسـول الله واذا هو عـلي فأخـذهـا ورجـع الى رسـول الله وقـال لـه لا يؤديها الا انا او رجل مني .

ومضى علي الى مكة فبلغ ما امره رسـول الله وروى حديث بـراءة بهذا النحـو النسـائي بسنـده الى سعـد بن عبـادة كـما رواهـــا بسنـده الى انس بن مالك .

وجاء في البداية والنهايـة عن الامام احمـد بسنده الى أنس بن مـالك ان رسـول الله بعث بـراءة مع أبي بكـر ، فلما بلغ ذي الحليفـة ، قـال النبي لا يبلغهـا الا انا او رجـل من اهل بيتي فـأرسـل علياً واخـذهـا من ابي بكـر ، واضـاف الى ذلك ان التـرمذي رواه بسنـده الى حماد بن سلمـة ، وفي مسنـد الامام احمد ان النبي (ص) قال : لا يذهب بها الا رجل مني وأنا منه .

ويبـدو ان حديث ارسـال علي ببـراءة وقول النبي لا يؤديهـا الا انـا او رجل مني وانا منه متفق عليه بين محدثي الشيعة والسنة[1] .

ولكن الخـلاف الواقـع بينهم هو ان النبي هـل ارسل ابـا بكر مـع علي بمهمة يتولاهـا غيرالمهمـة التي اختص بها علياً ، او انه رجـع من الطريق ولم يذهب لمكة في ذلك العام وتولى جميع المهمات علي بن ابي طالب (ع) .

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٤٣ وما بعدها .

فالشيعة وبعض محدثي السنة يقولون بأن جميع المهمات تركها النبي (ص) لعلي ، واكثر السنة يذهبون الى ان ابا بكر قد اوكل إليه النبي امر الحج بالناس في تلك السنة ومهمة علي كانت تبليغ براءة والمواد الأربعة التي ذكرناها وافهام الناس مضامين الآيات من براءة كما امره رسول الله .

سرية علي بن ابي طالب الى اليمن

لقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد ان النبي ارسل علياً الى اليمن مرتين المرة الأولى كانت في السنة الثامنة والظاهر انها كانت لهمدان ، وكان قد ارسل اليهم خالد بن الوليد فمكث نحواً من ستة اشهر يدعوهم الى الإسلام ، فلم يجيبوه ، فأرسل اليهم علي بن ابي طالب ، وقال البراءة بن عازب ، فلما دنونا من القوم خرجوا الينا وصلى بنا علي (ع) ثم صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم من القوم وقرأ عليهم كتاب رسول الله فأسلمت همدان بكاملها فكتب الى النبي بإسلامهم .

والثانية كانت في شهر رمضان من السنة العاشرة ارسله الى مذجح في ثلاثمائة فارس وعقد له اللواء وعممه بيده وأوصاه أن لا يقاتلهم الا إذا قاتلوه .

وأضاف الى ذلك بعض المؤلفين في السيرة انه قال له : ادعهم الى قول لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن اجابوك فأمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ، والله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس او غربت .

وجاء في البداية والنهاية عن علي (ع) انه قال : بعثني النبي (ص)

الى اليمن فقلت يا رسول الله تبعثني الى قوم وانا حديث السن لا ابصر القضاء فوضع يده على صدري وقال اللهم ثبت لسانه واهد قلبه ، ثم قال اذا جاءك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر فانك اذا فعلت ذلك تبين لك القضاء ، قال علي (ع) : والله ما شككت في قضاء بين اثنين .

وقال ابن سعد في طبقاته ان علياً دخل اليمن في ثلاثمائة فارس وكانت اول خيل دخلت الى بلاد مذحج ففرق اصحابه فأسروا وغنموا من احيائهم ثم لقي جمعهم فدعاهم الى الإسلام فأبوا عليه ورموا المسلمين بالنبل والحجارة فصف اصحابه ثم حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلا فتفرقوا وانهزموا فتركهم ثم دعاهم الى الاسلام ثانية فأجابوه لذلك وبايعه نفر من رؤسائهم وقالوا له نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله .

ثم ان علياً جمع الغنائم فأخرج منها الخمس وقسم الباقي على اصحابه ورجع وصادف ان النبي قد خرج للحج في تلك السنة فالتقى به في مكة .

وفي سيرة ابن هشام ان النبي (ص) قبل خروجه من المدينة الى مكة في حجة الوداع ارسل علياً الى نجران مع جماعة من المسلمين ليأخذ منهم ما وقع عليه الاتفاق بين وفدهم وبين النبي ، وبلغه ان النبي قد توجه الى مكة لأداء فريضة الحج وفي الطريق تعجل السير الى مكة واستخلف على الجيش الذي كان معه رجلا منهم فعمد ذلك الرجل واعطى كل رجل حلة من الغنائم يتجمل بها ، وقبل ان يدخل الجيش مكة استقبلهم علي (ع) ووجدهم يلبسون الحلل فقال للقائد ويلك ما هذا : قال لقد كسوتهم ليتجملوا بها اذا قدموا على الناس فانتزعها منهم علي (ع) وردها الى الغنائم ، فاشتكى الناس منه ، فلما سمع رسول الله قال : ايها الناس لا تشتكوا علياً فوالله انه لأخشن في ذات الله من ان يشتكى منه .

وجاء في البداية والنهاية عن ابي بريدة انه قال : لقد كنت ابغض علياً بغضاً لم ابغضه احداً قط ، واحببت رجلاً من قريش لم احبه إلا على بغضه علياً فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته لأنه يبغض علياً فأصبنا سبياً فكتب الى رسول الله ان ابعث الينا من يخمسه ، فبعث علياً وفي السبي وصيفة من افضل السبي ، فخمس السبي وقسم الباقي ثم خرج علينا ورأسه يقطر ماءً فقلنا ما هذا يا ابا الحسن ، فقال الم تروا الى الوصيفة التي كانت في السبي فإنها صارت في الخمس ثم صارت في آل بيت النبي ، فكتب الرجل الى رسول الله بذلك فقلت له ابعثني مصدقاً لكتابك .

ولما قدمت على رسول الله جعلت أقرأ الكتاب واقول صدق يا رسول الله ، فأمسك رسول الله يدي والكتاب ، ثم قال اتبغض علياً قلت نعم ، قال فلا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حباً ، فوالذي نفسي بيده لنصيب آل علي في الخمس اكثر وافضل من الوصيفة .

كما روى ابن كثير في بدايته عن ابن اسحاق عن ابان بن صالح بسنده الى عمرو بن شاس الأسلمي انه قال كنت مع علي بن ابي طالب في خيله التي بعثه بها رسول الله الى اليمن فجفاني علي بعض الجفاء فوجدت في نفسي عليه فلما قدمت المدينة شكوته في مجالس المدينة وعند من لقيته ، فأقبلت يوماً ورسول الله جالس في المسجد ، فلما رآني انظر الى عينيه نظر الي حتى جلست إليه ، فقال إيه والله يا عمرو بن شاس لقد آذيتني ، فقلت إنا لله وإنا اليه راجعون اعوذ بالله والاسلام من ان أؤذي رسول الله ، فقال من آذى علياً فقد آذاني .

وقد نقل المؤلفون في السيرة خبر الجارية التي اصطفاها علي لنفسه عن ابي بريدة في غزوة بني زبيد ، وقد ابدينا بعض الملاحظات حولها في ذلك المقام .

ومن الجائز ان يكون خالد بن الوليد او غيره من المهاجرين قد كلف ابا بريدة بأن يشوش على علي بهذا النوع او بغيره طمعاً في ان يتغير موقف النبي من علي (ع) وكانت النتيجة عكس ما كانوا يأملون كما اكدت ذلك رواية البداية والنهاية عن عمرو بن شاس ، وجاء جواب النبي (ص) صدمة عنيفة له ولأولئك الذين كانوا يخططون بهذه الدسائس لما وراء ذلك اليوم .

وعلى اي الأحوال فلقد اتم علي مهمته في اليمن وتأهب للرجوع بمن معه من المسلمين الى مكة حيث بلغه ان النبي (ص) سيتوجه من المدينة لأداء فريضة الحج في تلك السنة ، وترك علي في اليمن معاذ بن جبل يعلمهم الأحكام ويفقههم في دين الله .

الفصل الثالث والعشرون

حجة الوداع

بحلول شهر ذي القعدة من السنة العاشرة اعلن النبي (ص) عن عزمه على زيارة مكة لأداء فريضة الحج حسبما انزلها الله سبحانه عليه ، وما كاد نبأ هذه الرحلة ينتشر في المدينة وخارجها وفي جميع انحاء شبه الجزيرة حتى اقبل الناس على المدينة يهرعون اليها من المدن والقرى والصحارى ومن كل بقعة دخلها الإسلام وانضوى اهلها تحت لوائه ، وضربت الخيام لعشرات الألوف من الناس .

وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة تحرك موكب الرسول تحيط به تلك الألوف التي يعددها بعض المؤرخين بتسعين الفاً والبعض الآخر بما يزيد على المائة الف يحدوهم الايمان وتملأ قلوبهم الغبطة الصادقة بهذا اللقاء الذي لم يشهد تاريخ العرب نظيراً له من قبل ، انه لقاء بين عرب الجزيرة من جهاتها الأربع تجمعهم راية واحدة واهداف واحدة يرددون نفس الكلمات التي تؤدي معنى الرسالة التي دعاهم اليها محمد بن عبد الله وحارب من اجلها ، لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لك لبيك لبيك لا شريك لك لبيك .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان حج النبي في ذلك العام يقال له حج البلاغ وحج الاسلام وحج الوداع ، لأنه لم يحج منذ هاجر من مكة الا تلك السنة وقبلَ هجرته حج مرتين او ثلاثاً واعتمر بعد هجرته مرتين الأولى في العام الذي تلا عام الحديبية ، والثانية في السنة التي فتح فيها مكة ، فقد رجع اليها معتمراً من الجعرانة بعد غزوة حنين وحصار الطائف .

وسميت حجة البلاغ لأنه بلغ فيها احكام الاسلام ما يتعلق بالحج وغيره ، وقال في خطاب القاه بمكة : ما من شيء يقربكم من الله الا وقد امرتكم به وما من شيء يبعدكم عنه الا وقد نهيتكم عنه ، وسماها اكثر المحدثين بحجة الوداع لأنه لم يحج بعدها وقد ودع فيها الناس والمح اليهم بدنو اجله ، وكان مما قاله لهم : ايها الناس يوشك ان ادعى فأجيب .

قال الشيخ المفيد في ارشاده لما اراد رسول الله التوجه الى مكة لأداء ما فرض الله تعالى عليه دعا الناس للخروج معه الى مكة فتجهز الناس من جميع البلاد التي دخلها الاسلام للخروج معه فاجتمع في المدينة خلق كثير فخرج بهم يوم الخميس وقيل يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة ، وكان عدد من خرج معه يتراوح بين اربعين الفاً ومائة وعشرين الفاً على اختلاف الروايات في ذلك عدا من حج معه من اهالي مكة وضواحيها واليمن وغيرها ، واخرج معه نساءه التسع وابنته فاطمة الزهراء (ع) واعد لكل واحدة منهن هودجاً تختص به ، واستعمل على المدينة سماك بن خرشة الساعدي المعروف بأبي دجانة الأنصاري ، وقيل سباع بن عرفطة الغفاري ، وكان خروجه بعد ان صلى الظهر اربع ركعات ، وفي ذي الحليفة صلى العصر ركعتين وبات فيها .

وفي الارشاد ان النبي (ص) قبل خروجه الى مكة بأيام كتب الى علي (ع) وكان قد ارسله في جماعة الى اليمن كما ذكرنا ليوافيه في مكة حاجاً ، ولم يذكر له نوع الحج الذي عزم عليه وخرج (ص) قارناً للحج

بسياق الهدي واحرم حن من الحليفة واحرم الناس معه ولبى من عند الميل الذي بالبيداء وانطلق الركب بعشرات الوفه يقطع البيداء ما بين مدينة الرسول وبيت الله الحرام يرفعون اصواتهم بالتلبية حتى انتهى الى كراع الغميم ، والناس معه ركباناً ومشاة فشق المسير على المشاة واجهدهم فشكوا ذلك اليه وطلبوا منه ما يحملهم عليه ، فأعلمهم انه لا يجد لهم ظهراً وامرهم ان يشدوا على اوساطهم ويخلطوا الرمل بالنسل ، اي يسرعوا تارة مع التقارب في خطاهم ، ويمشوا بخطاً هي بين العدو والمشي تارة اخرى .

وجاء في السيرة الحلبية ان جمل عائشة كان قوياً وسريع الخطا وحمله خفيف ، وجمل صفية كان بطيء السير وحمله كان ثقيلاً مما دعا الركب ان يتأخر في سيره مجاراة لصفية ، فأمر النبي (ص) في بعض المنازل ان يضعوا حمل صفية على جمل عائشة وحمل عائشة على جمل صفية ، فقال النبي لعائشة يا ام عبد الله ان حملك خفيف وجملك سريع وحمل صفية ثقيل وجملها بطيء ، فأبطأ ذلك بالركب فنقلنا حملك على جملها وحملها على جملك ، فقالت له انك تزعم انك رسول الله فقال لها أفي ذلك شك عندك يا ام عبد الله فقالت له فما لك لا تعدل فسمعها ابوها ابو بكر فلطمها على وجهها فلامه رسول الله فقال اما سمعت ما قالت ، فقال دعها فإنها المرأة الغيراء لا تعرف اعلى الوادي من اسفله .

وفي الإرشاد ان علياً (ع) خرج من اليمن بمن معه من الجيش متجهاً الى مكة ليحج مع النبي في عامه هذا ومعه الحلل التي استلمها من نجران فلما كان قريباً من مكة من جهة اليمن ترك من معه من الجيش واستعمل عليهم رجلاً منهم واسرع ليلتقي بالنبي قبل دخول مكة فأدركه وقد اشرف على دخولها فسلم عليه وأخبره بما صنع وبما معه من الغنائم والحلل فسر رسول الله بذلك وابتهج بلقائه وقال له : بم اهللت ، فقال له يا رسول انك لم تكتب الي باهلالك ولا عرفته فعقدت نيتي بنيتك ، وقلت

اللهم اهلالاً كإهلال نبيك وسقت معي من البدن اربعاً وثلاثين بدَنه ، فقال رسول الله : الله اكبر قد سقت انا ستاً وستين وانت شريكي في حجي ومناسكي وهديي فأقم على احرامك وعد الى جيشك فعجل بهم حتى نجتمع بمكة .

ولكن رواية ابن هشام تنص على ان رسول الله قال له : هل معك من هدي فقال لا فأشركه في هديه وبقي على احرامه حتى فرغا من الحج ونحر رسول الله الهدي عنهما .

ولعل ذلك من جهة ان الهدي الذي ساقه معه من اليمن قد وصل حينما نحر رسول الله كما جمع بينهما الحلبي في سيرته بذلك .

ومهما يكن الحال فالروايات متفقة على ان علياً حج بحج رسول الله ، وبما ان حج القران لا يتعين الا اذا ساق معه الهدي فلا بد من احد الأمرين ، إما ان يكون علي (ع) قد ساق معه الهدي كما جاء في الرواية الأولى او يكون النبي قد اشركه معه في هديه ، وقد ذكرنا في الصفحات السابقة حديث الحلل التي وزعت على الجيش بعد ان فارقه علي (ع) ليلتقي بالنبي قبل دخوله مكة وكيف استرجعها علي من الجيش وشكاياتهم ذلك الى النبي وجواب النبي لهم .

ونص المحدثون والمؤلفون في السيرة ان النبي (ص) قبل دخوله مكة بأصحابه نادى مناديه في الناس من لم يسق منكم معه هدياً فليحل من احرامه بعد الطواف والسعي والتقصير ويجعلها عمرة ، ثم يحرم للحج عند خروجه الى عرفات ، ومن ساق معه الهدي يبقى على احرامه الى تمام مناسك الحج ، وكانت قد نزلت عليه الآية ﴿ **واتموا الحج والعمرة لله** ﴾ ، فقال دخلت العمرة بالحج الى يوم القيامة وشبك اصابع يديه على الأخرى ثم قال لو استقبلت من امري ما استدبرت ما سقت الهدي ، اي لو كنت اعلم حين احرمت ما علمته اليوم من ان من ساق الهدي ليس له ان يحج

حج تمتع بل عليه ان يحج حج قران ما سقت الهدي ، بل كنت احرمت بغير هدي ليكون حجي حج تمتع لأنه افضل من حج القران .

وقد ذكر الفقهاء ثلاثة اقسام للحج افراد وقران وتمتع ، فالافراد والقران فرض اهل مكة والقريب منها والفرق بينهما ان الافراد هو الإحرام للحج المؤلف من الوقوف على عرفات والمزدلفة ومنى والنحر ورمي الجمار والطواف والسعي ، والقران هو ان يحرم الحاج للعمرة والحج في اشهر الحج فياتي بالعمرة اولاً ويبقى محرماً لأعمال الحج بحيث يكون الحج والعمرة باحرام واحد وعليه مع ذلك ان يسوق معه الهدي للتمتع ، فاذا لم يكن قد ساق معه الهدي ، فله ان يحل من احرامه بعد الطواف والسعي والتقصير ، ثم يجدد الإحرام للحج حين ذهابه الى عرفات ، وهذا هو الذي امر النبي به المسلمين ، فأطاع في ذلك بعضهم وخالف آخرون ، وقال جماعة من المسلمين : رسول الله اشعث اغبر ونحن نلبس الثياب ونقرب النساء ، وقال فريق منهم : ألا تستحون تخرجون ورؤوسكم تقطر من النسل ورسول الله على احرامه ، فأنكر رسول الله على من خالف ، وقال لولا اني سقت الهدي لأحللت وجعلتها عمرة فمن لم يسق الهدي فليحل فرجع قوم واقام آخرون على الخلاف .

وجاء عن النسائي في سننه عن البراء بن عازب انه قال كنت مع علي بن ابي طالب حين امره رسول الله على اليمن ، فلما قدم على النبي (ص) قال قال لي رسول الله كيف صنعت قلت له اهللت باهلالك ، فقال اني سقت الهدي وقرنت ، وقال لأصحابه : لو استقبلت من امري كما استدبرت لفعلت كما فعلتم ولكن سقت الهدي وقرنت .

وجاء في صحيح مسلم عن عائشة انها قالت قدم رسول الله مكة لأربع مضين من ذي الحجة فدخل علي وهو غضبان ، فقلت من اغضبك يا رسول الله ادخله الله النار ، قال اوشعرت اني امرت الناس بأمر فاذا هم

يترددون لو اني استقبلت من امري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتى اشتريه واحل كما احلوا .

والتمتع في حج القران الذي امرهم النبي به لمن قرن في النية ولم يسق معه الهدي هذا التمتع الذي امر به رسول الله هو احدى المتعتين اللتين حرمهما عمر بن الخطاب وتوعد من فعلهما بالعقاب كما جاء في الحديث الشائع عنه ، متعتان كانتا على عهد رسول الله انا احرمهما واعاقب عليهما وهما متعة الحج التي امر بها النبي لمن كان فرضه القران ومتعة النساء التي اباحها الاسلام واستمرت بين المسلمين بعد وفاة الرسول وقد نص على تشريعها القرآن ووردت بها احاديث تكاد ان تبلغ حدود التواتر ، ولكنه على عادته كان يقف احياناً ويتصلب برأيه إذا استحسن شيئاً في مقابل النبي ونصوص القرآن ، وموقفه في الحديبية اكبر شاهد على ذلك .

وعلى اي الأحوال فلقد دخل النبي مكة في اليوم الخامس من ذي الحجة من كداء وضرب خيامه بالابطح ومضى حتى انتهى الى باب شيبة وهو المعروف بباب السلام فدخل المسجد وطاف بالبيت سبعة اشواط ثم صلى خلف مقام ابراهيم وسعى بين الصفا والمروة بمن معه من المسلمين .

وجاء في رواية البداية والنهاية انه لما دنا من الصفا قرأ: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾ وبدأ السعي من الصفا ووقف في اعلاه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة ووحد الله وكبره وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله انجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه في الوادي فسعى الى المروة فرقي عليها حتى نظر الى البيت فوحد الله وكبره كما صنع على الصفا وهكذا كان يصنع والناس بين يديه ومن ورائه يتزاحمون حتى اتم السعي ومضى الى بيته وهو على احرامه .

وقبل خروجه من مكة الى عرفات خطب الناس في المسجد ووعظهم

وبيّن لهم بعض الأحكام التي تتعلق بالحج وغيره ومضى في اليوم الثامن الى عرفة ومر في طريقه إليها على منى فنزل فيها .

وقبيل الفجر من اليوم التاسع خرج منها الى عرفات فنزل بها بقية يومه ، وقال كل عرفة موقف الا بطن عرنة ، فلما كان وقت الظهر امر بناقته القصواء فرحلت له وركبها ووقف في وسط تلك الجموع المحتشدة وخطب الناس ، وقال بعد ان حمد الله واثنى عليه نضر الله وجه عبد سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم بلغها من لم يسمعها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم اخلاص العمل لله والنصيحة لأئمة الحق ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم محيطة من ورائهم ، ثم قال : ايها الناس اعلموا ان دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم كحرمة شهركم هذا وبلدكم هذا ويومكم هذا .

ثم انه بقي بعرفات حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة من ناحية المشرق عند ذلك ركب ناقته ومضى حتى اتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء باذان واقامتين ، ولم يفصل بينها وبات فيها ، فلما اصبح افاض منها قبل طلوع الشمس ، فلما اجتاز الوادي نزل ومضى فرمى جمرة العقبة ونحر الهدي .

وجاء في السيرة الحلبية انه قال : منى كلها منحر فنحر بيده ثلاثة وستين ونحر علي (ع) بيده سبعة وثلاثين تمام المائة ، وامر ان يقسم لحومها بين الناس ، كما امره ان يأخذ من كل بدنة قطعة ، فأخذ منها كلها ثم طبخت واكل منها هو ومن معه ، وحلق رأسه في ذلك اليوم ، ولما فرغ من اعمال ذلك اليوم ركب بمن معه من المسلمين الى مكة فطاف بالبيت وقيل انه صلى فيه الظهر ، ثم جاء الى زمزم وبنو عبد المطلب يستقون من مائها فتناول دلواً وشرب منه وافرغ الباقي عليه .

وجاء في اكثر المؤلفات في السيرة انه خطب الناس يوم النحر خطاباً جامعاً قال فيه بعد ان حمد الله واثنى عليه بما هو اهله ، نعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله اوصيكم عباد الله بتقوى الله وطاعته .

اما بعد ايها الناس اسمعوا مني ما ابين لكم فاني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم وبلدكم هذا ، الا ومن كانت عنده امانة فليؤدها الى الذي ائتمنه عليها وان دماء الجاهلية موضوعة واول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب[1] ، وان مآثر الجاهلية كلها موضوعة غير السدانة والسقاية ، وان في قتل العمد قود ، وفي شبه العمد قتيل العصا والحجر مائة من الابل .

يا ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد في ارضكم هذه ، ولكنه رضي ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم .

ايها الناس انما النسيء زيادة في الكفر يظل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض .

وجاء في تفسير هذه الفقرة عن السيرة الحلبية ان اهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج في كل عام احد عشر يوماً حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة ، فيعود بعد ذلك الى وقته من الشطر الأول من ذي الحجة وقيل غير ذلك .

وقيل انهم كانوا يقاتلون في محرم وينسئون تحريمه الى صفر ، فاذا

---

(١) جاء في سيرة ابن هشام ان هذيلاً كانت قد اعتدت عليه وقتلته .

دخل صفر قاتلوا فيه وحرموا القتال مكانه في ربيع الأول وهكذا ، فلما جاء الإسلام ارجع الأمر الى نصابه .

ومضى رسول الله (ص) في خطابه يقول : وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله منها اربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر[1] الذي بين جمادى وشعبان .

ايها الناس ان لنسائكم عليكم حقاً وان لكم عليهن حقاً ، لكم عليهن ان لا يوطئن فراشكم غيركم ، ولا يدخلن احداً تكرهونه بيوتكم الا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن ذلك فإن الله قد اذن لكم ان تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف انما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

ايها الناس إنما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفسه فلا ترجعوا كفاراً بعدي يضرب بعضكم اعناق بعض ، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعدي ابداً كتاب الله وعترتي اهل بيتي .

ايها الناس ان ربكم واحد واباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ايها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في اكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من

---

(١) اضاف رجباً الى مضر لانهم كانوا يعظمونه اكثر من بقية الشهور .

ادعى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً .

وجاء في تاريخ ابن كثير ان النبي كان يتكلم وعلي (ع) يذيع خطابه على الناس بصوت عال يسمعه الجميع وقيل غير ذلك .

ولما اتم النبي والمسلمون مناسكهم في منى خرجوا منها فنزلوا المحصب وباتوا ليلتهم فيه ، والمحصب كما في البداية والنهاية مكان كانت قريش قد تعاقدت مع كنانة على بني هاشم وبني المطلب فلم يبرم الله لقريش امراً وردهم خائبين واظهر دينه ونصر نبيه ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا شيئاً وعند السحر امر النبي (ص) بالرحيل فركب هو واصحابه ودخل مكة فطاف طواف الوداع واتجه الى المدينة .

الفصل الرابع والعشرون

غدير خم

خرج النبي (ص) من مكة متجهاً الى المدينـة ومعه تلك الـوفود التي لم تشهـد لها مكـة نظيـراً في تاريخهـا الطويـل يوم ذاك ، ولـما انتهى الى مكان قريب من الجحفة بناحية رابغ ، وقبل ان يتفـرق الناس كـل إلى ناحيتـه نزل في ذلك المكان في الصحراء وعلى غـير ماء وكـلأ بعد ان انـزل الله عليه ﴿ **يـا ايها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وان لم تفعل فـما بلغت رسالتـه والله يعصمـك من الناس** ﴾ ، فعنـد ذلك لم يـر بـداً من تنفيـذ مـا امـره بـه الله سبحانه ، لا سيما وقد ضمن له انه سيعصمه من الناس .

وبالطبع لا بد وان يكـون هذا الأمـر الذي يشـدد الله على تنفيـذه وامر بذلك رسوله بهـذا الأسلوب الذي يشكـل إنذاراً لـه بأنـه إذا لم يفعل يكـون وكأنه لم يبلغ رسالة ربـه هذا الأمـر لا بد وان يكـون مرتبـطاً بمصير الـرسالـة ومستقبلهـا ولا بـد وان يصـطدم مـع ذلـك بـأطمـاع جماعـة من المسلمـين ومخططاتهم ، كما يشعر بذلك قوله والله يعصمك من الناس .

وروى ابن كثـير في بدايتـه عن زيد بن ارقم ان النبي (ص) لما رجع من حجـة الوداع ونـزل غديـر خم امـر بـدوحـات فقممن ثم قـال كـأني قـد

دعيت فأجبت اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، ثم قال : الله مولاي وانا ولي كل مؤمن ومؤمنة واخذ بيد علي (ع) وقال من كنت مولاه فهذا علي وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأضاف الى ذلك في البداية والنهاية ان الراوي قال قلت لزيد بن ارقم : انت سمعته من رسول الله ، فقال ما كان في الدومات احد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنيه .

ورواه ابن كثير ايضاً عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب ، وجاء في رواية البراء ان عمر بن الخطاب لقي علياً بعد ان فرغ النبي من خطابه وقال له : هنيئاً لك يا ابن ابي طالب لقد اصبحت وامسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

ورواه في البداية والنهاية عن جماعة غيرهما من الصحابة ايضاً وقال ان صدر الحديث متواتر يعني بذلك قول النبي من كنت مولاه فهذا علي مولاه واما الزيادة وهي اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الى آخر الحديث فقوية الإسناد على حد تعبيره .

وروي عن رباح بن الحارث انه قال : جاء رهط الى علي (ع) بالكوفة فقالوا السلام عليك يا مولانا ، فقال (ع) كيف اكون مولاكم وانتم قوم عرب ، فقالوا سمعنا رسول الله (ص) يقول : يوم غدير خم من كنت مولاه فهذا عليٌ مولاه ، قال رباح فلما مضوا تبعتهم فسألت من هؤلاء قيل لي انهم نفر من الأنصار فيهم ابو ايوب الانصاري .

وروي ان ابا هريرة دخل المسجد فاجتمع الناس اليه فقام إليه شاب وقال : انشدك الله اسمعت رسول الله يقول لعلي يوم غدير خم ، من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فقال اللهم نعم .

وفي رواية ثانية رواها عن ابي هريرة انه لما اخذ النبي (ص) بيد علي (ع) وقال من كنت مولاه فهذا علي مولاه انزل الله على نبيه ﴿ **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ .

وروي عن عبد الرحمن بن ابي ليلى انه قال : شهدت علياً في الرحبة ينشد الناس ويقول انشد الله من سمع رسول الله يقول يوم غدير خم من كنت مولاه فهذا علي مولاه الا قام وشهد ، فقام اثنا عشر بدرياً كاني انظر الى احدهم فقالوا نشهد انا سمعنا رسول الله يقول يوم غدير خم : الست اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجي امهاتهم فقلنا بلى يا رسول الله ، فقال من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد اورد في البداية والنهاية حديث الرحبة هذا بأسانيد مختلفة ولكنها متفقة من حيث مضمونها ، وكلها تنص على ان الذين شهدوا بصدور الحديث عن النبي (ص) اثنا عشر بدرياً ، وجاء في بعضها انه شهد به سبعة عشر بدرياً .

وجاء في البداية والنهاية ان ابن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ الف في حديث الغدير مجلدين جمع فيهما اسانيد الحديث وألفاظه وساق فيها الغث والسمين والصحيح والسقيم ، واستطرد يقول : ان الحاكم بن عساكر اورد احاديث كثيرة حول خطبة الغدير ونحن نورد عيون ما روي في ذلك وقد ذكرنا بعض ما أورده في كتابه من الأحاديث المروية حول هذا الموضوع .

وبالرغم من ان ابن كثير قد ضعف بعض الأحاديث الحاكية لموقف النبي يوم ذاك من حيث اسانيدها ، ولكنه اعترف اخيراً بأن الحديث متواتر ولا سبيل لإنكاره ومع ذلك فهو لا يفيد الشيعة على حد تعبيره[1] .

---

(١) انظر البداية والنهاية الجزء الخامس ص ٢٠٩ وما بعدها طبع مكتبة المعارف بمصر .

وعلى اي الأحوال فقد روى حديث الغدير بنصه الذي ذكرناه كل من ابن ماجة في صحيحه واحمد في مسنده والحاكم في مستدرك الصحيحين بطرق مختلفة ، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى : ﴿ **النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم** ﴾ ، وابي نعيم في حلية الأولياء والخطيب في تاريخ بغداد والنسائي في خصائصه ، وصاحب الرياض النضرة ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ، وصاحب كنز العمال وابن الأثير في اسد الغابة ، وابن قتيبة في الامامة والسياسة والطحاوي في مشكل الآثار ، والمناوي في فيض القدير ، والهيثمي في مجمع الزوائد .

كما نص كل من الامام احمد والفخر الرازي في تفسيره والبغدادي في تاريخه والمحب الطبراني في ذخائره وصاحب فيض القدير في شرحه ، وصاحب الرياض النضرة ، نص كل هؤلاء ان عمر بن الخطاب بعد ان انتهى النبي من خطابه هنأ علياً وقال له : اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

ونص جماعة من المحدثين ان ابا بكر قال له : امسيت يا ابن ابي طالب مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة كما نص جماعة على انه لما انتهى النبي من خطابه انزل الله عليه :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾ (المائدة ٣) .

وجاء في تفسير الرازي وهو يتحدث عن اسباب نزول الآية :

﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ (المائدة ٦٧) .

جاء فيه العاشر من اسباب نزولها انها نزلت في فضل علي بن ابي طالب ، ولما نزلت اخذ النبي بيده وقال من كنت مولاه فهذا علي مولاه

اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأضاف الى ذلك انه لقيه عمر بن الخطاب وقال هنيئاً لك اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[1] .

وفي تاريخ اليعقوبي ان النبي خرج من مكة ليلاً منصرفاً الى المدينة فانتهى الى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة فنزل فيه وقام خطيباً واخذ بيد علي (ع) وقال : ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم فقالوا بلى يا رسول الله ، قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، ثم قال (ص) ايها الناس اني فرطكم وانتم واردون على الحوض واني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فقالوا وما الثقلان يا رسول الله ، فقال الثقل الأكبر كتاب الله فاستمسكوا به ولا تضلوا وتبدلوا وعترتي اهل بيتي .

وجاء في رواية المفيد والحاكم في المستدرك والحلبي في سيرته والنسائي في سننه انه قال : كتاب الله وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابداً فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

وقد روى حديث الغدير بكامله صاحب السيرة الحلبية في سيرته وعقب عليه انه من الأحاديث الصحيحة ولا يلتفت لمن قدح في صحته كأبي داود وابي حاتم الرازي .

وروى المفيد في الارشاد ان النبي (ص) بعد ان انتهى من خطابه افرد لعلي (ع) خيمة وامر المسلمين بأن يدخلوا عليها فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين ففعل الناس ذلك كلهم وامر ازواجه وسائر نساء

---

(١) انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٥٠ وما بعدها الى ص ٣٨٦ .

المؤمنين ممن معه ان يفعلن ذلك ، وقال له عمر بن الخطاب يوم ذاك بخ بخ لك يا علي اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وجاءه حسان بن ثابت يستأذنه ان يصف موقفه من علي في ذلك اليوم فأذن له فوقف على مرتفع من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول :

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم واسمع بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
الهك مولانا وانت ولينا	ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فانني	رضيتك من بعدي اماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له انصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا

فقال له النبي (ص) لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك .

وجاء في الكافي بسنده الى زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن اعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية عن ابي جعفر الباقر (ع) انه قال : امر الله عز وجل رسوله بولاية علي (ع) وانزل عليه ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ ، فلم يدروا ما هي الولاية فأمر الله محمداً (ص) ان يفسر لهم الولاية كما فسر الصلاة والزكاة والحج والصوم ، فلما اتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدره وتخوف ان يرتدوا عن دينهم وان يكذبوه وراجع ربه فأوحى اليه :

﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ فصدع بأمر الله عز وجل وقام بولاية علي يوم غدير خم وانزل الله عليه بعد ذلك :

﴿ اليـوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعـمتي ورضيت لـكم الاسلام ديناً ﴾ .

وفيـما يعود الى الآيـة **﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾** فقـد جاء في مجمـع البيان بسنـده الى ابي ذر الغفاري رحمـه الله انـه قـال صليت مـع رسـول الله يـومـاً صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه احـد شيئاً فـرفع السـائل يـده الى السـماء وقال : اللهم اشهـد اني سألت في مسجـد رسول الله فلم يعـطني احد شيئاً وكان علي راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليـه وكان يتختم فيهـا فأقبـل السـائل حتى اخـذ الخـاتم من خنصره وذلـك بعـين رسـول الله ، فلما فـرغ النبي من صـلاته رفـع رأسه الى السـماء وقال اللهم ان اخي مـوسى سـألـك فقال : **﴿ رب اشرح لي صدري * ويسر لي امري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من اهلي * هارون اخي * اشدد به ازري * وأشركه في امري ﴾** (طه ٢٥ ـ ٣٢) فأنزلت عليه **﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾** (القصص ٣٥) .

اللهم وانا نبيك وصفيـك ، اللهم واشرح لي صـدري ويسر لي امـري واجعل لي وزيراً من اهلي علياً اشدد به ظهري ، قال ابـو ذر فوالله مـا استتم كلامه حتى نزل عليه جبـريل من عنـد الله تعالى فقـال يا محمـد اقرأ قـال وما أقـرأ ؟ قال اقـرأ : **﴿ انما وليكم الله ورسـوله والـذين آمنـوا الـذين يقيمـون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾** .

واضاف الى ذلك في مجمـع البيان ان روايـة ابي ذر هذه ذكـرها الثعلبي في تفسيره ، ثم قال وروى ابـو بكر الـرازي في احكام القـرآن على مـا حكاه المغربي عنه والرماني والطبري انها نـزلت حين تصـدق علي بخـاتمه وهـو راكع وهو قول مجاهد والسدي والمروي عن ابي جعفر الباقـر وابي عبد الله الصـادق وجميـع علماء اهل البيت (ع) ونقـل صـاحب تفسـير الميـزان في تفسيـره عن الجمـع بـين الصحاح الستـة ومنـاقب ابن المغـازلي الشـافعي وعن الخـطيب الخوارزمي ان الآية المذكورة نزلت في علي بهذه المناسبة .

وجاء عن حسان بن ثابت انه قال :

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي — وكل بطيء في الهدى ومسارع
فأنت الذي اعطيت اذ كنت راكعاً — فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيد — ويا خير شار ثم يا خير بائع
فانزل فيك الله خير ولاية — وثبتها في محكمات الشرائع

هذا بالاضافة الى حديث الدار الذي اعترف بصحته جماعة من كبار محدثي السنة ومؤرخيهم كالطبري وابن اسحاق وابن ابي حاتم وابن مردويه وابي نعيم والبيهقي والنسائي والثعلبي في تفسيره والسيوطي والبغوي وصاحب السيرة الحلبية وغيرهم وحديث انت مني بمنزلة هارون من موسى الذي يقول فيه لا ينبغي ان اذهب الا وانت خليفتي الى كثير من المناسبات التي كان يصرح فيها تارة باستخلافه من بعده ، ويلوح فيها اخرى تلويحاً يفهمه الكثير من الناس ، وقد ذكرنا سابقاً عند الحديث عن دعوة النبي لأعمامه وبني عمه ان المسلمين بعد الرسول لو انهم يوم ذاك ولوا علياً الخلافة وسلموه مقاليد السلطة لكان حديث الدار وحده كنصوص القرآن التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن لما اتجهت الخلافة الاسلامية غير وجهتها الشرعية ومضت بالشكل الذي انتهت اليه اتجه المسلمون والمحدثون وحتى الفقهاء الى تحريف ما لا يقبل التأويل وتأويل ما يمكنهم تأويله ولو خالف الحق والواقع وعشرات القرائن المحيطة به من جميع الجهات تمشياً مع مبدأ الاعتراف بالأمر الواقع ولو قام الواقع على اشلاء الأبرياء والصلحاء كما هو الحال في كل عصر وزمان فيما لو تغلب القوي على الضعيف والمبطل على المحق ، فالرأي العام يقف دائماً الى جانب القوي الظالم عملاً بالمثل القائل (الحق للقوة) ولأم المخطل الهبل ، متجاهلاً الشرعية والعدالة والحق وغير ذلك مما يعبر عن ارادة السماء ، وكأنها الفاظ لا مدلول لها .

بـل يحاول الـرأي العام في الغـالب تحويـر هذه المفـاهيم بمـا يتفق مـع رغبـات القوي الـظالم والمستبد الغـاصب ، ولا تفسير لـذلك الا اتبـاع الأمـر الـواقع وتـرك العقل والشـرع والحق قال العـلامة مغنيـة في كتـابـه فلسفـة التوحيد والولاية في مقام تقريبه لهذا المبدأ الفاسـد وانصراف النـاس اليه مـع انه لا يرتكز على العقل والعلم ، قال : لقـد بايـع نفر قليـل من المسلمين في بداية الأمر ابا بكـر بالخـلافة وسـاعدتـه الظروف والأوضـاع على استجـلاب الجماهير وتمت لـه السلطة دون غيره من الصحـابة واصبـح هو الآمـر النـاهي بـاسم خليفة رسـول الله ، فاستـدل السنة بخـلافة ابي بكـر على صحـة تلك البيعة لا بآية او رواية ولا باجماع او عقل .

استدلوا وابتدعوا اصلا عاماً هو ان الخـلافة الاسـلامية الكبـرى تنعقد شرعاً وتصـح عقلاً وعـرفاً ببيعـة نفر قليـل من المسلمين ، في حـين انه كـان من الأجدر بهم بحسب منطق العقل والشرع ان يستـدلوا عـلى فسادهـا ببيعة النفر القليل ومضى يقول :

قـال المارودي في اول كتـابه الأحكـام السلطانيـة ! اقـل مـا تنعقـد بـه الامـامة خمسـة انفار لأن بيعـة ابي بكر قـد انعقـدت بعمـر بن الخـطاب وابي عبيـدة واسيد بن حضـير وبشر بن سعـد وسالم مـولى حذيفـة ، ولأن عمر بن الخـطاب جعل الخـلافة في ستـة من الصحابـة لاتمام خـلافة احـدهم بـرضـا الخمسة الباقين ، واضاف المـاوردي الى ذلك ان هـذا هو قـول اكثر الفقهـاء والمتكلمين من اهل البصرة .

وقال آخرون من علماء الكوفة انها تنعقد بثلاثـة يتولاهـا احدهم بـرضا الاثنين ، وقالت طائفة اخرى تنعقد البيعة بواحد .

وجاء في كتاب المـواقف وشرحـه باب الامـامة ، الـواحد والاثنـان من اهل الحل والعقد كافٍ في ثبوت الامامـة على اهـل الاسلام ، لأن الصحـابة على حد تعبيره قد اكتفوا في عقد الامـامة بعقـد عمر لأبي بكـر ، وعقد عبـد

الرحمن بن عوف لعثمان ومضى يقول مؤلف فلسفة التوحيد والولاية ، ومعنى هذا ان عمر بن الخطاب او اي انسان آخر لو بايع علياً وتمت له الخلافة لكان اولى بها من جميع الصحابة بما فيهم ابو بكر ، وتصبح بعد ذلك جميع النصوص على خلافته وولاية المعصومين من اولاده قطعية السند والدلالة .

واستطرد يقول لقد وقعت الحرب بين علي (ع) ومعاوية بن ابي سفيان وشاءت الأقدار والظروف ان يحكم معاوية كما حكم الأول والثاني والثالث ، فتبنى السنة حكم ابن ابي سفيان واعترفوا به ودافعوا عنه لا لشيء إلا لأنه قد اصبح حاكماً وهم يعلمون كل العلم بأن معاوية واباه لم يخلصا للاسلام ولو ساعة واحدة .

وكان قد تواتر عن الرسول انه قال : ان عماراً تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ، لقد تواتر عن الرسول هذا الحديث حتى اصبح وكأنه آية قرآنية وبخاصة بعد ما رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب التعاون في بناء المساجد ، وقد قتله معاوية ، ومع ذلك فقد رفض السنة ان ينعتوه بالبغي كما نعته من لا ينطق عن الهوى ورفضوا ذلك وهم على يقين من قول الرسول ، بل قالوا ان معاوية قد اجتهد وأخطأ وهو معذور ومأجور بقتل عمار وسب علي (ع) على المنابر .

ومما لا شك فيه ان معاوية قد فشل في حربه مع علي ولم يستتب له الحكم لنعته السنة بالطاغية الباغي لنفس هذا الحديث المتواتر .

الأسود العنسي

بعد ان انهى الرسول (ص) المهمة التي امره الله بأدائها في غدير خم وتفرق عنه الألوف من الناس كل باتجاه وطنه سار بمن بقي معه الى

المدينة حتى اذا بلغها اقام فيها بقية ذي الحجة ، ودخلت السنة الحادية عشرة بدخول المحرم وهو مطمئن لانتشار الاسلام في شبه الجزيرة من اقصاها الى اقصاها واتجه يفكر في البلاد الخاضعة للروم والفرس كبلاد الشام ومصر والعراق وغيرها .

وفيما هو يخطط لنشر دعوته خارج الحجاز ، وإذا بالأخبار تحمل اليه نبأ وفاة باذان الذي ولاه امر اليمن بعد ان اسلم هو وجماعته ، وكان قبل اسلامه عاملاً لكسرى عليها كما ذكرنا خلال الفصول السابقة ولما انتهى اليه نبأ وفاته بعد رجوعه من حجة الوداع وزع البلاد التي كان يحكمها باذان بين جماعة من الصحابة وترك صنعاء لولده شمر بن باذان ، وأرسل الى مأرب ابا موسى الأشعري ، وجعل على الجند يعلى بن امية ، وعلى همدان عامر بن شمر الهمداني ، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن ابي هالة وهكذا فقد ارسل الى كل منطقة رجلاً من اصحابه ليتولى إدارة شؤونها ويجبي صدقاتها .

وكان عبهلة بن كعب المعروف بالأسود العنسي كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب ويستجلب الناس بحسن حديثه ، فادعى النبوة واجابه خلق كثير من مذحج وغيرها من القبائل واحتل اكثر المناطق في اليمن ، ومضى في سبعمائة فارس الى صنعاء ، فخرج إليه عاملها شهر بن باذان فتغلب عليه الأسود فقتله وتزوج بامرأته ونشر سلطانه في بلاد اليمن وتحاشاه المسلمون وارتد جماعة منهم عن الإسلام ، ولم يثر استفحال امره عناية النبي ، ولا استدعى من اهتمامه اكثر من ان بعث الى عماله باليمن ان يحيطوا به ويقتلوه .

ولما استفحل خطره في اليمن استخف بقيس بن عبد يغوث وبفيروز وداوديه ، وكانت ازاد التي تزوجها الأسود بعد مقتل زوجها شهر بن باذان ، ابنة عم لفيروز والتجأ عمال النبي الى هؤلاء الثلاثة ، وهمّ الأسود بقتلهم ففروا منه والتجأوا من حيث لا يعلم الى زوجته (أزاد) فوضعتهم

في بيت واخفت امرهم ، فلما دخل عليها الأسود ، دخل عليه فيروز ومعه قيس بن عبد يغوث فقتلاه في بيتها كما جاء في رواية ابن خلدون في تاريخه .

وقيل انها هي التي تولت قتله انتقاماً لزوجها ، ولما قتل الأسود هاج اتباعه ولكنهم استسلموا اخيراً وعاد اكثرهم الى الاسلام ورجع اصحاب النبي الى اعمالهم وتنافسوا على صنعاء بعد ان قتل عاملها ، ثم اتفقوا على ان يصلي بهم معاذ بن جبل وكتبوا الى رسول الله (ص) بما جرى ، وكان قد اخبره جبرائيل بقتل العنسي ساعة قتله فأخبر المسلمين بذلك ولما جاء الرسول بخبر العنسي الى المدينة كان النبي (ص) قد توفي فقص عليهم حديث العنسي وتاريخ قتله فاتفق خبره مع اخبار النبي (ص) لهم ساعة قتله .

الفصل الخامس والعشرون

جيش اسامة

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة ان النبي (ص) كان يفكر كثيراً في ما وراء الحدود الشمالية لشبه الجزيرة بعد ان اسلم عرب الحجاز ، ولم يعد بينهم على الشرك من يخشى من بأسه وسطوته ، ولم يكن ليطمئن والى جانبه اكبر دولة في العالم يوم ذاك تراقب جميع تحركاته وتعتبر خطره على المسيحية وعلى وجودها اشد من اخطار اليهودية والدول الأخرى التي كانت تنافسها في بسط نفوذها يوم ذاك .

وظل النبي (ص) يقدر لهذه الدولة الكبرى ان تتحرك من ناحية حدودها لداخل الحجاز ، ولكنه كان يؤثر ان يغزوهم قبل ان يغزوه وان يفرض عليهم وجوده وهيبته قبل ان يهاجموه بعشرات الوفهم ، فأرسل سريته الأولى الى مؤتة وعاد المسلمون منها قانعين بالعودة بعد ان خسروا جماعة منهم وثلاثة من قادتهم الكبار وغزاهم بنفسه في ثلاثين الفاً حتى بلغ تبوك فألفاهم قد انسحبوا الى داخل بلادهم وحصونهم ، ورجع الى المدينة بعد ان استسلم امراء البلاد المتاخمة لحدود الحجار وعاهدوه على ان لا يتعاونوا مع احد عليه .

ولم يطل بالمسلمين المقام بعد رجوعهم من حجة الوداع حتى امر النبي بتجهيز جيش لعله من اكبر الجيوش التي عرفتها المدينة من قبل ، بدليل انه حشد في ذلك الجيش وجوه المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من المهاجرين والأنصار كما تنص على ذلك المؤلفات في السيرة والتاريخ ، وامر على ذلك الجيش اسامة بن زيد بن حارثة وهو يوم ذاك في مطلع شبابه لا يتجاوز العشرين من عمره على ابعد التقادير وفي المسلمين من هو اشد صلابة منه واكثر مرونة في الحروب وخبرة بقيادة الجيوش ، مما دعا الى دهشة كبار الصحابة واستيائهم من تأميره عليهم ، وتثاقلوا في تنفيذ اوامره بالرغم من تأكيداته المتتالية على تسريح الجيش بقيادته ، واضطر ان يخرج الى الناس ويحثهم على الخروج والجهاد بقيادة اسامة ، وبدا عليه الانزعاج والتصلب حينما طالبوه بأن يولي عليهم غيره ، وقال لهم : لعمري لئن قلتم في امارته اليوم فلقد قلتم في امارة ابيه من قبله وانه لخليق بالإمارة كما كان ابوه خليقاً بها من قبل .

وفي رواية مشهورة بين المحدثين انه كان يقول ويكرر انفذوا جيش اسامة ، لعن الله من تخلف عن جيش اسامة ، هذا وقد بدأ يحس بالمرض وتشتد وطأته عليه بين الحين والآخر .

وجاء في بعض كتب السيرة انه كان من جملة الدوافع التي دعت النبي الى التصميم على ارسال هذا الجيش ان الدولة الرومانية جعلت تطارد وتقتل كل من دخل في الاسلام من رعاياها ، ومن بين من قتلتهم فروة بن عمرو الجذامي وكان والياً على معان وما حولها من ارض الشام ، فاعتنق الاسلام وبعث الى النبي يخبره بذلك ، ولما بلغ خبره الرومان غضبوا عليه وجندوا عليه حملة القت القبض عليه وألقوه في احد سجونهم ، ثم حكموا عليه بالاعدام فأخرجوه الى محل فيه ماء يدعى عفراء من ارض فلسطين واعدموه في ذلك المكان ، ثم صلبوه على خشبة هناك ليكون عبرة لغيره ممن يفكر في اعتناق الاسلام .

وقيل انه حينما قدم للقتل انشد :

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي اعظمي ودمائي

ومهما تكن الأسباب الداعية لتجهيز ذلك الجيش ، فقد امر النبي اسامة بن زيد ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قتل والده ، وان ينزل على اعداء الله واعدائه في عماية الصبح ويمعن فيهم قتلاً وتشريداً ، وان يتم ذلك بأقصى ما يمكن من السرعة قبل ان تصل اخباره إليهم .

وخرج اسامة بالجيش الى الجرف على مقربة من المدينة وعسكر فيه بينما يتم تجهيزه ، وخلال ذلك كان المرض يشتد على النبي (ص) ، فبدأت المحاولات لعدم تحرك الجيش من مكانه وبخاصة بعد ان احسوا ان مرض النبي يزداد من وقت لآخر ويشكل خطراً على حياته .

وجاء في طبقات ابن سعد ان النبي امر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، ودعا اسامة وقال له : سر الى موضع مقتل ابيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر عليهم صباحاً واسرع السير حتى لا تسبقك الأخبار اليهم ، فإن ظفرت بهم فأقل اللبث فيهم وخذ معك الادلاء وقدم العيون والطلائع امامك ، واضاف الى ذلك انه لم يبق احد في وجوه المهاجرين والأنصار الا وامره بأن يشترك في تلك الغزوة .

وقال ابن هشام في سيرته : ان رسول الله استبطأ الناس في بعث اسامة واخذ الوجع يشتد به فخرج عاصباً رأسه وجعل يحثهم على الخروج ، ثم قال : ايها الناس اني أوشك ان أدعى فأجيب واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي اهل بيتي ، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، وذكر هذه المقالة الشيخ

المفيد في ارشاده واضاف إليها انه قال : ايها الناس لا الفيتكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فتلقوني في كتيبة كمجر السيل الجرار ، الا وان علي بن ابي طالب اخي ووصي يقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله .

ويبدو من اكثر مواقفه وخطبه بعد رجوعه من حجة الوداع انه كان يعلم بواسطة الوحي بدنو اجله .

ويدل على ذلك ما جاء في كتب السيرة والحديث من انه استدعى مولاه ابا مويهبة وقال له : اني قد امرت ان استغفر لأهل البقيع فاخرج معي الليلة ، فخرج معه من جوف الليل ، فلما وقف فيها قال : السلام عليكم يا اهل المقابر ليهن لكم ما اصبحتم فيه مما اصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها اولها ، الأخرة شر من الأولى .

قال ابو مويهبة ، ثم اقبل عليّ وقال يا ابا مويهبة اني قد اوتيت مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة وخيرت بين ذلك ولقاء ربي والجنة ، فاخترت لقاء ربي والجنة ، فقلت بأبي انت وامي فخذ مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فقال لا والله يا ابا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي ، ثم استغفر لأهل البقيع ورجع .

وجاء في رواية المفيد انه خرج الى البقيع مع علي (ع) ، واضاف الى الحديث الذي ذكرناه انه (ص) قال لعلي (ع) : ان جبرائيل كان يعرض عليّ القرآن في كل سنة مرة وقد عرضه عليّ هذا العام مرتين ولا اراه الا لحضور أجلي ، ومضى المفيد يقول انه كان يعتكف في كل سنة في العشر الأواخر من رمضان ، وفي تلك السنة اعتكف فيه عشرين يوماً .

وسبق له في مكة في السنة الأخيرة التي حج فيها ان قال للمسلمين وهو يخطب فيهم : لعلي لا القاكم بعد عامي هذا ، وفي مناسبة اخرى كان يقول : يوشك ان ادعى فأجيب .

وجاء في شرح النهج ج (٣) عن عبد الله بن مسعود انه قال نعى الينا نبينا نفسه قبل موته بشهر وقد جمعنا في بيت امنا عائشة فنظر الينا ودمعت عيناه وقال مرحباً بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله وحفظكم ووفقكم ورزقكم ونصركم وهداكم ، ثم قال اوصيكم بتقوى الله واستخلف الله عليكم ، اني لكم نذير وبشير لا تعلوا على الله في عباده وبلاده ، فانه قال لي ولكم :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ (القصص ٨٣)

فقلنا يا رسول الله متى اجلك ؟ فقال قد دنا الفراق والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى ، قلنا فمن يغسلك يا رسول الله قال اهلي الأدنى فالأدنى ، والحديث بتمامه موجود في شرح النهج ج ٣ ص ١٨٩ - ١٩٠ الى غير ذلك من تصريحاته وتلميحاته التي يستفاد منها انه كان يعلم بوفاته .

والسؤال الذي يمكن لأي باحث ان يطرحه في المقام ، هو ان النبي (ص) ما دام يعلم بدنو اجله وبوفاته خلال ايام معدودات ، فلماذا اصر وظل يصر حتى النفس الأخير على تسريح الجيش الى ما وراء حدود الحجاز بقيادة اسامة بن زيد ، وهو شاب لم يتجاوز العشرين من عمره ، وهو يعلم بوجود عدد كبير من المنافقين قد تستروا بالإسلام ، وهم من ألد اعدائه وانكد خصومه ، وهؤلاء كانوا يتحينون الفرصة للعبث والفساد ، وسيجدون الجو مناسباً في حال وفاته ما دام عليّ وآل الرسول منصرفين الى تجهيزه ودفنه وعامة المهاجرين والأنصار في خارج البلاد بقيادة اسامة بن زيد ، ولماذا ضم الى هذا الجيش ابا بكر وعمر كما يبدو من مجاميع السيرة والحديث ، وكان حريصاً على اشتراكهما فيه وترك علياً في المدينة ، مع ان تاريخهما معه في حروبه وغزواته لا يشهد لهما بالبطولات ولا يغنيان في ساعة

الشـدة عن شيء في حين ان مفتـاح النصر والفتـح كان بعـد النبي بيـد عـلي (ع) في جميـع حروبـه وغزواتـه ولماذا اختـار لقيـادة هـذا الجيش اسـامـة بن زيد ، وفي المسلمين كثير من القادة الأكفـاء الذين خـاضوا المعـارك وادارها بحزم وثبات وخرجوا منها منتصرين ظافرين .

هـذه التساؤلات قـد تختلج في ذهن الكثير من البـاحثـين ، وقـد اثـير بعضهـا قديماً كما يبـدو في شرح النهـج ج ٤ ص ١٧٢ ، فقـد ادرك قـاضي القضاة عبد الجبار المغزلي تفسير الشيعة لاصـرار النبي (ص) على انضمـام ابي بكر وعمر الى الجيش ، فقال في الصفحة المـذكورة وربمـا قالـوا انه جعـل هؤلاء القـوم في جيش اسامـة ليبعدوا بعـد وفاتـه عن المدينـة فـلا يقـع منهم توثب على الامامة ، ولذلك لم يجعل امير المؤمنـين في ذلك الجيش وجعـل فيه ابا بكر وعمر بن الخطاب وغيرهما ليتم له الأمر بدون منازع .

ولكنـه اجاب عن هـذا الناحيـة كعـادتـه في الـدفـاع عـما يـدور حـول الخلفاء من شبه واتهامات ، وانكر ان يكون ابـو بكر احـد الذين اصـر النبي عـلى انضمـامهم الى الجيش في حـين ان جميـع النصـوص تؤكـد انـه كـان احدهم .

امـا تأميـره على الجيش اسـامة بن زيـد ، فبالإضـافة الى كفـاءتـه التي تؤهله لذلك فقد اراد ان يرفع من شأن المـوالي ويزعـزع كبريـاء الذين كـانوا يتعـاظمـون ويحـاولـون ان يبـرزوا عـلى غيـرهم من النـاس لا لشيء إلا لأن الـرسول كـان يقربهم اليـه ويتغاضى عن تصـرفاتهم لأمـور تفرضهـا مصلحة الاسلام العليا .

واما خطر المنـافقين عـلى المدينـة في حال غيـاب الجيش عنها فلولا انـه كان مطمئنـاً من هذه النـاحية ولـو بواسـطة وجود عـلي والبقية من الصحـاب وبني هاشم لا يمكن ان يأمر الجيش بمغادرتها .

ومهما كان الحال فقد جاء عن عائشـة انه اشتـد المرض بـالنبي (ص)

وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن ان يمرَّض في بيتي فأذن له فخرج بين رجلين من اهله احدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه في الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

وروى الطبري في تاريخه وغيره عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة انه قال : لقد حدثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث فقال : اتدري من الرجل الآخر ؟ قلت لا . قال هو علي بن ابي طالب لكنها لا تقدر ان تذكره بخير وهي تستطيع ، ولما اشتد به الوجع قال أهرقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى اخرج الى الناس فأعهد إليهم قالت عائشة : فأقعدته في مخضب لحفصة وصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده حسبكم حسبكم .

وجاء عن عطاء عن الفضل بن العباس انه قال : خرجت الى رسول الله فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه فقال خذ بيدي فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد في الناس فصحت بهم فاجتمعوا اليه فقال ايها الناس اني احمد اليكم الله لقد دنا مني خفوق من بين اظهركم فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه ومن كنت اخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يقل رجل اني اخاف الشحناء من رسول الله ، الا وان الشحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني ، الا وان احبكم اليّ من اخذ مني حقاً ان كان له ، او حللني فلقيت الله وانا طيب النفس وقد اراني ان هذا غير مغنٍ عني حتى اقوم فيكم مراراً .

ثم نزل فصلى الظهر ورجع الى المنبر فعاد لمقالته الأولى ، فقام رجل وقال لي عندك يا رسول الله ثلاثة دراهم ، فقال انا لا نكذب قائلاً ولا نستحلفه على يمين ، ثم قال اعطه يا فضل ، ومضى يقول : من خشي من نفسه شيئاً فليقم ادعو له ، فقام رجل وقال يا رسول الله اني لكذاب واني لفحاش ونؤوم ، فقال اللهم ارزقه صدقاً وصلاحاً واذهب عنه النوم اذا أراد .

وقام رجل آخر يذكر عيوبه للنبي ، فقال لـه عمر بن الخطاب : لقد فضحت نفسك ايها الرجل ، فقال النبي (ص) : يا ابن الخطاب فضوح الدنيا اهون من فضوح الآخرة .

وروى الطبري عن الأرقم بن شرحبيل انه قال : سألت ابن عباس اوصى رسول الله قال لا : قلت وكيف كان قال إن رسول الله قال ابعثوا الى علي فادعوه ، فقالت عائشة لو بعثت الى ابي بكر ، وقالت حفصة لو بعثت الى عمر فاجتمعوا عنده جميعاً فقال رسول الله (ص) : انصرفوا فإن تك لي حاجة ابعث اليكم .

وجاءه بلال والمرض قد اشتد به عند طلوع الفجر فنادى الصلاة يرحمكم الله ، وهنا اختلفت الروايات .

فالطبري يروي عن عائشة انه قال مروا اباب بكر يصل بالناس فقالت له ان ابا بكر رجل رقيق ، فأعاد عليها القول فرجعت تردد عليه مقالتها الأولى فغضب وقال : انكن صويحبات يوسف ، ثم خرج يتهادى بين رجلين وقدماه تخطان في الأرض فوجد ابا بكر يصلي فأراد ان يتأخر فأشار اليه ان يبقى في مكانه فبقي ابو بكر في مكانه وجلس النبي الى جنبه فكان ابو بكر يصلي بصلاة النبي ، والناس يصلون بصلاة ابي بكر . بينما تذهب رواية ابن هشام في سيرته انه حين دعاه بلال الى الصلاة بالناس قال مروا من يصلي بالناس فخرج عبد الله بن زمعة فوجد عمر بن الخطاب في طريقه ، فقال له قم وصل بالناس وكان ابو بكر غائباً على حد قوله ، فلما كبر سمع رسول الله صوته فأرسل الى ابي بكر فجاء بعد ان اتم عمر الصلاة فصلى بالناس .

وروى المفيد في ارشاده عن اهل البيت انه (ص) قال حينما دعي للصلاة : يصلي بالناس بعضهم فاني مشغول بنفسي ، فقالت عائشة مروا ابا بكر ، وقالت حفصة مروا عمر بن الخطاب ، فقال رسول الله : اكففن

فـانكن صويحبـات يوسف ، وقـام مبـادراً وهـو لا يستـطيـع ان يستقـل عـلى الأرض من الضعف فـأخذ بيـد عـلي والفضـل بن العبـاس فـاعـمـد عليهـما ورجـلاه تخطان الأرض من الضعف ، فلما دخـل المسجد وجـد ابـا بكـر قـد سبق الى المحراب فأومأ اليه ان تـأخر عنـه ، فتأخـر وقام مقـامه فكبـر وابتدأ الصلاة التي كان قد ابتدأها ابو بكر ولم يبيّن على ما مضى منها .

وهذه الروايات على ما بينها من تضـارب وتناقض كلهـا متفقة عـلى انه قـد خـرج بنفسـه وهـو عـلى اشـد مـا يكـون من الضعف وقـد اعتمـد عـلى الفضل بن العباس ورجل آخر عـلى حد تعبـير عائشـة ، وعلى عـلي (ع) كما جـاء عن غيرهـا ، فاذا صـحّ انه قـد امر ابـا بكر ليصـلي بالنـاس كـما تـزعم عائشة وغيرها ممن روى تلك الـطائفة من الأخبـار ، فلماذا خـرج بعد ذلـك وهـو بتلك الشـدة معتمـداً عـلى الـرجلين اللذين حمـلاه الى المسجـد عـلى كتفيهما ، فإن كان يريد تأييـد ابي بكر بـذلك كـما يدعي اكـثر اهل السنـة ، فيكفيه تأييداً له امره بالصلاة بالناس وصلاة الناس خلفه ، امـا خروجـه وهو بهذه الحالة بعد ان علم بأنه قـد باشـر بالصـلاة فهو الـذي اثار الشبهـة حول تلك الطائفة من المـرويات ، ورجـح جانب الـروايات التي نصت عـلى انه لم يكلف احـداً ، وانه حينـما علم بأن ابـا بكر قـد قدم للصـلاة خـرج ليصـلي بالناس بنفسـه ، وبالفعـل خرج ونحـاه عن المحراب ولم يبـن على مـا مضى من صلاته .

عـلى ان الروايـات الحاكيـة لصلاة ابي بكـر كلها تنص عـلى انه جلس الى جـانبـه وكـان ابـو بكـر يصـلي بصـلاة النبي والنـاس يصلون بصـلاة ابي بكـر ، ومعنى ذلك انـه كان امـاماً ومـأمومـاً في وقت واحد ، ولا اظن احـداً يلتزم بجواز ذلك .

هذا بالاضافة الى ان السيـدة عائشـة هي المصدر لكـل ما روي حـول صـلاة ابيها بـالناس وحـول ترشيحـه للخلافـة كما يبـدو ذلك بعـد التتبع في اسـانيد تلك المـرويات وروت عنـه كما جـاء في البدايـة والنهـايـة انـه قـال :

ائتوني بكتف او لوح حتى اكتب لأبي بكـر كتابـاً لا يختلف عليه احـد ، وكان عبـد الرحمن بن ابي بكـر حـاضـراً حـين ذاك ، فلما ذهب ليـأتي لـه بـالكتف ارجعـه على حـد زعمها وقـال : ابى الله والمؤمنون ان يختلف عليـك احد يـا ابا بكر ، الى غـير ذلك ممـا وضعته او وضـع على لسـانها في مقابـل المرويـات الصحيحة والنصوص الصريحة على استخلاف علي من بعده .

ولو افترضنا جدلاً ان ابا بكر قـد صلى بـالناس يـوم ذاك ، فأي حجـة في ذلـك على صحـة خلافتـه ، في حين ان الامـامة في الصـلاة ليست بالأمـر الخـطير الـذي يـدل عـلى عـظمـة المصـلي ، ولا هي من مختصـات امـام المسلمـين ، بـل تصح من كـل احـد ، ولا سيـما عنـد اهـل السنـة الـذين يجـوزون امامـة اجهل النـاس واخملهم ذكراً حتى مـع وجود من هـو اعلم منه واطيب ذكراً ولا يشترطون فيها اكثر من اظهار الاسلام .

وقـد اعتاد المسلمـون في يعصـر النبي ان يـأتم بعضهم ببعض ورغب النبي في ذلـك ولم ير احـد لمن يصلي امـاماً ميـزة او فضـلاً لـه عـلى احـد من الناس .

ولمـا انصرف النبي من تلك الصـلاة التي خرج إليهـا ورجع الى منـزله استـدعى ابا بكـر وعمر وجمـاعـة ممن حضـروا بـالمسجـد من المسلمـين وقـد ازعجـه عدم انضمـامه الى الجيش وهـو مقيم بـالجـرف في ضـواحي المـدينـة وقـال : ألم آمركم أن تنفـذوا جيش اسامـة ؟ فقـالـوا: بـلى يـا رسـول الله ، فقال: لِمَ تأخرتم عن أمري ؟ فقـال ابو بكـر: إني خرجت ثم رجعت لأجـدد بـك عهداً ، وقـال عمر بن الخـطاب : اني لم اخـرج لأني لا أحب ان أسـأل عنـك الركب . فقـال (ص) انفـذوا جيش اسـامـة وكـرر ذلـك ثـلاثـاً ، ثم اغمي عليه من التعب ومما لحقه من الأذى لتجاهلهم اوامره .

ومكث فتـرة من الـزمن مغمى عليـه فبكى المسلمـون وارتفـع النحيب من ازواجه وابنته ونساء المؤمنين وجميع من حضر .

ولمـا افاق نـظر اليهم وقال : ائتـوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتـابـاً لا

تضلوا بعـده ابـداً ثم اغمي عليـه ، فقـام بعض من حضـر يلتمس دواة وكتفاً ، فقال لـه عمر بن الخطاب : ارجع فـانه يهجر فـرجع ، ونـدم من حضـر على مـا كـان منهم من التضييـع في احضـار الـدواة والكتف فلما افـاق قـال بعضهم ، الا نأتيـك بدواة وكتف يـا رسول الله قـال لا ابعـد الـذي قلتم ولكني اوصيكم بأهل بيتي خيراً ، واعرض بوجهه عن القوم فنهضوا .

وجاء في صحيح البخاري المجلد الرابـع كتاب المرض والطب بسنـده الى ابن عباس انه قـال : كان في البيت عنـد رسول الله رجـال فيهم عمر بن الخطاب ، فقال النبي : هلموا اكتب لكم كتابـاً لا تضلوا بعده ابـداً ، فقال عمـر بن الخطاب : ان النبي قـد غلبه الـوجع وعنـدكم القرآن حسبنـا كتاب الله ، فـاختلف الحاضـرون واختصموا فمنهممن قـال قدمـوا لـه ليكتب لكم كتاباً لا تختلفون بعده ، ومنهم من اخذ بقول عمـر بن الخطاب ، فلما اكثـروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم قوموا عني .

واضـاف الى ذلك البخـاري ان عبـد الله بن عبـاس كـان يقـول : ان الـرزيـة كـل الـرزيـة مـا حـال بـين رسـول الله وبـين ان يكتب لهم ذلـك الكتاب .

وروى في المجلد الثـالـث من صحيحـه بـاب مـرض النبي (ص) بسنـده الى سعيد بن جبير ان ابن عبـاس كـان يقـول : لقـد اشتـد الـوجـع بـرسول الله يـوم الخميس ، فقـال ائتـوني اكتب لكم كتـابـاً لن تضلوا بعـده فتنازعوا ومـا ينبغي عند نبي تنـازع فقالـوا ما شـأنه اهجـر استفهموه فـذهبوا يـردون عليه ، فقـال دعوني فـالذي انـا فيه خـير مما تـدعوني إليـه وأوصـاهم بثلاث : اخراج المشـركين من جـزيرة العـرب وان يجيزوا الـوفود التي كـانت تأتيه بمثل ما كان يجيزهم وسكت الراوي عن الثالثة او قال اني نسيتها .

وروى هـذه الروايـة ابن جريـر في تاريخـه ، وابن سعـد في طبقـاتـه ، وابن كثـير في بـدايتـه ومسلم في صحيحـه كـما رواهـا البخـاري في اكـثر من موضع في صحيحه ووردت في جميع كتب الحديث عند السنة والشيعة .

ورواها ابن سعد في طبقاته بطرق مختلفة ، ومن جملة من رواها عنهم عمر بن الخطاب نفسه فقد قال : كنا عند رسول الله وبيننا وبين النساء حجاب ، فقال رسول الله اغسلوني بسبع قرب واتوني بصحيفة ودواة لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ابداً ، فقال النسوة ، ائتوا رسول الله حاجته فقلت لهن اسكتن فانكن صواحب يوسف ، إذا مرض عصرتن اعينكن وإذا صح اخذتن بعنقه ، فقال رسول الله : هن خير منكم .

وجميع الروايات التي وردت حول مرض النبي تنص على ان النبي اراد ان يكتب لهم كتاباً حتى لا يضلوا من بعده ، وكلها تنص على ان عمر بن الخطاب هو الذي وقف في طريق الكتاب ، ولم يكتف بذلك حتى قال انه ليهجر في كلامه اي انه يتكلم معكم بلا وعي ولا إدراك .

وبلا شك ان الكتاب الذي اراد ان يكتبه لا يعدو ان يكون تأكيداً لما صرح ولوح به مراراً من قبل بخصوص استخلاف علي (ع) ، وقد فهم عمر بن الخطاب منه ذلك ، كما فهمه كل من كان حاضراً حين ذاك ، ولذلك حال بينه وبين كتابته وقال انه يهجر .

وفي رواية ثانية عبر بعبارة تؤدي هذا المعنى ، فقال لقد غلبه الوجع ونتيجة ذلك ان فعله وقوله في تلك الحالة كأفعال الأطفال والمجانين واقوالهم وحتى لو كتب الكتاب عند اصحاب هذه المقالة فلا قيمة لكتابه ما دام في حالة غير طبيعية .

لقد ادرك النبي (ص) بأنهم سيقولون ذلك واكثر من ذلك ، ولذا حينما راجعوه بشأن الكتاب قال ابعد الذي قلتم ! فعدل عن الكتاب واوصاهم بثلاث باتفاق المحدثين ، ولكن المحدثين لم يحفظوا من وصاياه الا وصيتين ونسوا الثالثة على حد زعمهم ، وبلا شك ان الثالثة هي التي اراد ان يكتبها في كتابه ، ولو كانت غير ذلك لحدثوا بها كما حدثوا عن غيرها .

وجاء في اكثر الروايات التي تعرضت لمرض النبي (ص) ان عبد

الله بن عباس كان إذا تـذكـر ذلـك اليـوم يتحسـر ويتـأسف واحيـانـاً يبكي لفـوات تلك الفرصـة التي لو تمت لم يختلف عـلى علي (ع) اثنـان عـلى حـد تعبيره .

والـذي اراه ان النبي لـو كتب لهم عشـرين كتـابـاً سـوف يحـورون ويؤ ولـون مضامينهـا بمـا يتفق مـع مصـالحهم ، وقـد يـذهبـون الى ابعـد من ذلك ، وهذا هو الذي دعا النبي الى عدم الكتابة حيثما افاق .

وجـاء في البدايـة والنهـايـة عن الصحيحـين ان عـائشـة قـالت : لقـد اجتمـع نساء النبي عنـده في مرضـه فجاءت فـاطمة تمشي لا تخـطىء مشيتها مشيـه ابيهـا ، فقـال مـرحبـاً يـا بنتي ثم اقعـدهـا عن يمينـه وسـارهـا بشيء فبكت ، ثم سارها ثانية فضحكت ، فقلت لها : لقد خصـك بالسـرار وانت تبكين تارة وتضحكـين اخرى فلما ان قـامت قلتّ لها اخبـريني بما قـال لك : قالت ما كنت لافشي سر رسول الله ، فلما تـوفي رسول الله قلت لهـا اسألـك بمـا لي عليك من حق الا اخبـرتني ، قـالت فـاطمـة : امـا الآن فنعم ، لقـد اخبـرني اولاً باقتـراب اجله واوصاني بتقـوى الله والصبـر فبكيت ، وفي المرة الثانية قال لي : اما ترضين ان تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت .

وقيل انه قال لها في الثانية : انت اول اهلي لحوقـاً بي فاستبشـرت بلقاء الله والالتحـاق بـأبيهـا في دار الكـرامـة مـع النبيـين والصـديقـين والشهـداء والصالحين .

وكـان الألم يشتد بـرسول الله والخـطر على حيـاته يتـزايد سـاعـة بعـد اخـرى ، ولكن ذلـك كله لم يشغله ان يكـرر نـداءه للنـاس المرة تلو المـرة بـالخروج في بعث اسـامة والإسـراع في إنفاذه ويستحث اسامة عـلى الإسراع في التـوجه ، حتى قـال له اسـامة بـأبي انت وامي أتأذن لي ان امكث ايـاماً حتى يشفيك الله فلم يأذن له بالتأخير .

ولما اشتدت بـه وطأة المرض جعل يـأخذ المـاء بيده ويقـول واكربـاه ،

فتقول فاطمة واكربي لكربك يا ابتاه ، فقال لا كرب على ابيك بعد اليوم .

وجاء في بعض المرويات انه قبيل وفاته وجد نفسه نشيطاً وخفت عنه حرارة الحمى ، فخرج معتمداً على علي (ع) والفضل بن العباس حتى اتى المسجد ، فأقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد ، فقال ايها الناس : سعرت النار واقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، واني والله ما تمسكون عليّ بشيء ، اني لم احل إلا ما احل القرآن ، ولم احرم إلا ما حرم القرآن ، لعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد[1] .

ورأى المسلمون في مظهر النبي ما يدعو الى الارتياح والاطمئنان فاستأذنه ابو بكر بالذهاب الى السنخ حيث تقيم زوجته بنت خارجة وانصرف عنه جماعة لشؤونهم وهم يظنون ان في هذا النشاط الذي ظهر عليه تماثلاً للشفاء وتقدماً نحو العافية ، ولكن امر الله كان يجري الى غايته من وراء ما يرجو الاصحاب والمحبون وقد اختار له ربه الدار الآخرة بين اخوته النبيين والمرسلين .

فلما رجع من المسجد حتى عاوده الضعف واشتد عليه ، فسمع يقول بل الرفيق الاعلى فعلموا انه اختار لقاء الله على الحياة في هذه الدنيا .

وكان علي قد احتضنه حينما رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة

---

(١) بناء على صحة الرواية وان الفقرة الأخيرة منها للنبي (ص) فلا بد وان تكون ناظرة لمن يشيدون قبور موتاهم ويتخذونها مساجد بدافع العاطفة او العصبية ولو لم تكن لهم ميزة يستحقون من اجلها ذلك ، اما الذين يجسدون تعاليم الاسلام والقرآن والاديان الصحيحة بسلوكهم واعمالهم كالانبياء والائمة الهداة والصلحاء الابرار فمن المستبعد جداً ان ينهي النبى عن تشييد قبورهم والصلاة لله فيها اذا كان تشييدها وتعظيمها يرمز الى النواحي الخيرة الكريمة التي تقترن بأسمائهم وتعبر عن الحق والخير والفضيلة وتكون مثلاً كريماً للأجيال في كل زمان ومكان .

وهو الى صدر علي (ع) كما جاء في رواية ابن سعد وغيره .

وروى الحاكم في المستدرك بسنده الى ام سلمة انها قالت : والذي احلف به ان علياً كان اقرب الناس عهداً برسول الله ومضت تقول : عدنا رسول الله غداة وهو يقول جاء علي جاء علي يكررها مراراً ، فقالت له فاطمة : كأنك بعثته في حاجة ، فلما جاء ظننت ان له اليه حاجة فخرجنا من البيت وقعدنا عند الباب وكنت من ادناهم إليه فأكب عليه رسول الله وجعل يساره ويناجيه ثم قبض رسول الله من يومه ذلك فكان علي اقرب الناس به عهداً .

وكانت وفاته يوم الاثنين كما هو المشهور بين الرواة ، وذهب اكثر الامامية الى ان وفاته كانت يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر .

وقال الكليني انه توفي لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وقيل انها كانت في اليوم الثاني منه وقيل غير ذلك .

لقد اختار النبي الرفيق الأعلى على الخلود في هذه الدنيا التي امتلأت بالفتن والجور والطغيان ، وعلى بقائه بين قوم جاءهم بكل ما يقربهم من الله ويصلح امورهم ويجمعهم على الايمان بإله واحد وشريعة واحدة ، ودعاهم الى الجهاد والعدل ودفع الظلم والبغي وإلى مكارم الأخلاق والرحمة والدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ولكل ما يوفر لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم ، وظل اكثر من عشرين عاماً لم يذق خلالها طعم الراحة ، يجاهد ويناضل لإرساء تلك القيم التي جاء من اجلها ودعا إليها لتصبح ارثاً للأجيال في كل زمان ومكان وفيما هو يكافح ويناضل من اجل مستقبل يزخر بكل معاني الخير والرحمة والمحبة واذا بمستقبلهم القريب يتكشف لديه فيراهم وقد ارتدوا على ادبارهم ورجعوا الى جاهليتهم الأولى ولم ينج منهم الا مثل همل النعم كما جاء في رواية البخاري وغيره من المحدثين .

لقد ناشدهم في مرضه وهو يعاني من آلامه ما لا يطاق ان يكتب لهم كتاباً حتى لا يضلوا من بعده كما اجمعت على ذلك كتب الحديث والتاريخ ، فوصفوا كلامه هذا بالهذيان واللغو فيئس منهم واختار الرفيق الأعلى مع اخوانه النبيين والمرسلين ، ولفظ نفسه الأخير وهو على صدر علي (ع) يناجيه ويلقنه من اسرار الكون وطبيعة الحياة والناس الواناً من الأحداث والأزمات .

وروت عائشة انه مات ورأسه في حجرها ، وسواء اكان هذا ام ذاك ، ام كانت وفاته على فراشه ، فلا يوجب ذلك بمجرده فضلاً لأحد من الناس ما لم يكن مثلاً كريماً للرسول في سيرته واخلاقه وتضحياته .

واتفق المحدثون على ان ابا بكر كان غائباً خارج المدينة حين وفاته ، وان المسلمين حين سمعوا عويل النساء دهشوا لهذا الحادث بعد ان رأوه قبل ساعات قليلة يخرج فيصلي بهم وعلامة الارتياح والشفاء بادية عليه ، فدخل عليه عمر بن الخطاب فكشف عن وجهه وقال : ان رجالاً من المنافقين يزعمون بأن محمداً قد مات ، وانه والله ما مات ولكنه قد ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد ان قالوا بأنه قد مات ووالله ليرجعن رسول الله (ص) كما رجع موسى وليقطعن ايدي وارجل رجال زعموا انه مات ، ولئن بلغني عن رجل من المسلمين يزعم ان محمداً قد مات ضربته بسيفي هذا ، وخرج على الناس شاهراً سيفه يردد مقالته ويهدد ويتوعد .

وفي رواية ابن سعد وابن كثير في البداية والنهاية ان عمر بن الخطاب دخل هو والمغيرة فكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر ما اشد غشي رسول الله ، وقال المغيرة : مات والله رسول الله ، فقال له كذبت ما مات ولكنه ذاهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .

وخرج الى الناس وهم بين باك وباكية ، وجعل يصيح بين الناس ان

محمداً ما مات ولكنه ذهب الى ربه وسيرجع كما رجع موسى بن عمران بعد ان غاب عن قومه اربعين ليلة ، واستمر على ذلك مدة من الوقت يهدد ويتوعد كل من يدعي بأن محمداً قد مات وسرت مقالته بين الناس في وطأة الذهول والدهشة وروج لها اتباعه وغزت اذهان العامة من الناس ، واستطاع بهذا الذكاء الحاد والتفكير البعيد ان يشغل الكثير من الناس عن وفاته والتفكير في خليفته الشرعي من بعده واستمر يهدد ويتوعد وينادي بين الناس بأن محمداً قد غاب وسيعود حتى حضر ابو بكر من منزله المزعوم خارج المدينة وتوفر الجو المناسب لاختيار من يريدون فدخل ابو بكر على النبي وهو على فراش الموت فنظر الى وجهه وخرج الى الناس ، وعمر بن الخطاب ينادي فيهم ان محمداً ما مات ولن يموت ، وابى ان ينصت لكلام ابي بكر اولاً ثم قال ابو بكر : ايها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا على الناس قوله تعالى :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومنْ ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ (آل عمران ١٤٤) وعندها سكت حيث انتهت مهمته .

وجاء في سيرة ابن هشام ان الراوي قال : والله لكأن الناس لم يعلموا بنزول هذه الآية حتى تلاها ابو بكر وفي ذلك دلالة على مدى تأثير مقالته في تلك اللحظات على الجماهير التي اصيبت بالذهول والدهشة لنبأ وفاة الرسول ، فلما نادى عمر بن الخطاب بحياته وانه سيبقى حياً الى ان يظهر دينه على جميع الأديان ، وابن الخطاب ليس بالرجل العادي الذي لا يحسب لكلامه احد فقد استطاع ان يسيطر على عدد كبير من الجماهير التي تنفعل بكل فكرة تعرض لها وتستبد بها المحاكاة والتقليد الأعمى ويسقط العقل وسلطانه ، وبخاصة إذا رافقها بعض المؤثرات كشخصية المتكلم وصرامة رأيه ، والصرامة التي اظهرها ابن الخطاب وهو يتحدث الى

الجماهير المدهوشة ويمنيهم بحياة اعز الناس عليهم تارة ، ويخوفهم بالقتل وتقطيع الأيدي والأرجل إذا لم يقتنعوا بحياته اخرى كان لها اثرها على الذين تتملكهم العاطفة الهائجة في مثل هذه الحالات فيتعلقون بالأوهام لا سيما اذا كان فقيدهم من النوع الذي يجوز عليه ما لا يجوز على سائر الناس .

ان عمر بن الخطاب كان ابعد الناس عن التعلل بمثل هذه الأوهام ، ولم يتردد لحظة واحدة في وفاة النبي ، بل كان منذ ان اشتد به المرض على ثقة بأنه سيلاقي ربه ، ولذا تخلف عن جيش اسامة وحاول ان يحول دون تنفيذ الجيش ، وحينما طلب النبي دواة وقرطاساً ليملي عليهم عهده قال انه ليهجر حسبنا كتاب الله ، وإذا كان معتقداً بأنه لا يموت فما يضره ان يعهد لأي كان من الناس ، ولا معنى لقوله حسبنا كتاب الله إلا ان كتاب الله يكفينا بعد موتك فلا حاجة لنا بكتابك .

ولا اظن احداً يعرف عمر بن الخطاب ، ويحتمل به انه كان ظاناً او معتقداً لما يقول الا بعض اغبياء الشيعة الذين اتهموه بالجهل بأبسط الأمور ، وقالوا بأن من يجهل ذلك فكيف يصلح للخلافة ، وجماعة من السنة الذين قالوا بأنه اصيب بدهشة افقدته وعيه من صدمة النبأ على حد تعابيرهم المتكررة في مقام الاعتذار عنه .

انه كان يعلم هو وغيره من المسلمين ان النبي قد نص على علي بالخلافة اكثر من مرة ، ويعلم ان بعث اسامة في ذلك الوقت بالذات واصرار النبي على تنفيذه على هذا النحو وانكاره عليه وعلى ابي بكر تخلفهما عن الالتحاق بالجيش انما هو ليخلو الجو لعلي (ع) وتتم خلافته في غيابهما بدون منازع ويعلم ايضاً ان الكتاب الذي اراد ان يكتبه لهم لا يعدو ان يكون نصاً قاطعاً على خلافة علي من بعده ، ولذلك عارض وقال كلمته التي من اجلها ترك النبي الكتابة .

لقد خاف بعد وفاة النبي وغياب ابي بكر عن المدينة ان يجتمع الناس على علي في تلك اللحظات ، لا سيما وان اكثرهم كان لا يحتملها لأحد غيره ، فأراد ان يصرف القوم عما هم فيه ويحول تفكيرهم الى ناحية اخرى ويشغلهم بحديث من هذا النوع لينصرفوا فعلاً عن التفكير في البيعة لأحد ، وقد كان عامة المهاجرين والأنصار لا يشكون في ان علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله كما جاء في شرح النهج ج / ٢ ص / ٨ من رواية الزبير بن بكار عن محمد بن اسحاق .

الفصل السادس والعشرون

سقيفة بني ساعدة

لقد اتفق المؤرخون والمحدثون على ان موقف عمر بن الخطاب من وفاة النبي (ص) قد انتهى بحضور ابي بكر وقراءته الآية على الناس ، وقد خرجا معاً من البيت الذي كان النبي جثة هامدة فيه وتركاه لأهله ونسائه ، اما الى اين ذهبا واين اجتمعا وبماذا كانا يخططان فكتب التاريخ والسيرة لم تكشف على وجه التحقيق شيئاً من ذلك .

ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار موقف ابي بكر وعمر وأنصارهما من علي وتصميمهما على صرف الانظار عنه لكثرة الشواهد على ذلك لم يعد لنا بديل عن القول بأنهما خرجا من البيت الذي فيه جثمان النبي لانهاء امر البيعة لأبي بكر ، وان موقف الانصار في سقيفة بني ساعدة كان رداً على موقف شيوخ المهاجرين ، ذلك ان الانصار بعد ان تأكدوا بأن اكثر المهاجرين قد اجتمعوا على ابعاد علي عنها أرادوا ان يبرزوا كطرف آخر لأنهم لا يرون لغير علي (ع) فضلاً وميزة عليهم لأحد من الناس ، لذلك اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة على اختيار سعد بن عبادة الانصاري .

ويؤيد ذلك ما جاء في شرح النهج من رواية الزبير بن بكار ، حيث قال : لما بويع ابو بكر اقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً الى مسجد رسول

الله فلما كان آخر النهار اجتمع قوم من المهاجرين وقوم من الأنصار وتعاقبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا معشر الأنصار انكم وان كنتم اولي فضل ونصر وسابقة ولكن ليس فيكم كأبي بكر وعمر وعلي وابي عبيدة ، فقال زيد بن أرقم : انا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وان منا لسيد الأنصار سعد بن عبادة ، ومَنْ امر الله رسوله ان يقرأه السلام ، وان يأخذ عنه القرآن كأبي بن كعب وفينا من يجيء يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل ، وفينا من امضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت ، وانا لنعلم ان بنين من سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لا ينازعه فيه احد وهو علي بن ابي طالب .

فكلمة زيد بن أرقم الأخيرة وهو من سادة الأنصار صريحة في ان موقف الأنصار من الخلافة لم يكن لولا انهم علموا بأن اكثر المهاجرين ، قد اتفقوا على ابعاد علي عنها ، وهذا مما يرجح ان موقفهم في سقيفة بني ساعدة كان رداً على موقف المهاجرين واتفاقهم على ابعاد علي عنها .

ومجمل الحديث عن سقيفة بني ساعدة وما انتهت اليه كما يروي ذلك ابن هشام عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب ، انه قال لما توفي رسول الله خالفنا الأنصار واجتمعوا مع اشرافهم في سقيفة بني ساعدة ، وكان قد تخلف عنا علي بن ابي طالب والزبير بن العوام ومن معهما واجتمع المهاجرون الى ابي بكر ، فقلت لأبي بكر انطلق بنا الى اخواننا هؤلاء الأنصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان ، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم ، وهما معن بن عدي وعويم بن ساعدة ، وكانا من المتحمسين لأبي بكر كما جاء في شرح النهج عن الواقدي .

وتنص رواية الواقدي على ان معن بن عدي كان يسوق ابا بكر وعمر ومن معهما سوقا الى السقيفة قبل ان تتم البيعة لسعد فيها .

اما رواية عمر بن الخطاب فتقول ان الرجلين قالا : فلا عليكما ان لا

تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا امركم ، قال عمر بن الخطاب فقلت لهما : والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى اتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فاذا بين ظهرانيهم رجل مزمل ، فقلت من هذا : قيل هو سعد بن عبادة .

ولما جلسنا نشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله ، ثم قال : اما بعد فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام ، وانتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم[1] واذا هم يريدون ان يجتازونا من اصلنا ويغصبونا الأمر ومضى عمر بن الخطاب يقول : فلما سكت خطيبهم اردت ان اتكلم وكنت قد زورت[2] في نفسي مقالة قد اعجبتني اريد ان أقولها بين يدي ابي بكر ، وكنت اداري منه بعض الحد .

فقال ابو بكر على رسلك يا عمر فكرهت ان اغضبه ، فتكلم وكان اعلم مني وأوقر فوالله ما ترك من كلمة اعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته او مثلها او افضل منها حتى سكت ، ومضى يقول ان ابا بكر قال يخاطب الأنصار : ان ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له اهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضينا لكم احد الرجلين فبايعوا ايهما شئتم واخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ، ولم اكره شيئاً مما قاله غيرها ، وكان والله ان اقدّم فتضرب عنقي احب الي ان اتأمر على قوم فيهم ابو بكر .

ومضى عمر بن الخطاب يقول : فقال قائل من الأنصار : انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير ، يا معشر قريش فكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت ابسط يدك يا ابا بكر فبسط يده فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار .

---

(١) الدافة هم قوم يسيرون سيراً معقولاً وفي ذلك دلالة على ان حركة الانصار كانت رداً على تكتل جماعة من المهاجرين واتفاقهم على الاستيلاء على السلطة .

(٢) زورت مقالة اي اعددت وهيأت .

وتقف رواية عمر بن الخطاب عند هذا الحد ، ولم تـذكر الا فقـرتين او ثـلاثاً من خـطاب ابي بكـر ، كـما وانها لم تتعـرض لمـوقف الحبـاب بن المنـذر بكـامله ، ولا للحـوار الـذي دار بـين بشـير بن سعـد والحباب بن المنـذر الخزرجي ، ولا لاحتجـاج عمر بن الخطاب على الحباب .

وجـاء في تـاريـخ ابن خلدون وشـرح النهـج ج / ١ ص ١٢٨ ان ابـا بكـروعمر بن الخطاب وابـا عبيدة ، لمـا علموا بـاجتماع الأنصـار توجهـوا الى سقيفة بني ساعدة حيث الأنصار قد ارادوها لـزعيمهم سعد بن عبـادة ، فقال ابـو بكـر : نحن أولياء النبي وعشيـرتـه واحق النـاس بـأمـره ولا نـنـازع في ذلك ، وانتم لكم حق السابقة والنصرة فنحن الأمراء وانتم الوزراء .

وتكلم بعـده الحباب بن المنـذر فأشـاد بالأنصـار ومـواقفهم وجهـادهم ودعـاهم الى التمـاسـك والتـرابط وعـدم التنازل عن حقهم في خـلافـة الـرسول ، ولا اقـل من ان تكون الأمـارة مشتركـة بين المهـاجرين وبينهم من كل فريق امير .

ووقف عمر بن الخطاب ليـرد عليه ، فقـال : هيهات لا يجتمـع سيفان في غمـد واحد والله لا تـرضى العـرب ان تؤمـركم ونبيهـا من غيـركم ، ولا تمنع العرب ان تولي امرهـا من كانت النبـوة منهم ، من ينازعنـا سلطان محمد ونحن اولياؤه وعشيرته .

وعـاد الحبـاب ليتكلم مـرة ثـانيـة ولكن بغـير اللهجـة التي تكلم بهـا اولاً ، فقال مخاطباً الأنصار املكوا ايديكم ولا تسمعـوا مقالـة هذا واصحـابه فيـذهبوا بنصيبكم من هـذا الأمر فـإن ابوا عليكم فـأجلوهم من هـذه البـلاد وانتم احق بهذا الأمر فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدين .

وأضـاف يقول : انـا جذيلهـا المحكـك وعـذيقهـا المـرجب ، والله ان شئتم لنعيـدها جـذعة ، فقـال له عمـر اذن يقتلك الله ، ورد عليـه الحبـاب بالمثل ، وهنـا جاء دور ابي عبيـدة كوسيط بـين الطرفـين في هذا النـزاع الذي

اشـرفت نهايته ان تكـون لمصلحة ابي بكـر ، فقال يـا معشـر الأنصـار : انتم اول من نصر وآزر فلا تكونوا اول من غير وبدل .

وبهـذا الأسلوب الهـادىء ظهـرت بـوادر التفكـك بـين هـذا الحي من الأنصـار ، فقام بشـير بن سعد الخـزرجي وقـال : يـا معشـر الأنصـار الا ان محمـداً من قـريش وقـومـه اولى بـه ، وايم الله لا يـراني الله انـازعهم هـذا الأمر .

وهنا استغل ابو بكر الفرصة وقال للناس بايعوا احـد الرجلين عمـر بن الخطاب وابا عبيدة .

وانتفض عمـر وابو عبيـدة وكأنهما كـارهان لهـذا الأمـر وقـالا معـاذ الله والله لأنت افضـل المهـاجـرين وخليفـة رسـول الله عـلى الصـلاة ابسط يـدك فبسـطها دون تـردد وكأنهم عـلى اتفاق عـلى هذا الأسلوب ، وبـايعاه واسـرع إليه بشير بن سعـد ، وبالـطبع كـانت الأوس تكره استخـلاف سعد وتـود ان يتولاها غيره ، فلما بايعه عمر وابو عبيدة وبشير بن سعد دعـا اسيد بن حـظير قـومه من الأوس ان يسـرعوا الى البيعـة لتكون لهم اليـد الأولى عنـد الخليفـة فـأسرعـوا وتسابق النـاس الى بيعته حتى كـادوا ان يـطأوا سعـداً بـأرجلهم ، وخرجوا يزفونه الى المسجد وعـلي وبنو هـاشم وجماعـة من المهاجـرين وبعض الأنصـار لا يعلمون ممـا جرى شيئـاً لانصرافهم الى تجهيـز الرسـول الى مقـره الأخير .

ويبدو مما اورده ابن هشام في سيرتـه من حديث عمـر عن السقيفة ومـا تم فيهـا ان اجتماع الأنصـار كان رداً عـلى اتفاق جمـاعة من المهـاجرين عـلى الاستيلاء عليها كما ذكرنا .

كما تشير الى ذلك مقالة خطيب الأنصـار ، وقد دفت دافـة من قومكم واذا هم يريدون ان يجتازونا من اصلنا ، وكما يـظهر ايضـاً من مقالـة زيد بن ارقم لعبد الرحمن بن عوف ، انه لو طلبها علي لم ينازعه فيها احد .

ومعنى ذلك ان الأنصار كانوا ملتزمين من جانبهم بحق علي لولا المعارضة ، وبعد ان طلبها غيرهم وجدوا انفسهم احق بها من اولئك الذين ارادوها لأنفسهم .

والشيء الثاني الذي يؤيد ما ذكرناه هو ان دخول ابي بكر وعمر وابي عبيدة الى السقيفة وقول ابي بكر بعد ذلك الحوار الطويل بايعوا احد الرجلين ، واسراع عمر الى بيعته بمجرد ان قال ذلك ، كل ذلك يكشف عن انهم كانوا على اتفاق سابق بينهم على ان يتداولوها ثلاثتهم على التعاقب ، وتشير الى ذلك مقالة عمر بن الخطاب حينما طعنه ابو لؤلؤة لو كان ابو عبيدة حياً ما عدوته .

على ان بيعة ابي بكر على النحو الذي تمت عليه لا تعدو ان تكون تعييناً من عمر بن الخطاب لأبي بكر حينما سمع بشير بن سعد يعترف بها للمهاجرين ، مع العلم ان بشير بن سعد لم يعين احداً منهم ، فأقدم عمر على بيعة ابي بكر وكأن الأمر يعنيه وحده متجاهلاً مئات المهاجرين وبني هاشم وعلى رأسهم علي بن ابي طالب الذين لم يعلموا بشيء مما جرى الا بعد ابرامه والأغرب من كل ذلك ان عمر بن الخطاب قد تذرع لتقديمه عليه بأنه خليفة رسول الله على الصلاة كما جاء في شرح النهج من رواية الطبري ، مع العلم بأن ذلك لم يثبت تاريخياً كما ذكرنا .

ولو افترضناه فإمامة المصلين كان يتعاطاها عامة المسلمين ، وكان النبي (ص) يحثهم عليها ويرغبهم بها ولم يشترط فيها شيئاً اكثر من ان يكون مستوراً وغير متجاهر في المنكرات والمعاصي ، وعند عامة اهل السنة يكفيه ان يكون متجاهراً بالاسلام .

لقد ربط عمر بن الخطاب بين صلاة ابي بكر بالناس وبين استخلافه بعد الرسول وتوليه مقاليد السلطة وتجاهل ما قاله النبي (ص) لعلي يوم الدار : انت اخي ووصيي وخليفتي من بعدي ، وقوله يوم الاحزاب حينما

برز لعمرو بن ود العامري برز الايمان كله إلى الشرك كله ، وقوله في خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله رسوله ويحبه الله ورسوله ، وقوله في غزوة تبوك : انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي ، ولا ينبغي لي ان اذهب إلا وانت خليفتي : وحديث المباهلة ، وقوله في غدير خم : على حشد يزيد عن مائة الف كما جاء في اكثر الروايات من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وحديث الثقلين وغير ذلك من اقواله الكثيرة في مختلف المناسبات التي اتفق عليها الرواة من السنة والشيعة لقد تجاهلها ولم يجد فيها ما يشير ولو إلى اخذ رأيه في الخلافة فضلاً عن استخلافه ووجد في اقدام ابي بكر على الصلاة بالناس في مرض النبي بدون رأيه على احقيته في خلافة المسلمين من بعده وصدق الله حيث يقول :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾ .

تجهيز النبي ودفنه

يكاد يكون من المتفق عليه بين المؤرخين والمحدثين ان علياً (ع) منذ ان دب المرض في جسم النبي كان منصرفاً هو والهاشميين وبعض المهاجرين والأنصار الى تمريض النبي وتجهيزه بعد وفاته واستقبال المعزين والوافدين ، ولم يعلم بما كان يجري لإقصائه عن الخلافة ، وحتى لو كان يعلم بتلك التدابير التي اتخذها القوم لم يكن ليترك النبي (ص) مسجى في بيته جثة هامدة وينصرف للمطالبة بحقه في حين ان كل ما تم لم يكن منتظراً بتلك السرعة الخاطفة

ومن المؤكد انه لم يعلم هو وجماعته من الهاشميين وبعض المهاجرين والأنصار الا بعد ان خرج الناس من السقيفة يزفون ابا بكر الى المسجد ويهتفون باسمه وكلما التقوا بأحد جروه الى المسجد وامروه بالبيعة ، فأصيب الناس في بادىء الأمر بمثل الدهشة التي اصابتهم ساعة وفاة الرسول (ص) .

وجاء في سيرة ابن هشام وغيرها انه لما بويع ابو بكر اقبل الناس على جهاز الرسول وتولى تجهيزه علي بن ابي طالب والعباس وولداه الفضل وقثم بن العباس واسامة بن زيد ، وكان قد رجع من الجرف بمن معه من الجيش المرابط هناك ، وكان شقران مولى رسول الله قد اسنده الى صدره والعباس واولاده يقلبونه معه واسامة يصب الماء عليه وعلي يغسله وعليه قميصه يغسله من وراء الثياب لا يفضي بيده اليه وهو يقول : بأبي انت وامي ما اطيبك حياً وميتاً .

وقال الشيخ المفيد : فلما اراد امير المؤمنين تغسيل النبي استدعى الفضل بن العباس وامره ان يناوله الماء ، فلما فرغ من غسله وتحنيطه تقدم وصلى عليه وحده ولم يشرك معه احداً في الصلاة عليه ، والمسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه ، واين يدفن فخرج اليهم امير المؤمنين وقال لهم ان رسول الله إمامنا حياً وميتاً ، فليدخل عليه فوج بعد فوج فيصلون عليه بغير امام وينصرفون ، وان الله لم يقبض نبياً في مكان الا وقد ارتضاه لرمسه فيه ، واني لدافنه في حجرته التي قبض فيها فلم يعارض احد في ذلك .

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب انه لما صلى عليه علي وبنو هاشم وخرجو دخل المهاجرون ثم الأنصار ثم بقية الناس يصلون عليه بدون امام .

ولما فرغوا من الصلاة عليه انفذ العباس الى ابي عبيدة بن الجراح

وكان يحفر لأهل مكة ويضرح ، وانفذ الى زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة فقيل له احفر لرسول الله فحفر له لحداً ودخل امير المؤمنين والعباس والفضل واسامة بن زيد ليباشروا دفنه فنادت الأنصار من وراء البيت يا علي نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله ان يذهب ، ادخل منا رجلاً يكون لنا به حظ من مواراة رسول الله ، فقال : ليدخل أوس بن خولى وكان بدرياً فاضلاً من بني عوف ، فلما دخل قال له علي انزل القبر فنزل ووضع امير المؤمنين رسول الله على يديه ودلاه في حفرته ، فلما وضعه في حفرته ، قال له اخرج فخرج ونزل علي (ع) فكشف عن وجه رسول الله ووضع خده على الأرض ووجهه الى القبلة ، ثم وضع عليه اللبن واهال عليه التراب ورفع قبره عن وجه الأرض مقدار شبر واحد وقيل اكثر من ذلك بقليل .

واختلفت الروايات في اليوم الذي دفن فيه واكثرها انه كان في الثاني لوفاته ، وفي بعضها ان دفنه كان في آخر ساعة من يوم الثلاثاء .

وجاءت فاطمة (ع) الى القبر ساعة دفنه ، وقالت اطابت نفوسكم ان تحثوا التراب على رسول الله ، واخذت من تراب القبر ووضعته على عينيها وانشأت تقول :

ماذا على من شم تربة احمد ان لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو انها صبت على الأيام عدن لياليا

وغاب في ذلك اليوم عن دنيا الناس وجه ما عرف التاريخ وجهاً اكرم منه ولا رجلاً اعطى البشرية ما اعطاه وترك لها ما ترك ، ولا رجلاً حمل الى العالم مثل تلك الرسالة معجزة الدهور والعصور ، واستطاع ان يهز العالم من اقصاه الى اقصاه منذ الف واربعمائة من السنين حتى يومنا هذا وسيبقى ما بقي التاريخ الرجل الأول في تاريخ الانسانية الذي يهز الجبابرة

والطغاة وملوك الدنيا وحكامها الأشداء .

وستبقى سيرته مصدراً غنياً بمعاني التضحيات في سبيل الحق والعدل والعقيدة والمثل العليا ، وشريعته معجزة الانسان الاولى ما بقيت على وجه الارض أديان وشرائع واناسين .

والله سبحانه هو المسؤول ان يتقبل عملي هذا ويثيبني عليه بثواب العاملين والمجاهدين في سبيله وهو اكرم مسؤول .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

مجمع البيان لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

تفسير الميزان للسيد حسين الطباطبائي

تفسير الكاشف للشيخ محمد جواد مغنية

التفسير الكبير لفخر الدين الرازي

تفسير القرآن للسيد عبد الله شبر

السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام الحميري

السيرة النبوية لمحمد بن اسحاق

السيرة الحلبية لعلي بن برهان

حياة محمد لمحمد حسين هيكل

فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي

محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوي

عظمة الرسول للشيخ محمد الأبرشي

تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري

مروج الذهب للمسعودي

البداية والنهاية لابن كثير

التاريخ	لابن واضح اليعقوبي
تاريخ البشر	للعلامة ابن خلدون
المختصر في اخبار البشر	لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء
تاريخ التمدن الاسلامي	لجرجي زيدان
الإرشاد	لمحمد بن النعمان المعروف بالمفيد
الصحيح	لمحمد بن اسماعيل البخاري
الكافي	لمحمد بن يعقوب الكليني
فضائل الخمسة من الصحاح الستة	للسيد مرتضى الفيروز بادي
المجلد الثاني من اعيان الشيعة	للسيد محسن الأمين
نهاية الأرب في احوال العرب	لشهاب الدين النويري
احكام القرآن	لأحمد بن علي الجصاص
عبقرية محمد	للعقاد
عبقرية الامام علي	للعقاد
اتقان المقال في علم الرجال	للشيخ محمد طه
منهج المقال	للمرزا محمد
تهذيب التهذيب	لابن حجر
الميزال في احوال الرجال	لابن حجر
ميزان الاعتدال في نقد الرجال	لمحمد احمد الذهبي
تاريخ العرب	لهاشم جواد
الغدير	للشيخ عبد الحسين الأميني
تاريخ الخميس	للشيخ محمد الديار بكري
شرح نهج البلاغة	لابن ابي الحديد المعتزلي
المجلد السادس من بحار الأنوار	للجلسي
مجمع البحرين	لفخر الدين الطريحي
الطبقات الكبرى	لمحمد بن سعد

الموضوعات في الآثار والأخبار للمؤلف
دراسات في الكافي
للكليني والصحيح للبخاري للمؤلف

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

